مختارات من مؤلفات

سلوى بكر



١- نونة الشعنونة
٢- مقام عطية
٣- عن الروح التي سرقت
٤- عجين الفلاحة
٥- أرانب
٦- إيقاعات متعاكسة
٧- شعور الأسلاف



بكر، سلوى.
مختارات من مؤلفات سلوى بكر/سلوى بكر. ـ
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.
٥٨٤ ص، ٢٤ سم.
تدمك ٢ ٥٨٨ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص العربية.
(أ) العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب٢٠٩٠٥/٢٠٠٨
I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 588 - 2
ديوى٨١٣

مختارات من مؤلفات

سلوى بكر



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٨

■ الكتاب : المختار من مؤلفات

(نونة الشعونة ـ مقام عطيه ـ عن الروح التى سرقت ـ عجين الفلاحة ـ أرانب ـ إيقاعات معاكسة ـ شعور الأسلاف).

■ المؤلفة : سلوى بكر

■ الطبعة الأولى : ٢٠٠٨م

■ طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

■ الإخراج الفنى: مادلين إيوب

■ الغلاف : أميمة على أحمد

■ خطوط: أوس السنوسى

• نونة الشعنونة •

ما عدا أبيها وأخوتها، والضابط، وزوجته وابنه، لم يعرف نونة، عند سؤال النيابة ، سوى أربعة لا غير، حسنين بائع الخبز، وفتيح البقال، والكواء سالم، ثم الزبال، الذى اكتشف، عند استجوابه أنه لا يعرف ملامحها أبدا، لأنه ـ على حد قوله ـ كان مشغولا دوما بالنظر إلى صفيحة الزبالة، لما كانت تناوله إياها، لإفراغها فى قفته كل صباح.

ولقد تضاربت أقوال الجميع فى مسألة ملامحها، فبينما أكد الضابط أنها ذات أنف أفطس، وفكها العلوى بارز إلى الأمام قليلا، أجابت زوجته النيابة، متسائلة: وهل كانت لها ملامح؟! وأضافت: «كانت بنت شعنونة جدا، وغريبة الأطوار». أما أبوها، فاكتفى بأن قال، وهو يجفف دموعه: «كانت عروسه كالفلة، وبنت ولا كل البنات»، وليثبت للحكومة صدق قوله، أخرج من الجيب الداخلى لجلبابه قرطا ذهبيا صغيرا، له خرزة زرقاء، كان كامل المهر المقدم من العريس، الذى لم تره أبدا.

حتى نونة نفسها، لم تكن تعرف ملامحها جيدا، أكثر مما تعرف أن لابن الضابط شعرا أسود جميلا، كشعر أمه، وأنفا ضخما يشابه أنف أبيه، ماعدا أن أنف الأخير، تتناثر عليه نقاط سوداء صغيرة، لحظتها مرارا، كلما انفعل فزمه وضمه،وهو يهتف بصوت ميت ومخنوق من الضحك، لصاحبه الذى يلاعبه الشطرنج: «كش ملك».

وعلى آية حال، فالبنت نونة، لم تكن تشغلها مسألة شكلها، الذى كانت تراه على صفحات المرايا كثيرا، سواء فى حجرة نوم الضابط وزوجته، أو فى حجرة

الولد، ابنهما، عندما تدخل الحجرتين لتنظفيهما، وترتيبهما، على وجه السرعة، حتى لا يروح الوقت، وتنقضى ساعات المدرسة. لكنها كانت تختطف لحظات سريعة تبحث فيها، من جديد. عن «إنسان العين» الذى لم تصدق أبدا وجوده، مع أن المعلمة أكدت ذلك، مرارًا، وتكرارًا، وككل مرة، كانت تقف على أطراف أصابع قدميها، وتشرئب بقامتها القصيرة وتقترب من المرآة قدر مستطاعها، ثم تجذب جفنيها السفليين بأناملها المتورمة، التى لا تخلو من آثار حروق، وجروح بسيطة، فتبرز مقلتاها، دائرتان سوداوان، حائرتان بالدهشة، بينما تجوس بحثا فيهما، عن ذراعين، أو قدمين، أو أنف، أو رقبة، أو أية أجزاء إنسانية يمكن أن تكون إنسان العين. وعندما تمل وتتعب، وتشعر أن أطراف ساقيها أخذت تؤلمها من جراء هذا الوضع، كانت تهبط على كامل قدميها، وتزم شفتيها بغيظ، مالئة فمها بزفير صدرها، أو تخرج لسانها فى الهواء، وتحركه حركات دائرية متلاحقة، لتعود بعد ذلك مسرعة فتبدأ بترتيب الأسرة. وتعليق الملابس، ووضع الأشياء فى أماكنها المطلوبة.

ولا يمكن إنكار، أن البنت نونة كانت تعتريها رغبة خفية بأن تكون حلوة، وزينة. ليس كزوجة الضابط، التى تحوز من الثياب أشكالا وألوانًا، شيئًا قصيرًا، وشيئًا طويلاً، وشيئًا بأكمام، وشيئًا بلا أكمام، ولكن حلوة كالمعلمة، التى كانت تتخيلها فى صورة ست الحسن والجمال، كلما تناهى إليها صوتها. حيث تقف فى المطبخ، وراء الشباك، صوتها الجميل ، وهى تطلب من البنات الترديد وراءها «أيطلا ظبى وساقا نعامة».

وكانت «أيطلا» تحير نونة جدا فعندما تأخذ فى ترديدها مع البنات، وتستمع لوقع صوتها الحاد المنفرد، يرسم «أيطلا ظبى»، تتوقف قليلا، عن دعك الصحن الذى تغسله فى الحوض ، أو عن تحريك الطبيخ، فى وعائه، على الموقد، ثم تريح ساقها اليمنى على اليسرى قليلا، وتأخذ فى عص إبهامها بتلذذ، وهى تفكر فى حقيقة أيطلا هذا، مسائلة نفسها: هل هو برسيم، أم حلاوة حمصية، أم حمار حصاوى؟!

وتتدافع الصور فى مخيلتها بحثا عن الحقيقة، وعندما تعييها الأسئلة، وتكتشف أن سرسوب الماء قد انساب فى الحوض كثيرا، أو أن الطبيخ غلى بما

يكفى، تعاود عملها، بينما يفجر الغيظ والحيرة، قوة هائلة فى جسدها، فتأخذ فى دعك الصحون وفركها، حتى تبدو لامعة براقة، أو تعيد رص الملاعق والشوكات، فى مواضعها، على نحو أكثر انتظاما، بينما تنغم الكلمات: ساقا.. سا .. قا .. ناعاماتن، وهى تنظر من الشباك المسيج أمامها بأسياخ حديدية، يبدو من خلالها مبنى المدرسة المقابل، والسماء الزرقاء المفتوحة، تظلله، تتصاعد إليها أصوات البنات فى صوت متحد قوى، فتشعر بأنها على وشك الجنون، وتصيح بأعلى ماتملك حنجرتها من قوة معهن:

- وإرخاء سرحان وتقريب تتقل.

وكانت تتوق لمعرفة أسرار أشياء أخرى كثيرة، تسمع بها من هذه الدنيا السحرية المخبوءة عنها وراء الشباك، مثلما تتوق لمعرفة حقيقة «أيطلا»، تلك الدنيا التى تغزوها من مدرسة البنات، بين الحين والحين، فتجعلها تحفظ عن ظهر قلب كلاما غريبا لا تفهمه، جعلها تتمنى أن تجد من يبرد نار قلبها، ويشرح لها معانيه. والحقيقة أنها حاولت معرفة معنى هذا الكلام، فسألت حسنين بائع الخبز عن «أيطلا» فغمز لها بعينه، ورفع حاجبيه بخبث، وحرك إبهامه حركة ذكرتها بنسوان البلد، مما جعلها تشتمه، وتلعن أباه، وسافل سافلين جدوده، لكنها خافت إعادة الكرة مع فتيح البقال بعد ذلك، وقررت سؤال ابن الضابط، لولا ما حدث يوم الجذر التربيعى، الذى جعلها لا تعود إلى التفكير بذلك أبدا. حتى أنها، عندما فاجأتها السيدة، يوم كانت تقلب فى البصل، وتتفرس فيه، بحثا عن كبرتيد الأيدروجين، الذى قالت المعلمة بوجوده فيه، رفضت نونة بشدة إخبارها، بحقيقة الأمر عندما سألتها مستغربة عما تفعله، واكتفت بأن قالت لها أنها تبحث عن شىء غريب فى البصل، مما جعل زوجة الضابط تقول، بمناسبة هذا الموقف، ومواقف أخرى عديدة: أن نونة شعنونة، وغريبة الأطوار، وتصرفاتها غير طبيعية، وتحديدا بعد أن رأتها تنط فى المطبخ، وترفع ساقيها عاليا، وتمدها للأمام، على النحو نفسه، الذى رأت البنات يقمن به، وهن يرتدين السراويل السوداء الطويلة، فى فناء المدرسة الواسع، لقد كانت السيدة تقول ذلك عن نونة، وتضيف كلما جلست بين صديقاتها، خلال الأمسيات، فى صالونها الذهبى الذى تظن نونة أن

عمدة بلدهم نفسه لا يمكن أن يكون قد رأى مثله أن البنت نونة حمارة شغل، ويها قوة تهد جبل، رغم أن عمرها لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة، وأنها لن تطردها من البيت أبدًا، رغم جنونها، خصوصا وأن الشغالات شحت جدا هذه الأيام وبالكاد يمكن الحصول على واحدة منهن.

ومع أن هذا الرأى لم يرق لنونة أبدا، ومع أن السيدة صفعتها مرة على وجهها، بسبب شتمها للولد، وقولها له يا مغفل، إلا أنها لم تكره زوجة الضابط، فهى تعرف أن الصفعة كانت غصبًا عنها، مثلما كان الشتم غصبًا عن نونة، فالولد كان يجلس فى الصالون إياه، مع المدرس، وأمه تجلس قبالتهما تطرقع اللبان، وتحيك الصوف، ونونة كانت داخله، تحمل صينية الشاى، بينما المدرس يسأل الولد عن الجذر التربيعى للخمسة والعشرين، والخائب ينكش أنفه بأصبعه وينظر إلى أمه ببلاهة، ولا يرد، ولما كانت نونة قد سمعت الكثير من المعلمة عن الجذر التربيعى فلم تتمالك نفسها، عندما أجاب الولد فجأة ببرود: ٤، وصاحت منفعلة، كما تصيح المعلمة: «٥ يا مغفل»، مما جعل الصينية توشك على السقوط من يديها، والمدرس يقهقه مبهوتا، والولد يجرى نحوها محاولا ضربها، الا أن أمه كانت أسبق إلى ذلك، حيث همت من مكانها، خوفًا على أكواب الكريستال من الكسر، وصفعت نونة، الصفعة الوحيدة، التى تلقتها منها خلال سنوات اقامتها الثلاث فى هذا البيت، ومع أن السيدة لم تكذب، حين قالت للمدرس أن نونة لابد وأن تكون سمعت ذلك من مدرسة البنات، لأن الشباك فى الشباك، فقد تعلمت نونة آلا تتحدث فى هذه الأمور مع أحد ممن فى البيت أبدًا، حتى لا تفكر السيدة فى طردها، وهى التى ترغب فى البقاء، إلى الأبد، حيث المدرسة والبنات، والعالم الجميل الذى تسمع أصواته كل يوم، من شباك المطبخ، ولا تراه أبدًا، رغم اتقاد النار الحامية المشتعلة فى صدرها، ليل نهار، شوقًا إلى أمها وأخوتها، ورغبة فى الجرى مع العيال، فى الغيطان، وتنسم رائحة الخضرة، والصباح النادى، وشوفة شمس الشموسة، عندما تطلع كل صباح، وسماع نداء أمها لها، عندما تحرد وتغضب ويتغير خاطرها: «نعيمة» يانعومة «تعالى كلى يا كبدى.. يا نور عين أمك».

كانت تحب اسمها الحقيقى «نعيمة»، مثلما تحب تدليلها بنعومة، ولا تجد ظرفا فى اسم نونة، الذى أطلقته عليها السيدة، وناداها به الجميع، منذ وصولها من البلد، إلى هذا البيت، وحتى خروجها منه إلى الأبد، ذلك اليوم الذى لم يعرف أحد بعده أى شىء عن نونة، وكانت حياتها قبله تسير على وتيرتها المعتادة، فلقد صحت كعادتها مبكرة، وابتاعت الخبز، ثم جهزت الفطور للضباط وزوجته وابنه، وناولت الصفيحة للزبال، ودخلت المطبخ، بعد أن ذهبوا جميعا، إلا أن كل شىء فى حياتها بدأ يتغير فى حوالى الرابعة، لما دق الباب وكان القادم أبو سريع، أباها، الذى فجر قنبلته، بعد السلام والمرحبا، والغذاء والشاى، وطمأنتها على أحوال أمها وإخوتها واحدًا واحدًا، والأخذ والعطاء فى الكلام، إذ قال، وهو يتفرس صدرها، وجسدها، ويبتسم مسرورًا، حتى برزت أسنانه السوداء، أنه سيأخذها معه هذه المرة، لأنها ستتزوج، وأراها القرط الذهبى، الذى ابتاعه لها العريس، العائد من بلاد الرسول ﷺ، يحمل من الفلوس ما يكفى لفرش حجرة بحالها، فى بيت أمه، ويزيد أيضا. ساعتها طب قلب نونة عند كعبيها، وأوشكت على البكاء، فطلب منها أبو سريع، وهو يبتسم، لما رأى الدم يهرب من وجهها، ويصبح لونها كلون اللفتة البيضاء، ألا تخاف، فهذا أمر يحدث لكل البنات، ولا ضرر منه، وطلب منها تحضير حالها، لأنهما سيسيران معًا عند، الصباح، ثم قرر يفرحها بالخبر الذى أفرحه فأخبرها أن السيدة سوف تمنحها أجر شهر إضافى كحلوان، وقطعتى قماش لم يدخل فيهما مقص من قبل، وأن أختها الصغرى ستحل محلها فى الخدمة بمشيئة الكريم.

«.. وكل شىء كان طبيعيًا فى هذه الليلة»، هكذا قالت زوجة الضابط للنيابة، ووافقها على ذلك زوجها وابنها، وحتى أبو سريع نفسه، فلقد أعدت نونة العشاء، وغسلت الصحون وقدمت الشاى للولد، وهويذاكر فى حجرته «ولم يكن بها أى شىء يثير الشكوك»، هكذا أضافت، وهو ما حدث بالفعل، مثلما حدث أن نونة باتت الليلة على فراشها، فى المطبخ، دون أن يغفل لها جفن، تحدق بالسقف المظلم، وتنظر حينا صوب الشباك، حيث يقف مبنى المدرسة شامخا خلفه، وتبدو فوقه قطعة سماوية صافية، ترقص فيها النجمات. كانت روحها تدق الهم

وتطجنه، لأنها لا تريد العودة للبلدة مرة أخرى، ولا ترغب العيش وسط الوساخة والبراغيث والناموس مثلما لا ترغب فى الزواج، لتصبح ـ كأخواتها ـ مزروعة فى الغلب. وانسابت الدموع، ليلتها، من عينيها بحورا، وهى ساهرة حتى طلع الفجر، ورأت بعينيها لون السماء الأبيض، وحديد الشباك الأسود، لكنها عندما نادتها السيدة، لتنهض، وتذهب إلى السوق لابتياع الخبز، كان النعاس قد غلبها، وراحت تحلم بالمدرسة والبنات، وابن الضابط، الذى كانت تصفعه ـ فى حلمها ـ صفعات قوية، لأنه لا يعرف الجذر التربيعى للخمسة والعشرين، كما رأت أيطلا، وكان شيئًا جميلاً جدًا، لم تعرف أكان إنسيا أم جنيًا، فقد بدا ذا لون أبيض، بياض ندف القطن، له جناحان بألوان قوس قزح جميلة، تعلقت بهما نونة، فطار أيطلا بها بعيدا، بعيدا، عن المطبخ، والبلد، والناس، حتى صارت فى السماء، ورأت النجمات الذهبيات عن قرب، بل وكادت أن تلامسها.

وذكر الذين رأوا نونة فى صباح ذلك اليوم، أن وجهها كان يحمل تعبيرًا غريبًا، هكذا قال الضابط وزوجته، اللذان أكدا أن نظراتها لم تكن طبيعية أبدًا، عندما ناولته علبة السجائر، وهو يهم بالخروج، وعندما طلبت منها السيدة أن تعدل منديل رأسها قبل أن تذهب لا بتياع الخبز.

كانت زوجة الضابط تقول، وهى تضحك كثيرا، لصاحباتها، بعد أن تحكى لهم قصة نونة، وهى جالسة معهن فى الصالون الكبير: «ألم أقل لكن.. كانت مجنونة، وشعنونة جدا.. لكن أختها.. لا أقدر أن أحدد أمرها بعد»..

- ١ -

أوشكت الأم أن تحرك شفتيها بالسؤال.. غير أن لمعان الدموع فى عينى ابنتها أجابها بالنفى قبل أن تفعل، فجاوبتها بدمعات أكثر منها انداحت على بشرة خديها المخملية الرائقة وهى تقول:

إذًا .. لا فائدة يا نظرى.. لم تأت السحلية أيضا بالرجاء!!

قفزت الابنة من السرير النحاسى بعمدانه الطويلة الأربعة والمزدانة بستائر قصيرة من الدانتيلا الوردية الرقيقة والمنقوشة بصور أطفال صغار لهم أجنحة الملائكة.. ومالت لتخرج من تحته وعاء قديما مملوء بقطع المحوجة الصفراء وناولت أمها بعضا منها وهى تواسيها مهدئة.

- وحياة النبى لا تبكى .. هذا نصيب.. مسحت الأم أنفها بطرف جلبابها الأسود الطويل وراحت تقضم قضمة كبيرة من قطعة الحلوى وقالت:

- ناقصة عسل.

لم ترد الابنة وهى تقول لنفسها: وهل تصنع الحماة شيئا جيدا، وآثرت تغيير الموضوع حتى لا تعطى أمها الفرصة للكلام عن أهل زوجها .. وراحت تحكى لأمها عن الجاموسة التى سيبتاعها زوجها .. وأنها مازالت عندهم فى الدار منذ ثلاثة أيام.. ولا شىء فيها معيب.. ولكنهم سينتظرون أسبوعا كاملا فربما تكون مريضة .. غير أن الأم المنكودة السارحة سألتها فجأة:

أخشى الا يكون زوجك الخائب فعلها كما يجب .. ولم يطلقها في الوقت المناسب. تنهدت الابنة بضيق وحسرة، وراحت تقص عليها كيف أنه فاجأها وهى عارية فى أحضانه بالسحلية التى اندفعت من عود الغاب الطويل حتى لامست رقبتها، وكيف أنها ارتعبت فى تلك اللحظة حتى فقدت القدرة على النطق أو الصراخ .. وحكت لها عنه عندما راح يهدئها ويقرأ لها الصمدية ويكثر الذكر حتى ثابت إلى رشدها وردت فيها الحياة .. ورغم ذلك .. فعندما صار القمر بدرا شعرت بثقل جسمها وآلام ظهرها وتدفق الدم منها كالمعتاد .. بينما كانت تحش البرسيم للبهيمة فى الغيط، مصمصت شفتيها.. وتصعبت وهى تؤمن على حكايتها بأن ذلك أمر الله ولو شاء لأعطاها ما حرمها منه.

سهمت الأم وهى تتأمل ابنتها التى اكتسى وجهها فى تلك اللحظة بغلالة من الحزن العميق، وراحت تفكر فى حالها، لسوف يطلقها زوجها فى يوم ما لا محالة، لن يتزوج عليها بالطبع ، فلا أبيض لديه ولا أسود يمكنه من إعالة امرأتين فى آن واحد .. والرجال كالماء فى الغربال .. وليس للزمن أمان؟!!

قطعت عليها الابنة غيابها مع نفسها بضحكة مفتعلة وهى تقول:

- زوجى رفض أن يعطى أخته الكلوب القديم، ستطق من الغيظ.

لم يكن هناك شىء بقادر على أن يخرج الأم من تفكيرها وإحساسها بالمصيبة التى تعيشها ابنتها فلم تبادلها الكلام وقالت فى اصرار هادئ متجاهلة ما قالته الابنة:

- غدا .. لسوف نذهب إلى الحجر المرصود.. لم يبق لنا الا ذلك.

انقبضت الابنة واعتراها الضيق.. فلقد جربت كل الأمور واتبعت عشرات الطرق ولكن بلا فائدة.. لقد زارت الأطباء والسحرة والمشايخ وسألت العجائز وكادت تموت من الرعب يوم السحلية..

ولكن ما نفع شىء فى نزول الدم خمسة أيام كل شهر.. وما رددت جدران الدار صراخ طفل على مدى عام .. لقد زهقت وليكن ما يكون .. لو راح منها

الرجل فلن تندم فما أخذت منه غير الشقاء بالنهار وقلة الراحة طوال الليل يوقظها وقتما شاء من أحلاها نومة ليضاجعها ويرضى مزاجه حتى لتشعر بأن عظامها ستتفتت فى يوم ما .. ليته يذهب بعيدا عنها بسرعة لتستريح أو ليت الله يتذكره لتصبح هى سيدة الدار وسيدة نفسها .. أو ليتها كانت رجلا من البداية حتى لاتحمل كل تلك الهموم ..

تابعت أمها قولها مقاطعة ما يدور فى داخل الابنة التى راحت تنظر بعيدا عبر النافذة إلى حمامات محلقة فى زرقة السماء الصافية.

- غدا .. ان شاء الله بعد أذان الفجر سنذهب سويًا .. لا تخبرى أحدًا بذلك ولا حتى زوجك .. وإياك ان تحادثى أحدًا طوال الطريق وسآتى أنا بالعيش والملح

- ٢ -

فى فجر اليوم التالى .. بعدما استحمت الابنة متطهرة من فعل زوجها ليلة الأمس تسللت بعدما خرج للصلاة وأسرعت الخطو لتلقى أمها المنتظرة عند نهاية الحقول .. ودون أن تنفرج شفتاها المطبقتان بأدنى همسة، سارتا متجاورتين .. ولا صوت إلا وقع الخطى المختلط بأناشيد الصباح الجماعية التى تنشدها العصافير والديكة وجنادب الليل الساهرة .. وفكرت الأم كيف أنها طرحت عشرة بطون اختار الموت منها أربعة .. وازدهر بالحياة ذكران وأربع أناث .. ينجبون جميعا بمجرد اللمس كالفراشات .. ولكن تلك الصغيرة المسكينة لا تفعل .. زوجها يزعم أنه قادر على إنجاب عشيرة بأكملها وأنه سليم معافى رغم أنه لم يذهب إلى شيخ أو طبيب .. ربما كان معيبًا، ستحاول إجباره على أن يذهب إلى الطبيب .. ستلمح له بأن ابنتها على ما يرام.. وبرأها الأطباء .. سيجن ويغضب ولكنه سيضطر فى النهاية .. ولم لا ؟

كانت المراتان قد اجتازتا الحقول .. وصارتا عند طرف القرية البعيد على مشارف الجبانة .. تورّدت وجنتا الأم بفعل المسير وهواء الفجر الريفى.. بينما راحت ابنتها متلاحقة الأنفاس وهى تسرع الخطى لتواكب حركة أمها النشيطة

كادت أن تنطبق طالبة منها الإبطاء قليلا ريثما تستريح ولكنها تذكرت ضرورة الصمت طوال الطريق وضرورة عودتها قبل زوجها من صلاته بالجامع .. ضغطت على أسنانها وتجلدت وواصلت المسير وتأملت أمها الكبيرة الجدة وهى تسير كبطة سمينة بضة ودعت لها بطول العمر .. فولاها ما عرفت كيفى تسير الحياة ولما استطاعت أن تواجه أهل زوجها طوال تلك المدة.. كان من الممكن أن يأكلوها حية .. أو يمزقوها ويلقوا بها للكلاب .. يالها من أم .. حنانها لا يعوض .. أجل لا يعوض.

- ٣ -

الحجر المرصود .. صلد . بنى .. صغير فى حجم دجاجة .. يبدو من الأرض وحيدا وسط الجبانة .. ولا أحد يدرى من أين تنبت الحشائش الغريبة حوله، ومن أين تستقى ماء حياتها .. وعلى سطحه حفرت بقايا نقوش غريبة لطيور وحيوانات ومفاتيح كمفتاح دوار العمدة الحديدى الكبير.. بعضهم يزعم أنه كبير ضخم ممتد حتى جوف الأرض.. وما أتته عاقر بعيشها وملحها إلا عادت إلى مكانها خصبة ولودًا .. كان صمت الجبانة المخيف والشواهد الكثيرة المتراصة المتقاربة كبيوت القرية الطينية قد أحكم الشعور بالوحشة فى صدر الابنة وزاد من شعورها بالانقباض فخافت وودت أن تعدو راجعة غير أن أمها كانت قد سبقتها ووقفت أمام الحجر حتى لا مسته فصاحت الابنة فجأة من خلفها حتى شهقت الأم رعبًا :

- نسينا العيش والملح.

ضربت الأم صدرها آسفة على النسيان ووقفت مذهولة غير أن الابنة لم تمهلها وأردفت.

- علينا أن نعود بسرعة قبل أن يرجع زوجى إلى الدار.

بدأت رحلة العودة مرة أخرى .. وأسرعت الابنة الخطى إلى الدار وشعرت هذه المرة أنها خفيفة من تحرر من حمل ثقيل .. وفكرت فى ضرورة أن تعزل

الدجاجة السوداء وحدها فى الدار وتظل ترقبها حتى تبيض ولا تتمكن من التهام بيضتها .. ولمعت عيناها بالغضب وأقسمت أنها ستذبحها لو عادت وفعلتها مرة أخرى تلك اللئيمة، بينما أكدت الأم فى حسرة وإصرار قائلة:

- قسمتنا .. ولكن سنذهب إن شاء الله بعد حيضك القادم .. الحجر لا يخيب رجاء.

- ٤ -

بعد شهرين .. ألقت الأم بنفسها على سرير ابنتها متوجعة .. بينما جلست الابنة أمامها وقد اتسعت عيناها بالدهشة وكادت أنفاسها تتوقف من فرط الانفعال والمفاجأة وراحت تضرب صدرها وصوتها يخرج مبحوحا:

- يا حوستى .. فى هذه السن وحبلى .. كانت تلتهمها مشاعر متضاربة من الغيرة والحسد والغضب والسرور، بينما أمها لا تقوى على الكلام من الخجل والشعور بالعار .. وفكرت ماذا تقول لأهل القرية وهى الجدة الوقور ذات الشعر الأبيض كندف القطن .. والتى ما من مشورة تطلب إلا وافتت فيها .. وما من خلاف نشب إلا وفضته.

انداحت على خدها دمعه فبدت كما لو كانت آثمة فى سن العشرين .. وأستها الابنة فى حنان وهمست لها وهى تقبلها:

- مبروك ..

تمتمت الأم وهى تتحسس بطنها فى حركة رغما عنها:

- عقبالك إن شاء الله.

١ - المرأة والولد والكلب

من وسط القبور، حيث يسكن الأحياء فوق الموتى، جاءت المرأة أم الولد صاحب الكلب.

كانت تحمل طبق الصاج الأيض صدىء الحواف، مملوء بحبات الترمس الصفراء، وترمى ببصرها على اتساع المكان لتختار بقعة معشوشبة تقبلها مستقرا .. كأفضل ما يكون الموقع لمرأى الشارين، والولد، ابنها ينتعل بقايا حذاء يسع قدمًا أخرى بجانب كل من قدميه، وراح يتابع سربًا من النمل فى موكب جنائزى لجعران صغير، أما ثالثهم، كلبهم، فلقد مد رأسه إلى أعلى يتشمم الهواء، ويسدد بصره محتجًا على حدأة محلقة فى السماء، تحمل بين مخالبها طيرًا صغيرًا.

جلست المرأة على رقعة مرتفعة، أسفل شجرة كست الأرض بأوراقها الخريفية المتساقطة، وهمست لحالها بعد أن نفذت حتى عظامها هبة ريح باردة:

تباشير شتاء.

٢- المخبر القديم مهموم بالشغل

من الناحية الأخرى للطريق، الذى يفصل مدينة الأحياء عن مدينة الموتى، أتى المخبر القديم يتهادى على العشب، واضعا يده فى جيبه حينا، بارما شاربه حينا آخر، وهو لا يرفع عينيه عن الأرض، بينما ينفخ نفخات طويلة من منخرية فى غيظ، كان يفكر محتارا: من أين يأتى للضابط بخمس قضايا فى ثلاثة أيام،

«خمس قطع فى ثلاثة أيام؟» ـ رددت روحه فى غل ـ اثنين دعارة وواحدة تسول والبقية متنوعة؟ وقال لنفسه أيضا: «أى هرمة أنجبت مثل ذلك الوغد؟! أأدخل يدى فى الجراب لأخرج منه قضايا؟!! أيريد أن يحصل على نجمة جديدة تلمع على كتفيه بأى ثمن؟ وعلى حسابى أنا؟». بصق بصقة طويلة داسها بحذائه الغليظ، وراح يعمل فكره متابعا: التسول والمتنوعة، سيحل أمرها باذن الله، فاليوم أو غدًا لا بد وأن تنشب خناقة فى مكان ما .. ربما بين لاعبى القمار فى قهوة الأسيوطى أو بين المساطيل فى غرزة السمالوطى.. وأكد على ذاته بضرورة الذهاب إلى هناك، عندما يغطس المساء، وكذلك المرور على خمارة الشوام فالأمر لن يخلو من شىء.

وقال المخبر القديم لنفسه أيضا: «يعرف ابن اللئيمة أن الدعارة شحت هذه الأيام فى الدراسة، شح الورق الأخضر، وبصق مرة أخرى لاعنًا بنات الدراسة، اللواتى هاجرن للعجوزة والمهندسين، والخواجات، والعرب والشقق المفروشة».

هبت الريح، فرفع ياقة معطفه الخشن حتى لامست أطرافها أذنيه، ودس يده فى جيبه باحثا عن الفص، وعندما شعر بخشخشة ورق السلوفان بين أصابعه.. سار.

٣- المخبر القديم يسامر المرأة أم الولد

عندما اقترب من مجلسها على العشب، همس بارتياح من وجد «لقية»، وألقى عليها تحية المساء، فبشت فى وجهه على حذر.

عندها .. كانت الشمس تنسحب راحلة فى الأفق، تاركة بقية من نورها وحيدا يحيل الكائنات إلى أشباح منذرا ببدايات المساء، صرخ النبض بعروض الجالسة على العشب معلنا الخطر .. كان ذلك واضحًا فى نبرات صوتها عندما ردت على المخبر تحية المساء. لف المخبر القديم سيجارته فى تؤدة، بعد أن مزق الفص بأسنانه قطعا صغيرة، وخلطها بتبغ السيجارة، وراح يشعلها ويتابع ببصره سريان اللهب بعوده المشتعل بين أصابعه حتى أنطفأ فرماه.

لقد امتص أنفاسها طويلة وزعها بين صدره وحلقه، وردها من منخريه فى الفراغ الفسيح، وهتف وهو يناولها لها: مساء الخير.

زاد الخوف أكثر فى قلب المرأة أم الولد، وهى تسحب أنفاسا صغيرة، متقطعة من بين شفتيها الرفيعتين، وقالت لحالها: «هل يأتى مثل هذا الرجل بالخير؟». كان الدخان قد أخذ يشحن روحها، ففتحت عينيها عن آخرهما، حتى تقاربت المقل السوداء أكثر مما كانت عليه، وبدت عظمة أنفها الكبيرة كجدار فاصل بينهما، أما المخبر القديم فقال لنفسه أيضا: «آه لو لم تكن حولاء .. صفراء.. لكُنت سددت بها الدعارة.. ولكن هذه اللبوة.. لماذا لا تسمن قليلا، لا يمكن أن تصلح بحالتها هذه للدعارة، فلن يقتنع بها ذاك الجالس على مكتبه هناك، فهى لا تسعف ملهوفا ولاتروى عطشانا، ليكن.. تسول وأمرى إلى الله».

أما هى فقد تشاغلت بالجرى وراء ورقة صفراء، ملقاة على العشب الناحل، جذبها الهواء بعيداً، وعادت لتصنع منها قرطاسًا جديداً، ضمته لقراطيسها الأخرى، وفكرت ثانية وهى تقول لحالها:

– آه لو كان لى رجل مثل هذا «الصول»... يعود لى بالراتب فى طلعة كل شهر، وأخلف له من العيال تسعة، يطلع فيهم التاجر والسباك والنيشانجى، وأظل معه مثلما النساء بالبيوت .. أحادث الجارات كل صباح، وأطبخ عند الظهر وأبيت على فراش مريح فى المساء.

وقالت لروحها أيضًا..

– ولكنى أعرف لماذا يأتى الآن ابن اللئيمة هذا .. لسوف أريه فى هذه المرة من أكون.

أما هو – المخبر القديم – فغمغم متحدثًا إليها بالشكوى من بين أضراسه، وراح يسترد منها السيجارة التى قارب نصفها على الانتهاء وهو يقول:

الدنيا انقلب حالها يا أختى هذه الأيام، أقول لك انقلب حالها، والعوض على الله الغلاء فى الطالع.. والمضروب الجالس أمام مكتبة فى القسم، يظن أننى قادر على شق الأرض لتخرج بطيخًا. وأننى أستطيع قطف النجمة، التى يريدها على كتفه من السماء.

وقال أيضا.

- أيتصور ذلك المجنون أننى أستطيع الاقتراب من شحاذى الحسين؟ والله لا يمكن أن أفعل ذلك، طالما هم يدفعون بانتظام ويتدر معقول.. لست نذلا يا أختى. لا يمكن أن أفعل ذلك. أنهى كلامه، وبعدها سحب النفس الخير من السيجارة، التى كانت قد انتهت وانطفأت وراح ينظر إليها عله يستشف ملامح موقف لها، ولكن المقل السود التى تصب دائمًا بنفس الاتجاه، وضعت بينه وبين ما يدور بداخلها حائلا سميكا، فاغتاظ وراح يحك أنفه.

أخيرا همست أم الولد فى رزانة تاجرة:

- اسمع .. ربما توفق فى مرادك..

قاطعها بكاء الصغير المغتاظ من مذاق الطين الطرى، الذى حشا به شدقيه ولم يرقه، فأخذ يلفظه مختلطًا بلعابه، فأخذت تضحك حتى مالت على ظهرها، وناولته بضع حبات ترمس قائلة:

- يا ابن الإيه!!!

عندئذ .. مد المخبر القديم يده إلى جيبه، وأخرج قطعة النوجه وألقى بها للولد حتى يسكت.

فقالت هى والدموع تغر من عينيها من فرط الضحك:

- خير إن شاء الله!!

- خير يا أختى.

رد المخبر بعد أن افتعل ابتسامة على شفتيه وأضاف:

- لو جئت هذه المرة سآتيك بالعشاء بنفسى.. وستكونين آخر تمام .. هذه المرة .. ليلة واحدة فقط .. تخرجين بعدها لعدم ثبوت الأدلة، وكما فى المرة السابقة سيكون حسابنا .. ولكن العشاء .. سآتيك به. وفى حجرها ألقى بنصف الجنيه.

أما هى فكانت قد حسبت حسبتها .. فلن يضحك عليها هذه النوبة أبدا، وهى لن تتنازل عن قمطة حمراء «بالترتر» ورغيف لحم من «المسمط» وهذا يكلف جنيها وربع، وخمسون قرشا فى يدها لعوادى الزمان.. لن تتنازل عن الخمسين فى يدها مهما حاول .. حتى لو أخذها بالقوة. هكذا كان كلامها مع نفسها. أما معه فـان الكلام:

- صلى على النبى يا حضرة الصول، المرة الأولى ظلمتنى .. أى والله ظلمتنى، وأنا لم أعد أطيق.. والغلاء صار على الجميع، ما ينفع هذه النوبة إلا الجنيهان الا ربع .. هذا بالعدل والحلال. أتصدق وتؤمن بالله .. النوبة الماضية رجعت من التخشيبة وعضمى يكاد يتكسر من نوم البلاط .. لن أستطيع هذه النوبة إلا بالجنيهان إلا ربع وغلاوة ابنى..

سعل المخبر وزام، ووضع ساقًا على ساق، ونظر إلى حبات الترمس والمرأة والولد والكلب، وتمنى لو أشعل نارا هائلة وألقى بهم جميعا فيها، وجاء بالضابط ووضعه فوقهم، قطب جبينه وسدد للمرأة نظرات نافذة وقال:

- أصبحت ماكرة يا أم محمد .. والله صرت ماكرة، وملأ الطمع قلبك.. لقد قلت لك سآتيك بالعشاء.. والله سآتيك بالعشاء..

أطرقت للأرض ومسحت أنفها بطرف طرحتها وسكتت قليلا ثم أردفت بهدوء:

- يفتح الله يا حضرة الصول.

ضحك الولد فى سعادة وهو يمتطى الكلب، ويشده من ذيل، وراح يصيح على أمه لتراه فى هذا الوضع، أما المخبر فقام من مكانه ومد يده إلى جيبه، وأخرج الجنيه، وأمسك بيد المرأة ووضعه فيها وأطبق عليها جيدًا. وهو يقول:

- غدا نلتقى فى المساء.

نظرت المرأة إلى ورقة النقد التى بيدها وعندما اطمأنت أنها جنيه كامل همست وهى تبتسم:

- لا تنس إحضار رغيف من المسمط معك!!

- ١ -

أقاوم النوم، وأقاوم الصحو أيضا، لا أريد أن أستمر فى الحالة الأولى، ولكن ما الذى يشجع على العودة مرة أخرى، لهذا الجنون، وتلك الغرابة المحيطة بى، والتى علىَّ ابتلاعها.. كل يوم.. كل يوم، لمجرد أنى لست نائمة؟، ثم إن هذا الصباح، هو صباح أول أيام العيد الصغير وهذا معناه أنى لن أذهب إلى عملى فى ميدان التحرير، وسأستريح لمدة ثلاثة أيام من مصائب المواصلات، ورائحة أنفاس «الكمسارى» المشبعة ببخار البصل والفول، ولن أرى مبنى «الانتكخانة» الوسخ، وخازوق المدينة المسمى بالبرج، وإعلان «شويبس»، وأشياء أخرى، كثيرة ومجنونة. كدت أصفق بيدى وأهتف: «يالها من لذة.. ما أجمل العيد»، لكن همس أمى المختلط بصراخ أبناء أختى، الصغار، كان أسرع من حركتى وأنا أحاول التقلب وفرد ساقىَّ إلى أبعد حدودهما.

قالت بصوتها المقهور المستجير دومًا:

- سليم عندنا وغرضه يشوفك.

- آه .. سليم!!

قلت دون شعور بوقع صوتى، وأغمضت عينى المفتوحتين قليلا، وأنا أتلمس غيبوبة، تساعدنى على لا أفيق.

- ٢ -

فى السكة للحلم... لاحقتنى رائحة الشاى بالحليب، مختلطة، بألوان زهور البازلاء الشفيفة، «البمبى» بلون كعبى جدتى أم حسن، والبنفسجى، ثم الأحمر الشفقى، نوار اللارنج الأبيض، الذى كنت أظنه زمان، عصافير مسحورة، ستنتفض وتطير عندما يأتى الربيع وسليم على الدراجة، أجلس أمامه وأرن جرسها المكور الكبير، نمر أمام بوابة قصر «البرنس»، ومن خلال فتحات حديدها المضفور يبهرنى مهرجان اللون، فى الحديقة الممتدة، بعد أن نعبر على بعور البرسيم الخضراء، وحبات الندى مازالت تتأرجح علىّ بأوراقها، أستدير، أمسكه من ذقنه الخشنة، وأنظر للمدى وأقول له:

- سليم - هات لى وردة حمراء من عند البرنس

- لما نرجع.

وحياتك يا سليم.

- لا .. مستعجلين، و«البوستة» لازم نلحقها قبل ما تقفل.

أصرخ .. أفتعل البكاء، حتى تتطاير دموعى وتسقط على كفيه الممسكتين بالمقود، ويبرز شريط هلامى لزج من فتحتى أنفى، وأنا أضرب بقدمى على سيور الدراجة الرفيعة، فيزفز بغيظ، وهو يمسح أنفى بطرف جلبابه، ويقسم، بأنه لن يأخذنى معه فى أى مشوار آخر بعد الآن، مهما توسلت إليه، بينما يتوقف وينزل وينزلنى معه، ويدلف إلى البوابة والكلاب المخيفة المربوطة فى الأشجار العالية، تنبح عليه، وينادى على عم حسين البواب، وعندما يراه، يبتسم ويقول له:

- وحياتك يا عم حسين.. صحبة ورد حلوة لنوسة.

- ٣ -

تململت، وحركت يدى، متحسسة رقبتى، اصطدم الخاتم ذو الكرة الزجاجية التى تعكس ألوان الطيف، والمثبت بخنصرى، بتميمة سلسلة صدرى الفضية،

فتصاعد صوت سحرى قديم من قاع الذاكرة، واختلط برنين ملاعق الشاى، اللاهثة فى الأقداح الصينية، الذى تناهى إلى أذنى، من الردهة حيث كانت أمى تجلس مع سليم، ثم علا إيقاع مشترك، ملأ رأسى وروحى كلها، تجسدت تهويماته فى الرنين المرح، لجلاجل حصان ابن العمدة النحاسية البراقة، وخلاخيل «نافلة» الفضية، المزينة لعرقوبيها وزنديها، والقرط ذو الخرزة الزرقاء المتدلى من أنفها.

وفجأ جاءتنى صورة «نافلة» كاملة.. «نافلة» غريمتى.. «نافلة» التى عذبتنى، عذاب الروح الأول، «نافلة» التى كنت أغار منها تلك الغيرة، التى كانت تجعل صدرى يعلو ويهبط وأنفاسى تلاحق وتختنق، وأرغب فى الموت فعلاً، «نافلة» الضفائر الحريرية السوداء، والشعر المفروق من الوسط، والمزين بقلائد الخرز الزاهية، وقماطها الأحمر الدامى يطوق الخصر.

- سليم .. طالع للسوق وحدك؟

- لا .. تعالى نروح «لنافلة»، النعجة ولدت، ونسأل عن الكبش.

جدك ناوى يفدى فى العيد.. تعالى..

يقول، وأنا أقول: «نسميه سعيد، نسمى الكبش سعيد.. ويكون لونه أسود.. ورأسه أبيض».

ونذهب إليها، حيث تخرج لنا من الخيمة، والغنمات تثغو حولها، بينما الشاى يغلى، على وقدة الخشب وهى تصبه وترنو إلى سليم بنظرات ترتعش لها أهدابه ويتحرك فكه معها وتلتمع حبات عرق خفيفة تستقر بملتقى عقفة حاجيبة، بينما قلبى يدق فى خوف غريب، وعندما تمد يدها له بكأس الشاى، يتملكنى شعور خفى، بأن أنتزعه منها وأقدمه له، تطحن الشعير بين حجرى «الرحاية» الثقيلتين، وتهمس مبتسمة، كاشفة عن أسنانها الوضاءة قائلة «كيفك يا سليم»، أقترب منه.. وأفرد له ذراعى وأقبله فى كتفه، أقول.

- شيلنى يا سليم.

وفى الدار، بعد أن نعود، تسألنى أمى عن حال «نافلة».. فأجيبها فى حنق:

- «نافلة» دمها ثقيل.

الأغانى سخيفة، وتفتعل البهجة، لماذا لا يذيعون طيلة اليوم، «مصر التى فى خاطرى»، أو «أمانة عليك أمانة يا مسافر بور سعيد»، و «راديو بلدنا يذيع اخبار»، لماذ يطاردوننا ويتعقبوننا حتى ونحن فى الأسرة، ويحاصروننا بتلك السخافات المسماة أغنيات؟، كنت أهمس لنفسى بذلك، وأحاول النهوض ضاربة اللحاف بقدمى، بينما أتمطى فى تلذذ، ولكن الأنوار الكثيرة، تهاجمنى هى أيضا، تتلألأ فى رأسى الثقيل، وعينى المغلقتين.. ورائحة عطرها الثقيل النفاذ، وأعلام المملكة باللون الأخضر والنجوم البيضاء الثلاثة، يحتضنها الهلال، تتناثر فى فوضى على الحبال المعلقة بالحوارى والأزقة.

ثريد أمى فى «الأنجر» المجلى لتوه عند مبيض النحاس، تكلله قطع اللحم المسلوق.. لحم سعيد المذبوح، سعيد الذى أحببته حبًا كثيرًا، كان ينظر إلى كلما قبلته بحزن.. بكيته بحرقة، عندما طالعته صريعًا يفور دمه على الأرض، دمه الذى غمست فيه كفى مرارا ورسمتها على الحوائط الطينية لغرفة الذبيح، بينما تتشهد أمى، ويتشهد خالى.. وأقول وراءهما بعد ذلك مع أخوتى كلهم.. لا حول ولا قوة الا بالله، و .. ألف ألف صلاة على النبى، وسليم معه نصف الريال الفضى المحلى بصورة مليكنا المفدى، حتى يشترى «الجاز» للقناديل ولفة الشمع للمقام، وأمى تمسح أنفى جيدا بالمنديل قبل الذهاب وتقول.

- أوعى البنت يا سليم.. إياك تأكل حاجة وسخة، وإياك «السوبيا» والنبى.

وندور سويا فى الزحام .. حارات وأزقة.. ورجال ونسوان وعيال، فى ملابس جديدة ملونة، وزمامير وطراطير، وترمس وحمص، وبليلة سخنة واقماع سكر وجلاب، وقبل أن نصل إلى المقام، حيث الحصير على الأرض والعمة الحريرية الخضراء، تعلو التابوت الضخم، ألمح بائع السوبيا، وأباريقه الزجاجية الزرقاء، مصطفة على حافة العربة، تبرز من خلالها الأطراف الطويلة المعقوفة، فأدب على الأرض بقدمى، وأشد سليم من طرف جلبابه البنى، وأقترب منه حتى ألامسه وأصرخ:

- سوبيا يا سليم .. أشرب سوبيا يا سليم...

- لا .. أمك وصيتها لا .. ممنوع.

أهدده بأن أجلس على الأرض، حتى يتسخ فستانى الجديد، ويتلوث بالتراب، أنتحب بصدق.. وأشد الشريط الأحمر المعقود فى شعرى بغيظ، وأتحسس يده فى رجاء، فيذعن ويحن قلبه ويقول:

- طيب .. بعد ما نزور المقام .. ونقرأ الفاتحة.

- لا .. الأول يا سليم .. عطشانه موت .. وحياة نوسة عندك يا سليم.

وبينما ترطب حلقى، قطرات السوبيا المثلجة، التى أرتشفها من العنق الزجاجى للإبريق.. أنظر إليه فى امتنان قائلة:

- ٥ -

- أنا أحبك يا سليم.

أولاد أختى الثلاثة، اشتركوا فى اللعبة الوسخة، التى بدأها الشارع بضجيجه، وأعلنوا الحرب على الهدوء، صياح وبمبم وزمامير، والمسدسات أيضا موجودة، بكافة أنواعها .. مائية، ومثيرة للدخان، وأمى سعيدة جدا، بهذا الهجوم الهكسوسى، وتعبر عن فرحها بهذا القطيع الطفولى فى عبارات من نوع «اسكت يا مضروب، أوعى تضيع فلوسك كلها على المراجيح، اشرب اللبن الأول، وانزل الشارع». قمت للاغتسال، وأمام المجلى أغمضت عينى قليلا، لأتفادى حرقة فقاعات الصابون، وبينما كنت أزيل الماء عن وجهى، دق قلبى، ترى، كيف صار شكل سليم الآن؟ ، منذ أكثر من عشرين عاما، لم أره .. آخر مرة كانت ليلة زفافه لنافلة.. أول فجيعة للقلب أيام الزمن الجميل، كنت يومها فى السابعة، وهو .. لا أدرى عمره على وجه التحديد، كان كبيرا .. وجميلا جدا فى عينى، بل كان أجمل من أمى نفسها، أغلى من روحى «هارون». بكل فروه الأصفر الجميل، وشواربه اللطيفة. يومها غسلتنى أمى وعندما أخذت تجفف جسمى، وتلبسنى الملابس

النظيفة، وتغنى «قلعتك حرز.. ولبستك اثنين، ستنا فاطمة، لبست الحسن والحسين، حرز للنهار يانوسة، وحرز لليل». قبلتها وسألتها:

- أنت عاملة لى فستان جديد ليه؟

- فرح سليم الليلة.

قالت، مما جعلنى أنظر فى عينيها بدهشة وأهتف:

- أنا حتجوز سليم النهاردة؟

ضحكت أمى، ضحكة صافية مجلجلة، رنت فى أنحاء الحمام، وأخذت تقبلنى فى سعادة، وأبى يطل برأسه من باب الحمام الموارب متسائلا فى دهشة عن سبب الضحك وعلو الصوت وقالت:

- يارب أعيش وأشوفك يا نوستى عروسة، سليم ناوى يزف «نافلة» الليلة.

أما المساء، فكان فى «المويلحة» حيث الأرض الفضاء الواسعة بطرف البلدة، جمعت كل البيوت، وكل الناس، ورحت أنا مع أمى وأبى وجدى وأخوالى، واصطف العرب صفين، ورقصوا بالخناجر، وغنوا، ورقصت «نافلة» ، هزت رأسها مطوحة ضفائرها، وحركت مؤخرتها.. كانت رائعة فى ضوء القمر، وكان فى حلقى سد هائل من الآلام، وغنى الرجال أغنيات سريعة لم أفهمها، وجلجلت زغاريد نساء الفلاحين، مع دقات البدو، وسال دم خراف كثيرة - ذكرتنى بسعد - تحت أقدام العروسين المخصبة بالحناء، وكنت أنظر إلى ذلك الاحتفال الغريب، تتقاسمنى مشاعر الخوف والفرح ، وأحس أن سليما تغير، وضاع منى ، سرقته «نافلة» الغادرة وكانت تتعالى الإيقاعات فأبتهج، وأحاول تحريك قدمى، وهز مؤخرتى، كما يفعل الجميع، وتفعل «نافلة»، وحاولت الاقتراب من سليم، لأريه نفسى وأنا أرقص، فكان يضحك، ويمسح بيده على شعرى وهو مستمر فى الرقص، وأمى تبتسم من بعيد أيضا.

ويمر الكروان منشداً فى السماء الصافية. لك لك .. لك .. لك، لك، فيتهلل الجميع ويكبرون، أما أنا فتمنيت أن يأخذنى الكروان بعيداً معه، ولا يعرف سليم طريقى، ويتعذب ويبكى، ويبحث فى كل مكان عن نوسة حبيبة قلبه، ونور عينيه.

وعند عودتنا للبيت، بكيت، واحتضنت هارون، ورحت أشكو له سليما ولكن اللعين انشغل عنى بمطاردة فراشة، حومت حول المصباح، وقفز خارجًا وتركنى وحيدة لأنعس وتدور فى رأسى الصور، «نافلة» بثوبها المطرز بالخيوط الحريرية الملونة، ودم الخراف الحار وهو يرسم أشجارًا حمراء موحشة بين أتربة «الموليحة»، وأيادى الرجال والنساء والأولاد المخصبة به، وهى تنطبع على الجدران الطينية، وأمى تدس فى يد «نافلة» القرط الذهبى، الذى ابتاعته كهدية لها، وكانت آخر صورة رأيتها فى الحقيقة، قبل أن أغيب فى النوم، الجناحين الذهبيين المفتوحين حتى النهاية، والخرزة الزرقاء فى صدر الطائر، وهى تكبر وتتضخم حتى ملأت كل عينى، وعندما كبرت أكثر وذهبت إلى المدرسة رأيت الصورة نفسها مرسومة فى كتاب التاريخ، وعرفت أنه حوريس.. المخلص الحبيب حوريس.

-٦-

- سليم ..؟!

قلتها، طويلة . متسائلة .. تحمل الفرح والدهشة، كادت أن تسقط من يده كأس الشاى، فسارع بوضعه على الصينية واحتوانى بين ذراعيه، وراح يربت على ظهرى، شعرت بالدفء القديم فى رائحة الأرض المبللة بحبات المطر ونحن نجرى تحتها فى الشتاء، عائدين إلى البلد، مثلما شعرت برائحة «حنون» البيض وهو خارج من الفرن، وطقطقة أكواز الذرة، المشوية فى الليل.

- سليم .. كده تتسانا؟!

قلت .. بعد هدوء العاصفة: دموع على خد أمى، وارتعاش فى أطراف سليم، وحمرة خجل شعرت بها تلفح صفحة وجهى.

- كبرت يانوسة .. سبحان الله!!

تصعبت أمى وهى تمسح دموعها .. وقالت :

- الزمن!!

حكى، وحكت أمى، وأنا أتفرس وجهه، ووجهها .. «سليم روح قلبى ونور عينى». هكذا كنت أقول له وأناديه، الآن صار وجها بجلد متراخ على العظم، وشيبا يتلألأ بأضواء الفضة.. تذكرت ألف ليلة وليلة «الشيب نذير الموت»، واكتشفت أن أمى صارت عجوزًا أيضًا، تحسست وجهى بيدى، رغمًا عنى، وهو يحكى وأمى ترد بكلام سمعت بعضه، ولم أسمع البعض الآخر، تناول الذين عاشوا، والذين ماتوا، كما تناول أولاده الخمسة، الصبيان والبنات، وحكى عن الكبير الذى ذهب إلى البلاد العربية، وعاد بالجوز واللوز، وقمر الدين، وأصبح يمتلك متجرًا وسيارة، والصغير، الذى يرتدى السراويل الزرقاء الضيقة، المحبوكة على جسده، وينفش شعره كالعبيد، ولاحظت أن سليم - يرتدى فى معصمه ساعة كبيرة، ويرتدى جلبابًا حريريًا أبيض، ولكنى لم ألمح فى عينيه أبدا بريق السعادة القديم. كانت عيناه باهتتين بلا طعم ردت نظراته بذلك على أمى عندما قالت:

- الحياة صارت بلا طعم يا سليم .. والناس لم تعد ناس .. أتتذكر يا سليم عندما كنا فى شم النسيم، نلون مائة وخمسين بيضة كاملة ونتبارى جميعًا فى أكلها .. لم يكن للأشياء ثمن وقتها، تنهد وأشعل سيجارة، سعل بعدها قليلا وأمن على كلام أمى قائلا:

- الناس جاعت فى الزمن الملعون هذا .. وأولاد الحرام لم يتركوا شيئا لأولاد الحلال، تصورى.. عيال سعدون الحاوى، صار عندهم الآن عمارات؟. ناس تقول مخدرات، وناس تقول الشقق المفروشة، وشغل الحرام .. والله أعلم.

أنا أيضا أشعر بأن الدنيا بلا طعم .. حياتى، وحياة الناس كلها، أقرأ ذلك، وأنا أطل على وجهى فى المرآة كل صباح، وأراه على وجوه الناس فى الشوارع، وعلى محطات «المترو، و«الأتوبيس»، ويقوله زملائى فى العمل، بالزفرات والتصعبات والآهات.. ومنذ زمن لم أسمع ضحكة حقيقية، ضحكها أحد من القلب، ورغم أن اليوم عيد، وأمى صنعت الكعك، وغطت المائدة بغطاء جديد، وابتاعت زهورا وحلوى، لا أشعر أن أحدًا قد فرح هذا الصباح، طلقات البمب لم يعد لها هذا الدوى الطفولى فى أذنى، الشوارع قذرة، والوجوه يعلوها الاصفرار، والخضرة صارت شيئًا نادرًا، والمواصلات جحيم دائم، والناس لم يعودوا يحب

بعضهم بعضا .. هكذا قلت لسليم عندما سألنى لماذا لم أتزوج حتى الآن، وأمي تضحك بمرارة وتذكرنى بحبى لسليم، ونوادرى معه، ولأنها خافت من غضبى بسبب سؤاله، راحت تغير اتجاه الكلام وذكرتنا عندما ذهب سليم إلى الحرب، وكنت أنا أصنع بنادق من الخشب ومشابك الغسيل مع البنات والأولاد فى حارتنا، ونستخدم نوى البلح كبارود ، نحارب به الإنجليز والفرنسيين واليهود، ونهتف بأعلى ما تمتلك حناجرنا الصغيرة من أصوات: عاشت بور سعيد المجيدة.

وتذكرت أنا مع ذكرياتها أشياء أخرى كثيرة.. أيام حبى لسليم، وحبى لعادل ابن الجيران. الذى كان يصر على تقبيل ركبتى المجروحة.. عندما أقع ونحن نجرى، ويقول لى: «طابت خلاص»، وأصدق أنا رغم لونها الدامى، ونيران الألم المتصاعدة منها.

وحكى سليم أيضا عن همومه: حفيده لا يعرف من الزعيم سعد، ولم يسمع عن دانشوى، وقال أن السبب هو الكفر ، فهو يتعلم فى مدارس كفره، وسب اليهود العرايا الذين يتجولون فى البلد براحتهم، وقال إن بخلهم جعلهم يسيرون هكذا لأجل توفير مترى قماش، ولما سألته عن «نافلة» بكى، وبكت أمى أيضا بسبب أخى الذى هاجر إلى كندا، والذى تخشى أن تموت دون أن تراه، ودمعت عيناى من الهم الذى يثقل صدرى، وقلت فى نفسى الجميع يبكى بداخله، ولكنه ينتظر إشارة البدء من الآخرين ليطلق دموعه، وتذكرت كيف بكى الناس فى جنازة عبد الحليم وأم كلثوم، وكادوا أن يخطفوا نعش رشدى أباظة، رغم أن نصفهم لم يقدر له الذهاب إلى السينما طوال حياته. تنهدنا جميعا .. وقال هو:

- سرقنا الوقت.

نهض من مكانه تشبثت به أمى حتى يظل معنا للغداء - ولكنه كان مشغولا - هكذا قال، وكنا مشغولين أيضًا، ولكننا كنا نجامله .. أجل نجامله، رغم حبنا له الذى يعرفه، مثلما يعرف أنه لا يرغب فى أن يثقل علينا بطعامه.

ابتسم بطيبة .. ومر بيده على خدى، وقالت أمى:

- عيدها يا سليم .. الدنيا تلاهى صحيح .. لكن العشرة لها حق.

وعدنا بأن يعود ليرينا أحفاده الحلوين .. لكنه لم يعد أبدا.

كانت أغرب فتاة فى فرقتنا، بل ربما فى الصف الثانى على الإطلاق، من حيث الشكل، قصيرة، نحيلة، ببشرة لفتية بيضاء تبدو معها كما لو كانت منتشلة لتوها من الغرق، أو كأنها على وشك الاحتضار أما أنفها الطويل المعقوف فيشطر وجهها شطرين ممصوصين، تبرز منهما خرزتان خضراوان. كانتا عينيها.

كانت تمتلك قدرة خاصة على الصمت وعدم الحركة والابتعاد عنا، بل وحتى عن أقرب جارة لها تشاطرها المقعد المدرسى نفسه، ولولا مهارتها الشديدة فى مادة الكيمياء، لظننا أنها بلهاء، غبية، فقد كانت هى الوحيدة بيننا جميعا القادرة على خلط الخارصين بحمض الادرو كلوريك بنسب صحيحة، ودون الوقوع فى أخطاء.

كانت تستطيع تلاوة تلك التعاويذ السحرية الغامضة من نوع «يد٢، كب٤، لو٥» بمنتهى البساطة والسهولة، وكانت تحفظ الجدول الدورى كاملا، وتميز بين العناصر والفلزات بدقة.. إلى آخر ما حاولوا تعليمه لنا من ذلك العالم اللعين الذى سرعان ما يتبخر من الرأس، بعد قضاء ساعات طويلة فى حفظه واستذكاره.

لذلك، ولشكلها، ولصفاتها البشرية، ولأسباب أخرى، أطلقنا عليها اسم «لوكيميا» وهو اسم سرعان ما انتشر فى صفنا بأجمعه، وفى الصفوف المجاورة لنا، ومع مرور الأيام تسرب للفرقة الأولى والفرقة الثالثة، حتى جناينى المدرسة العجوز، الذى كان يعطينا وردات بين الحين والآخر، بينما يغمز بعينيه، ناداها فى إحدى المرات بلوكيميا.

كانت كراهيتنا للوكيميا ليس مبعثها الغموض الذى يلفها وقدرتها النائقة على الصمت، وتفوقها الشديد فى الكيمياء، بالإضافة إلى بعض التصرفات الغريبة الأخرى، التى كانت تبدو منها ونلاحظها، أحيانا، كحماسها الشديد وصوتها الجهورى وهى تنشد نشيد الصباح المدرسى، ولكن كانت هناك أسباب أخرى، كنا ندرك بعضها، ولا ندرك بعضها الآخر، وما كنا ندركه هو عدم مشاركة لوكيميا لنا فى أشياء كثيرة نحب ممارستها مثلا، لم تكن تشاركنا قراءة «البطة السوداء» أو «الأرنب الشرس» عندما نتجمع فى ركن بعيد فى فناء المدرسة، ونأخذ فى مطالعتها بتلهف، مهما كانت الظروف، حتى لحظات الحر الخانقة فى الصيف، أو فى أيام الصقيع الشتوى، ولم تكن لوكيميا تشاركنا الأحاديث عن تلاميذ المدرسة الثانوية المجاورة لنا، كما كنا نشك فى أنها تحلم مثلنا قبل أن تنام بفصول ساخنة من «البطة السوداء»، أو «الأرنب الشرس»، وما ورد ذكره بدقة من فنون وأسرار الغرام على صفحات تلك الكتب الأخرى المقدسة - بالنسبة لنا بالطبع - التى كنا نقتنيها فى حرص ونتعلم منها مالا نعلمه.

وطالما ولجنا هذا الجانب ، فسوف أحدثكم عنه بوضوح أكثر، ففى الحقيقة، كانت لوكيميا تثير سخريتنا بصدرها الممسوح، وعودها الجاف، وحاجبيها الخشنين اللذين يلتقيان عن بداية أنفها، وكنا نستغرب كونها لا تحرص مثلنا على نتف الشعر الذى يغطى ساقيها وذراعيها بعجينة السكر والليمون، بل والأغرب انها ردت بابتسامة ساخرة على واحدة منا، أشارت عليها باستعمال موسى الحلاقة سرًا، اذا كانت أمها تمنعها من إزالته، وقالت:

- لا دخل لأمى فى هذا الموضوع!

أما جوهر الأمر، الذى لم تستطع أى منا أن تفاتح به أخرى والذى كان مبعث كراهيتنا الأساسى للوكيميا، فهو قدرتها على فعل ما لم نستطيع فعله أبدا، فلقد كانت تمتلك قوة جهنمية تستطيع بها أن تثبت نظرات عينيها، ولفترات طويلة، على وجه مدرس الرسم، وفى عينيه، وهى تناقشه فى أمور لا نفهمها، تتعلق بالألوان والنور والظل، مدرس الرسم معبودنا جميعا نحن بنات الصف الثانى،

وهو الذى كانت نظرة واحدة إلى عينيه كفيلة بأن تبعث فى أجسادنا رعشات كهربائية سريعة، تجعلنا لا نعاود مثلها إلا بصعوبة.

وأستطيع الآن أن أتذكر، ويحلقى عضة مريرة، ذلك اليوم التاريخى، الذى قلب الأمور رأسًا على عقب فى مدرستنا، بل وغطى على كل الأحداث الأخرى الكبيرة، التى حدثت آنذاك، ومنها خطوبة «أبلة فضة» مدرسة مادة الفلسفة، التى كنا قد فقدنا الأمل فى زواجها بعد بلوغها الأربعين، وفشل صبغة الحنة فى مواجهة الزحف الأبيض على خصلات شعرها المجعد، وأيضا مثل محاولة انتحار طالبة بالصف الثانى، حزنًا على وفاة مطرب شهير بعد صراع طويل مع المرض.

ففى هذا اليوم التاريخى، يوم «لوكيميا» أعلنت ناظرة المدرسة، من خلال أوامرها الصباحية، طرد لوكيميا من المدرسة لمدة خمسة عشر يوما متصلة، بسبب سوء وانحراف سلوكها.

وزعمت أن هنالك واقعة محددة تتعلق بهذا الأمر، تحتفظ لنفسها بتفاصيلها الخاصة حفاظا على بنات المدرسة.

والواقعة، التى عرفناها بعد أيام طويلة من التحرى والتقصى، والتى سرعان ما اندلعت تفاصيلها بين الصفوف كلها .. تتلخص فى أن لوكيميا ضبطت فى شقة بإحدى نواحى القاهرة .. وذلك بعد تكرار ترددها على ذلك المكان، وبعد أن شاهدها الجيران وبعض أبناء الحى، وأبلغوا البوليس الذى بلغ أهلها والمدرسة.

ولمدة خمسة عشر يوما، وهى فترة غياب لوكيميا عنا، تضاربت الأقوال حول الموضوع، فالبعض أشرن إلى أن عدد من ضبطت معهم لوكيما كانوا ثلاثة رجال، فيهم طبيب المستشفى الجامعى الذى كان يحاضر أيضا للطلبة، والبعض الآخر من البنات قلن بأنه كان رجلاً واحدا فقط تجاوز الخمسين من العمر، أما الرواية التى قهرتنا وأشعرتنا بالمرارة المريرة فقد جاءت على لسان تلميذة فى الصف الأول، قالت أن العدد الحقيقى خمسة، وذلك بعد أن اقسمت ثلاثا، بل قالت لتؤكد روايتها أن أحد هؤلاء الشبان يمت لها بصلة قرابة، فهو أخ غير شقيق لزوج بنت عمة أمها!!

خمسة يا لوكيميا مرة واحدة!! خمسة أيتها الجبارة المفترية!!

هذا ما كنا نردده جميعا فى مرارة، نجوى فوزى أجمل بنات المدرسة بكل ما تملكه من قوام فارع ووجه جميل، بالكاد حصلت طالب بوليس، ولوكيميا بشعرها الأجعد المنكوش وقامتها القصيرة - حتى ساقيها لم تخل من عضلات تتكور كعضلات لاعبى كرة القدم.. لوكيميا التى بلا صدر أو أرداف تحقق خمسة بضربة واحدة؟؟.

وبالطبع رحنا نناقش ونخوض فى أمور أكثر تفصيلية عن الموضوع الذى ظل محورًا لأحاديثنا طوال خمسة عشر يومًا، وخاصة بالنسبة لنا فى الصف الثانى، حيث كنا أقرب وأكثر معايشة للوكيميا، فقد استطعنا وضع النقاط على الحروف وتوضيح أمور دقيقة من خلال استعانتنا بمراجع عميقة «كالبطة السوداء» و«الأرنب الشرس» أما الأمر الوحيد الذى ثبت بعد كل ذلك، فهو أ ن نظرتنا للوكيميا وفكرتنا عنها أخذت فى التغير على نحو جذرى، وراح احترامنا لها يتصاعد، وتقديرنا لقدراتها يزيد، فلقد اكتشفنا فجأة قدرتها الفريدة، وهذا ما دفع بنا فى النهاية للاتفاق على ضرورة فتح صفحة جديدة معها، وضرورة تدعيم العلاقات بها منذ أول لحظة تعود فيها إلى المدرسة عندما تنتهى عقوبة فصلها منها.

لقد أحدثت واقعة لوكيميا التاريخية تغيرات جوهرية فى عديد من بنات المدرسة، تبدت فى جملة مظاهر منها أن البعض أخذن فى نكش شعورهن على طريقة لوكيميا، وتركها بإهمال، حتى ذوات الشعر الناعم المسترسل لم يعد من الأساليب لتجعيد شعورهن وخصلهن المنسابة على الجبين والبعض الآخر تركن شعيرات سيقانهن وأذرعهن تنمو على راحتها وتعمدن عدم نتفها أو حلقها.

وعلى امتداد الصفوف الثلاثة فى المدرسة انتشرت ظاهرة حواجب لوكيميا الكثيفة المعقوفة ذات العبسة ومن كانت حواجبها خفيفة ناعمة راحت تستخدم قلم الفحم لتبدو بحواجب «لوكيمية».

أما طلاب المدرسة الثانوية المجاورة لنا بالحى، فقد قررنا قطع العلاقات معهم، لم تعد هناك مواعيد أو لقاءا ت أو خطابات متبادلة بيننا وبينهم عن

طريق محمد الأسمر بائع الفول السودانى الذى يقف بعربته على ناصية شارع المدرسة.

رحنا ننشد جميعا مستوى لوكيميا فى العلاقات مع الجنس الآخر، طبيب، مهندس، طالب جامعى فى الحدى الأدنى.

عودة لوكيميا!

عندما عادت لنا فى صباح أحد الأيام، لا أستطيع أن أصف بأى مشاعر قابلناها، فقط، أتذكر أن طابور الصباح اليومى تأخر عن موعده بسبب الانشغال بلوكيميا، ونسينا تحية العلم، رغم حضورنا جميعًا مبكرات، ووجدت المشرفة على النظام يومها صعوبة فى ترتيب الطوابير وضبط النظام، فلقد تدافعنا جميعاإلى لوكيميا، البعض يريد التحدث معها بسرعة للحصول على معلومات جديدة، الأخريات يريدون فقط رؤيتها واعادة اكتشاف تركيبتها الجسمانية الخارقة، قليلات هن اللواتى استطعن لمسها أو مصافحتها، أو الهمس لها بالتحية، وأظن أن فتيات فى الصف الأول همن بها فى ذلك الوقت مثلما همنا بها بعد فترة لأسباب أخرى كما أنهن حدثتنى وقتها عن أرقهن الليلى بسببها مثلما كان يؤرقهن مدرس الرسم، وأكدن أن ذلك حدث بعد أن تلاقت عيونهن بعينى لوكيميا.

عينا لوكيميا فى ذلك اليوم، يوم عودتها، كانتا مدهشتين، مدهشتين جدا، لأنهما كانتا تحملان النظرات القديمة الهادئة نفسها، التى تستطيع أن تثبتها على وجه مدرس الرسم، ومدرسة اللغة العربية المحجبة، والتى زادت كراهيتها للوكيميا أضعاف ما كانت عليه من قبل، والتى لم نكن فى ذلك الوقت ندرك أسبابها على وجه الدقة.

وعلى وجه الدقة بدأنا نعرف لوكيميا أكثر فأكثر، أمضينا معها بقية النصف الباقى من السنة الثانية، وكل السنة الثالثة، حتى فى الأجازة الشتوية الصغرى، والأجازة الصيفية الكبرى لم ننقطع عنها، ولم تنقطع عنا، كنا نزورها فى بيتها،

أو نلتقى معها فى الشارع، تحدثنا، واكتشفنا من خلالها أشياء كثيرة، كنا نجهلها، عن الحياة، والرجال، والنساء، والأشياء، حتى عن أنفسنا أيضا.

واكتشفنا أنها جميلة حقا، وتمتلك روحا رائعة، لقد عرفنا من خلالها معانى أخرى عديدة للجمال، أكتشفناها فى أنفسنا، وفى الناس الذين كنا نعرفهم، أو الذين كانت تعرفنا عليهم لوكيميا.

وكنا نمضى ساعات طويلة معها، نتذكر ذكريات كثيرة عنها وعنا، وتفاصيل صغيرة عن حياتها بيننا فى المدرسة، لم نكن نلحظها أو ندركها، وأدركنا بعد ذلك سر كراهيتها لمدرسة اللغة العربية المحجبة، وسخرية لوكيميا الدائمة منها عندما تقول «الناس بعضهم فوق بعض طبقات»». كما اكتشفنا موضوع القوة فيها، والذى مكنها من الثبات فى مواجهة السحر الرجولى الشديد لمدرس الرسم.

ولقد عرفت لوكيميا أيضا طالبات الصف الأول، وطالبات الصف الثالث، وعرفت بنات المدرسة من خلالها بعضهن بعضا، على نحو آخر، ولأسباب لا تتعلق «بالبطة السوداء» أو «الأرنب الشرس» حتى حدث الذى حدث بعد ذلك، فإنه قبل انتهاء العام الدراسى بشهرين حيث كنا على وشك التخرج من المدرسة للالتحاق بالجامعة، كانت لوكيميا قد خرجت على رأس المدرسة فى مظاهرة رائعة تاه هتافها بين هتافات المظاهرة الكبرى الخارجة من الجامعة عند ميدان العباسية.

الابتسامة المطبوعة دومًا، كوشم أبدى على وجه الممرضة فايزة، والتى كانت السبب فى ترقيتها أكثر من مرة، وحصولها على شهادة تقدير من إدارة المستشفى بالإضافة إلى شهادة الأطباء والمرضى لها بطول البال وسعة الصدر، هذه الابتسامة التى تبرز سنها الأمامى المكسور، تفصح بالتجاعيد الخفيفة المرتسمة معها حول الشفتين حقيقة عمرها كامرأة أربعينية، أخذ شبابها فى العد التنازلى منذ سنوات، وتضفى إلى نظرات فايزة مسحة من التفاؤل والبشر لا أحد يعرف على وجه التحديد، سرها، سر الابتسامة التى لا تغيب حتى عندما تناول فايزة الطبيب مبضعًا فى غرفة العمليات، أو وهى تجرى مسرعة فى ردهات المستشفى لتلحق بالصيدلية قبل اغلاقها لاحضار الأدوية وقد تصور طبيب عاش سنوات فى لندن، أن فايزة لا بد وأن تكون قد تعلمت أصول التمريض خارج البلد فهو لم ير ممرضة تعمل فى مستشفيات الحكومة، تبتسم أبدا، ثم أن فايزة لطيفة ورقيقة، وتبدو - رغم انطباع بصمات الزمن على وجهها كفتاة صغيرة ما زالت فى ربيع العمر، تعيش حالة من العشق الدائم، خصوصًا عندما تتنهد تنهدات ناعمة، وترسل نظراتها الحالمة الطويلة، التى دفعت المرضى مرات كثيرة إلى محاولة تقبيلها أثناء الليل، عندما تكون مناوبة، وهى تعطيهم الدواء أو تحكم وضع الأغطية عليهم، لكن الحقيقة أن فايزة كانت تردهم بهدوء وحزم دون أن تعنفهم، وتعاود الابتسام من جديد.

فايزة نفسها لم تكن تدرك سر هذه الابتسامة، ربما لأنها لم تفكر فيها أبدًا، وربما لأن الحياة لم تمنحها الفرصة للتفكير فى نفسها كثيرا، فأمها ماتت قبل أن

تلدها، ولولا وصول سيارة الإسعاف فى الوقت المناسب ونقلها إلى المستشفى، حيث تم فصل اللحم الميت من اللحم الحى، لكانت فايزة فى خبر كان، ولما رأت عيناها الدنيا أبدا، ثم أنها شربت هم الزواج قبل الأوان، فبعد أن حاضت، للمرة الأولى، بسنة وتمدد جسدها بالطول والعرض تمددا كافيا لإقناع الرجال بها كامرأة صالحة للمضاجعة وإنجاب العيال، زوّجها أبوها لأول طارق طلب يدها وكان الأب ينشد إبعاد العبء عنه، وراحة البال لنفسه، ولابنته هدوء السر والسترة، إذ تصبح أمانة فى عنق رجل آخر يعينها على عوادى الزمن، وأفعال أولاد الحرام الطامعين فى الولايا وبنات الناس، اللواتى لا حول لهن ولا قوة ولا سند فى الحياة.

وفايزة بعد أن تزوجت المدعو عباس، خلفت قبل اكتمال العام، واستمرت تخلف حتى صار لديها ثلة من الصبيان والبنات، أولهم بنت داخله فى سن الطيش والنزق، وأصغرهم صبى لم يبلغ الرابعة بعد، تجرى وراءه فايزة بعض الأحيان فى البيت لتضربه وتلمه من الحارة كلما غافلها وخرج، ثم أنها تغسل وتمسح وتكنس وتطبخ، وتدور فى حجرات الشقة، ولا تنتهى دوامة همومها، منذ صباح ربها، الذى يبدأ باعدادها للفطور، وايقاظ العيال من النوم، ثم الجرى بعد حوالى ساعة من ذلك، وراء الأوتوبيس، للحاق به والوصول إلى المستشفى فى الميعاد المرصود، الذى تحافظ عليه فايزة محافظتها على روحها، منذ أن تعينت كممرضة فى المستشفى الذى تقف بين جدرانه، وقوف الديدبان طيلة سبع ساعات يوميا وربما أكثر تراقب الممرضات اللواتى تترأسهن وهن يخدمن المرضى، خشية أن يسرقن دواءهم أو طعامهم، وتتحمل سخافات هؤلاء المرضى الذين يأتى معظمهم من القرى البعيدة، للعلاج المجانى فى مستشفى الحكومة، فتواسيهم وتسايرهم فى الكلام والحديث، وتأخذهم على قدر عقولهم وفهمهم، بينما تغرز حقنة فى عجيزة أحدهم، أو تقص جلدًا مهترئًا حول جرح متقيح لآخر، وعندما يتألمون ويكيلون الشتائم لها ولأطباء مستشفى الحكومة، وللحكومة نفسها، ورئيس الجمهورية عند اللزوم، تبتسم وتواسيهم مطيبة خواطرهم، وتطمئنهم أنهم سيستريحون بعد قليل، وحتى عندما يطلبون منها طلبات ربما لا

يتجرأ الشيطان نفسه على طلبها، كانت تلبيها لهم عن طيب خاطر أو تنهرهم بلطف، وقد أوشكت ممرضة أخرى فى أحدى المرات، أن تنقض على رجل عجوز لتضربه، عندما لاحظت أن فايزة أتته بالمبولة ما يزيد عن ست مرات خلال ما يقل عن ساعة، لانها كانت تدرك أن الرجل لم يكن محصوراً ويكذب راغبًا فى التلذذ كلما راحت فايزة تدس المبولة تحت فخذيه وتلامس يدها جسده.

الشهادة لله، ولجميع من تعاملوا مع الممرضة فايزة، أنها كانت حالة نادرة بين الحكيمات والممرضات، اللواتى هن فى واقع الحال زبانية العذاب فى مستشفيات الحكومة، ومنها المستشفى الذى تغادره فايزة كل يوم وأقدامها تكاد أن تنفجر فى داخلها الشرايين والأوردة، لكثرة اندفاع الدم فيها، بسبب الوقوف المستمر الذى يتواصل فى البيت عند عودتها لكنها لا تمل من شغل البيت المفروض عليها فرضا، بحكم كونها زوجة وأما للعيال، الذين لا تنتهى طلباتهم منذ اللحظة التى تطأ فيها قدمها عتبة الشقة، وحتى إذا ما لبت هذه الطلبات، فثمة مشاغل أخرى تبرز أمام ناظريها فجأة، حيث يبرز كوب شاى فارغ، تركه زوجها بجانب السرير بعد أن شربه قبل قيلولته مخلفًا بداخله عقبا أو عقبين من سجائره أو تحمل الولد ابنها إلى الحمام، وتجبره على غسل قدميه الوسختين، قبل النط على السرير، والدوس على الفراش النظيف الذى سبق أن رتبته منذ قليل.

منذ اليوم الذى لبست فيها فايزة الثوب الأبيض وثبتت الطرحة التلى على رأسها، بعد أن نتفت شعر جسمها ووجهها وسوت حاجبيها وزغردت لها نسوان الحارة والحوارى المجاورة، ابتهاجا بدخلتها، وهى دائخة دوخة البهيمة فى الساقية فهى من البيت للشغل، حيث ينهد حيلها وينقضم وسطها من طيلة التوطية والوقوف، بينما هى تغسل وتمسح وتطبخ.

فايزة لا تشعر بلحظة حلوة فى يومها، إلا اللحظة التى تفرد فيها طولها على السرير ، وترمى رأسها على المخدة، حيث تبدأ فى الولوج إلى عالمها الليلى الجميل، حين يأتيها ذلك الحلم الذى لا تعرف على وجه التحديد متى بدأ، ولماذا يستمر دون أن يفارقها فى كل مرة تحط رأسها لتنام، حيث تنسى الدنيا ومافيها، عباس والعيال، المستشفى والمرضى، الكنس والمسح والطبخ، وتشعر أنها فى عالم

آخر، ودنيا ثانية، وأنها هى، فايزة.. ليست فايزة أبدا، ولا علاقة لها بالمرضة فايزة، لأنها تكون فى هذه اللحظات واحدة جميلة، جميلة جدا، أحلى من بنات السينما والتليفزيون، وحتى حوريات الجنة، اللواتى يحكون عنهن ولا تشبه فايزة التى ترى صورتها كل يوم فى المرأة ويعرفها الناس، بجفونها المنتفخة، وبشرتها الشاحبة، وشحمها المتركز حول أكتافها ومؤخرتها، وتشققات كعبيها التى تبدو كتشققات أرض بور جففتها أشعة الشمس، فايزة التى يعلو صوتها بين الحين والآخر، وهى تزعق فى ابنها الصغير، وتتصعب قائلة «اسكت يا مقصوف الرقبة وجعت قلبى».

كانت عندما تكتمل تماما صورة فايزة الأخرى بعينيها بينما يتسسل إلى أذنيها صوت شخير زوجها، مختلطا بصفير صرصور مناوب فى عفشة المياه، تجد فايزة نفسها فى أحضان شاب جميل، طويل فارع، تشكلت ملامحه من صور كل الرجال الوسيمين الذين رأت صورهم فى المجلات أو التقتهم فى الحياة، أنه حنون ورقيق أيضًا، يمسح على رأسها مواسيا، يقبلها بين حاجبيها، ثم يجتذبها إلى أحضانه ويطوقها بذراعيه، وبعد أن يستمرا على هذه الحال فترة، يسألها هامسا أن ترحل معه بعيدًا.. بعيدًا.. عن الدنيا، إلى مكان هادئ نظيف، ليعيشا معا فى ثبات ونبات، دون أن تخلف له صبيان وبنات يوجعون رأسها بالشيل والحط، والمسئولية عندئذ، تشعر فايزة أنها حمامة بيضاء، محلقة فى السماء الزرقاء، بالفرح والنشوة، وبعد أخذ وعطاء مع حبيب الحلم، تعود فايزة فتطوقه وتقبله مرة أخرى، وتقول له سأذهب معك يا روحى إلى نهاية الدنيا، فأنا لا أستطيع الحياة بدونك وبعيدة عنك مهما كانت الظروف.

لكن .. دون أن تدرى، كيف يجرى لها ذلك على وجه التحديد، ترتسم فجأة فى عينيها المغمضتين بقوة، وعلى نحو بالغ الوضوح، صورة ابنها الصغير، يبتسم لها ببراءة، قافزا، ليطوق رقبتها ويمطرها بقبلات كثيرة، فتفيق قليلا وتشعر بقلق وتتقلب فى فراشها، ثم تزيح زوجها لينام على جنبه الآخر، ليكف عن الشخير، قبل أن تستسلم لسبات عميق.

كقطرة المطر المتساقطة على طرف أذنها، سارت وحيدة شاردة، تلازمها الحيرة، ولا تدرى على وجه التحديد ذاك الذى حدث لها.

فعلى عادتها كانت قد رقدت متكومة على حاشية المقعد الطرية، تستمتع بمتابعة رقاص الساعة المواجهة لها على حائط من خلال فرجتى عينيها، وهى تهر فى رضا. كان يتحرك مرة لليمين وأخرى لليسار، والسيدة ذات الشعر الذهبى تسحب أنفاس سيجارتها وتنفثها بلطف، عندما عبق الجو فجأة برائحة غريبة لم تعرفها بوسى من قبل، كانت رائحة تنفذ إلى داخلها، وتطغى على رائحة طلاء أظافر السيدة، التى كانت مشغولة باستخدامه، وعلى رائحة اللحم اللذيذة التى كانت تهب من المطبخ بين الحين والحين.

نهضت وقوست ظهرها وتمطت وهى تتثاءب حتى بان حلقها وراحت تجوب برأسها وتحرك شواربها متشممة الهواء، وترسل بوقى أذنيها فى كل الاتجاهات، علها تسمع صوتًا، وشيئًا فشيئًا، اعترتها آلام من نوع غريب، كانت فى البداية ضعيفة خافتة، ولكنها سرعان ما احتدت واجتاحتها، وسيطرت على كل حواسها، ولم تكن كالآم الجوع أو الحاجة لقضاء حاجتها، التى تجعلها تموء فى رقة ولطف، بل آلمتها فجعلتها تصرخ غير قادرة على النوم، وزاهدة فى مداعبة خيوط السجادة، وسرعان ما فقدت شهيتها للطعام، وظلت تتلوى على الأرض من حين لآخر.

وفى اليوم الأخير قبل أن تذهب، جاء رجل ضخم، ووقف ينظر إلى السيدة، وهو يمط شفتيه فى امتعاض، ويطلق أصواتا مختلفة أخافت بوسى، وجعلتها

تختبئ فى مكانها المفضل خلف أفروديت الرخامية الجميلة، الواقفة فى الركن، والسيدة تشيح بيدها، فتتحرك معها أساورها الذهبية اللامعة، مما جعل لدى بوسى رغبة لا تقاوم فى أن تقفز وتلامسها بأظافرها.

وعندما جاءت البنت الصغيرة، التى كانت تضع لها اللحم فى الطبق الكبير، واللبن فى الطبق الصغير، من المطبخ، وهى ترتدى فوق رأسها ذلك الشىء الملون، الذى كانت القطة تميزها به عن الآخرين، وظلت تبحث عنها تحت الأريكة والكراسى المذهبة والمنضدة الرخامية، حتى عثرت عليها فى مكمنها، فرفعتها برفق، وفكت الشريط الحريرى الأحمر ذا الجرس الفضى عن رقبتها، ثم فتحت الباب، وسارت بها بعيدًا بعيدًا، ثم تركتها وذهبت.

ثلاثة أيام قضتها بوسى فى ذلك المكان، تصارع القطط، ويتصارعون عليها، كانت فى البداية خائفة مذعورة من نباح الكلاب، تحدق بدهشة فى تلك الأكوام الهائلة من الأشياء ذات الرائحة العفنة، وتبحث عن أماكن طرية مريحة ترقد فيها مثلما كانت تفعل فى البيت القديم، بحثت عن الطبق الكبير والطبق الصغير، ولكنها لم تجد لبنا ولا لحما، أما الذباب الذى كان يحوم حولها فى النهار، والناموس الذى يلسعها فى المساء، فكان أشد ما يضايقها. الشىء الوحيد الذى ارتاحت له بوسى فى ذلك المكان، كان اختفاء تلك الآلام الرهيبة التى داهمتها من قبل.

وها هى تترك ذلك المكان هاربة،عندما زمجرت السماء وسقط المطر، ومازالت تجرى وتنط، وترغب فى أن تتوقف قليلا ريثما تستريح وتلعق فراءها المبتل، لكن لم تكن هناك فرصة لذلك، وراحت تتقافز بجانب الجدران رعبا من الخطى الآدمية التى راحت تتجاوزها، مسرعة عندما تلاقيها، وفكرت أن تتوقف أمام دكان اشتمت منه رائحة لحم، لكن العجوز المتربص على بابه لم يمهلها لتفكير، لقد أشاح لها بمقشة طويلة، فلاذت بالفرار.

عندما توقف المطر وبانت النجمات لامعة فى السماء، توقفت القطة لاهثة، ترقب الأشياء فى حزن، وترغب فى الأكل والدفء والنوم، وظلها يرتسم على

أسفلت الرصيف، فى ضوء العربات المسرعة، مرة كبيرة يصعد الجدران، وأخرى صغير باهتا. وكانت تلعق فراءها المبتل، وتستريح، عندما تحسست تيارا واهنا من الدفء يسرى إلى جسدها بين الحين والحين. نفضت فراءها مرة واحدة لتزيل ما تبقى عليه من قطرات، وترقبت مستطلعة، وسرعان ما مرقت من خلال الأسياخ الحديدية الصدئة، وزجاج الشباك المكسور الذى كان بجوارها يطل على أرضية الشارع، وتهب منه النسمات الدافئة، وبقفزة واحدة رشيقة، ألقت بجسدها على بلاط الحجرة العارى.

التمع البؤبؤ واستطال فى عينيها، وهى تدور ببصرها على الجدران المغطاة بصور كثيرة ملونة ومسامير بارزة وقد علقت عليها ملابس كالحة، وكانت قطع الأثاث القليلة، قد استندت إلى جدران، باهته، تكاد تتداعى. حدقت القطة بشدة، حيث كانت تجلس امرأة على الأرض، تتوسط كومة من العيال، حول طبلية صغيرة، يغمسون أيديهم فى الأطباق ويرفعونها إلى أفواهم بسرعة.

وكانت المرأة على رأسها الغطاء الملون نفسه، الذى كانت تميز بوسى به البنت الصغيرة، واضعة اللحم فى الطبق الكبير، واللبن فى الطبق الصغير.

تعجبت القطة وخافت، ولكنها سارت تتهادى عندما دعاها الولد، الذى كان أنفه يسيل على شفتيه قائلا:

بس ... بس ... بس والذى هب من مكانه، وعيناه تضحكان فى مرح، وراح يحملها فى حضنه، وثقلها يجعله يتحرك بها بصعوبة استسلمت فى رضى، فمنذ أيام لم تلق حنانا من أحد، ولم تربت على ظهرها أو تداعب رأسها يد، فقط تضايقت من ملمس أصابعه المبللة بالزيت، وهى تتحرك على فرائها فودت لو يطلقها لتلعقه.

هتفت المرأة لمرآها:

- قطة حلوة .. خلوها عندنا تأكل الصراصير، وتصيد الفئران.

وألقت إليها بلقمة خبز سوداء مغمسة بزيت الفول، تشممتها القطة وابتعدت عنها متأففة، وواصلت المرأة ابتلاع طعامها فى نهم.

أما الصغار فتدافعوا حولها يتلاعبون، وضع واحد يده على رأسها، وراح يتحسس ذيلها، وثالث يبحث عن موضع أثدائها، وهى تتحمل ذلك على مضض، ولكنها لم تطق صبرا، عندما حاول الصغير الزاحف على بطنه أن يجذبها من شواربها، فرفعت يدها مهدده، وهى تنفخ فى وجهه، فخاف وتراجع باكيا.

عندئذ، هتف الرجل الذى كان يجلس فى الطرف الآخر من الحجرة بعد أن ابتلع نفسا طويلا من«البورى»، دافعا بسحابة زرقاء من الدخان أخفت ملامحه:

- أطردوها .. يظهر أنها مسعورة.

بعدها .. أخذت القطة تجرى، وأحذية قديمة وعلب فارغة تطير نحوها فى الهواء، وانطلقت من حيث جاءت بأقصى سرعة استطاعتها، ومرة أخرى كانت تسير على الرصيف.

صفرت الريح لافحة عظامها ببرودة مؤلمة، وكان أنفها يبتل بللا ضايقها، والجوع والتعب يدفعان بها لأن تطلق مواء حاداً مستجدياً، وكانت تخاف أن تقابل قططا أخرى فى تلك الليلة التى لا تقوى فيها على صراع أو مشاحنة.

مرقت من بوابة مظلمة، وراحت تقفز درجات سلمها دون أن تتوقف، وأنفاسها تكاد تسكت عنها، وعندما واجهت سطحاً فسيحاً توقفت، لم يكن فوقها غير السماء والسحب الرمادية الداكنة، لمحت القطة الضوء الخافت يتسرب من فتحه الباب الذى يتوارب عندما تدفعه الريح ليعود ويرتطم بإفريزه الخشبى.

مرقت منه فى حذر بعد أن دفعته بيدها قليلا، وراحت ترقب الأشياء، لم يكن يتحرك أمامها غير جسد امرأة، وهى تنحنى بين الحين والحين حتى تلامس جبهتها الأرض، وتوعود لترفع هامتها متممة.

رغبت القطة فى أن تقفز وتخمشها فى ضفيرتها الصوفية البارزة من طرف وشاحها، والتى كانت تتحرك مع حركتها، ولكنها اشتمت رائحة أكثر جاذبية، جعلتها تسحب هواء كثيراً إلى صدرها وبسرعة قفزت إلى حيث كانت علبة السالمون موضوعة على المنضدة المكسورة فى الركن، أدخلت رأسها فى داخلها، فهوت عل الأرض لتبرز منها نصف سمكة فضية هزيلة، راحت تلتهمها فى نهم

وهى تتوقف بين وقت آخر، علها تجد أحدًا ينوى اقتسامها معها. كانت لا تصدق أنها تأكل فى تلك اللحظة، وعندما فرغت من السمكة لعقت جدران العلبة بقدر استطاعتها، ومسحت ما تناثر منها على الأرض بلسانها الخشن فى تلذذ. راحت تمسح فراءها الأسود فالتمع، ومسحت وجهها بيدها، وخلصت ذيلها من أقذاره، وبينما هى تستعد للقفز فوق السرير، الذى اكتشفته، لتتمدد بين الأغطية، تسمرت وفتحت عينيها عن آخرهما فى وجه المرأة التى كانت قد انتهت من صلاتها، وراحت تخرج المسبحة من صدرها، وتمتم بالحمد. أعجبت القطة حركة الأصابع وهى تعد حبات المسبحة الصفراء فى وتيرة سريعة منتظمة، وكانت لا تمانع فى اللعب الآن، أما المرأة فقد أسفت على ما حدث للسالمون، وثارت بها رغبة فى ضرب القطة وطردها، ولكن الليل والظلام وتلك الدهشة والنظرات الغريبة فى عينى القطة جعلتها لا تفعل. حوقلت ونظرت إليها، واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم. كان فراء القطة الأسود الداكن، ونظراتها الثابتة التى لا تحيد عنها، يجعلان شعورا مبهمًا من الرهبة يسرى فى روحها، وتعتريها اهتزازات خفيفة يتحرك لها الوشم أسفل ذقنها.

ألقت المرأة بالبسملة كاملة، والقطة جالسة ما زالت تحدق بها، لكن هريرها سرعان ما تصاعد فى رضى. تنفست المرأة براحة، فربما كانت تلك لروح الطيبة التى تصلى أمامها، والتى جاءتها فى جسد قطة، هى روح ابنها المتوفى، وقد أتت لزيارتها، تشهدت بصوت مرتفع، ونادت على القطة ضاربة على فخذها ضربات خفيفة، نظرت القطة فى دلال، وبدت كما لو كانت لا ترى لكنها سرعان ما سارت إليها، وقفزت لتستقر على فخذها فى انتظار أن تمسح المرأة على رأسها، أو تداعب تلك الأماكن الخشنة فى ذقنها، والتى لا تستطيع أن تنظفها جيدا.

فكرت المرأة بروح ابنها الطاهرة، واطمأنت إلى أنها قد حشرت فى زمرة الأخيار، فالقطة كانت تقرأ أورادًا لداود الملك - أبو الأنبياء وسيد الجنة والحيوانات - وصدقت المرأة اعتقادها قائلة لنفسها «لو كانت روح نجسة لجاءت فى جسد كلب»، وتذكرت ابنها، ودموع كثيرة تنسكب من عينيها، وفكرت كيف بذلت حياتها من أجله، وربته، ولكنه راح منها منذ سنوات، وها هى لا تستطيع

الا أن تظل هكذا، تنتظر روحه لتأتيها وتطل عليها. فكرت فى أن تحادثه وتقول له: « يا محمد يا ضناى لا تحزن لأننى لم أرك فى العيد الكبير، فلقد كنت مريضة، ولم أستطع التحرك لمدة أسبوع، ولكنى وزعت الصدقة على روحك للمساكين، مثلما أفعل دائما». وبأن تقول له أيضا كيف أنها ندبت وولولت يومها وما خلت. كانت ترغب فى أن تقول له أشياء كثيره عن حياتها بعده، ولكنها خافت من أن ترفع صوتها بمثل هذا الكلام فى حضرة الروح، وأطرقت خاشعة فالروح ما زالت تقرأ صلواتها للنبى داوود.

تضايقت القطة من الدموع التى سالت على رأسها، فراحت تحكه فى صدر جلباب أم محمد الأسود الخشن، هاجت مشاعر المرأة وتذكرت حنان وحيدها الراحل، وهمست لحالها متصعبة: «كنت فى شوق لهذه الزيارة من زمان يا ولدى، وربتت على ظهر القطة فماءت طالبة المزيد من الحنان، ظنت المرأة أن بوسى عطشى، فنهضت وعادت اليها بإناء صغير من الماء، تشممته القطة، ونظرت فيه، ومدت لسانها تذوقته، ولكنها ابتعدت آنفه. فكرت المرأة فى أن تحبسها لتستبقيها ولا تدعها تخرج، ولكنها خافت، واستعاذت بالله من وساوس الشيطان، وهل تجرؤ على حبس روح تسرى فى الليل؟!. جلست على حافة الفراش، فقفزت القطة إلى جانبها، وفكرت المرأة أن تأخذها فى حضنها مثلما كانت تفعل مع وحيدها الراحل وتهدهده. راحت تبكى وقد صعب عليها حالها، وشعرت بأنها وحيدة بائسة، بينما كانت القطة قد رقدت بجانبها تتصاعد أنفاسها دافئة وتتمطى بين الأغطية.

كان النعاس قد بدأ يداعب المرأة، وبدأ غطيطها يعلو وهى تحلم بأن وليدها فى حضنها يقاسمها الفراش، عندئذ كانت القطة قد ملت الرقاد، وقفزت إلى الأرض باحثة عن نصف سمكة فضية أخرى.

المفروض أن اسمها «زينات» لكن الكل كانوا ينادونها «زنات» حتى عبده المزين، عندما كان ينتهي من خط رسالة، بالنيابة عنها، إلى رئيس الجمهورية ، الذى دأبت على مراسلته كان يذيل ما يكتبه باسم «زنات محمد على» وذلك بعد أن يثبت القلم بين أصابعها جيداً، ثم يطبق على يدها بيده ويحركها معا، ليكون الإمضاء بيدها فعلا، وزيادة فى تأكيد ذلك، كان يبلل قلم الكوبيا بريقه، ويلون به إبهامها حتى تتكون بقعة بنفسجية كثيفة، تكفى لطبع بصمة واضحة المعالم، فوق حروف الاسم، الذى كتباه معا.

ويمكن القول أنه خلال السنوات الأخيرة من حياة الرئيس نشأت بينه وبين زينات علاقة خاصة جداً، مع أنهما لم يلتقيا خلالها أبداً وجها لوجه، الا أنه، ورغم كل شىء، يصعب القول أنها علاقة من طرف واحد، صحيح أنهما لم يلتقيا، ولم يتسن لزينات أبداً أن تحادثه، وتقول له بلسانها كل ما تود قوله، لكن العلاقة المستمرة بينهما وصلت إلى حد أنها رتبت خطة، تصورت أنه دقيقة، لا تخر المياه، لكن الأيام، وساعة التطبيق، أثبتت فشلها فشلا ما كان يخطر ببالها وخاطرها أبداً، بل وأكثر من ذلك أن عبده المزين نهرها بشدة، وحذرها من معاودة عملتها المجنونة تلك، لأن الله ستر هذه المرة، وكان ممكنًا جدا أن يأخذوها ـ زينات نفسها ـ ويخفوها وراء الشمس، دون أن يعرف الجن الأزرق قراراً لها، بل وقال أنها عبيطة لأنها تصورت أنهم سيسمحون لها بالاقترات، إلى هذه الدرجة من رئيس الجمهورية، محاولة مصافحته، اليد باليد، وتسليمه العريضة، ثم هل نسيت العسكر والمخبرين والحرس، الذين يحوطونه من كل ناحية مطرح ما يروح؟!

والحقيقة أن نصائح عبده لزينات لم تكن أكثر من تحصيل حاصل. لأنها جربت بنفسها كل كلمة قالها، فرغم أنها كمنت، من طلوع النجمة، على ناصية شارع من الشوارع، التى تعرف أن الرئيس يمر بها كل مرة بعد صلاة الجمعة، ورغم أنها استطاعت، كنتيجة لذلك، الحصول على موقع متقدم جدا بين الجموع، التى تقاطرت لتحية الرئيس، بعد أن كتب لها تلميذ من تلاميذ المدرسة، رسالة صغيرة، نوت زينات أن تسلمها للرئيس، لتكون كلمتين ورد غطاهم، ونصها الحرفى: «زنات بتسلم عليك، وتقول لك عملت إيه فى الموضوع اياه»، رغم كل ذلك. فإنها فى اللحظة التى تصورت فيها أن سيارة الرئيس قريبة منها بما يكفى، لتخطو تجاهها. بسرعة، وتهجم عليه، لتصافحه وتسلمه الورقة، فوجئت دون أن تدرى بعشرات الأيدى الغليظة، لعسكر ورجال آخرين، برزوا فجأة، كما لو أنهم سقطوا عليها من السماء، وراحت تدفعها بعيداً عن السيارة والموكب، لتسقط بين الأقدام، التى لاحظت زينات، ساعتها، أن عديداً منها مغطى بأحذية جلدية عالية، ثبت فى بعضها طبنجات تفى لجزر بلد.

لكن هذه الحادثة المؤسفة، وفظاعة الآلام. التى عانت منها زينات بعد ذلك، لم تحل دون استمرار علاقتها بالرئيس، ولم تغير نفسها، من ناحيته أبدا، كما أن صوره فى عشتها بقيت فى مطرحها. كما هى، تلك الصور، التى لم يكن أى شىء سواها يزين العشة، التى بنتها زينات، بنفسها، من الحجر الطوب والصفيح، بعد أن استولت على بضعة أمتار من أرض الحكومة، على جانب الطريق العمومى، حيث تجلس أمامها، مناوبة، من الصبحية، حتى قرب غروب الشمس، فى انتظار دخول وخروج تلاميذ المدرسة الابتدائية، التى كانت، فى الواقع، ثلاث مدارس فى مدرسة واحدة، يدخل إليها الأولاد والبنات، على دفعات، للدراسة، وكانت زينات تبيع لهم العسلية والفشار والترمس وألعاب بلاستيكية صغيرة، تكون من حظ أولئك الرابحين فى لعبة الحظ، التى يشترونها منها.

أما تشييع الرسائل للرئيس، فزينات لم تتوان عنها أبدا، مما يؤكد، مرة أخرى، أن العلاقة بينها وبين الرئيس لم تتعكر، وأنها فضلت صافية، لبن، وكانت زينات تشوف الحادث على أساس أنه جرى من وراء ظهر الرئيس، لأنه لو درى أن أولاد

الحرام، إياهم، منعوها من السلام عليه وتسليمه الورقة، لكان، ولا بد، يروحهم وراء الشمس، فهو يفهم، ويعرف نية زينات، وأنها لا يمكن أن تقصد أذيته، وإلا، ولو كان الأمر عكسه، لما كان رد على خطاباتها له، أكثر من مرة، وما كان موضوعها جاريًا نظره فى الحكومة، وما كان أرسل لها موظفة من الدولة، لتعاين العشة بنفسها، وتشوف بعينها حالة زينات، وتسألها أسئلة كثيرة عن أحوالها، وأحوال الدنيا معها، بل أنها أكدت لها أن موضوعها سيخلص، خلال الشهور القليلة القادمة.

والشهور القليلة، التى تلت ذلك، لم تخيب ظن زينات بالرئيس، بل ويمكن القول أن الخطة، التى رسمتها، على ضوء تصريحات موظفة الحكومة، قد نجحت هذه المرة، والواقع أنها خطة تنمية صغيرة، رسمتها زينات لنفسها، تتلخص خطوطها العريضة فى أن توسع على روحها فى الأكل، بين الحين والحين وفى سبيل ذلك تشترى وابور جاز، وحلة ألمونيا لتطبخ فيها كلما هفت نفسها لأكلة لحم، كما ستقوم بشراء جلابية قطيفة زبدة، وقمطة بالخرز، بدلا من جلابيتها المقطعة، وقبل كل شىء، وبأذن واحد أحد، سوف تسدد ديونها المنظورة، التى تتلخص فى جنيهين لعبده المزين، آخر دفعة تبقت له من دين قديم، استلفته منه، لعبده لتشترى بضاعة جديدة تتاجر فيها، وكذلك ديونها غير المنظورة والتى هى عبارة عن عدة دعوات من أخيها، صاحب العيال، لأكل اللحم، وعدة خمسينات قروش، كان يمدها بهم، عند أول كل شهر، وقد عزمت زينات على زيارة أخيها، باثنين كيلو لحم، عندما تمسك الفلوس بيدها، وقبل كل شىء، زوج فراخ محترم، وزجاجة شربات ورد، هدية خالصة لعبده المزين، نظير عطفه عليها، وخدماته لها فى كتابه الرسائل لرئيس الجمهورية، وهى الخدمات التى كللت أخيرا بالنجاح، حيث تقرر صرف معاش استثنائى لها، قدره ثلاثة جنيهات، بالتمام والكمال، أصبحت بسببهم تذهب شخصيًا، وبكل فخر وثقة واعتزاز بنفسها، وبرئيس الجمهورية، إلى خزنة الحكومة، فى طلعة كل شهر، لاستلامهم بعد ابراز السيركى اللازم لذلك، بالإضافة للبطاقة الشخصية التى حرصت زينات عليها، بعد استخراجها، حرصها على عينها ذاتها، ولا أدل على ذلك من

أنها تحفظها فى مغلف بلاستيكى، اشترته بشلن كامل كما أنها تدسها تحت فراشها، وتتأكد من وجودها فى مطرحها كل فترة، ليس بسبب المعاش، والسلام، ولكن لأنها حطتها فى عين عسكرى البلدية بكل ثقة بالنفس لما حاول الاحتكاك بها وابتزازها أثناء شوفه شغلها، وراح يهددها بسحبها للقسم لكونها بدون بطاقة، فرجع مخذولا وقفاه كالرغيف السخن، بعد أن مسخرته، ووضبته بالكلام الشديد.

لكن الثلاثة جنيهات لم تكن مسك الختام فى موضوع العلاقة مع رئيس الجمهورية، فرغم أنها استلمت دفعة فلوس لم تكن لتحلم بها طوال عمرها، وتبلغ قيمتها ثمانية عشر جنيها، لأن قرار حصولها على المعاش صدر بأثر رجعى، يحق لها بموجبه أ ن تتقاضاه عن مدة ستة شهور، ورغم أنها عملت الهوايل بهذه الفلوس، فأشترت طوبا أحمر جديدًا أكملت به جدران العشة، بعد أن أزالت الحجر والصفيح، وفتحت شباكًا، يدخل منه الهواء والنور إلى داخلها بالراحة، ووسعت على نفسها، حتى أنها اشترت فرخة كاملة، تلذذت بأكلها، وحدها، دون مشاركة مخلوق، لذة لا تنسى، خصوصا عندما كانت تدفع باللحم المسلوق إلى فمها، مخلوطا بالأرز المطبوخ، المندى بشوربتها الساخنة، رغم كل ذلك.. ورغم التغيرات الجوهرية، التى طرأت على حياة زينات، وكان منها أنها توسعت فى حجم البضاعة، التى تتعامل بها وأدخلت عليها أصنافًا جديدة، كأقلام الرصاص والمحايات، إلا أن عبده المزين «سلمت يده، وحفظ الله له نور عينيه». وفقا لنص دعوات زينات الصادقة الصدوقة له دومًا، أشار عليها أن تستأنف العلاقة، وتداوم على إرسال الخطابات للرئيس، على أن ترتفع فيها نغمة الشكوى، أكثر، وتتظلم طالبة زيادة فى المعاش، بحكم أنها ولية وحيدة، لا عائل ولا معين لها فى الدنيا، ولا سامع لشكواها غير الله، ورئيس الجمهورية.

وبصراحة، فاق الجهد الذى بذله عبده المزين، فى كتابة الخطابات الجديدة، كل مجهوداته فى كتابه خطابات المرحلة الأولى، التى توجت بحصول زينات على المعاش، وذلك لأن القانون الصادر، بهذا الشأن كان واضحا، فيما يتعلق بحق زينات فى المعاش، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فالخطابات الأولى كانت

مبررة، لأن زينات لم تكن قد حصلت على المعاش بعد، أما الآن فتلبية طلبها سيكون على نحو استثنائى، بناء على توجيهات رئيس الجمهورية، والذى يمكن يأمر بذلك عندما يشعر، من خلال الكلام المكتوب له، بحقيقة أوضاع زينات، وظروفها الصعبة، التى تصعب على قلب الحجر نفسه وتفتته.

لذلك فإن عبده المزين حك قريحته، حكًا شديدًا، ليخرج عصارة قدراته البلاغية، فى محاولة للتأثير على الرئيس بما يكفى لإصدار الأمر اللازم لزيادة المعاش، لكن يبدو أن مستوى ما يكتبه كان ضعيفا على نحو أو آخر، لأن ردًا واحداً لم يصل من الرئاسة، يتعلق بمصير تسع خطابات، كتبهم عبده، على يد زينات نفسها، بهذا الخصوص، لذلك وقبل سماع زينات للنبأ العظيم بأيام كان عبده المزين قد وصل إلى قمته البلاغية فى كتابة الخطاب العاشر للرئيس، ولا يمكن إنكار أن زينات، نفسها، شاركت بجهد لا ينكر فى كتابة متن هذا الخطاب، بعد أن ظلت تتباحث مع عبده فى دكانه الصغير، حوالى ثلاث ساعات، حتى يخرج الكلام فى أحسن صورة، وقد اضطر عبده إلى كتابة الكلام عدة مرات، بعد أن ظلت زينات تعيد الصياغة، وتمد عبده بأفكار جديدة مؤثرة، والحقيقة أن عبده، رغم كونه طيبًا وأميرًا جدًا، لم يكن ليصبر، كل هذا الوقت، لولا أن الدنيا كانت آخر شهر، والزبائن معدومة أرجلها على الدكان تقريبا، ولكن عبده أن يستمتع أيضا بالكتابة، لأنه اكتشف، من خلالها، أنه يستطيع أن يقول كلامًا جميلاً، وحلوًا للغاية، تأثر به هو نفسه، كما أن نتيجة كتاباته الأولى عززت ثقته بنفسه، وبقدراته الكبيرة فى هذه الناحية، وهو أيضا لا ينسى هدية زينات المشجعة له، والتى كانت على أرض الواقع، ذكر بط كبير، ألقمته زينات، لمدة أسبوع قبل تقديمه لعبده، فولا ناشفًا، عند كل عشيه، حتى ثقل وزنه، وأصبح فى حجم بجعة تقريبا، وقد ترافق مع زجاجتى شربات، واحدة ورد، والثانية مشمش، وعلى أية حال، كانت الهدية، على بعضها، مفاجأة حقيقية لعبده، الذى لم يتوقع أن تكون فخمة ومكلفة على هذا النحو.

بالنسبة للخطاب الأخير، كان عبده قد حاول فى البداية تطعيم الديباجة التقليدية، التى يكتبها كل مرة، والمنصبة على الشكر والحمد، وإطراء رئيس

الجمهورية، ببعض آرائه السياسية، المتعلقة بالموقف الراهن، ورأيه فى الأمريكان والانجليز، ودور الإقطاع المتحالف مع الاستعمار، وغيره من الكلام الذى كان عبده يحبه جدا، وقد حاول كتابته، ليظهر مدى اطلاعه على الصحف والمجلات أيضا، وكان سيتطرق، من خلال ذلك، إلى موضوع، زينات وطلبها المذيل بأمنياتها فى إطالة عمر الرئيس، وطرح البركة فيه، وفى عياله، والدعاء لله ليكفية شر أعدائه، ومن يتشدد لهم.

لكن زينات، صاحبه الخطط، كانت تحمل فى رأسها فكرة جديدة للكلام، فكرة تشكلت من خلال جلوسها، كل يوم، أمام صور الرئيس، ومحادثتها، فقد أحبت زينات رئيس الجمهورية جدا، بعد رده عليها، وبعد حكاية الثلاثة جنيهات، وكادت تشعر أنه سندها الحقيقى فى الدنيا، وداخلها إحساس بأن صوره تؤنس وحدتها، وتزيل الوحشة عن نفسها، عندما تكون وحيدة بانعشة، كذلك قررت أن تكلمه بصراحة، وتقول له كل ما عندها من كلام تحبسه فى نفسها، هكذا قالت لعبده المزين، الذى رفض الفكرة فى البداية، واعتبر ذلك تدخلا منها فى اختصاصه، لكنها ترجته، وطلبت منه أن يتركها على راحتها، «يمكن ربنا يجيب الطوبة فى المعطوبة». وكانت تقصد بذلك الخطاب. وعبده، فى الآخر تركها تقول ما تود قوله، لأنه خاف أن يكون هذا الكلام هو الكلام الشافى، الذى سيجلب الفائدة لها، فيحرمها منها، وهى الولية المسكينة، فكتب كل ما قالته زينات للرئيس، حيث حكت حكايتها من طقطق للسلام عليكم. ومن لحظة موت أبيها، وهى صغيرة، حتى ما بعد ترملها، وهى لا تزال بنت بنوت لم يدخل عليها العريس، الذى مات مع صاحب الدكان الذى كان يعمل عنده فى حريق. كما روت له كيف أنها ظلت بعد ذلك مع أخيها الوحيد، لكنها، بعدأن تزوج، وبقى مربوطا من رقبته بكومة عيال، تركته، وتركت الخناق، كل يوم والثانى، مع أم العيال، وراحت تعيش لوحدها فى العشة، وحكت له أيضا أنها حاولت أن تشتغل أكثر من مرة، دون جدوى، وكان آخر هذه المحاولات، التقدم لمسك شغلة عاملة نظافة فى المدرسة القريبة لسكنها، لكنها رفضت، لأنها لا تعرف القراءة والكتابة ثم بعد أن شكرته، على الجنيهات الثلاثة، بكلمات كثيرة مؤثرة، وكذلك على الثمانية عشر جنيها، ودعت

له من قلبها، دعاء مناسبا، قالت له: «لا مؤخذة، وبلا صفرة، الثلاثة جنيهات لا تكفى شيئا، لأن كيلو اللحم دخل سعره على الجنية وكيلو الترمس بقى بنص الجنيه»، ثم فوق ذلك، فهى تشترى علبة الدواء، الذى نصحها الحكيم بالمداومة عليه، بالشيء الفلانى، وحكت له أيضا أنها وحيدة، وأنها تستحى أن تمد يدها لمخلوق على الأرض مهما كانت الظروف، لذلك فهى تطلب منه، تحديدا، طلب الأخت من أخيها، والعيلة من أبيها، وصاحب الحاجة من القادر المستطيع، أن يزيد معاشها قليلا، بحيث يكفى لسد مطالب الدنيا، ثم طلبت من عبده المزين أن يحكى للرئيس، بالتفصيل، حكايتها يوم خروجه، فى موكب صلاة الجمعة، وتصرف العسكر، الذين بلا أصل ولا شرف، معها، لكن عبده المزين رفض، رفضا باتا، هذه النقطة، بالذات، لأنها قد تؤدى إلى عدم وصول الخطاب إلى رئيس الجمهورية، إذا ما فتحه واحد غيره وقرأه، واقترح أن يضيف فى نهاية الكلام بعض الأبيات الشعرية، التى مازال يحفظها، من أيام الابتدائى، لكن زينات رفضت، وقالت له أن الرئيس سوف يفهم الكلام، على حاله، ولا داعى للشعر، فاكتفى عبده بخاتمة إنشائية، أكد فيها أن الشعب كله وراء القائد البطل فى وقوفه ضد الاستعمار والرجعية.

زينات، ارتاحت للخطاب جدا، وكانت واثقة ان الرئيس، لا بد وأن يرد عليها، ويتخذ اللازم بالنسبة لطلبها، لأنها كتبت له كلاما ما بعده كلام، وكانت تحلم أن يزيد المعاش إلى خمسة جنيهات، بل وكانت قد وضعت، فى مخليتها هيكل خطة جديدة لحياتها، على ضوء ذلك، فثمة هاجس داخلى، يتنازعها، بأن الخمسة جنيه لو اكتملت فى يدها، أول كل شهر، لابد وأن تكون نقله كبرى، ستغير حياتها، بل وربما ساهمت فى تحقيق حلمها الدائم، ذلك الحلم، الذى لا يغيب عنها أبداً، بالزواج وأن تصبح أما. صحيح أنها، فى الواقع، بعيدة عن ذلك الحلم، لأن العمر جرى بها، وتخطت سن الطلب ولأنها حتى عندما كانت فى سن الطلب، بعد وفاة عريسها، لم ينظر إليها صنف مخلوق، لأنها ـ يا حسرة ـ لا مال ولا جمال ولا يحزنون، لكن الجنيهات الخمسة، ربما تحرك واحدا للتفكير بها، والحقيقة أن زينات كانت حاطة عينها على كناس عجوز كانت تشوفه مرات، وقد عرفت منه

أنه هج، وترك امرأته وعياله، منذ سنوات طويلة، ونزل مصر، دون أن يعرفوا له قرارا، حتى الآن، وكانت نظرات خبيرة منها كفيلة بأن تخمن إمكانية خروج عيل من صلبه، وفكرت أن الجنيهات الخمسة، قد تغريه بما فشلت الطبيعة، التى شكلت معالم وجهها وجسمها، فى اغرائه بها.

لكن الدنيا غرورة وكذابه، وما دامت لأحد، هكذا ظلت زينات تردد من ذلك اليوم المشئوم، الذى جاءها فيه عبده المزين بالنبأ العظيم، بعد أيام من ارسال الخطاب، الذى اشتركا فى كتابته، إلى الرئيس. فلقد راحت له فى الدكان، لتسأله إن كان قد وصل رد من رئيس الجمهورية، لأنها كانت تكتب عنوانها، عنوان دكان عبده.. لأنه واضح ومفهوم ولا يمكن أن يتوه عنه البوسطجى - لكن المزين ، الذى انتظرته زينات بجوار دكانه، مالبث أن برز من آخر الحارة، ولونه مخطوف وأصفر كالكركم، وهو يلطم كالحريم، بل أن زينات ساعتها أحست أن المياه لابد وأ ن تكون قد سابت بين وركيه، خصوصا عندما رأته يندفع كالممسوس إلى الراديو، ليديره وهو يصرخ، مات الرجل، مات الرئيس ياعالم، الرئيس توفى يا ناس.

ساعتها لم تشعر زينات الا ويدها تمسك بتلابيب عبده، وقد تفجر فى داخلها غضب غريب، غضب هائل، جعلها تشتمه وتقول له: «اخرس قطع لسانك.. قطع لسانك يا عبده، ارمى من بقك يا عبده الكلام الأسود...».

لكن أهالى الحارة كلهم كانوا قد تجمعوا حولها، كانت نظراتهم تنطق بالحقيقة المرة. التى رفضت زينات تصديقها، مثلما عبرت عن هذه الحقيقة الدموع، التى سالت على كل الوجوه، كما لو كانت تسيل بفعل ضغط على زر أوتوماتيكى، أما الشعور المنكوشة التى تساقطت عنها طرح النساء، وأكف الرجال، التى كانت تخبط على بعضها فى حسرة، فقد كانت كفيلة بأن تجعل زينات توقن أنها فى علم وليست فى حلم، فما كان منها إلا أن صرخت بالصوت الحيانى، وصاحت صيحة عظيمة سقطت بعدها مغشيًا عليها.

زينات، ساعة الجنازة، عملت حاجات كثيرة، فى الأول، فضلت تدور على الحوارى، وتلم النسوان، يلطمن ويصوتن، ثم سارت وسطهن جميعا، حتى وصلت

لسكة الجنازة فى الشارع العومى الكبير، وهناك رأت زينات خلقا كثيرًا، وكأنها فى يوم الحشر، فحوقلت، وعرفت أن الرئيس كان عزيزا وغاليا، عند عيال ونسوان وجدعان كثيرين، فصعب عليها أكثر، وبميت تشهق وتنهنه كما الصغار، وترجع تصوت وتندب وتقول: «يا خسارة شبابك ياعينى»، «اتخطفت قبل الأوان يا أمير»، ألف رحمة تروح يا حبيبنا كلنا، يا حبيب الدنيا كلها».

ثم فجأة تذكرت الخطاب والمعاش، وحاولت تصور ما سيكون من أمرهما بعد ذلك، ولما أعياها الفكر السريع، ولم تصل إلى تصور معقول للموضوع، اهتاجت وتركت النسوان، وأخذت تركض باتجاه النعش، بينما تتخابطها الاكتاف والأيدى والرءوس كانت قد قررت أن تلقى نظرة عليه عن قرب، وأن تلامسه بيدها، وعندما كان النعش يكبر فى عينيها أكثر وأكثر، وتتضح ملامحه، وتدرك أنها اقتربت كثيرا، فترمى بنفسها. وسط الناس بقوة، وتدفع هذا وذاك غير عابئة بما يمكن أن يجرى لها، وعندما أصبحت قاب قوسين أو أدنى من النعش، بدأت الأيدى تمتد إليها، باللطمات لتمنعها، لكنها كانت تعاود الاقتراب، مرة أخرى، فيمنعونها، ثم فجأة شعرت بطعم الدم المالح على شفتيها، وأحست بأنها فقدت أنفها تماما.

الجنون الذى انتاب زينات، هذه اللحظة، يقول البعض انه حقيقى، أما هى فتقول، عندما تستعيد هذه اللحظات، وتتجمد فى عينيها نظرة حزينة هادئة، أنها كانت ساعتها قد تذكرت طول انتظارها يوم موكبه، بعد صلاة الجمعة، وما جرى لها وقتها، لذلك وبدون شعور منها راحت ترد على اللكمات والضرب، الموجه لها، بضربات أقوى، كما أنها غرزت أسنانها فى الذين ضربوها قدر استطاعتها.

أما فى محضر القسم، الذى حرروه لها، فقد قالت أنها عضت الرجل السمين، أبو قميص أبيض حرير، فى يده، لأنها شعرت أنه يبتسم فى الجنازة، وأنها نظرت إلى وجهه عند ما رمى بعصاه صورة الرئيس، التى كانت تحملها، فرأته ينظر ناحيتها ويبتسم.

زينات، التى ما فتئت تردد، بينها وبين نفسها، «دنيا غرورة وكذابة»، يقال، أنها بعد تحرير هذا المحضر لها بسنوات فى القسم، احتجزت لأيام فى قسم بوليس آخر، بسبب اشتراكها فى الهوجة، التى جرت وقتما رفعت الحكومة ثمن العيش، وأنها كانت تردد وقتها «ألف رحمة تروّح لك يا خَيْبَ الناس كلها». بالإضافة إلى كلام كثير لا داعى لذكره هنا.

- ١ -

بعد مرور أسبوع على تلك الحوادث الفظيعة، جلست أم شحتة، كعادتها، ظهيرة يوم شتوى مشمس، تغمس مشطها العظمى، المتبقى من أيام زفافها، فى كيروسين علبة السالمون الفارغة، وتسلك شعرها، بحثا عن قملة غريبة تسللت إليه من هنا أو هناك.

رمقت ديكها الأحمر الصياح فخوراً بدفء الشمس، وأصابعها تحيل الخصلات الجافة جديلتين صغيرتين، وفكرت متوجسة: «ترى.. هل سيتركونه يعود من القشلاق هذا الخميس؟».

أما هو - حسين دياب - فكان خلال هذه الأثناء جالسًا فى غرفة التحقيق، يقرأ ما أدلى به من أقوال، ويفكر مشحونًا بأحداث الأسبوع الفائت، تضايقه رائحة غياره الداخلى الملوث بآثار احتلامه فى الليلة الماضية، يمرر أصابعه على وجهه، متحسسًا التضاريس المستجدة على صفحته، التى تركها المخبرون عليه بميدان رمسيس وحجز الشرابية، أثناء وبعد الحوادث، كهدية بسيطة تؤكد أن الشرطة فى خدمة الشعب، وكان يحاول، من قراءته للسطور، استنتاج الصورة التى سيكون عليها قرار اتهامه، بعد أن استنطقوه ثلاثة أيام بلياليها.

والحقيقة، أن حسين دياب كان كمن أفاق لتوه من حلم غريب، لم يتقين واقعية ما يدور حوله بعد، فصور القبضات العنيفة المضمومة فى غضب، وألسنة الحرائق المندلعة فى القطارات، والمحلات، والدكاكين المستباحة تمر برأسه

كشريط سينمائى طويل، وتختلط بسطور استجوابه، وكان مشهد النسوة المتشحات بالسواد، قطيع ضخم من عجول البحر، وهن يزعقن ويصرخن، يأتيه بقوة لا يفوقها إلا قوة صوتها هى، تلك المرأة التى ألهبت أفكاره على نحو لم تفعله أية امرأة أخرى من قبل، وكانت بالنسبة له، فى تلك اللحظات، بمثابة اكتشاف مذهل مفاجئ، لا يمكن توقعه أبدا، وهو الذى يعرفها جيدا، منذ سكن الحارة، ولم يكن يتوقع وهو الذى تعودها كانسة، غاسلة للملابس، بائعة للبيض، ومجالسة للنسوان على عتبات البيوت، أن تكون على هذه الصورة، والحال، اللذين كانت عليهما أثناء الحوادث، تتألق فى الشوارع، وتطلق من حنجرتها الحديدية صواريخ مدوية، تتبدد وتضيع فيها أصوات الجميع... جميع من كانوا وقتها هناك من سكان الوادى، الذين تجمعوا حولها من الحارات والدروب الكثيرة، وبرغم محاولاته المتكررة لشحذ كل طاقاته الصوتية - هكذا يذكر الآن - لكى تخرج كلماته قوية واضحة فإن صوتها ظل هو الأقوى، حتى فى اللحظة التى تصور فيها إن الجميع سيرددون وراءه «لم كلابك يانبوى» عندما بدأت عساكر الداخلية بالهجوم، لكنه لم يسمع غير زائير واحد، يسيطر على جميع الأنحاء، يردد هتافها «قوم يا وحش، شوف الجحش بيعمل إيه».

لا، لم يقم بالتحريض مثلما ظنوا، لقد حاول، ولكنه فشل وهو يعترف لنفسه، فى هذه اللحظات، أنها هى التى خططت ونجحت فى لم الناس، وهى التى ذهبت بهم هنا وهناك، بلحمها وشحمها الكثيرين، رغم ما يعترى قدميها من أوجاع تعاودها ويعرف جيدا أنها تحيلها، أياماً طوالا، جثة هامدة لا تقوى على مبارحة فراشها. لقد صدمته، فى اليوم المشهود، بعنفوانها وقوتها الرهيبة، حتى أنه يظن الآن أن الآلام فى كتفه اليسرى سببها لكزتها السريعة، عندما أوشك هجوم الأمن المركزى، لتشير عليه بالهرب قائلة: «ارجع أنت يا مضروب». أنه يتذكر الآن، أثناء قراءته لسطور اتهامه ، نظراتها القوية المشفقة، التى قرأ معناها جيدا، وأشعرته بالغيرة وسط تلك الجموع المتدفقة. «ثمة خطأ فى المسألة!» هكذا فكر، وأخذ يهز فخذيه هزات عصبية خفيفة، «كان من الأحرى أن تكون هى فى هذا المكان بدلا منى».

- ٢ -

فكرت وهى تدس أصابعها فى مؤخرة العتيقة البياضة، التى حاصرتها فى زاوية غرفته، أن «المضروب» طال حبسه أكثر مما يجب: «ضربوه، أمر مفروغ منه، ولكن لماذا استبقوه حتى الآن».

تطلعت فى كتبه وأشيائه المبعثرة فى أنحاء الغرفة، وأخذت تمسح، بوريقة مهترئة، الكتب والكراسات، التى برقشتها الفضلات الطرية لدجاجاتها، وترفعها لتضعها على مكتبه برفق، تأملت ماوتسى تونغ، المنكب على وجهه بين صفحات مختاراته، ودققت فيه قليلا، وتهيأ لها أنه يشبه المرحوم أبو شحتة، تحسرت وترحمت، وأعلنت لنفسها «يخلق من الشبه أربعين». لكنها ظلت حائرة، لماذا جاؤوه بهذا العدد الكبير من العسكر فى «البوكس»؟! لماذا فتشوا غرفته «المخروبة» على هذا النحو الدقيق، كمن يبحث عن إبرة فى كومة من رمال؟!، وخطر لها خاطر: «يمكن المضروب بيشتغل فى الحشيش؟». وإلا لماذا «تكبسه» الحكومة بكل هؤلاء العسكر آخر الليل؟!. لكن هذه الفكرة تبخرت من دماغها سريعًا، فهى تعرفه، تعرف «المضروب» حسين دياب معرفتها لضناها، ونور عينيها، شحته، وتعرف أنه قطة مغمضة لا حول له ولا قوة إلا مذاكراته وكتبه. ولعنت الحكومة و«البوليس»، لتدخلهم فى كل كبيرة وصغيرة فى حياة الناس، وحبسهم لحسين الغلبان، بصوت لم يسمعه إلا الديك المنتظر قريبًا منها، بينما كانت تهش الدجاجات بعيدا حتى تغلق باب الحجرة بورقة حشرتها بينه وبين الإفريز.

والحقيقة أن أم شحتة، منذ بداية الحوادث، وحتى هذه اللحظات، حيرها أمر حسين دياب، كلما فكرت به، وظنت أنها لم تكن تعرفه أبدًا، وهى التى كانت تراه ذاهبا، كل يوم، من حجرته إلى الجامعة، ومنها إلى حجرته، يحييها كلما عبر ببابها، ويطلب منها أن تغسل ملابسه، وتنظف حجرته، ولقد أدهشها إصراره على متابعة السير معهم ساعة «الهوجة» واهتمامه المفاجئ بالموضوع، كما لو كان يخصه هو ، وهو «العيل»، المعتمد على أبيه فى أكله ودخانه ومصروفه، الذى يزيد فى الشهر على ما يعطيه الجيش لشحته، وما تبيعه هى من بيض، ولم تكن تتوقع

أن الأمر يعنيه مثلما يعنيها، وهى التى ضاقت الدنيا فى وجهها، بعد أن ظلت تفكر وتحسب. وتعيد الحسبة بلا جدوى، لتدبر المعيشة. بعد أن مست نار الغلاء كل شىء، وجرت فيه الجارية، حتى الخبز والأرز، قوت أيامها، طالته النار، فبكرت، وجرت لسحتوت البقال تشتكى إليه، وترجوه أن يتصرف، ويسأل الحكومة والتموين عن حل للموضوع.

- ٣ -

صحا من نومه على زعيقها فى الحارة، اخترق صوتها الجهورى أذنيه، كما النفير، تصور أولا أنه يحلم، لكنه سرعان ما اكتشفها، هى ، أم شحته، بصوتها «الكونترياصى» الرهيب، تعلن: أن العيشة صارت مرة ، ودين النبى مرة». كانت كنمرة جائعة أطلقت من قفص بعد حبس طويل، لا تتوقف عن الشتائم والسباب، والدعاء على الحكومة ورئيسها، والتموين، و«البوليس»، وكل من لف لفهم، دعوات حارة ظنت أنها ستصل السماء. قفز من سريره، ونظر من شباك غرفته العالى المطل على الحارة حيث كانت واقفة عند سحتوت البقال، ورآها وحولها لمة من النسوان والعيال، وسحتوت نفسه يقف أمامها بلا حراك، كمذنب متهم ما انفكت تستجوبه، وتوجه له الأسئلة، هازئة من موقفه المتخازل، مشيرة للحيته: «مؤمن لا يعرف الدين، مؤمن لا يعرف الحق والرحمة مؤمن ولا يقف فى وجه الباطل».

ظل هو من موقعه يرقب «الهيصة» دون أن يفهم شيئا من الموضوع، فصوتها، وهى تصيح: «رغيف الخبز بقرشين!؟ والله حرام يا سحتوت»، يختلط بصوت سحتوت، الذى أخذ يقول: «مثلى مثلك، لا أعرف شيئا عن المضوع»، معلنا تبرمه وضيقه من اللمة التى صارت على الريق، قبل الاستفتاح. لكن أم شحته تعلن قرارا مهما!؟ ستذهب إلى مكتب التموين، ستتكلم مع الحكومة، وتطلب من مظفيها أن يتصرفوا فى الموضوع.

عاد ليستكمل النوم اللذيذ، الذى لا يزال يدغدغ أوصاله صباح ذلك اليوم الشتوى البارد من شهر يناير كانت صورتها وهى تغادر الحارة، بجلبابها الأسود. وطرحتها المحكمة حول رأسها، ووراءها جمع من عيال ونسوان الحارة يلوحون

بقبضاتهم فى غضب، يجيئه فى حلمه، كغيمة سوداء ضخمة ناءت يحملها العواصف. ولم يستيقظ من نومه إلا وقت الظهر، عندما هب مذعورا، لأنه ظن القيامة قد قامت.

- ٤ -

طوال «سكتها» إلى شارع عشرة، حيث مكتب التموين، كانت تتحدث مع نفسها، «مع الناس بصوت مرتفع، يسمعه الرائح والغادى، وكانت تتوقف أحيانا لتلتقط أنفاسها، فالمشوار طويل، وخطواتها ثقيلة، لكنها تسير، وستصل، كما كانت تقول للذين استوقفوها وأشاروا عليها بالعودة، ووقف معها الذين جذبتهم اللمة، ولم يكونوا قد عرفوا الأخبار بعد، حيث الوقت مازال باكرا، ولم تكف عن اعلان: «البلد خربت، سنموت قريبًا من الجوع»، لأولئك الذين فتحوا شبابيك دورهم مدهوشين، قالت رأيها بوضوح، منظرة للموقف: «ناس هايصة، وناس لايصة، انظروا راكبى السيارات، انظروا الذين يقيمون الأفراح والليالى الملاح، ويعلقون الكهارب بألف لمبة وأكثر، انظروا للذين يأكلون كل يوم قثاء محلولة، ونحن ننام على الجوع؟!، انظروا نسوان السينما والتليفزيون؟!!! انظروا امرأته، أقول لكم انظروا امرأته، كيف تلبس، وكيف تخرج، وسيرتها على كل لسان؟! تقول ذلك، والنساء حولها يتحسرن على حالهن، ويؤمم على كلامها، ويزدن من عندهن تفاصيل أخرى عديدة.

جلست على الرصيف تريح قدميها المتعبتين، تدلك بطة ساقها اليسرى التى تشنجت، وتعيد إحكام طرحتها على رأسها، ودموعها تطفر غيظًا وحقدًا. كان الجمع الصغير قد بدأ فى التزايد إلى الحد الذى وصل فيه لبضع مئات، برغم الصباح الشتوى الباكر، وبرودته المؤلمة، وسرعان ما توجه الجميع بخطى واثقة إلى مكتب التموين.

- ٥ -

«لم أذهب إلى مكتب التموين». ارتاح لأنه أدلى للمحقق بهذه الحقيقة، التى

يعرفها مثلما يعرف حقيقة ذهابها إلى هناك، فلقد انتزعته لدى عودتها من أحلامه، واستيقظ على صوتها يلعلع: « ابن الكلب.. بعد ساعتين من وقوفنا فى انتظاره، ببرود تيس، كما لو كنا عبيد أبيه»، «جسمى تكسر من التعب، والله يا ناس تعبت، قمت من البدرية، قبل أن تطير الشمس الندى، وانتظرت كل هذا الوقت.. ليقول لنا... ابن الحرام.. لا علاقة له بالموضوع». فجأة أطلقت صوتا ممتدا، انتشر فى أنحاء الحارة، وأخذت تلطم وتولول: «يا خرابى، يا خرابى يا ناس»، هنا بدأ هاتف يهتف بداخله: « جاء وقتك يا حسين دياب، حان وقت العمل، الجماهير فى ثورة، وهى فى حاجة إليك، فهلم لقيادتها، قل لهم كل الحقيقة، حدثهم عن الصراع الطبقى، والتغلغل الرأسمالى، ودور البروليتاريا، وما يحدث فى البلد الآن، قل لهم لماذا الفقراء فقراء، والأغنياء أغنياء، ولا تنس أن تربط ذلك بالمسألة الوطنية. وقضية الاحتلال، ودور الأمريكان فى المنطقة».

قرر أن يحدثهم بأشياء أخرى كثيرة، وفكر أن لغته معهم يجب أن تكون سهلة، وكلماته بسيطة يفهمها الجميع، ويمس من خلالها الموضوعات الرئيسية، لكن أم شحته لم تمهله حتى ينهى تبوله، ويرتدى قميصه وبنطاله، ليقول ما عنده، فلقد قررت الذهاب إلى المديرية والمحافظة، للتكلم مع الموظفين الكبار فى الحكومة، الذين لابد أن ينهوا الموضوع، فالذى حدث لم يكن من المتصور حدوثه أبدا.

ها هو يقرأ اعترافه المثبت فى محضر التحقيق، لقد ذهب معهم إلى المديرية بالفعل، لكنه كان واحدا مثل كل الآخرين، محض فرد مشارك، فهى لم تفسح له فى المجال ليتكلم، وكانت تصيح صارخة، بين الحين والحين، ومن خلفها كل الذين كانوا معها « يا خرابى يا عرابى»، كما أنها هى التى بصقت أولا على عسكر «البوليس»، ولعنت أصحاب المحلات الكبيرة ذات الواجهات الزجاجية اللامعة، ولم تتوان عن استخدام أصابعها وساعدها برسم إشارات وحركات بذيئة لراكبى السيارات «الملاكى»، الذين أخرجوا رءوسهم من نوافذها ينظرون بدهشة وهى التى كانت تختار الأزقة والحارات، لتلم الناس وتجمعهم فى طريقها إلى المديرية، أما هو فلم يكن إلا فردًا، عليه أن يعترف، محض فرد بسيط يسير وراءها مثلما يسير الآخرون.

-٦-

قالت لجارتها الصغيرة، التى رافقتها لتبيع البيضات الثلاثين، التى نفحتها بهم البياضة وأخواتها، وتشترى لحم الرأس الذى يحبه شحته: «لو تركوا الغلبان هذا النهار، وكان له نصيب، فسأعشيه مع شحتة، فهو غريب عن مصر، أهله فلاحون من طنطا شيء لله يا سيدى .. ولكن فى بالك، هل سيتركونه؟»

تنهدت الصبية، المكتوى قلبها بغرام حسين دياب الميؤوس منه، «يتركونه أو لا يتركونه، ماذا تستطيع هى أن تفعل؟! لقد حاولت أكثر من مرة أن تلفت نظره، وتعمدت أن تطلق شعرها، وهى تنشر الغسيل على السطح، ولكنه كان يجلس داخل غرفته لا يرفع بصره عن الكتاب، حتى عندما غنت بغنج «جميل وأسمر»، لم يكلف خاطره الالتفات بنظرة واحدة إليها، وهى التى ترتدى القمطة والجلباب».

لم ترد البنت المشدودة للواجهات الزجاجية، التى تتكدس فيها الفساتين الملونة، ومساحيق التجميل، والحلى الزائفة، لكنها قالت فجأة: «ولماذا تبقيه الحكومة عندها؟! سيكلفها أكل وشرب ونوم؟! غدا تتركه لحال سبيله».

لكن أم شحتة، باتت لديها قناعة خفية بأن الحكومة لن تتركه لحاله، طاف برأسها هذا الهاجس، وهى تتذكر ملاحقة المخبرين له أثناء «الهوجة».كانوا يحيطونه من كل جانب، ويتابعون خطواته، وهى نفسها قالت له أكثر من مرة: «ارجع أنت يا حسين»، لكنه لم يرتدع، ولم يستمع إلى قولها، بصقت على الأرض مغتاظة، وقالت لحالها: «غريبة والله هذه الحكاية!».

-٧-

أوشك أن يطلق ضحكة عالية، وهو يتذكر الذهاب للمحافظة، لقد ذهب معها، وظل إلى جانبها لحظة بلحظة، لكنه يعرف جيدا أن وجوده مثل عدمه، وهذا ما لم يفهموه أبدا فى التحقيق. كان كالبرعم الصغير أمام شجرة عتيقة، حتى أنه لم يستطع أن يقول شيئا للمحافظ، عندما خرج ليواجه الجموع المحتشدة، وفجرت

هى كل ما تفجر، بعدما يئست من كلام الرجل الذى وقف فى شرفة المبنى، وسط بطانه من الموظفين، ليقول عبارات لم تعجبها، فردت عليه باختصار من فتحتى أنفها الضخم: «قال سينظر فى الموضوع!.. وعودوا لبيوتكم الآن، أفضل لكم؟!» وكررت كلماته محاولة تقليد صوته، هازئة منه، ومن كرشه، وعويناته السوداء لاعنة آباءه وجدوده، وقررت العودة، ليس إلى البيوت الفقيرة التى أشار إليها المحافظ، والتى «لا يعرف منظرها، ولا ما يدور فى داخلها» كما قالت، ولكن إلى الشوارع والطرقات الفسيحة، التى أمضت فيها مع الآخرين النهار بطوله، واليوم التالى، ففى البداية لوحت ساعدها المتين فى حركات مبهمة، رافضة، فهمها الجميع، وبدت فيها كما يقص شريط الافتتاح لمشروع ضخم، فهجموا، مداهمين كل الأماكن والمحلات، التى ما كانوا يحلمون يومًا بولوجها قط، كقطيع وحشى سرت فيه حمى غريبة، ولم تمض ساعات، إلا وكانت الواجهات الفخمة المتتالية وما خلفها، فى خبر كان، حتى محلات الألعاب الرياضية، والأدوات الطبية، والآلات الموسيقية، باتت عارية كأرض حطت عليها جحافل الجراد فى هجوم مفاجئ ولقد شاهدها بأم عينة، هو، حسين دياب، تخرج من «جروبى سليمان» وهى تعض بأسنانها قطعة «جاتوه» ضخمة وتمسك بيديها قنينة «بلاك أندوايت» موشومة، حتى أنه كاد ينقلب على ظهره من الضحك، برغم كل تفاصيل ذلك اليوم العصيب، عندما رآها، بجلبابها الأسود وطرحتها المتهدلة على كتفيها، حاسرة الرأس، تفتح الزجاجة، تعب جرعة كبيرة منها، وتسارع بإفراغها على الأرض، بعدما اكتشفت أن مذاقها حاد، وليس حلوا كما ظنت.

حاول أن يركز ذهنه، ليستكمل قراءة السطور، متهربًا من شريط الحوادث الذى ما انفك يعبر رأسه، ويطن فيه كزنبور نحل، حتى يتبين الثغرات، ومواطن الضعف فى استجوابه. ليتمكن من تقديم دفاع جيد فى المحكمة. كان يعتقد أن حادث القسم هو مسمار جحا الذى سيدقونه فى قرار الإدانة، برغم نفيه المتكرر لمشاركته فيه، لقد تمنى فى قرارة نفسه، مرات ومرات، أن لو كان وقتها هناك، مشاركا فيه ، فهو من أبرز الحوادث التى وقعت وأطرافها، والفكرة الشيطانية التى نبتت فى رأس أم شحتة، لم يكن من الممكن أن تخطر بباله أبدا، وقد جن

جنونه إعجابا بها، عندما حكت لأهل الحارة تفاصيلها فيما بعد لأول مرة. كان يظن أن الوقت لا يزال مبكرًا على مثل تلك الأمور، والأساليب، «فهذه الجماهير العزلاء البسيطة» والمطحونة، التى لا يمكن أن تواجه العصابات المنظمة، الممثلة لمصالح الدولة، المعبرة عن الطبقة المهيمنة، فهى ما زالت محدودة الوعى، ولم تنتظم بعد فى أشكال، وأطر سياسية، تخوض من خلالها نضالات حقيقية». ولكن أم شحتة فعلتها، فخططت لهجوم مضاد على قسم الشرابية، بينما كان يبيت عند زميله حسنى عبد المجيد، واستطاعت أن تفاوض ثابت الحانوتى على نعش قديم، ملأته مع الأولاد بالطوب والحجارة، وغطته بملاءة نزعتها عن فرشتها البالية، وحمله الرجال، وساروا به فى الدروب مكبرين موحدين: «الله أكبر، لا اله إلا الله»»، والنسوان خلفهم يبكين، ويلطمن خدودهن حتى بلغ الموكب باب القسم، فألقوا بالميت المزعوم أرضا، وفتحوا النعش، ليطيروا وابلا من الحجارة، على مبنى القسم ومن فيه. كانت مباغته ما بعدها مباغتة، وخدعة ما بعدها خدعة أسفرت عن «بطح» ضابط بنسر، فى رأسه، وثلة من عساكر القسم ومخبريه، ولقد أقسمت له أم شحتة، بسرور وانبساط، أنها رأت المأمور «شخصيا» يبول على نفسه من الخوف، وهو يجرى محاولا الاختباء. كما رددت بتلذذ، لكل الذين وقوفوا يسمعون القصة، ومنهم هو، حسين دياب، كيف استطاع المهاجمون جميعا، أن يفروا قبل أن يفيق رجال القسم من عنف الصدمة، ويبدأوا بفتح النار، وقاطعها عباس «الصرماتى» قائلا كانت تطير فى الدروب والحوارى كرخ خرافى، هاربة بمن معها، وأضاف أنها جرت جرى العفاريت الرزق، وأقسم أنه لن يصدقها، بعد تلك الواقعة، إذا ما اشتكت من آلام قدميها.

ما أذهل حسين دياب، من وقتها، وحتى هذه اللحظة، التى يجلس فيها بغرفة التحقيق هو البساطة الشديدة التى تمت بها العملية، والنجاح الذى كللت به، حيث لم تسفر عن خسائر تذكر، ما عدا فقدان «زنوبة» رزة ابن عباس الصرماتى، بعد أن انخلعت من قدمه أثناء الهرب، ولم يتسن له انتعالها مرة أخرى، والخوف والرعب اللذين أصابا جميع من فى القسم. والذى يذهله أكثر، الآن، هو اختفاء أم شحتة ليلة كاملة بعد الحوادث، عرف منها فيما بعد أنها

قضتها عند أختها فى قرية بالجيزة، وعدم عودتها إلا بعد تيقنها من هدوء العاصفة، وهذا ما لم يفطن إليه هو، فنام مطمئنا فى حجرته، يقرأ ويفكر، محاولا تدبر ما حدث، وما يمكن حدوثه بعد ذلك، ليجيئوا ويأخذوه بعد ثلاثة أيام من هدوء الأحوال، بعد أن فتشوا حجرته، وهى نائمة فى حجرتها، يسمع شخيرها، ولم تستفق، وهى صاحبة النوم الثقيل لكثرة ما تلتهم من فحول البصل، إلا بعد أن أخذوه، ولقد وصله صراخها، وعويلها عليه، عندما كانت السيارة تبتعد عن الحارة، فى طريقها إلى «اللاظوغلى».

كان قد أتى على سطور التحقيق كلها. فكر قليلا قبل أن يوقع. هم بإضافة عبارة «أم شحتة التى فجرت الموضوع»، لكنه اكتفى بكتابة اسمه، فقط، حسين دياب.

- ١ -

وقفت فى مكانى متسمرة على الرصيف، والابتسامة الغريبة على الوجه تتضاءل شيئا فشيئا مع حركة القطار المتزايدة، الابتسامة التى لم أرها طوال عشر سنوات للحظة.. لا بل لأقل من المليون من اللحظة، لزمن لا يحسب بأبسط وحدات الزمن.. خلت أنى أحلم، المبانى والناس والقطارات والنبتة الخضراء الوحيدة فى أصيصها على الرصيف.. كلها فقدت وجودها المألوف.. وأحسست بإحساس لم أشعر به من قبل، غير تلك المرة البعيدة، التى أجريت لى فيها جراحة اللوزتين.. وأنا أعد الرقم الرابع بعد حقنة البنج.

رفعت يدى .. تحسست ملامح وجهى.. سألت عابرًا أمامى عن الوقت، كنت أحاول التشبث بالزمان والمكان... مرت أمامى العربة الأخيرة للقطار.. تحولت الابتسامة التى أراها للمرة الأ ولى منذ عشر سنوات، والكف المرفوعة بالتحية إلى نقطة صغيرة سوداء .. تتلاشى. آه .. لقد رحلت خالتى أم سامية.

- ٢ -

عرفت الخالة أم سامية منذ حوالى عشر سنوات، سامية ابنتها وأنا تزاملنا منذ بداية مرحلة الدراسة الإعدادية، كانت الأيام تتوالى، ويزداد معها حبى وتعلقى بها وكنت معها ـ ولا أدرى كيف ـ أشعر بقوة تملؤنى. وباطمئنان نفسى، ولقد كنت فى البداية أكرهها، غاظنى منها ضحكها الدائم.. وسخريتها العارمة

من كافة الاشياء، مرة شبهتنى بالأرنب بوجود البنات، غضبت وبكيت بحرقة، ولكنها سرعان ما اعتذرت لى دون أن تقتنع بذلك، وهى تسألنى بدهشة: وهل مثل هذه الاشياء تدعو للغضب!؟.. وأيضا البكاء؟! سامية.. دمها خفيف جدا هذا ما أظن أنه حببنى فيها دائما، كانت جذابة ذات مظهر وقور لا ينم عن شخصيتها أبدا، ولكن عندما تبدأ فى الكلام ويرتفع حاجباها، ويتمدد أنفها الطويل حتى لتظن أنه سيسقط فى فمها، عند ما يحدث ذلك تتحول رؤية الأشياء فى عينى وفى عيون جميع من حولها، أنها تحول البشر إلى طيور وحيوانات، وتسبغ على الحيوانات صفات آدمية، كانت تسخر من الناس ومن نفسها ومن الأشياء دون أن يستطيع أحد مقاومة هزلها فلا يضحك.. ولن أنسى يوم حضرت إلى فصلنا ناظرة المدرسة بصحبه المفتشة.. عندما سألتنا عن الأدوية المطلوبة فى صيدلية المدرسة، تحمست سامية كعادتها وركزت عينيها فى عينى المدرسة، وأجابت بوقار.

حبوب منع الحمل

للحظة ساد الصمت، ولكن سرعان ما اندلعت ضحكات حقيقية بدأت من عند المفتشة والناظرة واستشرت حتى وصلت إلى المدرسة التى كانت واقفة فى آخر الفصل.. وخرجت المفتشة يومها وهى تضحك بينما جلست سامية فى هدوء وهى تسعل.

بعد ذلك بأيام، سحبتنى سامية من يدى بعد انتهاء اليوم الدراسى حتى وصلنا إلى أمها فى المطبخ، كانت واقفة تنظر من النافذة، بينما يموج مرق فى وعائه فوق الموقد.. استدارت على ضجيج سامية وهى تعلن لها عن حضورى.. مسحتنى بنظرة انتهت فى بؤرة عينى وقالت:

- أهلا يا ابنتى.

لم تزد.. بينما كانت سامية تحدث ضجيجها وراحت تنكر بكلامها عنى وتقول: أتذكرين.. تلك التى كانت تساعدنى بالكتب الخارجية فى العام الماضى..

وغششتنى فى امتحان العربى، ولولاها لكنت رسبت، ألم أكلمك عنها من قبل؟.. ألا تذكرين؟!!. منذ اللحظة الأولى التى رأيت فيها أمها.. كانت تخلف عندى الدهشة دائما، ورغم السنوات العشر التى مرت، فما أظننى قد عرفتها أبدا، هكذا فعلت فى ذلك اليوم ـ ودائما كانت تفعل ـ اقتربت منى وأخذتنى فى حضنها، وانحنت حتى لامست منبت الشعر الفضى فى جبهتها والذى لم أر من شعرها الملفوف فى طرحتها السوداء غيره طوال عشر سنوات. وقبلتنى فى خدى بحب وبكت.

ـ ٣ ـ

فى الشتاء .. فى الصيف.. عبر كل الشهور .. كنا نجلس دئما جلستنا الثلاثية هذه هى على الكنبة الإستامبولى القديمة الموضوعة تحت النافذة عينها مرة على شغل الكيروشية الذى بيدها، ومرة على الشارع الهادئ الذى قلما يعبره عابر وسامية وأنا فى الناحية الأخرى من الحجرة نجلس بجوار المكتب.. نذاكر دروسنا أو نثرثر، سامية تلقى نكات وأنا أضحك.. وهى لا تتحدث أبدا ولا تشاركنا الحديث أو حتى تبتسم لنكات سامية، فقط من حين لآخر كانت تباعد بين حديثنا قائلة:

ـ سأصنع شايا.

أو تنبهنا:

ـ استعدوا للأكل.

ما عدا ذلك ، لا أذكرها متكلمة قط، وما رأيت من شعرها غير المنبت الفضى اللامع يتوسط أعلى الجبهة، والذى يبدو من طرحتها السوداء كنجمة مشعة وحيدة فى ليلة حالكة.. أذكر مرة بعيدة ذهبت فيها لسامية لتغيبها عن المدرسة يومين، وعندما دقت الباب فتحت لى هى، وطالعتنى عيناها والدمع يتساقط منهما على يدى التى ولدت أمبارح ثلاثة بوسى ولدت امبارح ثلاثة!!.

- ٤ -

آه .. نسيت أن أحكى لكم عن بوسى.. أنها العضو الثالث فى أسرة صديقى سامية .. التقطتها أمها يومًا وهى قطيطة صغيرة من الطريق، عندما كانت عائدة من السوق، ومن يومها ولبوسى حياتها المستقرة فى البيت، لها طبق طعامها الخاص، وفراشها، وعندما تغيب فى مواسم الإخصاب من حين لآخر لتلبى مطالب الجسد.. يدب القلق فى البيت، ولو غابت أكثر منذ ذلك تذهب أم سامية وتسأل عنها الجيران، وكثيرا ما كانت سامية تتندر على عشاقها من القطط الذين يبيتون أياما فى الصقيع على سلم البيت يناجون معبودتهم بوسى.

وكانت تجلس على فخذى خالتى أم سامية تحت النافذة فتداعبها وتمسح لها على رأسها، فتحركه القطة اللعوب بدلال.. أو ترمى لها بكرات الخيط لتلعب بها وتخفيها تحت الكراسى وتعود بها.

وفى احدى المرات .. ذهبت إليهم، فطالعتنى والقطة على صدرها، وهى تحتضنها وتربت عليها، ودموعها تتسابق على خدها فى امتنان وهى تقول:

- بوسى فيها بركة وفدت سامية، وقع إناء الشاى المغلى، ولو لم تكن بوسى موجودة بجوارها لوقع عليها وأحرقها، بوسى فيها بركة.

تأملت فراء القطة المبتل.. فقط كانت تنتفض من البرد وتلحس شعرها فى ضيق من لحقت بجسده أقذار.

- ٥ -

المرة الوحيدة التى اصطحبت فيها أمى إلى بيت أم سامية كانت منذ سنوات. كانت أم سامية تصنع أشغال الإبرة للناس مقابل نقود تسند بها معاشهم القليل.. يومها أرادت أمى أن تحيك وشاحا، وكنت سعيدة لأنها ستتعرف على أم سامية، وعندما جلسنا سويا على الكنبة، راحت أمى تحكى لها عنا : أبى وأخواتى وأنا، وهى صامتة تستمع ولا تترك الإبرة والخيط من يدها، ولا تكف عن النظر إلى الشارع بين الحين والحين كعادتها، وعندما حكت أمى عن موت أبى المفاجئ

بالمكتبة منذ خمسة وعشرين عاما، عند ذلك.. اقتربت الخطوط الدقيقة بين حاجبيها وتلاصقت، وتذبذبت شفتاها الرقيقتان فى حركات سريعة متلاحقة .. واحتقنت أرنبة الأنف الذى يشبه أنف سامية تماما .. وسقطت دموع .. دموع.

-٦-

منذ عرفت بيت سامية، لا أذكر أنه قد مر يوم عيد دون أن أزورهم، فى الصيف أو الشتاء .. بعد العصر دائما، كنت أرتدى ثوبى الجديد وأحمل صندوق الكعك الصغير، وفى الطريق اشترى قطعة شيكولاته لسامية و«بمب» لأفزعها به، وأذهب .. وعندما أرى أمها تجلس تحت النافذة، أتقدم منها وأقول لها كل سنة وأنت طيبة يا خالتى.. كانت ترد المعايدة، وهى تأخذنى فى حضنها، وتشير إلى ثوبى الجديد بالإعجاب، وتقبلنى فى فمى .. وما زلت أذكر مذاق ملح دموعها على شفتى.

-٧-

لا أنتظر حتى أصعد درجات السلم.. أزعق بمجرد دخولى إلى فناء المنزل الصغير .. سامية نجحت .. سامية نجحت .. هذه المرة أدفع الباب الموارب بلا استئذان .. أدخل إليها وهى واقفة مبتلة الثياب أمام الحوض.. أضرب الأرض بقدمى وأزعق .. نجحنا .. نجحنا .. سامية نجحت، تجفف يديها من الماء والصابون فى جلبابها بسرعة .. لا تبتسم .. لا تضحك .. لا تتكلم، الدموع المتأهبة للفرار تفارق المقلتين، وتتداح على الخدين مدرارة بلا زمام .. أقول لها فى هدوء.

- مبروك يا خالتى

-٨-

منذ عام تخرجنا وسامية.

هى مدرسة بالريف .. تذهب إلى القرية، وتعود إلى بيتها مرتين فى الأسبوع، وأنا موظفة بالحكومة، أحمل نفسى مرة كل صباح إلى الطرف الآخر من المدينة وأعود عند الظهر، ولا يمر يوم دون أن أذهب لخالتى أم سامية، أطل عليها وأسألها إن كانت تريد شيئا، وأحكى لها عما حدث لى طوال اليوم، وعن مشاكل العمل، وأحيانا كنت أستأذن أمى فى المبيت معها فى الأيام التى كانت تغيب فيها سامية بمدرستها البعيدة، ونظل ساهرتين، لا نكف، هى، عن الإمساك بالابرة، بينما انا أقرأ كتابًا أو مجلة وأحكى لها عن العرسان الذين يطلبون يدى، وعن ابن خالتى الذى رأى سامية مرة عندنا ويريد أ ن يتزوجها، وهى لا توافق لأن شكله كحمار عربة الزبالة.. كنت أقول لها ذلك وأضحك وأنا أتخيل منظره، أما هى فتنظر لى بين الحين والحين وتتأملنى والدموع تبلل عينيها، وتدعو لنا بالتوفيق.

- ٩ -

أظن أنى لا أستطيع أن أحكى التفاصيل الآن، وهى لا تهم بعد ذلك؟ ولا أدرى أأسف أم أرتاح لنسيانها؟

فقط .. الذى حدث .. هو أن آخر مرة رأيت فيها سامية كانت عندنا فى البيت .. جاءت لتعود أمى المريضة، وكنت ذاهبة لشراء بعض الأشياء فخرجت وتركتها مع أمى، ومن ساعتها .. لم أرها .. وإلى الأبد.

باختصار .. ماتت سامية فى حادث مفاجئ على الطريق الزراعى وهى عائدة إلى أمها من المدرسة.

- ١٠ -

أتعرفون جنازة الغربان؟ سأحكى لكم عنها، عندما يموت غراب .. تتجمع الغربان فجأة وتقيم مأتمًا وجنازة لدفنه، ومثلما لايدرى أحد.. من أين تأتى تلك الأعداد الكبيرة منها، وكيف تتجمع على وجع السرعة تجمع أقارب سامية وأهلها، حتى ملأوا المنزل عن آخره.

طوال علاقتى بسامية لم أر لها أقارب على الإطلاق، ولا حتى فى الأعياد، ولم تكن تحادثنى إلا عن أمها ولا أظنها أثارت ذكرى والدها المتوفى مرة أمامى، وعندما عرفت خبر وفاتها وذهبت إلى منزلها، نصف سائرة ونصف طائرة، بين مصدقة ومكذبة، فى حالة تعقل، وأيضا جنون، كنت حتى تلك اللحظة.. حتى لحظة رؤيتى لخالتى أم سامية، كمن ألقى به من برج مرتفع ولم يرتطم بالأرض بعد، وعندما رأيتها آه .. رأيتها جالسة على الكنبة تحت النافذة بلا إبرة فى يدها ولا خيط، بلا دموع على الكنبة تحت النافذة بلا ابرة فى يدها ولا خيط، بلا دموع على خديها.. صرخت .. زعقت.. خبطت على رأسى ولطمت خدى، ودفنت وجهى فى حاشية ثوبها ورحت أعضها، شعرت بأن طاقة الألم الهائلة بداخلى تمنع الهواء عن صدرى لم أقو على الكلام بين الحين وقد تخشب لسانى فى موضعه، وكنت أرفع رأسى بين الحين والحين، أنظر إليها علها تقول أو تفعل شيئا، لكنها كانت كما هى بالنظرات الأولى نفسها التى طالعتنى بها، يوم رأيتها لأول مرة، والتى تمسحنى حتى تستقر فى المقلتين، ومنبت الشعر الفضى عند الجبهة وسط لجة السواد الكبيرة. فقط لمحت كفها تتصلب متشبثة بمسند الكنبة القديم، وسرسريا من الماء الدافئ يتسرب من تحت جلبابها الأسود على الجزء العارى من ساقيها، ويصب فى جوربها الأسود القصير، تسمرت على وضعى .. فتحت عينى وفمى عن أخرهما، وتلاحقت أمامى فى سرعة صورتها على الكنبة، والنساء الغريبات النائحات من حولها، والمنضدة المربعة القديمة، التى كنا نأكل عليها ثلاثتنا، مستقرة فى الركن، ورجل لا أعرفه يرتدى جلبابًا طويلا يقف وقد أسند نفسه للباب، وغبت عن الوجود.

- ١١ -

أن تموت سامية.. هذا ما يشعرنى بالخجل والعار !!..

كنت أظن أننى التى يجب أن تموت.. شعورى نحوها كان دائما أنها أفضل منى ... بالمقياس العام الذى يحكم به الناس بيننا، أفوز أنا الأجمل والأغنى .. وكثيرا

ما كانت أمى تدهش من تعلقى بها .. كنت أرى كل الأشياء عندها أفضل .. حتى بيتهم الصغير الفقير .. وحتى الملابس التى كنا نشتريها سويا .. بالذوق والألوان نفسها .. كنت آراها عليها أجمل وأرق.

وكنت أشعر أنها ظريفة وجذابة، وأحاول أن أقلد أسلوبها فى الكلام، وحركات يديها وتعبيرات وجهها، حتى أن أخى الأكبر لفت نظرى إلى ذلك.

وعندما كنا نخرج سويا، رغم اختلاف الشبه الواضح بيننا فى الملامح والتكوين الجسدى، كان كثير من الناس يظنون أننا شقيقتان.

بصراحة.. ذلك اليوم .. يوم موتها .. لم أحتمل مواجهة خالتى أم سامية.. كنت أعتبر نفسى مسئولة أمامها عن موت ابنتها وأننى قد خدعتها .. كان ذلك شعورى الدائم الذى تكون فى داخلى منذ أن عرفتها .. أجل فعندما كانت تحصل على درجات ضعيفة فى المدرسة أو تفسد شيئا فى بيتها أو تتأخر فى المساء .. كنت شعر بالخجل والعار عندما أواجه أمها، ولقد طفح هذا الشعور عندى الآن إلى الحد الذى يجعلنى لا أقوى على مواجهتها على الإطلاق.. ولم أذهب إليها منذ ذلك اليوم ولا مرة واحدة.

- ١٢ -

مر شهر على وفاة سامية.. وأنا لم أرأمها بعد ذلك مرة واحدة. اليوم أيقظتنى أمى مبكرة قبل موعدى .. وبين الصحو والحلم سمعتها تقول لى بأن أم سامية تنتظر فى الخارج، وهى ترغب فى توديعى قبل سفرها.

كمن ألقى عليا برميل من الماء البارد.. انتفضت حافية القدمين أعدو خارجه إليها غير مصدقة.

ألقيت بنفسى عليها .. أخذتنى فى أحضانها وهى تكفكف دموعى بكفها دون أن يرتعش هدب واحد من أهدابها.

- ١٣ -

أصريت على أن أذهب معها إلى المحطة استقر الرأى أن تعود إلى بلدتها، وسط أقاربها، لتموت فيها، باعت أثاثها وأوصت جيرانها خيراً ببوسى.

سارت بجانبى تحمل على جبينها منبت الشعر الفضى. وفى يدها حقيبة جلدية صغيرة، كل ما أخذته معها إلى البد . لم نتحادث طوال الطريق - لم أحاول أنا ولم تحاول هى، رغم الزحام والضجيج لم يكن بيننا غير الصمت، ومن حين لآخر كانت ترفع يدها وتحكم وضع طرحتها على رأسها، وتعود لتنتظر إلى الطريق من نافذة السيارة التى حملتنا إلى المحطة.. كما كانت تنظر من جلستها على الكنبة عبر النافذة.. وعندما توقفت السيارة فى فناء المحطة الخارجى.. أمسكت بيدى فجأة قبل أن تنزل وظلت قابضة عليها فترة من الزمن .. تصلبت لم أقو على الحركة ولم تسعفنى الدموع.

وعندما أطل وجه رجل من الخارج إلى داخل العربة سائلا السائق أن يحمله .. نزلنا ويخطى متثاقلة ارتفعت أقدامنا وحطت على الأرض .. كنا فى جنازة .. جنازة خاصة جدا.

- ١٤ -

جلست معها قليلا فى عربة القطار، حتى يحين رحيله، لم تتلاق نظراتنا أبدا حلقت نظراتنا صوب الأفق.. حيث لا شىء، فكرت أن أقول لها شيئا، ولكنى لم أجد ما يقال.

أوشك القطار على السير، نزلت ووقفت على الرصيف قرب مكانها، أسفل النافذة. بدأ القطار يتحرك أحكمت وضع طرحتها حول رأسها، ولم يظهر منها الا المنبت الفضى نفسه.

وقفت فى مكانى.. أرغب بالبكاء .. بالصراخ .. بأن أجمع العابرين وأستوقفهم، وأحتمى بهم .. بأن أجرى خلف القطار، وأمنعها من الذهاب، ولكن فجأة .. أقول فجأة، باغتتنى، ورفعت يدها بالتحية، وانفرجت شفتاها عن

ابتسامة غريبة، بدلت ملامحها، وأنا التى أحفظها، كملامح أمى طوال عشر سنوات. خلت أنها ليست المرأة التى أعرفها .. خالتى أم سامية. كانت حركة القطار المتزايدة تشد ساقى إلى الأرض، حاولت التشبث بالمكان وباللحظة، بالناس العابرين، بالمحطة، وبالساعة الضخمة، المعلقة فى صدر الحائط الكبير. لكنى كنت أنهار، ويلفنى شعور لا أنساه.. الشعور الذى أخذ يسرقنى شيئا فشيئا، عندما رحت أعد الرقم الرابع، بعد حقنه البنج، يوم أجريت جراحة اللوزتين.

قال التاجر ـ يقول منصور «البوهيجى» دوما لزبائنه مفتتحا الحكاية: «ودين النبى يا صاحبى انك خرفت وعقلك طار». بعد أن سمع حكاية سندس من صاحبه الفران الذى قال أنها طيرت النوم من عينيه حتى لحظة صياح الديك فى الفجر، وانبسط وتكيف من الكلام، وطقطق رقبته وهو ينظر إلىّ لأقول شيئا، لكنى ناولته الجزمة، وأنا ساكت، بعدما لمعتها، ولما هم بالوقوف، بعدأن لبسها، وكان غلب الفران، وقتها، عشرتين طاولة، فكان فرحان جدا، خبط على كتف صاحبه، الذى كان متضايقا من الغلب، وعدم تصديق العالم لكلامه، بأن ما قاله حصل بحق وحقيق، وأنه لا يكذب، ولا يفترى على خلق الله، ثم أنه حلف مرة ثانية بترية أبيه الطاهرة، وثالثة بالطلاق ثلاثة من أم عياله، أن ما قاله هو الصدق بعينه، وأنه سمع من سندس بحلمه أذنه التى أمسكها عندئذ، ما قاله للتو واللحظة. كلمة، كلمة، ودون زيادة أو نقصان، فمن أحب فليصدق، ومن لم يحب فهو حر، أو يروح فى ستين داهية، ثم طلب واحدة قهوة سادة ليشربها ويريح نافوخه من الوجع.

عند ذلك الحد سهم التاجر قليلا، ووقف فى مطرحه يتفكر فى كلام صاحبه، وهو ينظر له باستغراب شديد، ويقى على حاله هذا مدة من الوقت، لعبت أصابعه بشاربه، وواحد منها نكش أنفه، ثم تنهد تنهيده عظيمة، بعد أن نظر إلى ناحيتى دون أن يعلق على الكلام بحرف واحد، أو يعرف الصدق من الكذب .. ومشى.

منصور البوهيجى، الذى يحب كثيرا مثل هذا النوع من الحكايات، وكذا كثرة الكلام، والتقليب فى سيرة الخلق، مال لتصديق رواية الفران، خصوصا لأنه كثيرا ما شاف امرأة النجار، تجلس فى دكان القماش كلى يوم والثانى، تأخذ وتعطى فى الكلام مع صاحبه وهى تسبل جفنيها، وترفع ذراعيها، لتزيح الشعر الناعم المتساقط على جبينها، حتى يبان لحم إبطها، مما يجعل منصورا نفسه ترتخى أعصابه، وتسيب مفاصله، إلى درجة أن تقع من يده فرشاة التلميع غصبا عنه، بينما صاحب الدكان، يطلب لها المشاريب الباردة والساخنة من المقهى، ولا يرفع عينيه عنها، لذلك فالحكاية شعشعت فى دماغه وذهب لما الدنيا عتمت فى مساء اليوم ذ ه للخرابة ليتقصى الخبر بنفسه، أما التاجر فقد ألهته البضاعة والفلوس، وأمور الدنيا، بعض الوقت عن حكاية الفران العجيبة.

ذلك ما كان من أمره، حتى لحظة مروره على الخرابة، بعد ثلاثة أيام بلياليها من حديث الفران له على المقهى، الذى منعه من مفاتحته، برغبته فى الدخول مرة ثانية على بنت بنوت، كما منعه من ذلك حضور منصور البوهيجى، الذى جعل وقت الكلام غير وقته، التاجر فى الخرابة، آنذاك، كان يفكر فى الموضوع نفسه، تأخذه وتجيبه الأفكار، فهو يرغب فى الكف عن الهلس، والمشى فى البطال والحرام، وبعثرة الفلوس، كل ليلة والثانية على بنات الحظ، ثم إن بنت البنوت التى ينوى الدخول عليها، ربما ولدت له الولد الذى تتمناه نفسه، ليحفظ له اسمه، على ظهر الدنيا، ويبقى فيها بعضا من رائحته بين الناس، لكنه قبل كل شىء، سيفاتح امرأته أم البنات بالأمر، حيث لن تكون لها حجة فى الحط من عزمه، لانه ستر بناتها، وزوجهن جميعا، كما صبر عليها السنين الطوال دون أن ترزق بالبنين، الذين يخاف أن يودع الدنيا دون أن تتكحل عيناه برؤية واحد منهم يخرج من صلبه. التاجر. لما حصره البول، فى الخرابة، وكان قد فرغ من تقليب الأمر على كل وجه، واستقر مع نفسه على ما وصل إليه، فك أزرار سرواله، ليفك ضيقته، وسار إلى عشة سندس، ليتدارى بحائطها ويقضى حاجته، عند ذلك تذكر كلام الفران عنها، فابتسم لأنه سمع شخيرها يختلط بصوت رشاش بوله المندفع إلى الأرض، ولما استرخت عضلاته المتوترة، تفل راضيًا، وسب سافل

سافلين جدود الفران، الذى لا يكف عن الفشر والكذب، وابتداع الخرافات، ونوى أن يفضحه أمام الخلق، عندما يلاقيه، فى المقهى، عند الصباح، إن كان له عمر باذن الله.

كانت الدنيا شتاء، والريح تطيح بفروع النخلة الوحيدة الباقية فى الخرابة، هكذا كان يحكى البوهيجى، قبل أن يسترسل فيما كان من أمر سندس مع التاجر والفران والموظف والنجار وبقية أهل الحارة، وما جرى من نوادر عجيبة بعد ذلك، وهى النوادر التى كان يحلو له حكايتها لزبائنه ، كلما سمح له الوقت بذلك فيقول: كاد البول أن يسيب بين فخذى التاجر مرة ثانية لما سمع شخيرها يتلون، فجأة، بغمغمات غريبة، سرعان ما أكتشف أنها كلام بنى آدم، «كلام مثلما كلامى وكلامك يا سيد» يقول ـ البوهيجى مؤكداً ـ التاجر احتار وخاف وتمنى لو استطاع لأطلق ساقية للريح، لكن قلبه كان قد طب منه عند رجليه، فتسمر فى مكانه، حتى سمع كلام سندس كله، ومن ساعتها شاب شعر رأسه، وبقى كتانة بيضاء.

ثم أنه جرجر نفسه بالعافية، وسار سير من مسه مس، لا يعرف أوله من آخره، ولا رأسه من رجليه، حتى وصل عمارته، التى يسكن فيها.

منصور البوهيجى لم يحك ـ لانه لم يعرف أبدا ـ أن زوجة التاجر أم البنات، لاحظت صباح هذه الليلة، والليالى التالية لها، أن رجلها صار عابسا، ومهموما، لا يلاطفها، أو يقرصها فى فخذها كعادته، عندما تنحنى وتضع المركوب فى قدميه، قبل نزوله من السرير عند كل صباح، كما أنه لم يعد يمس طعامه إلا مسا خفيفا، وقبل أن تحكى ذلك لجاراتها، كان قد طلبت من ربها الستر، وجعل العواقب سليمة، لأنها لما سألت زوجها عن سبب كربته، تنهد وفرك يديه ببعضهما دون أن يجيبها، الجواب الشافى لحيرتها، وهى التى كانت تتوجس المكروب بسبب أن جفن عينها ظل يرف، قبل ذلك بأيام، رفات كثيرة جعلتها تقول لروحها فى قلق اللهم اجعله خيراً يارب.

«العواقب، فى الحارة ، لم تأت، بعد ذلك، سليمة أبداً، هكذا كان يحكى البوهيجى للزبائن، بينما يمرر فرشاته تمريرات سريعة على جزمهم، لتلمع وتبرق

كالبلور. «فالتاجر رغم أنه دفن سره فى قلبه وكفأ على الخبر ماعونا، الا أن صدره كان قد توغر ضد أخيه الخائن الذى يشاركه تجارته ويظن أنه ابن أمه وأبيه، الذى يعيش معه على الحلوة والمرة، ويأتمنه على ماله وتجارته، لذلك قام التاجر بطرد كاتب الحسابات الذى عمل عنده عشر سنين قبل ذلك، وأمسك حساباته بنفسه، لأنه وكما يقول المثل - يقول البوهيجى بجد - لا يخاف على المال إلا أصحابه ، والتاجر، من ساعتها، فتح عينيه، عن أخرهما، على كل قرش، داخل وخارج، من تجارته الكبيرة فى السوق».

«أما الولد كفراوى - يقول منصور البوهيجى أيضا - فقد كان يعمل صبيا عند الفران، ويبيت ولا مؤاخذة. مع كلبه الأسود، كل ليلة، فى حجرة الكناسة، التى يجمعها، بأمر الفران، ليبيعها، حيث تعجنها نسوان الحارة، لتطعم بها الفراخ والحيوان، الولد كفراوى، بكى وولول كالحريم، كما لطم وشق هدومه بعد أن شاف كلبه المحبوب مرميا، رمية الموت، بجانب مخزن الكناسة، وقد تيقن كفراوى بأن موتة الكلب كانت بفعل فاعل، سمه قصدا»، منصور البوهيجى كان يضحك كثيرا عند هذا الحد من الحكاية، ويسحب نفسا طويلا من سيجارته، ينفثه بارتياح، بينما يغمز بعينه للزبون، ويضيف مقسما، «والله يا حضرة، سمعتها بحلمة أذنى، من سندس، وهى تقولها، سمعتها، بالكلمة، والحرف الواحد. كفراوى كان يفعل المفعول مع الكلب الأسود، الذى كان يسميه جميل، وأنا صدقت، لأنى كنت أشوفه، كثيرا ما، يحرم نفسه، من الحلوة المرة، وهو الفقير، ويشترى للبهيمة اللحم الضانى، بالشىء الفلانى. والا، لماذا بالله عليك يحرم روحه، ويعطى للكلب. لابد أن فى الأمر «إن»، اعقلها معى يا سيد».

ثم يؤكد منصور، بعد ذلك، إن كفراوى، الذى منعه التاجر من إحضار الخبز لامرأته، عند كل صباح، «لأنه نجس نجاسة الكلاب ذاتها، ومنحرف»، كاد ان يجن فعلا، بعدما صار مكتئبا، حزينا،. طوال الوقت، كمن مات له ابن أو أخ أو أب أو عزيز لديه، بل وأصبح لا يتكلم مع الناس، إلا، فى الشديد القوى، عندما يلزم الأمر.

«ثم إن الحارة كلها على بعضها أحوالها تغيرت - يقول منصور - والجفاء بين أهلها أخذ فى الزيادة، والناس حصلت بينها الوحشة، ولم يعودوا يأتمنون بعضهم

البعض، أو يتحادثون فيما بينهم كما يجب أن يكون حديث الصاحب للصاحب، حتى النسوان... احترزن فى الكلام، بسبب الخوف من الرط والعجن وتقليب الحكايات، والسبب، فى كل ذلك، حكايات سندس العجيبة، فالجميع كانوا يتسللون، إلى الخرابة سرا، عندما يأتى الليل، ويتسمعون كلامها، ويقال أن حسين موظف الصحة قرر الرحيل، إلى مكان آخر، لأنه اكتشف أن القهوجى كان مختبئا، فى الناحية الثانية، بجوار العشة، عندما حكت سندس عن بيعه لحقن الكيف، التى سرقها من مخازن الحكومة، ويحقن بها الخلق، مقابل معلوم من الفلوس، وأن إمرأة التاجر، نفسها، كانت تشك، منذ زمن، فى أسباب تغير أحوال زوجة الموظف وعياله، الذين بدت عليهم إمارات النعمة فجأة، وصار عندهم التليفزيون الملون، والصالون المذهب، بينما راتبه، شهريًا، لا يزيد عن مصروف التاجر كل يوم على المشاريب والدخان.

أما بنت الموظف نفسها، فسندس قالت عنها أنها تغار من زوجة النجار، وتحقد عليها، لأن البنت قبيحة ولا تعجب الجدعان، حتى لو صبغت شعرها بالأصفر، ولبست القصير المغرى كامرأة النجار، لأنه شتان بين اللحم الأبيض، واللحم الأسود، والعود الطرى، والبدن الجاف، ثم أنها تفتعل الأدب والاحتشام، وتكثر الحديث عن العفاف، وطهارة الذيل، وربما لو أشار إليها كلب، فى الطريق، لتبعته من فورها وعلى رءوس الأشهاد.

أما ما يقوله منصور البوهيجى من حكايات سندس، قبل أن يختتم هذه الحكايات، بحكاية ما كان من أمر النجار مع امرأته، فهو ما رآه بأم عينه، وما سمعه بأذنيه الاثنتين، من حكايات تخص سندس نفسها.

سندس تشم الرائحة لكنها لا تبالى

«أحوال سندس تغيرت، أقول ذلك لأنى كنت أعرفها، وأشاهدها كثيرا، وهى تشترى الحاجات، من الدكاكين، أو تشير للتاجر، فى المقهى بأنه مطلوب من جماعته، لأمر مهم، فى البيت، كانت تتفاهم بالإشارة، وكنت أمازحها، وأهددها بأن أمسح بفرشاتى على مركوبها الوسخ، الذى لا تقل وساخته عن وساخة

قدميها، فتخبطنى ـ يمسيها بالخير أن كانت حية ـ وتشير بأصابعها فى اتجاهى، إشارات بذيئة أضحك منها: لعلمى أنها اغتاظت وفار دمها.

صحيح أنها استمرت فى الحصول على لقمتها، كالعادة، من بيت التاجر، نظير تنظيفه والخدمة فيه، كل يوم، كما أن الفران لم يمنع عنها الأرغفة الستة، التى كان يجريها عليها، كل يوم، وظلت على عادة استحمامها، كل مدة، فى بيت الأدب بالمقهى، عندما ينصرف الزبائن، ويوشك القهوجى على الذهاب إلى بيته، لكنها أصبحت حديث الحارة والحوارى المجاورة طوال الوقت، وقد حاول الكثيرون الكلام معها، لكنها ظلت، كما هى، ساكتة، بكماء لا ترد، ورغم أنها شعرت أن أحوال العالم، حولها، تغيرت، إلا أنها لم تبال، ولم تغيرسنة حياتها فى شىء ومنذ أن وقعت عليها عيون الناس، فى الحارة منذ مدة، يقول بعضهم أنها تزيد على الخمسين سنة، التاجر والفران والموظف كانوا منشغلين، أكثر من غيرهم، بأمر سندس، التاجر الحويط قالوا إن حياته كانت مليئة بأسرار كثيرة وخطيرة، كانت تعرفها سندس، لذلك قرر تسقيف منور العمارة، ليعد فيه منامة لها، لأنه عزم أن يأتى بها، من العشة، ليقفل عليها كل ليلة عندما تنام، فلا يتسلل لموضعها بنى آدم ليتصنت. التاجر، فى الحقيقة ـ ولا يعلم ما بالنفوس إلا الجبار ـ كان يشتهى موت سندس، وكان يستطيع ذلك، لو بيت العزم، لكنه كان يعتقد بالجان، ويفكر أنها ربما كانت تؤاخى واحدا منهم، كما أن حكاية المنور انتهت، لأن عامل المجارى الذى يسكن أسفل العمارة، والذى كان يسد حلق التاجر، المتمنى تركه للشقة الصغيرة، التى يستأجر منه، بين يوم وليلة، كان يسد حلقه بالإيجار، عند أول كل شهر، لذلك فقد رفض تسقيف المنور، وهدد بإبلاغ البلدية، لو تم ذلك، لأن السقف سيكون غير شرعى وسيسد عن شقته النور والهواء، وكذا باقى شقق الدور السفلى، لذلك فكر التاجر، عوضا عن ذلك، فى بناء أرض الخرابة، التى يمتلكها، والتى كانت فى الأصل وضع سراى كبيرة، يملكها صايغ أرمنى، رحل مع امرأة، تاركا سندس، التى كانت تعيش معها، وتخدمها، قبل أن تخدم سكان العمارة وبيت التاجر. الأرمنى ـ يقول منصور البوهيجى مضيفا ـ اتفق مع التاجر، عند البيع، على أن يترك لسندس عشتها، لتعيش فيها، ليس لأجل سندس

المسكينة، ولكن، لأنه كان يعرف أن عشة سندس ستدخل ضمن حدود الشارع الجديد، الذى تنوى الحكومة تنظيمه، وأنه لن يخسر شيئا إذا ما ترك العشة على حالها، التاجر نوى بناء الخرابة، ليجبر سندس على الإقامة فى عمارته، لكن لمكان العامل الوسخ - كما يقول التاجر - يقف عقبة فى سبيل ذلك، فقد استقر أمره على أن يخلى لها، حجرة الخزين، التى ترص فيها امرأته قدور السمن وأشولة السكر والأرز، لتعيش فيها، وليعلم جميع من فى الحارة، بعد ذلك، أن التاجر صاحب حسنة، ويده ممدودة بالخير دائما.

الموظف، المشغول بأمر سندس، فضل الرحيل، أما النجار، الذى تظاهر بأنه لا يعرف شيئا عن حكايات سندس ـ رغم أن سعيد الفران الذى لا تبل فى فمه فوله نشر الحكاية على قدر استطاعته ـ فقد تابع الأمر فى الخفاء، على نحو لا يلاحظه أحد من أهل الحارة، وسمع أن سندس كانت جارية ورثها الأرمنى، عن أمه، منذ أن كانت طفلة، وقال آخرون أنها، فى الحقيقة، بنت حرام، وجدها الأرمنى على باب بستان الدار أيام كان للدور بساتين وذلك عندما كان يتمشى فيه ساعة عصارى.

سندس، ظلت تعود إلى عشتها، عند غروب كل شمس، وهى العشة التى لا تزيد مساحتها عن مترين فى متر، وتمد نفسها على فرشة قديمة، تبقت عندها من أيام الأرمنى، مع بعض الأشياء الأخرى، التى كان من بينها علب صفيح فارغة، وقطع فخار مكسورة وتماثيل غريبة الأشكال، كما كانت هناك هدوم قديمة تأخذها سندس من أهالى الحارة، وكانت هناك لمبة جاز وناسة تشعلها المسكينة بمجرد دخولها العشة فى المساء، وتأخذ فى النظر إليها حتى تروح فى النوم، «وهذا الكلام رأيته بعينى عندما راقبتها عدة مرات» «وأقول لك صادقا أننى لم أكن أعرف فيم تفكر سندس على وجه التحديد حينما كانت ترقد فى فرشتها، محملقة فى الوناسة، حتى يغالبها النعاس، فتنام، كما أقول أيضا أن أحدا، من أهل الحارة، لم يكن ليعرف أيضا، فيم تفكر هذه المرأة، طول النهار، لكنها لم تكن معتوهة أبدا، رغم أن خلقتها ربما أوحت بذلك، فهى كانت تشتغل شغلها كله بشطارة، وكان الجميع يتفاهمون معها بالإشارة، لأنها كانت لا تسمع

أيضا، والرجال لم يفكروا فى الاقتراب منها، أبدا، لأنهم لم يروها امرأة قط، بسبب شكلها الغريب قليلا، ثم إن معظمهم، عندما شبوا فى الحارة، وجدوا سندس كبيرة، بالنسبة لهم، أما النسوان فكن يتندرن على شكلها، وعندما يسخرن من أحداهن يشبهونها بسندس ، أما زوجة تاجر القماش، التى كان نصيبها من الجمال قليلا، فكانت تنهر النسوة، عن ذلك الكلام، وتقول لهن: أنها خلقة ربنا، ولا يصح ما تقلنه أبدا.

يوم الدينونة فى الحارة

قلنا إن الجفاء، بين أهل الحارة، قد زاد، والرجال لم يعد يطيق بعضهم بعضا، ورغم أن كلب نفراوى قتل، والموظف ترك الحارة، ورحل، مع أهله، والتاجر فصل تجارته، فى النهاية، عن تجارة أخيه، إلا أن الحكاية لم تقف عند هذا الحد، ففى يوم من الأيام وجدت امرأة النجار مقتولة، وقيل أن زوجها قتلها لما تيفن من أمرها مع تاجر القماش، وقبلها كانت الحكومة قد أوقفت فرن الفران، وشمعت بابه بالشمع الأحمر، بسبب تسريبه دقيق التموين، خارج الفرن، أما سندس نفسها، صاحبة الحكايات العجيبة والتى حكت حكاية التاجر مع أخيه، وزوجة النجار مع تاجر القماش، وبيع الموظف للمسروق الممنوع، وصبى الفران مع كلبه الأسود، وحكايات أخرى كثيرة، ربما سمحت الأيام بقصها - يقول البوهيجى - فقد اختفت من عشتها فجأة، دون أن يعثر أحد على أثر لها، البعض قال ان التاجر قتلها، آخرون قالوا أنها طفشت، بعد حادثة النجار، بعض الناس نبشوا عشتها، نسوان الحارة أخذن بعض قطع الفخار، التى كانت تكومها، ليستخدمنها فى أمور السحر والجان، ورجال حفروا فى أرض العشة سرا، ظنا منهم أنه لا بد وأن يكون بها كنز مخبوء، وحتى هذه الساعة لايعرف أحد شيئا عن سندس، التى تركت كل حاجة، من حاجياتها، بمطرحها -فى قول منصور البوهيجى، الذى يثبت نظراته على وجه زبونه المستمع فترة ويضيف بعد صمت - ما عدا لمبة الجاز السهارة، التى اختفت أيضا.

فاض الكيل بالنقطة ولم تعد تحتمل الحياة مع الخط، لانها تمض جل وقتها لاهثة تدور وراءه طالعة نازلة وكأنها فى دوامة لا تنتهى، فهو يصير حروفا فى بعض الأحيان، ويكون عليها أن تلبى أوامره سريعًا بأن تقبع تحته تارة، أو تستقر فوقه تارة أخرى، أما عندما يتدور أو يتثلث أو يتربع، أو يتخذ أيا من الأشكال الأخرى فإن النقطة تبلغ ذروة غيظها وغضبها منه، إذ أنه يكون متجاهلا لها تماما، ولا يعيرها اهتماما وكأنها غير موجودة بالمرة فى هذه الدنيا.

عند الغروب ذات يوم، وبينما كانت الشمس تودع النهار على أمل اللقاء فى اليوم التالى، كانت النقطة واقعة أسفل الخط وقد تشكل على هيئة علامة استفهام فداخلها شعور مريع بأنها موشكة على الانهيار، كما لو أنها صخرة كبيرة ستقع وتنفصل عن جبل شاهق، لذلك قررت أن تضع حدا لعذاباتها وتحسم ما جال برأسها طويلا فقالت للخط مباشرة دون مواربة وفى صرامة وحزم:

- لقد تعبت بسببك بما يكفى، وسئمت الحياة معك، لذلك سأفارقك ولن أعيش معك بعد اليوم. سأرتحل بعيدا، ولن أكون لك. سأصير حرة أرتع كما أشاء فى فضاء الصفحات. سأحيا من الآن فصاعدا لذاتى وأوليها ما تستحقه من العناية والاهتمام، فأنا فريدة، خاصة، مميزة، لا مثيل لى فى الكون، ساحرة، فاتنة، صغيرة كبيرة، متكتلة، مصمتة، منلقة، غامضة مبهمة، مدملكة، مثيرة، رزينة، مستقرة، ساكنة، متحفظة، ملمومة، مضمومة، ولن أسمح لأى كان أن يستغلنى ويحط من قدرى، أو يعاملنى باستعلاء واستخفاف. أية فرادة هى أنا، وأية عظمة مستحيلة فى الخلق أكون.

نظر الخط إلى النقطة بدهشة، وهو يتأملها جيدا، فلطالما تبرمت وتذمرت، لكن فى كلامها، هذه المرة، نغمة جديدة غريبة، لم يسمعها منها من قبل أبدا، لذلك فكر مستغربا وهو يسائل نفسه:

- الآن .. تتحدث عن الحرية؟! اتفكر فى ذاتها بعد كل هذه السنوات؟! لو قالت ذلك منذ زمن طويل لقلت: أجل، أنها متأثرة بهوجة الأفكار المنتشرة فى كل مكان، ولكن الآن... كلام عن الحرية؟! هل تظن هذه الغبية أن العالم مازال يعيش زمن حركات التحرر، ويرفع شعارات الاستقلال؟! ألم تسمع عن النظام العالمى الجديد؟! ألا تعرف أن كلمة الحرية صارت من الكلمات الشاذة الغريبة الموشكة على الانقراض تقريبا؟

ابتسم الخط للنقطة ابتسامة صفراء مستخفة، لحظتها النقطة فزاد غيظها وصارت تغلى فى داخلها أكثر، لكن تلك الصفراء لم تحل دون استمرار هواجس الخط ايضا فاستمر مسائلا نفسه:

- ولكن من أين لمثل هذه المفعوصة بمثل هذه الأفكار؟! أنها لا تغيب عن عينى، وتدور حولى كالثور فى الساقية طوال الوقت، فكيف يتسنى لها التلفظ بكلمات من هذا النوع؟ لعلها تغافلنى عندما أنعس وأنام فتذهب سرا إلى ندوات حقوق الإنسان، أو علها تنتمى - دون علمى - إلى جمعية من جميعات النساء الجديدة المنتشرة فى كل مكان الآن.

را ح الخط يتأمل النقطة جيدا، ويتمعن فيها طويلا، عله يكتشف متغيرات جديدة طرأت عليها، فلما توصل إلى أنها مازالت كما هى مجرد نقطة صغيرة، لا أزيد ولا أقل، تنهد بارتياح وطقطق أصابعه فى رضا وملل، ثم قال لروحه:

- اتركها يا ولد تبعبع وتفضفض عن روحها قليلا، فكم من مرة هبت وثارت وزوبعت وعفرت وغضبت وحزنت لكنها فى النهـابة تطـلع لفـوق، ثم تهبط على لا شىء. أنها صغيرة ضعيفة، حمقاء، رعناء هوجاء، لا حول لها ولا قوة، تظن أنها قادرة على العيش بمردها بعيدا عنى، لكن هيهات، فهى لا تستطيع التحرك قيد أنملة من مطرحها إلا بإذنى ومشيئتى، فلتسكت يا ولد حتى تهمد نارها وتصفو

لوحدها. لكن النقطة نجحت فى إقلاق الخط بعد أن حاول طمأنة نفسه، وجعلته يتوتر فعلا، فلقد استمرت فى ثورتها، ولم تكف عن الكلام وراحت تقول:

- ثم إنك بدونى تفتقد كل معنى، وينتفى منك المبنى فأنت محكوم ومرسوم بى، ولا يمكن أن تكون إلا اذا كنت أنا سبحان المتجلى الجبار، يضع رزقه فى أضعف خلقه.

زفر الخط بمرارة وضيق وهو يهمس لروحه: «اللهم صبرك يا روح»، اسكت يا ولد وامسك نفسك فهى نقطة، مجرد نقطة تافهة لا راحت ولا جاءت فلا تنسق وراء استفزازها. تثاءب بملل وفضل أن يتجاهل الأمر كله ويتركها لينام قليلاحتى تهدأ، فتكور رأسمًا من نفسه دائرة صغيرة، وراح يصفر لحنا خفيا هادئا لينسيه مهاترات النقطة وشغبها ويجلب له النعاس. اغتاظت النقطة أكثر من سكوت الخط ولامبالاته بالرد عليها، وجاءت حركة نومه كدليل جديد على قلة احترامه لها واحتقاره واستخفافه بها، لذلك اندفعت تقول حانقة:

- ثم إننى سبب وجودك، وسر حياتك، فأنا البيض وأنت الفيض، اذا انبعث فانشطر فأتكاثر فأتلاصق فأتماسك فتكون أنت، فأنت بعض من بعضى، وأنا التى جسدتك لتكون من مبتدأ أساسك حتى منتهى رأسك.

انتفض الخط منتصبا حادا كالعصا، فقد أخذ الغضب منه كل مأخذ ولم يستطيع حمل المزيد من استفزازات النقطة، والسكوت على كلامها المتكبر المهين، وانطلقت كلماته كالحمم وهو يقول:

– اسمعى ايتها البائسة المغرورة، لم أكن أرغب أن أرد عليك فى البداية، أما الآن وقد سمعت منك ما سمعته، فلسوف أواجهك بحقيقة وضعك فى هذا العالم فوجودك لا معنى له إلا بوجودى يامهملة، يا مبهمة، يا محنوة، يا مسدودة، يا كئيبة، يا مريبة، يا غريبة، يا وصمة - إذا كنت وحيدة دونى - على بياض أية صفحة. أنا الذى يحميك ويذود عنك ويقرل خلوها، لا تزيلوها، فهى مهما كان شكلها نافعة لا تغيب عنها الضرورة، ولها بعض من الكينونة، حتى وإن كانت فقيرة، صغيرة، لا تستبين ثم عن أية حرية تتحدثين؟! وهل لك من خيار حتى

تختارين، وتبتعدين؟ أنت لا حرية ولا انتقاء. أنا الحر الذى يمكنه الصعود شمالا أو الهبوط جنوبا، السريان شرقا أو التوجه غربا. أنا المريع. الواهى، الغليظ، المعلوم، الحر، الرامز، المشير، الرهيف، الممدود، المفروط ، المنكسر ، الكاسر، المستقيم، الموضح، المشدد، المحيط، المثلث، المستدير، المفرود، الممدود الملموم، المستوى، المنحنى، الرفيع،. العريض، القصير، الطويل، القائم، المائل، الرأسى، الأفقى الفاصل، القاطع، الباتر، الصارم الحاد، المنساب، المستقيم، الرقيق، الدقيق، اللين، الطيع، الواضح، الجلى، المحدد، الواصل، المانع، الحائل، الدال، السلس، المرن، المتعرج، القافل، أن الذى أكون حرفا، فاتجسد ألفا وهاء وحاء، أنا المتحول السرمد: تحير فى كنهى الفلاسفة، وتغنى بى المنشدون، ألم تسمعى من قال : الحرف يسرى حيث القصد: ألا تدركين كيفى أننى المتجلى ببهاء المعانى، والقادر على التجسد والتسامى؟ أنا الذى أكون شموسا وأقمارا وبحارا وأنهارا، أنا الورود والأشجار، والمتجسد بهيئات الذوات، منى تتكون الجبال والتلال والبشر والأسماك والطيور. أنا من حفظ ذاكرة الزمان، ورسم معالم المكان، أجرد الأشياء فى جوهرها فتبقى أبدا إذا ما فنيت وغاب مظهرها.

ابتسمت النقطة ساخرة فى تشف وهى تتمدد قليلا لتتضح وتستبين ثم قالت:

– تحدثنى عن الغرور! وأنت لا تكف عن قول أنا، أنا أنا، أعوذ بالله منك يا شيخ ومن قول: أنا، ألا تعرف أنها سبيل الشيطان؟! ألم يبلغك قول من قال«ذواتنا ناقصة، وانما تكملها الصفات. وأما ذات الله فهى كاملة، لا تحتاج فى شىء إلى شىء، اذا كل ما يحتاج فى شىء إلى شىء فهو ناقص»(*).

غضب الخط كثيرا لسخريتها منه، وعيبها فيه، فقرر أن يفحمها ويرد لها الصاع صاعين، فرد عليها بلؤم شيطانى ـ ربما لأن إبليس تمكن منه بعد أن غافله ودخل حلقه عندما كان يتثاءب لينام ـ قائلا وقد تحشرج صوته بحنق التوتر والانفعال:

(*) عين القضاة للهمزانى.

- أصرت تردين علىّ !؟ ترفعين صوتك فى حضورى، وتسخرين منى!؟ ما شاء الله، والله جاء خيرك يا نقطة، والله عشنا وشفنا ! لكن بما أنك نسيت أن العين لا تعلو على الحاجب فصرت تنتقدينني وتصفينني بالغرور، بل وتتفلسفين فى المعنى والمبنى، وتخوضين فى حديث الصفات والكمال والنقص، فلتعلمى أنك فسيفة من ضلال الظلمات، ووجود تعز عليه الصفات. أنت كئيبة، مريبة، عديمة المبتدأ والمنتهى، لا وجه لك ولا قفا، دوامة فى الدجى، ومتاهة من العجز وقلة الحيلة، أنت عين عمياء بلا رامش، ووجودك بمثابة هامش الهامش، لا تملكين من أمرك أمرا. ومع ذلك تتشدقين بالبقاء والذهاب، والحضور والغياب، ألا تعلمين أنه ما من ضرورة لوجودك إلا بوجودى، وأنك لا تملكين أن تجودى، فأنت بلا فعل، بلا حركة، وأنا المجسد حيثما كنت، أما سمعت من قال: «الحركة حياة فلا سكون فلا موت ووجود فلا عدم»(*)؟ وأنت قمة العجز وغاية السكون.

شعرت النقطة بمرارة الذل تجتاح حلقها. إذا ها هو الخط يعيرها بما غاب عنها من حظ فى الطبيعة وينكر عليها كينونتها المحدودة المتواضعة. لا يتقبل منها نقدا، ولا يسمع لها احتجاجا. ينكر عليها مشاعرها وكأنها قدت من صخر بلا إحساس. ودت لو تبكى لو تصرخ، بعد أن استجارت منه با&، لكنها قررت ألا تستسلم أو تتراجع، فعلى الخط أن يفيق من سباته ويدرك أن الدنيا تغيرت والزمن يسرى بروح جديدة فلا يمكن أن تستأثر القوة وحدها بهذا العالم، ولا يمكن للتفوق أن يكون معيارا للوجود، ففى الكون متسع للجميع، وعلى الكل أن يتعايش مع الكل. لذلك تماسكت، وراحت تبتلع الإهانة، مصممة على خوض المعركة حتى النهاية، وردت عليه بهدوء قائلة:

- مشكلتك أن ذاتك متورمة، تحجب عنك رؤية ما حولك، لذلك فأنت جاحد وناكر للجميل، تعيرنى برسمى وكسمى، بينما لا تنظر إلى الشمس أمامك وهى تفترش الأفق كنقطة ضخمة رائعة من الضياء. أنت لا ترى نقطة الأرجوان البهيجة وهى تبتعد، بينما تعيرنى بكسمى ورسمى، وأنت الذى لا يستقيم وجودك

(*) ابن عربى.

إلا بوجودى، أنسيت أنك لست إلا المسافة التى بينى وبينى؟ أنسيت أن أصلك منبعه أصلى؟ ولا تكوين لك إلا من تكوينى؟ صحيح أننى صغيرة، محدودة مسدودة، لا أروح ولا أجئ لكنك لا تستطيع الاستغناء عنى، فعندما تتجسد فى كلمات أكون أنا ملح الكلام وأساس الإفهام، أما سمعتهم يقولون عندما يكتمل المعنى برسمى: وهكذا وضعت النقاط فوق الحروف. ثم أنى بابك الساتر إذا أمسكت وأنتهى منك المقال، فإذا كنت بعدك فهم انك أوفيت وأكملت، لقد كنت أظنك من أخوان الصفاء وخلان الوفاء، لا تبخس الصديق ولا تعير الرفيق، فما بالك وأنا أجود عليك بفضلى، أنسيت أنك واحد، وأنا التى أجعلك عشرة ومائة والفا وآلافا؟ أنسيت أننى أحل عليك بركتى التى هى من بركة الله، فتزيد وتتكاثر إلى ما شاء الله؟. لن أسترسل فى الحديث عن نفسى، ولكن عليك أن تعلم أن الدنيا تغيرت، وعصر العبيد قد ولى وراح، فليس لنفس أن تتسلط على نفس، ومهما كان ضعفى، أو فقرى، أو قلة حيلتى، فإن جبروتك وتكبرك لن يجدى معى بعد اليوم، ولن تستقيم حياتى معك أبدا، إذا ظل الحال كما هو عليه.

تمطى الخط وتمدد فى استرخاء وهو يقول لها بعد ما أدرك هزيمتها وتراجعها من الهجوم إلى الدفاع.

- ان ما تقولينه ما هو إلا بعض من حلاوة الروح المتبقية لك. اجرى يا شاطرة، العبى بعيدا عنى كما تشائين، ولكن قبل أن تذهبى انتظرى قليلا فسوف أريك شيئا.

صعد الخط عاليا، بسرعة فوق السطر، فرسم ألفا، ثم انزلق سريعا إلى أسفل فعمل راء وبعدها تلاعب بجسده فخلق ميما فسينا فعينا فدالا، ولما انبعج بظرف كانت الصاد فالطاء أما الحاء فقد سحبها بصنعة لطافة سرت إلى اللام واللام الف وأخيرا تدولب ليستقر هاء فى مطرحه مرة أخرى.

كادت النقطة أن تنفجر غيظًا وهى تشاهد كل هذه القدرات المدهشة المبهرة الساحرة للخط، التى لا تستطيع لأى منها سبيلا، فلم تتمالك نفسها وشرعت تبكى بمرارة بينما الخط يسألها ضاحكا ساخرا، متشفيا:

هه؟ ما رأيك؟ تفضلى واعملى شيئا واحد ا مما عملته ثم تحدثى بعد ذلك عن الحرية. مشكلتك هى مشكلة كثيرين من أمثالك فى هذه الدنيا، يتشدقون بعبارات طنانة لا مصداقية لها، ويتبنون نظريات لا يقدرون على تنفيذها وإثباتها فى الواقع. من البديهى يا عزيزتى أن نفعل ما نستطيعه، لا أن نتشدق بما لا نستطيع، ولكن كم من البديهات غابت عن هذا العالم، إن أمثالك كثيرون، أفنوا أعمارهم فى سبيل كلمات ظنوا أنها قادرة على تغيير العالم، والحقيقة أنها لم تغير إلا مصائرهم التى سارت من بؤس إلى بؤس. أنت صغيرة يلزمك الكثير لكى تعرفى وتدركى.

بدت النقطة وكأنها لم تسمع حرفا واحدا مما قاله الخط، فقد انكمشت على نفسها تبكى بكاء متواصلا، كانت خلال هذه اللحظات تفكر فى تاريخها، عذاباتها، آلامها الدائمة التى لا تنتهى فى هذه الحياة. لم تكن تفكر فى النظريات ولا فى تغيير العالم كما يظن الخط، فقط كانت تتمنى أن تستريح قليلا، أن تشعر بوجودها ككائن حر يتحقق مرة بمفرده فى فضاء فسيح، خال، بلا صراع.

أخذ حجم النقطة يتناقص شيئا فشيئا كلما سكبت مزيدا من الدموع. كان لونها يبهت، ومساحتها تتلاشى وقد تشوهت صفاتها وفقدت ليونتها وتكوينها الجميل. تجمد الخط فى مكانه مرتعبا وهو يلحظ غيابها وتضاؤلها المتزايد أمامه. شعر بخطورة الموقف ومدى المصيبة التى ستحل به لو أن النقطة استمرت على هذا الحال. انها تتلاشى تختفى، تضيع، وستأتى اللحظة التى لا تبين فيها أبدا. فكر ماذا سيفعل بدونها، وما الذى يحل به لو غابت أو اختفت كيف سيتخلق ويتكون ويتحول؟! كيف سيتمكن من أن يصبح باء أو ثاء؟ كيف يرتسم شينًا أو ضادا أو قافا أو فاء أو تاء مربوطة وغير مربوطة؟! وفكر أيضا ماذا سيكون مصيره عندما يكون أرقاما. أنه لن يستطيع بعدها أن يكون عشرات ومئات وألوف وألوف ألوف. لن يتمكن من الاستفهام ولن يتيقن من معانيه. كاد هو الآخر أن يبكى وهو يستعرض فى رأسه صورته بدونها. وحيدا ضائعا. ناقصا. عاجزا بعيدا عن الاكتمال. تضرع صوته وهو يناجيها ويرجوها ويناشدها قائلا:

- لا .. لا .. أرجوك .. كفى، كفى، أنت تضيعين روحك بالنواح، جسدك صغير، ضعيف، لا يتحمل كل هذا الحزن والانفعال. وفرى دموعك. أنا لا أستطيع الاستغناء عنك أبدا. هل فكرت كيف سأكون وحيدا بعدك؟ كيف ستكون حياتى وأيامى بدونك؟ ومستقبلى فى غيابك؟

راحت النقطة تراجع مع نفسها كلماته وتتساءل: هل هو صادق حقا فيما يقول، هل هو يتراجع ويراجع نفسه فى علاقته بها؟ وهل نبرات الصدق التى سمعتها لتوها منه كافية لأن تجعلها تعيد النظر فيما قررته؟ ثم إنها فكرت فى مصيرها هى أيضا. إلام ستئول حياتها؟ وكيف ستعيش وحيدة فى هذا العالم؟ لقد اكتشفت أن الرباط بينهماهو نوع من القدر الأبدى الذى لا يمكن أن ينفصم أبدا ولكن آه لو يفهم. آه لو يفهمها هذا الخط ولو مرة واحدة ويتمثل مشاعرها وأحاسيسها.

بعد صمت طويل نطقت النقطة ترد على الخط قائلة:

- إذا كنت جاداً فى كلامك، فيجب أن تعترف بفضلى عليك، وضرورتى لك، وأن بقائى معك يجب الا يخل بكينونتى، فلقد سئمت الحياة مع الحب والكره فى آن، فإما تفاهم فحب فاحترام، فاستمرار، وأما اختلاف، فبغض، فازدراء، ففراق، فأنا لا أحب شعرة معاوية، لكننى أصبو إلى حبل الوداد المتين الذى يمتد - لو شاء الله - إلى يوم الدين.

تأملها مجدداً بإعجاب وافتتان، ثم هز رأسه وتبسم وكأنه يرى وردة تفتح، وبدت له بالفعل جميلة، قوية، مؤثرة، على الرغم من صغرها وضعفها، لكن إلى أى مدى سيمتد تمردها هذا؟ وما الذى سيترتب عليه؟ مد لها ذراعيه ليحتويها بينهما، واستجابت هى رغم ما فى داخلها من تساؤلات فتلاقيا وهما يشكلان على نحو غاية فى الروعة حرف النون اللازم بداية لرسم كلمة نور.

صبيحة كل يوم، تصعد إلى العالى بصحبة أمها حتى الشقة الخامسة والعشرين فى الدور العاشر فتدخلان المطبخ الوسيع، الذى هو أوسع من بيتهما كله، وبلاطه كبير ولامع كأنه مرايا بحق وحقيق.

تبقى هى جالسة على كرسى من كراسى الطاولة كما تأمرها أمها عادة، حتى تفرغ من غسيل الصحون، ولم الحوض وتلميع الدواليب. قد تعطيها شيئا مما تبقى فى صحون الإفطار لتأكله أو تمنحها بعضا من حليب فائض فى اللبانة لتعبه قبل غسلها خلال ذلك يأتيها صوت الأم ناهرا:

- حطى مفتاح الباب مطرحه، اياك يضيع وصاحب الشقة يعملها لنا حكاية.

تضع المفتاح مكانه على الطاولة المستديرة بأسف، فهى تحب العلاّقة الفضية المنتهية سلسلتها بمركب له شراع، والمشبوك بها المفتاح، بينما تخاطب روحها: «آه لو يكون عندى واحدة مثلها، ألعب بها كل يوم!».

بعد أن تنتهى أمها، تخرجان إلى الشرفة الجانبية الصغيرة، الملحقة بالمطبخ لنشر الغسيل، فيصدمها فى كل مرة المشهد الفادح للمدى السماوى المفتوح فوقها، وتبقى عيناها محلقتين فيه، وهى تتابع عبور سحابة متكومة كقطنة ضخمة شاهقة البياض، أو ترصد طيرًا يتريض رياضة مفتتح الصباح، أما عندما ترسل بصرها بعيدا إلى تحت، وتموج روحها بموجات الدهشة والانبهار، فإنها تقترب من الإفريز الحديدى المرتفع للشرفة، فى محاولة للتشبث به، لتتسلق وترى أكثر، وما أن تفعل حتى ترتد مبتعدة وقد نهرتها أمها صارخة.

- غورى - ابعدى عن السور. ادخلى جوه أحسن لك. تقبع عند باب الشرفة فى طاعة وامتثال، لكن ذلك لا يمنعها من السؤال عن كل ذلك الماء الكثير.. ياما، وفى كل مرة يأتى صوت الأم خارجا مع كثير من الضجر، أو مع مشبك كانت تمسكه بأسنانها ريثما تفرغ يديها من نشر منشفة حمام، أو ملاءة سرير، وهى تقول:

- قلت لك ستين مرة، بحر النيل، بطلى غلبة وكلام. ا&؟!

هى تعرف أنه بحر النيل، لكنها الكلام عن بحر النيل، لأنه جميل، كبير، واسع، على ناحيتيه زرع أخضر وشجر عال، وفيه مراكب بأشرعة تروح وتجئ، وهى تحب أمها عندما تغنى له فى بعض المرات، عندما تقوم بدعك الصحون، أو بتلميع زجاج الشبابيك فى الشقة الخامسة والعشرين، وتقول:

- أمانة يا أسمر يا جميل

سلم لى على بحر النيل.

تفكر وتسبح بخيالاتها فيه، بينما صورته تتجسد دوما فى عينيها: مياه كثيرة .. ياما، ماشية لبعيد، ولطالما تمنت وهى على تلك الحال أن تعيش فى الشقة الخامسة والعشرين، فى الصبح وفى النهار وفى االيل، حتى تبص على بحر النيل فى أى وقت وتشوفه، وكم تمنت ألا تهبط مع أمها أبدا إلى بيتهما فى أسفل العمارة، حيث لا شىء ألا تهبط مع أمها أبدا إلى بيتهما فى أسفل العمارة، حيث لا شىء يرى إلا تلك المناظر التى تكره مشاهدها، وتجعل روحها مخنوقة وزهقانة دائما، لذلك فهى فى حالة دهشة مزمنة، وتساؤل لا يغيب عنها، عن السر فى أن أمها لا تعيش فى الشقة الخامسة والعشرين، وتنام على السرير بجوار الرجل الوحيد ساكن تلك الشقة، مثلما تفعل وتنام إلى جانب أبيها الذى تكنس وتمسح وتطبخ وتنشر الغسيل له فى المنور بين الحين والحين.

لم يكن هذا السؤال المعضلة هو الوحيد الذى دفعت به إلى مخليتها الشقة الخامسة والعشرين، بل كان الأهم منه بالنسبة إليها، والأكثر إثارة لروحها، هو

شرفة الشقة الخامسة والعشرين، وما تظهره من بحر النيل العجيب، ومياهه الكثيرة، السارحة لبعيد، لذلك أفصحت عن هواجسها ذات مرة وساءلت أمها:

– عاوزة بلكونة الشقة خمسة وعشرين تكون عندى، عاوزة أشوف من فوق.

تنهدت الأم، ثم تصعبت وهى ترد بحكمة تعليمية، لم تجعلها تصرف النظر عن تقليب تقلية بصلة فول الغذاء وتقول:

– بصى من هنا أحسن.

بصت دائرة ببصرها على جدران الغرفة/ البيت فلما لم تشف غير جلابية أبيها البيضاء، المعلقة على المسمار، وحزمة الثوم المربوطة على مسافة منها، والمعلقة على مسمار آخر، ثم الرف العالى المحطوطة عليه دواء أبيها، ومفتاح الغرفة، شعرت كأنها على وشك الاختناق، فحتى الشباك الصغير فى الحجرة، والمفتوح على المنور، لا يستبين من ورائه غير حيطة الطوب الأحمر، ومواسير المجارى الغليظة السوداء.

تركت أمها لتقليتها وفولها، وانسحبت خارجة إلى فناء العمارة، مشت قليلا حتى وصلت إلى مدخلها، وقفت تتأمل الشجرة العالية الموجودة فى نهايته قرب رصيف الشارع، فكرت، وهى تنتهد برضا، فى جذعها المتين، وفروعها العالية الممتدة، والتى تعر بعضها القريب من الأرض، فلطالما قفزت إليها، وتشبثت بها لتؤرجح نفسها وتلعب، لكنها الآن تفكر فى الشجرة على نحو لم يكن قد خطر فى بالها من قبل، وهكذا وجدت نفسها تتقدم منها، وتأخذنى فى تسلق جذعها الراسخ فى سهولة ويسر، ثم تعتليه دونما مشقة، يعاونها جسد خفيف لم يحظ بغذاء يليق بطفلة لم تبلغ السادسة بعد.

ما أن استقرت على الجذع حتى راحت تتجاوزه صاعدة إلى الفروع، وكانت كلما صعدت فرعا يستبين لها جزء من بحر النيل، منه أكثر وأكثرمما تتمنى دائما، وهكذا راحت تبعد شيئًا فشيئًا عن فروع الجذع المتين إلى فروع الفروع العليا.

كان سؤال يلح فى روحها ويعصف بها أثناء ذلك، بينما يدفع بساقيها ويديها بعيدا إلى أعلى، «هل يمكن أن أراه عندما أصل أعلى فرع، مثلما أراه دوما من شرفة الشقة خمسة وعشرين؟».

بعد لحظات، بدا لها أنها أوشكت على الإجابة عن السؤال، اذ كانت مساحة لا بأس بها من الجسد المائى الساحر الممتد قد باتت ملك ناظرها، وهى تقبض بيدها على فرع جديد، وقد هيء لها أنها إذا بلغته مرادها ومنتهى أملها فى روية بحر النيل كاملا، رائعا، عظيما، مثلما يكون أبدا من شرفة الشقة الخامسة والعشرين.

فى هذه المرة، حدث ما لم تتوقعه، وكان لابد أن يحدث، فقد تشبث فرع الشجرة الصغيرة الغض بفرعها، مثلما كانت تتشبث هى بفروع أمه الكبيرة، وسرعان ما عكس رحلتها إلى الأعالى، فهوى هابطا بها، وقد ناء بحمله المستحيل.

بعد ذلك بساعات، كانت قد بدأت تفتح عينيها فى المستشفى، تطلعت من رقدتها إلى أعلى، لم يكن هناك غير السقف الأبيض وقد تدلت منه لمبة الكهرباء بسلكها الطويل، هبطت بعينيها إلى أسفل، فلم تجد إلى جوارها غير أمها، وأبيها وقد وقف مرتديا جلابية المسمار، والتى لا يستعملها إلا لماما فى المناسبات المهمة. كانت أمها تبكى وهى تنظر إلى ذراعها ورجلها الملفوفين فى لفائف صلبة بيضاء، ثم سمعتها تقول لها بإشفاق وحنان.

- شفت آخر شقاوتك وعفرتك. كان لازمك البص من فوق.. يعنى !!

• التكهن •

هذه المرة، وبينما كنت جالسة انتظر الطائرة فى مطار امستردام، لم يداخلنى ذلك الشعور اللامبالى الذى يهيمن على حواسى عادة كلما كنت على سفر. فالجغرافيا لن تكون بعد قليل إلا سحابات عابرة، أما التاريخ، تاريخ المرء الشخصى، فيسكن الذاكرة كنوع من الهلام غريب يصعب الامساك به ووصله بالزمن الحاضر، إذ يولد الطيران حالة لا مرئية غامضة من الاتصال الإنسانى، اتصال بأناس لا ولن يربطك بهم تاريخ، ولن تقاسمهم الجغرافيا.

وخلال ذلك الوقت من تلييل الليل، كنت أكابد مللا وتعبا ونعاسا يغمر رأسى، وقد تلخصت آمالى كلها فى مقعد طائرة استقر عليه لأتخفف من عبء رأسى وأنام، فالرحلة التى قطعت جزءا منها قادمة من استوكهولم إلى امستردام، والتى مازال على أن أنجز ما تبقى منها حتى القاهرة، باتت مرهقة ومملة لى، خصوصا بعد أن أعلن عن ساعة تأخير كاملة بالنسبة لموعد الإقلاع المحدد ببطاقة السفر. هكذا اضطررتُ للجلوس منتظرة استدعائى مع بقية الركاب لصعود الطائرة، غير أنى وقد اكتشفت أن لا طائل من الملل والضيق، قررت التسرية عن نفسى، ورحت ألاعبها لعبة كنت قد ابتدعتها من زمن وألعبها عادة فى مثل هذه الظروف، فكنت آخذ بالتطلع بين الحين والحين إلى جمهرة المسافرين الجالسين حولى، وأحاول معرفة البلاد التى جاءوا منها، وطبيعة أعمالهم، والغرض من تنقلهم. كان على، وقد بدأت فى اللعب. أن أسقط جمع العجائز اليابانين من حسابى، إذ أنهم أفسدو ا الأمر على منذ البداية، فما ضرورة التكهن بشأنهم، لأن اليابانى وقد أفصح عن نفسه بملامحة المعهودة، منذ اللحظة الأولى لا يمنحك لذة اكتشافه،

وبصفتى مديرة شركة سياحية، أعمل فى مجال السياحة منذ ما يزيد عن عشرين سنة، يسهل على التأكيد أن هؤلاء اليابنيين سيستقلون الطائرة ليهبطوا فى مطار القاهرة فيصعدوا منه مباشرة فى طائرة أخرى متجهة إلى مدينة الأقصر، ليمضوا ثلاثة أيام وثلاث ليال فيها، يهرولون خلالها طيلة النهار سعيا وراء الآثار فى وادى الملوك ووادى الملكات، ثم يذهبون آخر اليوم إلى الفندق فيغتسلون ويتعشون وينامون.

صرفت بصرى عن الصفر، مفسدى اللعبة، وجلت ببصرى فى بقية المنتظرين: بضعة مصريون، أظنهم من موظفى سفارة لنا بالخارج،، نساء بعضهن محجبات يرتدين أزياء متاجر أوروبية، غير أن كمية الذهب حول أعناقهن وأذرعهن، وطريقة استخدامهن لمساحيق التجميل، وتلك النظرات المدعية المتعالية متصنعة القيمة، تسفر فى الحقيقة عن هزة داخلية، ربما سببها طبيعة الحياة فى الغرب المتناقضة مع قيمهن القروية والمتجلية بوضوح فى كومة العيال المصاحبة لهن بين راضع، ومحمول على الكتف، وجالس على الحجر وصارخ ولاعب وباك.

إذًا، لم يبق لى غير هذين العاشقين اليافعين: أرجح أنهما من الألمان فهما يتعانقان بين الحين والحين، بينما يطالعان كتابا اقتنصت حروفه اللاتينية من الغلاف، ربما كان عن نظافة المطاعم فى القاهرة، وكيفية تجنب ابتزاز تجار خان الخليلى، وتجنب نصب الأدلاء السياحيين، ومجموعة من النصائح الضرورية للسياحة فى بلد غير متحضر يقدمها المؤلف لمواطنيه.

لكن ها هو مسافر جديد يأتى، قلت لنفسى وأنا مستمرة فى اللعب: عظيم!!، لمحته يدخل مسرعا، يقترب من شماعة الجرائد الموضوعة فى ركن الصالة، يقلب المعروض سريعا، يختص الديلى تلجراف فيسحبها ويتجه إلى مقعد أمامى، ثم يترك حقيبته إلى جانبه ويأخذ فى القراءة. ربما كان انجليزيا أو أمريكيا قلت، هو تحت الخامسة والأربعين تقديراً «لم يكن يستخدم نظارة قراءة»، يرتدى بذلة رمادية داكنة تحتها قميص قطنى سماوى مع ربطة عنق سوداء، وجهه لا يخلو من وسامه كلما استبان من خلف صفحات الجريدة التى راح يقلبها دون مهل، عابرا عبورا سريعا على ما فى صفحاتها وكأنه لا يقرأ غير العناوين الكبيرة البارزة،

رجحت، من ذلك، ومن بنيته المتينة نوعا، أنه ربما كان لا عبا من لاعبى كرة القدم، أو مندوبًا لشركة دولية من تلك الشركات عابرة القارات، أو متعددة الجنسيات الحاكمة للعالم والمتناثرة فروعها على خريطة بلادنا كالرز فى الطبق بعد توقيعنا على اتفاقية الجات. الحقيقية أننى استبعدت أن يكون واحدا من المشتغلين بصناعة الأفكار: أستاذ جامعة، كاتب، باحث مثلا، فوجهه الوسيم نوعا، ونظراته الراضية المطمئنة، وأن شابها شىء من التعالى السائد فى نظرات بعض الغربيين، تصعب قراءتها على وجوه أولئك المهمومين، المتعبين بما هو أبعد من الذات.

راجعت نفسى، قلت: قد أكون مخطئة فى تقديرى فالملل، وربما التعب قد يدفعه مثلما يدفعنى الآن إلى عدم الرغبة فى القراءة. على أية حال، وأيا كانت المسألة، نجحت لعبتى التى لعبتها فى التلاعب بالوقت، وهضم الملل، فهاهم ينادون على ركاب الطائرة، وهأنا أسارع للاصطفاف فى طابور المغادرين، لأكون قاب قوسين أو أدنى، كما يقولون، من مقعدى المأمول.

لم تمر الا دقائق قليلة إلا وكنت مستقرة على كرسى بجانب كوة من كوات الطائرة الصغيرة، فى جناح غير المدخنين. كنت قد اقتنصت المقعد على طريقة وضع اليد، لأن مقعدى الأصلى كان فى ناحية الممر، لكنى أحبذ الجلوس وقت السفر بجانب النافذة لأراقب الطريق، وإن كانت هذه الرغبة بلا معنى الآن فى شتاء تلك الليلة الأوروبية من ليالى شهر ديسمبر القارس، حيث السماء لا تفصح عن أى مشهد للناظر إليها من الشباك، غير منظر سوادها الشامل الحالك.

ربطت حزام الأمان، مددت قدمى المتعبتين، وما كدت أتأهب مضطجعة لأحلام سعيدة خلف جفنين مغمضين إلا وكان ذى البدلة الرمادية والقميص السماوى قد جاء، وراح يمارس طقوس الاستعداد للرحيل، فبعد أن وضع حقيبته داخل الرف العلوى المخصص لحقائب اليد وأغلقه، راح يتطلع إلى رقم المقعد الشاغر إلى جوارى ومقعدى، ورقم مقعده فى البطاقة، نظر إلىَّ نظرة ذات مغزى، قلت له على أثرها:

- عفوا. جلست مكانك؟!! أستطيع أن أتركه لك.

هز رأسه نافيا، محركا كتفيه بلا مبالاة. ثم جلس على الكرسى المجاور بسرعة، ربط الحزام وفعل ما كنت أحاول فعله لتوى، إذ أغمض عينيه لينام.

تكهنت: لا يمكن أن يكون ألمانيا، وإلا لكان أصر على مقعده، وهل يتفاهم الألمان فى مسألة تخص النظام!؟ لكنه ربما كان كنديا مثلا، لماذا حصرته فى الجنسية الإنجليزية أو الأمريكية؟! تدافعت مشاهد الرحلة بسرعة، وكأن القائمين عليها يبغون تعويض التأخير وما فقدناه من وقت، أخذ قائد الرحلة يعلن عنها ويزودنا بمعلومات عما سيكون عليه الحال أثناء الطيران، درجة الحرارة الداخلية والخارجية، الارتفاع، كيفية مراعاة قواعد الأمان، انتهى بسرعة ليفسح زمانا لموسيقى خفيفة محايدة، حركة المضيفات لا تنقطع، أصوات المحركات تأخذ نصيبها هادرة، جارى يتململ فى كرسيه، أذنى تأبيان السكينة وتبصران مالا تراه عيناى المغمضتان ، أشعر بحرارة رغم برودة الجو، أفك زر قميصى العلوى وأتنهد بضيق طالبة خلاصا من حالة الاحتباس الطائر هذه. أخيرا تبدأ الطائرة - ولا أعرف لماذا لم يسمونها الطائر؟! - رحلة صعودها السماوى بعد أن تتدلل على الممشى قليلا ثم تندفع إلى أعلى وفى لحظة فريدة، أعتبرها من أجل اللحظات لسبب غير مفهوم لى.

سرعان ما بدأ صوت فك الأحزمة المربوطة مرة أخرى، وصوت الكراسى وهى تأخذ وضع الاضطجاع، أقدام المضيفات تتقدم وهن يجرجرن عربات المشروبات، أخيرا وقفت المضيفة أمامنا، فتحت عينى، سألتنى عما أريد أن أشربه بينما كان جارى يمد يده لها بورقة أخذتها دون أن تنظر إليها. قلت:

- نبيذ. سألت:

- أحمر؟

- أبيض من فضلك.

ناولتنى الكوب البلاستيكى، صبت بعضا من نبيذ الزجاجة الصغيرة فيه وابتسمت. ولا أدرى أن كنت قد قرأت ورقة جارى أم لا فقد انشغلت برشف قليل

مما صبته لى، لكنى لاحظتها وهى تضع أمامه زجاجة ماء معدنى وكوبا، صبت له مثلما فعلت معى، فشرب بنهم غريب، وما هى إلا لحظات حتى كان قد أتى على ماء الزجاجة كله.

أخذت أتجرع النبيذ فى بطء متلذذة، كنت أتوسل به لأسترخى وأنام، وهو ما حدث بعد ذلك بقليل، إذ كان جسدى قد أخذ يتراخى، ونعاس مهيمن يجرنى اليه، فكرت فى الاستسلام، لكنى آثرت التريث قليلا حتى آكل شيئا يسيرا ثم أغطس بعد ذلك فى بحار السبات.

بدا جارى وكأنه لا يرانى، ارتحت لذلك وحمدت الله، فأنا أكره الكلام والثرثرة أثناء السفر،مثلما أكره الحديث مع الغرباء، الذى يكون عادة كمية لا حد لها من المجاملات، وهذا ما أكرهه وأعانى منه لأنى مديرة شركة سياحية اضطر للمجاملة والكياسة كثيرا حتى أنجز أعمالى وأحصل على وفود. لذا أنا مستريحة الآن لرفيق الساعات القادمة، فهو على ما يبدو من ذلك الطراز المنسحب على ذاته، المتحفظ فى علاقته بالآخرين.

جاءت مضيفة أخرى تجرجر عربة الطعام، وضعت أمامه صينية وسألتنى أن كنت أفضل السمك أم الدجاج، فلما طلبت سمكا، فتشت لديها، وطلبت منى الانتظار لحظات ريثما تذهب إلى المطبخ وتعود لى بالسمك الذى كان قد نفد من عربتها.

كان جارى خلال ذلك قد فرش المنديل الورقى المخصص للطعام على فخذيه، ثم ظل منتظرا، فلم يشرع فى الأكل حتى عادت المضيفة بالسمك لى. وما ن بدأت بإخراج أدوات المائدة من كيسها السلوفانى الشفاف حتى أخذ فى التهام طعامه.

رحنا نأكل صامتين، ألتهم طعامه بسرعة واضحة، هز رأسه لمضيفة الشاى والقهوة رافضا، وفعلت ، إذ كنت لم أزل أحتسى نبيذى، وبمجرد أن سحبت المضيفة صينية الطعام مرة أخرى، نكش أسنانه ونام.

رحت أنام أنا الأخرى، خصوصًا وأنهم خفضوا درجة الإضاءة، وكنت أهدهد روحى متمنية لها نوما هادئا، بعد أن اخترت أغنية قديمة من مجموعة أغنيات

عبرت ذاكرتى، وأخذ ينساب بداخلى على نحو تكرارى لحن «شباكنا ستايره حرير من نسمة شوق بيطير»، كان يتدفق واضحا فى داخلى وكأنى كنت أسمعه من مذياع بالفعل، أو من أسطوانة حقيقية، حتى وقعت شيئا فشيئا أسيرة للنعاس.

لا أدرى كم مر من الوقت على ذلك، لكنى صحوتِ على اهتزاز شديد فى الطائرة، كانت تتطوح كأرجوحة يلهو بها طفل صغير، قلت لروحى: أنها المطبات الهوائية لا غير. كنت مضطربة قليلا، نظرت إلى جارى عله يمدنى بما يهدئنى لكنى وجدته مستغرقا فى نوم عميق. فجأة وبينما رحت أطالعه، تجمدت فى مطرحى، وشعرت بشعور غريب يسرى فى جسدى، كان جارى فاتحا ساقيه تماما، وقد خلع الحذاء من قدميه، بينما لا مس برجله رجلى وركبتى، أما يده اليمنى فكانت مستقرة على فخذى تقريبا، بعد أن مدها لتتجاوز المسند الفاصل بين مقعدينا عابرة حدوده إلى حدودى.

لا أدر لماذا ارتبكت وقد بدا لى وكأنه رجل ينام على فراشه فى البيت، أظن أننى وقعت فى مشكلة سخيفة إذ أخذت أتكهن بدوافع سلوكه هذا على النحو التالى: أولا: رجل نائم بالفعل ولا يدرك ما يفعله. ثانيا: وقح يسعى لمعاكسة وضيعة من الدرجة العاشرة. ثالثا: إنسان غبى، سىء التقدير، بليد، يتصرف بأنانية بالغة وعلى راحته دون اعتبار لوجود آخرين.

قلبت الاحتمالات الثلاث مفكرة بسرعة فى محاولة للمواجهة السريعة. هل أشتمه؟ أم أرفع يده بعنف إلى أعلى وأتركها تهوى إلى أسفل السافلين فيفيق؟ أم يتوجب على أن أهزه من كتفه ليفيق ثم أشرع فى توبيخه بشدة.

لم أفعل أى من هذا، فلقد حرت ولم أقو على أى فعل، ربما بسبب ذلك التعبير البرئ الذى بدا لى مرتسما على وجهه فى ظل هذه الإضاءة الخافتة، زادت حيرتى، تذكرت أفلام السينما، حيث تنام البطلة فى بعضها على كتف البطل، كدت أضحك، قلت: لا! مستحيل أن يبلغ الإنسان هذا الحد من قلة الذوق! إذًا سأوبخه فهذه وقاحة فعلا! لكنى تراجعت وأنا أتوقع الجلبه التى يمكن أن تنتج عن ذلك، فتلفت الأنظار إلى وتجعلنى موضوعا يدفع الركاب به مللهم

خلال بقية ساعات السفر، تراجعت وأنا أراجع لفتته المتحضرة فى انتظار سمكى قبل الشروع فى التهام صدر دجاجته، وفهمت خلال ذلك عبقرية بنات الجامعة عندنا فى ادارة الأزمات، فقد حكت لى أحداهن أنهن يخرجن دبوس ابرة صغير يوخزن به جار السوء فى المواصلات العامة عندما يتعرضن لمضايقات مثل ما أتعرض له الآن، الوخذ يدفع الجار الرذيل للابتعاد عنهن، دون أن يلفتن اليهن الأنظار، أخيرا: حظيت بإلهام، فانتفضت تاركة له يده ورجله ليفعل بهما ما يشاء، مقررة الذهاب إلى دورة المياه، لكن حركتى المفاجئة أيقظته. نظر إلى نظرة غريبة، خيل إلى أنها لا يمكن أن تكون لإنسان كان نائما لتوه، لأنها لم تكن مشوبة بأى نوع من الدهشة أو المفاجأة، ولم تكن متشبثة بأية رغبة بارتباك جاهدت لأخفيه:

- عفوا.

لم رجليه قليلا كى أعبر، احتككت به رغما عنى، وسرت إلى دورة المياه.

عدت بعد قليل، وجدته مسندا رأسه إلى مؤخرة المقعد وقد اشرأب بعنقه قليلا، بدا وجهه على هذا الوضع أكثر وسامة مما ظننت، أنفه على وجه الخصوص بدا جميلا شديد التناسق مع العينين والفم، هممت أن أقول له: إذا نمت فالتزم حدودك، لكنى وجدت العبارة طويلة بعض الشىء، فقررت اختصارها إلى: من فضلك لا داعى لذلك، لكنها كانت مهذبة، غير حاسمة، فغيرتها إلى: إياك أن تفعل ذلك مرة أخرى، فلما وجدت أنها ستفتح الباب للأخذ والرد آثرت الصمت وقد تملكنى غيظ وضيق. اكتفيت بالجلوس مرة أخرى على مقعدى، وإدارة ظهرى له حتى نهاية الرحلة، بد أن أخذت وضع التحفز والاستعداد لمواجهة أى هجوم وارد جديد.

يبدو أننى نعست مرة أخرى، وأنا على هذا الوضع، لأننى عندما افقت كانت الاضاءة غامرة. والمضيفة تمر على المقاعد لتتأكد من ربط الأحزمة من جديد. ربطت الحزام ورحت أتطلع من الشباك. كانت أضواء موطنى قد بدأت تلوح من بعد.

مرت أيام على عودتى إلى أرض الوطن، نسيت خلالها أحداث زمن الطيران العابر، لكنى ذات صباح، وبينما كنت منهمكة مع أحد الموظفين فى متابعة عمل لى فى أحد الفنادق المعروفة بالبلد، وجدت جار الطائرة يتقدم نحونا، وقد ارتدى الملابس ذاتها التى كان يرتديها أثناء رحلتنا معا، وكان يحمل بيده الحقيبة السوداء نفسها، نظر إلى قليلا وكأنه يرانى لأول مرة، ودون أن يقول شيئا، رأيته يخرج قلما من جيبه ويكتب ورقة للموظف ليقرأها الأخير وهو يهز رأسه موافقًا.

• قمر ينظر إليه •

بدت السماء فسيحة رائقة فى تلك الليلة الصيفية الحارة حتى يظن أن اتساعها يحتمل ويتقبل أكثر من قمر، لكن لما كان للأرض قمر واحد يدور حولها، فقد استأثر بذلك الفضاء المترامى الغامض، وبدا فى عليائه كدرة مبهرة صعبة المنال، تضئ وتشع كينبوع ضياء لا يدرك منتهاه.

وهكذا لم تستطع بنايات المدينة العالية، المكللة بمهرجان الأضواء، ولا ضجيج السيارات المتدفقة على الكبارى، الحيلولة بين القمر وبين تلك الأنظار المتعطلة إلى طبق البللور الأشهب العجيب، وكانت الزوجة الشابة أول من لاحظ هلته وطلوعه فقالت:

- قمر يجنن.

راحوا جميعا يتأملون الإبهار العالى المنير للبادى فى السماء، وهمس ذلك الذى تمنى البوح بوجده لمن باحت بجنون القمر وهو يزفر قائلا:

- فى بالى شبيه له على الأرض.

رشفت الشابه رشفة من كوب الماء الموضوع أمامها على الطاولة، وأشاحت بعينها بعيدا، لتراقب سريان مياه النهر، قريبا من مجلسهم فى المطعم الليلى الفخيم، بينما هل عليهم طفل صغير حاملا بيده عقودا من الفل الأبيض الشاهى، عرض عليهم بضاعته بتوسل ورجاء، نظر إليه بعضهم بلا مبالاة، بينما آثر البقية مواصلة سيرة القمر، وكأن الصغير وجود حدود، فقال الشاعر بينهم،

وقد ظل مشرئبا برقبته يتطلع إلى السماء، وقد جاشت فى جوانحه، نشوة ملتذة وفيضان من الشعور:

- أفيض من نور؟ أم آية من لجين؟

آثر الطفل الانسحاب قليلا والوقوف فى الركن غير بعيد عن مجلسهم، على أمل أن يتحين فرصة مناسبة فيبيع لهم مرة أخرى، إذ كان يحلم بقروش ينهى بها جولته المسائية ليذهب بعدها وينام، وهكذا تسنى له أن يسمع الزوجة العجوز، وهى تعلن بسعادة أمره، بعد أن تذكرت جهودها الناجحة فى استعادة زوجها إلى حظيرة الزوجية أثر فشله فى مغامرة عاطفية سريعة قبل وقت قريب:

- الحقيقة، أنا أحب القمر عندما يكون هلالا، لأنه يذكرنى دوما بالمرة الأولى التى خرجت فيها مع زوجى، عندما كنا مخطوبين، كان ذلك ذات مساء، فى مطعم غير قريب من صحراء مصر الجديدة، قبل أن تزدحم تلك الضاحية بالبنايات، ويلتهم الأسمنت صحراءها، وقتها كنا مازلنا شابين مخطوبين، فرحنا نتطلع من الشباك القريب لجلستنا، ففاجأنا الهلال كعروس فاتنة فى زفة من النجمات، وغمرنا فيض من شعور جارف وتعاهدنا على الوفاء، طالما بقينا زوجين فى هذه الدنيا. راحت تضحك مقهقهة، وكأنها حكت طرفة تدعو إلى المرح والسرور، أو كأنها تستدعى لنفسها ذكرى قديمة لم تغب.

أخذ الولد يعيد ترتيب عقود الفل على ساعده اللين، وفكر: آه لو أبيع اثنين أو ثلاثة، آكل بعدها شيئا سريعا ثم أذهب إلى أمى فأنام.

فتح فمه تثاءب، بينما صورة فراش طرى تروح وتجئ فى مخيلته، وربما لهذا، لم يتسن له ملاحظة وجه السيدة البدينة المكفهر، وهى تسدد نظرات متبرمة إلى زوجها القائل:

- أما أنا فلاعشق لى بالقمر، إلا عندما يستوى ويكتمل، فيكون بدرا، وكأنه امرأة جميلة فى أوج نضجها ونضرتها، فيهتف هاتف من داخل المرء عندما يطالعه، يلح عليه ويدعوه: الآن .. الآن، وإلا لن يكون أبدا، فالبدر هو منتهى الكمال، وشارة بالغة فى معنى الزمان، ودعوة لنهل من لذائذ الحياة.

زفرت عروس لم يحل الحول عليها بعد، كانت قد فقدت جنينها منذ شهور قليلة فائتة، بعد معاناة المخاض، وقالت بصوت قطة حبيسة تموء:

- يأخذنى القمر كثيرا، عندما يكون شاحبا حزينا، وقد اكتسى بغلالة شفيفة من السحاب، فيتبدى من بعده معتما مضيئا فى آن، ويأخذنى بعيدا بعيدا، فأفكر فى القدر المخبوء، والسر المجهول، ولعبة الأيام مع الحياة والعدم، وأظل سارحة مع تأملاتى، وهو يختفى ويستبين من خلف غلالته السحابية وكأنه يفضفض لى بحكايات وحكايات عن هذا الكون العجيب الذى نعيش فيه.

كان الولد قد مل الوقوف، فتردد قليلا، قبل أن يقترب منهم طارحا عليهم فله مرة أخرى، علهم يبتاعوا منه ولو عقدا واحدا، وكان خلال ذلك يتثائب بجد محاولا طرد النوم بعيدا عن مقلتيه، بينما يهجس لروحه بأن أجمل الأقمار كلها، ذلك الذى يكون رائعا فى السماء على هيئة نصف رغيف شهى خرج طازجا من بيت النار.

انكسرت الشمس ووزعت شعاعاتها أرجوانا راحلا فى الأفق، فبدا له المشهد القاهرى باذخا صادما، بعد أن خرج لتوه من محطة القطارات الرئيسية فى رمسيس، وانفتح على ميدانها الصاخب الضاج، بطرقه المحتشدة، وسياراته المارقة، وكل تلك البنايات العالية وذلك العرمرم البشرى الرائح الغادى دون انقطاع.

تناوبته مشاعر الفرح والفزع، الذهول والرهبة، إذًا هو يونس جديد وهذا هو الحوت، لكنه سيمضى فى الجوف الغامض المثير، إلى أبعد من أيام يونان الثلاثة، وسيبقى فى تلك المدينة المعبودة التى طالما رغبها واشتاق لرؤيتها، وحلم مرارا بالحج إليها، الآن لم يعد حجا ولا تقديسا، إذ أن الحظ ناداه، ليضع قدمه بها ويثبتها، بعد أن استدعاه ابن عمه وسميه من أعماق قريته الجنوبية البعيدة، ليجئ إلى تلك المدينة، فيكحت القضب وينضم بذلك إلى الفريق العامل فى محل عصير جنة رضوان، والمكون من صاحب المحل بلدياته المعلم «أخنوخ» وابن عمه «جرجس» وآخرين سيعرفهم عندما يصل إليهم إن شاء الله.

سار خطوات مبتعدا عن المحطة، توقف، دب يده فى الجيب السيال لجلبابه ثم أخرج الورقة المكتوب بها عنوان جنة رضوان.

استأنف المسير مرة أخرى، بعد أن سأل مرة واثنتين وثلاثا، وتيقن من إجماع جميع المسئولين بنسبة ٩٩٫٩٩٩٪ على أ ن الوصول للجنة إياها يوجب عليه الدخول أولا فى الشارع الكبير المسمى شارع شبرا، ثم ترك أول وثانى وثالث

محطة أتوبيس، يعرج بعدها يسارا وهناك يجدد السؤال، فيحصد بعده الإجابة الشافية.

قبل أن يصل لمحطة الأتوبيس الثالثة، استوقفه تفصيل صغير من لوحة الشارع الكبير، كان مشهد ذلك التفصيل، قد تكرر قبل ذلك عدة مرات، طبليات عديدة مرصوصة على الأرض، صفت عليها صحون وأكواب المآكل والمشارب فكر فى المتحلقين حول تلك الموائد، خمن أن المناسبة ربما كانت مآتم قاهرية، لكن كان هناك الغروب، وعشاء المآتم يكون عادة ساعة العشاء، إذًا ليست هذه موائد بذلت على شرف موتى، كما أنه لا تواكبها مظاهر الحزن والحداد. ود السؤال من باب الفضول، لكنه تراجع بعد تفكير فهو لا يستطيع حسبان رد الفعل القاهرى فقد يخرق أذنه وقد لا يرضيه، غير أن شهوة المعرفة أخذت تحسره وتحاصره، أو فلنقل مباشرة وبلغة المثقفين، أن الظاهرة المآدبية فرضت نفسها عليه بعنف، وشدته للفعل والحراك، لذلك وكمدخل أولى، قرر تكرار السؤال عن جنة رضوان، ومنه يتطرق إلى حكاية الأكل فى السكك.

مال على واحد من المقرفصين أمام المائدة، فسأله وهو يمد له يده بورقة العنوان، رد عليه الآخر بسرعة من فم واسع استولى على حصة الأسد من وجه ممصوص، وقال فى تعجب يشوبه ضيق:

ـ طيب. ميل الأول وكل، وبعدها أهم معك وأسأل نفر يدلنا. أو يدلك لحد هناك تلكأ قليلا وهو راغب، لقد كان جائعا تعبا، منهكًا، بسبب نفاد زوادة الفايش التى التهمها فى القطار بعد أن غمسها بالشاى، وذلك الجهد الانفعالى الهائل المبذول فى استقباله للقاهرة لأول مرة فى حياته، ثم كل ذلك السير فى شارع شبرا لأجل جنة رضوان، حسم الأمر وبرك فى الأرض إلى جانب الجالسين، وما أن تعالى آذان المغرب من عدة مآذن، حتى هجم على المائدة مع الهاجمين، بعد أن شجعه مقترح الدعوة المسئول بقوله:

ـ مد يدك طوالى، بسم الله.

وزع نشاطه بين التهام الأرز والطبيخ والمخلل، تأمل الجالسين حوله، بدوا له دون أية علامات فارقة ملحوظة، سواء من حيث الشكل أو اللبس، وجوه كوجهه

تقريبا، ذلك السمار، ذلك الاضفرار، تلك العيون المكتحلة بالهم واليأس، تلك الجلاليب، أو السراويل المحتوية أجسادا لا حول ولا قوة لها، آثر ألا يتحدث أو يسأل، وزع فضوله ورغبته فى الكلام والمسايرة أثناء الاكل، فهذه متعة لا تدانيها متعة، سوى تدخين سيجارة فى الفراش بعد أداء واجباته العائلية فى الليل، لكنه آثر التمسك بحكمة ابن عمه الذى نصحه بها قبل أن يهبط هذه المدينة: «لما تكون فى مصر، أقصر الكلام، يعنى كلمة ورد غطاها والسلام».

وهكذا راح يزدرد طعامه صامتا على مضض، لكن سرعان ما دفعه الداعى للوليمة، والذى جلس بجانبه إلى خرق ناموس ابن العم العزيز، فاضطر للكلام والرد، بعد أن سأله الرجل عن أصله وفصله، وأوله من آخره، وبعد أن أجاب، وكرد فعل سريع لذلك، قدم له الرجل بطاقة تعريف شفاهية سريعة وهو يقول:

- أنا الآخر من بحرى، من نواحى كفر الزيات، أرزقى على باب الله، يوم شغل وعشرة من غير، وكل رمضان أقول لروحى أنزل يا ولد يا محمود وبر نفسك فى مصر، لأن رمضان فيها رزقه واسع وخيره عامم، طب، تصدق وتؤمن: من أوله لحد الآن صار أكلى كل يوم فى مطرح شكل، عمومًا الحمد لله.

بدت الفرصة مواتية فى هذه اللحظة فسأل:

- يعنى كل يوم فى رمضان، والموائد عمالة وقت المغرب؟

رد محمود بلهجة العارف:

- أى نعم، يا أخى الميسورين ياما هنا، لكن الغلابة أكثر وفى كل ناحية من البلد تلقى الأكل وقت المغرب، والموائد محطوطة لكل من هب ودب فى سبيل الله، لذلك اسمها موائد الرحمن.

- آه ..

قال وواصل مضغ ما فى فمه.

لم يمض وقت طويل، إلا وكانت الموائد قد فرغت تقريبا مما عليها، عندئذ،

صاح رجل جالس على رأس المائدة، بدا مختلفا عن الآخرين فى شكله وملبسه، وقال بلهجة تشبه الآمر:

- هموا يا أخوان، وخلونا نخطف صلاة المغرب جماعة، قبل ما يكبر العشاء، يعنى خلصوا وهمو للوضوء فى الزاوية.

أسقط فى يده، كيف سيصلى المغرب معهم وهو قبطى، شعر بمغبة تهوره وتسرعه فى الجلوس والأكل ، بدأ يشعر بالحرج والندم، فماذا سيفعل الآن؟ هل ينسل فى هدوء دون أن يشعر به أحد؟ أو يتذرع بأية حجة لذلك المحمود ويمضى فى سبيله؟ سيقول له مثلا أنه سيصلى فيما بعد، فهو يخشى الوصول إلى جنة رضوان متأخرا فلا يجد ابن عمه المنشود، حاول ترتيب حكاية مقبولة، تحفظ له ماء وجهه الشحيح أصلا، بدأ فى التحنح أولا، حتى يفسح المجال لكلامه المفتعل، لكن محمود أوقف بدايته التى لم تبدأ، وقال وهو يمضغ متلذذا قطعة تمر مبلولة، نجح فى اصطيادها باصبعه من قعر كوب نقيع التمر الذى أجهز عليه منذ لحظات:

اسمع، أنا شوفى أننا نترك حكاية صلاة المغرب، ونهم ننهض لنسأل عن مكان جنة رضوان، أنا مستعد أدلك بنفسى لحد هناك.

وافق جرجس بسرعة ودون أية شروط، لكنه تساءل فى خجل وهو يشير إلى الرجل والجالسين:

ـ لكن .. الرجل .. والناس؟

ضحك محمود وقال وهو يرفع طاقيته عن رأسه قليلا ويهرش قفاه:

ـ الله، وهو ماله بصلاتنا، هل هو ولى أمرنا، ثم إن الرجل كلف نفسه بالأكل لأجل ينوبه الثواب، وبصراحة أنت وأنا عملنا ما علينا ونولناه الثواب.. هاها .. ها.

ابتسم بدوره، هب واقفا بمجرد أن وقف محمود، سارا مبتعدين عن المكان، سأل محمود له عن العنوان، فحصل من الإجابة على الإجماع، أى بات من المؤكد أن جنة رضوان فى مكان جنة رضوان المعروف له من قبل.

أخرج محمود سيجارتين، قدم واحدة له ودس الأخرى بين شفتيه، شعر جرجس وهو يسحب نفسا عميقا من السيجارة بعد إشعالها بتلذذ عميق، قال فجأة لرفيقه:

- بالمناسبة أنا أسمى جرجس

نكس محمود أذنه اليمنى بشاهده، تثاءب بملل، بدا غير مكترث بما سمعه وهو يقول:

- تشرفنا يا عم جرجس!.

• مقام عطية •

رواية قصيرة

فى أحد الأيام، دعيت إلى مكتب رئيس تحرير المجلة التى أعمل بها، على وجه السرعة، وعندما دخلت مكتبه الفخم، الذى يشغل أوسع حجرات المجلة، كان عنده مدير التحرير أيضًا، كان غاطسًا فى كرسى جلدى داكن اللون يحمل بيده الطرّية الصغيرة، التى طالما أثارت قرفى واشمئزازى، فنجان قهوة ويرتشف منه قليلاً، أخذ كلاً منهما يرحب بى ترحيبًا غير عادى، أرابنى، حتى أنى شعرت بالخوف من مدير التحرير، عندما راح يضع يده فى جيبه ويبتسم، تصورت أنه سيخرج مسدسًا ويطلق منه رصاصة فى اتجاهى. جلست على كرسى بجانب طاولة رئيس التحرير، وبعد مقدمات تقليدية، عرفت أنى مكلفة بمهمة صحفية خاصة تتعلق بمقام الست عطية.

لماذا أنا التى اختيرت للقيام بتلك المهمة، دون المائة والخمسين محررًا، الذين يعملون فى المجلة؟ لا أدرى كان الأمر غريبًا وغير مفهوم بالنسبة لى، فأنا لست على علاقة طيبة برئيس التحرير، أو مدير التحرير، أو حتى رئيس القسم الذى أعمل فيه، حتى يمكن اختيارى لعمل مثل هذا الموضوع الخطير جدًا والخاص جدًا كما قال لى كل من الرجلين، ثم إذا كان هذا الموضوع ضربة صحفية كما يقولان، فلماذا يخصانى بها دون الآخرين من أتباعهم وصبيانهم الكثيرين فى المجلة، وما دعانى للاستغراب أكثر، هو أن الموضوعات التى من هذا النوع، يقوم بها أكثر من محرر، عادة، اثنان أو ثلاثة على الأقل، لكن رغم كل تساؤلاتى هذه، فقد قبلت القيام بتلك المهمة، وأنا سعيدة فعلا، لأنها لن تخلو من إثارة، نظرًا لطبيعة الموضوع الغرائبية، حيث هناك المقام، وما أثير حوله من حكايات، هى

أشبه بالأساطير والخرافات، لكن الإثارة الحقيقية، والتى تشدنى إلى القيام بذلك الموضوع، هى دخول مصلحة الآثار طرفًا فيه، حيث قررت التنقيب حول المقام. كنت فخورة حقًا، لأنى سأقوم بمهمة خاصة وغريبة، لذلك قررت أن أتعامل معها، باعتبارها محكًا أساسيًا، أختبر من خلاله مدى قدرتى وكفاءتى كصحفية صغيرة ناشئة.

التقيت الأشخاص أطراف الموضوع، وجمعت المادة وقمت بتحريرها، وخلال كل ذلك، كنت أطلع مدير التحرير على تحركاتى خطوة خطوة، وأتلقى منه ملاحظات على ما أنجزه من عمل، لم يكن أحد وقتها يعرف من العاملين فى المجلة، طبيعة ما أقوم به، بما فى ذلك رئيس القسم الذى أعمل فيه، وعندما أوشك الموضوع على الانتهاء، أعلنت المجلة على القراء خبر اعتزامها نشر تحقيق حول مقام الست عطية، بينما كنت أضع اللمسات الأخيرة فى التحقيق، بالحوار مع حبيبى وزوجى المرحوم على فهيم.

يصعب بالنسبة لى أن أكتب، عما جرى بعد ذلك، بالأحرى لم يعد ذلك مهمًا، أو ربما أعتقد أنه لن يكون مهمًا بالنسبة لأحد غيرى، لكن المهم هو أن الموضوع كله، جرى عدم نشره بعد ذلك الإعلان بل ولم تنشر منه حتى حلقة واحدة، وعندما سألت مدير التحرير، أن يرده لى، لأعيد قراءته، قال أنه فُقد منه وضاع ضمن موضوعات ومقالات أخرى ضاعت أيضًا، ثم طلب منى أن أنسى الموضوع تمامًا، ولا أحدث به أى إنسان.

أأنسى موضوع مقام الست عطية؟ وقفت مبهوتة أسائل نفسى، وأنا أحملق مذهولة، فى ذلك الرجل مدير التحرير، صاحب الوجه الأنثوى المستدير، والنظرات اللئيمة القاسية، التى لا تخفيها ابتساماته الدائمة كلما تحدث، لم أستطع أن أقول شيئا، بالأحرى، لم تكن هناك جدوى، من أية تساؤلات أو أية تعليقات، بخصوص هذا القرار، الذى كان بمثابة الستار الأخير، الذى تكشف عن آخر فصول حكاية مقام الست عطية.

ومنذ تلك اللحظة، اتخذت أنا أيضًا قرارًا فأنا لن أتجاهل ذلك الموضوع أبدًا، بل يمكن القول أنه لم يعد فى مقدورى تجاهله، بأية حال من الأحوال، فقد

عشت، أعمل تحقيقا حول كل ما أثير فى موضوع مقام الست عطية، شهورًا طويلة، أفكر به، ليل نهار، كما أنه كان الموضوع الذى فتّح عينىّ على حقائق غريبة، لم أكن أعرفها من قبل، وأخيرًا، فإن مقام الست عطية، كان وراء أجمل قصة حب، عشتها لحظة فلحظة، وساعة فساعة، فلولا ذلك الموضوع، ما تعرفت على ذلك الرجل الكامل، الصامت صمت الآلهة، أوزوريس الطيب ـ كما كنت أناديه ـ الذى ولد خارج الزمان، ليبقى الضمير الإنسانى إلى الأبد، حيًا لا يموت.

لقد حزنت كثيرًا، وتألمت بما يكفى، لكنى سعيدة الآن، ومطمئنة أيضًا حيث بت أحمل فى أحشائى حوريس ابن أوزوريس، كما أنى تحررت من همّ كان يثقل كاهلى، ويعذب نفسى، فكل ما عرفته عن مقام الست عطية لن يظل حبيس نفسى، وحبيس المجهول، فها أنا أنشره على الجميع، جميع أولئك الذين يهمهم الأمر، وأقول لهم كل ما عرفته عن مقام الست عطية، ما قاله الناس بالأحرى، وما قاله زوجى الأثرى على فهيم، وأولا وقبل كل شىء ما أعلنته مجلة الصباح بخصوص ذلك الموضوع، وسارعت بالتخلى عنه لسبب، أعرف أن الجميع سوف يعرفه بداهة عند الانتهاء من قراءة كل ما تحمله هذه الأوراق حرفًا حرفًا، وكلمة كلمة، أقدم أنا عزة يوسف، المحررة سابقًا بمجلة الصباح، ذلك الموضوع إلى كل من يهمه الأمر، على ضوء التسجيلات الصوتية الحية التى حصلت عليها من الذين تحدثوا عن مقام الست عطية، أما شهادة الشاعر المجهول، فقد جاءتنى فى خطاب بريدى، على عنوان منزلى، بعد فترة قصيرة من نشر خبر اعتزام المجلة القيام بتحقيق صحفى حول مقام الست عطية، أما كيف عرف صاحب الرسالة، بأننى المنوطة بالقيام بذلك التحقيق من المجلة؟ولماذا أرسل هذه الرسالة على عنوان منزلى؟ فلا أدرى السبب وراء ذلك حتى هذه اللحظة، وعمومًا فقد حيرنى أمر هذه الرسالة كثيرًا، لكنى فى النهاية توصلت إلى أمر بشأنها، فربما كانت كلماتها، للشاعر المعروف الأستاذ خليل يوسف، صاحب القصيدة الشهيرة «عطية فى القلب يا عين»، وللحقيقة فقد حاولت الاتصال به، والحديث معه لكنه رفض رفضًا قاطعًا الالتقاء بى، أو الإدلاء بأى حديث صحفى.

اهتمت مجلة الصباح، بما نشر فى الصحف، خلال الفترة الأخيرة، حول أن هيئة الآثار تنوى الحفر والتنقيب، فى منطقة مقام الست عطية بالقرافة الكبرى، وداخل المقام ذاته، وذلك للبحث عن كشف أثرى مهم، لم يحدد تاريخه بعد.

لذلك قامت المجلة، بعمل تحقيق صحفى واسع حول الموضوع، الذى أثار اهتمام الرأى العام، والدوائر الأثرية فى العالم، حيث توقع المراقبون، وفقًا للأخبار المنشورة، أن يؤدى هذا الكشف إلى نتائج إيجابية جديدة، ربما قلبت النظريات التقليدية، المتعلقة بالتاريخ المصرى القديم رأسًا على عقب، كما أن هذه النتائج، ربما حسمت، جميع وجهات النظر المتعلقة بأصل المصريين، ومنشئهم التاريخى، والجهة التى جاءوا منها على وجه التحديد إلى وادى النيل.

إن اهتمام المجلة بالموضوع، ذلك الاهتمام الشديد، جاء على ضوء ما قيل وتمحور حوله الاهتمام، بمحاولة الكشف الجديد، وهو أن ذلك الكشف سوف يجيب إجابة حاسمة على السؤال الدائم، الذى أشيع منذ زمن بعيد، سواء من قبل علماء الآثار الغربيين أو من قبل أولئك الذين لا يرون أية علاقة رابطة بين الماضى والحاضر، وهو السؤال الذى يقول: هل يمت المصريون الحاليون، بأية صلة، للشعب الذى عاش فى وادى النيل منذ آلاف السنين، وحقق تلك الإنجازات الحضارية الكبرى؟

لقد دفع ذلك التساؤل الكثيرين بعيدًا، حيث الشطط الفكرى والخيال الكاذب، بل والافتراء المقصود فى كثير من الأحيان، فذهب بعض من هؤلاء إلى أن

المصريين القدماء، جاءوا من كوكب آخر تتقدم حضارته عن حضارة الأرض بآلاف السنين، وهبطوا وادى النيل، حيث أسسوا حضارة الفراعنة العظام، وقال آخرون أن بناة الأهرام، قد اندثروا وفنوا بمرور الوقت والأيام، فلا صلة للمصريين الآن بمن عاشوا على ضفاف النيل المجيد منذ خمسة آلاف عام، وإلا هل من المعقول أن تكون هناك أية صلة بين الذين استخدموا القيثارات الذهبية فى ترانيم المعابد، وبين أولئك الذين يغنون الآن السح امبو؟ وهل يمكن أن تنتمى تلك النسوة البدينات اللواتى فى أحجام الفيلة، لنساء فرعون الجميلات، ذوات القدود المشوقة، المرتديات الغلالات الشفيفة، المبرزة لجمال الجسد السامى؟

إن أية مقارنة بين الحاضر والماضى القديم، غير واردة وفقًا لآراء أولئك المُنظرين لمثل هذه الأقاويل، كما أن العقل لا يستطيع احتمالها، لذلك فإن مجلة الصباح، انطلاقًا من كل حب لهذا الوطن، وحرص عليه، تتمنى أن يكون هذا الكشف الجديد، مخرسًا لكل تخرصات تشكك فى أصول شعبنا، وأن يأتى بالبرهان الساطع على حقيقة انتمائه الحضارى.

غير أنه قبل البدء فى نشر هذا التحقيق الواسع، الذى سينشر تباعًا على حلقات، نظرًا لاتساع مادته، وتشعب قضاياه، هناك عدة ملاحظات لابد منها، حتى لا يحدث أدنى التباس عند القارئ، تتلخص فيما يلى:

● أن هناك تضاربًا شديدًا - حتى هذه اللحظة - حول شخصية الست عطية، وكراماتها الدينية، ومنشئها وأصلها.

● مقام الست عطية، هو مقام حديث الإنشاء نسبيًا، كما أن التصريح الصادر من وزارة الداخلية بمولدها السنوى، لم يصدر إلا منذ بضع سنوات قريبة.

● هناك محضر شرطة، حرر منذ فترة، بسبب نبش تربتها قبل إقامة المقام، قيّد ضد مجهول، وقد قيل وقتها أن التربة نبشت أكثر من مرة.

● المجلة لم تتمكن من الحصول على صورة واحدة للست عطية خلال التحقيق، رغم معرفة الست - قدس الله روحها - لأناس كثيرين، ومشاركتها كما قيل فى بعض المناسبات العامة. لكن الفنان على حسنى، قام بعمل بورتريه تخيلى

للست عطية، بناء على طلب المجلة، ووفقًا للشهادات التى قدمت، وتتعلق بشخصيتها وتكوينها.

■ رفض الترببى، وخادم المقام، الكلام تمامًا مع مندوب المجلة رغم أن ذلك الرجل يعتبر من أهم حلقات الموضوع، لكن الصباح نجحت فى جمع بعض المعلومات المتعلقة به، والتى يمكن أن تلقى ضوءًا على دوره الحقيقى، كذلك رفضت هيئة الآثار الإدلاء ببيانات تفصيلية شافية حول المسألة، واكتفت بتصريح مشابه لما ورد بالخبر، سوف ننشره من باب توخّى الأمانة والدقة الصحفية.

شهادة ... شهادة...

• الولد الوحيد.. متلقى الخبر الحزين •

والدتى - الله يرحمها - كانت سيدة محترمة، أحبت الناس وأخلصت لهم فأحبوها وقدروها، والله كرمّها فى موتها، مثلما كانت كريمة معطاء فى حياتها، وأنا لم أكن أعرف أنها توفيت إلا لحظة وصولى المطار، لأنهم قالوا لى فى التليفون، والدتك مريضة يا فؤاد، واحضر بسرعة لكنى شعرت أن الحالة حالة وفاة، لذلك حجزت على أول طيارة طالعة إلى مصر، ولحسن الحظ، وجدت مكانًا فى اليوم التالى للمكالمة.

وفى المطار بمجرد أن رأيت محمدا ابن عمى، وزوج أختى نادية بكيت على الفور، فالخبر كان فى العيون، وأنا كنت مصرًا على الذهاب من المطار للترب مباشرة، ولم أستطع الإنتظار، لأن أعصابى انهارت تمامًا، حتى أنى بقيت أنهنه وأشهق كما الأطفال ولم أستطع التماسك، والحقيقة أن ضميرى كان يؤنبنى لأنى لم أرها منذ أن غادرت البلد للعمل فى الخارج منذ حوالى أربعة سنوات ولما وصلنا الترب، وفتح التربى الحوش، فوجئنا بأن التربة مفتوحة وكانت مفاجأة كبيرة للجميع، ونزلنا فورًا لنشوف ما جرى، وكان إحساسنا أنه لابد أن تكون هناك سرقة لجثة المرحومة، لأن هذا يحدث كثيرًا فى الفترة الأخيرة بسبب طلبة الطب، وعملية التشريح، لكن المفاجأة الأغرب، هى أن الجثة كانت سليمة تمامًا، والكفن فى حالة طبيعية، ماعدا أنه مشرط كما جرت العادة لمنع سرقته، وكان التربى هو الذى لمح أولاً ذلك الشىء الذهبى الغريب، والذى كان يبدو أقرب من

حيث الشكل، إلى هيئة زهرة اللوتس، وكانت له ساق طويلة ممتدة فى الأرض، والحقيقة أن ذلك كان المفاجأة الثانية بالنسبة لنا، ووقفنا لفترة مبهورين، لأن ذلك الشىء كان منظره جميلاً إلى حد الخرافة، ولو كان معى صوّارة وقتها لصوّرته، وأنا أقول صوّارة ولا أقول كاميرا، لأن الكلمة الأولى عربية سليمة، وربما يكون من المفيد هنا التنويه بأننى عالم لغويات، أدرّس العربية فى جامعات أوروبية، ووصف ذلك الشىء الذى رأيناه مسألة صعبة جداً الآن، لكنه ترك شعوراً قوياً وغريباً فى نفسى. ولما تحرك التربى ناحيته ليمسكه أحدث صوتاً أشبه برفيف أجنحة طائر صغير، ثم تلاشى وتبدد تماماً، خصوصاً عندما حاول التربى الإمساك بالساق، وأخذ الرجل يتشهد ويحوقل، بينما أخذ ابن عمى يقرأ سورة الغاشية، وسورة الحاقة، وما شاهدته بأم عينى شاهده زوج أختى وابن عمى والتربى طبعاً، مما جعلنا نتوجس ونخاف جميعاً، ونغادر التربة فوراً، ثم نعيد غلقها، وأنا لا أعرف كيف تسرب خبر ما جرى بعد ذلك، حتى أصبح موضوعاً كبيراً على هذا النحو، والتربى لا يمكن أن يكون قد سرّب الخبر، لأنه اتفق معنا على ذلك احتراماً لحرمة الموتى، وسمعة الأسرة، ولأنه يمت لنا بصلة قرابة من بعيد، أما عن تفسيرى لهذه الواقعة وما جرى بعد ذلك، فأقول أن هناك أشياء كثيرة واردة فى هذا العالم، وأنا رجل عقلانى، عشت سنوات طويلة فى أوروبا، وهناك تحدث ظواهر من هذا النوع أيضا، وهم يهتمون بها جداً، ويتعاملون معها بجدية وعلمية شديدة، لكننا هنا بلد متخلف، والناس ليست على مستوى ثقافى مناسب فى الأغلب الأعم، لذلك حدث ما حدث، ورأيى أن أمى كانت امرأة عادية تماماً، لكنها كانت شديدة الطيبة، بل كانت طيبة إلى حد الاستفزاز، استفزازنا نحن أولادها، فهى كانت تفضل علينا الناس فى بعض الأحوال، وتقدم لهم الكثير، مما قد نحتاجه نحن، ورغم أنها علمتنا وأحسنت تربيتنا، لكنها كانت تفعل أشياء كثيرة على حساب مصلحتنا وراحتنا، وأنا أذكر أن أخواتى البنات، كثيراً ما كن يسهرن ليالى طويلة قبل العيد الصغير، أو العيد الكبير لخياطة ملابس الجيران والمعارف دون مقابل، بل كان يحدث أن تشترى أمى أحياناً قماشاً من مصروف البيت، لتصنعه أخواتى ملابس لبعض الأطفال

الفقراء واليتامى. عمومًا أمى لم تكن طبيعية فى عطائها للناس، فالمسألة لم تكن مسألة كَرم، لكنها كانت تفعل ذلك، على نحو يبدو معه أن ثمة شيئا داخليًا يدفعها إلى فعل ذلك، ولنقل أنها كانت ميالة إلى النبالة أو الفروسية، وفى أوروبا الآن يدرسون مثل هذه الحالات، من خلال تتبع مدى نشاط الهرمونات فى الجسم البشرى، وأنا أرى أن أمى ربما عانت من عدم التوازن الهرمونى فى جسمها، فقد كانت تبدو حزينة مكتئبة، عندما لا يزورنا أحد، أو لا يقيم عندنا بعض الضيوف لفترة من الوقت، فقد كان يحلو لها استضافة بعض الأقارب والمعارف لأيام أو أسابيع، وفى بعض الأحيان، كانت الضيافة تمتد شهورًا طويلة، وللعلم فقد كان ذلك يحدث بصرف النظر عن وضعيَّة هؤلاء الناس، أو مستواهم الاجتماعى، فهى كانت تعامل من هم أدنى منها اجتماعيًا، ومن هم أعلى منها على النحو نفسه، وعلى أى حال، أستطيع القول أن أمى كانت شاذة اجتماعيًا، لكنها لم تكن والعياذ بالله سفيهة، أو غير قادرة على امتلاك زمام نفسها، فهى كانت عادية فى بقية تصرفاتها، ونحن لم نملك شيئًا، والحمد لله، كان يمكن الخوف على تلفه أو ضياعه، وإلا ربما كان الشيطان قد أغوانا، وفعلنا مثلما يفعل بعض الأهل والأبناء، فيحجرون على ذويهم الذين يبددون ممتلكاتهم.

على مستوى العلاقة بنا، كانت حنونة طيبة، رغم أنها لم تكن ربّة بيت بالمعنى التقليدى، فهى لم تكن تجيد طهى الطعام وترتيب البيت أو تنظيفه وربما كان ذلك بسبب تربيتها المدللة فى الصغر، لكن أقول أنها كانت حريصة على تربيتنا وتعليمنا أفضل ما يكون، حتى صرنا نتبوأ مناصب ومراكز اجتماعية مرموقة، وهى لم تفرق بين ولد وبنت فى التربية والتعليم، فأعطت لنا حرية التصرف وحرية السلوك، وقد كان ذلك يكلفها الكثير فى بعض الأحيان، ويعرضها للانتقاد، خصوصًا عندما كانت أخواتى يعدن متأخرات فى الليل من السينما أو خلافه، لكن ذلك لم يقلل من حب واحترام الناس لها. بصراحة أنا لا أجد تفسيرًا مقبولاً لما حدث، ومسألة الكنز هذه مسألة مشكوك فيها بالأصل، وأنا لا يمكن أن أشك فى التربى، لأنه لو كان قد فتح التربة بعد ذلك، لكان الأمر قد انكشف، فنحن عاودنا الذهاب فى اليوم التالى للحادث، ثم فى الأخمسة الثلاثة التى

سبقت الأربعين، بل وفى اليوم الأربعين ذاته، أما عند فتح المقبرة للمرة الثانية، فالتربى هو الذى اتصل بالبوليس ليثبت الواقعة، لأنه دخل الحوش مبكرًا فى الصباح ليسقى الصبّار الموجود فيه، وعندما وجد التربة مفتوحة خاف وجرى، وأبلغ البوليس، لأنه كما قال لنا بعد ذلك، خشى أن يحدث شيء، قبل أن نأتى، لأن إبلاغنا كان يستلزم كثيرًا من الوقت، بسبب المواصلات، وعندما عاد مع عسكرى البوليس من القسم، لم ينزلا إلى القبر مرة واحدة - كما قال - واكتفيا بسد المقبرة جيدًا، وإغلاق الحوش، ولما عرفنا ذلك أنا وأخواتى تضايقت فى البداية، لأنه كان من المفروض، أن يشوف المقبرة من الداخل، لكن عمى الشيخ سعد جارنا، هو الذى اقنعنا بصحة عدم فتح المقبرة مرة أخرى، وطبعًا ليس لأحد من أفراد أسرتنا مصلحة فيما حدث، بالعكس أقول، أننا نعانى الآن من مسألة تحويل المدفن إلى مزار بعدما بنى الناس فوقه المقام، وعملوا ما عملوه من مولد وخلافه، ومنعًا للشبهات، فقد رفضت رفضًا مطلقًا، باعتبارى ابنها الوحيد، أن يقام صندوق للنذور، أو أى شيء من هذا القبيل، وتكفى الشموع عند الزيارة، وقراءة الفاتحة، وقد رأيت أمى عدة مرات فى المنام بعد وفاتها، فى عدة أحلام عادية، ولو كانت رواية حلم الشيخ سعد جارنا صحيحة، فالأولى أن تأتينى أنا، أو واحدة من أخواتى البنات، فى الحلم، وهنا أحب أن أشير، إلى أن أمى، كانت من حيث التدين، امرأة عادية، تصلى وتصوم، وتؤدى الفرض وتزكى، ولم تحج، لأنها فضّلت، أن تبيض الشقة بالزيت، وتشد كراسى الصالون، وتغيّر تنجيدها، لما تجمّع معها قرشان، بعد سنوات من وفاة والدى، لأن أختى صفاء، كانت على وشك الزواج، ونحن لم يكن بيننا أحد متزمتًا من الناحية الدينية، ثم أن أمى لم يكن لها أية كرامات فى حياة عينها، حسب معرفتى بها، أما حكاية طيران نعشها فى الجنازة، فأنا لم أكن حاضرًا ساعتها كما قلت، وأشك فى صحتها، وهذه أقوال العوام، الميالين للتهويل، وأقول أننى عارضت بشدة فى مسألة المقام عند البداية، لكنى رضخت أمام أهالى الحى وسكان الترب، والشيخ سعد جارنا، وبصراحة، كان السبب الأساسى لموافقتى، يرجع لوضعى الوظيفى أولاً وأخيرًا، فمركزى حساس كما هو معروف، وما تردد عن كونى شيوعيًا فى السابق، كان من

الممكن أن يثار مرة أخرى لو رفضت، لأن بعض الناس لم ينس ذلك، منذ أن قُبض علىّ، فى إحدى المظاهرات بمطلع شبابى، وأقول ذلك بصراحة، حتى يمكن تفهم الموقف كله.

علاقتها بأبى مسألة لا يمكننى الخوض فيها، بسبب كونى أصغر أخواتى، وتفصلنى عن أختى الكبرى عشرون سنة بالضبط، وعندما توفى والدى، كنت صغيرًا، وأنا لا أتذكره جيدًا، لكن حسبما عرفت عندما كبرت وبدأت أعى الأشياء والناس بعد ذلك هو أن أمى وأبى لم يكونا على وفاق، وأن أبى كان يسميها الأستاذ عطية، لكن يوم وفاته كان أسوأ يوم فى حياتى، منذ ذلك الوقت انقطعت أمى عن إرضاعى، لأن لبنها جفّ، وهى كانت تنوى إرضاعى حتى أبلغ السادسة من عمرى، باعتبارى الذكر الوحيد لها بعد أربع عشرة ولادة تبقى منها ثمانى بنات وأنا.

هناك حادثة صغيرة، ربما تلقى الضوء قليلاً على شخصية أمى، وهى واحدة من حوادث كانت كثيرًا ما تحدث فى بيتنا، وأنا أتذكرها حتى الآن لأنها أثرت فى نفسى كثيرًا، ففى إحدى المرات كنت أجلس للمذاكرة فى وجود أستاذ لى هو جارنا الطيب الذى كان على وشك التخرج من الجامعة، كانت إحدى أخواتى شبه مخطوبة لهذا الشاب، فجأة، وجدت أمى، تصفعها على وجهها، لا لشىء إلا لأنها صفعت بدورها خادمًا صغيرًا فى مثل عمرى، لأنه فتح دشّ الماء على شعرها المكوى دون أن يقصد لما كانت منحنية لغسل يديها المبللتين بالصابون، وطلبت منه فتح حنفية البانيو لأن حنفية الحوض لا تشتغل، وقد قالت لها أمى غاضبة: لو كان أخوك لما فعلت ذلك. والحقيقة أمى كانت تعامل الخدم على نحو غريب جدًا، فهذا الولد ظل يتردد عليها حتى بعد أن كبر وأصبح موظفًا فى الحكومة، وأمى هى التى أدخلته المدرسة بنفسها، وكانت تشترى له الثياب، وتجعله لا يقوم بعمله كخادم، حتى يتمكن من المذاكرة، ولا يضيع وقته فى الأعمال المنزلية، ورغم كل ذلك، فقد كانت تعطى لأمه راتبًا فى مطلع كل شهر لقاء وجوده عندنا.

أعمال الحفر لن تتم فى قبر أمى، فاحترام مشاعر الناس ومراعاتها واجب، قبل كل شىء، لكن الآثار يمكن أن تحفر حول القبر، أو بالقرب منه، وذلك فى

حال وجود دلائل تشير إلى وجود ما يستحق الكشف عنه فى هذه المنطقة. وأنا أحذر المسئولين من استفزاز الناس، وإن لم يأخذوا بكلامى، فما عليهم إلا أن يحضروا إلى مكان المقام، ويشاهدوا بأنفسهم ما يفعله الناس فى مولد الست عطية، لقد صار لمقام عطية صيت كبير، وأحبابها صاروا يأتون حتى من أسوان والسودان، وقد طالب بعض أقربائنا فى البلد، بنقل رفاتها إلى هناك، حتى لا يتكبد أهل البلد مشقة السفر والحضور، إلى هنا كل عام، لكنى رفضت بشدة، لعلمى أن وراء ذلك مآرب وأطماعًا، فالبعض يريد استغلال الفرصة، وتنشيط أحواله بدرجة أو بأخرى، مستغلا مناسبة المولد، كما أنه لا يجب إقلاق راحة الميت، فما بالك إذا كان ذلك المتوفى هو أمى.

ربنا وحده أعلم لماذا أتكلم الآن، فلقد كنت أفضل السكوت، لأن هذه الأمور لا تصح اللجاجة فيها، والمسألة هى أن الإنسان لو أراد أن يؤمن فلابد أنه آمن، أما ذلك الذى يريد برهانًا يمسكه بيده، ويراه بعينيه، ويذوقه بلسانه، فلن يؤمن حتى تقوم القيامة، فالله عز وجل يقول: «فطرة الله التى فطر الناس عليها». أتكلم، لا لأثبت أو أنفى، أو أقنع أو أشفى غليل فضُول مُراقب، يبغى البحث عن ملح وطرف وغرائب، فأنا ضد اجتماع الدين والدنيا، وإلا كنت قد خضت فى سلك المشايخ، وبحثت عن أرقى المناصب، عبر الاشتغال بدين الدنيا، لكن تكفينى من الحياة تجارتى بالنهار، التى لا تشغلنى عن الحبيب فى الليل، غير أن ما حدث قد حدث، وعطية هانم أنعم الله عليها، فأصبحت ولية من أوليائه، ورؤيتى لها صادقة، ولو كره المتأولون، ومن كرم الله أن أحبابها، كانوا من الكثرة، بحيث أقيم المقام بجهودهم، ولم يحل الحول، إلا وكان مزارًا ومنارًا للهدى واليقين. وقبل كل شىء، أقول لك، أنى أعرف الست عطية أبًا عن جد، فجدها هو الذى ربى أبى، لما مات أبوه، وأبوها كان ندًا لأخى فى صباه وشبابه، ولما أعطاه الكريم عطية بعد أن مات لامرأته سبعة ذكور، أسماها بذلك الاسم، تيمنًا بعطاء الله، وامتثالا لإرادته بعد أن أظلمت الدنيا فى وجهه، وهو صابر على الأمر، فلم يطلق امرأته، ولم يتزوج عليها بأخرى، وكانت عطية التى وُلدت بعدها - كما كانت تحكى أمى - طفلة غير عادية الحجم والنمو، وربما كان ذلك بسبب أنها أرضعت لبن حمار، فور ولادتها، بناء على وصية، امرأة غجرية، ضاربة ودع، كانت قد تنبأت بمولدها والله أعلم.

ونشأت عطية، عفية معافاة، تسبق عمرها كثيرًا، قيل أنها كانت تحمل خروفًا زنة عشرين رطلاً ـ دون أن تكل أو تمل ـ حمل الأم لرضيعها، وأذكر أنها عندما كنا نلعب ونحن صغار، «كلوا بامية» أو «كيك على العالى» كانت عطية تجرى وتسبق الجميع، وتقفز على نحو لا يستطيعه من هم أكبر منها سنًا، وقد قيل أنها كانت طفلة أكول، لا تكتفى بالرضاع، وقد دخلت ديوان النساء قبل الأوان، حتى أنها لما كانت فى العاشرة، أصبحت تبدو وكأنها فى الرابعة عشر من العمر، وقد تربت عطية تربية بنات الملوك، فدللت وغنجت، وكانت لا تفارق أباها الذى هام بها، خصوصًا لصباحة وجهها، ورشاقة فرعها، ولما كان زمن هوجة سعد، صار يصطحبها معه، ويتركها تشق صفوف المشاركين فى الاجتماعات، حتى تصل إلى منصّة الخطابة، فتقبّل الزعماء وتحييهم، ثم تغنى، وكانت قد تعلمت فى مدارس الأفرنج، مما جعلها تستطيع غناء أغنيات من نوع «أنا اجيبتى.. اجيبتى»، وغيرها، لأن هذه المؤتمرات، كان يحضرها أجانب أيضا، مؤيدين للمسألة المصرية، وعندئذ، كان الدم يفور فى العروق، ويلتهب حماس الناس، وهم يشاهدون صبية صغيرة تتغنى بحب الوطن وحريته، كما كانت تدور بالعرائض مع أبيها، للتوقيع على مطالب الأمة، أما ما أقوله عنى، فعطية كانت الحب الذى تفتح عليه صباى وشبابى، والقلب الذى هز قلبى بعطفه وتحنانه، لكنها لم تكن لى أبدًا، فقد كنت صغيرًا عنها، وسرعان ما زوّجها أبوها المرحوم لأبى أولادها، فزفّت إليه زفافًا عامرًا، ربما لم تشهده هذه المدينة من قبل ويكفى القول أن الأفراح ظلت أربعين يومًا دونما انقطاع، يذبح فى كل ليلة من لياليها الشىء الفلانى من الخراف والبط والأوز والحمام، ويوزع على الرائح والغادى أصناف الحلوى من فالوذج وأرز باللبن، وأم على، ولقمة القاضى، وأصابع زينب، وشراب الورد المحلى بالسُكر، وكان ضمن جهازها مدق من الذهب وآخر من الفضة، ولم يدخل دولابها صنف قماش إلا الحرير الخالص، وكأن أبيها لا يصدق أنه يشهد زواج ولدِ حىّ خرج من صلبه، فباع من أملاكه وهو الميسور الشىء الكثير لأجل هذا الزواج، فأنفق على الراقصات والطبالين والزمارين، وجالبى الورود والرياحين، بهذه المناسبة، ما يقارب ثمن بيت من أملاكه، وفى ليلة زفافها، دُقت

الكئوسات، وطيف بها فى شوارع المدينة، وهى راكبة على فرس أشهب جميل والخدم بين يديها يقفون بالشاش والقماش بينما يتقدم موكبها لاعبو النار والحواة وأصحاب الخيال والسماجات، على عادة أهل الزمن القديم، حتى دخلت بيت زوجها الذى خرجت منه يوم وفاتها. غير أن أبا عطية، سرعان ما مات بعد ذلك بقليل، وقبل أن ترزق عطية بابنها الأول، الذى مات بعد ذلك أيضا، وقد قيل وقتها أن الرجل قُهر، وطبَّ ساكتًا، عندما علم بخبر غرق أرضه التى كان يزرعها دخانًا، وذلك فى زمن الفيضان، فقد كان يستأجر هذه الأرض وكانت جزيرة كبيرة فى النيل من أم الملك، حيث كانت تدخل فى زمام أملاكها، وعلى أى حال، فهو لم يترك لعطية بعد وفاته إلا الستر وراحة البال.

أحكى كل هذه الحكايات، ليعرف الجميع، أننا نعرف عن عطية أكثر مما قد يعرفه الأخ عن أخته، فقد تآخينا وتجاورنا فى السكن لسنوات طويلة، حتى ظن الناس أننا أخوان خرجنا من رحم واحد، وياليتنى لم أعش حتى اليوم الذى تموت فيه، وأمشى فى جنازتها وأواريها التراب بيدى.

ومالا يعرفه الناس، وهذا سر أذيعه لأول مرة، أن عطية قبل وفاتها بوقت قصير، جاءت إلى جماعتنا، وكانت الأخيرة وقتها جالسة تنتظر سماع آذان العصر لتصلى، ونحن عادة نترك باب بيتنا مفتوحًا، طيلة النهار، لأن الداخل إليه لا يكون غريبًا عنا، وجماعتنا حركتها ثقيلة بعض الشىء بسبب وجع المفاصل، وقد كانت عطية مضطربة جدًا كما قالت المرأة - جماعتنا يعنى - ولونها مخطوف، وترتجف، رغم أن الدنيا صيف، والحرُّ كابس فى كل ناحية، ثم أنها قالت لجماعتنا بعد أن هدأت قليلاً أنها كانت واقفة تسقى الريحان فى جنينة بيتها، عندما لمحت فى الشارع، سائلاً عجوزًا، ينادى على حسنة لله، فلفّت من الجنينة للمطبخ، وحطّت لحمًا فى رغيف، وخرجت لتلحقه وتناوله رزقه، لكنها وجدته قد اختفى تمامًا، من الشارع، كما لو كانت الأرض قد انشقت وبلعته، ثم أنها دوّرت عليه فى كل ناحية، لكنها لم تجده أبدًا، فتوجست، لأنه تهيأ لها أن الرجل، كان يلبس أبيض فى أبيض، كما أن شارعنا سدّ، ومستحيل أن يكون مرّ منه لشارع آخر، كما أنه لم يكن من المعقول، أن يجتاز الشارع عائدًا، لأن شارعنا طويل بعض

الشىء، وفى هذه الحالة، كان لابد وأن تراه، حتى ولو وصل نهاية الشارع، وبينما عطية وجماعتنا تتحدثان، أذن المؤذن لصلاة العصر، فقالت عطية أنها ستذهب لتصلى فورًا، حتى لا يفسد وضوؤها، والدنيا شتاء، وقد كانت حسرة البول تمسكها كثيرا بسبب مرض السكر، فذهبت على أن تعود بعد صلاة العصر، لتشرب القهوة مع الجماعة، وتتفرج على المسلسل بالتلفزيون، لكن السرّ الإلهى، كان قد طلع، وقد عرفنا ذلك، لما سمعنا سوسن ابنتها تصرخ وتقول: إلحقونى يا ناس وكنت وقتها على وشك أن أمدد جسمى على السرير، وأغطس فى النوم، فجريت بسرعة حافيًا، من شدة ربكتى، ورحت لبيتهم، وهو ملاصق لبيتنا تمامًا، فوجدت المرحومة ساجدة على سجّادة الصلاة، وكانت قد سجدت وغابت فى السجود فلاحظت ذلك ابنتها التى كانت تجلس قريبًا منها على الكنبة، فجرت تنادى على الناس، والحمد لله، موتة ربنا ينولها للجميع، فالساعة كانت ساعة عصر، ووجهها كان ناحية القبلة، ثم أنها كانت طاهرة بسبب الوضوء، ونيتها سليمة، لأنها كانت تنوى الصلاة.

ولما كان المنام الذى رأيتها فيه، تعاتبنى بنظراتها دون أن تتكلم، وهى ترتدى ثوبًا أبيض، وكانت تبدو فيه جميلة جدًا، فأجرى نحوها، أريد الكلام معها، فتدخل مسرعة من باب قديم مطرّز بنقوش عربية، فقد بدأت أنشغل بذلك وأفكر فيه، وكنت فى البداية أفزع من نومى، وأقوم أقرأ الفاتحة على روحها، وقد تكرر هذا الحلم ثلاث مرات، وفى المرة الأخيرة، التى رأيتها فيها، كان الباب الذى دخلت منه قد تجدد، وأصبح فى لون أخضر بديع، ثم أنها دخلت وأغلقته، بعد أن لوّحت بيدها وتبسّمت، وفى صباح تلك الليلة تصادف أننا ذهبنا إلى الترب، فلاحظت بمجرد وصولى باب الحوش الذى دفنت فيه، وكان وهو الباب نفسه الذى شاهدته فى المنامات والنقوش فيه، هى النقوش العربية نفسها التى لفتت نظرى فى الأحلام، فانتفض جسدى، ورجف قلبى رجفة خلت معها أن روحى لابد طالعة منى، وشعرت كأنى سأسقط على الأرض، حتى أن ابنتى لاحظ ذلك فأسندتنى ظنًا منها أننى تعثرت فى حجر عتبة الحوش، لكنى تماسكت وكتمت الأمر، حتى استشرت أولى الأمر، وبعض الصالحين، فقالوا جميعًا: وجب المقام.

وبهذه المناسبة أقول أننى لا أعرف شيئًا عن حكاية الزهرة الذهبية ولا أجد تفسيرًا لها، وهذه أشياء لا يجب الخوض فيها، ولكن لكل ولىّ كراماته، وإذا كان عهد النبوة والرسل قد انتهى، بانتهاء رسالة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، إلا أن أولياء الله كانوا وسيكونون فى كل زمان ومكان، لأنهم من ملح الأرض، «ولله فى خلقه شئون»، وهو وحده العليم.

بقيت مسألة أخيرة، وهى أن الحفر مستحيل أن يحصل. أقول ذلك ولا أخشى شيئًا، لأن كل ما يقال عن وجود آثار من عدمه فى القبر كلام فارغ، وهذا يستهدف تقليب الناس التى لا يمكن أن تسكت لو حصل الحفر. ثم لماذا الجرى الآن وراء الأباطيل، وما جدوى الجرى وراء هذه الأشياء؟، هل يريدون أن يعرفوا سرّ الكون، وكنه الحياة من خلال قبر عطية هانم؟ والله حرام، أقول حرام، واتقوا الله فى أفعالكم، كما ألفت نظر البعض إلى أن العبث بالمحرمات وعلى رأسها حرمة الموتى، لابد وأن ينقلب على أصحابه، فنابش القبر ملعون، ومقلق راحة الميت ملعون، وكفانا تشويشًا وبلبلةً للأذهان.

● الجارة تقول : ●

عطية هانم، جارتى وأختى وحبيبتى. لقد بكيت يوم وفاتها أكثر مما بكيت يوم وفاة أمى ذاتها، فهى المروؤة والإنسانية والرحمة، كانت أفضالها على الجميع صغارًا وكبارًا، لم تدخل بيتًا، أبدًا، إلا وفى يدها ما يفرح العيّل، وعلى لسانها ما يطيّب خاطر الكبير، يذكرها القريب والبعيد بكل خير، أما عن علاقتى بها فأقول أننا سكنا فى البيت المجاور لبيتها منذ ثلاثين سنة، وكنت وقتها عروسًا جديدة، يمنعنى زوجى من الأخذ والعطاء مع الجيران لأننا غرباء ولا نعرف أحدًا فى هذا الحى، الذى سكناه بسبب قربه من شغل زوجى، وفى إحدى الليالى، وبينما هو غائب فى وردية الليل وأنا وحيدة بالبيت مع ابنتى الرضيعة كوثر، أخذت البنت تبكى بشدة وتصرخ، وكنت وقتها عيّلة، لا دراية لى بالخلف والعيال، فأخذتُ أعطى البنت الينسون والكراوية، ثم حاولت أن أنومها مرة على بطنها، ومرة على ظهرها، وهى تبكى وتصرخ الصرخة التى تجعل قلبى يتقطع، حتى أنى تصوّرت أنها ستموت فعلا، فأخذتُ أبكى وأنوح بعد أن أعيتنى الحيل، لأن لبن صدرى كان قليلاً ولا يكفى لشبع العيّلة، وبينما أنا فى هذه الحال، إذ بباب البيت يدق فجأة، فشعرت بالخوف، ولم أرد، لكن ربنا ألهمنى بعد قليل، فقمت وسألت عن الطارق فى هذه الساعة الغريبة من الليل، فجاءنى صوتها هى، عطية هانم، وكانت تستفسر عن سبب بكاء البنت، ففتحت وأدخلتها، وأنا أطلب من الله مسامحتى لأنى عصيت أمر زوجى، ولما عرفَت رحمها الله، أن حليبى شح، وأن الكمّون والينسون لم يشبعا العيّلة، أخذتها منى وأرضعتها، وكانت وقتها ترضع ابنتها

سوسن، ومن هنا بدأت علاقتنا كجيران، والتى كانت فى الحقيقة أكثر من علاقة جيران.

والمرحومة كانت أمًا بالرضاع لعدد كبير من أبناء هذا الحىّ، منهم على عباس المسئول الكبير فى الحكومة، الذى انتقل من حيّنا، طبعًا، بمجرد حصوله على منصبه المعروف، وهى بالنسبة للرضاع، كانت غير طبيعية فى هذا الجانب، فكانت تستطيع إرضاع طفلين إلى جانب طفلها الوليد، إرضاعًا مشبعًا حتى لحظة الفطام، وكان صدرها ضخمًا بطريقة واضحة، رغم أنها حتى وقت وفاتها لم تكن سمينة أبدًا، وربما فسر ذلك كون الأطفال يرتاحون عليه، وينعسون بمجرد أن تحملهم عطية هانم وتأخذ فى هدهدتهم، وكانت تقول عن حليبها الكثير أنه خير ونعمة رزقت بها، فلماذا لا تُنعم بها على من يحتاجونها، والطريف أنها كانت تشكو من آلام فى ثدييها، إذا ظل بهما الحليب، لذلك كانت تدور على أهالى الحى وتسأل عن الوالدة منهم، لحظة ولادتها، لتطعم صغارهم بحليبها.

وبسبب حكاية الرضاع هذه، كانت لها دلالة على العديد من ذوى المكانة والنفوذ فى البلد، والذين أصلهم من هذا الحى، فكان يكفى أن ترسل صاحب الحاجة والطلب إلى المسئول فى مكتبه ليقول له أمك عطية، تسلم عليك، وأنا قادم من ناحيتها فيقوم الرجل بقضاء حاجته، وهو لا يملك إلا التنفيذ، والامتثال لطلبها، خوفًا من أن تلتقيه يومًا، وتعاتبه عتاب الأم لأبنها، ثم إن بعضهم كان يقبّل يدها أمام الناس ولا يخشى فى ذلك لومة لائم، وقد شاهدت بنفسى، أحد الضباط الكبار بالجيش، ولا داعى لذكر اسمه، وكان يعيش فى حيّنا منذ سنوات، يقف أمام عطية هانم وقفة التلميذ الفاشل أما مدرّسه، بعد حرب سبعة وستين، وهى الله يرحمها تبوّخه وتعاتبه وتقول له: والنبى حرام تروح البلد فى شربة ماء بسببكم، الناس تقول خطوة لقدام، وأنتم خليتم عاليها واطيها، «خربتوها وقعدتم على تلها» تقول ذلك والدموع نازلة من عينيها، والرجل واقف قدامها مطأطئًا ولم يفتح حنكه بكلمة واحدة.

وفى أيام حرب بورسعيد، وقفت عطية بجانب سرور اليهودى والذى يقع بيته فى آخر الحى، وكان الشبان وقتها، ينوون قتله، وإشعال النار فى دكان العطارة

الذى يملكه، وقالت لهم: إن سرور لم يفعل شيئًا، وما تفعلونه حرام. ولولا ذلك لكان سرور وأهله قد أصبحوا الآن فى خبر كان، غير أنها لم تكن تحب سرور وتقول لا يمكن لمؤمن أن يأمن على نفسه من يهودى أبدًا، كما كانت تقرف جدًا من أكل أو شرب أى شىء عنده فى البيت.

وأقول عن عطية (هانم)، لأن أبوها كان حاصلاً على الأفندية بشكل رسمى من الحكومة، لذلك فاسمها فى شهادة الميلاد عطية هانم، وكان أبوها ميسورًا، لكن عطية عاشت حياة أفقر الفقراء، فلم أرها يومًا ترتدى الذهب، رغم كثرته لديها، وكانت توزع أثوابها الحريرية على بنات الحى وقت زواجهن، وقد باعت معظم ذهبها فى مناسبات لا تتعلق بحاجتها إلى ذلك فقط، وسوف أحكى لك عن مسألة تتعلق بى شخصيًا، فزوجى رحمه الله كان يحدث له عجز فى الخزينة، بين وقت وثان، لأنه كان صرافًا بكوبانية النور والله أعلم بسبب حدوث ذلك العجز، لكنه والعياذ بالله لم يدخل منه قرش واحد لبيتنا، وفى مرة من المرات أصبح انكشاف أمره وشيكًا ونحن لا نملك حتى ما نبيعه لنغطى الفضيحة، الآتية فى السكّة، والتى كانت لابد أن تنتهى بفصل زوجى عن شغله وسجنه، وهنا قصدت عطية هانم وأفضيت لها بسرّى وهمّى فما كان منها إلا أن أعطتنى من مصاغها زوج ثعابين، وحلّفتنى أن أرجع لها فلوسها، لما تتيسر معى، وتفرج كربتنا، فقلت لها زوج كثير، كفاية واحدة، وقد بعت الثعبان، لكن قضاء الله كان أسرع من أن نرد لها قيمته، فقد توفى زوجى بعد ذلك بشهور مستورًا، وأخذتنى صعوبات الدنيا، والصرف على العيال، ولم يتيسر لى رد فلوس عطية هانم أبدًا، حتى هذه اللحظة.

كل ما حدث لا أستطيع تفسيره، لكن الأولياء أصحاب كرامات بلا شك وربما كانت كراماتهم مستورة، وأنا أتذكر أن عطية هانم كانت فى يديها بركة، فلما كان يتصادف أن تأتى إلى وتساعدنى فى الخبيز، كان العجين يرمى من يدها كثيرًا، وكلما كانت تمد يديها للماجور لتقّرص لى العجين، أقراصًا أقوم بفردها على المطرحة وأطوحها فى الفرن، كان العجين لا ينتهى حتى أنى أملّ وأزهق من قعدتى عند بيت النار، لأن العرق يجرى مجارٍ فى جسمى، وعندما تلاحظ هى

ذلك تقول الحمد لله، آخر قرص، ثم تخلّص العجين عن كفها، وتعمل به عروسة تغرزها بقشة أو أى حاجة ثانية وتقول: فى عين العدو، فى عين من شاف وما صلى على جمال النبى ﷺ، فى عين الوسواس الخناس، ثم ترمى العروسة فى جوف النار.

حكاية الحفر، كثيرة قوى، وأنا أقول عيب، والله عيب أن يفكر الإنسان فى حاجة لا تجوز أبدًا، صحيح أن الأرواح تفارق الجسد بعد الموت، لكن للرميم حرمته، وكفاية، الكفر فى كل ناحية بالبلد، والدنيا، التى قلت بركتها بسببه، يعنى الرغيف صار بالشىء الفلانى.. الرغيف الحاف يا ناس.. ماذا نريد بعد ذلك؟

٣

أمى لم تكن امرأة عادية أبدًا، أقول ذلك لأنى أعرفها مثلما لم يكن يعرفها أحد فى الدنيا، لم تكن العلاقة بيننا، مجرد رابطة أم بابنتها، فقد كنا أقرب لأختين، وربما كان الشبه الشديد بيننا أحد أسباب ذلك، وربما تقارب عمرينا أيضا، فأنا أصغر منها بخمسة عشر سنة لا غير، وكنت صديقتها الصدوقة التى تهيم بها حبًا، وتقاسمها الفرح والهم، وتحفظ لها أدق أسرار حياتها دون حرج أو خوف، ولا أخفى سرًا الآن، إذا قلت أن السبب فى عدم زواجى حتى هذه اللحظة، كان موقف أمى، فعندما قررت أن أتزوج لا لشىء إلا لأتخلص من نظرات الناس كعانس، وذلك منذ حوالى عشر سنوات، حينما التقيت بأحد زملائى، وكان أرملاً ذا شخصية وقور آسرة، شعرت أن أمى تضايقت لما فاتحتها فى الأمر، أجل تضايقت لأنى سأتزوج، لم تقل لى شيئًا يتعلق بالرجل، لكنها أقنعتنى فى النهاية بأنها سوف تكون الخطوة المجنونة التى ستجهز على مستقبلى، كباحثة فى العلوم الطبيعية، تطمح فى تحقيق شىء ما على صعيد العلم، وكانت هى التى دفعتنى لترشيح نفسى قبل ذلك فى الانتخابات مرتين، وأنا أظن أنها كانت امرأة سياسية، رغم أنها لم تشتغل بالسياسة طيلة حياتها أبدًا، اللهم إلا إذا اعتبرنا حضورها مرة أو مرتين، المؤتمرات السياسية مع أبيها أيام زمان، عندما كانت طفلة عملاً سياسيًا، وحتى بعد الزواج، عندما دفعها أبى إلى الاشتراك فى جمعيات نسوية، تابعة للحزب الذى ينتمى إليه، ذهبت مرة واحدة فقط لاجتماع نسائى، عادت بعدها تستشيط غضبًا من تصرفات النساء، اللواتى أخذت أمى تقلدهن فى حركاتهن المفتعلة، وقالت لى فيما بعد أن ما استفزها بالأساس، أن

رئيسة الجمعية، وكانت سيدة مجتمع شهيرة، أخذت تغير من درجات صوتها وطريقة كلامها عندما جاء للاجتماع بعض الرجال، وأن المجتمعات أخذن يبتسمن دون مناسبة ويسوين شعورهن وهندامهن، وعادت وقتها لتقول لأبى، أنهن لسن أكثر من مجموعة نسوان لا شغل ولا مشغل لهن، وربما لهذا السبب أطلق عليها أبى منذ ذلك الوقت «الأستاذ عطية»، وربما بسبب سلوكها بصفة عامة أيضا، وخصوصًا فيما يتعلق بحياتها الخاصة معه. فرغم أن أمى كانت تتمتع بوجه جميل، وقوام رائع، إلا أنها لم توجه أنوثتها أبدًا تجاه رغبات أبى، حتى أننى عندما كبرت وصرت أفهم الأمور بعض الشىء، كنت أستغرب من أين تأتى أمى، بأخواتى وأنا لا أذكر أنها نامت فى سرير أبى ليلة واحدة، لكن رغم ذلك، فقد كنت الاحظ أن أبى كان يحبها، كما كانت هى تحبه وتحترمه، لكن كلاً منهما على طريقته الخاصة، فهى لم تعترض على نزواته القليلة التى شاهدت بعضها بأم عينى، عدة مرات فى بيتنا مع نساء قريبات لنا، كما أنه فشل فى أن يجعلها امرأة تحت طلبه، كمعظم زوجات عصرها. بل وحتى عصرنا أيضا، فقد كانت شخصية قوية قادرة على فرض نفسها ببساطة وسلاسة شديدة، وأنا ضد فكرة أخى عنها، والتى تقول بأن هناك خللاً فى هورموناتها، فبساطتها وأسلوب تعاملها مع الناس، هو الذى خلق منها أشهر شخصية فى الحى، يعرفها الصغير والكبير، الفقير والغنى، المسلم والمسيحى وحتى اليهودى وأنا أقول اليهودى، لأن أمى نجحت فى إقامة صلات جيدة مع الأسرة اليهودية الوحيدة التى كانت تعيش بحينا، ولم تهاجر.

وكانت أمى تتبنى فلسفة بسيطة جدًا فى تعاملها مع الناس، ربما لم تدركها أبدًا، وهى أنها كانت تعطى للناس الشىء نفسه الذى تريده منهم، وكانت البادئة بالعطاء دومًا، لكنها كانت تأخذ الكثير من الناس، دون أن تشعرهم بذلك، وبعد أن مات أبى وأصبح لا مورد لنا إلا معاشه الضئيل، نجحت أمى فى الخروج بمركب أسرتنا الكبيرة إلى بر الأمان، لا بسبب تدبيرها لشئون البيت، وحسن تصريفها لذلك الدخل المحدود، ولكن بسبب فلسفتها المذكورة، فعندما دخلتُ الجامعة، وكان التعليم وقتها باهظ التكلفة، كانت أمى تأتى بنفسهاإلى مدير

الكلية، وتقابله دون أن أدرى، وتطلب منه إعفائى من المصروفات بعد مناقشة طويلة معه، تتخللها كثير من الأكاذيب من ناحيتها، والحقيقة أنها راوية ممتعة لحكايات وحوادث لا تخلو من مبالغة، وأحيانًا لم تحدث بالأصل، كأن تقول أنها من نسل ملوك مصر الفراعين الذين أسلموا سرًا قبل دخول الإسلام مصر بسنوات بعيدة، كما كانت تقول أن لديها كتابًا بذلك، مكتوب بلغة الفراعنة، وأنا لم أره بالطبع، وأذكر أنها قالت لرئيس المستخدمين بإحدى الشركات أن أختى سوسن هى ابنة بواب عمارة قريبة من بيتنا وأنها تعول أخوتها الصغار بعد أن دهست الرجل سيارة، فرق الرئيس لحالها وعيّنها فورًا، وغضبت سوسن، عندما عرفت الحكاية بعد ذلك من زملائها ورفضت الذهاب للعمل، والغريب أن أمى كانت تمارس الابتزاز النفسى أحيانًا، فعن طريق علاقاتها الواسعة بالناس، كان يمكن أن تطلق إشاعة فى الحى، عن فلان الثرى الذى يقتسم مع زوجته بيضة واحدة على الإفطار كل صباح، وأنه يخزن الأموال فى قدور السمن الفارغة، وأنه لا يستحم إلا مرة واحدة فى العام، وبالطبع لم يكن الرجل بخيلا إلى هذا الحد، لكنه لم يخرج الزكاة، أو كان يرفض التصدق ببعض ماله، وكثير من الناس كانوا يتقون لسان أمى، بأفعال تبرزهم على نحو طيب، وبصراحة كانت أمى جمعية خيرية متنقلة، فنظام يومها كان غريبًا بعض الشىء، فهى تصحو مبكرة، وتضع لنا الفطور، وبمجرد أن يخرج أبى إلى العمل ونحن إلى المدارس، كانت تخرج. وهذا لا يتطلب منها أكثر من ارتداء فستان أسود وحذاء بكعب منخفض، ثم تلّف شعرها بمنديل أسود، وما أن تصير على باب البيت، إلا ويبدأ نشاطها بتحية الجيران والسؤال عن أحوالهم، ويكفى أن تكون هناك امرأة فى شبّاك تنشر الغسيل، أو شاب خارج إلى عمله، حتى تبدأ أمى الحوار معه، وكانت من خلال ذلك تستطيع معرفة أخبار الحى كله، من خلال جولة صباحية قصيرة، تحتسى خلالها عدة فناجين من القهوة.

وكان هذا يعنى أيضا حل بعض المشاكل للناس. امرأة تريد بضعة جنيهات، تحضرها لها أمى - أثناء جولتها - من أخرى على سبيل السلف. فتاة فى حاجة لفستان جميل، ترتديه عندما تدخل بصينية الشاى على عريس تقدم لها. وهذا

الشيء كانت تفعله لأجلنا أيضًا، كما كانت تحصل على خدمات مشابهة باسمنا لحساب آخرين، وقد ساهمت أمى فى إتمام زيجات كثيرة، وكذلك حالات طلاق، بسبب نقلها للأخبار واطلاعها على حياة الناس اليومية، ورغم ذلك فقد كانت محبوبة، لأن المحصلة النهائية لسلوكها كانت فى صالحها، كانت تمتلك طاقة نفسية وجسدية هائلة، فهى تجهز طعامًا لأسرة كبيرة فى وقت قصير جدًا، تسهر حتى ساعة متأخرة من الليل، ورغم ذلك تستيقظ مبكرة، لإعداد الفطور. ولم تكن تستغرب أحوال الناس أبدًا مهما كانت، فهى رحيمة تنسى الإساءة وتغفر للناس إساءاتهم وربما كان ذلك لأنها كانت تسىء لهم أحيانًا. أذكر أنها التقت فى إحدى المرات بفتاة شابة، أفهمتها أنها فقيرة، وحيدة وبلا مأوى أو عائل، فخافت أمى على البنت من الانحراف، وجاءت بها لتبقى معنا فى البيت، بعد أن أفهمت الجيران والناس، أنها ابنة والدنا من امرأة أخرى، اكتشفت أنه كان قد تزوجها قبل وفاته، وقد ظلت الفتاة معنا، تعاملها أمى مثلما تعاملنا تمامًا، وترتدى ملابسنا، كما كانت تأخذ مصروفًا، وتساعد أمى فى الأعمال المنزلية، بينما نقوم نحن بتعليمها القراءة والكتابة فى الوقت الذى كنا نعانى فيه من ضائقة مالية حقيقية، بسبب أننا كنا آنذاك مازلنا نتعلم، وبعد شهرين جمعت هذه الفتاة جميع ملابسنا وأشياءنا، بما فى ذلك الملابس المنشورة على الحبال، وهربت، بينما كانت أمى تقوم بجولتها الصباحية، وتختلق تفاصيل جديدة عن قصة ابنة زوجها المسكينة، التى أصبحت يتيمة تمامًا بعد وفاة أمها أيضًا، وبعد ذلك بسنوات التقتها أمى فى الشارع صدفة فعاتبتها ووبختها، بعد أن أخذتها بالأحضان والقبلات، وظلت البنت تبكى وتقول أنها كانت فى عصابة وكانت العصابة تهددها بالقتل إذا لم تمتثل لأوامرها، وأنها أفهمتهم وقتها أنه لا يوجد شىء فى منزلنا يستحق السرقة، لكنهم لم يصدقوها كما أنها كانت تتمنى أن تبقى معنا، لأنها كانت تعشق أخى، وكانت تخطط للزواج منه.

وأنا أسوق هذه الحكاية لأبرز جانبًا من شخصية أمى الغريبة، فقد كانت مغامرة محبة للحياة على نحو غريب، تدمن قزقزة اللب وقراءة الصحف والمجلات، وتتابع مباريات كرة القدم، وتحتفظ بكلب أو كلبين على الأقل فى

البيت، أما عن عدد القطط، فحدث ولا حرج، وكذلك، عصافير وسلاحف، وفى إحدى المرات ابتاعت نسناسًا من قرداتى يطوف به للتسول، مقابل حلق من الذهب، لكنه هرب بعد ذلك، على ضوء خطة بينه وبين صاحبه فيما يبدو، لأنها رأت الرجل بصحبة قرده فى مولد السيدة زينب، وقد صافحها القرد بعد أن تعرف عليها بنفسه، وتجاهل الرجل الموضوع. لقد اكتئبتُ عندما ذهبت إلى قبرها ووجدت المقام الذى أقاموه لها، فهذا كله كلام فارغ، لأن أمى امرأة أسىء فهمها وحالت الظروف دون صيرورتها الطبيعية، فأنا أظن أنها أصيبت بصدمة نفسية من نوع خاص، منذ لحظة زواجها، فحياتها ونشأتها الأولى كانت تتنافى مع حياتها بعد الزواج، ومطالبه التقليدية، فقد تربت على الشجاعة والمواجهة، والتصرف الحر، وأبوها كان ينشئها كما لو كانت ولدًا ذكرًا فكان يأخذها معه فى مجالس الرجال، والاجتماعات العامة، ويقال أنها بدأت فى تدخين النرجيلة منذ أن كانت فى الثانية عشرة، وكنت أراها، تتبادل أنفاسها مع أبى ساعة العصارى بسعادة طاغية، منذ أن وعيت الحياة، وقد قالت لى مرة أن أول صدمة تلقتها فى حياتها، يوم سألها أبى، بعد يومين من زفافهما، أن تقوم لتنام، وكانت وقتها تلعب الورق مع خادمة شابة، قدمها لها أبوها ضمن جهاز عرسها. إننى أسوق كل هذا لأبيّن أن أمى كانت إنسانة لديها إمكانات كبيرة.. ولكن.

عشقتها عشق البحر لحاراته الدفينة، والطير لشعاع شمس شتوية لم تشرق بعد، كانت معى فى كل لحظة من لحظات عمرى، سبعون عامًا، يسرى حبّها فى دمى، رائحتها فى فراشى عند المساء، صورتها فى مرآتى كل صباح، حلم المنام الجميل، وحلم اليقظة الأليم، أحادثها دون أن تكون معى، أمزج ذاتها بذاتى فأخاصمها وأهجرها وأصالحها.. وحيدًا بينى وبين نفسى. وربما يعرف الآن الذين يتساءلون لماذا لم أتزوج؟ أننى كنت أنتظرها انتظارى للمستحيل، والزمن يزحف فيهزمنا ولا نهزمه. لم تكن على دينى، فكان مستحيلا أن أكون زوجًا لها، لكنها كانت لى منذ أن كان الحب، ومنذ أن تعرفت عليها مرة فى بيت صديق لوالدها ووالدى، أصابتنا سهام العشق، ولم تزل ترمينى بغياب الأمل فى رؤيتها حتى الممات، عطية التفاحة، عطية الخميلة، هديل الحمامات فى القلب، رقص الفراشات للنار، فلّة دائمة على وسادتى، قطرة ندى صباحية على نافذتى، موج بحرى فى دمى، هى التى وهبتنى وجه العاشق، وأنامل المشتاق، وروح الشعر السحرية، صاحبة النشيد المجنون، أغنيات السحاب والمطر.

أرجوكم .. ارفعوا أيديكم عن حبيبتى واتركوها ترقد رقدتها الأخيرة بسلام، فما المجد الآن؟ أقبر وشاهد أو مقام؟ إن التراب يحضنها حضنًا أزليًا يحسده القلب عليه، وفلّة وسادتى الحبيبة، تتوسد حصيّات الأرض الآن، فياريح اشهدى، ويابحر فلتلطم أنواء الأرض بأمواجك عنيفًا.. عنيفًا، ويا نجمات المسافر، اسكبى دموعك ضياءً من نار، ولتغرب الشمس قبل أن تشرق فحبيبتى صارت تتوسد حصيّات الأرض.

كانت عطية حقًا فى زمن ندر فيه العطاء، كانت لا تبحث عن الحقيقة، لأنها، هى ذاتها. بالفطرة العبقرية عَرفت أن الخير خير، والحق حق والجمال جمال.

فى المرة الوحيدة التى، التقت شفتانا فيها بتلك القبلة القمرية النادرة، قالت لى، والنهر يسمع، والنسيم يخلط أنفاسها بأنفاسى اختلاط النور بالنار: أنت الإنسان الوحيد فى العالم الذى أتمنى أن أجود له بروحى ونفسى، ولكن ليتنى أستطيع.

لكنها استطاعت أن تكون بقربى دومًا، تمنحنى لحظات الابتهاج بذكراها وهى غائبة. ولحظة أن طار طائرها عرفت قبل أن تأتى ابنتها إلى أختى العزيزة وتخبرها خبرها، فوقتها، كنت أسير فى الطريق، وفجأة تمثلت صورتها أمام ناظرى بوضوح، فاختلّت خطواتى، ووقعت دون سبب مقبول، فلا حجر أمامى، ولا ساتر يعوقنى عن السير، فعرفت أنها لابد وأن تكون قد ذهبت فى رحلتها الأخيرة، وعندما قمت من عثرتى، لأنظر فى ساعتى، كان الوقت نفسه، والذى عرف فيما بعد أنها ذهبت فيه.

أعرفها معرفتى لغاية الشجر من ثمراته، ولهجرة الطير لخلاصه، كانت حزينة إلى حد الفرح، فرحة إلى حد الموت، وكانت المواسية المؤاسية، الأسيانة، المفراجة، الطروب، تعشق عشق الناس لحيواتهم، هربًا من عشق ملائكى نادر، تحجبه أحوال الدنيا، وشروطها المشروطة، التى تفصل وتصل، وتقارب وتباعد، عاصفة بأحوال المحبة والهوى، وأقانيم العشق والغرام، وربما لا أذيع سرًا، إذا قلت أن أشعارى وأناشيدى، كتبتها فى رحاب عشقى المجيد لعطية، فأما عن نبش القبر بحثًا عن أثر أو خلافه، فأقول إن القبر رمز.. رمز لقلب عاش فأعطى فأخذ، فرقد، ولن أقول حرام وحلال، فهذه بديهية لا داعى لقولها، لكنى أتوجه بالحديث إلى أولى الأمر المسئولين عن الآثار، فأسألهم: هل فتشوا فى كل مكان من أرض مصر عن أمجاد الماضى، ولم يتبق لهم إلا موضع قبر عطية؟، وهل أنتم مبادرون إلى صون ما تم كشفه عن آثار عظيمة بالفعل، ولم يبق لكم إلا البحث عن أثر جديد؟، وفرضًا أنكم وجدتم شيئا جديدًا فى قبر المرحومة، فماذا أنتم فاعلون به؟، هل ستقدمونه هدايا - كما فعل البعض - لكل من هبّ ودبّ من أصدقائكم

الأجانب؟، هل ستتركونه مُعرضًا للسرقة والنهب، يعرض فى متاحف الدنيا كلها، موزعًا على البلدان؟

كل ما أقوله.. اتقوا الله فى أحوالكم، واعلموا أن حيلكم مكشوفة، فما أنتم إلا راغبون فى إزالة قبور هذه المنطقة لغرض فى نفس يعقوب، تتكسبون من ورائه وتعيثون به فى الأرض فسادًا.

بكاها طوب الأرض لما ماتت، ويمكن، جنازتها كانت أكبر من جنازة الملك لما مات، كانت أميرة بنت أمراء، تمشورنى هنا وهناك، وتحط الفلوس فى يدى من وقت لوقت، ولا من شاف ولا من درى، لأنها كانت عارفة أنى غلبانة، ولا حولى رجل أو عيل يجرى على ويرعانى، والشيخ سعد كان عزيزًا عليها، وكذلك الست نوسة زوجته، وكانوا مع بعض خوش بوش، وما تقوله الولية صاحبة العمارة عنها كذب فى كذب، وبناتها أحسن البنات، والكبيرة تقدم لها خُطّاب من كل ناحية، لكنها فضلت ترفض، وأنا كنت عارفة، أن المرحومة كانت مخاوية جان، فهى كانت تربى قططًا كثيرة، وتكلمهم ويسمعون كلامها، ومرة شفتها بعينى، تضرب قطًا أسود كبيرًا ـ كان عندها منذ مدة ـ على رأسه ضربًا خفيفًا، لأنه كان يمسك بين أسنانه عصفورًا صادهُ من الجنينة، ولما قالت له اتركه وإلا والنبى أجيب أجلك، فكّه على طول، كما لو أن القط يفهم الكلمة، وطار العصفور، لكنها فضلت توضب القط بالكلام، وتقول له: خير ربنا كثير، والأكل مرمى تحت رجليك هنا وهنا، وعندك فيران فى كل ناحية، يعنى حَبكّ العصفور؟، والقط بقى يتمسّح برجليها ويموء بصوت ضعيف، كله ذل ورجاء، كمن يتأسف على غلط صدر منه.

الشيخ سعد كان عارف كل شىء عنها، وأنا ذات نفسى صدّقت لما قال كرامات، لأنى شفت بعينى أفعالا منها، كما قلت، ثم أنها توسطت لى عند المدام مديرة الملجأ، لأعيش فيه لأن رجلى صارت ثقيلة فى الحركة حبتين لكنى وجدت عيشة الملجأ تزهّق، ومعاملتهم قاسية، فرجعت لها مرة ثانية، وقلت لها أنا محتاجة لأن أكون هنا فى الخارطة، لأنى تعودت عليها، وعلى الناس فيها،

فتوسّطت لى عند صاحب العمارة وأعطانى مكانًا تحت السلم لأبيت فيه كل ليلة، ولقمة من هنا، ولقمة من هنا الأمور ماشية، ثم أنها جعلت لى جُعلا كل شهر، وكذلك جعلت أصحاب المعروف يفعلون فعلها والحمد لله.

يوم جنازتها كنت خفيفة، خفة الريشة، وفى رجلى كانت قوة ولا قوة بغل، حتى أننى وصلت مع الجنازة حتى الجامع، وأنا التى وقفت على غسلها، وكان جسمها نظيفًا كالفلّ، ووجها طالع منه النور، وعلى شفتيها بسمة حلوة، ومن يراها كان يظن أنها نائمة، وغاطسة فى حلم جميل، وأنا أخذت هدومها بركة، وطلبت من عيالها سلحفاة، كانت بالبيت عندهم، يمكن من حوالى ثلاثين سنة، وهى عندى حتى الآن.

الحكومة كل سنة والثانية عمل هيصة، ولما كنت فى البلد زمان، كانت تفضل تقول آثار، آثار، لكن الناس زمان كانت ناصحة، وكل نفر شاف حاجة هنا واللاهنا، يكفى على الخبر ماجور، والتربى، يتقطع لسانه، يمكن هو المبلغ للحكومة، والحكومة لو أخذت الأرض، مفروض تبنى عليها بيوت، ولا داعى لصرف الفلوس على الكلام الفارغ.

رغم أن ما سأقوله، لا يصح قوله على إنسان توفى، لأن الموتى لا تجوز عليهم إلا الرحمة، إلا أن كلامى لابد منه، لأنه شهادة، فيجب أن أكون أمينة فيها، فرأيى أن عطية لم تكن امرأة محترمة أبدًا، فسلوكها كان سوقيًا وبلديًا جدًا، كانت تصاحب من هبّ ودبّ، وتدخل بيتها الصعاليك والشراشيح، وتسامرهم وتجاوبهم فى الكلام ولم تكن ربة بيت بأى حال من الأحوال، فهى تطبخ طبيخًا لا يمكن أن يأكله ابن آدم، ولا حتى الحيوان، وبيتها كان وسخًا دائمًا، من كثرة دخول وخروج الناس منه، ولا أظن أنها مشطت شعرها أبدًا، وكانت ترتدى الأسود، وتضع على رأسها منديلاً أسود، لا من باب الحشمة والوقار، أو الحزن على زوجها كما كانت تدّعى، لكن لأن الأسود لون لا تظهر عليه الوساخة ولا يمكن تمييز تفصيلته، فكل الهدوم السوداء تتشابه، وقد قطعت علاقتى بها تمامًا ـ رغم أنى كنت حريصة جدًا معها أثناء اتصال هذه العلاقة ـ منذ أن حاولت ابنتها الوسطى إغواء ابنى الضابط، فبناتها مثلها يجدن الكلام الحلو والابتسام فيقع الشبّان فى حبال شباكهن، لكن أمرهن سرعان ما ينكشف، فهن فى الأغلب على صورة أمهن، متلافات مثلها، لا يخجلن من فقر أو شحاذة، فابنتها الكبرى على سبيل المثال، ذهبت إلى الجامعة فى معظم الأيام بهدوم ابنتى التى كانت تناهزها العمر، والغريب أن عطية لم تكن فى الأصل فقيرة، لكنها كانت مبددة متلافة، فعند زواجها كانت تمتلك أربعًا وعشرين مرتبة سرير، وعشرين لحافًا من القطن، وكان ثمنهم يساوى الشىء الفلانى ـ حتى فى أيام الرخص ـ ومع ذلك لا يوجد لحاف واحد منهم فى بيتها الآن، لأنها كانت تسلّف الناس كل شىء من بيتها حتى مراتب

السرير، وكانت لما ينزل على جارتها ضيوف من البلد، تعطيها مراتب ولحف، وحتى أطباق الصينى والشوك والسكاكين، وطبعًا كان مستحيلاً أن أقبل زواج ابنى من بنت لها، فهن يستقبلن الشبان فى البيت، ويتحدثن إليهم، بل وكن يذهبن معهم فى بعض الأحيان إلى السينما، وهل هذا شىء يمكن قبوله، وهل يتصوره أحد؟!، وابنتها الكبرى كانت تذهب فى رحلات مع الجامعة، وتغيب فيها أسبوع وأسبوعين، والله يعلم أين كانت فعلا، أما عطية نفسها، فسلوكها لابد وأن يكون مستقيمًا، فهى امرأة لا تحسب فى النساء بالأصل، حتى ينظر إليها الرجال، وزوجها نفسه كان يتهكم عليها بذلك أمامنا، وأمام الناس كلهم. أما كون زوجى كان يهزر معها، بعض الأحيان، ويدعوها لفنجان قهوة، فذلك لا يعنى أى شىء فزوجى، رجل يفهم الدنيا كما يجب، وكان يفعل ذلك معها لأنها عارفة أخبار الحىّ كله، والأخبار عندها أولاً بأول دائمًا، وطبعا كان يسلّفها، من وقت لوقت، لأنه كان يعذرها ويقول: غلبانه وحملها ثقيل.

حكاية المقام كلام فارغ طبعًا، ويقف وراءها جارها الشيخ سعد، فهو رجل مهووس ومريب أيضًا، وهو يستغل تأثيره على الناس كخطيب فى جامع المنطقة، وبصراحة أقول أنه لابدّ من وجود مستفيدين من وراء ذلك الموضوع، وهذه أشياء تحدث وتكثر فى البلد الآن، ومنذ فترة قريبة، وأبسط شىء يمكن قوله أنها لم تكن محجبة بالمعنى الصحيح للتحجّب، وكذا بناتها أبعد ما يكن عنه، ثم هل من المعقول أن تظهر الكرامات فجأة؟، والله أنا مستغربة من ذلك ومستغربة أكثر من اهتمام الصحافة بأشياء من هذا النوع. لذلك ألفت نظركم لما يحدث فى البلد الآن، وفجور السكان، واستهتارهم بأصحاب العمارات، وأتمنى أن تكتب الصحف عن ذلك، فحتى فلوس المياه يرفضون دفعها، ناهيك عن الإيجارات ذاتها منخفضة، وبهذه المناسبة أذكر أن عطية أرسلت فى إحدى المرات خطاب شكر باسم سكان الحى لرئيس جمهورية راحل، كان قد خفّض الإيجارات منذ سنوات بعيدة عمومًا. وراء كل سلوك مصلحة، ولتفتش الحكومة عن أصحاب المصلحة فى موضوع عطية، وقصدى واضح من هذا الكلام ولا يخفى عن الذين يفهمون هذه الأمور أكثر منى.

خرجنا بالنعش من البيت، ومشينا به حتى الجامع لأداء صلاة الميت والمسافة كانت حوالى اثنين كيلو متر، الدنيا كانت شتاء، لكن الجو وقتها كان معقولاً، والشمس طالعة، وفجأة وبينما نحن سائرون، دون أية مقدمات، غيم الجو وهطل المطر وساعتها بدأت حاجة غريبة تحصل، فالنعش بدأ يخف وزنه ويفلت من أيدينا، وينطلق بأقصى سرعة إلى الجامع، وبقينا نتشبث به ونحاول تثبيته ونحن نجرى مع سرعته حتى لا يفلت منا ويقع فى الوحل، وقد شعر بهذه المسألة نفسها كل الذين حملوه معى، وكانوا خمسة أشخاص غيرى، وأنا كنت غير مصدق فى البداية، وكنت أظن أننى أتخيل ما أقول، حتى حكى الحكاية، لبعضهم، بقية الستة، وهناك مسألة أخرى، وهى أننا سمعنا أثناء وضع النعش على الأرض فى الجامع للصلاة طقطقة عظام غير عادية، وأنا أقول ذلك الآن راجيًا أن يصدقنى أولئك الذين لا يعتقدون فى مثل هذه الأمور، لأننى كنت مثلهم لا أظن أن حكايات من هذا النوع، لها وجود فى الواقع، وقد استغرق التفكير فى، ذلك الحادث، وقتًا كبيرًا منى، قبل الوصول إلى رأى محدد فيه، وأستطيع تفسير هذه الواقعة ومسائل أخرى عديدة، وفقًا لمعطيات التاريخ المصرى القديم، فآلهة العدل ماعت، تقوم بوضع قلب المتوفى فى ميزان، وتزنه، حتى يتقرر، فإذا كان القلب ثقيلا، لكثرة ما يحمله من خطايا وذنوب، ذهب إلى النار، وإذا كان خفيفًا نقيًا، كانت الجنة من نصيب صاحبه، ومن هنا يمكن تصور أن النعش أخذ فى الطيران، ربما لحظة اكتشاف حقيقة قلب صاحبه، واتخاذ القرار الإلهى بشأن ذهابه إلى الجنة، وكل المقدمات تؤدى إلى هذه النتيجة، فالست عطية، كانت مشهورة بالكرم،

مجبولة على فعل الخير، وأياديها البيضاء، على جميع أهل الحى، أكثر من أن تعد أو تحصى، وقد كانت حلوة اللسان، طيبة السلوك والكلام، مما يجعل كفتها فى الآخرة ترجح فى اتجاه دخول الجنة، وربما كانت لها تجلّيات وكرامات مستورة فى الدنيا، كما يقول المتصوفة.

لقد شغلنى موضوع الست عطية كثيرًا كما قلت، وبالبحث فى ملابسات كافة القصص والحوادث، توصلت إلى نتيجة بالغة الأهمية، وهى أن الست عطية، كانت تنتمى إلى سلالة أخناتون العظيم دون أن تدرى، وكانت تحمل روح التعاليم الأخناتونية العريقة فى اللاشعور فبالبحث، اكتشفت، أنها كانت تنتمى إلى المنطقة نفسها التى نمت وترعرعت فيها الأخناتونية، وهى المنطقة التى انبعثت منها كل فكرة، تدعو إلى التفانى فى حب الخالق الواحد، أصل الوجود، لقد حاولت تتبع مسار التعاليم الأخناتونية تاريخيًا، ووصل الخيوط التى انقطعت عبر ذلك المسار، والتى يمكن أن تدلنا على ما وصلت إليه هذه التعاليم من حال، فليس من المقبول عقلا ومنطقًا، أن تسقط هذه التعاليم الراقية فى ذاك الزمان القديم، فجأة، لمجرد أسباب سياسية مستحدثة، إننى لمستطيع، القول، أن الأخناتونية، ظلت تمارس تأثيرها إلى وقتنا هذا، بعد أن تسربت فى مسارب عديدة، ولعل أبرز تجليات هذا التأثير، هو ما يثار الآن عن موضوع الست عطية، ففكرة التصوف، هى فكرة أخناتونية الأصل، تتلخص فى الانقطاع عن العالم والتعبد والتهدج، حتى يتحد المحبوب بمن يحب، وهنا أحب أن ألفت النظر إلى ما ورد فى كتابات مؤرخى العصر الوسيط عن الأخناتونية، فالملك سوريد، بلغة هؤلاء المؤرخين، والذى هو أخناتون، كان يعبر النيل تاركًا عاصمته هو وبناته الثلاث، عبر نفق سرى فى الماء، متجهًا إلى الضفة الأخرى من النهر، حيث الصحراء الشاسعة الممتدة، والشمس الذهبية الآسرة، لممارسة عملية الانقطاع التى أشرت إليها، وهو الأسلوب نفسه، الذى اتبعه بعد ذلك الأنبا باخوم، مؤسس الديرانية فى مصر والعالم بأسره، ثم هناك أيضا المتصوف المصرى الشهير النِّفرى، الذى اتبع الأسلوب نفسه، وأنا أظن أنه القديس أبا نفر الراهب الديرانى أيضا، وخصوصًا أن شخصية النفرى، يكتنفها الكثير من الغموض، وكذلك

منشأه، وكيفية حياته، وإن كانت مسألة انقطاعه للعبادة فى الصحراء، مقطوع بصحتها تمامًا، والملاحظ أن المتصوفة الإسلاميين جاء معظمهم من مصر العليا، بل إن بعضهم كان ملمًا باللغة المصرية القديمة، فذو النون المصرى، وهو أسوانى المنشأ، يُروى عنه وفقًا لكتابات مؤرخى العصر الوسيط، أنه كان يقرأ ما كتب على البرابى المنتشرة بضفاف النيل، والمقصود بذلك الآثار الفرعونية العديدة الموجودة فى الصعيد، ثم أن هناك تشابهًا كبيرًا بين مقولات النِّفرى، ومقولات أخناتون، وربما كان ذلك موضوع بحث طويل، لكنى أوردت كل هذا الكلام فى محاولة للوصول إلى جانب من الحقيقة فى موضوع الست عطية، فأنا لا أؤيد ما حدث، على طريقة العامة، كما أننى لا أرفضه رفضًا قاطعًا تحت دعوى العلم والمادية، وأنا أطالب أن يسارع الجميع بعملية الحفر، ولا داعى لعرقلة الأمور، خصوصًا بعد الذى شاهده ابنها والتربى، فهذه الحكاية مؤشر خطير على العلاقة التى ذكرتها بين الأخناتونية والست عطية، وأعتقد أن الأوان قد آن، لكى نتعامل مع كل ما هو غيبى على نحو علمى مدروس ولنفسح المجال قليلا، لنتحدث حقائق التاريخ، وأخيرًا أحب أن أقول لأولئك الذين يخشون على مقام الست عطية، أن عمليات الحفر والتنقيب، ربما قطعت الشك باليقين، وزادت مقام الست عطية قدرًا ورفعة، بل وعادت على الجميع بالنفع والخير.

رفض عواد التربى - كما ذكرت الصباح من قبل الإدلاء بأية معلومات للمجلة، وهو التربى المنوط برعاية مقام الست عطية وخدمته كما أن حوش القرافة، الذى يوجد به المقام، ضمن منطقة نفوذه، لكن الصباح استطاعت الحصول على معلومات تتعلق بعواد التربى، وربما تلقى هذه المعلومات بعض الضوء على شخصية عواد ونشاطه فى المنطقة.

يقول م. ع، قارئ قرآن على القبور بالقرافة: «عواد هو المستفيد الأول من الذى يحدث الآن، لأنه الوحيد الذى يمكن أن يعرف متى، ولماذا، وكيف نبش القبر، ورأيى أن القصة كلها من تأليفه، أما الخبر الذى أحب أن أوصله للحكومة والمسئولين، فهو أن عواد يبيع الجثث لطلبة الطب، وهذا أمر لا يمكن السكوت عليه، وأنا عندى معلومات كاملة عن الموضوع، وتفاصيل الأسعار، وكلام كثير آخر سوف يفيد الحكومة جداً».

س. ف، تربى بالقرافة: «عواد أصله حرامى وتاب، جاء لهذه المنطقة من زمن بعيد، لأن الحكومة كانت تسعى فى طلبه ثم رسى المقام به فى القرافة وعمل تربى، وهو عارف الترب، طوبة طوبة، وحجر حجر، ولو كان فيها كنز كان سرقه من زمان واغتنى وفارق الترب، وعيشتها الغم، ورأيى أنه ليس صاحب مصلحة فى الحكاية كلها من أولها لآخرها، وبالنسبة لمقام الست عطية فهو جديد، ولا أحد يعرفه جيداً، يعنى المورد منه محدود، ثم أنه لو كان سرق أى شىء من القبر، يعنى ذهب أو خلافه، كان ولابد أن يردم القبر مرة ثانية حتى لا ينكشف أمره،

وهو نفسه، ليلة الحادث، كان متحيرًا جدًا، مضطربًا، وقد جاءنى إلى البيت، وحكى لى الحكاية، وطبعًا هو رفض الكلام عن أى شىء لأن هذه الأمور حساسة من نواحى كثيرة ولا يصح الأخذ والعطاء فيها».

• الأثرى على فهيم •

سأتحدث؛ رغم اقتناعى، بعدم جدوى هذا الحديث، فأنا أشك أن كلامى سينشر بالأصل، فهو أولاً وأخيرًا، كلام غير صالح للنشر فى مجلة كمجلة الصباح، وربما غير صالح للنشر فى أية مطبوعة أخرى تصدر وتوزع على الملأ. خلال هذه الفترة - فكل ما يقال عن حرية الصحافة وحرية التعبير أكذوبة كبرى لم أصدقها، ولن أصدقها ما حييت، لكنى على أية حال سأعتبر أنى أحادث نفسى كما جرت العادة، الفرق أنى سأحادثها هنا بصوت عال بعض الشىء، وربما كان ذلك محاولة بسيطة، للإفلات من الجنون، الذى أشعر أنه يقترب منى بسرعة مخيفة، فأنا لم أعد قادرة على احتمال المزيد من الكذب والزيف، الذى بات يشمل كل شىء، ويغلف كل شىء فى حياتنا من أخمص القدم، حتى قمة الرأس.

لقد سويت معاشى من الآثار، رغم وجود سنوات مازالت تسمح لى بالاستمرار، فى العمل من الناحية القانونية، وحرصت على الانسحاب الهادئ، عندما شعرت أن الأمور قد فاقت كل حد، فلم يعد بمقدورى الاحتمال، أو القيام بأى دور معاكس، لما يحدث من تخريب متعمد ومقصود، والمسألة تخطت حدود الإهمال والجهل واللامبالاة، بتراثنا الأثرى العظيم، بل أصبحت تمس ما هو أبعد من ذلك وأخطر على ماضينا، وحاضرنا، ومستقبلنا، ووعى الأجيال المقبلة بذلك، وقبل أن أتناول موضوع مقام الست عطية، أحب الحديث عن حقيقة عامة أشعر بها، وهى أن بلدنا بلد منكوب على مرّ العصور، وهو أشبه بالمرأة الجميلة التى جنى عليها جمالها، بسبب مطامع الآخرين فيها، فلقد كانت خصائص هذا البلد، نقمة على

أهله طوال التاريخ، ما الذى جنيناه من بناء الأهرام، غير الموت والشقاء، أى مجد نلناه من وراء تلك الصروح الحجرية الضخمة، التى بنيناها بالدم والدموع؟، ثم ما الذى حصلنا عليه بعد حفر قناة السويس؟، كم قناة من الدم، امتلأت بعرق الآلاف من أبناء هذا الوطن، حتى تعبر فيها سفن الإنجليز والفرنسيين. ثم الأمريكان بعد ذلك؟! فما من مأثرة لدينا، إلا وهى نقمة علينا، حتى النيل هو لعنة أبدية صُبت علينا، إنها دراما.. بالأحرى تراجيديا تاريخية، كُتب على أبطالها - من أبناء هذا البلد - تجرُّع المأساة إلى الأبد.

أقول ذلك للولوج من خلاله، فى موضوع مقام الست عطية، فمن المعروف أن منطقة المقام، هى من أغنى المناطق الأثرية فى البلاد، والأثريون والمؤرخون يدركون تمامًا، مدى أهمية ومكانة هذه المنطقة من الناحية الأثرية، كما يعرفون سلفًا، أهمية النتائج التى يمكن أن تتمخض عنها الحفائر هنا، ولن أذيع سرًا، إذا ما قلت، أن النتائج سوف تفوق أهميتها، أهمية الأهرامات الثلاثة مجتمعة، ومنطقة معبد الكرنك، ووادى الملوك، وكنز الملك توت عنخ آمون أيضا. فالنتائج ستكون دليلاً قاطعًا على ما أحرزته الحضارة المصرية القديمة من تقدم مبهر ورقى لا نظير له.

الجديد، هو أن الكشف سوف يكون ذا طابع تكنولوجى بالأساس، ورغم ذلك، فإن أهميته الرئيسية تكمن فى كونه يلقى الضوء الساطع على شخصية المصريين القدماء، مما سيقدم مادة جديدة تمامًا لعلماء السوسيولوجى، وكذلك متخصصى الأنثربولوجى، ولا أغالى، إذا ما قلت أن هذا الكشف، ربما فاق من حيث الأهمية، اكتشاف القنبلة الذرية، أو عملية الصعود إلى الفضاء.

إن ما دفعنى للكلام، لا يتعلق بما أوردته آنفا، لكنى أريد الحديث عن عملية الكشف ذاتها، كيف؟ ولماذا؟ ومن الذى سيقوم بها؟ فبدون إجابة محددة دقيقة، عن هذه الأسئلة، ربما نقع فى مصيبة جديدة، كارثة قومية أخرى، تضاف إلى سلسلة الكوارث التى منينا بها طوال تاريخنا القومى، فأنا أرجو وأتمنى ألا نقوم به ونحن على هذه الحال المتدهورة التى نعيشها، نأكل لقمة الخبز بالدين ولا نحسب لغدنا قبل يومنا، ونعيش شريعة الغاب، حيث يأكل الكبير الصغير، والقوى

الضعيف، باختصار فإن هذا الكشف سوف يكون كارثة، طالما التشوه الغريب مازال يعمل فى ملامحنا، ولننظر ماذا نلبس؟، كيف نأكل، أين نسكن، كيف نحب ونتزوج وننجب، إننا محاصرون تمامًا بكل عوامل التشوّه التى تُفرض علينا فرضًا، ونستجيب لها راضخين، يومًا بعد آخر، دون أن نقاوم لأن العدو يأتينا هذه المرة، بألف وجه ومن ألف باب وشباك؟، لماذا نرتدى الألياف الصناعية فى هذا الجو الخانق، ونحن نزرع القطن والكتان؟، ولماذا نعيش فى هذه المبانى الكئيبة الشبيهة بصناديق الصابون، أو الأحذية وأمامنا الصحراء الفسيحة؟ لن أعدّد العشرات من تفاصيل التشوّه، التى تسيطر على كل لحظة من لحظات حياتنا، لكنى أقول، أن الكشف عن أى شىء فى مقام الست عطية سوف يكون مصيبة ونحن على هذه الحال، فعملية بهذه الخطورة والأهمية، لا يمكن أن تتم إلا بجهود جبارة وطاقات مادية وبشرية غير عادية، فهو يقع على مساحة واسعة جدًا من الأرض، تستدعى إزالة القرافة الكبرى بكاملها ومناطق مجاورة لها، لا تقل عنها قبحًا وكآبة.

إن التلمظ على مقدرات هذا البلد، سوف يزداد على نحو لا يمكن تخيله، إذا جرى الحفر الآن، وخصوصًا أن ذلك سيستدعى تدخل أطراف أجنبية فى عملية البحث والكشف. ولا أبالغ إذا ما قلت. ربما تنشب بسببه حلقة جديدة، من حلقات الحروب الاستعمارية الكلاسيكية المعروفة منذ مطلع القرن الماضى.

وبمنتهى الثقة والصدق، أقول للجميع، أن الكشف عمّا وراء مقام عطية، يستدعى طاقات روحية خلاّقة طاقات كل أبناء هذا البلد بالأساس، إن ذلك يعنى حقًا تغيير كل ما هو قائم وتنظيم الناس وحشدهم بدقة متناهية، حول هدف عظيم يشعرون من خلاله بالانتماء الحقيقى لهذا البلد.

أخيرًا، أريد أن ألفت النظر، إلى أن وجود مقام الست عطية فى هذا المكان، ليس من قبيل المصادفة، فأنا لا أؤمن بقانون الصدفة كثيرًا، وليحاول الجميع البحث عن حقيقة الأمر، فى هذا الاتجاه.

رغم تكتم الجهات المختصة، والصحافة، على موضوع مقام الست عطية، لملابسات عديدة لم تُعرف على وجه الدقة، ورغم عدول مجلة الصباح عن قرارها بإجراء تحقيق واسع حول ذلك الموضوع، إلا أن السيف سبق العزل، كما يقول المثل الشهير، فلا أمر يُخفى إلا يشاع وينتشر، فموضوع مقام الست عطية، أصبح حديث الناس فى الداخل، حتى أن بعض منتهزى الفرص من مؤلفى الأغانى الهابطة، التى تروح خلال هذه الأيام، قام بكتابة أغنية من ذلك النوع تقول كلماتها «يا عطية وخبرينى، عن أحوال الجميع»، ويمكن الاستماع إلى هذه الأغنية بسهولة، إذا ما استقل المرء أية سيارة أجرة، تنتقل بين القاهرة والأقاليم.

أما مجموعة الكتاب والصحفيين، المتعيّشين من الكتابة فى صحف ومجلات البترو دولار، فقد كان موضوع مقام الست عطية، بمثابة ثروة هبطت عليهم من السماء خصوصًا بسبب حالة القحط التى أصابتهم، والناتجة عن غياب حوادث مثيرة، داخل البلاد يكتبون عنها، ومن ثم، فقد راحوا يتناولون موضوع الست عطية بالطول وبالعرض، وكان أطرفهم صحفى، يكتب حسب الطلب، متخصص فى الكتابة لصحف ومجلات أنظمة عربية متنافرة الاتجاهات السياسية، كتب مرة محاولاً إثبات، أن محاولة إثارة موضوع مقام الست عطية، خلال هذه الآونة، يستهدف بالأساس، غض الأبصار عن حرب الخليج، ومن ناحية أخرى، كتب فى مجلة ثانية يقول، أن ذلك الموضوع محك عملى، يجب أن تحتشد على ضوئه قوى الصمود والتصدى فى المنطقة.

أما فى الخارج، فقد قدم مراسل جريدة إنجليزية، مهتمة بنشر أخبار البلدان المتخلفة تقريرًا مفصلاً عن موضوع الست عطية، حض فيه حكومته على نحو غير مباشر، بأن تسارع، وتضع يدها على الموضوع، قبل أن تسبقها حكومات بلدان غربية أخرى، ولا تملك بعد ذلك إلا عضّ أصابع الندم، من ناحية أخرى، فقد نشرت مجلة غربية فضائحية شهيرة، صورًا فاضحة، لمندوب منظمة ثقافية دولية يعمل فى القاهرة، وهو فى أوضاع شاذة مع تربى مقام الست عطية، واكتفت بالكتابة تحت الصور «بدون تعليق».

ويقال أن هذا المندوب، رفع فورًا قضية على المجلة، مطالبًا بتعويض قدره، عدة ملايين من الدولارات.

لكن ما يجب ذكره على نحو أساسى، هو أن كل ما أوردناه وقدمناه، لم يكن لنا أن نعرفه، لولا المحررة عزة يوسف، والتى كانت قد قامت بجمع المادة بالأساسية المتعلقة بالتحقيق الصحفى الذى لم ينشر، وخلال ذلك عقد قرانها فجأة على الأثرى على فهيم، ثم أنها قدمت استقالتها من المجلة بشكل نهائى، وبعد ذلك بفترة قصيرة، غادر على فهيم الحياة، بعد أن دهمته سيارة مجهولة، وهو فى طريق عودته إلى منزله ليلاً، وقد قيل وقتها، أنه كان يشكو إلى المقربين من أصدقائه من إحساسه الدائم بأنه مراقب من قبل أشخاص مجهولين وأنه يستشعر بأنه سوف يُقتل.

قبل ذلك بفترة أيضا، كانت شقة العروسين، قد تعرضت لحادث غريب، حيث داهم مجهولون الشقة، وأتلفوا محتوياتها، بعد أن نقّبوا فيها، واكتفوا بسرقة بعض الأوراق الخاصة بالزوجين، وبعض الكتب، ولما أبلغ على فهيم الشرطة، أسفر البحث والتحرّى عن لا شىء، وقيّد الحادث ضد مجهول.

ويبدو أن هذين الحادثين الغريبين، قد جعلا عزة يوسف تضع النقاط فوق الحروف، بالنسبة لمجموعة من الحقائق، كانت تعرفها هى وزوجها، ولسبب ما، أحجما عن إذاعة هذه الحقائق، أو ربما مُنعا على نحو من الأنحاء من إذاعتها، لذلك قررت أمرًا غريبًا، قبل اختفائها من منزلها على نحو غامض، وفقا لما قالته الصحف بعد ذلك.

فالحقيقة هى أن كل ما سجلناه على الصفحات السابقة، لم يكن إلا ما وجدناه صباح أحد الأيام، تحت باب شقتنا فى مظروف متوسط الحجم، يحتوى على ما كتبته عزة يوسف، دون زيادة أو نقصان، تحت عنوان «إلى من يهمه الأمر»، ومذيلاً بإمضائها دون تاريخ، ثم أسفل الصفحة «عزة يوسف قد تموت لكن الحقيقة تبقى».

المظروف متوسط الحجم الذى عثرنا عليه، هو نفسه، المظروف الذى عثر عليه عدد آخر من الناس أسفل أبواب منازلهم، وكان يحتوى على المادة نفسها، ومعنونًا فى جميع الأحوال: «إلى من يهمه الأمر».

• عن الروح التى سرقت تدريجياً •

كل ذلك الصوت الجميل الذى يأتى من داخلها

ـ ١ ـ

بدا كل شىء طبيعيًا، وفقًا لطقوس اليوم المعتادة. الحجرات مرتّبة ونظيفة، الأطباق على المائدة تنتظر الطعام، بينما صوت المذياع الخفيض يثرثر بأنباء ما بعد الظهيرة، التى لا تتغير عادة، لكن عبدالحميد شعر أن ثمّة قلقًا يهيمن على زوجته، ويجعلها تدسّ رأسها بين كتفيها، أكثر من المعتاد، وهى تزدرد الطعام، ولا تجاريه فى الكلام، كما يجب، فسألها:

ـ مالك يا سيّدة؟!

ـ أبدًا.

ردت بوجوم، وذهبت إلى المطبخ متذرّعة بأن الشاى فار من الإبريق على النار، لكنّها لما عادت بدت أشدّ اضطرابًا، حيث وقع غطاء الإبريق على الأرض، بينما كانت تهمّ بصبّ الشاى فى الأكواب. عاود عبدالحميد سؤالها عمّا بها بلهجة مستنكرة، فهمست له بحياء، أنها تريد أن تفاتحه فى موضوع، لكنها خجلة.

«خير؟!» قال، ثم أشعل سيجارة مخمنًا الخبر، ستطلب فلوسًا طبعًا، وتتذرع بأمر طارئ، أو ستحاول إقناعه بزيادة المصروف الشهرى، فليس من موضوعات أخرى خاصّة، يمكن أن تخجل سيّدة من طلبها غير هذه!؟. كشّر عن أنيابه، عاقدًا ما بين حاجبيه، محركًا رقبته يسارًا ويمينًا ليطقطقها، مستعدًا لمعركة لابد

واقعة بينهما، قرر أن يخرج منها منتصرًا، مهما اشتد أوارها، فلن يدفع مليمًا أحمر واحدًا، زيادة عما يدفعه للبيت كل شهر، حتى لو شافت سيدة حلمة أذنها. رشف رشفة من الشاى الداكن، المائل للسواد، وقال لها من بين أضراسه:

- قولى:

من قرار عميق، حاولت سيدة دفع شجاعتها لتستقر على لسانها، وتنطق بما تودّ قوله، لكن الشجاعة كانت قد انزلقت سريعًا إلى قاعها من جديد، وخرج صوتها ضعيفًا بلا سند:

- أصل الموضوع هو أنى اكتشفت إنى...

- حامل؟!

وقف الزوج صارخًا، كمن فوجئ بجلوسه - عفوًا على خازوق، وخرجت منه «معقول؟!» مزفوفة برذاذ الانفعال.

معقول أن تكونى حامل ياسيّدة من جديد؟!، طيّب، وتربة أمى لأجعل نهارك ليلاً، لو طلع الموضوع جدّ، لأنى زهقت من العيال وحملهم، وجيبى فارغ، يعنى لا خلفه ولا إجهاض وتصرّفى يا شاطرة.

هرش ما بين فخذيه، وسار كالمجنون مقتربًا من النافذة، التى تطل على الشارع المفعم بضجيج الناس والسيارات، وفكر مغتاظًا فيما يمكن أن يفعله معها. أيضربها؟ أيطرحها أرضًا، ويركلها بقدميه حتى تدمى، وتُسقط ما بأحشائها، أم يفتح النافذة عن آخرها، ويلقى بها خارجًا؟!. ولولا السيجارة التى كادت تحرق أصبعيه، فعاد لدفن عقبها فى المطفأة، ربما ما وجدت سيدة فرصة - بعد أن استقلت شجاعتها مصعدًا لتصل إلى لسانها - لتقول له:

- بلا حمل بلا كلام فارغ، الموضوع أن صوتى أصبح جميلاً جدًا.

- سمّر عبدالحميد نظراته عليها لثوان، ظل خلالها حائرًا، ثم انفجر ضاحكًا ضحكًا هستيريًا، كمن سمع لتوه نكتة لا نهاية لها، بينما دفقات الدم تتصاعد بحدة إلى رأسه، فتجعل وجهه المنتفخ أشبه ببالون أحمر على وشك الانفجار،

وبقيت قسماته وأسنانه تتبادلان الحركات فى موجة مستمرة من الانفعالات، لم يوقفها إلا صوت زوجته الغاضب:

ـ اسمع الكلام، الأول.

جلس. فأخذت تحكى له ما حدث لها على وجه التحديد، فبعد مغادرته المنزل فى الصباح إلى شغله، وبعدما ذهب العيال للمدارس، بقيت هى وحيدة كعادتها فى البيت، وشرعت فى قضاء أشغالها، الكنس والمسح والطبيخ وترتيب الحجرات، ثم أنها بعد أن أذن الظهر قالت لروحها: «فلتدخلى الحمّام يا بنت وتصبى على جسمك سطل مياه، ينعشك وتزيلى به الوساخة. لكن بعد أن خلعت سيّدة هدومها، وغسلت رأسها مرتين، وبينما كانت تزيل الصابون عن عينيها، خطر لها أن تغنى لتسلّى نفسها كالعادة، وما أن شرعت فى أغنية «أحب عيشة الحرية»، حتى شعرت وكأن شخصًا آخر دخل عليها الحمّام، وبدأ يغنى بدلاً منها، لأن الصوت لم يكن صوتها الذى تعودته، بل كان صوتًا جميلاً، رخيمًا، لا يمت لصوتها بصلة، فما كان منها إلا أن صبت على عينيها الماء لتزيل الصابون عنهما بسرعة، وبحلقت فى الحمام ملتفتة بحثًا عن ابن آدم أو أى مخلوق آخر، وهى تسمّى بالله وتستعيذ من الشيطان، لكن نظراتها لم تصطدم إلا بالشبّاك الوحيد المغلق بإحكام، ومرآة الحوض الموضوعة على رفها فرش الأسنان، وملابسها النظيفة المعلقة على مسمار الباب، التى أخرجتها لتوها من الدولاب، فتشهدت وسكتت معاودة الاستحمام، فلما تيقنت أن لا صوت معها غير صوت الماء المنسكب على جسدها، عاودت الغناء من جديد «أحب عيشة الحرية»، فخرج الصوت منها أكثر جمالاً وصفاء وقوة، فتسمّرت الليفة فى يدها على فخذها، الذى كانت قد بدأت فى دعكه، وبسملت، وتعوذت من الشيطان الرجيم، ورغم إعتقادها بأنه لا يوجد عفريت إلا ابن آدم، إلا أنها خافت وتسارعت دقات قلبها، فنادت على نفسها بصوت خفيض: «يا سيّدة، يا سيّدة»، فأتاها أيضًا صوت غير صوتها الذى تعرفه، وكان جميلاً أيضًا، فراحت تعلّى الصوت أكثر، وتنغّمه: «يا سيّده ه، يا سيده ه»، وقد انتابتها حالة من النشوة والفرح الشديد، لكنها انتبهت فجأة: «ربما سمعنى أحد، أو أنك رجعت إلى البيت يا عبد الحميد، لأى سبب من

الأسباب، وسمعتنى أنادى نفسى، فتظنّ أن عقلى طار، أو جرت لى لوثة، فسكت وخلى الرعب لسانى حطبة ناشفة، وأسنانى خبطت على بعضها، وقلت لروحى: يمكن أن تكون حكاية العفاريت حقيقة، وبقيت أقرأ فى سرى «قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق» لحين ما خلصت، ونشّفت جسمى بالفوطة، ومن ارتباكى لبست الجلابية خلف خلاف، وفتحت الباب، وخرجت أجرى إلى الشباك، أبّص منه على الناس فى الشارع وأتآنس، ولما روحى رُدت، وارتحت، رحت، قاعدة على الكنبة، أسرّح شعرى، وبعدها، وكأنى سمعت هاتفًا، لقيت نفسى، من جديد، أغنى «يا حلاوة الدنيا يا حلاوة»، فتصور يا عُبَد، لقيت صوتى أحلى وأحلى، صوت كأنه طالع من الجنّة، صوت يسحر ولا مثيل له فى الدنيا أبدًا، وبصراحة، انبسطت وارتحت، وقلبى زال عنه الخوف، لأنى شعرت أن من المستحيل أن يكون الصوت صوت جن، فهو صوت أنسّى، وطبيعّى خالص، لكنه مختلف كثيرًا، وغير صوتى القديم.

ثم أنها قالت له وهى تنظر فى عينيه بطيبة، ورضا عميقين:

- اسمع والنبى يا عبد الحميد.

وهّمت أن تغنّى، لكن عبدالحميد أسكتها بنظرة حازمة، وكأنه لم يسمع ما قالته أبدًا، ثم سألها إن كانت قد أخبرت أحدًا غيره بهذا الموضوع، فلما استنكرت استنكاره، وأكدت له أن الحكاية حدثت منذ ساعات قليلة، وأنها لم تقابل أىّ مخلوق سواه بعد خروجه فى الصباح، تنهّد بارتياح، وطلب العيال». فغضبت لأنه لا يصدقها، ثم أنها حلفت أغلظ الأيمان لتؤكد أن ما قالته قد حدث بحق وحقيق، وأنها لا تشكّ فى العفاريت لأنها، منذ دخلتها فى البيت قبل عشرين سنة، ما شافت واحدًا منهم، وتجمّعت الدموع فى عينيها وهى تنفى له بشدة أن يكون عقلها قد خف أو جرى لمخها أى شىء.

جلس عبدالحميد على الكنبة، وطلب منها أن تعمل له قهوة بسكّر خفيف، وبينما هى تدخل رجليها فى خفها المنزلى، وتهم بالذهاب، صعبت عليه حالها، وقال لها:

- اسمعى يا سيّدة. أنت فتّ الأربعين، وعندك أربع عيال، يعنى كلامك لتّ فارغ، يقلل من قيمتك، ويجعلك مضحكة قدّام الصغار، فما بالك لو سمعه أى إنسان واع؟!، ثم افرضى أن كلامك صدق، فما معناه؟!، وناوية تغنّى مثلاً؟!، تصيرى مطربة؟!، أما حكاية والله!.

ضحك بارتياح لأنه رأى الموضوع بسيطًا، وبعيدًا عن مخاوفه، التى توقعها، ثم أنه لطمها على مؤخّرتها مازحًا، وهمس لها: «بعد القهوة تعالى نتمدد فى السرير مع بعضنا.».

-٢-

سارت الأمور، بقية اليوم، سيرها المعتاد، وكادت سيدة تنسى ما حدث لها عند الصباح، حيث ظلّت تنجز شئون الجزء الثانى من النهار بحماسها المعتاد، فطبّقت الغسيل، ودارت بالشاى على العيال وهم يستذكرون دروسهم، واقتنصت نصف ساعة للفرجة على المسلسل التليفزيونى، ولما عاد عبدالحميد من المقهى، الذى كان قد نزل إليه بعد الغروب، أعدت له العشاء مع الأولاد، فمازح منهم من مازح، ووبخ من أراد توبيخه؛ لكنها فى المساء عندما اختلت بروحها، بعد أن غاب عبدالحميد فى النوم، فكّرت حائرة فيما ستفعله حقًا بصوتها، هذا الصوت الجميل، الذى اكتشفت فجأة أنه مدفون فى داخلها، كالذى إكتشف كنزًا عجيبًا ولا يدرى ما الذى يمكن أن يفعل به. أخذت تنشّط فكرها، فكانت تأتيها إجابة منطقية وحيدة دومًا: الصوت الجميل خلق للغناء. فلماذا لا تغنّى ويسمع كل الناس صوتها، ورِوادها شعور بأنه من العدل أن يسمع الناس صوتها، وأنه لا علاقة للصوت بالعمر، فما المانع أن يسمع الناس صوت الإنسان بصرف النظر عن عمره ووضعه، سواءً أكان رجلاً أم امرأة. كانت قد اقتنعتِ تقريبًا بهذه الفكرة، فتملكتها رغبة عارمة فى أن تجلس فى الفراش وتغنى «يا حلاوة الدنيا يا حلاوة» فهبت جالسة، وبينما هى تشرع فى فتح فمها لتبدأ، تقلّب عبدالحميد فى الفراش وأحس بها، فنظر إليها بقلق، وسألها:

ـ مالك يا سيّدة؟!

فقالت أنها ذاهبة إلى المطبخ لتشرب، لأن ريقها ناشف بعض الشئ.

ـ ٣ ـ

جن جنون سيّدة، لما بدأت تغنى، فى صباح اليوم التالى، وهى تقف أمام الحوض، لتغسل المواعين المتخلّفة عن وجبة الإفطار بعد خروج عبدالحميد والعيال، فعاودها الصوت الجميل مرة أخرى، حيث بدا خلابًا، سماويًا، فيّاضًا بالقوّة والنقاء، وداخلها شعور بأنها كائن آخر، لا علاقة له بسيّدة التى تعرفها، سيّدة التى تمسح وتكنس، وتلّف رأسها فى منديل كلّ يوم، لكونها لا تجد الوقت الكافى، الذى يسمح لها بأن تحطّ مشطًا فى شعرها. شطفت يديها من الصابون بسرعة، وجففتهما بطرف قميص نومها، الذى لم تخلعه بعد، وجرت إلى المرآة، فوقفت أمامها، وغنّت: «أحبّ عيشة الحرية» فتجلى الصوت من جديد قويًا، نقيًا، واضحًا، كقطعة من الجوهر النفيس. راقبت نفسها، شفتيها، وهما تتراقصان بنشوة، الكلمات المنغمة، عينيها المشعتين بالحماس والفرح، وجنتيها المشرّبتان بحمرة دماء غريبة، خالت أنها تفجّرت من ينابيع خفيّة بجسدها، حاجبيها اللذين يتقابلان وينفرجان فى حركات منظومة ويقودان ملامح الوجه فى تناغم بارع وكأنهما يدان ماهرتان لقائد فرقة موسيقيّة رائعة.

شعرت أنها جميلة، ربما لأول مرّة منذ زمن بعيد. داخلها هذا الشعور مجددًا. توقفت تنظر إلى وجهها، استنكرت إهمالها لحاجبيها وتركهما دون رعاية وتنسيق، وخجلت من اكتشافها لشاربها الخفيف أسفل أنفها، وحزنت لأنها تتجاهل شعرها إلى هذا الحد، ثم أنها شعرت بغضب من نفسها، فلماذا تترك حالها على هذا النحو، بينما هى تمتلك هذا الصوت الجميل الذى يأتى من داخلها. توقّفت. قرّرت: «لكى أغنى مفروض أن أشعر بالجمال، أى والله مفروض».

ـ ٤ ـ

ارتدت سيّدة ملابسها بسرعة، فقد كان عليها، ولابد، أن تنزل للشارع لتشترى

الخضار والعيش قبل رجوع عبدالحميد والعيال إلى البيت، جلبت كل الطلبات، وذهنها مشغول بالموضوع إياه، لم يكن لديها، بالطبع، أية خطة تتعلق بكيف ستغنى ومن أين تبدأ، وكيف ستواجه عبدالحميد بهذا القرار، فكرت فى الذهاب إلى أية صديقة لتبوح لها بالسر، كما تفعل النساء فى الأفلام، لكنها اكتشفت، ولأول مرة فى حياتها، أن ليس لديها صديقة واحدة، إنسانة حميمة، قريبة إلى قلبها، غير أمها وأختها عواطف، اللتين كانتا قد استبعدتهما من البداية، بسبب علمها المسبق بموقفهما، لو حكت لهما الموضوع، وهو السخرية منها، والضحك على كلامها وتحويله لنكتة، ونشرها أمام كل من دخل عليهما من الأقارب؛ فكّرت فى أم حسن جارتها، لكن أم حسن رغم علاقتهما الطيبة جدًا، عمرها، ما كان بينها وبين سيدة أسرار. وشعرت لأول مرة فى حياتها بالحقد على عبدالحميد، لأن له أصحابًا يقعد معهم فى المقهى، وسيّد إسماعيل صاحبه، الروح بالروح، الذى يمكن أن يكون حكى له أسرارًا، عمره ما قالها لها، رغم كونها وليفته وولدت منه أربع بطون.

ظلت انفعالاتها متلونة، بألوان متباينة، حتى وهى تدخل دكان عيسى البقال لتبتاع منه جبنًا ومكرونة وعشر بيضات، ولم يكن عيسى العجوز بحاجة للتدقيق حتى يلاحظ اضطرابها، فسألها: مالك مرتبكة فى الصبح يا ست سيّدة؟.. وقبل أن ترد قرر أنّه يعرف، فالحياة صارت صعبة، والغلاء غول سارح فى كل شىء بلا ضابط أو رابط، بينما الناس تمشى وهى تكلّم أرواحها من الغلب وقصر اليد (طبعًا كان عيسى قد لاحظ أنها تكلم نفسها قليلاً)؛ ثم قال لها ـ وهو البقال القديم الذى يتعاملون معه منذ زمن طويل، وتربطه بهم علاقات جيرة ومودّة ـ أنه عارف أن عبدالحميد يسعى على قدر مستطاعه، ليسدّ طلبات العيال، وأن عليها أن تطّول بالها عليه، غير أنه تعجّب لما وجدها تنفجر باكية، فجأة، وتنشج كمن مات له ميت، فسحبها عيسى من يدها، وأجلسها على كرسى، ثم فتح لها كازوزة وقال لها: روقى واخزى الشيطان.

كان الوقت صباحًا، والدكان لم تؤمه الزبائن بعد، فاقترب الرجل منها هامسًا بجدّ: «حصلت مشكلة بينك وبين عبدالحميد لا قدّر الله؟»، فصعبت عليها نفسها

أكثر، وانتحبت من جديد، فلما استعادت نفسها قالت له: «اسمع يا عمّ عيسى، محتاجة أكلمك فى موضوع، خصوصى، بعض الشىء، بشرط، تحاول تفهمنى ولا تتكلم مع عبد الحميد بشأنه، لأنه حلف يمينًا بالطلاق أن «أكفى على الخبر ماجورًا» وأمتنع عن الكلام مع أى مخلوق بخصوصه».

شعر عم عيسى أن الموضوع خطير فعلاً، وتملكته رغبة لا تقاوم فى سماع سرّ عائلى، يخصّ بعضًا من سكان الشارع. سرت فى روحه متعة المقبل على معرفة نميمة جديدة لابد أن يوظفها سريعًا، فجرّ كرسيًا واقترب منها جالسًا، ليسمع الحكاية دون أن يفوته حرف واحد منها، فقالت كمن يدلى بسرّ رهيب:

- حصل أنّى اكتشفت صوتى.

أخذت تقصّ عليه ما حدث لها، وما كان من كلام بينها وبين عبدالحميد بخصوصه، لم يضحك الرجل، أو ينبس ببنت شفة - ما يقولون فى الكتب - فلما انتهت من حكايتها، وقالت له، وهى تبتسم خجلة، إنها مستعدة لأن تسمعه صوتها الجميل، ليتأكد بنفسه من كلامها، نظر إليها بتمعن مشفق، وقال لها:

- اشربى الكازوزة يا سيّدة!.

لم تشرب الكازوزة، بل أخذت ما اشترته منه، وذهبت، وعندما عاد عبدالحميد بعد الظهر، وأثناء تناولهم للغذاء، قال لها أنه اشترى كبريت، وهو راجع إلى البيت، من دكّان عيسى البقّال، وسيذهب إلى الطبيب عند المساء، ويجب أن ترافقه.

- ٥ -

لما وصلا عيادة الطبيب النفسى، كانت سيّدة مقتنعة بعض الشىء بفكرة زوجها، الذى قال أنه يحبها، ولا يريد إلا مصلحتها ومصلحة الأولاد، وان المرض النفسى مثله مثل أى مرض آخر، ولا عيب فى ذلك، بل وقابل للشفاء، لكن المهم أن يعالج بسرعة، وفى بدايته، وأنها والحمد لله بخير، لكن حكاية الصوت ربما يكون سببها الإرهاق من شغل البيت، أو أى مشكل مخفى جواها ولا تشعر به، لأن داخل كل إنسان بحر وسيع لا قرار له، والنفس سرّها عميق، وسبحانه وحده

العارف بما فى داخل كل ابن آدم، المقصود، الإنسان صعب أن يعرف نفسه يا سيّدة، والطب جهل للظروف الصعبة، ثم إنى يا سيّدة، رغم تعليمى البسيط، مؤمن وموحد بالله، لا أؤمن بحكاية الجنّ والعفاريت، لأن ربنا قال في القرآن: «وجعلنا بينكم وبينهم سدًا منيعًا»، ثم، يا أختى خلينا نجرب، القصد، غرامة عشرة جنيهات من ضمن الفلوس الطيّارة طيران العصافير، ولا عارفين نتحكم بها، لكن يمكن أن يكون فيها الشفاء بإذن الله، وكل شىء يرجع لطبيعته، وتستريحى، ثم إنك الصبح قلت لعيسى البقّال، لكن بكرة أو بعده، يمكن، غصبًا عنك، أن تقولى لغيره، أو يحصل شىء يخلّى صورتنا قدّام الناس مسخرة، ويطلع عليك كلام، بدون داع، وأنا، يا سيدة، لولا أنى باق عليك، وعلى العيال كنت صهينت على الموضوع، وسكتّ، لكنّك عارفة بمعزّتك عندى، لأنك أمّ أولادى وشريكة عمرى.

دخلا مكتب الطبيب، وجلسا، وبدا لها الرجل الذى سألها عن مشكلتها، متبرمًا، ومتأففًا، وقلقًا، وفى عجلة من أمره، فبدأ عبدالحميد، يحكى له القصّة باختصار، لكن الطبيب طلب منه، وهو ينقر بقلمه على زجاج مكتبه، أن يتركها تحكى، فقالت سيّدة كل ما عندها منذ اللحظة الأولى لدخولها الحمام، وحتى حديثها مع عيسى البقال، فلما أكملت، وهى التى لاحظت أن الرجل استمع إليها باهتمام دون مقاطعة، سألته، وهى تبتسم مسرورة، لشعورها بأنه تفهم موقفها:

ـ ممكن، أسمعك غنوة صغيرة، يادكتور؟.

لم يظهر أى تعبير بالاهتمام على ملامح الطبيب، الذى يبدو أنه اعتاد مثل هذه الأشياء، لم يبتسم، لم يكشّر، لم يردّ. فقط، كتب كلمات بلغة أجنبية فى ورقة، ثم أعطاها للزوج وقال له: ثلاث حبات يوميًا من النوع الأول، بعد كل وجبة، وحبّة كلّ مساء قبل النوم، ثم التفت إلى سيدة قائلاً: ابتعدى عن أى شىء يسبب لك التوتر، ولا تبقى بمفردك أبدًا، أديرى المذياع وأنت فى الحمام، كلى جيدًا، ولكن حاولى أن تمشى وتنقصى وزنك لأنك سمينة، ودوامى على الدواء، وعندما تشعرين أنك متضايقة، وحالتك سيئة، تعالى بسرعة إلى العيادة؛ ثم وقف ومد يده إليها قائلاً:

ـ أهلاً.

- ٦ -

خرجوا كعادتهم، وبقيت هى، وحيدة فى البيت، قامت متكاسلة دون حماس تلمّ صحون ما بعد الإفطار، التهمت ما تبقّى من طعام، فى الأطباق، وهى تقول لروحها كالعادة: «حرام أن أرمى لقمتى الفول فى الزبالة، وفتات الجبن لا يستحق أن أبقى الطبق له» ثم أنها أعدّت لنفسها كوبًا من الشاى، راحت ترتشفه مع قضمات من كعكة جافة بقيت وحيدة على طاولة الطعام، فلما شعرت بالامتلاء الزائد قامت تجرجر جسمها لترتب الحجرات وتكنسها.

وبينما هى فى حجرة النوم، وجدت نفسها وجهًا لوجه، أمام المرآة، تأملت نفسها فى قميص النوم: وجه أصفر شاحب، رغم امتلائه، ونظرات بلا حيوية، وملامح بلا تعبير، كمن غابت عنه الحياة، استجمعت نفسها، وحاولت أن تغنى «يا حلاوة الدنيا يا حلاوة»، جاهدت، لم يخرج صوتها أبدًا، تنحنحت، جربت «أحبّ عيشة الحرية»، لكن هيهات أن يأتى الصوت الذى انحبس فى حلقها، وكأن فلينة هائلة قد سدّته بإحكام، راحت تتنحنح أكثر، أخيرًا قررت أن تقول شيئًا آخر «ياليل، ياعين»، فاجأها صوتها القديم، الذى عرفته منذ أن وعت الحياة، صوتها هى، مبحوحًا، ضعيفًا، يخلو من كل جمال وصفاء وقوة، تأملت نفسها مرة أخرى، كان وجهها هو الوجه الماضى، الوجه الذى عرفته من زمان، ابتسمت بمرارة، وهزت رأسها بأسف، ثم أنها حملت علبتى الدواء لتفرغهما فى المرحاض.

• عن الروح التي سُرقت تدريجيًا •

يوم حريق الأوبرا المصرية، على وجه التحديد، تزوج شاكر من سامية جارته في الشارع، وزميلته في المدرسة الابتدائية المشتركة عندما كان تلميذًا صغيرًا؛ ورغم أن خبر الحريق، الذي تلقاه قبل زفافه بساعات لم يؤثر في أحد من المدعوين، إلا أن شاكر تكدّر قليلاً، وشعر بحزن داخلي قلل من ابتهاجه بهذا الحادث الخطير في حياته، لأنه كان يحب سامية بالفعل، وينتظر اللحظات التي تصبح فيها زوجة له، يجمعها سقف بيت واحد، حتى آخر لحظات العمر.

ولعل سبب حزن شاكر، كونه يختلف قليلاً عن معظم ضيوف فرحه، فهو محب للثقافة، متذوق للفنون، التي شاهد بعضها على مسرح الأوبرا ذاتها، ناهيك أنه كان يحب المبنى ذاته، ويشعر بالفخر لأنه أتيح له أن يجلس على مقاعده المخملية الوثيرة، وأن يسير على أرضه الخشبية المكسوة بالسجاد الثمين، وهو الشيء الذي لم يكن متاحًا لأمثاله من قبل، يوم كان يُطلَقُ على ذلك المبنى «دار الأوبرا الملكية»، ثم إن حزنه زاد عندما فكّر: أليس ذلك المبنى شاهدًا على أحداث وأزمان مضت؟، أليس من الخسارة تركه يغيب عنا على هذا النحو المؤسف ولسبب غير مفهوم؟!.

ورغم أن شاكر لم يكن من المتطيرين أبدًا، ولم يؤمن قطّ بالأقدار والمصادفات، إلا أن إحساسًا خفيًا، ظل يلازمه دومًا، ولسنوات طويلة، امتدت حتى الآن، بأن هناك ارتباطًا بين ذلك الحدث، وصيرورة الحياة التي يعيشها بعد ذلك اليوم، علمًا بأن علاقته بسامية ظلت طوال الوقت، ومنذ اللحظة الأولى لدخولها بيته،

الذى هو فى الحقيقة بيت أمه الأرملة، علاقة طيبة حميمة، فسامية سرعان ما خبرت عاداته، وأسلوبه فى الحياة، المتمثل فى الهدوء والنظام، وتمضية الأوقات بعد انتهاء العمل فى متع إنسانية راقية، كالذهاب إلى السينما، إن وجد فيلم جيد، أو المسرح عندما تعرض أعمال أدبية يؤديها ممثلون ممتازون، أما الأمسيات فكانت القراءة هى طقس شاكر الليلى، الذى سرعان ما اعتادته سامية، وشيئًا، فشيئًا أخذت تشارك فيه، متخلية عن قراءة المجلات السيارة والقصص العاطفية المسلية، لتلج عالم الكتب الوسيع، وشاكر يساعدها على التقبل، والتمعن، والاستمتاع، ولم تمض شهور قليلة، إلا وكان الكتاب رفيقًا دائمًا لهما معًا فى ساعات ما قبل النوم.

فى الفترة الأولى للزواج، وضع شاكر خطة لسنوات عمرهما المقبلة، على ضوء الزيادة المتوقعة فى راتبيهما، بحيث يعيشان، فى يسر، ويدّخران جزءًا من النقود، لمواجهة أى طارئ قد يطرأ على حياتهما، عبر الزمان، وكانا حتى ذلك الوقت يترددان على دور السينما كثيرًا. أحيانًا أكثر من مرة فى الأسبوع، إذا ما تصادف وجود أكثر من فيلم جيد، كما أنهما شاهدا عديدًا من المسرحيات الجميلة، وكان هذا يجعلهما يعودان لمنزلهما وهما فى قمة الانبساط والرضا، وفى الصباح، كانا يقبلان على عملهما الوظيفى وهما فى غاية الانشراح، حتى أن سامية كانت تتحمل سخافات الجمهور، فى المصلحة الحكومية، دون توتر أو ضيق، أما شاكر فكان ـ عادة ـ يحكى لزملائه فى الإدارة ما شاهده بالأمس، مبديًا وجهة نظره فى الفيلم أو المسرحية، فتثار نقاشات تتفرع وتمتد، ويشارك فيها، حتى حسن الفراش خلال تقديمه المشروبات الساخنة والباردة لهم.

وفى أمسيات أخرى لا تنسى، كانت سامية تقوم برىّ النباتات والزهور الموضوعة فى الأصص بالشرفة، أو تداعب قطهما، كان شاكر يفاجئها وفى يده تذاكر لحفل موسيقى، أو فرقة راقصة، ويطالبها بارتداء ملابسها سريعًا، لأنهما سيمرّان، قبل الحفل، على صديقيهما فريد وخطيبته نجوى. كان ذلك يتكرر عادة، فيذهب الأربعة لمشاهدة فرقة فنون شعبية، أو للاستماع إلى مجموعة موسيقية زائرة، يخرجون بعدها إلى أحد محلات وسط البلد، فيحتسون

شيكولاته مثلجة، أو قهوة لذيذة ساخنة، وفقًا لطقس الأيام. وقتذاك، كانت سامية تبدو دومًا مرتدية ثيابًا بسيطة، وبوجه متجمل بأقل مساحيق ممكنة، أما نجوى التى كان فريد يهيم بها منذ أيام الجامعة، فغالبًا ما كانت تُدخِلُ نفسها فى بنطال داكن، وتنتعل حذاء بلا كعب تقريبًا، فتبدو جذابة جدًا، بلمعة الذكاء فى عينيها، وشعرها الناعم، الملموم على هيئة ذيل فرس، يهتز مع حركة رأسها العصبية، معبرًا بذلك عن جانب من شخصيتها الصريحة الواضحة كانت هذه العادات البسيطة تبدو فى عين شاكر كمسرّات أبدية، لا يمكن أن تزول أبدًا، مسرّات تجعله يصيغ لنفسه، كلما اختلى بها، تعريفًا بسيطًا للسعادة: امرأة إلى جانبك، تبادلك الحب والمودة، وصديق مخلص، يشاركك الأفراح والأتراح. وماذا يتبقى أيضًا؟. إمتاع الروح والنفس بمباهج سامية تعبر العقل إلى القلب.

كانت الأيام تمرّ، وشعور يتزايد لدى شاكر بأن السعادة والفرح يتقلصان من حياته شيئًا فشيئًا، كان يشعر بأن هناك محاولات خفيّة تجرى لسرقة اللحظات الجميلة فى الحياة، دون أن يدرك سبب ذلك، وكلما تزايد لديه هذا الشعور، كان يتذكر دار الأوبرا على الفور. مرة، تشاجر مع سائق سيّارة أجرة، أصر على إسماعه أغنيات مبتذلة الكلمات والموسيقى، عبر شريط مسجّل، طوال الطريق، كذلك، لازمته عادة تحسس ربطة عنقه بيده، ومحاولة توسيع عقدتها، كلما تطلع إلى بنايات ضخمة جديدة، تشيّد فى المدينة؛ أما قلقه على نفسه، فقد أخذ فى التزايد كلما شعر بحنين غريب إلى النوم، أسفل شجرة مورقة لم يعد يلتقيها فى طريقه إلى عمله؛ الأكثر من هذا، هو أن فترات خروجه مع سامية صارت متباعدة، أما فريد ونجوى، فربما مضت شهور دون أن يلتقى بهما، أو حتى يسمع صوتهما عبر التليفون، لأن مشكلة الحصول على شقّة يتزوجان فيها، جعلت فريدًا مضطرًا للعمل إثنى عشر ساعة يوميًا، فى وظيفتين مختلفتين، ورغم أن شاكر يحسب من الأذكياء، إلا أنه لم ينتبه إلى تسرب أشياء كثيرة، واختفائها من حياته؛ ربما كانت عادات، أو مواقف وكلمات، فهو لم يعد يبتاع الزهور من الباعة العابرين بالطرقات، واختفت من حياته عادة التنزه وقت الغروب بجانب النهر، ثم أنه لم ينتبه إلى اختفاء الأعياد التى كانت تملأ أيام السنة، حتى أنه عندما كان

يقلّب، بالصدفة، أوراق مفكرة قديمة، فيقرأ عيد العلم، أو عيد الجلاء، كان يكتفى بالتنهد، ويستمر باحثًا عن عنوان طبيب، أو هاتف زميل قديم فى العمل.

أيضًا، تبدلت عادة الذهاب إلى السينما، بعادة جديدة لشاكر وسامية: الجلوس أمام التليفزيون مساء كل يوم، والفرجة على أى شىء، وكل شىء.

فى إحدى المرات، وبينما كانا يشاهدان فيلمًا من خلال ذلك الجهاز الصغير، قالت سامية لشاكر: «ياه، المشهد نفسه شفته فى فيلم زمان، فاكر؟!». وقتها لم يتذكر شاكر ـ المهتم بالثقافة بعض الشىء، وبالسينما كثيرًا ـ اسم الفيلم الذى تعنيه سامية، لكن ذلك كان مناسبة أثارت فى روحه ذكريات جميلة، تتعلق بالسينما؛ طقوس الدخول إليها بالهندام المنسق، والاستقبال المهذب للعامل الذى يدل المتفرجين على أماكن جلوسهم، بينما روائح عطور النساء، فى مقاعد الدرجة الأولى، تهبّ بسخاء فى أنحاء القاعة، وعندما يتذكر ذلك، كان الحنين يأخذ شاكر بعيدًا، فيقترب من سامية، ويطوقها بذراعيه فى رقّة، بينما تعبر روحه ذكرى قبلة قديمة تبادلاها بعد إطفاء الأنوار، عندئذ يقول لها هامسًا: تعالى نروح السينما بكرة.

لكنهما لم يذهبا أبدًا.

... فعندما يأتى بكرة، وإذ هما يحتسيان شاى ما بعد الغداء، تفتح سامية الجريدة، وتتصفحها، بحثًا عن فيلم معقول بين الأفلام المعلن عنها، وتبدأ فى القراءة، تجد عناوين مثل «موعد القتلة»، «التنين الدامى»، «وكر الأشرار»، فتسارع بإلقاء الجريدة، وتزفر قائلة: «أفلام زفت»، ويسود صمت، لا يسمع خلاله إلا رشفات الشاى. أحيانًا، يكون هناك فيلم معقول فتقول لشاكر: «نروح حفلة تسعة»، لكنه يعترض، ويقترح تأجيلها لليوم التالى، بدلاً من انتظار الأتوبيس فى وقت متأخر عند الخروج، وحضور حفلة الساعة الثالثة بعد خروجهما من العمل مباشرة، عندئذ تبتسم سامية موافقة، وتتنهد برضا، سرعان ما يزول، إذ يصرخ شاكر بعد قليل: «يا خبر، السبّاك ميعاده بكرة الساعة أربعة لتركيب ماسورة الحمام الجديدة». أو «ياه، لازم، أروح الجمعية، أشترى اللحم قبل ما يخلص، بكرة

الخميس». أحيانًا، تكون سامية مبعث الاعتراض: «صعب أن نروح بكرة، لازم استلم كستور البطاقة، وإلا يروح علينا»، أحيانًا لا تكون هناك مواعيد ولا عقبات، ولا مشاوير ضرورية بديلة، فقط يكونان فى آخر الشهر.

تطوى الأيام بعضها. يخبو الحماس للسينما، مثلما يخبو بالنسبة لكل الأشياء الأخرى المماثلة: «ياه، الدنيا برد!»، «معقول؟! نخرج وننتظر المواصلات ساعة؟!..» معقول؟! تذكرة لفرقة شعبية بخمسة جنيهات؟! يعملوها فى الشيراتون أحسن!»، «مجموعة قصص بثلاثة جنيهات؟!، اشتريت من السور، زمان، عشرين كتابًا بجنيهين!». كان شاكر يردد العبارة الأخيرة، وهو يتحسر على سور الأزبكية، فقد ظل السياج الحديدى القديم المحيط بحديقة الأزبكية جزءًا من روحه وتاريخه الخاص، كان قد ألف ذلك المكان منذ كان طالبًا شابًا، لم يتخرج من الجامعة بعد، يتردد عليه بين الحين والحين، باحثًا فى أكوام الكتب الموضوعة عليه، عن كتاب جيد، زهيد الثمن، يُمضى معه ليلته، داخلاً عوالم أخرى مبهرة، عبر الكلمات والسطور، وعندما أنهى دراسته، وعُيّن فى الحكومة، كان عليه أن يعبر السور مرتين كل يوم، فى الصباح، وبعد الظهر، حيث يخترق الطريق من وإلى بيته الكائن فى الحى القريب من وسط البلد، ورغم أن شاكر مازال فى عز شبابه، إلا أن تحول كل الأشياء الجميلة على نحو سريع، لتصبح ذكريات، جعله محملاً دومًا بمشاعر شيخ أرهقته السنون، وسور الأزبكية أحد تلك الذكريات، ففى مواجهته، كان مبنى دار الأوبرا، الأبيض البديع، وكان المرء، عندما يقف مقلّبًا فى كتاب من الكتب الكثيرة المتراصة فوق بعضها، يستطيع أن يرى بوضوح تمثال ابراهيم باشا راكبًا على فرسه، فيتجسد شعور بأن ثمة ماضٍ كان هنا، وثمة تاريخ يمضى ويتواصل عبر الزمان، ورغم أن ذلك السور، طالما خبأ خلفه عالم الأزبكية السفلى، بكل ما يضمّه من لصوص، ومتسولين، وقوادين، بالإضافة إلى عشّاق القاع، صانعى قصص الغرام المستحيلة، والذين لا يملكون إلا الجلوس على مقعد حجرى متشابكى الأيدى، إلا أن شاكر كان يحبه، مثلما يحب أى شىء آخر فى هذه المدينة، فهو وجه من وجوهها السرية الغريبة المتعددة، التى لا تكشف عن

نفسها، إلا كلما أوغل المرء فيها. ساعيًا لتحسس ملامحها، والغوص فى أعماقها، فتقدم وجهها مستورًا، مبهرًا بتناقضاته، وعذوبته الإنسانية الخاصة.

ومثلما تقلص كمُّ الكتب على السور، واحتلت أماكنها اللوحات الفجّة، والصور الملونة السخيفة، وكل الأشياء الأخرى التى تفسد الروح، تناقصت الكتب أيضًا فى بيت شاكر، حتى الصحف والمجلات أصابتها سهام التغيير، فجريدة واحدة «كفاية، كل يوم»، مجلة فى الأسبوع «معقول جدًا»، وبمرور الأيام، انضم شاكر لآلاف القراء المتسببين فى انخفاض أرقام توزيع الصحف والمجلات فى السنين الأخيرة، أما صلته بالسينما والمسرح، فقد باتت مقطوعة تقريبًا، بينما أصبح مشدودًا بخيوط قوية غير مرئية إلى جهاز وحيد، صغير اسمه التليفزيون.

خلال ذلك، كان كرش صغير يبرز شيئًا فشيئًا لشاكر، أما سامية، فقد تفلطح جسمها، وبات كتلة واحدة، بلا حدود أو تخوم، وعندما كانت تُشاهد فى الطريق، كانت تبدو، مثلما الجميع حولها، بشعر كالح مترب، وحذاء وسخ بلا لمعان، وبمرور الوقت. صارت تغطّى شعرها بإيشارب صغير، تحول، فى النهاية، إلى طرحة، تغلف رأسها ورقبتها، حيث كانت عدوى الملابس الطويلة، وتغطية الرأس، تنتشر انتشارًا، لا يعادله إلا انتشار وباء الكوليرا سنة ١٩٤٧، وقد قالت سامية لشاكر، وهى تضحك، عندما رآها لأول مرة فى حياته على هذا النحو، حيث بدا الحجم الحقيقى لأنفها الكبير، وسط ملامح وجهها، واضحًا:

«أحسن. بدل الفلوس المرمية فى قص الشعر وتوضيبه».

وبفضل إعلانات التليفزيون اليومية، ناضل شاكر وسامية للحصول على ثلاجة، وموقد غاز بفرن وشعلات أربع، وغسالة، وخلاط، وأدوات كهربية وغير كهربية أخرى «لا غنى عنها فى البيت الحديث»، مثلما كانت الإعلانات تقول دومًا.

كما أنهما فرشا الشقّة كلها بالموكيت، وقد كلفهما ذلك كثيرًا، لكن بفضل الخطط المالية الدقيقة، والجمعيات المقتطعة من الرواتب، مع الزملاء، فى المصلحة، والتى تحقق سيولة لأعضائها، مرة واحدة فى العام، وفوق ذلك كله،

نظام التقسيط بالفوائد، بفضل ذلك كله، استطاع الزوجان، الموفقان، شراء أشياء كثيرة، وإحداث تعديلات فى معمار البيت أيضًا، حيث ارتأيا أنه من الأفضل إقفال الشرفة بحوائط زجاجية، ذات إطارات معدنية. كان ذلك يعنى فى الواقع: وداعًا يافل، ياريحان، والكلمة نفسها تصح على القط الأليف، الذى طالما جرت مداعبته بأطراف الخيط «لأنه لا وقت لخدمته، ولا مجال لتحمل مصاريف أكله».

ستائر البيت القديمة تغيرت، أيضًا، بما يتناسب مع لون الموكيت، وكل الأشياء الأخرى الجديدة، وهذه الستائر تختلف كلّية عن ستائر من نوع آخر، لم يستطع المسكين شاكر أن يراها أبدًا، كانت ستائر من نوع خاص، تزداد كثافتها يومًا بعد آخر، فتحول بينه وبين سامية، فكانا يختلفان كثيرًا، يشعران بضغوط فظيعة تثقل كاهلهما، لا يعرفان من أين تأتى المشكلات، وما سببها، وعندما ينفجر أحدهما أحيانًا، ويتشاجران، تنتهى المسألة بعد قليل بصلح لابدّ منه، حيث تستمر الحياة، فوق الموكيت، مع الأجهزة، خلف الستائر، أمام البيوت العصرية فى مسلسلات التليفزيون.

قالت: نقفل الشبّاك أحسن. قمت وضغطت بأصابعى على الزرّين الضاغطين بالإطار الحديدى، لكن الشبّاك الزجاجى لم ينزل إلا قليلاً، وكان الحائل الخشبى معطلاً؛ لذلك غطّت المرأة الطفل بطرحتها، وهى تنظر إليه وتتنهّد، فقلت لها: تعالى مكانى لأن الهواء سيصبح شديداً عليه عندما ينطلق القطار. تبادلنا مواقعنا بسرعة، ولاحظت أن الشرطى، صغير السن، الجالس بجوارى، قد بدأ ينام بعد أن ظل لفترة يحاول قراءة اللوحة المعدنية الخاصة بتعليمات الخطر، والتى كانت مثبّتة فى مواجهته بالقطار.

ما كدنا نستقرّ فى مكانينا الجديدين المتقابلين، إلا وكانوا قد أعلنوا، عبر إذاعة المحطّة، أن القطار الذى نركبه قد تعطّل، وأن الآخر الموجود على الرصيف المقابل هو الذى سيغادر الآن. نبّهت المرأة إلى ذلك، فسحبت ثديها من فم الرضيع، الذى كان قد بدأ يرضع، وأسقطت لحمها فى جلبابها، وقامت حاملة الطفل، ثم نادت الشرطى، وهزّته من كتفه ليقوم، وقالت أنهم أولاد حرام، ولعنت جدودهم، وفهمت وأنا آخذ منها السلّة لأحملها، أنها تقصد الحكومة، والمسئولين فى السكة الحديد، ثم أننا جرينا بعدما نزلنا من القطار، حتى الرصيف الثانى، فوجدنا أن الناس نزلوا مثلنا من القطار الأول، وتسابقوا للركوب فى القطار الآخر، حتى أننى، لما صعدنا إليه، وجدت مقعداً فارغًا بصعوبة، فقلت لها: اقعدى أنت بسرعة، وأنا أبقى واقفة هنا. ثم أنى أقفلت الشبّاك الخشبى لأسند ظهرى إليه، وبقيت واقفة، أنظر للناس والشوارع والبيوت، التى تتلاحق مناظرها من الشبابيك المفتوحة، بالجانب الآخر من القطار، ورحت أفكر فى المجلة، ومدير

التحرير، الذى قابلته، ويوم الإجازة، الذى حصلت عليه بصعوبة من عملى، وانقضائه فى المواصلات والبحث عن مكان المجلّة، الذى كنت لا أعرفه، ورحت أستعيد أيضًا المشاهد التى رأيتها منذ الصباح حتى الآن، وصورة رأس مدير التحرير، الصغيرة، بالنسبة لجسمه الضخم، وقلت لنفسى، وأنا أتنهّد: والله بلد جهنّمية فعلاً.

كان الباعة والشحاذون قد بدأوا يتوافدون، مُلقين بلفافات الحلوى الصغيرة، وأنواع من اللبان الردىء على أفخاذ الجالسين، معلنين عن بضاعتهم الرخيصة بأصوات وقحة وأناشيد سخيفة، فحمدتُ الله على كونى واقفة، رغم ضيقى الشديد من الشاب الجالس بجوار المرأة، التى حَمَلتُ عنها السلّة، والذى كان يرفع رأسه، بين الحين والحين، عن المجلة التى يطالعها، وينظر متلصصًا إلى نصفى الأسفل، الذى كان بمستوى ناظريه، وكنت، فى كل مرة يفعل فيها ذلك، أبدّل من وضع وقفتى، وأتكئ على قدم بدلاً من الأخرى، ولما نظرت لوجهه، كان متعرقًا قليلاً، رغم أن الجوّ لم يكن حارًا، وبدت بعض البثور متناثرة على جبهته ووجنتيه، فشعرت بضيق أكثر من منظره، واقترحت على نفسى النظر إليه فى غضب حتى يكفّ، لكنه ظل ينظر وينظر، حتى اكتشف فجأة أن محطّته قد جاءت، فهبّ واقفًا لينزل، فسارعت المرأة باحتلال مكانه، لأجلس مكانها، بينما مرقت بنت صغيرة، ووقفت مكانى، بعد أن ظلّت، لفترة واقفة تتأرجح، وكانت المعاناة، على وجهها واضحة، فسحبتها المرأة من يدها، وأفسحت لها مكانًا بيننا على المقعد، ثم تصعبت، وهى تربت على الصغيرة، قائلة: والله الرحمة انقطعت من قلوب الناس. قلت لها: الناس كلها معنورة، وأرواحها صارت فى مناخيرها، لأن كل واحد راجع من مشوار، ومحتاج أن يرمى نفسه على كرسىّ ويرتاح. فتطلّع الناس نحوى قليلاً، وكان المحصل قد جاء وطلب التذاكر، وكنت أفكر، وأنا أعطيه التذكرة، فى أنى قد صرفت جنيهين تقريبًا خلال المشوار، لأنى اضطررت لركوب تاكسى حتى أصل مبكّرة وأستطيع مقابلة مدير التحرير، وكذلك دفعت أربعين قرشًا ثمنًا لشاى وساندوتش فى كافيتريا المجلة، ورغم ذلك لم يأت الرجل إلا فى العاشرة والنصف، وظل مشغولاً بمكالمات تليفونية، لفترة طويلة من الوقت، وأخيرًا رحب

بى، وهو يشعل سيجارة، ويتأملنى، ثم قال أنه سمع باسمى من شخص نسى اسمه، لكنه لم يقرأ لى شيئًا من قبل، فقلت له إنى فضلت أن أقدم له القصيدة بنفسى، لأنى خشيت ضياعها فِى البريد، كما يحدث كثيرًا، أو أن تتوه بين الخطابات الكثيرة التى تصل المجلة، وأخبرته أيضًا أنى قررت نشرها، لأن أناسًا كثيرين قالوا لى إن مستواى معقول، وممكن أن أكون شاعرة لها قيمتها، ثم سألته، وأنا أقدمها له، إذا كان يظن أن أحدًا يقرأ الشعر هذه الأيام.

قال المحصّل أنه لا يجد معه باقى ربع جنيه الآن، وأن من الأفضل إعطاءه فكه، ولما لم يكن معى ماطلب، أفهمته أننى سآخذ منه ما تبقى لى عندما يدور على بقّية الركّاب، ويفكّ، وكنت أعرف أنه سوف يصهين على المتبقّى لديه، من الفلوس، وأنه سيأخذهم لنفسه، وكنت أشعر بقرف ودوخة، وبصعوبة الحياة فى هذه الأيام، وكانت الصورة قد بدأت تهتز أمامى، وأصوات جلبة البائعين والركاب تخفت فى مسمعى، فأغمضت جفنى، بينما خدر لذيذ يجول فى أوصالى، وصوت هزّة القطار الرتيبة تختلط بمصمصة شفتى المرأة، التى بجوارى، وتنهداتها. وكان شىء بداخلى يترنّم على ذلك الإيقاع المختلط قائلاً: لا شىء يستحق... لا شىء يستحق.

تمنيت أن يستمر القطار فى المسير إلى ما لا نهاية، وأن تسرى هذه اللحظات فى مدى الزمان، فلا شىء يستحق. لا شىء يستحق، حتى أننى خففت قليلاً من قبضة يدى المضمومة على لا شىء، وبدأت تظهر داخل عينى المغمضتين نافورة مياه بديعة جدًا، تطلق رشاشات قصيرة من مائها، إلى أعلى، مشكّلة أقواسًا متقاطعة عندما تعاود السقوط فى البحيرة الرخامية المحيطة بالنافورة، وحاولت أن أستعيد هذه الصورة عدة مرات، حيث كانت هذه عادتى قبل الاستغراق فى النوم، حينما تتوارد الصور فى مخيّلتى عادة، فإذا كانت جميلة، تعجبنى، استعدتها مرارًا فى محاولة لتثبيتها والتمكّن منها، أما إذا جاءتنى غريبة موحشة، على هيئة وجوه وشخوص كئيبة، فإنى أفتح عينّى، سريعًا، محاولة الفكاك منها بالنظر إلى شىء، فى متناول النظر، لأتشبث بصورته عندما أغلق جفنّى مرة أخرى، غير أنّ النافورة كانت قد أخذت تتألق بألوان حمراء وخضراء وزرقاء،

شفافة ومبهجة، فتساءلت، كما أعتقدت أن أفعل، وأنا أحاصر الصورة بمخيلتى: أين رأيت هذه النافورة ياربّ من قبل؟.

خمّنتُ أن تكون نافورة ميدان التحرير، أيام زمان، واستعدت فى ذهنى صورة هذه النافورة المتألقّة، التى كنت أراها حينما كانت أمى تأخذنى وإخوتى الصغار للفسحة والتسرية، فى ليالى الصيف الحارّة، فنجرى ونلعب حولها، وأمى، تناولنا لقمات الخبز بالجبن لننتعشى؛ لكنى تذكرت، بسرعة، أن نافورة ميدان التحرير كانت كبيرة، تطلق الماء عاليًا، بحيث تُمكنُ رؤيته من بعيد، فسألت نفسى، مرّة أخرى، عن هذه النافورة، التى أراها، ثم مددت رأسى تحت رشاشات الماء ليغمرنى، والترنيمة مستمرة على مداها، لا شىء يستحق.. لا شىء يستحق. لا شىء يستحق. ثم أنى أفقت على صوت المحصّل وهو يقول أنه لم يجد معه إلا عشرة قروش، ويبقى لى عنده خمسة قروش، سيعطيها لى، عندما يعود مرة أخرى، وكنت أعرف أنه يكذب، مثلما يفعل المحصّلون دومًا، فَبقيت الفلوس فى يدى، ولم أعدها للحقيبة مرة أخرى، وقلت لنفسى: أنام مرة ثانية، وأغمضت عينى فعلاً، لكن الطفل الصغير كان قد أخذ فى البكاء لسبب ما، ففكرت فى كلام مدير التحرير معى، ورأيه فى أن الناس تفضل الشعر العاطفى، هذه الأيام، لأنها ملّت الشعارات والهتافات والكذب، وأن ذلك النوع من الشعر هو الذى يمكن أن يعيش ويستمر على مدى الزمان، ثم سألنى إن كنت أتذكر أية قصيدة من أيام حرب بورسعيد، مثلما أتذكر قصيدة بانت سعاد فقلبى اليوم متبول؛ فاكتفيت بالابتسام الخفيف، كعادتى عندما أجد أن الكلام ليس له معنى، فتهيمن داخلى قوّة خفيّة، تلجمنى، وتخرسنى عن الكلام، وتجعلنى غير راغبة فى قول شىء أو فعل أى شىء، وكنت أعرف، ساعتها، أنى أستطيع مجادلته، والرد عليه، لأنى أحفظ أشعارًا حماسيّة كثيرة، وأن بانت سعاد كانت مقرّرة علينا فى المدرسة، كذلك كنت أفكر فيما قاله عن قصيدتى، التى كان عنوانها «النهر بحرى والنجوم نهارى» من أنه يمكن أن ينشرها، لأن مستواها الفنى معقول، لكنه لا يحبّذ موضوعها، لأنه محدود، بعض الشىء، وهو لا يحبّ الشعر الغامض أيضًا، ولم أردّ كذلك؛ وحاولت أن أتمثل، الذى يقصده بكلمة «محدود» فى عينى المغلقتين، لكنى

شعرت بشيء بضّ يخبط على فخذى، ففتحت عينّى لأجد البنت الصغيرة قد ذهبت من جوارى، والمرأة تُرقِدُ الطفل فى حجرها، ورجليه، الصغيرتين، العاريتين، تستقرّان على فخذىّ، فداعبتُ قدمه الصغيرة، القلقة، بأناملى، وقلت لها: يمكن محتاج أن يرضع. فقالت لى: أنه شبعان، لكنه متضايق، لأنه مبلل وعاملها على نفسه. ثم راحت تلاعبه، وهى تضحك قائلة: أسكت يا وسخ، يا معفن.

قمت، بسرعة، من مكانى، لأنى لمحت إعلان الجوارب الرجالية، وبجواره النخلة ذات الجذع الخالى من الفروع، فعرفت أن المحطّة قريبة، وبينما أنا أزاحم لأصل باب النزول، داس رجلى واحد من الواقفين، فقلت له بغضب، وأنا أتألم: حاسب يا أخى. وكان ذلك الرجل يدخّن، وينفث الدخان فى قفا الشخص الواقف أمامه، فلم يردّ، ولما ابتعدت عنه قال: «عاملة نفسها واحدة»، ففكرت أن أعود إليه وأردّ على كلامه، لكن القطار كان قد دخل المحطة، وأوشك على التوقّف، وكنت وقتها، أفكر فى كلام رئيس التحرير، الذى يكتب الروايات، ويظهر من حين لآخر فى برامج التليفزيون، والذى قال لى: إن الموهبة لا تكفى، فالاتصالات والعلاقات، والإصرار على النشر مهم جداً، وأنت واحدة، يعنى ممكن تستفيدى جداً من هذا الوضع. كنت أشعر وقتها أن الحياة صعبة جداً، وأنى فى حاجة للاستحمام بمجرد وصولى إلى البيت.

كانت الأشياء تبدو باهتة، بلا تألق فى عينيها، البنايات القديمة المتربة، والوجوه السائرة المتعبة، بنظراتها الكسولة المنكسرة، التى تطالعها بين الحين والحين، بينما رائحة عوادم السيّارات تعبق أنفاسها، طوال الطريق، وتزيد إحساسها بالغثيان والصداع، اللذين ظلا يلحان عليها إلحاحًا دؤوبًا، مثلما أخذ يفعل الجوع فى أحشائها، مما دفعها لأن تفكّر فى العودة إلى البيت، مع أنها لم تجد شيئًا مناسبًا تشتريه، رغم كلّ الساعات التى أمضتها، فى المشى والفرجة على المحلات، منذ أن انتهت من عملها فيما بعد الظهيرة. زفرت وفكّرت أنها لو كان معها مزيد من الفلوس، لخفف ذلك من صعوبة المشكلة، لكنّها يجب أن تكون مدققةً فى الاختيار، مقلّبةً للأمر من كافة جوانبه، فهى لا يمكن أن تغامر وتشترى شيئًا، ربّما اكتشفت كونه غير ملائم بعد ذلك، أو أنه ردىء الصنع، فتندم، وتتأسف، لأنها بددت جنيهاتها فيما لا يفيد، لمحت محلاً آخر بينما هى سائرة، توقفت أمامه، بحركة لا شعورية، وراحت تتطلّع إلى واجهته الزجاجية المنسقة، بنظرات فاحصة؛ كان ثمّة شىء معقول يمكن أن تشتريه، فولجت إلى داخل المحل لتجرّب مرّة أخرى، فلربّما نجحت فى ابتياع شىء مناسب، هذه المرّة، قبل العودة إلى البيت.

اقتربت من عامل عجوز منهمك فى البيع لامرأتين محجّبتين، تحاول إحداهما حشر قدمها فى حذاء ذى كعب عالٍ لامع، مؤكدة أنه لا يمكن أن يكون بالمقاس الذى طلبته، والرجل يجادلها، بينما راحت الأخرى تقلّب فى مجموعة من

الأحذية، الموضوعة على الأرض، مقترحة شراء عدد منها. نظرت إلى المرأتين بضيق، ونادت البائع:

ـ من فضلك.

لم يردّ عليها، بينما جاءها آخر، عارضًا خدماته عليها، فأشارت إلى حذاء بسيط، ذى لون أحمر قانٍ، بعد أن أخبرته بمقاس قدمها، ثم أردفت بصوت خفيض:

ـ لكن، أسود لو سمحت.

هزّ البائع رأسه معلنًا أنه لا أسود من هذا الطراز، وقال لها أن ثمّة أبيض، وأزرق وأحمر فقط، ثم أشار عليها باختيار آخر، فخرجت مرّة أخرى إلى الواجهة الزجاجيّة، لتتأمل ما بها من جديد؛ كانت كميّة من الأحذية، زاهية الألوان، تتوزّع بين الأحذية البيضاء، ذات الكعوب متباينة الارتفاعات؛ أسقط فى يدها، وكانت تجتاحها رغبة عارمة فى شراء حذاء جديد قبل العودة إلى البيت؛ عادت للرجل مرّة أخرى، وسألته أن يريها شيئًا بسيطًا، بلا كعب فأومأ إليها بالجلوس لتستريح، وتركها ليحضر لها ما تطلبه. كانت المحجبتان قد ارتفعت إلى جوارهما كومة من الأحذية فى صناديقها. ظلّت ترافبهما متمنّية عودة الرجل بشىء يناسبها لتشتريه، لأنّ حذاءها اهترأ بما يكفى، ولم تعد قادرة على مواصلة استخدامه فى الذهاب إلى العمل. كانت منهكة، وتشعر بتعب حقيقى، وقرف من حرارة الجوّ والرطوبة، التى تجعل العرق يتصبب من رأسها على رقبتها، وكذا تحت إبطيها دونما توقف، وربما بسبب انخفاض ضغطها أيضًا، لأنها تشعر بجفاف فى حلقها، عاد الرجل أخيرًا بعدّة صناديق، فتح أولها ليقدّم لها حذاء جميلاً قائلاً:

ـ جرّبى.

ـ قلت لك لا أريد الأبيض.

قالت ذلك بضيق ونفاد صبر، فراح البائع يقنعها بجمال الحذاء الأبيض وأناقته، منبهًا أن الموسم صيف، لذلك فإنه صعب جدًا الحصول على حذاء أسود، أو بأىّ لون داكن آخر فى هذه الآونة، كادت أن تصرخ لتسكته، فالصداع كان قد

بلغ مبلغه فى رأسها، عازفًا، مع الجوع، أنغام ألم مجنونة، سيطرت على كلّ حواسها، لكنها بدلاً من الصراخ، أفهمته بنبرات يائسة خفيضة أنها تفضّل الأسود أو البنّى، لأنها محتاجة لحذاء عملى، يتحمّل أتربة وأوساخ الطريق، الذى تسير فيه، قبل أن تستقلّ القطار، ذاهبة، وعائدة إلى عملها بوسط المدينة، كلّ يوم، وأن الأبيض لون جميل بالفعل وهى تحبّه كثيرًا، لكنّه يحتاج إلى عناية ورهافة، فى الاستخدام، يصعب تحقيقها، وكانت تقصد أنها لا يمكن أن تستخدمه كثيرًا؛ فلما لم تُدْخل قدمها فى الحذاء لتجرّبه، فتح الرجل صندوقًا آخر، وأخرج منه حذاء بلون وردى فاتح، تناثرت على مقدّمته خرزات ملونة صغيرة، مكوّنة ما يشبه الفراشات الصغيرة، فأوعزت له بيدها كى لا يخرجه، لأنها مستحيل أن تلبس حذاءً كهذا لا يصلح إلا للحفلات والسهرات الليلية، همّت أن تقوم من كرسيّها لتخرج، لكنّه قال لها:

ـ انتظرى لحظة.

عادت إلى جلستها، بينما حمل صناديقه، وذهب من جديد، إلى موضع البضاعة فى المحل. وكانت تفكّر فى أن الحذاء الوردى جميل بالفعل، ومنظره يثير البهجة فى النفس، وقالت لروحها: لو تزوّجت، فلسوف أشترى واحدًا مثله، أرتديه يوم حفل الزواج مع رداء وردى فاتح، من الحرير الرقيق، وأكلل شعرى بتاج جميل من الماس الصناعى المتلألئ، بينما أريح ذراعى على ذراع شابّ وسيم أحبّه، تطلعت إلى وجهها فى المرآة المقابلة لها فى جلستها، ونظرت بسرعة إلى الوجهين المّوردين للمحجّبتين، حيث زججّت حواجبهما بنعومة، واكتحلت عيونهما، فبدت جميلة، لامعة، فشعرت بضيق، من شحوبها الدائم، وأنفها الذى يلتهم معظم مساحة وجهها الصغير، وزفرت بيأس، لأنّها تيقّنت، من جديد، أن الشبّاب يصعب أن يلتفتوا لمثلها، وأنها لا تمتلك ما يساعدها على أن تكون مطلوبة فى دنيا الزواج، فهى موظّفة، بسيطة، لا تحلم أبعد من أن تكون مستورة، بين الناس، دومًا، لا تجبرها الظروف، فى يوم من الأيام، أن تمدّ يدها لأى كائن كان، وعندما وصلت إلى هذا الحدّ من التفكير حمدت الله، وقالت لروحها أن الحذاء الوردىّ لا يمكن أن يناسبها، فهى لا تخرج بعد عودتها إلى البيت، إلا فى مشاوير صغيرة

بالحى، الذى تقطنه مع أمها، ثم أن الشوارع القذرة المحطّمة، المليئة بالمياه الوسخة، والحفر والمطبّات، التى تصطدم بها دومًا، لا تتماشى مع ذلك النوع من الأحذية، ولتلبسه امرأة أخرى، من طراز مختلف، تركب سيارة، وتطأ قدماها عتبات رخامية لعمارات نظيفة، تصعّبت، وتمنّت أن يعود الرجل بسرعة، ومعه حذاء مناسب بلون أسود، أو بنّى، لأنها تكاد يغمى عليها من التعب والجوع؛ نظرت إلى المرآة المقابلة، فوجدت الرجل يعود حاملاً صندوقًا وحيدًا، بينما المحجّبتان تغادران المحلّ، محمّلتان بكمّية ضخمة من الصناديق، متحيرّتان فى كيفيّة حملها وهما تتضاحكان، فسألت البائع، الذى بدا متبرمًا منها قليلاً عما ستفعلانه بكل هذه الأحذية، فقال لها:

ـ كلّها هدايا.

تعَجّبَتْ، واستطرد قائلاً: لأنهما مسافرتان إلى الخليج، وأنهما زبونتان للمحل، تأخذان كلّ سنة، عند عودتهما لعملهما هناك، كمّية كبيرة من الأحذية، كهدايا لأصدقائهما ومعارفهما، لأن الجلد هناك غير متوفّر، وثمنه مرتفع.

ابتسمَت مستغربة، لأنّها كانت تظنّ أنّ الهدايا يجب أن تكون شيئًا جميلاً، رقيقًا، معبرًا، ثم لماذا لا تأخذان لهم حقائب جلديّة صغيرة، أو أى شىء آخر من المصنوعات الجلديّة الأخرى؟! قالت باستنكار:

ـ جزِم... غريبة فعلاً؟!.

لم يردّ الرجل، وكان يفكر فى أنها زبونة مملّة، لكنّ ساقيها جميلان، وربما لن تشترى شيئًا، حشر قدمها الأيسر فى حذاء ذى ألوان رماديّة متدرّجة، وقال لها أنه مناسب وعملىّ جدًا، بالإضافة إلى أنّه من النوع الذى يتحمّل لفترة طويلة، كما أنّ الرمادىّ يتماشى مع أشياء أخرى كثيرة، وكرّر من جديد، إنّه لون مناسب. جدًا.

أدخلت قدمها فى الفردة الأخرى للحذاء، تمشّت قليلاً أمام المرآة، كان حذاءً بسيطًا ذا مظهر جامد، ثُبت زرّ أسود صغير، فى مقدمته، بلا معنى، نظرت مرة أخرى إلى قدميها داخل الحذاء، كانتا متورّمتين بعض الشىء، سألته عن السعر، كانت تشعر أنه يضايقها قليلاً، لكنّه فى الحقيقة، كان مناسبًا جدًا.

- ١ -

«لا حول ولا قوة إلا بالله والله إنك آذيتنى وسممّت بدنى بهذا الكلام. هل لأنى تكلمت معك عن حالى وهمى، وفرّجت عن نفسى، بعد أن قلت رجل فى مقام والدك يابنت، لا يضير الكلام معه، تقول ما تقول، وتطلب منى ما طلبت، والله إمّا أنك تمزح، أو أنك خرف مجنون!».

ذلك ما قالته المرأة أمّ الولدين الرجل الجالس إلى جوارها على المقعد الحجرى بالحديقة العامة، حيث جاءت، فى يوم من أيام هذا العصر والأوان، لتشمّ الهواء فى فسحة من الزمان، حيث الشمس الساطعة، والظلال الوارفة، والجدول الجارى، وراحت تسامر ولديها بحكايات عن الطير والحيوان، وإذ بذاك الجالس بجانبها على المقعد الحجرى، يشاركها الكلام، على غير عادة أهل هذا الزمان إذا ما التقى بعضهم بعضًا فى الأماكن العامة. وكلام يجر كلامًا، تغير الحديث وتطور، وخرج من عالم الطير والحيوان، إلى شئون بنى الإنسان، بل ووصل إلى حدّ طلب فيه الرجل الزواج من أم الولدين، فقالت ما قالته، ثم تصعّبت على روحها وحوقلت، وتركت ما بين يديها من شغل الصوف، وراحت تتطلع إليه، تأملته تأمل المرأة للرجل، فوجدته عجوزًا واهنًا فى عمر من تأخذ منه الأيام ولا تعطى، فتنهّدت وقالت لروحها وهى تلاحظه يرقب سربًا من النمل يسير ناحية الشجرة التى يجلسون تحتها: أتخرجين من نقرة، فتقعين فى حفرة، والله لا يحتاج مثل هذا الشيخ إلا إلى ممرضة، تأخذ بيده، وتعطيه الدواء،

وتغطّيه قبل النوم عند المساء. ولو تزوجته لصحّ قول المثل: لُمّ المتعوس على خائب الرجاء.

ثم أنها همّت أن تأخذ الولدين وتمضى مبتعدة عن المكان، غير أن الرجل استوقفها قائلاً - وهو لا يزال محدّقًا بالأرض، لا يرفّ له جفن أو يهتزّ له رمش -: لا تكونى رعناء حمقاء، قليلة حيلة وتدبير، فما أعرضه عليك فرصة بحق، ربما لن يوافيك الزمان بمثلها مرة أخرى، هل تظنين أننى أحببتك حبّ النظرة الأولى؟! أو أنى عجوز متهافت على الدنيا، أروم لذّاتها الفانية؟! والله أبدًا، فما أردت إلا الوصول للآخرة مرتاح البال والضمير، بعد أن أكون قد غيّرت ما رأيته منكرًا بيدى، والمسألة لا تحتاج لأخذ وعطاء، وانتظار وتسويف، فإذا كنت ترومين الشمس، فالله منّ على ببعض منها، وأنا أعطيها لك، مع نصيب من مالى وموجودى، ولديك أولى به من أولادى، وربما صاروا من ملح الأرض الذين سيكشف لهم الكريم نوره، فيسيرون فى الدنيا بالرحمة، لا يبغون إلا وجه الحقّ، ثم حثّها أن تعقد أمرها، وطالبها أن تقر قرارها، قبل أن يحمّ حمامه، وينفذ سهم المنيّة فيه، فتبكى بعد ذلك بالحسرة والندم، لأن من فى مثل عمره لا ينتظر إلا آخرته ونهاية مطافه. وما كان منه، بعد ذلك، إلا أن قام، وحيّاها تحية الإخوان، وأعلمها أنه سيمهلها إلى غد إن شاء الله - لتحزم أمرها وتقرّ قرارها، ثم مشى مشية المتيقّن من أمره، بعد أن وعدها اللقيا فى المكان ذاته، وعلى المقعد نفسه، الذى تظلله الشجرة الوارفة، ويقابله الجدول الجارى، وقد ظلت المرأة تتابع ظله يبتعد شيئًا فشيئًا على الأرض، بين مكذّبة ومصدّقة لما جرى لها، ولكلامه معها، وعندما اختفى خياله عند باب الجنينة، أخذت ولديها، ولمّت حاجتها، وسارت إلى بيتها.

- ٢ -

منذ أن تركها الرجل، وحتى صباح اليوم التالى، ظلّت المرأة تفكر فى ذلك الغريب الذى طلب الزواج منها، وبقيت مشغولة بكلامه لها، تقلبه على كل وجه، ولم تكن تتذكر مبتدأ الحديث بينهما، وكيف راحت تحكى له كل الذى حكته، عن

حالها وعيالها، وكل ما تذكرته وتذكره الآن هو أن الشمس ظهرت فجأة من خلال الغيوم بعد أن ظلت ضعيفة واهنة منذ مطلع الصباح، وشملتهم بدفئها شيئًا فشيئًا، وكانت هى عندئذ قد تركت إبر الصوف من يديها، اللتين راحت تفركهما مستمرئة الدفء، عندما قال الولد الصغير معلّقًا على صداح الطيور المتعالى ترحيبًا بالشمس: الشمس جميلة جدًا يا أمى، انظرى إنها أجمل من السحاب. أنا أعرف أنها سبب حياة البطة والديك، والسمكة والعصفورة، ولو ماتت الشمس، لمات الناس كلهم وغطى البرد كل شىء.

قبّلت الأم ضناها قبلة حانية، وربتت على ظهره، أما العجوز فقال كمن يحادث روحه: لولا الناس لما طلعت الشمس. ولم تكن أمّ الولدين قد تنبّهت لما قاله، لكنها رغبت فى التكلّم معه، ربما بسبب رغبتها فى الحديث، إلى شخص ما، خلال ذلك الصباح، فقالت أنها لا تأتى إلى الجنينة إلا ليجلس ولداها فى الشمس ويلعبان قليلاً، لأن البيت بارد ورطب، ولا تزوره الشمس أبدًا، سواء فى الشتاء أو الصيف، فهو يقع أسفل عمارة محاطة بعمارات كثيرة، تحجب الشمس دومًا. ثم إن الكلام جرّ كلامًا، بحيث لم تعد تدرى بعد ذلك كيف أخذت تحكى له عن نفسها، هل عندما سأل الولد الصغير عن أبيه ولماذا لم يأت معهم؟، أم عندما سألها: لماذا لا يستبدلون الشقة بأخرى تدخلها الشمس؟، كل ما تتذكره أم الولدين أنها راحت تحكى له وتحكى دون توقف، عن نفسها، وولديها، وأمها التى ماتت منذ سنة وتركتها وحيدة فى الدنيا. وكانت تستغرب أنها حكت له أدق أسرار حياتها، رغم عدم معرفتها به! هل لأنه عجوز؟! ربما كان فى عمر أكبر من عمر أبيها الذى مات من سنوات بعيدة، أم لأنها لم تتصور أنّ من الممكن أن يعرض عليها الزواج، وهى الفكرة التى لم ترد إلى ذهنها أبدًا. والغريب أن الرجل لم يحكِ عن نفسه، ولم يتكلم إلا القليل، القليل جدًا، لكن كلامه ظل محفورًا فى ذاكرتها، خصوصًا مقاطعاته الصغيرة لها عندما كانت تسرد حكايتها، فلما قالت أن زوجها ضربها ضربًا مؤلمًا فى إحدى المرات، ثم تركها تبكى وتنوح، وعمل لنفسه كوبًا من الشاى، ثم أخذ يتفرج على التليفزيون، ليلة أن قالت لحماتها أن طبيخها ينقصه الملح، لمّا دعتهما، بمناسبة دعوتها لعريس ابنتها

وأهله، فى العيد، قال العجوز: «الصراحة سكيّن يرشقه الناس فى صدر صاحبها».

أما قوله: «أهل المودّة كانوا ما كانت الشهوة نائمة» فكان بمناسبة تصريحها بأنها كرهت الزواج، كراهية النار للماء، لأنها كانت تظنّه غير الظنّ، وتعتقده غير الاعتقاد، وذلك لحظة أن اختلى بها زوجها ليلة الزفاف، وهجم عليها هجمة الوحش الكاسر فى الظلام، وهى التى كانت تظنه سيفعل معها مثلما كانت تراهم يفعلون فى أفلام السينما، فيخفق قلبها، ويرتعش جسدها، ثم حدّثته أنها كرهت القبلات، كراهية لا مثيل لها، منذ أن قبّلها زوجها القبلة الأولى والأخيرة، التى تلقتها فى حياتها من رجل، وانها بعد ذلك دعكت أسنانها بالفرشاة والمعجون، حتى تضيع أثر ما جرى لها.

ثم أنها أخبرته كيف كانت تفنى يومها فى خدمة زوجها وّالعيلين، وتغسل وتكنس وتمسح منذ طلعة الشمس - بعد أن تركت شغلها وقعدت فى البيت بناءً على رغبته - ثم يأتى هو بعد ذلك ويطلبها فى الفراش آخر الليل، فترفض، فيغضب ويضربها، فتنام فى غمّ ونكد، علمًا بأنها تكون ساعتها كالجثة الهامدة من شدة التعب وهدة الحيل، فأعلمها العجوز أن «نفرة المصالح آفة التصالح»، مثلما أعلمها أن «مغبة الفقر غيبة العقل» عندما تحسرت أمامه، وأعلنت ندمها، لأنها لم تكمل تعلمها، بسبب أن الزوج كان قد تقدم لها، ففرحت أمها لدنوّ سترها، وهدوء سرها، والخلاص من عبء تكلفة معاشها، أما هى، فطارت من سعادتها بالسلسلة الذهبية التى قدّمها العريس لها، والفستان الأبيض فى الزفّة، حيث مشت تتطلع إليها العيون من كل ناحية، ثم كان هناك الأثاث، والملابس الجديدة، لكنها عرفت بعد ذلك أن فرحة الزواج قشرة تبرق وتزول سريعًا مع الأيام، وأن مباهجه قليلة لا تدوم، يعقبها هم ونكد وشقاء.

وكلما توغلت أم الولدين فى سرد حكايتها أكثر وأكثر، كان العجوز يرد عليها بعجيب الكلام وغريبه، حتى عندما قالت له كيف طلّقها زوجها، بعد ما ضربها علقة ساخنة فقذفته بمفتاح انكليزى أسال دمه، وكان قد فاض فيض غضبها، وفار فورانًا بعد غليان دمها، فحلف يمينًا طالق بالثلاثة، ولن تبيت ليلة بعد تلك

الساعة فى بيته، فلمّت مالها عنده، وأخذت الولدين، وراحت لبيت أمها، ومن ذلك الوقت وهى لا ترى خلقته إلا فى طلعة كل شهر، عندما يجىء إليها، ويرمى لها فلوس نفقة العيال فعند ذلك الحد تنهّد العجوز، ثم ترحّم على زوجته، وقال أنها كانت كالبدر المنير، والماء السلسبيل، صوتها كالنغم، وريقها كالعسل، إذا تكلّمت همست، وإذا سمعت سكتت، لم تجادله يومًا فى أمر قط، ولم تطالبه بما لا يطيقه أو يستطيعه، وقد أنجب منها ذكورًا ثلاثة، دون أن يتطلع مرة إلى جسدها، وكان قد تزوجها على مضض، لأنه كان عازفًا عن الزواج، غير راغب فى جنس النساء، حتى شكّ أبوه فى رجولته، فتزوّج إظهارًا للحقّ، ولو تُرك وشأنه، لكان له مع هذه الدنيا شأن آخر، ولكان قد جدّ فى سيره جدّ العارفين، ومشى بهمة الواصلين، لكن الواحد العليم، يريد ما يريد، ويقول للشىء كن فيكون.

- ٣ -

أما ما كان من أمر أم الولدين، فى صباح اليوم التالى، فإنها عزمت عزمها على لقياه بالجنينة فى الموضع المعهود، والميعاد المضروب، لكنها حتى قبيل ذهابها، لم تكن قد رست على بر بشأن زواجها منه، وإن كانت أميل إلى ذلك، بسبب الشقّة الواسعة التى لا تغادرها الشمس، حتى وقت مغادرة سماها عند كل غروب، لكن أم الولدين، كانت عازمة على ألا تقول ذلك السبب للعجوز أبدًا، بل ستخبره أنها وافقت على الزيجة لأنها بحاجة لرجل تستند إليه فى هذه الدنيا، وتحتمى بظله، وربما لن يقتنع هو بقولها، مثلما لم تقتنع هى بما قاله لها من أسباب، فصراع أولاده الثلاثة على الشقّة مسألة يستطيع حلّها فى حياته دون زواج، وكان العجوز قد حكى لها فى اليوم الفائت حكايته مع أولاده، فقال أنهم جميعًا يحبونه، ولا يألون جهدًا فى خدمته، وإظهار معزّتهم له، لكنه اشتمّ منذ فترة رائحة صراعهم على شقته، الذى ظهرت علاماته قبل أن يموت، فالصغير يرغب فيها لإنشاء شركة للتجارة، والكبير يرغب فى بيعها والانتفاع بثمنها، أما الأوسط فيريد الإقامة فيها ليؤجّر شقته مفروشة، وكان قد قال لها أيضًا أن أبناءه قد بدأوا يكره بعضهم بعضًا، وهم الذين أرضعهم الحنان والمودة، منذ أن

خلّفهم فى هذه الشقّة، وربّاهم حتى صاروا رجالاً لهم شأن فى هذه الدنيا، وهو يريد أن ينقذهم من هذه الشقّة بزواجه منها، حتى لا يحدث لهم مثلما حدث للثيران الثلاثة، فسألته عما حدث للثيران الثلاثة، فقال لها، زعموا أن ثلاثة ثيران كانوا يعيشون فى مرعى خصيب، حيث الماء والكلأ، أحدهم أسود، والآخر أبيض، والثالث أحمر، كانوا يأكلون ويمرحون لا يكدّر صفوهم شىء، حتّى كان وقت أخذ المطر فيه ينقطع شيئًا فشيئًا، والعشب يجفّ، حتى كاد أن ينعدم، فقرر الثيران الرحيل إلى أرض معشوشبة لا ينقطع عنها العشب النضير، وعزموا على المغادرة فى اليوم التالى، وبات كل منهم يفكر أنه لن يرحل عن هذه البقعة، لأرض أخرى، فمازال بها بعض العشب، يمكن أن يكفيه وحده، لو رحل أخوه، وربما هطل المطر فيما بعد، واخضرت الأرض من جديد، فيعيش هانئًا سعيدًا، يأكل من حشائشها دون منازع أو شريك، فلما أصبح اليوم التالى، صحوا والشرّ بادٍ على كل منهم، فقال الثور الأسود لرفيقيه، أرى أن الكلأ فى هذه الأرض لا يكفى إلا لواحد منا، وأنا أرى أن تذهبا، وتبحثا عن رقعة أخرى، لأنى أودّ البقاء هنا. فقال الثور الأحمر، ولماذا لا أكون أنا الذى يبقى فى هذا المكان. ومثله قال الثور الأبيض. وما لبث غضبهم أن اشتعل، وثار غبار عراكهم، حتى أوشكت الشمس على المغيب، وبيما هم على هذه الحال وإذا بأسد فتى يمر على المكان، فأخذ يراقب سير المعركة، ولما رأى أن الثور الأحمر قد خر صريعًا والثور الأبيض يوشك أو يكاد، هجم وأجهز عليه، بينما جرى الثور الأسود فى أجمة قريبة، ونفسه تطير من شدة الفرح، فقد خلا له الجو فى الأرض، وعزم أمره على أن يذهب إليها فى اليوم التالى، لينعم بخيرها وحده، دون منازع، ولما جاء اليوم التالى، ذهب الثور إلى بقعة العشب، فأكل هنيئًا، وأخذ يسرح ويمرح هنا وهناك فرحًا بخلاصه من أخويه، واستئثاره بالمكان، لكن الأسد ما لبث أن جاء، وقد وجده صيدًا يسيرًا، فهجم عليه وافترسه، فخر الثور الأسود صريعًا.

ثم إن الرجل العجوز تنحنح وتنهّد، وقال للمرأة أن أحدًا من أولاده لا يستحق الشقّة، لأن ما من أحد منهم بحاجة لها، وأنه قد فكّر فى تركها لصاحب العمارة، لكن الرجل الذى هو بالأصل تاجر فاكهة، لن يفكر فى الأمر إلا كما فكر فيه

أبناؤه الثلاثة، فيحوّلها إلى مشروع من مشاريعه الكثيرة، أو يبيعها، أو يؤجرّها مفروشة، كما قال لها أن البيوت جعلت فى الأصل مأوى للناس، وسترًا لهم، وليست للربح والتجارة، وقد قلت لأولادى: انظروا كيف نشأتم فى هذا المكان، حتى صرتم رجالاً، ولو لم يكن هذا المكان مأوى وسكنًا وسترًا ونعمة لنا، ربما ما تزوجت قط، وما كنتم أنتم فى هذه الدنيا، ولو سكن الشقّة من بعدى إنسان، فلربما فكّت كربته، وقضت حاجته، ولربما خلّف فيها من سبّح بحمد الله وشكر نعمائه، ونفع الناس ونفعوه. ولكن يبدو أن خلاصهم لم يكن كخلاصى، وطريقهم قد بعدت كثيرًا عن طريقى، وقد أيقنت ذلك لما رأيتهم ينظرون لبعضهم بعضًا النظر الرهيب، ويسكتون السكوت الخطير، ولا يردّون، فعلمت أن الفرقة واقعة بينهم لا محالة، بسبب الطمع والتكالب على الدنيا، فترحّمت عليهم، وطلبت من المتعالى أن يعمهم برحمته ومودته. فتعالى مع ولديك واسكنوا الشقة، تنتفعون بها، وتذكروننى بعدها الذكر الحسن، فأتشفّع بكم عنده فى ذريتى، وليكن بيننا أيتها المرأة ما بين الأب وابنته، أو بين الأخت وأخيها.

ذهبت المرأة فى الموعد المضروب، إلى المكان المعهود، ولما حانت ساعة اللقاء، حيث كانت الشمس تبهج السماء بنورها ودفئها، جلست أم الولدين على المقعد الحجرى، تنتظر قدوم العجوز، متوقّعة وروده إليها بين لحظة وأختها، وكانت تشعر آنذاك، وهى تتأمل الكون، أن روحها صافية صفاءً لا يعادله إلا صفاء مياه الجدول الجارى أمامها، حيث تغردُّ الطيور على الأشجار المحيطة به، وكانت قد نوت ساعتها أن تتزوج الرجل، لا لأجل الشقة والولدين، لكن لأجل روحها وروحه، التى أدخلت على نفسها سكينة لم تعهدها من قبل قط.

وقد خاطبت المرأة روحها فقالت لها: وحتى، يا بنت، لو جرى بينك وبينه ما لا يجرى بين البنت وأبيها، والأخت وأخيها، فلن تمانعى أبدًا، فعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، فربما كان هذا العجوز خليلك وصديقك، وأمك وأباك، وعطية الدنيا لك، بعد أن أمسكت وشحت وأشاحت بوجهها عنك فى الزمان الماضى.

ويصعب التكهن بما حدث فى صباح ذلك اليوم مع المرأة أمّ الولدين، وما كان من أمرها مع عجوز المصادفة، لكن فى الأيام التالية لذلك اليوم، ولمدة سنوات

طويلة، ظل رواد الحديقة يشاهدون امرأة ذاهلة العقل، شاردة الفكر، تنظر بين لحظة وأخرى إلى بوابة المكان، تطرق إلى الأرض حينًا، أو تتابع سربًا من النمل حينًا آخر، ولما كانوا يسألونها، كانت تتمعّن الوجوه، بينما تعبر عينيها سحابة حزن، وتجيب: «أنتظر الشمس»، ثم تضيف فى حسرة: لما نظرت إلى البعيد، ظننته هو، فوقفت وهممت بمد يدى لمصافحته، لكنه لم يكن غير شحاذ مسكين مدّ يده إلىّ طالبًا حاجة لله.

ظلّت القطة السوداء تتمسح بساقىّ عبد الودود، وتموء مواءً مستعطفًا لا يقاوم، ولم يكن هو بحاجة إلى مزيد من الإلحاح، فحملها إلى صدره، وشرع فى فك ربطة عنقه الداكنة، على الفور، وسأل متنهدًا:

- طيّب.. هل عندك أكل وشاى؟.

- عندى مصقّعة، معمولة من يومين، موجودة فى الثلاجة، وأنادى البواب يشترى جبنًا وحاجات بسرعة. ردّ ربيع بامتنان شديد، وبدأ فى إعداد مراسم احتفالية لضيفه، منشفة نظيفة فى الحمّام، وخفّان قديمان أسفل السرير الذى نظّف ملاءته من الغبار ببنطلونه المعلق خلف الباب، ولم تمض دقائق، إلا وكان عبد الودود متربعًا قبالته على السرير بملابس النوم، حيث بانت شعرات بيضاء كثيفة على صدره، وبقيا يرتشفان الشاى بتلذذ، والقطّة راقدة فى حجر ربيع، تهزّ برضا، مادة رقبتها فى استجابة ممتنّة لمداعبات أصابعه التى ظلّت حركتها تؤرّق البراغيث الكامنة بها. أخذ يدخّن بشراهة، ويحكى لصاحبه نوادر قطته الطريفة، والتى كان آخرها أنها أخفت فردة جوربه أسفل حوض المطبخ منذ ثلاثة أيام. كان يلفّ ويدور مفتعلاً مرحًا عصبيًا، يحاول من خلاله الولوج إلى كلام يريد قوله، منذ أن جاء إليه عبدالودود، ولما شعر أن صديقه بدأ يتثاءب قال بأسى:

- بكرة آخر يوم.

نظر إلى عين الجالس قبالته بسرعة، ثم حولهما إلى السقف، ثبت نظراته على خيوط العنكبوت، التى تحاصر سلك المصباح، - عمّ أسى - فكر خلاله ربيع

فى السؤال الذى ظلّ يشغل رأسه، طوال الشهور الماضية، ماذا ستفعل بعد ذلك يا ولد؟!، كيف ستمضى بك الأيام والسنون؟.. فكّر فى مدام نادية، وتأسّف لأنه لن يراها بعد نهاية ذلك اليوم مرة أخرى، تنهّد ويده تمسح جسد القطة فى حنان، لكنها كانت تحرك بوقىّ أذنيها باتجاه نداء خارجى عاجل يأتيها عبر النافذة المفتوحة: عاوو.. عاوو. قفزت من مكانها بنشاط، ووقفت على الأفريز الخشبى بترقب.

قال عبد الودود:

ـ نازل أجيب علبة كليوباترا، وأرجع.

على صوت إغلاق الباب، فكر ربيع من جديد فى السؤال: كيف سترتب الوقت من السابعة صباحًا، وحتى الثالثة؟ أين ستذهب؟ إنها لمصيبة فعلاً إذا كنت لن تصحو فى السابعة على صوت المنبه لتغتسل بسرعة، وتعمل الشاى، لتشربه مع أغانى الصباح ونشرة الأخبار، ولن تلبس ملابسك لتكون فى الثامنة إلا ربع، تنتظر «الأتوبيس»، وأنت ترمق النساء بحذر، وتقرأ لافتة تسالى الحبايب، المواجهة للمحطة، والتى قرأتها آلاف المرات، ستمرّ الأيام وتنسى لونها، ورقم السجلّ التجارى، لمقلة الحاج عمران، الذى حفظته عن ظهر قلب، ثم إنك لن تجلس خلف مكتبك فى السجلات، عند الثامنة والنصف، تحتسى القهوة وتقرأ جريدة الصباح، التى تفتحها أولاً على صفحة الأبراج، لتعرف طالعك، فتتفاءل، أو تتطير وتكتئب، ثم لتأكل ما يجود على الفرّاش بجلبه، فتأخذ فى تصفح أوراق العمل، وتدوّن ما يجب تدوينه، وتحفظ ما يجب حفظه، أما مشهد الساعة الثانية، فقل وداعًا يا مشهد الساعة الثانية، حساب البوفيه، التسكع فى الشارع حتى محطة الأتوبيس، الجرى بضعة أمتار للحاق بمقعد، ثم الآنسة بهيّة التى تنزل قبلك بمحطتين و: «مع السلامة يا أستاذ ربيع»، بينما خصلة الشعر النافرة، تعود بها الأصابع الطويلة مرة أخرى خلف الأذن فى حركة تطلق فى روحك موجة من الراحة والانبساط، رغم الأعوام العشرين التى تباعد بينكما فى محطات الزمن.

شعر ببرد حقيقى يسيطر على أطرافه، رغم الطقس الخريفى الدافئ، وكانت المسألة التى تؤرقه، هى ما الذى سوف يفعله بروحه بعد الآن؟ لم يكن يداخله أدنى شعور بالمرارة أو الندم على ما فات، بل على العكس من ذلك، كان يشعر بارتياح غامر لأنه خرج بستين عامًا من عمره بسلام، دونما مرض يلازمه، أو مشكلة فى عمله تضع أنفه فى الأرض، لقد نجح فى أن يظل تقريره السنوى بتقدير جيّد، صحيح أنه لم يحصل أبدًا على ممتاز. ولكن جيد كانت كافية لأن يحصل على علاوته الدورية بانتظام، فيتزايد مرتّبه بقدر معلوم، ويترقّى درجة، حتى أصبح من كبار صغار الموظفين، ولم يؤرّقه عدم الزواج أيضًا، فلقد كفّ عن التفكير فى ذلك منذ حوالى عشرين سنة، اكتفى خلالها، مثلما كان من قبل، بالحلول الذاتية، ذاكرًا دومًا فضل أبويه، فى هذا الجانب، حيث ربّياه تربية أخلاقية صارمة، أبعدته عن كل المدنّسات والاتصالات التى لا يقرها الشرع، وترفضها التقاليد، ويطالها القانون، وهو الآن عندما يفكر فى ذلك، يزداد امتنانه وشكره لأبويه، «وإلا كانت مشكلة فعلاً يا ولد.. لولا تلك الإرادة الحديدية، والقانون الصارم الذى أرسياه داخلك، لكنت ضعت حقًا، ربما أصبحت نجس الذيل، مأفونًا، تجرى فى ذيل كل امرأة تراها فى الطريق، ثم إنك فكرت فى الزواج مرّات، وكنت فى كل مرّة ترتّب أوراقك، ولكن لم تكن هناك ورقة واحدة رابحة فى يدك أبدًا، فعندما بلغ راتبك ستين جنيهًا، وهو المبلغ الذى ظننت أنك ستتزوج فور وصوله إلى يدك، كانت الدنيا تسحبه منك بطريقتها الخاصة، وكأن هناك مؤامرة خفية، تحول بينك وبين امرأة تكمل دينك، وتكون لك على سنّة العرف والدين، كان هناك دومًا الغلاء، وارتفاع الأسعار، اللذان يجعلان الستين ثلاثين، والتسعين خمسين، بالطبع كانت هناك حلول على طريقة الكثيرين، ولكن، أبدًا يا ربيع، محال أن تتزوج واحدة لا تعجبك شكلاً، أو أن ترضى بامرأة لمجرد كونها ترضى بك، ربما لأنها تريد ظلاً تستظل به والسلام، ثم إن مشكلة مدام نادية أنها مطلقة، صحيح أنها تعجبك كثيرًا، وتتمتع برقة ونعومة وظرف يدخل قلبك، ويدغدغ شعورك، خصوصًا عندما تميل عليك وتسلّمك دفتر الوارد كل يوم، بينما تسألك عن صحتك، أو تبدى لك اهتمامًا بقميص جديد ترتديه، لكنك

تعاف الشرب من أناء مسّته شفاه غيرك، فما بالك بجسد بشرى كامل؟! لا والله مستحيل، مهما كان الأمر؛ وأنت لا تقبل أن يطالعك كل صباح ومساء وجه أعجف ممصوص كوجه فوزيّة بنت عمتك، وجه، نصفه أنف رهيب، يجبرك على النظر إليه دومًا، وتذكر قدرة الله فى خلقه، وحتى لو امتلكت فوزية كنوز سليمان ومال قارون، فوق ما عندها من ذهب ومال، فأنت لا يمكن أن تحيا مع أنفها تحت سقف واحد أبدًا، وليبق وضعك كما هو عليه، أفضل ألف مرة من الارتباط بمثل هذه النماذج، لأن كل فولة ولها كيّالها، وأنت لا تستطيع كيل مثل هذه الأصناف، مهما بلغ أمر الزواج مبلغه معك».

والحقيقة بالنسبة لربيع أنه لم يضع عمره هباءً، كما يتصور البعض، ولم ينفق دخله المحدود فيما لا يفيد، فبعد اقتطاع مصاريف المواصلات، وأجرة شقّته الأرضية، كان ينفق معظم ما تبقّى من راتبه على إمتاع نفسه بنعمة الطعام؛ ما عدا ذلك، فهو لا يصرف إلا فيما ندر على وسائل الإمتاع والتسلية الأخرى، ويكتفى بشراء جريدة يوميّة عند الصباح، ويسلّى نفسه بقرطاس من اللبّ أو الفول السودانى، عندما يخرج ليتمشّى قليلاً عند المساء، أما السينما فنادرًا ما كان يدخلها، وقد انقطع عنها تقريبًا بعدما ساءت أحوال الجمهور، وأصبح يطلق الألفاظ البذيئة عند المشاهد الغراميّة أو المثيرة، أما المسرح، فقد وطأته قدماه مرة واحدة، عندما دعاه زميل له ليشاهدا سويًا مسرحية هزلية يشارك فيها شقيقه، وفيما عدا السجائر التى كان يدخنها بحساب، لم يتعاط أى نوع من المكيّفات. ورغم أن ربيع كان رقيقًا، مرهف الأحاسيس، لكنّه لم تكن لديه هواية محدّدة، ولا مزاج خاص فى شىء من الأشياء أو أمر من الأمور، فقط، ظل يحبّ الطبيعة جدًا، ويتمنى لو كان يستطيع العيش فى كوخ على طرف غابة، أو قرب حافة نهر، بعيدًا عن الناس والضجيج، وزحام المدينة، وفى يوم من الأيام، كان يعبر بالقرب من محل يبيع الطيور وأسماك الزينة، فوقف يتأمل العصافير فى أقفاصها بألوانها الجميلة الزاهية، وتملكته رغبة فى اقتناء عصفورين جميلين، وفى حالة حماس، نادرًا ما أصابته، أقدم على شراء العصفورين بقفصهما، وعاد إلى بيته يحملهما وهو سعيد، مضطرب خشية أن يكون قد تهور وأقدم على

خطوة لم يدرسها كما يجب، لكن نفسه هدأت بمرور الوقت، وأصبح يداخله شعور بالرضا كلما صدح العصفوران، وأحس لأول مرة بأنه ليس وحيدًا فى هذا العالم، وأن هناك من يشاركه الحياة فى بيته الصغير، ولم تمض شهور إلا وربيع قد ملأ شقته بعدد كبير من الطيور الملونة الصغيرة، زادت عن العشرين، كان يهرع إليها بعد عودته من عمله، فيعدّ لها طعامها وشرابها، وينظّف أقفاصها، ويمضى ساعات طويلة فى تأملها ومداعبتها، وفى ليالى الصيف الحارة، كان يفتح نوافذ البيت كله، ويدير مؤشّر المذياع على موسيقى رقيقة ناعمة، تمثل خرير المياه، أو هدير البحر، سرعان ما تتوالف معها الزقزقات، والشقشقات، فينعش ربيع جسده بحمّام بارد، ويتمدّد على سريره، مغمضًا عينيه، نافثًا دخان سيجارته، سابحًا فى تيّار أحلامه، الذى يجرفه بعيدًا إلى خميلة ورد، من كل لون وصنف، يجلس فيها، ورأسه على صدر حسناء هيفاء فارعة متوردة، كزهرة بنت القنصل، التى طالما أحبّها عندما كان تلميذًا فى المدرسة الابتدائية، وظل معجبًا بارتفاع سيقانها المتفرّعة، كشجرة صغيرة نادرة ذات أوراق علوية عريضة حمراء، سأل بستانى المدرسة مرّة، لماذا يسمونها بنت القنصل، ضحك الرجل وقال: «لو كنت رأيت بنت أى قنصل أجنبى لعرفت السبب». وفهم ربيع وقتها أن بنت القنصل لابد أن تكون أجمل فتاة فى الدنيا، وها هى دومًا فى أحلامه، يختلط همسها بتغريد العصافير، وتهبّ أنفاسها فى روحه كعبير الورود، فيشعر أنه قد وصل برّ الفرح، وعبّ من ينابيع السعادة، فلا ينتهى من جولة أحلامه، ورحلة آماله إلا عندما يشعر بلسع اللفافة، التى قاربت الانتهاء، لجلد أصابعه، فيهبّ لنفض الرماد، وإخماد الجذوة الصغيرة المتشبثة بالحياة، ثم أنه يسعل بضيق، ويتوجه إلى النافذة، ويتطلع فى الفضاء المواجه لشباكه، حيث الخرابة الممتدة إلى نهاية الطريق.

لقد فوجىء ذات يوم بأن سكان العمارة، وجيرانه، ينادونه بالعصفورجى، ودهش لذلك. أما هم فكانوا يستغربون اقتناءه لكل هذه العصافير دون أن يتاجر بها، وكان أطفالهم كثيرًا ما يتعمدون إسقاط ألعابهم الصغيرة فى شرفته، ويدقّون بابه مطالبين باستعادتها، حتى تسنح لهم فرصة الدخول إلى شقّته، ورؤية

عصافيره، وتأمّل ألوانها البهيجة، وهم يتباطأون فى التقاط ما أسقطوه، ثم وهم يمشون بخطى متثاقلة باتجاه الباب قائلين: «شكرًا يا عم عصفورجى». أو «افتح الباب والنبى، نفسى أحسس عليهم»، وربما طاوعهم ربيع أحيانًا، أو سمح لهم بالدخول، إذا ما التقاهم فى فناء العمارة، لرؤية عصافيره لكن فى لحظة قدر رهيبة، فقد «العصفورجى» طيوره الصغيرة، فلقد رشّ الشقة، ذات صباح صيفى حار، بمبيد قوى للصراصير، وأحكم إغلاقها، ولما عاد عند الظهر، لم يسمع صفيرًا ينبعث من الأقفاص، وعندما أفاق من عنف الصدمة، وبينما كان يلمّ كومة اللحم ذى الريش الملون ليلقيه، بيد مرتعشة، فى الخرابة، بكى بدموع حقيقية، كالتى سالت من عينيه يوم وفاة أبيه.

حتى كلبه صادق، لم يستطع محو الفجيعة من قلبه، رغم مرور الأيام والسنين على كارثة العصافير، وكان ربيع قد وجد «صادق» ذات يوم بينما كان يأكل من عربة تبيع الكباب بجانب الطريق، فرمى إليه بقطعة من الكفتة، التهمها الكلب فورًا، ووقف يتلمظ، وسرعان ما أعطاه ربيع ثانية وثالثة، حتى أن الكلب لم يجد بدًا من إيصال ربيع بنفسه، بعد ذلك، إلى البيت، لأن ذلك أقل ما يمكن لكلب مثله أن يفعله، تعبيرًا عن امتنانه للرجل، وسعادته الشديدة به. فقرر ربيع إزاء ذلك الحنوّ، وتلك العاطفة الرقيقة، إدخال الكلب ليبيت عنده، لأن الجوّ كان باردًا جدًا ليلتها، ونظرًا لسلوكه المستقيم بعد ذلك، وشكله المقبول، وتجاوبه الدائم، فقد أصبح شريك حياة ربيع الذى منحه اسم «صادق».

لكن النوائب كانت لا تزال فى ترصّد لربيع، حيث وجد صادق مسمومًا فى خربة قريبة من بيته، وهكذا صدق حديث قلبه له، بأن سعادته مع كلبه لن تدوم، بعد أن هدده صاحب العمارة بقتل الكلب، إذا لم يطرده، لأنه يزعج السكّان بنباحه، ويخيف الأطفال، وكان ربيع حريصًا على ألا يترك صادق يخرج وحيدًا، لكنهم نجحوا فى استدراجه وسمّه. من يومها عرف ربيع سبب تلك الكرهية الكامنة التى يكنّها الناس للكلاب، ربما لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا مثلهم، أبدًا، قادرين على ذلك الحبّ، ومتمتعين بتلك الدرجه العميقة من الصدق والوفاء. قبلها، كان الأطفال يسألونه بدهشة: «لماذا لا تسميه ركس، أو فلّة، مثلاً يا عم

عصفورجى؟ فتبدو صعوبة شرح المسألة لهم، مشابهة لصعوبة فهم مسألة عشقه لمدام نادية، زميلته المطلّقة، التى لا يستطيع التفكير فى الزواج منها، إنه باختصار لا يستطيع شرح العاطفة النبيلة التى يكنّها له صادق، النظرات الطويلة الممتنة، العواء اللين الودود، ثم ذلك الامتثال غير المشروط لكل الأوامر والتعليمات، لكن الآن، يا إلهى ستبقى وحيدًا كشجرة مورقة فى عزّ الشتاء يا ربيع، لا أحد، ما عدا هذه القطة. هى أليفة حقًا، لكن المسألة أنها لا تبادلك العواطف، لا تستجيب لنداءات الودّ، فثمة شئون لها وهى لا تسأل عنك إلا عندما تحتاجك.

كاد أن يبكى وهو يتخيّل كيف ستكون الإحدى عشر ساعة، التى سوف تنتظره اعتبارًا من بعد غد، وماذا سيفعل فيها؟، إنه لا يذهب إلى المقهى، ولا يصاحب أحدًا من الجيران، ولا صديق فى حياته غير عبدالودود، ولا أهل له، فأمه وأبوه ماتا منذ زمن، وأخته الوحيدة تعيش فى مدينة أخرى مع زوجها،: «وستبقى يا ربيع فى هذه الشقة الرطبة مع نفسك التى أبقتك، كل هذه الأيام والسنين، بعيدًا عن مباهج الحياة، لم تلامس يداك ثدى امرأة منذ أن فطمتك أمك، ولم ينقشع عن عينيك ضباب العالم السرّى للرجال، إلا بعد أن اشتريت التليفزيون، ورحت تتفرج على الغرائب والعجائب فى الأفلام والمسلسلات».

فركْ يديه فى أسى، تأملهما، قطعتان من اللحم اللين الناعم، دهش لأنه لم يلحظ ذلك من قبل، ظل ينظر إليهما قليلاً، ولما لم يدر ماذا يفعل بهما، تركهما تتدليان إلى جانبيه، عادت القطة، ثبّتت عينيها فيه قليلاً، بدت له نظراتها ساخرة، فأشاح بوجهه عنها، عاد عبد الودود بالسجائر، بينما بدأت القطة فى لعق فرائها، أشعلا لفافتى تبغ، توازى عمودان من الدخان الرمادى الباهت، باتجاه السقف، بدا عبد الودود واجمًا مهمومًا أيضًا، ارتعشت اللفافة أكثر من مرة، بين أصابعه، وهو يرفعها إلى شفتيه، قفزت القطة بدلال إلى حجر ربيع، وبينما كانت نسمة رطيبة تهلّ من ناحية النافذة، قال ربيع لزميله بكياسة المضيف:

- خل القطّة تنام فى حضنك الليلة، وخلاص.

كانت ليلة غير عادية فى حياة سوسو وميمى وفيفى، فرغم أن لعبة الورق ظلت موضوعة على الطاولة، تنتظر إلى جانب صينية الشاى، المعدّ منذ قليل، إلا أن الثلاثة كن مشغولات جدًا، لدرجة أن ذلك الاكتشاف الهندى اللذيذ انتظر، بما يكفى لأن تفتر سخونته قبل أن تنتبه إليه سوسو، التى شهقت فجأة عندما رفعت رأسها، واصطدمت عيناها بطرف الإبريق اللامع فقالت:

ـ يا خبر أبيض.. نسينا نشرب الشاى؟!.

لكن فيفى، التى كانت تتأهب لتلاوة ما كتبته منذ لحظات، أسكتتها بنظرة احتجاج، وافقت عليها ميمى، بتأفف من طال انتظاره للسماع، فاعتذرت سوسو عن المقاطعة وهمست:

ـ طيب.. قولى يا فيفى.. قولى بالراحة وحياتك.

وبدأت فيفى تقرأ ما كتبته:

عزيزنا محرر القلوب التعيسة

نرسل إليك هذه الصرخة، الصادرة من القلب، لا.. بل من القلوب، قلوبنا نحن سوسو وميمى وفيفى، ونرجو أن يتسع صدرك الرحب يا سيدى، فتقرأنا حتى النهاية، وتشير علينا مشورة صادقة، تريح أفئدتنا الحزينة، وأرواحنا الحائرة، فنهتدى إلى حلّ غاب عنا، أو طريق لم نكن نعرف كيف نسلكه، فنحن يا سيدى ثلاث فتيات، مات أبونا منذ زمن بعيد، وتولت أمنّا تربيتنا، حتى صرنا شابات ناضجات، ولكن أى نضج، وأى شباب يا سيدى؟!.

بصراحة، وعلى بلاطة، نحن لا نتمتع بأى قدر من الوسامة أو الجمال، فهذا رأى الناس بنا، ورأى المرايا، التى نطالعها كلّ صباح، وفى كلّ وقت ومكان، وهذه الحقيقة نعرفها جيداً، ولا يمكن أن نغالط أنفسنا فيها أبداً.

ورغم نقاء قلوبنا، وشفافية أرواحنا، إلا أننا نتمنى أن يستبدل الله ذلك كله بنقاء بشراتنا أو صفاء عيوننا، وأن تحن علينا الطبيعة بقليل مما عندها، فتمنحنا بعض ما نراه موزعًا على الناس، لكنها بخلت، وضنتّ علينا، حتى تمنينا أن نكون قاسيات شريرات، غليظات الأفئدة، وألا نكون دميمات قبيحات، كلما التقينا رجلاً، حتى ولو كان عابراً فى الطريق، أشاح بوجهه عنا بمجرد أن تقع عيناه علينا.

كنا نتمنى أن نكون صاحبات عاهات، عمياوات، خرساوات، عرجاوات، شريطة أن نُمنَحَ لمسة من الجمال أو بعضًا من الفتنة، لكن يا سيدى.. نحن لا نملك إلا التمنى.. لا شىء إلا الأمانى، فميمى التى هى أصغرنا جميعًا أيها السيد الكريم...

وهنا قاطعتها ميمى قائلة:

- خلّينى أتكلم أنا عن نفسى والنبى.

يا سيدى، أنا ميمى آخر العنقود كما يقال، لكن ليس بى أى سكرّ معقود، أو غير معقود، يمكن أن يلحظه إنسان، سواء فى رسمى أو كسمى، فماذا أقول لك عن شعرى الخشن الصلب، الذى يجعل رأسى أشبه بقنفذ صغير ملتصق بأكتافى، أأحدثك عن ساقّى المقوّستين الشبيهتين بكسّارة اللوز والبندق، أم عن بروز أضلاع صدرى التى يستطيع أى طفل صغير أن يتعلم عليها العدّ والحساب. صحيح أن فيفى وسوسو أفضل منى حالاً، لكنه ذلك الحال الذى لا يسمح لأن ينظر وجهيهما إنسان، ثم أن..

جاءت لولو ثم نظرت، وبدا لها أن طقس الليالى المعتاد، قد تأخر بعض الشىء، ربما بسبب تصاعد نشاط الصراصير المسائى فى المطبخ. وقفت حائرة توجه بوقىّ أذنيها هنا وهناك، وأخيراً نطّت، وتكّورت على طرف المائدة، حيث

انكبّت الأخوات الثلاث على الورق للكتابة، فتحسستّها ميمى بحنان، وقبّلتها فيما بين أذنيها، فأخذت القطّة تهرّ بسعادة، وقالت فيفى التى بدت غير صبورة:

- لا يا ميمى.. علينا أن ندخل فى الموضوع مباشرة، ونحكى المشكلة دون تطويل. من فضلك اتركينى أكمل أنا.

ثم أخذت القلم وكتبت:

عزيزى المحرر..

لن نطيل الكلام، فالموضوع باختصار، أن صغرانا ميمى، بلغت الثلاثين منذ شهرين، وسوسو على مشارف الأربعين، أما أنا فقد تجاوزت السادسة والثلاثين، ونحن جميعًا، ووفقًا لما تقدم لم نتزوج بعد.. ثلاث أخوات شابات، لم تتزوج أية واحدة منا.

قد تقول: وما المشكلة فى ذلك؟ هناك مئات، بل آلاف من النساء بلا أزواج. ولكن يا سيدى نحن محرومات من الرجال فعلاً، ولا نعرف شيئًا عنهم، فيم يفكرون؟ كيف يشعرون؟ هل يحبون؟ هل يكرهون؟ إنهم بصراحة، كائنات غريبة، غامضة، بالنسبة لنا، فنحن لم نتعامل مع أى رجل عن قرب، حيث توفى والدنا ونحن صغيرات جدًا، وليس لنا إخوة أو أقارب، فنحن مقطوعات من شجرة، ولسوف نسوق لك حكاية بسيطة تعبر عن ذلك. عندما توفيت أمنا كان لها ابن عم مازال يعيش فى بلدتها البعيدة، فلما وصله الخبر، جاء مع زوجته لتعزيتنا، وقد أصيبت ميمى بالذهول، عندما رأت عينيه تدمعان، وهو يتحدث عن أمنّا، التى كانت رفيقة طفولته وصباه، وظلت تحدق فيه كما لو كان أعجوبة من عجائب الزمان، فلقد كانت هذه، يا سيدى، هى المرة الأولى التى نرى فيها رجلاً عن قرب تدمع عيناه، ويختنق صوته بالحزن.

فى الحقيقة، نحن نريد أن نتروج، نتروج بأية طريقة، ومن أى رجل كان، نحن نريد أن تكون لنا بيوت، وأطفال كبقية نساء الدنيا، أتتصور ماذا تقول ميمى؟!، تقول: أنا مستعدة أن أدفع عمرى ثمنًا لطفل ينادينى يا أمى، أو حتى يا خالتى، مستعدة فعلاً لأن أفعل أى شىء فى سبيل أن تتزوج واحدة منا وتنجب أطفالاً.

- سيدى...

لا تقل حاولن.. تشاطرن، فتشن عن الرجال، فالرجال لا يتزوجون إلا إذا تزوجتهن النساء، فنحن نعرف كل هذه الكلمات، وقرأنا كثيرًا من الروايات والقصص، ونعرف أن هناك شيئًا يسمى سلاح الغواية، وفنًا اسمه رمى الشباك، لقد حاولنا يا سيدى، حاولنا مرارًا، فمنذ أن دخلنا ديوان الشباب، ونحن نتأنق، نلبس الأردية الضيقة، والأحذية ذات الكعوب، نتجمل بالأحمر والأخضر، وكافة الألوان الأخرى التى يمكن أن تعطى للوجه نضارة، وللشفاه جاذبية وفتنة، وكنا يا سيدى نقتّر على أنفسنا، ونحرمها من الطعام أحيانًا، حتى نوفّر مالاً نشترى به عقدًا جميلاً، أو سوارًا أنيقًا، يساهم فى بعث فتنة كامنة فينا، لكن هيهات.. هيهات، أن يخلق الحلق آذانًا، أو يصنع حزام خصرًا، ولأننى وميمى مدرستان، فلقد بذلنا المستحيل لنتقرب من الرجال، فكنا نوطد علاقاتنا بزميلاتنا اللواتى لهُن إخوة فى مرحلة الزواج، لكن المسألة لم تسفر عن أى رجل، ولا رجل على الإطلاق!، أخيرًا وفى الموجة الأخيرة السارية، تحجّبنا مع اللواتى تحجّبن، وقلنا مع القائلين إن الرجال يفضلون المحجّبات الآن، لكن، أبدًا يا سيدى، لم يقترب منا رجل، أى رجل.

هتفت سوسو:

- والنبى احكى له حكاية جارنا الأستاذ حسن.

كان يا سيدى لنا جار طيب اسمه الأستاذ حسن، وزوجته اسمها كريمة، وقد أصيبت - الله يرحمها - بمرض خبيث، لم يمهلها، فودّعت الدنيا تاركة للأستاذ حسن خمسة أطفال، فكنا نعاونه فى أمور البيت والمعيشة، ونترك أولاده لسوسو لأنها لا تعمل، فيذهب إلى عمله، ويعود ليجد بيته نظيفًا مرتبًا، وأولاده فى الحفظ والصون، وكنا نقول لأنفسنا، لا بد أن يحطّ الأستاذ حسن فى عينه حصوة ملح، ويتزوج واحدة منا، خصوصًا أنه كان يعاملنا بلطف، ويعامل سوسو برقّة واضحة، لكن الأستاذ حسن فاجأنا بأن طلب ميمى لمقابلها فى موضوع

خاص، فقلنا أنه حطّ عينه على ميمى، لكنّه، وياللعجب، عندما اختلى بها فى صالة منزله، طلب منها سلفة، خمسة وعشرين جنيهًا، أتصدق هذا؟!.

لا تقل لنا أن الرجال ليسوا كل شىء فى الدنيا، ابحثن عن أهداف أخرى، اشغلن فراغكن بهواية ما، ادرسن مثلاً أو اشتركن فى نادٍ.

استطردت فيفى التى كانت تكتب:

فى الواقع، لقد حاولنا ذلك تحديدًا، فأنا كنت أهوى الموسيقى، ومازلت طبعًا، ولقد حاولت تعلم الموسيقى على أسس وأصول كما يجب أن يكون التعلّم، لكن كم كان هذا مكلفًا وصعبًا، أن تدفع ربع راتبك لتتعلم الموسيقى، وأن تركب المواصلات لفترة أخرى من الوقت حتى تتقن مى، فا، صول، لا، سى. تصور، ربع راتبك.. تكمل به حتى آخر الشهر أم تتعلم الموسيقى، وتصور أنك تمضى كل يوم ساعتين فى جحيم المواصلات وزحمة الشوارع، هل تغامر بساعتين أخريين لأجل النغم والألحان؟.

أحيانًا نقول ونحن نتألم: آه، لو كنا غنيّات ميسورات، لهانت مشكلتنا كثيرًا، فالمال يا سيدى يحلّ الكثير من أمور الحياة، لكن الدنيا بخلت علينا من كل النواحى، فلا مال ولا جمال ولا أهل؛ وأحيانًا نتساءل يا سيدى: لماذا تمضى حياتنا هكذا، فى ألم وحسرة، دونما معنى. نحن نريد أن ننطلق، نجرى، نرقص، نسافر ونرى الدنيا، لقد فكرنا كثيرًا فى أن نقوم بعمل نافع مفيد للناس، اشتركت سوسو مثلاً فى جمعية خيرية من أجل الأطفال الفقراء، لكنها شافت من خلالها العجب، عالم عجيب غريب، تديره نساء من العالم الآخر، حيث الغنى والجاه واستعراض القوة والنفوذ، ولم تطق صبرًا، فانسحبت فى هدوء، وعادت إلى ليالينا، التى يبدو أن لا نهاية لها، ليالى لعب الورق، وفتح الفأل فيه.

لا تقل يا سيدى: لماذا كل هذا الشوق إلى الرجال؟ هل هو الجنس؟ الحب؟ نعم يا سيدى، نحن نريد حبًا، ولنا مشاعر وحاجات كبقية البشر، رغم أننا والحمد لله مختتنات طاهرات، رغبتنا فى الرجل عاديّة من هذه الزاوية، لكن قل لنا بالله عليك، هل نستطيع الذهاب بمفردنا إلى السينما الآن؟ وخصوصًا فى المساء؟ هل

يمكن أن تذهب واحدة منا وتنزل البحر بمفردها لو أرادت؟ نحن محاصرات يا سيدى وأنت تعلم ذلك بالتأكيد، محاصرات فى كل لحظة من لحظات حياتنا، وعرضة لمتاعب كثيرة تكاد أن تحطمّنا، وتفترسنا، والسبب بسيط جدًا، وهو أننا بلا رجال.. لا أب، ولا أخ، ولا زوج، ولا ابن.

سيدى الكريم..

إننا نملك حبًا وحنانًا، نقدم منه الكثير لقطتنا العزيزة لولو، وندللها بما يكفى لأن تبدو دومًا راضية، موفورة الصحّة، لكن، نحن فى الحقيقة، نريد رجالاً نحبهّم، جلدًا بشريًا نتحسسه ونتلمسه بدلاً من فراء لولو الأملس.

كانت فيفى التى اعتادت كتابة خواطرها وتأملاتها فى دفتر صغير لديها، رغبة فى الاستمرار بالكتابة إلى ما شاء الله، ويبدو أنها نسيت أنهن سيرسلن الخطاب كما اتفقن إلى بريد القلوب التعيسة بمجلة النور الأسبوعية، وتمادت فى الكتابة، غير أن ميمى نبهتها إلى ضرورة إنهاء الخطاب، فكتبت فى النهاية: نريد أن نتزوج بسرعة، نفرح، يشعر الناس بنا، ونشعر بهم، قدنا إلى النور يا سيدى، ولك منا بالغ الإعجاب والشكر.

وضعت نقطة النهاية، وكتبت تحتها أسماءهن الثلاثة، ثم تنهدت بعمق، وقالت:

- يا الله نعمل شاى جديد ونشربه.

هل سيرد محرر القلوب التعيسة على هذه الرسالة؟ هل ستكون إجابته طويلة أم قصيرة؟ وهل يا ترى سيحلّ المشكلة فعلاً، ويدعو القراء للمساهمة فى الحلّ كما يفعل عادة؟!.

الحقيقة أن هذه الأسئلة دارت بذهن الشقيقات الثلاث، وتبادلنها بصوت مسموع فيما بينهن، بل لقد تمنّت فيفى أن يسارع أحد القراء، وربما كان أرملاً، أو صاحب عاهة أو مرض، بطلب عنوانهن، وأن يتقدم للزواج بواحدة منهن.

أخذن يتداولن ويفكرن، بينما كن يحتسين الشاى الساخن، الذى أعدته ميمى، وبجانبهن جلست لولو تهر بسعادة، كالمعتاد، ثم رحن يتصورن حلولاً سعيدة كثيرة،

أرمل يشبه الأستاذ حسن يتزوج ميمى، عجوز مشلول يُزَفّ إلى فيفى، أعمى لا يهمه الشكل فى شىء ينجب من سوسو ستة أولاد.

تضاحكن وسرت بينهن موجة من السخرية، والرغبة فى الهزل، حتى أن ميمى اقترحت أن محرر القلوب التعيسة ربما ضحى بنفسه، وتزوج فيفى فى عملية انتحارية، من أجل سعادة البشرية، ظللن يضحكن، ويقهقهن، حتى طفرت دموع ساخنة من مآقيهن، عند ذلك الحدّ، تبادلن نظرات ذات معنى، وتنهدن، وتصعّبن، ثم أن ميمى قامت إلى أوراق اللعب لتخلطها وترتبها من جديد، أما سوسو فكورت الخطاب بيدها، وطوّحته بعيداً على الأرض حيث تلقّفته لولو، بعد أن انقضت عليه، فى قفزة رشيقة، وحوّلته إلى لعبة من ألعابها الدائمة، وهنا قالت فيفى وهى ترمقها بإعجاب، وترشف رشفة طويلة من كوب الشاب، وتتنهد:

اقسمى الورق يا ميمى وخلصينا.

أحزان السادة المضحكة ومقالبهم غير المقصودة

رفع مدير الشركة العامة للأزرار ومستلزمات الخياطة سمّاعة الهاتف، ليتّصل ببيته، ويخبر زوجته بضرورة إعداد ملابس ملائمة للعزاء، الذى سوف يتوجه إليه، عند المساء.

زوجته الثانية طلبها بعد ذلك، مباشرة، وبعد أن لاطفها بعبارتين، من عبارات الغزل غير الرفيع، طلب منها إلغاء حجز بطاقتى الحفل، الذى كان من المقرر أن يتوجها إليه، فى المساء، ولما كان وضعها كزوجة ثانية حساسًا بعض الشىء، فقد طمأنها أنه سوف يذهب للعزاء فى فاطمة هانم ظاظا، والدة مدير الشركة السابق، والذى كان يرأسه، وأحيل للتقاعد منذ سنوات.

خلال النهار، ذاته، ضيّع عمال مصلحة الاتصالات العموميّة وقتًا لا بأس به فى إيصال مكالمات هاتفيّة بخصوص وفاة فاطمة هانم ظاظا، أما عمّال محلات الزهور، فقد قصفوا أعناق ما يزيد على ألف زهرة ووردة، كى يصنعوا منها أكاليل أنيقة موشّحة بشرائط بنفسجية عريضة، أرسلت وفقًا لرغبات السادة دافعى أثمانها إلى سرادق العزاء فى فاطمة هانم ظاظا.

أما الصحف الثلاث، المقررة على سكّان البلاد يوميًا، فقد تلقى المسئولون عن أقسام الإعلانات فيها، نصوصًا مدفوعة الأجر، تنعى ببالغ الحزن والأسى، وعبارات أخرى لم تعد، لفرط ابتذالها، تقطع نياط القلوب، «المرحومة أخت، أو

والدة، أو بنت عم، أو عمّة فلان الفلانى ظاظا، المدير فى شركة كذا، أو رئيس مجلس كذا، أو اللواء كذا، وهلم جرا».

لقد كان للنبأ تأثيره، بالفعل، فى مواقع عديدة بالدولة، فمثلاً، إحدى الشخصيات المرموقة فى الحزب الحكومى، وجد فى الذهاب للعزاء فى فاطمة هانم ظاظا، فرصة مواتية للتهرّب من حضور ندوة عامّة تناقش سياسة حزبه، فيما يتعلق بالمشكلة التموينية، من ناحية أخرى، اعتذر محام كبير عن مقابلة موكّله، فى قضية خاسرة، عند المساء، للسبب نفسه، وإذا كانت هذه أمثلة سلبيّة، فإن الأمر لا يخلو من إيجابيّات أيضًا، فقد فكرّ رئيس قسم حكومى صغير أن يطلب من ابن فاطمة هانم ظاظا، الذى عمل معه لمدّة عشرين سنة، فى إدارة واحدة، أن يتوسّط لتعيين ابنته الجامعية، التى تخرجت حديثًا، فى أى شركة أو قطاع حكومى، من القطاعات التى يهيمن عليها أقاربه ومعارفه، أما مدير شركة السوائل الكيماوية، والذى كان يعرف الابن نفسه، معرفة جيّدة، من خلال أحد نوادى الصفوة الاجتماعية الممتازة، وهو نادى الطاووس الذهبى، فقد فوجئ بالخبر الذى قرأه فى صفحة الحوادث بالجزيرة، بينما كان يقوم بعملية إنزال متعثر فى الحمّام، عند الصباح، وتأسف كثيرًا لأن تموت امرأة غنية جدًا كفاطمة هانم ظاظا، هذه الميتة الفظيعة، غير أن ذلك لم يمنعه من التفكير فى أنّ ابنها سيرث ثروة لا بأس بها تؤهله لأن يفاتحه، مرّة أخرى، فى مشروع شركة الكيماويات الخاصة، التى يرغب فى إدخاله شريكًا له بها، وكان ابن المرحومة قد اعتذر، نظرًا، لعدم قدرته الماليّة.

وحتى قبل مساء ذلك اليوم، كان كل شىء يجرى على نحو طبيعى، وسكرتيرو المديرين وصغار الموظفين، وفراشو المكاتب، الذين كُلفوا بالاستفسار بسرعة، عن مكان وموعد العزاء، تلقوا جميعًا إجابة واحدة مقتضبة، شاركت فى العديد منها فاطمة هانم ظاظا بنفسها، كلما كانت قريبة من موضع الهاتف، حيث كانت تردّ بوقار: حياتك الباقية، إنشاء الله، العزاء فى جامع الأمراء الليلة، البقيّة فى حياتك. ثم تضع السماعة بهدوء.

عندما وصل رئيس شركة الأزرار، ومستلزمات الخياطة، إلى سرادق العزاء، المنصوب بجوار جامع الأمراء فى المساء، لم يجد فيه أحدًا، من أهل المتوفاة، استطاع التعرف عليه لا ابنها، رئيسه السابق، ولا أحدًا، من أولاده، الذين يعرفهم جيدًا، فجلس بهدوء يستمع إلى ما تيسّر من تلاوة قرآنيّة. الشيء نفسه حدث لكل الذين نشطوا فى الصباح، وسارعوا بإرسال الزهور، وتدبيج صيغ النعى، وأمروا موظّفيهم بإجراء الاتصالات الهاتفية، فكانوا ينزلون من سيّاراتهم بوقار، وعندما يقتربون من السُرادق المقام بالجامع، ويقرأون اللافتة العريضة، المكتوب عليها اسم المتوفى، يكتشفون أنهّ ليس اسم فاطمة هانم ظاظا، فيتملّكهم الخجل، ويدخلون السُرادق، ولا يستطيعون التراجع، بينما القرآن يتُلى، وأهل المتوفى فى حالة خشوع حزين.

مدير شركة السوائل الكيماوية، الذى يمكن القول عنه أنه شخص غير صبور، لم يتمالك نفسه عندما رأى رئيس شركة الأزرار، الذى كان زميلاً له، خلال بعثة الدكتوراه فى أمريكا، فتوجّه إليه، وجلس إلى جانبه، وسأله فى لهفة واستغراب: هل شُفت ابن المرحومة؟.

ولما نفى مدير شركة الأزرار أن يكون قد شاهده، وأكدّ، أيضًا، أنه لم ير أحدًا من أقارب المتوفاة، وهو يعرف بعضهم، ثم أن اللافتة لم تشر إلى اسم المرحوم، كما هو واضح.

عند ذلك، لم يتمالك عضو الطاووس الذهبى نفسه فهبّ واقفًا، لينسحب، ثم ليأمر سائق سيارته بالبحث عن جامع آخر للأمراء فى المنطقة، أو أى جامع سواه، به سرادق للعزاء، فلم يجد، ولذا اقترح السائق العجوز، الذى ملّ التجوال فى المدينة، على مخدومه معاودة الاتصال الهاتفى ببيت فاطمة هانم ظاظا للأستفسار. فى هذه المرّة، ردّت الخادمة، وأبدت ضيقها الشديد لأن الوقت متأخر وليس موعدًا لمكالمة، ودهشت جدًا من الاستفسار السخيف، عن مكان العزاء، فى سيدتها، على وجه التحديد، ولمّا كانت حمقاء، متهوّرة، لها رأس ضخم لا يحوى بداخله إلا مخّ دجاجة صغيرة، فقد سبّت، المتحدث على الطرف الآخر،

بسرعة، ثم أغلقت الخط فى وجه السائق، وراحت تتأسف لوقاحة الناس، التى بلغت حدّ المعاكسة، بالهاتف، على هذا النحو.

كان الغيظ قد بلغ حدّه برأس عضو الطاووس الذهبى، وكذا كانت حال الجوع ببطنه، فأمر سائقه أن يتوجّه إلى مطعم فندق كبير، اعتاد تناول عشائه فيه، وهو يراقب أفخاذ راقصة سمراء، تتمايل على دقات الطبل.

ثم إن الجميع باتوا فى حيرة من أمرهم، ولأنّ الموقف كان غرائبيًا بالنسبة لهم، وغير مفهوم أبدًا، ولأنّ ما حدث كان محور كلامهم، سواء مع زوجاتهم، أو عشيقاتهم، فى بداية الليل، بسبب كل ذلك اللغط، واللغو، والتفسيرات، والتحليلات، التى تداولوها، فقد احتلّت فاطمة هانم ظاظا أيضًا الوقت المخصص لأحلامهم هذه الليلة.

مدير شركة الأزرار حلم أن المرحومة قامت بافتتاح خط إنتاجى جديد، فى المصنع، أنشىء تماشيًا مع سياسة الانفتاح الجديدة؛ كانت تتفقد الأزرار الفاخرة المصنوعة من الزجاج النقى، والماس الصناعى، بينما هو يدلى بتصريح للصحافة، يؤكدّ فيه أن هذا الخطّ أقيم خصيصًا ليلبّى الحاجة إلى أزرار المنامات الشعبيّة، وجلاليب الصعايدة والفلاحين، بواقع خمسين زرًا لكل مواطن فى السنة؛ وأنها بعد قصّ شريط الافتتاح ذى اللون البنفسجى، قامت بابتلاع زر كبير، كادت أن تختنق به، مما دفعه لأن يهجم عليها، ويطرحها على رأسها، وفقًا لطريقة زرع البصل، ثم ينادى جميع المدعوّين ليشاركوه الخبط على مؤخرتها حتى تتقيأ ما بلعته.

أما عضو الطاووس الذهبى، فقد حلم أنه التقى فاطمة هانم فى الطريق، ثم أغواها، فقبلت، بعد تمنّع، دعوته على العشاء فى مطعم الفندق ذى النجوم الخمسة، الذى تعشّى فيه فعلاً منذ ساعات، وبينما هو يراقصها على موسيقى ناعمة، تحت أضواء خافتة، قام بقرصها من أذنها بشدّة، وهو يهددها لتعطيه كل الفلوس، التى معها، وإلا فصل أذنها عن رأسها، وأنهّا أخذت تتأوه، ولكن أحدًا لم يعرها اهتمامًا، ظنًا أنها تأوهات استمتاع بأشياء تحدث فى ظلّ هذه الأضواء، الخافتة، عادة.

والحقيقة أنّ هذه الأحلام لم تكن نهاية الحكاية التى تعقدّت جدًا فى صباح اليوم التالى، فبمجرد أن وصل مدير شركة الأزرار إلى حجرة مكتبه، المبطّنة بالجلد، فى مقرّ الشركة، وقبل أن يضغط على الجرس، الموضوع إلى جواره، ليطلب قهوته الصباحيّة، ويقرأ اسمه المنشور فى الجريدة بالبنط العريض، معزّيًا فى فاطمة هانم ظاظا، رنّ الهاتف الموضوع أمامه رنّات ملحّة وكان المتحدّث، رئيس الشركة السابق، ابن فاطمة نفسه، الذى جاء صوته مهتاجًا، وغاضبًا جدًا، لما ابتدره، قبل صباح الخير، قائلاً: كلام فارغ، سخافة متناهية. ثم أنت محتاج حاجة بعد الشركة، أنا تركتها لك، وخلاص، ابعد عنى يا أخى. ثم أغلق الخطّ بعنف كما لو أنه سدّد لكلمة لأنف مدير الأزرار، الذى بدا، ربما بحكم طبيعة العمل، أشبه بزر مستدير، ذى ثقبين.

عمّال الاتصالات العمومية، شاركوا، خلال هذا اليوم، فى مهمة توبيخ الطاووس الذهبى، من خلال استجاباتهم النشطة، لطلبات مكالمة كلّ الذين نشروا النعى فى الصحف، ضمن خطة ابن فاطمة هانم ظاظا، لكن بحكم أخوّة الطاووس الذهبى، وقوانين النادى الصارمة، باعتباره فرعًا لناد دولى، له فروع فى جميع أنحاء العالم، فإن غضب ابن فاطمة الهادئ، سمح له أن يفسّر الموقف، مؤكدًا له أن سكرتيرته اتصلت، صباح أمس، بالفعل، بالبيت، وتأكّدت من موعد العزاء، ثم حكى له عن دهشته من عدم وجوده فى العزاء، ولم يحك له عن الحلم بالطبع، وبدأت المسألة تتضح شيئًا فشيئًا.

لقد مات جار لفاطمة هانم فى العمارة، وكانت تظنّ ببراءة من تخطّى السبعين، من العمر، أن المكالمات كانت بخصوص العزاء فى الجار المتوفى، الذى لم يكن يحمل اسم ظاظا إطلاقًا، وكانت تردّ بمنتهى الرضا، لتدلّ المعزين على مكان العزاء. هدأ الابن قليلاً. ثم أنه فى اليوم التالى، نشرت، الصحف الثلاث، فى عدة سطور، تحت عنوان «توضيح» ما يلى: «جاءنا من السيّد الدكتور عفّت ظاظا أن والدته السيّدة فاطمة ظاظا بخير، ولم يصبها أى مكروه، وأن لا علاقة، من قريب، أو بعيد للخبر المنشور بصفحة الحوادث، يوم كذا، بها، فلزم التنويه».

أما الخبر الذى كان قد نشر بصفحة الحوادث، يوم كذا، فكان كالآتى: «لقيت سيّدة عجوز تدعى فاطمة ظاظا مصرعها فى الطريق تحت عجلة عربة مجار مسرعة، أردتها قتيلة على الفور، وقد قُيّد الحادث قضاء وقدرًا، لأن السيّدة كانت تُعانى من التهاب فى القرنيّة، وضعف بصر حاد، وقد أمر المحقق بدفن الجثة».

ياذا الهنا .. ياذا الهنا

ما كان ذلك اليوم عيدًا كبيرًا، ولا صغيرًا، وما كان فرحًا من الأفراح، إلا أن حالة الاستعداد الأقصى كانت قد أعلنت، منذ طلعة الصبح، لدرجة أن أبا فوزية - التى سماها بهذا الاسم لكونها، ولدت يوم زُفّت الأميرة فوزية إلى شاه إيران - ضرب الدنيا صرم، ولم يذهب للمصلحة كعادته، وهو الذى لم يحصل على إجازات أبدًا، ولا حتى العارض منها إلا فى الظرف الشديد القوى - فلقد قرّ قراره، ومال إلى رأى زوجته القائل أن «الوقت ضيق، والدنيا شتاء، يعنى اليوم - «بسم الله الرحمن الرحيم» - معفرت، فبمجرد أن نفطر ونلم مطرح الأكل، يكون الظهر قال الله أكبر، والنهار خلص». لذلك صحا الجميع مبكرّين، وأكلوا لقمة مع الشاى، ثم ذهب أبو فوز للحلاق ليأخذ شعره وذقنه، وانصرفت أم فوز لشئونها، فأخذت تحضرّ الغذاء، وتجمّل حواجبها ثم أنها أدخلت العيال الحمّام، أما فوزية نفسها، والتى كانوا ينادونها فوز، تحببًا، فقد ذهبت، بعد الحمّام، إلى الحاجة أمينة فى الدور الرابع بالعمارة، فكوت لها المرأة المحنّكة شعرها الخشن، وعملته على هيئة بلحات كبيرات، مستعينة على ذلك بأقلام الرصاص، فبدا جميلاً لامعًا بلونه البنى الداكن، وأصبح رأسها الصغير يشبه، من بعيد، رأس الملكة مقصوفة الرقبة مارى أنطوانيت. وبالإضافة إلى هذه الخدمة الممتازة، من الحاجة أمينة، تفضلت تلك الجارة الطيبة، مشكورة، بإقراض أم فوزية معطفها الأسود ذى الأزرار الستة، والذى كانت ياقته الضخمة فراء أرنب لونه أسود فى أبيض، وقد

قامت أم فوزية بتثبيت مشبك من الماس الصناعى، بطرفه، كان على هيئة تمثال الحرية الشهير.

حتى الساعة الخامسة تقريبًا، لم تكن هناك تفاصيل أو أحداث مهمة تستحق الذكر، باستثناء إقبال عائلة فوز على التهام دجاجة وديك ذبحتهما أمها، احتفاءً بهذه المناسبة السعيدة، والحقيقة أنها كانت ستذبحهما إن عاجلاً أو آجلاً، حتى لو لم تكن هناك مناسبة، لأن الدجاجة صارت تأكل بيضها، بمجرد أن تضعه، وفشلت معها كلّ الحيل حتى ترعوى وتمتنع، أما الديك، فرغم أنه عتيق، وعاش عمره بما يكفى، إلا أنه لم يكفّ عن أعمال الشغب والشقاوة فى السطح، وظل يصرّ على خوض معارك فاشلة مع ديك آخر فتى. بالإضافة إلى ذلك، قامت فوز بتوصيل طبق بسبوسة للحاجة أمينة من صينية صنعتها أمها تأكيدًا على الرضا والسعادة فى هذا اليوم المشهود، وما عدا هاتين الواقعتين، فقد كانت بقية الأحداث تتجسد حلمًا فى ذهن أخى فوز الصغير، الذى تصور أن جائزة أخته ستكون بندقيّة فخمة، وفى تصور آخر صغير وعادية، وربما كانت مسدسًا يرش الماء، وقد ظلت الصور تتلاحق وتتواصل فى ذهنه حتى اللحظة التى تقبّله فيها أخته، وتقول له: خذها لك يا حسن، فأنا بنت، ولا أحب اللعب بالبنادق والمسدسات، فيشكرها، ويطير بالجائزة، جاريًا للشارع، ليباهى بها كلّ العيال، الذين يتوسلون إليه أن يدعهم يلهون بها قليلاً، أو حتى مجرد أن يلمسوها، فيرفض، وينظر باحتقار لكل بنادقهم ومسدساتهم التافهة المصنوعة من قطع الخشب القديم، ومشابك الغسيل، ويسخر من ذخيرتهم، التى لم تكن سوى نوى البلح الملموم من أرض الحارة.

أما أبو فوز، فكان، على عكس ابنه تمامًا، لا يفكر فى شىء عينىّ، كان فقط يتمنى مبلغًا من الفلوس، بحدّ أدنى ثلاثة جنيهات، يسيّر بها نفسه وأمور بيته حتى نهاية الشهر، وكان يتنامى لديه شعور داخلى بعدالة منطقه كلما اقتربت الساعة من الخامسة، وخصوصًا أن حماسه لهذه المناسبة كان قد خبا قليلاً، ربما بسبب الدجاجة التى افترى، بعض الشىء، فى التهامها، وربما لكونه تهور، وأنفق فيما لا لزوم له، خلال ذلك النهار؛ الحلاقة التى كان يمكن تأجيلها، وحذاء فوز

الجديد، بالإضافة إلى صينية البسبوسة التى كان يمكن الاستغناء عنها، والاكتفاء بالشاى كحلوى ما بعد وجبة الغداء. أم فوز كانت تستحم آنذاك، تتويجًا لجهدها المبذول طوال اليوم، وبينما كانت تفرك بطتى ساقها، اللتين نفرت عروقهما من شدة الوقوف والتعب، وتغنى بصوت مبحوح: «جاب لى القبقاب فى وابور ركاب»، ظلت تردد لروحها بين الحين والحين، وهى تتصعب: «آه لو تكون جائزة فوزية حاجة تنفع فى البيت». أما هذه الحاجة النافعة، فكانت أشياء لا حصر لها، تبدأ ببطانية صوف ترمِّ عظامهم فى الشتاء، وتنتهى بحقيبة جلدية جميلة لفوز، بدلاً من المخلاة المصنوعة من التيل، التى تحملها كل يوم على كتفها وهى ذاهبة للمدرسة. والحقيقة أن فوز نفسها لم تفكر فى الهدية كثيرًا، لأنها كانت مشغولة، وسعيدة، بكل هذا الاستعداد المخصص لها، لقد بلغ حماسها وانفعالها بهذه المناسبة الحدّ الذى جعل وجنتيها تحمرّان لأول مرة فى تاريخ حياتها، حيث كانت دومًا مصفرّة الوجه، ضعيفة البنية، ربما بسبب إفطارها الذى يتكون عادة من الخبز المغموس فى الشاى، أو لأنها لا تأكل اللحوم والفواكه، إلا فيما ندر، وعلى أية حال، فهى مثلها مثل الجميع، لم تشاهد أى كائن متورّد الخدّين إلا فى الإعلانات، أو فى المجلات الملوّنة.

على خيرة الله

فى حوالى الخامسة، تحرك موكب آل فوز، ومعهم خديجة بنت الجيران، التى أتاحت بطاقة الدعوة اصطحابها أيضًا، لأنها كانت مقصورة على خمسة أفراد وإلا لكانوا أخذوا معهم كل الجيران والأحباب، الذين عرفوا أن فوز سوف تتسلم جائزة من المدرسة، فوقفوا يطلّون من الشبابيك والأبواب فى إعجاب، حيث سارت أم فوز بهدوء، إلى جانب زوجها، الذى خطا مشرئب القامة، بشاربه الهتلرى، الذى ظل محتفظًا به، ربما كشاهد حى على فظائع الحرب العالمية الثانية، التى لم يشارك فيها إلا بالاختباء فى بئر السلم مع بقية الجيران، وقت الغارات. وكانت فوز متألقة فعلاً فى فستانها التافتاه الأزرق، الذى احتفظ قماشه برونقه، رغم أنه كان، فى الأصل، فستانًا لأمها فشلت فى ارتدائه بعد أن سمنت وزاد وزنها لمّا حملت وولدت، ويمكن القول أن فوز شعرت، لأول مرة فى حياتها،

بأنها كبيرة، ويجب أن تكون عاقلة ومهذبة، تتحدث بصوت خفيض، كما تطلب منها أمها دومًا، ولا تلعب «حجلة» فى الحارة، وقد تزايد فى داخلها هذا الشعور بعدما تملّت نفسها فى المرآة وأيقنت كم هى جذابة، بشعرها المرتب، وحاجبيها المهذبين، لكن كان هناك شىء واحد يؤرّقها هو الحذاء الجديد الواسع، الذى يعوق حركتها بعض الشىء، فلقد أصرت أمها على شرائه واسعًا ليبقى صالحًا للاستخدام فى السنة المقبلة، نظرًا لتمدد قدمى فوز المستمر، الذى لا يمكن كبح جماحه، ورغم أن أمها حشرت فيه تحقيقًا مصورًا امتد على أربع صفحات رئيسية من مجلة آخر ساعة، وزعتهم فى كل فردة عند البوز، لكنّ المسكينة ظلّت مضطرة لجرجرة رجليها على الأرض، ولم تتمكن من النطّ والدبيب، كما تتمنى، فى سهولة ويسر، ولكن عمومًا لم تحزّ هذه المسألة البسيطة فى نفس فوز كثيرًا، لأنها ظلت فرحة جدًا، لدرجة أنها بمجرد وصولهم للمدرسة، تركتهم جميعًا لتنضم إلى بقية زميلاتها اللواتى سيقدّمن العرض الغنائى الراقص فى الحفل.

أما أهلها وخديجة، فقد راحوا يتّخذون أماكنهم على الكراسى، التى ما كادوا يلامسونها بمؤخراتهم، حتى اعتدلوا واقفين، لأن الستارة كانت قد فتحت، وعزفت الموسيقى لحن «نسر مصر ارتفع، واعلُ طول الزمن»، وساد الصمت احترامًا للسلام الجمهورى، ثم جاء مقدّم الحفل بعد انتهاء ذلك ليعلن عن بداية البرنامج بخير الكلام وأعظمه، فجاء شيخ وجلس على كرسى مذهب عالى، وضع على خشبة المسرح، وراح يرتّل: «فبأى آلاء ربكما تكذبان»، وكان صوته مؤثّرًا جدًا، فلكز أخو فوز أمّه، وتساءل بدهشة: هل مات جدى مرة أخرى؟!. أما الفقرة التالية فكانت كلمة المربّية الفاضلة، ناظرة المدرسة، كما أعلن مقدم الحفل، فسارعت الفاضلة، التى كانت عجوزًا من اللواتى حرمن الزواج بسبب قانون التربية والتعليم الذى يمنع العوانس من الزواج نهائيًا، وإلا طردن من العمل سارعت بتحية الحضور وشكرهم، وتبيان الهدف من الحفل، وأهمية دور التعليم فى هذه المرحلة الخطيرة من حياة الأمة المصرية، ثم وصلت إلى الموضوع الرئيسى فى كلمتها، فشتمت الاستعمار والصهيونية، وحيّت مدينة بور سعيد الباسلة، التى صمدت لغدر ثلاث دول فلما صفّق الجميع بحرارة عند ذلك الحدّ،

زادت فى كلامها وعادت، والناس تصفّق، فلما دعت العلى القدير أن يحافظ على الثورة وقائدها، عرف الجميع أن خطبتها أوشكت على الانتهاء، ولم تخيّب ظنّهم، فقالت: والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فتعالى تصفيق فاتر، وهمهمة مختلطة بسعلات المدخنين وصراخ الراضعين، الذى لم يتوقف بعد أن فتحت الستارة بمجرد إغلاقها، فظهرت فوز مع البنات والأولاد لتغنى: «سَدّ يا لندن سَدّ.. خلى باريس تتسَدّ»، ولمّا كان أخوها يعرف بقية النشيد، وكذا أطفال كثيرون يبدو أنهم سمعوه من قبل، تعالت أصواتهم مع المنشدين على الخشبة: «وإحنا هنبنى السَّدّ.. ولا نسأل عن حدّ». فبدا الانشراح والبشر على وجوه الناس، ودمعت عينا أم فوز لشدة انفعالها وتأثرها، بينما الفقرات المعدة للحفل تتوالى وتذاع، وحماس الجمهور يلتهب، وقد بلغ ذروته. لمّا غنّت فتاة صغيرة ذات صوت عميق: «يا غادر يا صهيونى.. أفدى فلسطين بعيونى»، فصفق الرجال، وزغردت النساء، وراح أبو فوز يهزّ فخذيه بشدة، وهو جالس، وكانت هذه عادته عندما ينفعل، فاضطرب ابنه الجالس إلى جواره لذلك، وتصور للحظات قصيرة أن أباه سيضرب أمه.

أخيرًا جاءت لحظة توزيع الجوائز، فصمت الجميع وترقّبوا، وتطلّعت الأعناق بشغف إلى الباب الخلفى لخشبة المسرح، حيث ستهلّ السيدة الناظرة لتعلن أسماء التلاميذ المتفوقين وتعطى لكل منهم جائزته.

مرت فترة ثقيلة بعد ذلك، لم يعد مهمًا سرد ما جرى خلالها، لكن الجميع خرجوا من المدرسة حيث سار أبو فوز فى الشارع بخطوات متثاقلة، يفكر فى ضرورة شراء دواء جديد لآلام معدته، بدلاً من ذلك الذى انتهى، وفى حاجته لمضاجعة امرأته عند الليل، حتى ولو كانت فى أيام الحظر، خصوصًا وأن صورة المرأة ذات الرداء الأحمر المنقّط، التى كانت تجلس على مقربة منه، واضعة ساقًا على ساق، ومبرزة ركبتيها البيضاوين، لم تفارق رأسه بعد، فراح يربت على ذراع زوجته المتشبثة به لئلا تسقط، حيث بدأ كعب الجزمة يخلّ بتوازنها بعض الشىء. وراءهم مشى أخو فوز يصرخ باكيًا، طالبًا أن يحملوه لأنه يريد النوم، بينما ظل يشتم خديجة متهمًا إياها بأنها داست على رجله، أما فوز فكانت تحملق بلا

مبالاة، مفكرة فى أن تتجرأ وتطلب من أمها شراء حلاوة طحينية ليتعشّوا بها، وكانت، آنذاك، تحمل فى يدها مصحفًا صغيرًا، كتب على غلافه الداخلى: إلى الطالبة المجدّة فوزية محمّد فريد بمناسبة تفوقها فى امتحان آخر العام، وأسفل ذلك الختم المطبوع، وفيه شعار الجمهورية، ثم اسم المربية الفاضلة ناظرة المدرسة وتوقيعها.

تعلّقت أبصارهم. بباب القادمين من السفر، كانوا قد وقفوا ينتظرون حوالى ساعة، ورغم ذلك فأقدامهم لم تملّ الوقوف، لأن الرغبة الجارفة فى لقاء فريد جعلتهم مستعديّن للوقوف ساعات أخرى فى انتظاره، فبالإضافة إلى السنوات العشر للغربة، التى قضاها بعيدًا عنهم، ها هو يعود إليهم متزوّجًا، أيضًا، من فتاة أميركية، سوف يرونها، لأوّل مرّة فى حياتهم، بعد قليل، ولسوف تعيش بينهم، كما قال فريد فى خطابه الأخير، لأنه ينوى الاستقرار فى مصر.

برزت من الباب امرأة شقراء تحمل حقيبة صغيرة، فهتف ناجى، الأخ الأصغر لفريد، ربما كانت هى، ولما لم يكن بجانبها أىّ رجل، استبعد الجميع أن تكون هى الزوجة الأميركية لفريد.

بدّلت الأم من وضع ساقيها، المتعبين من طول الوقوف، ثم اقترحت على نفسها أن تجلس قليلاً على مقعد من تلك المقاعد المخصصة لجمهور المنتظرين، التى يفصل بينها وبين صالة القادمين سياج حديدى، مما أتاح لها فرصة الاستمرار فى التطلع إلى باب القادمين. جاءت ابنتها، وجلست إلى جانبها لتستريح بدورها، ثم قالت:

ـ سامية، بنت عمّى، مفروسة من الغيظ.

كانت الأم تتأمّل بإعجاب حذاءها الجديد اللامع، الذى اشترته خصيصًا لهذا الاستقبال، منذ ساعات قليلة، فقالت بثقة ساخرة:

ـ كان عشمها فيه، عشم إبليس فى الجنة.

وأردفت، كانت متصوّرة أن غرامها باق فى قلب فريد طوال العمر، وأنّه بعدما ينهى دراسته، ويرجع، ممكن أن يرتبط بها، لكنّ عشر سنوات، تُنسى الإنسان، وتغيّر منه، وفريد، كان من المستحيل أن يفكّر فى المسألة مرّة ثانية، لأن وضعه تغيّر عن السابق، وأصبح دكتورًا فى الجامعة، ومستحيل أن يرتبط بواحدة تعليمها متوسط؛ عمومًا هى أصبحت مخطوبة، وبكرة تدخل بيت العدل، والموضوع كله يصبح فى خبر كان.

لم يعجب هذا الكلام الابنة، التى كانت تريد أن يستمر الكلام فى هذا الموضوع، فنار الغيرة من ابنة عمّها تحرق قلبها، فوجدت الفرصة مواتية لتقول:

- ثم أنها مسخت جدًا، بعدما سمنت وقصّت شعرها، وبان قصر رقبتها، وفريد، محتمل أن تصعب عليه معرفتها لمّا يشوفها بعد كلّ هذه الغيبة الطويلة.

أنهت الأم المسألة بحسم، كارهة التمادى فى النميمة على هذا النحو، فقالت:

- أصبحت شكل أمها وأهلها.

صمتت، وراحت تتخيّل، فى سعادة، شكل زوجة ابنها البكرى، تلك الأميركية، التى سوف تراها بعد قليل، فهى ستكون غالبًا، شقراء، رائعة، كالنسوة اللواتى تراهن يمتطين صهوات الجياد، خلف الرجال، فى التليفزيون، إنها بالتأكيد ستكون جميلة، رقيقة، ذات صحّة ورشاقة، تنهّدت، وتمنّت أن ينُجب، منها ابنها دستة من الأولاد، لتكون جدّة لهم، تفخر بهم أينما ذهبت، وكانت تفكّر فى الوليمة التى ظلّت تعدّ فيها يومين كاملين، بمناسبة قدوم العروس والابن الغائب، وهل ترى سوف تعجبها أصناف الطعام، الذى بذلت كل ما يمكن، ليكون متقنًا لذيذًا، ولم تبخل، فى إعداده، بأغلى أنواع اللحوم، والطيور، والسمن البلدى الأصيل.

دعت الله فى سرّها، أن يصلا بالسلامة، وأن يوفقّ بقيّة أبنائها فى زيجات ممتازة مماثلة لزيجة فريد، أما نادية، ابنتها الوحيدة، فكانت همّها الأول، وهاجسها المؤرّق للياليها دومًا، فهى قد بلغت الثامنة والعشرين، منذ عدّة شهور مضت، وتخرّجت من الجامعة، منذ فترة، لكنها لم توفّق، حتى الآن، فى عريس يناسبها، رغم أنها حلوة، ومهذبة، وعائلتها مستورة، شعرت بغيظ، فزفرت وقالت:

ـ كفاية تأخير.. مفروض أن الطيّارة وصلت من حوالى ربع ساعة.

ردّت نادية بسعادة:

ـ احتمال أن تكون شيلهم كثيرة، ومتعطلين فى الجمرك.

جاء أبو نادية وعمّها وجلسا بجانبهما، وأخذ العمّ يواصل تفكيره فى مسألة تلحّ عليه، منذ أن سافر فريد إلى أميركا، وهى: كيف أنه متطرف، ومع ذلك وافق الأميركان أن يكمل دراسته العليا عندهم، ودّ لو استطاع مفاتحة أخيه فى هذا الموضوع، لكنه خجل، لأنّه أيام المظاهرات، فى الجامعة، قطع علاقته به، ومنع أولاده من زيارة بيته، حتى لا يتأثروا بأفكار فريد الهدّامة، بخصوص الأميركان والحكومة، والكلام الذى كان يقوله عبدالناصر والشيوعيون، فأولاده وقتها كانوا صغارًا، فى سنّ طيش؛ فكّر فى صيغة مقبولة للكلام، وأخيرًا سأل أخاه:

ـ يا هل ترى أفكار فريد اختلفت عن الأوّل؟!.

قال الأب بضيق:

ـ الحياة فى أميركا تغيّر الحجر.

ثم أشعل سيجارة لنفسه، وراح يتطلّع إلى ابنه الآخر، المنتظر، دونما ملل، خلف السياج، لأخيه العائد من أميركا، بينما ظلّ الابن مركزًا ناظريه باتجاه باب دخول العائدين، مُفكّرًا فى الأسلوب الأمثل للاحتفاء بأخيه، وزوجته الأميركية.. هل من الأفضل أن يأخذهما إلى سهرة رائعة فى مركب عائم بالنيل، أم يصطحبهما إلى عشاء فاخر بأحد الفنادق الفاخرة، وسرعان ما داخله الضيق لأنه لا يجد خيارات عديدة أخرى فى البلد، وتأكّد من جديد أنّها بلد متخلّفة فعلاً، وإمكانية المتعة فيها محدودة جدًا، وفكّر فى أن أول شىء سوف يفعله عندما ينهى دراسته الجامعيّة، التى مازال أمامه عام كامل لينهيها، هو أن يسافر فورًا، ولعلّ أخيه يستطيع أن يحقق له حلم العمر، ويساعده فى السفر إلى أميركا، وإيجاد فرصة عمل له هناك، وعندئذ فلابدّ أنه سوف ينشىء علاقة مع فتاة أميركية، جميلة، شقراء مثلما يتمنى دومًا، وربما تزوّجها بعد ذلك لأن الأميركيات مثل الأوروبيات، ليست لهن مطالب زواج من مهر وخلافه، بالإضافة إلى أنهنّ سلسات جدًا.

مال العمّ على أخيه، متشكّيًا، فى محاولة جديدة لقتل زمن الانتظار.

ـ تصوّر، الولد، خطيب سامية بنتى، رافض أن يكتب خمسة آلاف جنيه مؤخر صداق، وكلّما كلّمته فى موضوع المطبخ والنجف، يماطل: وآخر مرّة قلت له: آخر مهلة لك حتى نهاية الشهر، ثم يصير لى كلام جديد معك.

نظر الأب إلى ابنته الجالسة إلى جوار أمها، بقلق، وتمّنى لو أنّ أخاها يشوف لها واحدًا من زملائه، فى أميركا، تتزوّج منه، عندئذ لن يطلب منه أى شىء، لأنّه يتمنّى أن يسترها، والسلام فهى كما الهمّ على قلبه، وخصوصًا بعدما بلغت الثامنة والعشرين دون أن تتزوّج.

صاح الأخ الأصغر، فجأة: فريد وصل؛ فهبّ الجميع من أماكنهم واقفين لاستقباله، وكانت نادية تفكّر فى الكلمات الإنجليزية التى سوف تنطقها مرحّبة بزوجته الأميركية، وارتبكت قليلاً لأنها لا تعرف معنى كلمة مبروك بالإنجليزية، بل واغتاظت لأنّ أخاها الصغير لم ينبهها إلى ذلك، جرت إلى فريد، الذى كان قد عبر السياج إليهم، وارتمت عليه تقبّله وتحتضنه، ثم أنها نظرت إلى المرأة الواقفة خلفه، تنتظر دورها فى التحية، بدهشة، فقال فريد موضحًا:

ـ نورث.. عروستى.

حياها الجميع متخاذلين، سلّمت عليها الأم بفتور، يعكس خيبة أمل، بينما أخذت فى تفحّصها، ولمّا شعرت أن ابنها، العائد، لاحظ ذلك استدركت قائلة:

ـ اسم النبى حارسها وصاينها.

بينما ظلّت تحملق فى وجهها ذى البشرة المصفرّة وعينيها الضيقتين المسحوبتين إلى أعلى، عند الزوايا الخارجية لهما، وأنفها القصيرة الأفطس، بينما شعرها الناعم ينسدل على أذنيها الصغيرتين، كانت قد أصيبت بدهشة شديدة، لم تستطع إخفاءها حتى بعد أن ركبوا السيّارة قافلين إلى المنزل، وكان صمت قد بدأ يشملهم، بعد تبادل عبارات الترحاب والشوق، فقال فريد بسعادة:

ـ بالمناسبة يا جماعة نورث أصلها من الأسكيمو.

ثم راح يقصّ عليهم ظروف زواجه السريع منها، فهو لم يكن يفكّر فى الزواج من أميركية أبدًا، رغم السنوات الطويلة التى قضاها هناك، والتى كان فيها متفرغًا تمامًا لدراسته، ولكنه منذ عدّة شهور أصيب فى حادث سيارة، وكانت نورث ممرّضته، التى ظلّت ترعاه، وتقف إلى جانبه نفسيًا، فى المستشفى حتى شفى تمامًا، وربّما فسّر ذلك كونه لم يكتب لهم طوال تلك الفترة، ولم يخبرهم بتفاصيل زواجه المفاجئ منها.

كانت آلام المرارة، المعتادة، قد بدأت تعاود الأمّ، فى هذه اللحظات، حيث أخذ ينتابها شعور بالغثيان والدوار بين الحين والحين، وكانت تفكرّ: هل يمكن أن تكون هذه المرأة أميركية فعلاً، مثلما تظنّ بالأميركان، ثم ما هذا الفستان القطنى الرخيص، ذو اللون الباهت الأجرب الذى ترتديه؛ كانت تفكّر فى منظرهم عندما ينزلون من السيّارة ويراهم الجيران، الذين عرفوا خبر عودة فريد، وعروسه الأميركية، عندما يتلصصون عليهم من الشبابيك والشرفات، وكم ستفرح سلفتها وتتشفى فيها، وربما تتدّرت على تلك الأميركية العجيبة، والأدهى عندما تقول لها أنها تعمل ممرّضة.

لمّا بلغوا البيت، كان الشقيق الأصغر قد قرّ قراره على إلغاء الدعوة الفاخرة، والاكتفاء بمصاحبتهما لاحتساء البيرة فى مكان على النيل، أمّا الأب فكان ينظر إلى ابنته، التى كانت ما فتئت تقضم أظافرها بقلق، بين الحين والحين، ويزفر بحرارة مؤكدًا لنفسه أن الدنيا حظوظ فعلاً، بينما كان عمّ فريد قد أيقن فى قرارة نفسه أن فريدًا لم يتغيّر كثيرًا رغم كل السنوات الطويلة، التى قضاها فى أميركا.

أغلقت الباب خلفهم، بعنف، ولما توقف وقع خطواتهم على السلم، استدارت تتفحّص الأشياء بعينيها، كانت الصالة الصغيرة تبدو وكأن عفريتًا قد غادرها للتو، بعد أن قلب محتوياتها، رأسًا على عقب، حيث استقرّت المنضدة الخشبيّة القديمة على جانبها، وتكوّم كل ما عليها، من كتب، وملاعق وصحون، وأشياء أخرى، على الأرض، أما الأريكة التى كانت تستخدم كسرير لمصطفى، فى الليل، ومكانًا لاستقبال الضيوف، فى النهار، فقد برزت أحشاؤها بعنف، كما لو أن سيارة اقتحمت عليها مكانها، تحت الشباك، ودهمتها فجأة، ومن بين كلّ الأشياء التى حاولوا إسقاطها عن الحوائط، كالساعة القديمة، ذات الرقاص، وصورة الطفل الباكى، ولوحة الجدول الجارى، التى اشتغلتها بالكانفاه ذات يوم، من بين كل تلك الأشياء، بقيت صورة الأب بنظراته الهادئة تطل عليهم من مكانها، كما لو كانت قد ارتدت طاقية الإخفاء، فلم يقتربوا منها ويحطّموها كما فعلوا ببقية الأشياء. تنّهدت المرأة، ونظرت إلى عيالها المكومين فى أقصى الركن، بجانب بعضهم، وقد ألجمتهم المفاجأة، بينما وقف مصطفى يحاول إخفاء اضطرابه بطقطقة أصابعه، وعيناه تجولان فى المكان، حتى اصطدمتا بعينيها، فغرزت نظراتها فيه، وهى تعلن:

- أصلك أس البلاوى... شفت آخرتها؟!.

أطرق برأسه إلى الأرض، بينما أخذ يستند بظهره إلى الحائط، أسفل صورة أبيه، مفتّشًا بيده فى جيب منامته، بحثًا عن السجائر والكبريت، فلما وجدها، أشعل واحدة، وهو ينظر إليها بعتاب، وهمس لأخته:

ـ وحياتك يا سوسن أعملى شاى.

كان متيقّنًا أنها ستبدأ ما تيسّر من سورة الزجر والتبكيت بعد قليل، فلم تكن هذه هى المرّة الأولى التى أسمعته فيها ذلك، لكنه، قرّ قراره، ألا يرد عليها أبدًا، مهما قالت، وشتمت، وبلغ بها الأمر، فالوضع اختلف الآن عن كل المرّات السابقة، لأنهم جاءوا هذه المرة يفتّشون، ويبحثون بأنفسهم، ويطلبون ابنتها، وهى معذورة، على أى حال، لأن موقفها صعب، فهذه أول مرة تواجه مشكلة من هذا النوع.

لم يخب ظنه كثيرًا، فقد فكّت منديل رأسها، وأعادت تكوير شعرها المشوش داخله بإحكام، بينما بلغت أرنبة أنفها، وطرفى أذنيها، حالة الاحمرار القصوى، فأخرجت صوتًا جافًا قاسيًا، وبدت كما لو كانت تكلّم نفسها، بينما أتون غضبها يجعلها تخبط بكفّيها على ركبتيها، بين الحين والحين.

ـ يعنى، ياناس، أقطّع نفسى.. ناقصة. همّ فوق همّى.. أقول يوم لقدّام، أبصّ ألاقى مصيبة حطت على دماغى.. والله حرام.. حرام يا مؤمنين.

استقرّت غصّات فى حلوق العيال وقد رأوا أمهّم يعتصرها الألم، وبدأت تباشير دموع فى مقلهم، فشعرت أن كلامها قد بدأ يفعل مفعوله معهم، فواصلت:

ـ أصلك، يامصطفى، من يومك جلاب البلى، من ساعة زرع بذرتك فى بطنى، وقبل نهاية الحول مات خالك، وأمّ حسن جارتنا جاء لها شلل، وعمرى ما شفت يوم حلو بعد ما خلّفتك، أبدًا.. ياساتر.. ياساتر منك.

ابتسم مصطفى، وأجهض إخوته ابتسامات وشيكة على شفاههم؛ اقترب منها وأخذ يربت عليها، ويقبّل رأسها، مطيبًا خاطرها، وهمس لها.

ـ ما شى يا أم مصطفى.

جاءت سوسن، ووضعت أكواب الشاى، أخذت تعيد ترتيب الصالة، فهبّ اخوتها لمساعدتها بهدوء.

لان قلبها، وتفجّر حريق صدرها المكتوم دموعًا ونهنهات تداخلت مع كلماتها:

ـ يعنى أنا ناقصة، عيشتى شقا فى شقا، حتى تتعلموا وتبقوا أحسن الناس،

على أيديكم، محنية على المكنة، ليل نهار، لأجل قرش زيادة، يبقى، «نواية تسند الزير»، مع معاش أبيكم، وآخرتها، تضيّعوا أرواحكم فى السياسة، وشغل السياسة؛ طيّب، أنت يا مصطفى رجل، تقدر تحط رأسك مطرح ما تحط رجليك، لكن أختك هدى بنت، تبقى مصيبتها مصيبة، البنت تضيع يا مصطفى، أختك ضاعت يا مصطفى.

يبدو أن هذه الفكرة كانت غائبة عنها، فأخذت تدبّ على صدرها، بوجل، قائلة: يا مصيبتى يا حبيبتى، وأخذت تنشج بعنف.

جرت سوسن لتحضر منديلاً لأمها، التى بدأت تمسح دموعها بطرف جلبابها، فقفز أرنب، إلى وسط الصالة، قادمًا من المطبخ، فحاصره العيال، محاولين إمساكه؛ انتهز مصطفى الفرصة، وقال لها بحزم:

ـ هدى بمليون واحد، روقى ولا يكن عندك فكر، كلها يومين وترجع للبيت، خلّيكِ شديدة؛ من شافك وهم هنا، قالبين الدنيا، وأنت تزعقين فيهم، يقول أنك حديد، صلى على النبى، واستهدى بالله.

حمل إليها كوب الشاى، بينما أخذت تهمس لنفسها: ونعم بالله. ثم رشفت رشفة طويلة، ووضعت الكوب بجانبها على الأرض، وراحت تفهمه أن آخرة جريه ورمحه، هو وأخته وأمثالهما، لا يمكن أن تجلب نتيجة، لأنهم يحاولون وضع رأسهم برأس الحكومة، والحكومة عندها قوّة وعسكر، وأنهم لابد أن يكونوا، بقدّها فى القوّة والشطارة، وقالت له أنهم كالذى ينطح حائطًا برأسه، فلا ينوبه إلا كسر دماغه، وبكرة يشوف ويعرف. فلما قال لها أن أجمد حائط يمكن هدّه، أيضًا، وضعت كوب الشاى، الذى بيدها، على الأرض، مرّة أخرى، وعقدت حاجبيها بغضب، وصرخت:

ـ هل أنت ناو تعمل عمل أبوك وتخرب بيتنا مرّة ثانية، طيب، والله العظيم لأترك لك البيت، وخلّيها تدقّ معك، مطرح ما ترسى، يا مصطفى، لكن فرجنى الرجولة، وأكّل إخوتك، يا شاطر.

همّت أن تقوم خارجة، اعترضها العيال، فى وسط الصالة، قبل أن تتقدم خطوة، وارتموا عليها باكين، وهى تقول: ابتعدوا عنى، غلبت فيكم، كلكم عاملين عصابة مع بعضكم، وكل واحد منكم يتستر على الثانى، آه، يا أولاد الذين، ودين أمى، من بكرة مالكم إلا العين الحمراء.

نجح العيال فى إجلاسها مرّة أخرى، جاء أصغرهم، ونظر فى عينيها، وهو يقبّلها هامسًا فى حنان.

ـ خلاص، اقعدى.

نكست رأسها فى ضعف، وقالت لهم بهدوء، وقد تحلقوا حولها: أبوكم، زمان، ترك المصنع، من تحت رأس مشكلة من الصنف إياه، ومصطفى عارف الحكاية، من زمان، فلو كان أبوكم، الله يرحمه، فى الدنيا لحدّ اليوم، وبقى فى المصنع، لكان حالنا غير الحال، وكنّا وفّرنا على أنفسنا الهم.

أصرّ الصغير على سماع حكاية أبيه، من طق طق، للسلام عليكم، تنهدّت، وقالت له: يا سيدى، لما كان أبوك يشتغل فى مصنع، يملكه واحد خواجه، أيام زمان ـ وهى حكاية من سنين بعيدة ـ اشترك فى إضراب مع العمّال، وطالبوا بمطالب تحسّن معيشتهم، وصاحب المصنع، كان ابن حرام، ولئيم، فقال لهم أنه لا يمكن أن يوافق على مطالبهم، ومر شهر، ويزيد، ولما ساءت الأحوال، قالوا نفكّ الإضراب ابن الحرام شرط عليهم الرجوع للمصنع وعلى رءوسهم طرح سود، فامتنع أبوك، ومعظم العمال، وواحد منهم نوى أن يقتل الخواجة من شدة غيظه، لأن الخواجة أراد أن يذلّهم، ويمرّغ رءوسهم فى التراب، بسبب أن البلد ضيّقة، يعنى كان يحب أن يخلّيهم فرجة البلد، وأن يصيروا قدّام الناس مثل النسوان، ثم أن والدك، لما ضاق به الرزق، أخذنا وخرجنا من البلد، بعد أن تركنا أهلنا، وحالنا، وجاء بنا إلى هنا، يلقط رزقه، من أية ناحية تجلب له ولنا لقمة عيش، لكن بعدها بحوالى خمس سنين مات أبوك، وترككم كومة لحم فى رقبتى.

بكت بمرارة وهى تترحّم على زوجها، فبكى العيال، بينما ظل مصطفى، واجمًا، يتأمل صورة ابيه، مفكرًا فى أمه، التى تبكى الآن، بينما كانت صلبة قويّة، منذ

قليل، عندما داهم العساكر البيت بحثًا عن أخته، التى اشتركت فى مظاهرات الجامعة، طوال الأسبوع الفائت، وكيف أنّها ردّت على الضابط بتحدٍ وسخرية، لمّا قال لها أن ابنتها شيوعية، فقالت له: أصل، أنتم يا حكومة، لمّا تكرهوا أى إنسان تحطّوا فيه القطط الفاطسة، ثم أنها أخذت تقود الضابط والعساكر إلى كلّ مكان ليفتشوه، وهى تسبُّ الحكومة وتلعنها، معلنة أن «ربّنا نزع الرحمة من قلوبهم» لأن الطريقة التى يفتشون بها لا يمكن أن تكون إلا طريقة كفرة قلوبهم من حجر. وكان الذى أعجب مصطفى، منها، أنها لم تبكِ، أو تولول، طوال فترة وجودهم، وأنها تماسكت، حتى لا تدعهم يرون دموعها ويشمتون بها.

ابتسم وقد غلبه شعور قوى بالإشفاق عليها، وكان يسيطر عليه إحساس بأنها كبيرة ورائعة، وينبوع متدفق من الحنان الجميل، خصوصًا عندما قالت لأخته سوسن، لمّا لاحظت أن الولد الصغير قد بدأ النوم يداهمه:

ـ سخّنى لقمة للعيال بسرعة يا سوسن، قبلما يناموا.

تلونت شارة المرور الضوئية بالأحمر، فتوقف طوفان العربات المجنونة، الذى لا ينقطع، لتتدفع كتلة بشرية عابرة الطريق على عجل، مما جعل حسنيّة تعدل فى وقفتها وترفع عقيرتها صائحة:

ـ جرّب وشوف.. بختك بشلن.

أخذت تكرر نداءها مرات ومرات، ولما لم يتوقف عندها أحد، ألقت للفأر المنتظر فى قفصه قطعة من الخبز الجاف، ثم أخذت تتطلع من جديد إلى شارة المرور الضوئية، انتظاراً لزبائن متوقعين، بينما جالت برأسها الأفكار ذاتها، التى أخذت تلحّ عليها منذ عدة أيام، ومازالت تنغّص عليها حياتها، حتى هذه اللحظة: «قدّرى يابنت أن «عم حسن» طاب، وقام على رجليه، أربعة وعشرين قيراطًا، يبقى كأنك يا أبوزيد ما غزيت»، «طيب افرضى أن «عم حسن» وافق أن يجلب لك عدّة شغل، لمّا يقتنع أنك ناوية تلقطى رزقك فى مطرح بعيد عن الخارطة كلها، يبقى المشكل موجوداً، والعقدة ظلّت فى المنشار، لأن العدّة محتاجة فلوس، وهو يمكن أن يطلع فى العالى، ويقول فتح ونصر، لأنك عارفة أنه يموت على القرش ولا يمكن أن يفرّط به».

زفرت بضيق، وشعرت بغضب بالغ من زوجها، لدرجة أنها تصورت أنه لو ظهر قدّامها فى هذه اللحظة، لشالت أكبر حجر، ورمته عليه لتدش به دماغه، وتشرب من دمه، لأن كل الغلب الذى تعيشه جاءها من تحت رأسه، بعد أن تركها كالوقف فلا هو طلقها، ولا هو عاد إليها ليحمل همها، ويشعرها أنها واحدة تعيش فى الدنيا كبقية الخلق.

أحست أن الدنيا، فى عينيها، أضيق من خرم إبرة، فتركت الفأر بقفصه على الصندوق الكرتونى الذى تستخدمه كمنضدة، وسارت خطوات حتى وصلت إلى الصبى الجالس أمام فرش تناثرت عليه أربطة الأحذية وعلب الكبريت والأمشاط البلاستيكية، وقالت له وهى تكظم غيظها:

ـ هات نفسين والنبى يا عبد الرحيم.

سحب الولد نفسًا عميقًا من سيجارة بين شفتين لم يخط شاربهما بعد، بحركة استعراضية، يبدو معها كرجل صغير، ثم رفع رأسه وقدّم لها السيجارة، بينما كانت عيناه تجوبان تفاصيل جسدها أسفل الجلابية التى بدت شفافة بعض الشىء بفعل نور الشمس الصباحى، ثم قال لها وهو يتشاغل برصّ مرايات صغيرة على فرشه:

ـ خليها لك كلها شكرته بعد أن ملأت صدرها بسحبة طويلة من الدخان، وسارت إلى الفأر، ولما شعرت أنها استراحت قليلاً، أخذت تنادى من جديد:

ـ جرّب وشوف.. بختك بشلن.

فى لحظات، لم تعرف ما الذى حدث بالضبط، كأن القيامة قامت فجأة، حيث توقفت بسرعة أمام الرصيف سيارة رمادية ضخمة، ونزل منها فى سرعة البرق، عساكر وضباط، لتتطاير بعد ذلك فى الهواء علب كبريت، وورنيش، ومفاتيح معدنية، وأحذية بلاستيكية ومسامير، وأربطة أحذية، واختلط الضرب بالصراخ بالجرى بالزعيق، وكان العساكر يجمعون الأشياء من الباعة بسرعة خاطفة، ويقذفون بها فى جوف السيارة الرمادية الضخمة، ولما رأت الفأر الأبيض يدور دورة كاملة مع قفصه فى الهواء، ثم يختفى داخل السيارة، تيقّنت تمامًا أنهم عساكر المحافظة، فلطمت صدرها، وصرخت بأعلى صوتها:

ـ يا مصيبتى ياناس!..

إندفعت كالمجنونة فى اتجاه السيارة تحاول تخليص الفأر منها، واستعادته من جديد، لكنها تلقّت لطمة، من يد مجرية، على خدها. أدارت رأسها، فأخذت تسبّ وتشتم، والدموع تسيل من عينيها، حاولت مرة أخرى أن تستعيد الفأر، فاندفعت

تطبق بيديها على يد شاويش عجوز، محاولة إيقافه، قائلة له أن الفأر أمانة فى رقبتها، وأنها تجرى به على رجل عجوز مثله لكنه مريض، و«إلهى، يخليك لعيالك يا شاويش، ويكفيك شرّ الطريق هات الفأر، لأن ثمنه الشىء الفلانى، ومثله عزيز وجوده»، وقالت له أنها ستضطر لدفع ثمنه لصاحبه لأنه رأس ماله. لكن الشاويش كانت أذنيه واحدة من طين وأخرى من عجين، فسحب يده من بين يديها بعنف، وقال لها: غورى، وإلا رميتك فى السيارة وراء الفأر. وانشغل عنها بلمّ بقية الأشياء، التى تركها أصحابها من الباعة وفروا، فوقفت تنظر، وتخبط على رأسها فى يأس، لكن سرعان ما واتتها فكرة عندما رأته يشعل سيجارة، ويضع يده فى جيبه، فمشت إليه لتدس فى يده عشرة قروش خلسة، وهى تعدل من وضع طرحتها، وتهمس له:

- إلهى يجعل لك فى كل خطوة سلامة... والصندوق الكارتون والنبى. ووقفت تنتظر، بعدما أخبرها أنه سيفعل عندما يبتعد الضابط قليلاً حتى لا يلاحظه، وحاولت أن تبدو غير مبالية كلما مر أمامها ضابط أو عسكرى، بينما كانت تفكر فى حاجات الناس، التى أخذتها الحكومة، وهى كل ما عندهم، يشتغلون به ليقوتهم، واستغربت جداً من أمر الحكومة التى لا تكف عن ترصد الناس الغلابة، وتضع نقرها من نقرهم فى كل كبيرة وصغيرة، ولا ترحمهم، ولا تترك رحمة ربنا تنزل عليهم، وهى عاملة مشكلة لأن الناس واقفة تفتش عن حسنة مخفية، رغم أن السكة واسعة، والناس ماشية لحال سبيلها، والبياعين لم يدوسوا للحكومة على طرف، كما يفعل أصحاب الدكاكين الذين يشغلون الأرصفة والشوارع ببضاعتهم، وسياراتهم. تصعبت، واستعادت فى ذهنها ذلك المثل الذى يقول أن الذى ليس له ظهر يحميه يضرَب على قفاه.

تكهرب وجهها، فجأة، عندما عاد الشاويش من العربة، يد من وراء ويد من قدام، فاندفعت باتجاهه متسائلة ليقول لها:

- القفص انكسر، والفأر هرب.

- ارتخت مفاصلها، وهرب الدم من عروقها، فأخذت تدبّ بيدها على صدرها، من جديد وصرخت:

ـ يا خرابى يا أمى!.

ثم جلست على الأرض، تبكى وتولول، فنصحها الشاويش أن تترك المكان بسرعة، وتروح لأن الضابط لو شافها عاملة مناحة سيتضايق منها، ويمكن يلمّها فى السيارة مع الذين لّمهم، لأنهم لا يحملون بطاقات، وربما لبّسها تهمة، وتبقى حكايتها حكاية منيّلة بنيلة، فهبّت واقفة من الخوف، وبدت كالتى مات لها ميت، وراحت تجرجر رجليها، وهى تفكر فى المصيبة، التى طلعت لها من تحت الأرض، ولم تكن أبدًا على البال والخاطر، وحسبت الكلام الذى سوف تقوله وتعيده «لعم حسن»، جارها صاحب الفأر، فهى الوحيدة، من بين كل الجيران الذين يسكنون فى حجرات البيت، التى أستأمنها على الفأر، وعلى ماله، وطلب منها لمّا مرض، وبقى عاجزًا فى فراشه، أن تخرج وتسترزق بالفأر فى السكّة، كما كان يفعل، ويبيع به للناس الحظ والنصب، ثم أن المشكل سيكون أكبر لمّا يعرف أنها خالفت كلامه، ولم تقف بالفأر بجانب سور الجامعة، لأنها طمعت، ووقفت فى الشارع الكبير على الرصيف، مع بقية الباعة، الولد عبد الرحيم: هو الذى أشار عليها بذلك، وأوهمها أن الإيراد فى الموقع الجديد أفضل، لأنه قريب من الشارع العمومى، ثم إن «عم حسن» لن يصدقها، لأنه منذ ثلاثة أيام سألها عن الشهر الذى سيهل، فلما قالت له أنه أمشير، طلب منها أن تشد حيلها فى الشغل، وتهم بعض الشىء، لأن هذا يعنى أن الموسم قد بدأ، وامتحانات الطلبة قربت، يعنى، بقوا طالبين أن يشوفوا بختهم أكثر وأكثر.

بكت بحرقة. وشعرت أن ربنا انتقم منها لأنها اقتطعت بعض الشىء من الإيراد، فخلال الأيام التى مرت أخيرًا، كانت تخبئ ربع جنيه، كل مرة، من الفلوس لروحها، ولا تقول عليه لعم حسن لكن هذه الفكرة سرعان ما طارت من رأسها، لما تذكرت أن يده ماسكة عليها، ويعطيها القرش بالقطّارة، رغم أنها تقف طوال النهار، وفى الآخر يمدّ لها يده بخمسين قرشًا، علمًا أنها لا تقصر فى طلباته، عندما تعود آخر الليل فتغسل له، وتطبخ، وتؤكله اللقمة بيدها، لأن يده أصبحت ترتعش، وصار ضعيفًا جدًا، والأكثر من هذا أنها محتملة كلام النسوان عليها فى بقية البيت، لأنها داخلة خارجة من عنده، وهى ساكتة لأن الوضع مع

«عم حسن» أفضل ألف مرة من وضعها السابق، لما كانت تسرح فى المواصلات بعلب اللبان، والأمشاط؛ على الأقل صارت واقفة بالفأر فى مكان واحد، ولم تعد تسمع كلمة وسخة، من محصّل أو سائق أتوبيس، تسمّم بدنها كل ساعة والثانية، ولم تعد متعرضة طوال النهار للشتيمة وقلة القيمة.

كان يشتعل برأسها آتون نار، بينما هى سائرة فى طريقها إلى البيت، وبدت آلامها بلا حدود، ولو أنها صادفت، المخفى زوجها فى هذه اللحظة لقطعته إربًا، وجعلته كفتة، لأنه سبّب لها كل هذا العذاب الذى تعيشه منذ أن تركها، واختفى، ولأنه قطعها عن أهلها منذ تزوجها فى البلد قبل سنوات بعيدة، وجاء إلى هذه البلد، التى لا يعرف فيها النفر رأسه من رجليه، ولا يوجد بها من هو مستعد لأن يرفع نظره، ويبصّ فى عين الماشى قدّامه فى الطريق، فأمها ماتت منذ زمن، وزوجها لا يعقل أن يسأل عنها أبدًا، لأنه كان يمقتها مثلما كانت تمقته، أما عم حسن، الحنون عليها، والوحيد الذى لها فى هذه الدنيا، فسوف تفقده إلى الأبد بمجرد أن تصل إلى البيت، وتقول له أنها ضيّعت لقمة عيشه، وتركت الحكومة تخطف الفأر، وربما لن يصدقها إذًا ما حلفت له بتربة أمها. وقالت له أن الفأر هرب من الحكومة، والعسكرى لم يجده؛ والمصيبة أنها كانت تبنى آمالاً على «عم حسن» ولذلك كانت تتحمل أمارته عليها، وتصبر على طلباته الكثيرة، التى تجعل روحها فى منخارها، أحيانًا، لأنها كانت تحلم أن يحط فى عينه حصوة ملح، فى يوم من الأيام، ويقول لها: «لو متّ، يابنت ياحسنية، خذى كل حاجة عندى، لأنى مقطوع من شجرة، والحكاية على يدك، وأنت أولى من أى كائن فى الدنيا، المرتبة والبطانية، والكرسى، وبقية الحاجات، لأنك بنت طيبة، فضلت تحت رجلى، وبقيت فى خدمتى، كما لو أنك ابنتى، وطالعة من صلبى بحق وحقيق، ثم أن القرشين الموجودين فى سيالة الجلابية يمكن أن تأخذيهم، واشترى لك جلابية حلوة، وقميص نوم نايلون جديد».

سحت دموعها أكثر، وهى تتذكر كل ذلك، وتعضّ على شفتها بمرارة، بينما كانت تقترب من باب البيت، وتفكر فى مبتدأ الكلام، وفاتحته، مع «عم حسن» وتتصور شكله لمّا يعرف، فيغضب ويقلب خلقته، ويقول لها: «غورى من قدامى

يامنحوسة يا أس الفساد، يا حرامية، يا جلاّبة المصائب، رجلك سابك لأن خلقتك تقطع الخميرة من البيت». كانت قد وصلت لفناء البيت، فبكت أكثر وأكثر، ووجدت لمّة أمام باب حجرة «عم حسن» وصاحبة البيت واقفة تسد الباب بجسدها الضخم وتقول:

- إياكم أى واحد منكم يقرب منه لحينما يصل دكتور الصحة ويكتب له الورقة.

وعندما رأت حسنية تقترب منها، والدموع تملأ عينيها، قالت لها مدهوشة، أنت عرفت الخبر ياحسنية؟! بنت حلال والنبى، لأنك وصلت بسرعة، هاتى فلوس الإيراد لنجهّز طلبات الدفن ونشيّع المرحوم، بُكرة الصبح، إن شاء الله، ثم استدارت لبقية الجيران، وقالت لهم: إياكم أن يمس نفر منكم، أى شىء يخص «عم حسن» لأنى ناوية أبيع موجوده، بأذن الله، بدل إيجار الشهور المتأخرة فى ذمته لى.

بلاغة الغلابة(*)

فريال غزول

(...) الكاتبة المصرية سلوى بكر لا تنتمى إلى طبقة مستحكمة ولا جنس حاكم ولا زمرة متسلطة، فهى مهمشة على مستويات متعددة. تخرجت سلوى بكر من جامعة عين شمس بليسانس عام ١٩٧٢، ودرست النقد فى المعهد العالى للفنون المسرحية؛ وتمارس الآن الكتابة الإبداعية وهى عاطلة عن العمل. يبدو أن لا صحف المؤسسة ولا صحف المعارضة تريد أن توظف مواهبها، هذا بالرغم من إجماع النقاد الجادين فى الوطن العربى كله بموهبة سلوى بكر القصصية. ولكن للتهميش مزاياه فهو يترك لأديبتنا نعمة الانتماء إلى وطن وجماعة بدون الانخراط فى مؤسسة وسلطة. وهذا يفسح مجال الرصد والرؤية كمن يقف على محيط الدائرة وأطرافها، فلا هو خارجها لا يرى ما يجرى فى الداخل، ولا هو فى المركز تعميه مركزيته ومصلحته عن رؤية الكل. فمنظور المهمش أوسع من منظور صاحب المصلحة وأعمق من منظور الغريب، فالمهمش يتواجد فى موقع يسمح له باختراق القشور والمظاهر ليصل إلى الجوهرى والجذرى، أى أن موقعه يؤهله للراديكالية.

وعندما نصف أعمال سلوى بكر بالراديكالية فليس المقصود من ذلك أن صاحبة هذه الأعمال تناضل مع فرقة وتحارب أخرى بل المقصود أن أعمالها تنبش المظاهر وتنقب عن الجذور، لا تقتنع بالظاهر والسائد وتبحث عن الباطن والأصيل. وفى حقيقة الأمر أن كلمة «راديكالية» تعنى بالضبط «الجذرية» فهى

مشتقة من الكلمة اللاتينية «راديكس» (radix) التى تعنى «الجذر»، وهى تنطبق حرفيا وايتمولوجيا على مساعى كل من لا يكتفى بالمشاع والظاهر، بل يسعى إلى التوصل إلى القضية الجذرية أو إلى الوصول إلى الجذر الصحيح لا الجذر الخطأ، كما فعلت نونة بطلة قصة سلوى بكر.

لقد نشرت سلوى بكر مجموعتين قصصيتين أولاهما بعنوان زينات فى جنازة الرئيس[١] (على نفقتها الخاصة فلم تتبنها دار من دور النشر العديدة!)، وبالرغم من أنها المجموعة الأولى لأديبة فقد رحب بها مجموعة من النقاد فى مصر وخارجها، وقدمتها ناقدة تونسية على أساس كونها نموذجًا. وأما مجموعتها الثانية مقام عطية[٢] فتحتوى على رواية قصيرة بعنوان المجموعة وثلاث قصص.

لقد كتبت الناقدة التونسية نجاة العدوانى عن مجموعة سلوى بكر الأولى ما يلى:

... رغم أن الكاتبة تعالج قضايا نسائية إلا أنها تطرح هذه القضايا فى سياق اجتماعى وسياسى. ففى قصة «أم شحتة التى فجرت الموضوع» مثلا، تبين لنا من خلال هذه الشخصية النسائية العظيمة أن التنظيمات السياسية ممثلة بالمناضل السياسى حسين دياب كانت فى انتفاضة يناير المصرية متخلفة عن الحس الشعبى والفعل الجماعى الذى تحرك بعفوية ضد السلطة أثر ارتفاع الأسعار مما أوقع الأحزاب السياسية فى حيرة وارتباك أمام الموقف الجماهيرى الذى تجسد بالانتفاضة التى تحملت أحزاب المعارضة نتاجها رغم أنها لم تكن الداعية إليها أو الفاعلة فيها. وهكذا كانت المرأة رمزًا عميقا للجماهير المصرية[٣].

وكتب الناقد العربى محمد برادة عن مجموعة سلوى بكر الثانية قائلاً:

إن التجريب التشكيلى فى «مقام عطية» يستدعى الاهتمام والتحليل لأن الكاتبة استطاعت من خلال توظيف عناصر تنتمى إلى الحاضر (الريبورتاج). أن تقودنا إلى إعادة تأويل الماضى وتقييمه من منظور أسئلة المستقبل.. وتتضافر بعض الأصوات داخل المحكى الأمثولة لتخرجه من دائرة القول، إلى مساحة التخييل والترميز(٤).

وقارئ قصص سلوى بكر كثيرًا ما يجد الشخصية الرئيسية امرأة وامرأة مهمشة، مسحوقة، من الطبقة الكادحة ولكنها امرأة لم يقمعها الخطاب الذكورى السائد ولم تفقد قدرتها على المبادرة. وكثيرًا ما تبدو هذه المرأة البطلة غريبة الأطوار عجيبة الشأن للآخرين لأنها لا تتقولب كما يراد لها أن تفعل ولا تتصرف كما يتوقع المجتمع، ولهذا تتميز بطلات سلوى بكر بشطحة من الجنون وبشىء من الطفولة. فهن لا يخضعن للمألوف ويخالفن السائد. وهذا ما جعل الناقد اللبنانى حسن داوود يقول أن بطلات سلوى بكر هنّ امرأة واحدة(٥).

وتفسر سلوى بكر تناولها لعالم المرأة فى أعمالها فتقول:

المفترض أن يتناول الكاتب فى عالمه ما يعرفه، يلمسه ويحسه، ويستطيع التعبير عنه. أظن، بسبب كونى امرأة عربية: أى عضوة فى مجتمع ذى طبيعة فصامية صارخة، على أساس نوعى جنسى، فإن الكتابة عن المرأة كحالة إنسانية، يقترب من الوضعية الحتمية، لذلك فعندما أكتب أجدنى أتناول شخصيات نسائية بشكل لا شعورى(٥).

وبالرغم من تمركز قضية وشخصية المرأة فى أدب سلوى بكرى فهى تصر على أنها لا تؤمن بأدب نسائى فتقول أنه تعبير رجالى «ليس رجولى»(٧). وتضيف فى حوار آخر:

كتابة المرأة عن المرأة من الممكن أن تسير فى طريق مسدود إذا أصرت المرأة على طرح أدب المرأة باعتباره أدبًا موجهاً ضد الرجل. ومن ناحية ثانية أنا أظن أن أدب المرأة فى مجتمعنا المتخلف يلعب دوراً تبشيرياً وتنويريًا يساهم فى تحرر ليس المرأة فقط ولكن الرجل أيضاً. لأن ما تحتاجه المرأة كى تحقق ذاتها فى مجتمعاتنا يحتاجه الرجل أيضاً فالرجل يحتاج إلى الاستمتاع بوجود المرأة كشريكة حياة، وعقل يتفاعل، ووجدان يأخذ ويعطى، والعكس صحيح تماماً(٨).

نرى مما سبق أن سلوى بكر ترفض نسوية الأدب عندما تُستخدم لتعزيز الانفصام بين الجنسين، وترى أن كتابات المرأة يمكن أن تخفف من وطأة الفصل النوعى بين الجنسين بتقديمهما على أساس تكامل إنسانى لا صراع جنسى. وهكذا تلغى سلوى بكر تناقض الجنس وترفض قضية المرأة منعزلة عن قضية الرجل والمجتمع ككل. وهى ترى أن تحرر المرأة لا يتم عبر مؤشرات ظاهرية بل عبر تغير الممارسات والعلاقات والحساسيات، ولهذا فهى تقدم فى أعمالها أنماطًا إنسانية لا كمثال متعال ولا كنموذج بل كمفتاح لمراجعة النفس والقيم، لإعادة تقييم دور المرأة وبنية المجتمع ووظيفة الفن. فهى لا تقدم لنا بطولة الملاحم والعساكر والفحول، بل بطولة الإنسان العادى فى صراعه مع قوى القهر والإحباط. وهى تبتعد عن النبرة الوعظية فى كتاباتها وتكتفى بطرح الأسئلة التى تؤرقنا لجذريتها وغيابها عن الخطاب السائد، تاركة بذلك الباب مفتوحًا لاحتمالات متعددة ولحوارية تبحث عن حلول.

الهوامش:

(١) سلوى بكر، زينات فى جنازة الرئيس (القاهرة: بلا ناشر، ١٩٨٦).

(٢) سلوى بكر، مقام عطية (القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٧).

(٣) نجاة العدوانى «نموذج الأدب النسائى الذى أدعو إليه» الإعلان، ١٩٨٦/١٢/١٦.

(٤) محمد بّرادة، «تجريب فى الشكل وتوظيف للمحكى الشفوى» اليوم السابع، ١٩٨٧/٦/١٥.

(٥) حسن داوود، «بطلات وامرأة واحدة وتاريخ غير منقطع» السفير، ١٩٨٦/٢/٢٧.

(٦) «حوار: القاصة المصرية سلوى بكر»، الوطن، ١٩٨٦/٩/٣٠.

(٧) المرجع السابق.

(٨) «حوار: القاصة سلوى بكر» المجالس، ١٩٨٧/٦/٢٧.

• عجين الفلاحة •

١٠

نفذت الخطة بإحكام كما رسموا لها تمامًا. ركب الأول صاحب الندبة الغائرة فى رقبته القصيرة من محطة إقلاع الحافلة بموقف السيارات العمومى، وبعد أن اجتازت منطقة الحى التجارى المركزى بسرعة سلحفاة، بسبب زحام السيارات والناس ومصارين السوق المندلقة بضائع وسلعًا على أرصفة الشوارع والطرقات، نط الثانى إلى داخل الحافلة بمجرد أن هدأت من سرعتها عند أولى محطات الحى القديم الذى استطالت بناياته فى سباق ماراثونى عبر السماء، واختفت حدائقه الجميلة التى طالما نعست فى الهدوء حتى زمن قريب، أما الثالث ذو النظرات القلقة والحركة السريعة المباغتة، التى يساعده عليها جسده النحيل المشدود، فقد تشبث بعمود باب الأتوبيس الخلفى لما بدأ التحرك من محطة الحديقة العامة الفاصلة بين ذلك الحى، وما يليه من أحياء أعلنت عن هويتها إضاءات الطريق المتضائلة أحيانًا، والمنعدمة أكثر الأحيان، والأرصفة المتكسرة، ومطبات نهر الشارع المتكررة، التى تستجيب لها أجساد الركب بالتدافع صعودًا وهبوطًا، ويمينًا ويسارًا، كلما مرت الحافلة فوقها، أو حاول سائقها تفاديها، وما إن استقر الثالث بداخلها، وتأكد من وجود زميليه: الأول، الذى صار فى المقدمة، واقفا خلف السائق، والثانى القابع فى آخر كرسى بالمؤخرة، حتى رفع يده معطيًا شارة البدء، ثم دفع بجسده الركاب الواقفين، وسار حتى بداية الحافلة، عندئذ أخرج الأول والثانى مطواتين من النوع الشهير بقرن الغزال، شاهرينها فى قفا السائق والمحصل. أما هو.. الثالث، فقد أخرج بحركة سريعة، مدروسة، مسدسه، وسدده إلى الجالسين والواقفين قائلا:

- كلكم أيديكم لفوق... ممنوع أى واحد يتحرك.

بين الذهول وعدم التصديق، تردد الراكبون لحظات قبل أن يرفعوا أيديهم لأعلى، الحركة نفسها قام بها المحصل رغم السيجارة البلمونت المشتعلة بين سبابته وإبهامه، والتى كان بائع نفتالين البلى، صديقه قد أعطاها له، قبل أن ينادى على بضاعته وينط من الحافلة. السائق كان الشخص الوحيد الذى لم تتحرك يداه لأعلى بل واصلت الإمساك بعجلة القيادة، بناء على تعليمات الزعيم حامل المسدس، غير أنه بطأ من سرعة السيارة كثيرا بناء على هذه التعليمات أيضا، لكن ذلك لم يمنعه من التفكير مغمومًا، فى أن عملية السطو التى بدأت منذ قليل، ستعطله ولابد من العودة سريعًا إلى بيته، ورمى جسمه كزكيبة ملح على السرير، لينام كما يشتهى، ويريح نفسه من وجع وتعب طيلة اليوم، ثم أنه فكر أيضًا فى أن ركاب الحافلة سوف يطلبون منه تغيير مسارها، والتوجه إلى أقرب قسم شرطة لتحرير محضر بالواقعة بعد فرار الحرامية، فزفر بغيظ، ووجد سببًا جديدًا، يضيفه إلى أسبابه العديدة الأخرى، ليلعن اليوم الأسود الذى عين فيه سائقًا بهيئة النقل العام، التى كان عملاؤها حينئذ داخل الحافلة، يبلغ عددهم خمسة وثلاثين شخصًا، غط ستة منهم على الأقل فى نوم عميق، بعد محطتين أو ثلاثة من تحركها، إذ أنهم على الأغلب، كانوا من أولئك القاطنين فى الحى الذى ينتهى عنده مسار الحافلة، لذلك فإن هؤلاء النائمين لم يشعروا بما دار حولهم، وتخففوا لبضع دقائق من مشقة رفع أيديهم، حتى صاح فيهم حامل المسدس صيحة أخرى أفزعتهم، ففزوا لها ورفعوا أيديهم بمجرد أن رأوا المسدس، وأصبحوا كباقى الركاب، حتى أن الولد الصغير الوحيد بين الجميع والقابع فى حجر أمه ظن أن كل الناس يتشاركون فى لعبة شال الحمام، فابتسم ورفع يديه هو الآخر بحماس، ولما طال انتظاره ويداه مرفوعتان، ولم يسمع أمه تقول كعادتها عندما تلاعبه هذه اللعبة: حط الحمام، بينما تعيد وضع يديها على حجرها، تضايق الصغير، وشرع فى البكاء، لكن حامل المسدس، سدد له نظرات ألجمته، فدفن رأسه فى صدر أمه، التى كان التوتر والقلق قد بدآ يداخلانها، ليس بسبب الجنيه والشلن المدسوسين فى صدرها، المصرورين فى قطعة قماش،

فهى لا تظن أن الحرامية يمكن أن يكونوا من الضعة والوقاحة، بحيث يمدون أيديهم إلى مخابئ ثدييها، لكن القلق كان يساورها خوفا من أن يستولوا على الإوزة الموضوعة فى القفة تحت الكرسى الذى تجلس عليه، خصوصًا أن الإوزة كانت تطل برأسها وتحركه بين الحين والحين، لكن النشالين لم يفكروا مثلها فى الإوزة ـ خلال هذه اللحظات، ولم يهتموا بكونها زغدتها وتعبت فى تربيتها، حتى تأخذها لابنتها العروس التى لم تسبع بعد، وهى تركب الحافلة الآن فى طريقها إليها لتبيت عندها، وتذبح لها الإوزة فى الصباح.

كان الحراميةِ منهمكين الآن فى لمّ فلوس الركاب بسرعة، لذلك فقد تقدم الذى فى المؤخرة، وراح يطالب راكبًا بإخراج ما معه من نقود وخلع ساعته، إن كان يحمل ساعة فى يده، وكذلك أية حلى ذهبية كالخواتم والأقراط، مما جعل الفلاح الوحيد فى الأتوبيس، وحيد وقته بالفعل، لأنه إضافة إلى التسعة عشر جنيها والثلاثين قرش، التى كان يحملها فى جيبه، كان يضع فى فمه لبوس ذهب لضرس من أضراس فكه الأيمن، مما حداه لقفل فمه جيدا، وإخراج كامل ما فى جيبه بهدوء دون أن تنفرج شفتاه عن أدنى همسة سخط، على عكس العسكرى المجند الصغير الجالس إلى جواره، والذى فغر فاه دهشة، ولم يصدق أنه فى حافلة مفروض أن تنقله إلى أقرب موقع من وحدته العسكرية حيث نهاية الخط الذى سيضطر لتجاوزه متوغلا فى الصحراء حوالى ثلاثة كيلو مترات حتى يصل إلى وحدته، وبدا ما يدور أمامه، وكأنه مشاهد من فيلم أمريكى عنيف، صحيح أن كل ما بجيبه لايزيد عن ربع الجنيه، وليأخذه النشالون فى ستين ألف داهية، كما قال لروحه، لكن المرارة داخلته، وتضايق لأنه احتفظ بالزوادة التى أعطتها له أمه ولم يأكلها: ثلاث بيضات مسلوقات ورغيف فلاحى وفحل بصل، ولفتة كبيرة، غير أن الحرامية خيبوا ظنه، فلسبب ما، لم يكلف جامع الفلوس نفسه، مشقة سؤال العسكرى أن يعطيه ما معه، ربما عملا بالحكمة: «ما الذى تأخذه الريح من البلاط»، وربما حرصًا على وقته الثمين كحرامى، بدلا من مجرد النظر إلى العسكرى الذى ليس زينة الأمة المصرية على عكس ما تقول إحدى الأغنيات، طلب الحرامى من العجوز الجالس فى المقعد التالى له أن يبرز

محفظته، ويفرغ ما بها، وقد حاول العجوز استرحامه، قائلا: «وحياة سيدنا النبى خلى خمسة جنيه لا أكثر ولا أقل، لأن لوزة بنتى لازمها جزمة كاوتش تروح بها بعد بكرة عيد الطفولة فى المدرسة»، لكن الحرامى طالبه بأن يلبس فمه وينكتم، وقد طلب الرجل الأسود النحيل الجالس فى آخر الأتوبيس طلبا يقترب من الفكرة ذاتها مع فارق فى المبلغ بحوالى ثلاثة جنيهات ونصف، ولما لم يجبه الحرامى، أخذ يبرطم لاعنًا غباءه وسوء تقديره لأنه لو كان قعد على المقهى، ولعب طاولة وشرب شيشة، لضاعت المائة والخمسين قرشا فى المفيد، بدلا من أن يأخذها الحرامية، لكنه عمل نفسه عاقلا وحكيما، وقال لروحه: «بدل اللعب والكلام الفارغ... أدخل على العيال بكيس فاكهة يفرحوا بها» أما الشاب حامل الكتب ولابس النظارة السميكة، فقد طالبه حامل المسدس أن يكف عن حك الأرض بقدميه، لأن ذلك يجعله يضرس، وهدده بقطعهما إن عاود ذلك مرة أخرى، فلما أعلن جامع الفلوس انتهاء العملية، بعد أخذه أربعة جنيهات وستين قرشا من ذلك الشاب، قال حامل المسدس متسائلا:

- والمحصل؟!

رد جامع الفلوس:

- خلصنا منه، ولاشىء يذكر معه.

اغتاظ حامل المسدس وزفر بضيق، وهو يقول:

- ياالله.. نأخذهم نكاية فى الحكومة.

أخذ بشتيمة الركاب وتهديدهم مرة أخرى، إن حاول أحدهم التحرك، غير أن جامع النقود قاطعه قائلا:

- مع الولية أم العيل حيوان... هل أقشه؟

فكر حامل المسدس قليلاً فى أمر الإوزة، لكنه خشى أن تصيح فتفضحهم وتريكهم، لذلك لم يرد على زميله، بل أمر السائق بفتح أبواب الحافلة التى لم تفتح منذ إغلاقها بعد المحطة التى ركب فيها، ثم أشار لزميليه آمرًا:

- ياالله ... نط بسرعة.

فى لمح البصر، كانت الحافلة تبتعد، وأرجلهم تسابق الريح إلى الخرابة الواقعة خلف الجامع العتيق الواقع فى الشارع البعيد الموازى لذلك الشارع، الذى تركوا فيه الحافلة.

جلسوا يلتقطون أنفسهم، وأخذوا يحصون الفلوس، ويتفحصون المسروقات، التى كانت حصيلتها ثلاثة خواتم زواج، واحد فضى، اثنان تكسرا بين أسنان أبى ندبة على رقبته، مما يؤكد كونهما لايمتان بصلة إلا للصفيح المدهون، وخمس ساعات اثنتان متوقفتان، واثنتان لم يعد لماركتهما أى ذكر، منذ ثلاثين سنة على الأقل، أما حصيلة نقود الركاب والمحصل فكانت ثمانية وستين جنيها وثلاثة وتسعين قرشا فقط لاغير.

صرخ حامل المسدس بمرارة:

ـ يا اولاد الأبالسة.

أيَّدَهُ أبو ندبة، راغبًا فى تحطيم أى شىء، فى هذه اللحظة، فلما لم يجد ما يناسب ذلك، أمامه فى الخرابة سلت فردة حذائه من قدمه، وخبط بها الأرض، وهو يقول:

ـ حثالة.. تفو عليها بلد فيها ركاب أمثالهم.

حامل قرن الغزال، التى سلطها على رقبة السائق طوال الوقت، أعجبه تنظير زميله، ويبدو أن الموقف كله بدا له ضربًا من المسخرة، لأن ضحكته شخشخت فى فراغ الخرابة، قال:

ـ يعنى عوضنا على الله فى أكلة الكباب الليلة... وراحت علينا السكرة .. يعنى لامياه ولا إدام.

واستطرد وهو يتلمس ندبته، مثلما يفعل عادة عندما يتوتر:

ـ اتوبيس طويل عريض مليان بالبنى آدمين، وكل ما فيه ثمانية وستين جنيها.. حاجة زفت... والله يظهر أنهم كانوا مسروقين قبل ما سرقناهم.رد النحيل ذو النظرات القلقة وهو يجارى زميله فى الضحك الساخر المرير:

ـ لازم يكونوا حرامية كبار.. كبار ولعبهم على كبير جدًا.. ها ها ها...

فى صباح اليوم التالى لقراءتى حادثة نشالى الأتوبيس بالجريدة اليومية، دق جرس الباب، ففتحته لأجد قبالتى أم محمد الشغالة تلهث من صعود سلم ستة أدوار حيث أسكن فقلت لها:

- ادخلى واقعدى بسرعة يا أم محمد، نفسك مقطوع خالص.

ردت أم محمد بكلمات تقاطعها أنفاسها، وهى تحط بجسدها على الأرض إلى جوار الباب، وقالت:

- تصورى!! الأتوبيس ابن الذين، وقفت انتظره من طلعة الشمس، حتى الساعة تسعة إلا، ولما شلت رجلى لأجل اركب حط ذيله فى أسنانه وطار، فقعدت على الرصيف انتظر، لحد ما وصل غيره، فغامرت مع الخلق وطلعت فيه على أخر لحظة، لكن أجارك الله، كان جواه لحم فوق بعضه.

رحت أواسيها قائلة:

- المواصلات كلها زحمة ومقرفة، وكل واحد يقول يا الله نفسى، ويزاحم غيره لأنه مستعجل وعاوز يروح ليقضى مصالحه بأية طريقة، والسلام، تصورى يا أم محمد مكتوب فى الأخبار قبل يومين أن الحرامية انتهزوا الفرصة وقشوا كل فلوس ركاب اتوبيس، لكن حصيلة الفلوس كانت ثمانية وستين جنيهًا بس.

كانت أم محمد قد بدأت فى خلع طرحتها، وتهيأت لخلع جلبابها الأسود

لتبقى بالقديم الذى تحته، لأنها تشتغل وهى تلبسه عادة، غير أن ذلك لم يمنعها من التوقف قليلاً لتقول:

- أولاد الحرام كثير، والجوع خلى الناس مستأسدة على بعضها، لذلك آخذ أجرتى من الناس مفرطة دايما، ومستحيل أخليها كلها مع بعضها، لأنى أحسب حساب أمور من نوع النشل وغيره، وتلاقينى ولا مؤاخذة موزعة الفلوس: شىء فى صدرى وشىء أدسه فى شعرى وأصر عليه المنديل وتبقى الطرحة فوقه، أصل الاحتياط واجب.

حاولت استدراجها إلى المثير فى حادث الأتوبيس فقلت:

تصورى يا أم محمد الفولس مع الركاب كانت ثمانية ستين جنيهًا. ردت أم محمد قائلة بصوت يخلو من الدهشة، بعد أن سألتنى هل تبدأ بتنظيف حجرة النوم أولاً أم غرفة المعيشة:

- محتمل أنه كان يومها أول الشهر، يعنى الناس كلها محصلة رواتبها، وجيوبها مليانة.

اغتظت ورددت عليها بانفعال:

- يا ولية أقول ثمانية وستين، يكون ردك: أول الشهر؟!

لم ترد أم محمد على كلامى بل سارعت بالرد على الهاتف الذى كان جرسه قد بدأ فى الرنين، رفعت السماعة وتحدثت قليلاً، ثم قالت لى:

- واحدة اسمها مدام صافيناز.

صافيناز صديقتى من أيام المدرسة، وهى رسامة مجهولة تقريبًا، وفى حالة اكتئاب نفسى مزمن من النوع العادى المصاب به معظم الناس فى بلدنا، لذلك فهى لاتعتنى بمظهرها، ولاتبتسم كثيرًا، وإن ضحكت قالت: اللهم اجعله خيرًا، كما أنها كثيرة التعصب تذّيل كلامها عادة بكلمة «ياالله»، وصافيناز تنتمى إلى الجيل السادس من أسرة إقطاعية قديمة لم ترث منها غير كنيتها الشركسية، وبياض بشرتها، وربع بيت قديم تسكنه مع أمها بعد طلاقها من ابن عمتها، وقد

انتمت صديقتى العزيزة بحكم ظروف السنين الأخيرة إلى الطبقة الوسطى المنهارة إلى درك الطبقات الفقيرة، إذ أنها عملت موظفة فى متحف مهمل مهجور من الزوار تقريبًا، وتتقاضى راتبًا يكفيها بالكاد هى وابنها الصغير.

حيتنى «صافى » كما أناديها عادة، وعاتبتنى لأنى لا أسأل عنها، وبدأت تقوم بمراسيم زيارة صباحية عبر الهاتف، فحكت لى عن أحوالها، وأحوال ابنها ثم عن أحوال الدنيا من وجهة نظرها، ثم قالت لى وهى التى تفاجئنى دومًا بأفكارها الغريبة المتأملة، والتى تشعرنى بأنها مجنونة جنونا خفيفًا ظريفًا.

ـ تصورى: قبل أسبوع كنت راكبة مترو الأنفاق، وسرحت بفكرى وقلت لروحى: بكرة الأجيال الطالعة كلها تنسى شكل محصل الأتوبيس أو القطار ومحتمل أن كلمة محصل ذاتها تندثر تمامًا وتصبح ذكرى من ذكريات الماضى.

ضحكت وقلت لها:

ـ طبعًا، والشىء نفسه ينطبق على حاجات كثيرة، مثلا وابور الجاز ، القلة الفخار، تصورى إن بنت جارتى الصغيرة راحت تزور خالة أمها فى البلد، ولماشافت القلة قالت إنها عاوزة تشرب من الزهر.. هاهاها.

تصورى ماما باعت قنطار نحاس بالكيلو قبل حوالى عشرين سنة، وكل الناس أصبحت تستعمل الألمونيوم فى الطبيخ، لذلك اختفى مبيض النحاس تمامًا.

ردت «صافى» وهى تلثغ بالراء على طريقتها اللذيذة قائلة:

ـ افتكرت أيام كنت فى المدرسة، وبيتنا فى عزبة النخل، وحسن محصل القطار أبو شعر أبيض وبدلة بترولية بأزرار نحاس أصفر كبيرة، كان له شكل ظريف جدا، صورته لحد الآن مطبوعة فى ذهنى مع صورة الترعة والنخل والشجر والبيوت القديمة الجميلة، كل شىء تغير فعلاً.

وجدت الفرصة مواتية للحديث عن حرامية الأتوبيس، فقلت بسرعة:

ـ عاوزة أحكى لك عن حادثة مضحكة جدًا: ثلاثة من النشالين سرقوا ركاب

اتوبيس بالإكراه، والبوليس قفشهم، وكانت حصيلة الفلوس المسروقة ثمانية وستين جنيها.

ردت «صافى» بهدوء:

ـ شيء طبيعى جدًا، لأن البلد كلها فى حالة تسيب شديد، تصورى: قبل يومين خطف واحد راكب على موتوسيكل سلسلة ذهب بدلاية عليها «ما شاء الله» من رقبة زميلتى فى الشغل وهى راجعة بيتها بعد الظهر، وطار بها، يا الله.

حاولت التأكيد على فكرتى:

ـ قلت لك البوليس قبض عليهم، والتسيب مسألة مختلفة، لكن المسخرة فى الثمانية والستين جنيهًا، فالمبلغ تافه جدًا والحكاية مهزلة لأقصى حد.

لم تتجاوب «صافى» مع وجهة نظرى، وحكت لى أنها اشتركت فى جمعية بمبلغ عشرة جنيهات فى الشهر مع زملائها لتقبض بعد ثلاثة شهور مائتا جنيهًا ، سوف تدفعهم إلى مدرس الإنجليزى الذى يعطى لابنها دروسًا خصوصية لأن الولد ماحى فى اللغة، لدرجة أنه لايستطيع التمييز بين الـ «بى» والـ «دى» وقلت لها إننى سأضطر للذهاب مساء إلى فرح ابنة خالة زوجى، وأنه مشوار كالهم على القلب بالنسبة لى، لكنه واجب والسلام، لأنى لا أحب خالة زوجى وعيالها كونهم متعالين، وقيمة الناس عندهم لاتقاس إلا بالفلوس، فقالت لى «صافى» إن شأنهم فى ذلك شأن كل الطبقات الجديدة قليلة الأصل، وتمنت لى سهرة سعيدة وكنت سعيدة الحظ فى السهرة بالفعل، إذ أننى جلست بجوار زوجى فى العرس إلى طاولة ضمت بعض المدعوين من بينهم ضابط بوليس، ودار الكلام بين المضغ والضحك حول المخدرات والحرامية والشقق المفروشة وشركات توظيف الأموال فوجدت الفرصة مواتية لأتحدث مع الضابط وأقول له:

ـ هل سمعت حضرتك عن حكاية الأتوبيس والحرامية والسرقة بالإكراه والثمانية والستين جنيهًا؟!

كان شابًا ظريفًا لبقًا، فابتسم وقال:

- أظن أنها كانت على خط «أبو السعود».

تحمست جدًا لأنه مستعد للمشاركة فى الموضوع، بل ويبدو أن لديه معلومات عنه فقلت:

- فى الحقيقة أنهم ركزوا فى المنشور بصفحة الحوداث على عملية القبض على الحرامية، ولم يذكروا رقم الأتوبيس وخط سيره، تصور كل فلوس الركاب كانت ثمانية وستين جنيها؟! شىء مضحك جدًا.

ضحك الضابط لسبب ما، ثم قال:

- طبعا.. اتوبيس شغال على خط منطقة «أبو السعود» لابد وأن يكون ركابه على قد حالهم ودخلهم ضعيف.

ثم سأل زوجى باعتباره موظفًا فى المطار إن كان يوجد فى السوق الحرة عطور للرجال سعرها معقول أو أرخص من أسعار السوق فى المدينة.

كان الوقت قد مضى وشعرت برغبة فى النوم، فتركنا الفرح وخرجنا، زوجى وأنا، وكنت أفكر طوال الطريق فيما قاله الضابط، وصافيناز، وأم محمد، ولم أكن قد تكلمت مع زوجى فى الموضوع، فحكيت له وقلت:

- تصور: اتوبيس طويل عريض فيه حوالى خمسين راكبًا على الأقل، وفى نهاية اليوم، وكل ما فى جيوبهم ثمانية وستين جنيهًا ؟! والله شىء يجعل الإنسان عاجزًا عن التفكير.

تنهد زوجى، ولم يعلق، بل وبدا غير مبال بما أقول كعادته، وكنت أعرف أنه يرانى - عادة - مبالغة فى تقديرى للأمور، لكنه فجأة وأثناء عبورنا الطريق قال:

- والله، الحياة أصبحت لاتطاق ولو وجدت فرصة للسفر إلى أى مكان إن شاء الله بلاد واق الواق لازم أسافر.

وشعرت وقتها بألم وحزن، وكثير من الضياع.

هى تكره الجنون، تخافه، ترتعب من فكرة أن يفقد العقل سطوته على الجسد، فينطق اللسان بما يشتهى، وترى العين ماتود رؤيته، وتتحرر النفس من كل قيد يرسم لها الزمان والمكان، تكره فرحة أن تصير يومًا، كجارتها فتحية الأرناؤوطية، التى التاثت لما مات ابنها فى الحرب، فأصبحت تسف تراب الأرض، وترقص فى عرض الطريق، بعد أن كانت مضربًا للمثل فى كبريائها واتزانها، لاتود فرحة أن تحادث نجوم السماء، وعصافير الأشجار، أن تفيق الليل إلا قليلاً، لتصرخ تلك الصرخات المروعة، التى تجعل الجيران يهرعون لإغلاق النوافذ، حتى لايفيق أطفالهم مذعورين، ويأخذهم الرعب.

لذلك جاءت فرحة بنفسها مختارة إلى عيادة الطبيب النفسى لتسأله المشورة، ولتعرف على وجه اليقين هل هى فى طريقها للجنون؟ أم أنه أخذها مس من الشيطان، وجنت وقضى الأمر؟، وهل هناك دواء أو علاج للحالة الأخيرة؟. لقد فكرت طويلاً قبل أن تأتى إلى هذا المكان دون إخبار أحد من أهلها، لأنها تريد أن تعرف بنفسها، وقبل أى إنسان آخر ما سيقوله لها الطبيب، فربما كان ثمة أمل فى الشفاء، وربما يمكنها أن تشتم من كلامه ونظراته، وطريقة تعامله معها، أن لافائدة، وأنها لن تعود، كما كانت من قبل بأى حال من الأحوال، الفتاة الهادئة الوديعة المرحة، فرحة الشابة الصغيرة، التى لاترى الدود أبدًا، ولاتخاف منه؛ فإذا عرفت أنه لاعودة من الطريق الذى سارت فيه، ولا أمل فى اجتيازه، فإنها ستحسم الأمر فورًا، وتقتل نفسها بكامل إرادتها، وفى عز وعيها، ولن تترك نفسها فريسة للصراخ وسف التراب، لكل من هب ودب ورآها على هذه الحال،

ولسوف تموت ميتة مضمونة النتائج تمامًا، لاسبيل إلى الرجوع منها، إذ أنها ستفتح فمها عن آخره، وتلتهم دفعة واحدة، ودون أن تغمض عينيها، كمية هائلة من الدود الأبيض الطرى، ستكفى ولابد للقضاء عليها فورًا من القرف، فبمجرد أن تستقر تلك الكائنات الفظيعة فى أحشائها، لن يكون هناك وقت يسمح بالغثيان، أو الإغماء، لأن الصدمة الفورية، ستكون قد حدثت فى التو، وستودع فرحة، دونما حسرة، كل تلك الحياة الهلامية التى حيتها، وطالما كرهتها، ولم تجد لها معنى. على أية حال، ها هى تنتظر حتى تلتقى الطبيب، ولا داعى لاستباق الأحداث رغم كراهيتها للأطباء وعياداتهم الكئيبة المثيرة لمنتهى الوحشة فى النفس المذكرة للإنسان دومًا، بكونه كائنًا صغيرًا ، ضعيفًا، لايختلف كثيرًا عن الدود فى النهاية، وإن اختلفت المسميات، ولسوف تصبر فرحة على الانتظار، حتى تأذن لها الممرضة الجالسة خلف مكتبها فى أقصى ركن الغرفة، فتدخل إلى الطبيب ليقول كلمته فى حالتها، لذلك راحت تفكر فيما ستقول عندما تراه، ولتغض النظر عن تلك الجدران الرمادية العالية الشبيهة بجدران غرفة إعدام، ولتتسى تلك الابتسامة الفظيعة المرسومة على وجه الممرضة، بشفتيها الملطختين بحمرة فاقعة تبدوان معها كدودتين ملتحمتين، تنفصلان بين الحين والحين عن هوة صغيرة ذات قرار سحيق.

تمالكت فرحة نفسها، وتعمدت عدم النظر إلى الممرضة، واستعاضت عن ذلك بالإطراق والتفكير: هل من الأفضل بدء الكلام مع الطبيب من زاوية علاقتها بأسرتها؟ أم من ناحية مشاكلها مع زملائها فى العمل؟ أم تحدثه عن عجزها الدائم عن التكيف والتواؤم مع الناس، فهى تشعر بوحشة وغربة لاحد لها، وأن لا أحد من الذين حولها يفهمها أبدًا، لكن الأهم من كل ذلك هو النوم، فهى تريد أن تنام، وتخشى الانهيار بسبب عدم النوم، لكنها لاتريد أيضًا أن تنعس لئلا يهاجمها ذلك الكابوس المفزع، الذى يتربص بها، كلما أغلقت عينيها وراحت فى سبات عميق.

كزت على أضراسها غيظًا، وأسبلت جفنيها، لكنها سرعان ما جفلت، وفتحت عينيها عن آخرهما، وحاولت تناسى الرغبة فى النوم، فأخذت تنظر إلى المرضى

المنتظرين أدوارهم فى لقاء الطبيب؛ لاحظت الفتاة التى ما فتئت تبصق منذ دخولها العيادة، على نحو يثير الأعصاب، كانت الفتاة ذات وجه شاحب نحيل، ونظرات حادة مشبعة بالغضب والاحتقار، راحت توزعها على كل شىء حولها، بينما وقف إلى جوارها رجل يرتدى بزة داكنة وربطة عنق، رغم حرارة الجو، خمنت فرحة أنه ربما كان والدها، إذا ظل يربت عليها، محاولاً إقناعها بالتوقف عن البصق دون أن ينفد له صبر، والفتاة لاتكف عن ذلك، حتى أن فرحة شعرت بجفاف حقيقى فى ريقها ورغبة حادة فى شرب جرعة من الماء.

حدقت فى الأرض محاولة تناسى عبقرية البصاق، تأملت السجادة القديمة التى لم تفلح فى تغطية جميع بلاطات الأرضية الكالحة، كانت ورداتها بألوان زرقاء حمراء ذابلة، ضاعت معالمها لكثرة وطئها، فكرت فرحة مجدداً فى كلامها للطبيب، ستبدأ منذ لحظة شعورها بأنها ليست على ما يرام، ستحكى له عن حالات الضيق، التى كانت تتتابها بين الحين والآخر، دون أن تعرف لها سببًا، كما ستصارحه برغبتها المزمنة فى البعد عن الناس، وغياب حماسها للكلام مع أى إنسان. وستقول له أن الحالة صارت أكثر وضوحًا، عندما ذهبت مع أهلها إلى المصيف، وصارت بصحبة عمتها وابنها وخالتها وأولادها فى الشقة الواسعة التى استأجرها أبوها لهذا الغرض، ستحكى للطبيب عن منظرهم المقزز عندما تحلقوا جميعًا حول مائدة الغداء ليأكلوا السمك، كانت أجسامهم بدينة لم تخل من كروش متفاوتة الأحجام، ووجوه ممتلئة ذات نظرات رخوة ميتة، مما جعلها تشعر بأنهم جثث حقيقية وصلت إلى حالة انتفاخها القصوى، كانت أمامهم كمية هائلة من الأسماك المشوية والمقلية، راحوا يمدون أصابعهم إليها ويأخذون فى خلع رؤوسها الصغيرة، وبقر بطونها، والتهام لحمها، مخلفين وراءهم عظامها الهشة، وعيونها الصغيرة المحدقة فى اللاشىء، ظلوا يواصلون ذلك، وهم يتجرعون المشروبات، ويتحدثون عن ذكرياتهم فى أكل الأسماك، فقالت العمة، وقد اكتشفت فرحة أثناء ذلك أن رقبتها تشبه دودة ضخمة من تلك الدودات التى رأتها يومًا تنهش بطن ميت على جانب الترعة فى قريتهم عندما كانت صغيرة، قالت إن أفضل سمك أكلته فى حياتها كان فى السويس التى ذهبت إليها مع زوجها عندما

عمل بها بعد عدوان ١٩٥٦، لكن خالة فرحة عارضتها وهى تطحن بأضراسها ظهر سمكة بلطية صغيرة قائلة: «لا.. أطعم سمك فى الدنيا هو سمك دمياط، لأن النيل يقابل البحر فيها، والسمك مطعم من خير الحلو والمالح». وسرعان ما شارك الجميع فى حوار عنيف حول السمك وطرق طهيه، وأصابعهم وأشداقهم لاتكف عن الحركة، فتمنت فرحة وقتذاك، لو كانوا قد وافقوا على تركها بمفردها فى القاهرة، كما رجتهم قبل أن يأتوا إلى المصيف، إذ أنها تذرعت حينذاك بعدم حصولها على إجازة من عملها، لكن أمها رفضت بشدة، وسارع أبوها بحل المشكلة مع طبيب الشركة صديقه، فحرر لها شهادة طبية تفيد مرضها خلال فترة المصيف، فلما ضيقوا عليها الخناق، قالت إنها كبيرة بما يكفى لتبقى فى البيت بمفردها، لكن أمها حسمت الأمر بقولها: «مهما كان.. أنت بنت، مستحيل تنامى الليل وحدك فى البيت».

وهكذا جاءت معهم مرغمة، ووصلت إلى ماهى عليه، وربما لو تركوها، لكانت تنعم حتى هذه اللحظات بالسكينة وطمأنينة البال.

ولسوف تشرح للطبيب كذلك، كيف أنهم وتروا أعصابها كثيرًا، بإلحاحهم المستمر على قبول عريس تقدم لها منذ فترة ورفضته، رغم وجاهة رأيها فى علة رفضه، فهو ذو جسد مترهل، ونظرات لزجة هلامية، أشعرتها عندما كان يسير إلى جانبها مع بقية أهلها بعد خروجهم من المطعم الذى دعاهم للعشاء فيه، بأنه يزحف على الأرض، ولايسير مثلما يفعل الناس، فضحكت عمتها، التى كانت أشد أفراد العائلة تحمسًا للعريس، لكونه عين ابنها موظفًا فى شركة أبيه الخاصة، وقالت وهى تلتهم بتلذذ حلوى رجراجة مثلجة، إن ما قالته فرحة عن الرجل، «مضحك جدًا، ولايمكن بسببه رفضه كعريس، لأن الرجال ليسوا بالهيئات والأشكال، والواحد منهم لايعيبه إلا خلو جيبه من الفلوس».

وفى يوم آخر، أعادوا طرح موضوع العريس مجددا، وأم فرحة فى المطبخ تعد طعام الغداء، الذى كانت تفكر حائرة فى أصنافه، بينما كان بعضهم لا يزال على مائدة الإفطار، فنادتها أختها لتسمع كلام فرحة الغريب عن العريس ورأيها فيه، رغبت فرحة وقتها أن يخرسوا جميعًا، لتجد الفرصة فتقول لهم:

ـ الحق أقول لكم يا جماعة أن حياتنا سخيفة جدًا، وبدون معنى، ومن حوالى سنة وفكرى مشغول بحكاية أننا نشبه الدود، أكل وشرب ونوم، أنا نفسى حياتنا تتغير، نعمل حاجة ذات معنى، نفكر فى الدنيا بطريقة مختلفة، تشعرنا أننا ناس، بشر، مختلفين عن الدود فعلاً. لم يضحكوا وقتها ملء أشداقهم لأنها لم تنطق بحرف، وكانت تشعر بصداع رهيب يضغط رأسها، وهم يواصلون كلامهم عن العريس، فقالت خالتها:

ـ أنت كبرت يا فرحة، وسنة جديدة، تمر عليك، تجعلك فى العنس. فأيدتها أختها أم فرحة قائلة:

ـ الحقيقة وعلى بلاطة هى عانس فعلاً، بعد الخامسة والعشرين، يصبح ارتباط البنت مشكلة، لأن زهوتها تروح بالتدريج، وتدخل فى ديوان النساء، وتقل فرصتها فى عريس معقول.

عمتها قالت: الرجل مستعد، وعنده شقة، ومفروض أن نبوس أيدينا وش وظهر، لأنه بسبب أزمة الشقق، نادرًا ما يكون العريس عنده مطرح للسكن، يعنى أهم مشكلة محلولة والحمد الله.

وأضافت: إنه ابن ناس طيبين، وأهله ميسورون، لن يطالبوا بأسود أو أبيض فى الجهاز وتوضيب البيت.

ثم أن ابنة عمتها اقترحت ضاحكة أن تتزوج العريس بدلاً من فرحة لأنها مستعدة للزواج فى التو واللحظة، ولا ترغب فى إتمام تعليمها، وكانت فى هذه الأثناء تطلى أظافرها الطويلة بلون أحمر دموى فشتمتها أمها لأنها مازالت مقصوفة رقبة، لم تبلغ السادسة عشر من عمرها بعد، وحتى القانون لايجيز تزويجها، فرجتهم فرحة الكف عن الزعيق والشجار، وكانت ترغب فى الصراخ بعزم حيلها، فآثرت تركهم ودخول حجرة النوم لتستلقى على السرير، لكن خالتها تبعتها بسرعة لتلاطفها بعد أن لاحظت غضبها وقالت لها الا تتضايق لأن المفروض أن يأتى الناس للمصيف للضحك والفرح ثم إنها قدمت لها بعضًا من اللب لتقزقزة وتحرك حنكها وتتسلى وأضافت قائلة: «والله شايفة مزاجك معكر من يومين يا فرحة، وأكلك ضعيف مالك يا فرحة؟».

وضحكت لأنها قلبت الحاء خاء، كما يلذ للجميع مناداة فرحة على سبيل الممازحة والتحبب، فلما أجابت فرحة أنها بخير، اقترحت الخالة على نفسها أن الفتاة فى حالة غرام متعثر، وهى ترفض الزواج لهذا السبب، وفاتحتها فى الأمر، لكن فرحة الحزينة، نفت ذلك تمامًا، وطلبت من الخالة تركها فى حالها، فأعلنت لها الأخيرة أنها أصبحت واحدة معقدة، حالتها كرب.

فى المساء التالى، كانوا جالسين يلعبون الورق: أمها وخالتها وعمتها وزوجها، بينما نسيم البحر المنعش يتغلغل فى النفس تاركًا شعورًا رائعًا، وكانت فرحة جالسة إلى جوارهم تتابع ببصرها عناق الأمواج المتلاحق للشاطئ، وهى تروح وتجىء بصخب رائع لاينتهى وسرحت روحها بعيدًا، فحلمت بالسير على الرمال وإلى جانبها شاب تحبه ويحبها، ويتحادثان برقة وحنو عن آمال وأحلام تضمهما فى عالم جميل، يتمتع الناس فيه بمباهج الروح قبل مباهج الجسد، كانت تحدق فى البحر حالمة، وتفيق بين الحين والحين على الضجيج الحادث إثر هزيمة أحدهم فى لعب الورق، ثم تحدث زوج خالتها عن ضرورة البحث عن أحد المعارف ليساعدهم فى تسهيل خروج سيارة من الجمرك تخص ابنه العائد من الخليج، وأثناء ذلك جاء أبوها معلنًا إحضاره فيلمًا جديدًا للفيديو طالبًا منهم أن يخمنوا اسمه، وعندما يئسوا بعد ترديد كل أسماء الأفلام المسلية فى دور العرض، والتى يعلن عنها فى التليفزيون بين وقت وآخر، وفاجأهم باسم الشريط وهو «الزحف الرهيب» وكان عنوانًا لفيلم رعب مشهور فصاحوا وصفقوا، وقاموا وقعدوا لفرط الابتهاج والفرح، فقامت فرحة وكان يداخلها شىء من القلق، ودخلت غرفة النوم تستلقى على السرير، لكنها ظلت مفتوحة العينين، تحدق فى لوحة معلقة قبالتها، رسم عليها امرأة بضة الجسد، ممددة على فراش وثير، وقد طرحت عليها ملاءة من الأطلس الأصفر، تخفى من جسدها أقل ما يمكن، فلم تسترح لرؤيتها وآثرت إغماض عينيها لتنام، لكنها هبت مذعورة بعد قليل، وسارعت بإشعال النور وهى تلهث من الرعب والفزع، وصور الكابوس الذى داهمها لاتفارق عينيها، إذ رأت كما يرى النائم، أنها كانت تجلس بمفردها فى سهل واسع منبسط تمتد عند أطرافه حقول قمح بديعة تتمايل سنابلها مع هبوب النسيم عليها، فتبدو وكأنها

وشاح ذهبى أصفر لامثيل له يحوط بأشجار السهل الخضراء الزاخرة بعجيب الثمر وغريب الطير المغرد الشادى بأصوات ساحرة خلابة ما سمعت فرحة مثلها قبل ذلك قط، فحارت إلى أى مكان فى السهل تذهب، لتجرى وتمرح وتمتع روحها، وإذ هى فى حيرتها وقعت عيناها على بستان زهر امتد حتى خط الأفق، وقد ضم إليه مالا يمكن وصفه من آيات الله فى بديع الورد، ونضير الزهر، الذى عبق المكان بعبيره وشذاه وأريجه وعطره، فأخذت فرحة، تتنسم كل ذلك وتعب منه فى صدرها عبًا وهى تقول لروحها، ما أجمل الحياة، ما أعظم الطبيعة، وبينما هى فى تلك الحال من النشوة والارتياح، إذ بغمام داكن يملأ السماء ويسد الأفق، فنظرت إلى البعيد لترى دودات ضخمات رخوات، ذوات ألوان رمادية كئيبة، تتقدم شيئًا فشيئًا حتى وصلت سهل القمح الفسيح، والتهمته فى لمح البصر، ثم واصلت زحفها إلى حيث الأشجار والأطيار، فجردت الأغصان من خضرتها، وأرعبت الأطيار رؤيتها فراحت تفر طائرة مرسلة أصواتًا حزينة باكية؛ وعندما بلغ الدود بستان الورود، أخذ فى التهام الأحمر والأزرق، والأصفر والأبيض، ومحو كل ما هو مفرح للعين شارح للقلب، انتصب واقفًا ككتل هائلة من الهلاميات الرمادية، تعلوها وجوه بشرية ضخمة، اكتشفت فرحة فيها، ملامح أمها وأبيها، وعمتها وخالتها، فأخذت تعدو من فرط الرعب، زاعقة بكل ما فيها من عزم وهى تنتحب قائلة:

- يا طير، يا شجر، يا قمح ياذهب، ياورد ياعجب، يانسيم يا سلسبيل؛ فلم يردد صداها إلا صفير الريح، عبر أرجاء السهل الفسيح، فصرخت المسكينة صرخة عظيمة وقد أخذت بتلابيبها الريح وسقطت مغشيًا عليها، وعندما أفاقت، وفتحت عينيها، وجدت نفسها فى السرير، ودت لو استطاعت أن تقص على الطبيب ذلك الحلم بالتفصيل، مثلما رأته وظل محفورًا فى ذاكرتها، وتخبره كذلك أن الكتل الهلامية الضخمة ذات الوجوه الكئيبة، لاتفتأ تهاجمها فى أحلامها منذ ذلك الوقت، كلما نعست ونامت مما يسبب لها ألمًا هائلاً، حتى أنها أصبحت تخاف النوم، والأهم من هذا أنها صارت ترى الدود فى ساعات صحوها، فمنذ فترة جاءت خالتها لتزورهم، وقالت إنها ستسافر إلى بور سعيد لشراء كسوة

الشتاء من المنطقة الحرة، وكانت قد أحضرت معها فطيرًا بالسمن والعسل، ثم اقترحت أكله بسرعة وهو ساخن حتى يتلذذون بطعمه، فلما قالت فرحة إن ساعتين لم تمضيا على وجبة الإفطار التى التهموها، ضحكت أمها وخالتها، وراحتا تأكلان بسعادة بالغة، فرأت فرحة أربعة قرون استشعار ضخمة، تنبت على رأسيهما، فخافت، وانسحبت إلى غرفتها، آخذة فى الانتحاب بصوت خفيض، وقد هيمن عليها الحزن والألم.

عندما تذكرت ذلك وهى جالسة فى عيادة الطبيب، رغبت فى أن تفعل مثل الفتاة التى كانت لا تزال واقفة لاتكف عن البصاق، رغم توسلات الرجل المرافق لها، وجاء شاب نحيل بصحبة رجلين بجلاليب طويلة، كانت عيناه حزينتين جدًا، وهو لايكف عن الابتسام الساخر المرير، هازًا رأسه كمن لايصدق شيئًا قد حدث.

فكرت فرحة فى إخبار الطبيب أنها تخاف الدود منذ صغرها، وأن الدودة الوحيدة التى أحبتها، هى دودة القز، إذ كانت تربيها فى صناديق الأحذية الكرتونية، أيام المدرسة، لتراقب مراحل نموها حتى تصير فراشة وتطير.

لكن المشكلة الآن أنها صارت ترى الدود فى كل مكان، فمنذ حوالى أسبوعين تشاجرت مع رئيسها فى العمل، وهى تكرهه لأنه لص ومرتشى، فشتمته وقالت له يا دودة، وكان بصرها أثناء ذلك قد وقع على كرشه المترهل، وعنقه القصير الغليظ، وقد حولت إلى تحقيق إدارى لهذا السبب.

ثم أنه فى اليوم التالى لذلك، جاءت جارتهم لتزورهم، وهى امرأة بدينة ذات لغد ضخم أسفل ذقنها، وكانت تغطى ساعدهاالأيسر بكمية من الأساور الذهبية، فقالت لها فرحة مرحبة: أهلاً ياست دودة؛ لعل الطبيب يجد حلاً لهذه المشكلة، لأنها تفاقمت جدًا، إلى درجة أن عمها اتصل بهم من السعودية التى يعمل بها منذ خمس سنوات، فقالت لأبيها وكان يستحم حينئذ: اخرج بسرعة لأن عمى دودة على التليفون.

بصقت الشابة البصاقة من جديد، فانفجر الشاب المبتسم ضاحكًا بشدة وقال لها:

- ريقك ضعيف ومحدود التأثير، لأن الوساخة بالكوم يا مسكينة.

ثم انتابته حالة بكاء مرير، وهو لايكف عن ترديد: «الوساخة بالكوم» فراح صاحباه يحاولان تهدئته، واقترح أحدهما على الممرضة إدخاله للطبيب بسرعة، بعد أن دس فى يدها عملة ورقية من فئة الجنيهات العشرة، وكانت فرحة وقتها تنظر إلى الممرضة وهى تقف وتتحرك من مكانها فى اتجاه حجرة الطبيب، ولاحظت مؤخرتها المترجرجة وهى تسير حاكة الأرض بحذائها، ثم رأت قرنا إستشعار ينبتات فى رأسها ويتمددان شيئًا، فارتعبت، وقررت الجرى بسرعة إلى الطريق.

- ١ -

فتح الباب فجأة، فغمر ضوء الشمس الحجرة الترابية المظلمة، الخالية من أية فتحة أخرى، فما كان من القرود الثلاثة إلا أن تقافزوا فى صخب، على أمل حدوث بداية لنهاية العذاب، الذى عاشوه طوال الليلة الفائتة.

حاول القرد الأول، الذى كان «شرشر» القرداتى قد أطلق عليه اسم «زقزوق» أن يبدو لطيفًا، فرفع يده فى شىء يشبه التحية «لشرشر» الذى ولج من الباب، لكن الأخير لم يبد أدنى استجابة لذلك، ربما بسبب تعاليه ونظرته الفوقية للقرود، وربما بسبب سرعة انهماكه مع زوجته، التى دخلت بعده، فى تقييد الماعزة التى جاءا بها معهما، والتى لم يجد القرود الثلاثة سببا مفهومًا لوجودها حتى الآن، على أية حال، لما لم يجد «زقزوق» استجابة معقولة من الرجل الواقف أمامه، ابتلع الإهانة، وارتكن بيده على أرضية الحجرة كما لو كان ينتظر شيئًا.

«مرزوق» هو القرد الثانى، وكان يشبه زميله «زقزوق» إلى حد كبير، ماعدا أن جسده كان أقل فتوة وشبابًا، وتقاطيع وجهه كبيرة بعض الشىء، ويبدو أنه كان من ذلك النوع المسالم هادىء الطباع، لأنه اكتفى بالنظر إلى ما يفعله «شرشر» بالماعزة بعد أن خلع معطفه العسكرى الذى لم يعرف «مرزوق» بالطبع أن شرشر قد اشتراه من وكالة البلح، ويبقى «مرزوق» ساكنًا لاينطق أو يقوم بأية حركة يمكن أن تلفت النظر إليه، فبدا وكأن الأمر لايعنيه على الاطلاق.

أما القرد الثالث، فقد أسماه «شرشر » لسبب غير مفهوم «معتوق» ربما تمشيًا مع الأداء الصوتى لإسمى رفيقية، وربما بسبب شعور مبهم انتابه، وجد معه أن هذا الاسم هو الأكثر انطباقا عليه، وقد ظل هذا القرد، الذى تبدو فى نظراته جدية واعتداد شديد بالنفس، قابعًا فى مطرحه يشعر بضيق شديد وقرف لاحدود له، بسبب وجوده فى هذا المكان الضيق المظلم الذى اضطر للمبيت فيه طوال الليلة الماضية، بعد أن احضروه من الجبلاية الكبيرة، بحديقة الحيوان، فأصبح محرومًا من مشهد السماء الواسعة ممنوعًا من الانطلاق فى مكان فسيح. والحقيقة أن «معتوق» كان شخصية معقدة بعض الشىء، فهو لايأخذ أى موضوع ببساطة أبدًا مثلما يفعل رفيقاه، كما أنه يميل إلى التفلسف كثيرًا، فعلى سبيل المثال ظل طوال الطريق، منذ أن ابتاعهم «شرشر» من حديقة الحيوان، حتى جلبهم إلى هذه الحجرة الضيقة، يتحدث عن الاحتمالات الممكنة للأسباب التى تقف وراء تخلى الحديقة عنهم لذلك المدعو «شرشر» فقال إن «مرزوق» قرد عجوز، تخلصوا منه لأنه كان دائب الشجار مع ذكور الجبلاية الآخرين، أما «زقزوق» فهو مازال شابًا صغير السن، وربما دفع «شرشر» فيه مبلغًا اغراهم بالتخلى عنه، أما هو.. «معتوق» فلا يداخله شك فى أنهم ابعدوه عن الحديقة لأنه حرض قرود الجبلاية على الاضراب عن تناول البرسيم طوال أيام أسبوع، حتى يجبروا إدارة الحديقة على استبداله فى بعض الأيام بأصناف أخرى من الفواكه والخضار التى رأى بنفسه كثيرًا من موظفى الحديقة يحملونها معهم أثناء خروجهم بعد انتهاء عملهم، حتى أنهم كانوا يخبئون بعض الأطعمة التى كان كثير من الزوار يعطونها لهم ليطعموها لقرود الجبلاية، وهذه كلها كافية لجعل القرود تعيش بمستوى لائق لايقل عن المستوى الذى اعتادت عليه فى الغابة.

ولو توخينا الإنصاف لقلنا إن «معتوق» لم يكن معقدًا نفسيًا لكنه كان فقط قردًا خبر الحياة أكثر من زميليه فهو الوحيد بينهم الذى لم يولد فى الجبلاية بل ولد فى الغابة الفسيحة الممتدة، التى تلامس المحيط بأطرافها، والتى تتيح لأى قرد، حتى لو كان حدثًا صغيرًا اعتلاء أطول شجرة جوز هند يطاول بها عنان السماء، ويشع بصره بتجليات الطبيعة الفاتنة حيث تصخب المياه بالأزرق

اللازوردى، الذى لم تدنسه بعد نفايات المدنية الحديثة، وتصدح الطيور فيها بتنويعات على أكثر من لحن واحد، وتغرف روحه من الأخضر المتوج ملكًا مطلقًا لكل الألوان، وينبثق منها ألف أخضر وأخضر يطمئن النفس، ويغنى الروح.

هكذا.. وحتى بعد أن استقر «معتوق» فى الجبلاية، بعد أن جلبوه إليها مع أمه، لم ينس أبدًا تلك الحياة الجميلة الواسعة، التى سلبت منه؛ الحياة الخليقة بأى قرد سوى قادر على القفز والحرب والحصول على طعامه بيديه القويتين وممارسة الحياة التى يرغبها ويختارها.

لكن «شرشر» لم يفكر لحظة فى تحليل شخصية أى من القرود الثلاثة، فهو قرداتى قديم لايهمه من أمر القرود إلا النجاح فى تدريبها بأسرع وقت ممكن، وفقًا للطريقة التى ورثها أبًا عن جد، والتى توارثها جدوده عن أبائهم وجدودهم أيضًا فتسيدوا على القرود وتحكموا فى مقدراتها، لذلك لم يخطر فى بال «شرشر» أبدًا أن يتأمل فى أحوال القرود، ولم ينشغل بمعاناتها كما أنه لم يتساءل يومًا عن أحلامها وأمانيها فى الحياة لأنه كان منشغلاً بضرورة اتقانها لعجين الفلاحة، ونوم العازب، ومشية الأمير، ووقفة الخفير، حتى يتسنى له بيعها بثمن جيد لقرداتى آخر، أو ليسرح بواحد منها هو شخصيًا فيرتزق به فى الشوارع والأسواق.

خرجت امرأة «شرشر» ثم عادت إلى الحجرة مسرعة، حاملة بيدها عصا طويلة غليظة، ولما كان «زقزوق» كما قلنا، مازال غرًا لايكف عن الزهو بنفسه فقد تحرك قليلا فى محاولة منه للقفز على العصا واعتلائها مستعرضًا رشاقته ومهاته كقرد فى عزه وشبابه، لكن السلسلة التى تقيده حالت بينه وبين ذلك، إلا أنه لم يشعر بالإحباط لذلك لأن «شرشر» صرخ فجأة مكشرًا عن أنيابه، وبدأ بضرب الماعزة ضربًا موجعًا وقال لها:

ـ ياالله.. اعملى نوم العازب، بسرعة.

وبدلاً من أن تحاكى الماعزة نوم العازب ظلت تمأمىء وتصرخ بصوت حاد لابد أن يصدر عن ماعزة تعذب على هذا النحو دون سبب مقبول، ثم أنها راحت

تحاول التملص من قيد أقدامها، ولما لم تجد فكاكًا زادت من صراخها واحتجاجها.

تبادل القرود الثلاثة القابعون فى زاوية الحجرة نظرات استفهام؛ حاول «معتوق» تفهم ما يدور أمامه فكل معلوماته المترسبة فى خبايا ذاكرته عن جنس الماعز من زمن الغابة هى أنها كائنات وديعة، سريعة العدو، تأكل الأعشاب والألياف، وتقدم أجسادها دون صراع كبير لقمة سائغة للأسود والنمور وبقية ضوارى الغابة اللاحمة، ولما لم يجد تفسيرًا مقبولاً للمهزلة التى تدور أمامه، آثر الصمت مركزًا ذهنه فى محاولة جديدة للفهم.

الغريب أن «شرشر» بدلا من أن يكف عن ضرب الماعزة، التى بدت وكأنها على وشك النفوق، بعد أن تحشرج صوتها، وخرج لسانها، الأحمر الطويل من بين فكيها، وخرج الزبد من فمها، وزاغت نظراتها، زاد من وتيرة عصاه، وصاح بعنف:

ـ عجين الفلاحة وإلا شربت من دمك يا بنت التيس.

لم تفهم الماعزة الإهانة فهى بنت تيس فعلاً، لكنها فهمت أن هذا الكائن الشرير الذى يضربها بلا سبب سوف يجهز عليها فعلاً، فراحت تثغو متوسلة علّه يرحمها ويكف عن الضرب بلا جدوى، لكنه بعد قليلا، وبدون مقدمات توقف عن الضرب ثم ارتدى معطفه العسكرى فوق جلبابه وأحكم وضع ربطة عنقه القديمة، وسرعان ما سحب الماعزة خارجًا وأعاد قفل باب الحجرة على القرود الثلاثة.

ـ ٢ ـ

عندما أقبل اليوم التالى لتلك الأحداث المؤسفة كان القرود الثلاثة قد أعياهم التفكير فى سلوك «شرشر» العنيف مع هذه الماعزة البائسة. اقترح «زقزوق» الذى لم يكن يعرف شيئًا عن الماعز، أن الماعزة لابد أن تكون قد خطفت اصبعًا من الموز من يد «شرشر» بعد أن قشره وهم بالتهامه، أما «مرزوق» الذى كان جائعًا جدًا وقتها لأنه لم يأكل ما يكفيه منذ مجيئه لحجرة «شرشر» الكئيبة فقد وافق

على فكرة «زقزوق» مع تعديل بسيط فيها فاستبدل اصبع الموز بحفنة من الفول السودانى، لكن «معتوق» ظل متضايقًا جدًا من ضحالة أفكار رفيقيه، وتدنى مستوى النقاش، لذلك سارع بنسف نظرية الموز والفول السودانى من أساسها لأن الماعزة ليس من عادتها أكل مثل هذه الأشياء.

عمومًا، لم يترك لهم «شرشر» مساحة كافية من الوقت لمزيد من التمحيص فى مسألة الماعزة، فلقد اقتحم الحجرة فجأة بمعطفه إياه وربطة العنق، التى كان يتدلى طرفها الطويل على صدر جلبابه، وهى الربطة التى ظن القرود منذ أن رأوها للمرة الأولى أنها ولابد القيد الذى يقيد به «شرشر» أناسا آخرين أقوى منه وأكثر شرًا، وبينما هو آخذ فى خلع معطفه وتعليقه على المسمار الوحيد فى الحجرة الذى كان يثبت لوحة كرتونية لامرأة شقراء باسمة تحتسى الكوكاكولا مثلما فعل فى اليوم المنصرم، دخلت أمرأته بالماعزة، وبدأت مشاهد اليوم السابق تتكرر مع بعض التعديلات البسيطة، فبعد أن قلب «شرشر» سحنته وشمر عن ساعديه بدأ فى ضرب الماعزة لكن الجديد الذى أضافه هو أنه بينما كان يصرخ قائلاً: نوم العازب، انقلب على ظهره وتمدد على الأرض رافعًا ساقه، التى تشبه ساق الماعزة إلى حد كبير، ماعدا أنها كانت مغطاة بشعر أسود خشن أقل كثافة بكثير من شعر الماعزة ثم وضع هذه المشعرة على الأخرى التى لاتقل شعرًا بينما استند برأسه إلى ذراعيه المعقودتين خلفها مكررا نداءاته للماعزة بأن تقوم مثله بعمل نوم العازب وإلا أذاقها عذابًا لم يذقه جن أو بشر.

عند عجين الفلاحة هب واقفًا، وراح يحاكى حركات فلاحة ترفع العجين وتمطه إلى أعلى ليتشرب أكبر كمية ممكنة من الهواء وينتفخ ورغم أن الماعزة كثيرًا ما شاهدت الفلاحات فى القرية يقمن بهذه العملية الشاقة بعض الشىء. مرات ومرات، إلا أن المسكينة لم تتصور نفسها تقوم بذلك فى يوم من الأيام، لذلك صعد «شرشر» من ضربه الوحشى لها ناعتًا إياها بأقذع الشتائم، التى تتجلى فيها إبداعات عالمه السفلى، ثم أنه لم يكف عنها الأذى، إلا وهى على شفا الموت، فسحبها إلى الخارج مرة أخرى ، وأغلق الباب وراءه بعنف.

- ٣ -

ملخص ماتلا ذلك هو أنه كاد يجن جنون القرود الثلاثة من تصرفات «شرشر» الشنيعة، والتى لايوجد ما يفسرها على الاطلاق. حاول «زقزوق» المسحوب من لسانه، دومًا، أن يقول شيئًا، لكن «معتوق» أسكته بنظرة معناها الفعلى: إخرس، فكاد أن يكتم أنفاسه مع صوته عندئذ، اكتفى «مرزوق» بأن يقول:

- يظهر أن الموضوع خطير يا جماعة.

- ٤ -

فى اليوم الثالث، جاء «شرشر» وفتح الباب بسرعة، وقد بدا نافد الصبر، ارتجفت قلوب القرود الثلاثة، رعبًا، حتى أن «مرزوق» المتألم بسبب دوس «زقزوق» المرتبك على ذيله آثر السكوت كاتمًا ألمه ولم يحاول دفع زميله عنه، أما الماعزة فقد جاءت هذه المرة منهارة، زائغة النظرات، تمأمئ، بأسى، حتى قبل أن تمتد إليها عصا معذبها، ولما بدأت حفلة التعذيب حيث هوت العصا على كل موضع ممكن من الجسد الهزيل، وباتت المسألة واضحة وضوح الشمس لكل عين ترى وكل أذن تسمع أن الماعزة لن تعجن عجين الفلاحة بأية حال، ولن تنام نوم العازب مهما كان الأمر، حدثت المفاجأة المذهلة، التى ألجمت الجميع، فقد أخرج «شرشر» وعلى حين غرة من الجيب السيال لجلبابه سكينًا حادة انقض بها على رقبة الماعزة وذبحها بينما أخذ يتلو الشهادتين.

- ٥ -

لم يغمض جفن للقرود الثلاثة طوال ليل ذلك اليوم، فقد ظلت أعصابهم مشدودة منذ أن ترك «شرشر» الحجرة وأغلق بابها عليهم بعد أن حمل الماعزة المغدورة وبقيت رائحة الدم الذى لم يجف تمامًا تملأ أنوفهم، وتنشر الرعب فى أوصالهم، بانت خطورة الموقف بعد أن طرح «معتوق» على رفيقيه سؤالاً كان أشبه بالقنبلة، التى انفجرت فجأة:

ـ ماذا لو جاء «شرشر» غداً طالباً منا أن نقوم بما كان يطلبه من الماعزة.

حاول « زقزوق» الاعتراض على السؤال من أصله، وقال إنه من المستحيل أن يطالبهم بذلك لأنهم لم يفعلوا شيئًا بغضبه أو يؤذيه، وعلاقته بالماعزة لابد أن يكون بها شيء من ذلك دفعه لقتلها.

ابتسم «معتوق» ساخراً لأنه كان قد شاهد فى الغابة منذ زمن بعيد ما يكفى ليرد به على كلام «زقزوق»، فالفريسة لاتستفز المفترس الذى يفترسها لكن آثر، بدلاً من مناقشة «زقزوق» التافهة أن يأخذ رأى «مرزوق» حتى يتوصل ثلاثتهم لنتيجة فى هذه المسألة الخطيرة.

تنحنح «مرزوق »، وحاول أن يكون هادئًا وهو يقول:

ـ الحقيقة أننى لا أظنه سيطلب منا ذلك فنحن لسنا ماعزاً على أية حال وأغلب الظن أنه سيعيدنا إلى الجبلاية غداً على الأكثر، ولكن حتى إذا طلب منا ذلك فما المشكلة؟ إنها مسألة بسيطة للغاية أن نقوم بتقليد حركاته فهى لاتحتاج إلى كثير من الجهد والعناء، ومن ناحية أخرى أنا أرى أن تفكر جيداً قبل أن نخالفه، أو نعصى أوامره، فهو كائن متهور لن يتورع عن ذبحنا مثلما ذبح ماعزته، قاطعه «معتوق» قائلاً:

ـ لكنك قلت أننا لسنا من الماعز منذ قليل!

هرش «مرزوق» رأسه الصغيرة وتلاحقت نظراته فى ارتباك ثم استكمل كلامه قائلاً:

ـ صحيح لكنك رأيت بنفسك السكين، كما أن لديه سلاسل يقيدنا بها كما ترى الآن والله وحده يعلم ماذا يمتلك أيضًا من وسائل وأساليب لانقوى على مواجهتها.

تساءل «معتوق» مستنكرًا:

ـ وأظافرنا الحادة؟! وأسناننا؟! وأنيابنا المسنونة يا حبيبى ؟ أليست موجودة لدينا؟!.

لم يرد «مرزوق» وآثر الصمت، فمعتوق برأيه متطرف الرأى، متهور السلوك، ولايتعلم من دروس الماضى أبدًا، فهو لم يستوعب جيدًا درس طرده من الجبلاية، وحبسه فى قفص منفرد، بعد أن حرض القرود على الاضراب عن أكل البرسيم، لذلك فهو، أى «مرزوق» لن يأخذ برأيه أبدًا، ولن يعمل بمشورته لأن «شرشر» الشرير يمكن أن يقتله وعندما لن يفيده كلام «معتوق» وياروحى ما بعدك روح.

بصق «معتوق» على الأرض بعد أن أشاح زميلاه بوجهيهما عند وراحا يتناقشان فيما سوف يفعلانه بعد عودتهما إلى الجبلاية مرة أخرى، فقال زقزوق إنه سوف يتزوج فورًا ويشكل لنفسه طاقمًا من الحريم الخاص يخلف له العيال، الذين يحملون ذكراه فى الدنيا، أما «مرزوق» فقال إنه بمجرد وصوله إلى الجبلاية سالمًا سيحمد الله على سلامته ويبوس أرضها وسوف يعيش بعد ذلك جنب الحائط، فلا مشاحنات ولا معارك مع أى قرد آخر، مهما كان الأمر، حتى لو حكمت عليه الظروف أن يأكل لقمته بدقة.

كان «معتوق» هو الوحيد الذى لم يقل لنفسه شيئًا وكانت تعتريه رغبة شديدة فى البصق مرة أخرى.

ـ ٦ ـ

فى اليوم الأخير جاء «شرشر» وزوجته لكن بدون ماعزة طبعًا.. بدأ طقوسه بخلع المعطف والتكشير عن الأنياب، ثم أنه حمل العصا بيد ومد اليد الأخرى ساحبًا «زقزوق» من السلسلة إلى وسط الحجرة وهتف بصوت ملؤه الأمل فى النجاح:

ـ يالله.. نوم العازب.

بدأ «زقزوق» مرتبكًا ، ربما لأنها المرة الأولى، التى يجبر فيها على أداء دور لايعرفه جيدًا، ولفرط ارتباكه قام بأداء عجين الفلاحة بدلاً من نوم العازب، مما استدعى أن ينال ضربتين قويتين على مؤخرته، التى ازدهرت بالاحمرار أكثر مما كانت عليه من قبل.

تدخلت الزوجة التى كانت واقفة تراقب القرد الفتى، وقالت لزوجها:

- بالراحة عليه يا شرشر، علمه أنت الوضع الأول.

انقلب «شرشر» على ظهره متخذًا وضع نوم العازب مثلما يفعل دومًا فسارع «زقزوق» بمحاكاته بخفة ورشاقة دفعتا الزوجة لأن تضحك بسرور، فانبسط شرشر لانبساطها، وقال:

- جدع.. طيب عجين الفلاحة.

قامت الزوجة بالانحناء قليلا، وأخذت تصور عملية العجن فى دلالوميوعة، مما جعل «زقزوق» يتمالك نفسه بصعوبة ويبذل جهدًا نفسيًا جبارًا كى لايعتليها بدلاً من تقليد حركات يديها ورأسها وهى منحنية، لكنه بدا عاقلاً متزنًا لأول مرة فى حياته حيث ثبت نفسه على وضع العجين، الذى أداه بظرف حتى أمره «شرشر» بالرجوع مرة أخرى إلى وضعه الطبيعى، فقالت المرأة بسعادة بالغة:

- والنبى لذيذ ودمه خفيف، تعرضه على السيرك يا شرشر، لأنهم ممكن يشتروه منك بسعر معقول جدًا.

أخرجت الزوجة من صدر جلبابها اصبعا من الموز قذفت بقطعة منه لزقزوق فتلقفه غير مصدق، لأنه لم يذق الموز منذ أن جىء به لهذا المكان، وبات واضحًا بعد ذلك أن الدور اقترب من القردين الآخرين لأن «شرشر» أعاد «زقزوق» وربطه فى مكانه الأول، بينما أخذت عيناه تتفحصان كلاً منهما، لكنه ولسبب ما سحب «مرزوق» أولاً:

كرر «مرزوق» حركات زميله السابق لكن دون خفة ومهارة واضحة، ربما لكبر سنه أو قلة حيلته، لذلك علقت الزوجة بفتور على أدائه قائلة:

- خليه يا شرشر، تسرح به، أو تبيعه لأى واحد من العيال السريحة. ويبدو أن «شرشر» كان قد قرر ذلك قبلها لأنه هز رأسه ولم يقل شيئًا.

ثم جاء دور «معتوق». سحب «شرشر» معتوق إلى وسط الحجرة فسار القرد

فى تباطؤ ودون انصياع واضح. زر «شرشر» عينيه الضيقتين فى ضيق وصاح بعنف.

- نوم العازب.

حرك «معتوق» ساكنًا صغيرًا، أرنبة أنفه، التى اتسعت لتدخل مزيدًا من الهواء إلى صدره. أعاد القرداتى نداءه منذرًا مرة أخرى:

- نوم العازب بسرعة.

«معتوق» لم يرد أيضا.

اغتاظ «شرشر» فكح وهرش رأسه وغير النداء.

- طيب يا وسخ.. عجين الفلاحة.

ثبت «شرشر» عينيه فى عينى القرد، اللتين بدتا ثابتتين وهادئتين تماما ثم قال:

- إسمع.. اتعدل أحسن لك، وإياك تطلع روحى، يا الله يا حلو، عجين الفلاحة، عشان تأخذ موزة.

لكن «معتوق» الذى لم يكن حلوًا بأى معيار من المعايير، جلس القرفصاء مظهرًا عورته وراح يعبث بأصابعه فى قدمه.

تجمعت غيوم الغضب فى وجه «شرشر» منذرة بقدوم العاصفة وارتفع حاجباه بالدهشة والاستنكار وتمددت شفته السفلى الرقيقة معلنة عن عنف وشيك، ثم أنه رفع عصاه عاليًا محاولاً تسديد ضربة لمؤخرة «معتوق».

كان غضب أشد قد تجمع فى صدر «معتوق»، ليس فى هذه اللحظات فقط، ولكن منذ لحظة قتل الماعز وهدر دمها فى الأرض، لذلك وبهدوء، رفع يديه ناشيًا أظافره وأسنانه فى جسد «شرشر» الذى ألجمته المفاجأة، فأخذ يقاوم ويبعده عنه، بينما «معتوق» يأرمه أرمًا بكل غضبه المكبوت، وحلمه الدفين فى العودة إلى عالمه الفسيح المترامى، حيث المحيط الأزرق والغابة الممتدة الخضراء وعالم الطيور السحرى.

ويقال إنه فى اليوم التالى لتلك الحادثة الغريبة كان «شرشر» فى المستشفى و«زقزوق» فى السيرك و«مرزوق» يجوب الطرقات يتسول طعامه مع قرداتى آخر، أما «معتوق» فقد أعادوه مرة أخرى إلى الجبلاية لأنه غير قابل للترويض، ويقال أيضًا إنه كان يمضى وقته محادثًا صغار القرود، عن روعة وجمال الغابة، التى لم يروها أبدًا لأنهم ولدوا فى عالم ملىء بالصخور.

فتح التربى باب حوش المقبرة، أطل من فرجة الباب برأسه الذى كان ملقى ككرة ضخمة ناعسة على السرير منذ قليل، فرك عينيه ليرى من دق بابه فى ذلك الوقت الليلى المتأخر، ثم قال:

ـ نعم.

ـ لامؤاخذة فى الإزعاج، حالة وفاة.

ردت عليه واحدة من ست بنات رآهن واقفات أمامه، قبالة باب المقبرة، فتح عينيه بدهشة، وشعر بخيالية المشهد، ثم أعلن ـ مستغربًا ـ استحالة الدفن فى هذه الساعة المتأخرة من الليل، وأكد ذلك، برفع كم جلبابه الواسع والنظر فى ساعة يده، فوجد الزمن قد. تجاوز الثالثة والنصف صباحًا، فقال مرة أخرى بغيظ:

ـ معقول.. دفن فى عز الليل؟! هل الدنيا طارت؟!.

كلها ساعة زمن ونور ربنا يطلع، والنفر يقدر يقول يا فتاح يا عليم.

قالت بنت من الواقفات بضيق:

ـ مستحيل الانتظار، لازم ندفنه حالاً، فى التو.

عاود التربى فرك عينيه مرة أخرى، وتثاءب بما يكفى للانتباه جيدًا، لاحظ أن التى حدثته لاترتدى ملابس الحداد السوداء، فجال بنظراته عليهم جميعًا، فتميزت أمامه على ضوء مصباح الطريق الخافت، ألوان ثيابهن الملونة المنقوشة،

اكتشف الرجل أيضًا وجوههن المطلية بما تتجمل به النساء، وشعورهن المنسقة، ويدين له فى هيئتهن العامة، كما لو كن ذاهبات إلى حفل، وعندما اقتحمته رائحة العطر النسوى الفائحة منهن، اهتزت مشاعره قليلاً، وخرج صوته ضعيفًا متسائلاً:

- جماعة نسوان بس، والدنيا هس هس فى عز الليل؟!.

ضحكت إحداهن ضحكة خشنة ممطوطة دفعت برعدة سرت فى جسد التربى، ودفعت قلبه للدق بعنف، إذ أن الرجل بدأ الشك فى وقوفه أمام بشريات من الإنس، وداخله شعور مرعب بوقوفه أمام أشباح أو عفاريت من عفاريت الترب، الذين طالما سمع عنهم من الناس، ولكنه لم يرهم قبل الآن أبدًا، فكر فى الصراخ والاستغاثة بأى من جيرانه سكان المقابر، لكن صاحبة الضحكة المطوطة، لم تمهله ليصرخ إذ قالت:

- نعم، كلنا بنات، وأبونا حرمه ربنا من الصبيان، قطيعة تقطعهم كلهم من على ظهر الدنيا.

سأل التربى:

- يعنى الجميع بناته؟!.

- للأسف.، ردت واحدة.

لم يصدق التربى الكلام، فمن غير المعقول أن تلكم الواقفات أمامه بنات رجل متوف، لم يوار التراب جسده بعد، فلا مسحة حزن واحده على وجه أى منهن، لا دموع، لابكاء وعويل مثلما يحدث عادة فى مثل هذه الحالات، ثم ما هذه الملابس الملونة، والوجوه المصبوغة، والضحكة الوقحة التى سمعها منذ قليل. حار التربى فيما هو فاعل، وكان السؤال الذى مازال ملحًا عليه هو: هل ما يراه بعينيه فى هذه اللحظات حقيقيًا؟. أم أن ما يراه شىء خيالى، أشبه بالكابوس؟، أو ربما بالمزحة الثقيلة التى يسمع عنها فى الحكايات عندما تهذر العفاريت أحيانا مع بنى البشر. فرك التربى عينيه مرة أخرى، ومسد شعره بيده فى توتر ربما ليتأكد

من واقعية وجوده، وما يدور أمامه، وأنه ليس استمراراً للحلم الذى كان يحلمه منذ قليل وأفاق منه على دق الباب، إذ كان يرى فيما يرى النائم، أن ممثلة فاتنة، رآها قبل أن ينام فى مسلسل التلفزيون، خرجت إليه من أكفان الموتى، وراحت تأخذه فى أحضانها، وهو لايصدق نفسه، ولايدرى على وجه الدقة، أيسر لوجوده بين أحضانها أو يصرخ كلما وقعت عيناه على كفنها. لكن الترابى لما تيقن من وجود شعره، وخرق أذنيه صوت جرو جاره العجوز، الذى يشبه صوت بكاء الرضع، تماسك واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قال:

ـ طيب.. أشوف شهادة الوفاة أولاً.

كان قد بدأ يفكر فى احتمالات لجريمة، وإلا لماذا تأتى هؤلاء البنات لدفن أبيهن فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، وفكر أيضا، فى احتمال أن تكون شهادة الوفاة مزورة، أو وجود سر قد يعرضه للمساءلة القانونية. أخرجت فتاة قصيرة تضع نظارة طبية على عينيها، ورقة من حقيبة، يدها وناولتها للترابى، الذى بدأ يقرأها بدقة، كانت صادرة من مكتب الصحة بالحى القريب من الترب، بتاريخ اليوم المنصرم، ومدون بها اسم الميت وتاريخ الوفاة وأسبابها، تمعن الترابى فى توقيع طبيب الصحة، ورئيس المكتب والختم الجمهورى، ورغم أن النسر المجنح، كان قد استقر براحته كاملاً على الإمضاءات، إلا أن الترابى لم يطمئن قلبه، وزاد الشك بداخله أكثر فقال:

ـ المفروض أن الوفاة تمت الصبح، يعنى الوقت كان يسمح بحضوركم وقت العصر أو المغرب، حاجة غريبة... الانتظار لبعد دخول الليل.

قالت واحدة، بدت وكأنها أكبر البنات بتأفف وضيق:

ـ مسألة توقيت الدفن تخصنا أولاً وأخيراً، المطلوب أن تشوف شغلك وتحصل أتعابك وخلاص.

إغتاظ الترابى، وأيقن أنه لم يعد قادراً على فهم أى شىء، فقال بعصبية.

ـ مستحيل أقوم بالدفن فى حصة ليل متأخرة، الصباح رباح.

هددته الكبيرة بأنهن سوف يتركن له الجثة. فى ساحة المقبرة ويذهبن؛ وبالفعل أشارت بيدها لأخواتها فذهبن جميعًا نحو الباب الخارجى للمقبرة، وحملن النعش من فوق عربة كارو، وجئن به ليضعنه أمام أقدام التربى، الذى طلب منهن غاضبًا فتح النعش ليرى ما بداخله، كان يتوقع اكتشاف آثار تدل على جريمة، أو أية علامة تؤكد أن الوفاة ليست طبيعية، فلما وجد أمامه ميتًا، يرقد فى أكفانه أربعة وعشرين قيراطًا، صراخ قائلا: ـ عمومًا.. مستحيل الدفن الآن، وأفضل تبليغ الحكومة.

قالت ذات النظارات بهدوء:

ـ بلغ البوليس، واعمل ما بدا لك.

دخل التربى مسرعًا إلى بيته الذى هو فى الأصل حجرتان واسعتان داخل حوش المقبرة، الهدف منهما استقبال أهل المتوفى، وعندما اتصل بقسم الشرطة، وشرح للمناوب الليلى المشكلة، رد الآخر ببرود، ودون أدنى حماس قائلاً إنه لايستطيع فعل شىء إزاء هذه المشكلة، إذ أنه لاتوجد جريمة قتل، وطالما أن شهادة الوفاة سليمة، وموقعة، ومختومة، فليدفنه ويتكل على الله، ثم أنه سأل التربى: هل هناك آثار دماء أو كدمات فى الجثة، أو آثار اختناق؟، فلما نفى التربى كل ذلك، وضع المناوب سماعة الهاتف، وألقى برأسه مرة أخرى على مكتبة لينام.

عاد التربى من جديد إلى النعش والبنات، وأعلن بحزم أنه لن يقوم بالدفن بأية حال من الأحوال، إلا إذا عرف السبب الذى دفعهن لدفنه فى ذلك الوقت الغريب، ثم أضاف قائلاً إنه لن يخضع للتهديد، وأن البنات لن يستطعن الذهاب دون إعطائهن ما يثبت قيامه بالدفن، وإلا تعرضن للمساءلة القانونية، فلما وجدت البنات أن فكرته معقوله، وأنه مصر على موقفه، قالت واحدة منهن:

ـ إسمع يا عم، أبونا مات موتة ربنا، فاطمئن من ناحية الوفاة، لكن المسألة يصعب شرحها لك الآن، لأن الموضوع كبير، ولو حكينا لك سبب الحكاية، لاحتجنا لأيام طويلة.. إدفن واتكل على الله.

أضافت الكبيرة لتريحه وتطمئنه:

- باختصار.. كلنا انتظرنا من زمان لحظة موته، لأن كرهنا له، أكبر من كرهنا للعمى ذاته، الله يجحمه مطرح ما يروح. اشمأز التربى من كلماتها، فلا يجوز على الميت إلا الرحمة مهما كان فعله أو جرمه فى الحياة الدينا، فما بالك أن هذا الراقد فى أكفانه أبوهن.

ضرب التربى كفا بكف وقال متأففا:

- لاحول ولاقوة إلا بالله.. أعوذ بالله منك يا شيخة..

استغفر الله العظيم، ربنا يتوب عليك ويرحمك برحمته.

قالت الصغرى:

- اياك تظن أننا عديمات الرحمة، أو بدون مشاعر وأننا نفترى عليها، والله أبدًا لكنه كان معذبنا، ومطلع أرواحنا فى الصبح والليل، وبالإسم أب، أما بالفعل والحقيقة؟.

- يا ساتر يارب!. كان عنده شغل معين؟! سأل التربى

قالت أم نظارات:

- عسكرى يا سيدى، وخلانا نشوف النجوم فى عز النهار، قتلنا بالحياة، وبعد موت أمنا أصبحنا ستة بنات لاحول ولاقوة لنا، نعيش على فيض الكريم لأنه باع أرضها، وأخذ فلوسها كلها ، وكان دائم التقتير علينا، وحرمنا من التعليم، ومن كل شيىء جميل فى الدنيا كما بقية الخلق، يعنى حكايتنا طويلة، ومصيبتنا ماوردت على إنسان أبدًا.

حوقل التربى، وفكر أن البنات ربما كن مبالغات بعض الشى، أو أنهن يكذبن لسبب لايدريه، لكن ما كانت تطفح به وجوههن من أسى، وما فاضت به أصواتهن من مرارة، جعله يشعر بصدقهن فقال:

- طيب، كل واحدة توحد الله وتهدى أعصابها، لكن يا جماعة كان من الممكن

أن يتوسط إنسان ويتكلم معه، أى واحد عاقل من أهله أو أصحابه، له كلمة عليه، فيغير معاملته، ويرق قلبه.

أعلنت الصغرى ساخرة.

- جدى كان أخرى منه، لأنه عسكرى هو الأخر، وكذلك عمى،

استأنفت الكبرى الشكوى:

- كان ملجمنا كما الحيوانات، مستحيل أية واحدة منا تقول رأيها وفى مرة من المرات صرخت فيه أختى الوسطانية وقالت له حرام عليك حياتنا فى المرار طوال الوقت، وعاوزة أعيش كما الخلق، أتعلم، أخرج للدنيا، تصور يا عم يا تربى: ضربها علقة وقور لها عينها.

- المشكلة أننا وصلنا لمرحلة مستحيلة خلاص، امتنعنا عن فتح حنكنا بأية كلمة، تعلمنا الكذب والنفاق، وأصبحنا كما المخصيين.

قالت الصغرى بمرارة:

- بدون تشبيه، لأنه ختن كل واحدة منا فعلا.

شعر التربى بالحرج، لأنه كان مدركا انقضاء الزمن، الذى كانت تختن فيه البنات، شعر بضيق، وبشفقة لاحد لها على هؤلاء البنات، لكن السؤال الأول، كان ما يزال ملحا فى رأسه، لماذ يرغبن فى دفنه خلال هذا الوقت المتأخر من الليل.

قالت له الكبرى، إنهن رغبن فى حرمانه من نعمة تشييعه وإيصاله لمقره الأخير معززا مكرما كبقية الناس وقالت الوسطى، أن من حرمهن من نعمة الشمس، لايستحق الدفن تحت الشمس، ثم أخبرن التربى، أنهن صنعن حلوى بعد موته، واحتفلن بهذه المناسبة، فذهبن إلى مزين النساء، وارتدين أجمل مالديهن من ثياب، فسرقهن الوقت وجئن متأخرات جدا، وليس فى بداية المساء، كما أخبرنه بنيتهن تحطيم صوره المعلقة على الجدران وحرق بزته العسكرية، عندما ينتهين من الدفن ويعدن للبيت، وأنهن أقسمن ألا يذكرنه طوال حياتهن بعد ذلك.

لم يكن الترى من ذلك النوع البشرى المحب للتشفى فى بلايا الناس، ربما بسبب كونه تربيا لا أكثر ولا أقل، لذلك لم تداخله المتعة المعتادة لدى غيره الوقوف على مآسى الأخرين، الأكثر من ذلك، شعوره بشفقة وتعاطف صادق تجاه هؤلاء الولايا الواقفات أمامه، وسرعان ما تحول التعاطف إلى رغبة حقيقية لديه فى مساعدة البنات، وعمل شيئ لأجلهن، ولما لم يدر كيف، لأن رأسه فى الحقيقة، رغم احتوائه على مخ، لايختلف كثيرا عن أية جمجمة خاوية يمكن العثور عليها أحيانا فى منطقة الترب، اضافة إلى أن نداء السبات كان ما يزال يناديه بشدة، لذلك تنهد التربى، وبدأ كمن أسقط فى يده، فقال أخيرا:

ـ خلاص.. بمشيئة الله أدفن الجثة.

شمر التربى عن أكمامه، وقال أنه سيذهب لاستدعاء مساعده من البيت المجاور، ليعاونه فى فتح المقبرة، والقيام بعملية الدفن، لكن ما أن بدأ بالمسير، حتى برز رجل فى الطريق، يرتدى زيا عسكريا، ويسير فى صلف، وراح يتقدم من التربى والبنات اللواتى بمجرد أن تبيّن ملامحة عند اقترابة منهن صرخن فى صوت واحد:

ـ عمى!.

لم يرد الرجل عليهن، بل راح يكيل لهن الشتائم والسباب، ناعتا إياهن بأقذع الألفاظ، متوعدا بالويل والثبور وفظائع الأمور.

انهارات البنات، ورحن يبكين بحرقة الإحباط واليأس، فلما أتاح الغل والشر فرصة للصوت قليلا، قال العم العسكرى:

ـ من هنا وطالع، أنا المسؤول، أنا الوصى، وكل شىء ما شيى كما الأول.. مفهوم؟.

قال ذلك ونظراته المتوعدة المهددة، تنغرز فى وجه كل واحدة منهن.

كان الخوف والرعب على وجوه البنات أولا، ثم كانت الكراهية والإزدراء ثانيا، وأخيرا نفرت عروقهن بدماء الغضب والحقد، وكل ذلك المختزن بداخلهن من غل

وغيظ، سمما حياتهن طوال سنوات طويلة، وبات الخوف من العودة إلى الماضى، أقوى من التفكير فى أى مستقبل، وفى لحظات هجمن جميعا على ذلك الماضى الحى المتجسد أمامهن، وأوسعنه ضربا ولكما، وهو يقاوم بكل أساليبه العسكرية دون جدوى، وسرعان ما جرى التربى إلى بيته مرة أخرى، ليتصل بالبوليس ويقول للمناوب:

ـ أظن إنك لازم تحضر بسرعة، فى الحال والتو.

وكان نهار آخر قد بدأ يطلع فى هذه الأثناء.



• البداية •

قاطعت دقات الساعة تأوهات المغنية، التى كان صوتها يلعلع من الراديو وهى تقول:

- حبيبى يا عسل.

مع الدقة الأخيرة قالت لنفسها وهى تفتح علبة مربى المشمش بعد أن نجحت فى العثور على فتاحة العلب، التى كان زوجها قد تركها بغرفة المكتب منذ يومين، بعد أن فتح علبة كرز مستوردة.

- ياه.. بسرعة أصبحت الساعة الواحدة.

لذلك، عجلت بإخراج الكعكة من الفرن لتبرد، ثم راحت تغسل ما تبقى من أوعية وأطباق فى الحوض، لكنها تذكرت أثناء ذلك أنها لم تضع ملحًا لصينية الخضروات، التى ماتزال فى الفرن، فتوقفت عن غسيل الصحون، وجففت يديها وسحبت الصينية بسرعة لتضع فيها الملح، لسعت الصينيه الملتهبة يدها لأنها لم تلبس القفاز الواقى من الحرارة، لم تهتم بالاحمرار الناتج عن ذلك فى باطن كفها، وكانت تفكر فى وجوب غسل حوض الحمام عندما تفرغ من الطهى تمامًا. أعادت خضروات الفرن إلى مطرحها، وجرت إلى غرفة الصالون لتنظيف الزهور البلاستيكية الموضوعة فى المزهرية، وبدأت تزيل الأتربة المترسبة عليها بالمنفضة المصنوعة من ريش البط، سقطت منها واحدة، وعندما مالت بجسدها لتلتقطها شعرت بأن وسطها سينفصل عن بقية جسدها لشدة الألم، والإرهاق، تنبهت إلى صوت المغنية، التى كانت قد وصلت فى غنائها إلى حد التمنى لأن تكون وحبيبها

فى عش الزوجية السعيد، جرت بضيق إلى المذياع، لتسكته، وفكرت أن ترمى يجسدها على الكرسى الأسيوطى الموجود إلى جواره. لكنها قالت لنفسها:

- خلصى كل شىء الأول، لأنه لو حل التعب عليك وأنت قاعدة مستحيل تقدرى تقومى. وفعلاً..، دفعت بطاقة جديدة من عزيمتها إلى أعضائهاالمنهكة، وأخذت تدلك يديها بالماء، المنساب من الصنبور بينما هى تملأ وعاء مسح الأرضية، وما كادت تبدأ فى مسح الأرض حتى سمعت صرير باب الشقة ثم خطوات زوجها المقتربة فاستدارت لترسم ابتسامة ملائمة على وجهها، الذى تهدل شعرها عليه، وحيته فى ودّ.

- أهلاً.

خلع نظارته الطبية بيد، ورفع سبابة يده الأخرى، التى تجمع عليها غبار خفيف، وقال مستنكرًا.

- بنورة التلفزيون كلها تراب.

تقدم إلى داخل المطبخ وكشف أغطية أوانى الطعام، فقالت له أنها وشك الانتهاء من الطهى، تأملها وهى تحاول لمّ شعرها المتهدل وإمساكه بمشبك شعر كبير بينما رائحة الطبيخ تفوح منها، ارتسمت فى مخيلته صورة طالبة فى السنة الرابعة بثوبها الأزرق الفاتح وعطرها الذى يعلن عنها قبل خطواتها عندما جاءته لتقول له:

- هل صحيح أنك الغيث الباب يا دكتور؟.

وقع كلماتها فى أذنه موسيقى، مثلما مشيتها وهى تبتعد وكعب حذائها العالى الرفيع يعزف فى أذنه: تك.. تك.. صول.. مى.. تك... تك.

لم يحتمل رائحة البهارات النفاذة المتصاعدة من الطبيخ فأسرع بالخروج من المطبخ، سارعت خلفه، بينما أخذت تحكى له عن الجهد الذى بذلته مع رئيسها فى العمل حتى سمح لها بالخروج مبكرة عن موعد الانتهاء الرسمى ساعتين، فأتت بسرعة إلى البيت لتتجز كل شىء بعد أن اشترت من السوق كل مستلزمات الغداء، ثم رفعت ساعدها، وحركته عدة مرات فى الهواء وهى تقول:

- شلت عشرة كيلوات تقريبًا وأنا راجعة لدرجة أن كتفى كأنه ساقط منى.

نظر إليها وأقنع نفسه مرة أخرى أن قامتها أقصر مما يجب، وبدلاً من الانتباه إلى ما قالته بأنها بذلت أقصى ما تستطيع ليخرج طهيها متقنًا وترفع رأسه أمام رئيس القسم، أتى صوت من داخله وملأ أذنيه، لم يكن إلا: تك .. تك.. صول ... مى .. تك.. تك.

لذلك رد عليها فى فتور.

- شاطرة.. براڤو، لكن جهزى لى الهدوم. لأنى محتاج لحمام بسرعة قبل ما يطب الرجل.

- حمام؟!. قالت مستنكرة ثم أردفت!

- لا.. أنا عاوزة آخذ حمام الأول، لأن شعرى يحتاج لوقت طويل حتى ينشف.

شعرت بالغيظ أيضًا لأنها لا تحتاج الحمام أولاً بسبب شعرها فقط ولكن لتريح جسدها المنهك أيضًا. وتزيل عنه روائح الطبيخ، فهى منذ السادسة صباحًا لم تسترح قط فلقد صارعت حتى ركبت الأوتوبيس لتصل عملها فى الموعد المحدد، وخرجت من العمل إلى السوق رأسًا لتعود بحملها الثقيل إلى المطبخ، وها هى الساعة قد تجاوزت الواحدة ولم تفرغ من عملها المنزلى بعد، تمنت رفع قدميها المنتفختين قليلاً، بسبب طول الوقوف وإغماض عينيها لفترة من الوقت، لكنها حدقت مليًا فى الأرض لتطل فى مخيلتها صورة صديقتها القديمة التى قابلتها فى الطريق صدفة منذ عدة أيام، وكانت تسير ممشوقة القوام، مرتدية بنطالاً أبيض بدت فيه وكأنها فتاة فى العشرين من عمرها رغم أنها مثلها. جاوزت الثلاثين بسنوات، وظلت ضحكة الصديقة القديمة تتردد وهى تقف محدقة، تلك الضحكة العذبة النابعة من البال المستريح، بينما كانت تقول لها مداعبة:

- أنت يا منى محتاجة تعملى اضراب عن الطعام لمدة سنة حتى يرجع عودك حلوًا ورشيقًا، وترجع لك الأيام الخوالى.

شعرت لحظتها بحزن، بسبب الأيام الخوالى حيث كانت فى بداية شبابها أجمل وأرشق بنت فى الحى الذى تسكن فيه مع أهلها، ولكنها تزوجت ودخلت فى دوامة جهنمية ، من الحياة الزوجية التى جعلت جسدها يتفلطح تفلطح جسد سمكة بلطية، رغم أنها شعرت بضيق من كلام صديقتها لأنها قالت الحقيقة لكنها حاولت اخفاء ذلك، فقالت لها فى زهو أن زوجها حصل على شهادة الدكتوراه، وأصبح استاذًا فى الجامعة، إلا أن صديقتها لم تحفل بذلك، بل راحت تحدثها عن طفلتها الجميلة، وشقتها الصغيرة الضيقة التى تملكتها بصعوبة لكنها تسعى دومًا لأن تكون جميلة، ثم عن رغبتها فى مواصلة دراستها العليا مرة أخرى.

عادت من غيبتها مع نفسها على صوت زوجها الغاصب وهو يصرخ.

- نسيت يا هانم تكوى القميص الرمادى وأنا عاوز ألبسه على الغداء.

- هه.. والله نسيت فى زحمة الشغل، اكويه انت حتى انتهى من الحمام.

استشاط غضبًا، سبها واتهمها بالإهمال والغباء فاشتعلت غيظًا واتهمته بانعدام الإحساس وقلة الذوق، وأضافت فى انهيار مجنون:

- والله ماعندك دم.

كالعادة، انتفض من مكانه حيث كان مستلقيًا على السرير وهجم عليها بينما كانت واقفة على باب الحجرة بعد أن جاءت من المطبخ، لطمها على وجهها بقسوة، شعرت بخبط فى رأسها وقول صديقتها الساخر بضرورة الإضراب عن الطعام لمدة سنة.

لم تبك مثلما كانت تفعل فى كل مرة يحدث فيها ذلك، ولم تسحب نفسها لتنزوى فى ركن من أركان البيت حتى تنوح براحتها وتتورم عيناها من شدة البكاء، ليأتى هو بعد ذلك فيربت على ظهرها ويمسح شعرها، ويقول: آسف، ثم يأخذها بين أحضانه مقسمًا على حبه لها ولينتهى الأمر بالصلح وهو فوقها، ثم ليدعوها بعد ذلك، مع أخيها وزوجته إلى السينما، أو إلى كازينو على النيل لتنشغل

بالحديث مع زوجة أخيها عن الأقمشة والأحذية طوال الوقت، بينما يتحدث هو مع أخيها عن الكرة والاستيراد والتصدير، فى الوقت الذى تطير فيه عيونهما الذكورية الوقحة وراء كل امرأة عابرة، تعريها من ثيابها وتتفحصها.. موضعًا، حتى أكثر أماكن الجسد خصوصية وخفاء.

لا لم تفعل مثلما كانت تفعل فى السابق دائمًا فقد كانت مرهقة متعبة، بلغ السيل بها الزبى، كما كانت صورة صديقتها فى بنطالها الأبيض المحبوك على جسدها الرشيق تتراقص فى مخيلتها كمهر جامح، وايقاع كلماتها الموحية يعزف لحنه الساخر فى اذنيها، ظل اللحن يتردد، يتكرر، يعاود نفسه بجنون، وبعدها جاءت.. طاخ، لم تأت إلى أذنيها، لكنها جات إلى راسه حيث قذفته بتمثال أفروديت الرخامى الموضوع على تسريحة زينتها، وهو التمثال الذى كان أقرب ما طالته يدها من أشياء.

وقعت أروديت الجميلة على الأرض، لا مهشمة الذراعين فقط، ولكن مهشمة الرأس والجسد أيضًا بعدما أصابت الزوج، الذى طار صوابه فهاجم امرأته كوحش، جذبها من شعرها، بعنف، أرقدها على الأرض ولكمها على ظهرها بقبضة يده الغليظة، فاستجمعت هى كبت خمس سنوات زواج عاشتها معه، وأنشبت أظافرها فى فخذه. الذى طالته، شتمته وشتمت جدود جدوده أيضًا، ابتعد قليلاً متحاملاً على نفسه من الألم، لكنه عاد وضربها مرة أخرى، امتدت يداه محاولة الاطباق على رقبتها، لكنها عاجلته كنمرة جريحة بضربة من قبضتها على أنفه المكور فى مقدمة وجهه، كانت الضربة كافية لأن يبرز خطان دقيقان من الدم الأحمر رسما شريطين أسفل أنفه، لهث وهو يتذوق الطعم الملحى للسائل اللزج المنساب على شفتيه، انهار. وانكفأ على تمثال أفروديت الجميلة وهو يبكى وبهتت هى لرؤيته على هذا النحو، فلأول مرة فى حياتها تراه يبكى، لم تكن تظن أنه من الممكن أن يبكى أبدًا، همدت ثورتها، شعرت بالقرف وبرغبتها فى التقيؤ، وبدا لها فى ذلك الوضع مثلما يكون أثناء مضاجعتها زاد حقدها عليه لأنها تذكرت أنه عندما ينال لذته منها يدير ظهره لها ويشعل سيجارة يلتهم دخانها بتلذذ، ثم ينكفىء على وجهه مرة أخرى لينام ويعلو شخيره.

عاد الصوت يتسارع فى أذنيها بكلمات صديقتها الساخرة، تأملت صورة زفافها المثبتة على الحائط فوق السرير، دارت عيناها بسرعة على قطع الأثاث الضخمة ذات اللون الداكن التى اختارها أبوه وأمها واختها الكبيرة، شعرت أنها تتضخم أكثر وتقتم أكثر، بل وتضغط على أنفاسها حتى أصبحت لاتقوى على الحركة.

جرت خارجة من حجرة النوم، خلعت خفها المنزلى الخفيف، سحبت حذاءها من دولاب الأحذية بالمدخل، حررت شعرها من مشبكة واتجهت إلى باب الشقة فى هدوء، فتحته وخرجت لتصفقه بعنف، امتزج صوته بصوت دقات الساعة التى كانت تعلن انتهاء ساعة أخرى.

بعد أربعين يومًا من ولادة ابنها البكر، عاودت فاطمة عملها، الذى كانت قد بدأته من سبع سنين بمنزل السيدة صوفى بعد أن استقرت فى خدمة هذه السيدة دون سواها، لأنها طيبة بشوش. لم تكشر فى وجهها مرة واحدة طوال فترة خدمتها لديها، حتى فى ذلك اليوم الذى سكبت فيه طاجن الخضار الساخن على الأرض غصبًا عنها، بينما كانت تخرجه من الفرن فلسعتها الحرارة مما جعلها لاتقوى على الإمساك به جيدًا، فى ذلك اليوم اكتفت صوفى بالابتسام والسخرية، وحمدت الله أن الواقعة لم تقع فى وقت دعوة ضيوف إلى الطعام، ثم أن صوفى حنون، شفيقة، مما دفع فاطمة لأن تفتح لها قلبها وتحكى لها عن همومها ومشاكلها مع زوجها، التى بدأت حتى قبل أن يتزوجا بزمن طويل، وانتهت بهجره لها فى الشهر السادس من حملها، دون أن تعرف له طريقًا، وكانت تكتفى عندما يسألها الناس بالرد قائلة «يا عالم.. هو حى أو ميت!!».

ورغم أن فاطمة كانت ماتزال منهكة، مهدودة الجسد والحيل، وتفصح صفرة وجهها، وهالات زرقاء حول عينيها عما كابدته طوال شهور الحمل والولادة من مشقة وضعف، إلا أنها راحت تعمل بجد وحماس، خشية أن تظن صوفى أنها لم تعد قادرة على القيام بأعباء عملها بعد الإنجاب، فتفكر فى استبدالها بواحدة أخرى، وتفقد المصدر الوحيد لقوتها، غير أن ذلك لم يمنع من كونها عصبية. قلقة وهى تصارع الوقت كى تنتهى من عملها بسرعة لتعود إلى رضيعها الذى تتركه مضطرة مع جارة لها حتى تنتهى من شغلها وتعود إليه، وإن كانت قد أمنت له رضعات من ماء الأرز المغلى، لترضعه هذه الجارة إياها بين الحين والحين،

إضافة إلى إلقامه ثديها باعتبارها هى الأخرى مرضع منذ ثمانية أشهر بعد أن وضعت طفلها الثالث، ومع أن فاطمة كانت مطمئنة لهذه الجارة واثقة بها من ناحية حرسها على صغيرها، لكونها بنت حلال وأميرة جدًا، وقفت جانبها من ساعة أن دب. الطلق فيها وحتى وقت ظهور رأس العيل من رحمها سحبته، وقطعت الخلاص وحممت المولود وقمطته ثم وضعته إلى جوارها.

كانت قوة هائلة تتفجر داخل فاطمة تدفعها لأن تكنس وتنظف بسرعة لتعود إلى وليدها الذى هو الوردة الوحيدة المشرقة فى سواد لياليها المظلمة التى عاشتها منذ أن تركها زوجها وغاب، وكانت صورته وحركاته الضعيفة العاجزة، تملأ روحها بالشوق إليه، وهى تمسح الغبار عن صفوف الكتب المتراصة على الأرفف بغرفة المكتب، وقد جلست صوفى بعيدًا عنها فى الشرفة تتشمس وتحك أظافرها بمبرد حديدى لتشذبها تمهيدًا لطلائها بينما كانت تفكر فيى فاطمة وظروفها، إذ كانت تعتبرها أشطر وأطيب شغالة صادفتها منذ أن تزوجت، إضافة إلى الأهم من ذلك، وهو أمانتها الشديدة مما جعلها تتمسك بها جدًا، وتحرص على رضاها، فتقدم لها بين الحين والحين بعضًا من ملابسها القديمة، أو حذاء تكون قد ملت لستخدامه، وكان هاجس أن تتركها فاطمة واحدًا من هواجس صوفى القليلة، باعتبارها امرأة قلما تعرف القلق، فحياتها ميسورة مريحة، تسير على وتيرة واحدة تقريبًا، ولعل من أكثر جوانب فاطمة امتيازًا بنظر صوفى هو أن فاطمة كانت لاترتدى جلابية فلاحى سوداء، ولاتضع قمطة على رأسها، بل ترتدى دائمًا ملابسها على طريقة أهل المدينة، وكانت صوفى تحب فى فاطمة مظهرها النظيف وشعرها المرتب، المعقوص إلى الخلف وميلها الدائم للتمدن، إذ كانت تسألها عن بعض الطبخات، الايطالية، التى تصنعها صوفى بمهارة، كما كانت لاتاكل بشراهة، مثل معظم الشغالات اللاتى صادفتهن فى حياتها، لذلك ظلت صوفى تفكر فى تقديم شئ مفيد لفاطمة، يساعدها على تربية طفلها، اضافة للنصائح التى قدمتها لها بخصوص ذلك منذ أن جاءت إليها عند الصباح، وبينما هى تحك أظافرها بالمبرد. عبرت برأسها فكرة، جعلتها تجول بنظراتها فى

أرفف المكتبة، وتهز نفسها هزات خفيفة بالكرسى الهزاز الجالسة عليه، ثم تسأل فاطمة قائلة:

- أظن انك رحت مدرسة، وعارفة الكتابة يا فاطمة..

- معرفة بسيطة يا مدام.

ردت فاطمة، متابعة نفض الغبار عن الكتب.

استفسرت صوفى عن ذلك أكثر فقالت:

- يعنى يمكنك تمييز الحروف، وفك الخط.

احتارت فاطمة من السؤال، فرفعت حاجبها الأيسر قليلاً، محاولة اكتشاف الهدف منه ثم أجابت.

- أقدر أشوف الجرنال، وأعرف كتابة اسمى، واسم والدى، وجدى. ابتسمت صوفى، ونظراتها منصبة على أظافرها، وقالت لفاطمة إنها ستعطيها كتابًا عن صحة الأم ورعاية الطفل سيكون مفيدًا جدًا بالنسبة لها، لأنها لأول مرة تخلف وليس عندها أية فكرة عن تربية الأطفال. تابعت فاطمه تفضّ الغبار عن الكتب بسرور لأن صوفى لاتدخر وسعًا فى إبراز اهتمامها بالطفل، فمنذ أن دخلت البيت فى الصباح، وسؤال صوفى لاينتهى عن صحة المولود، وطريقة ارضاعه وإطعامه، ثم أنها وعدت فاطمة بالتوسط عند جراح قريب لها، ليختنه فى عيادته مجانًا يتم ثلاثة أشهر من عمره.

لم تمنع ثرثرة صوفى مع فاطمة عن الطفل سرحانها بذكرياتها بعيدًا مع الكتاب الذى ستعطيه لفاطمة، إذ كانت قد أهدتها إياه، صديقة عزيزة لها، بعد أن أنجبت ابنتها الأولى. صحيح أن صوفى كانت وستظل إلى الأبد، تكره الكتب وذلك الكم الكبير منها الذى يقتنيه زوجها، وتقبل رغمًا عنها، احتلاله لحجرة كاملة من حجرات البيت، لكنها قرأت هذه الكتاب بشغف، بل اعتبرته أفضل ما قرأت من كتب، خارج الكتب المدرسية، بعد كتاب فن الطهى الحديث، ورغم أن ابنتيها كبرتا كصبيتين مدللتين، عنيدتين، تحصلان دروسهما المدرسية بصعوبة، وتعانى من السيطرة عليهما، لكن الكتاب الذى سارت على نهجه فى تنشئة

طفلتيها، لم يفقد قيمته لديها أبداً، وبما أن صوفى من النوع البشرى المعادى للقراءة، باعتبار أن القراءة سلوك غير أنثوى، وشأن من شؤون الرجل بالاساس، فهى لم تعرف أن مؤلف الكتاب، قد صرح أكثر من مرة فى الصحف والمجلات، معتذراً عن كل الأفكار والنصائح الواردة فى كتابه والمتعلقة بالتربية، إذ أنه لم ينتج عنها إلا جيل جديد، تعس، ضائع غارق فى المخدرات، وعاجز عن تحمل أية مسؤولية.

قالت صوفى، وهى تتأمل الأرفف الطويلة الممتدة المليئة بالكتب التى يقتنيها زوجها، ولاتجد فيها غير آفة تلتهم الفلوس، بينما أخذت تشعل سيجارة وتنفث دخانها الذى تطاير بعضه إلى داخل الحجرة، مما جعل نفس فاطمة تغم كعادتها من شم الدخان.

ـ مدى يدك يا فاطمة على الرف الأيسر ناحية اليمين، وهاتى الكتاب البنى المرسوم على جلدته عيل، المحطوط هناك.

ـ حاضر.

قالت فاطمة، واحضرت الكتاب المرسوم على غلافه طفل جميل باسم، يفيض جسده بالصحة والعافية، وأشارت لها صوفى أن تأخذه وتقرأه، وتحاول أن تطبق كل ما ورد فيه من نصائح وتعليمات، لأنه كتاب ممتاز، يتابع حالة الطفل، اسبوعاً بأسبوع ، وشهراً بشهر، حتى عمر ثلاث سنوات، فلما بان السرور على وجه فاطمة وعبرت عن امتنانها لصوفى بسبب الكتاب، تحمست صوفى وتصورت نفسها جالسة فى النادى وسط صديقاتها، بعد ذلك، وهى تحكى عن الكتاب الذى أعطته لفاطمة، مرددة فكرتها الدائمة، المتعلقة بضرورة أن يساعد كل إنسان متعلم وميسور، إنساناً آخر، فقيراً لم تتح له الظروف أن يتعلم، وهكذا تصلح حال الدنيا ويرتقى الوطن، ثم أن الحماس أخذها فقالت بجد:

ـ حاولى يا فاطمة تنظمى خلفك.. يعنى لو رجع رجلك بالسلامة وعادت المياه لمجاريها بينك وبينه، إياك أن تخلفى كل سنة والثانية، وعيل واحد بصحة، أفضل من عشرة معلولين وصفر، وحالتهم منيلة،

سايرتها فاطمة دون اقتناع فقالت:

ـ معلوم. كله بإذن الله يا مدام.

ـ طيب خلصى هنا.. وادخلى المطبخ بسرعة... لأن الوقت عدى.

ـ وهو كذلك.

ردت فاطمة، ولم تنته بسرعة، لأن عملاً كثيرًا، كان ما يزال بانتظارها، بحجر المكتب وبقية حجرات البيت، فهى ستلمع الزجاج وتمسح الأرض، وتنظيف السجادات العجمية الثمينة. ثم تزيل الأتربة عن الموبيليات والثريات، وكان ما تخشاه هو أن تعود ابنتا صوفى من الخارج، قبل أن تنجز عملها وتغادر البيت، لأنهما ستعطلانها بلا شك، فهما مدللتان، متكبرتان، لاتنقطع طلباتهما أبدًا، ولاتتوقفان عن النداء عليها بين الحين والحين، لتصنع لهما شايًا، أو لتغسل لإحداهما فورًا وعلى وجه السرعة قميصًا، أو لتكوى ثوبًا، لكن الله ستر، وأنهت فاطمة عملها فى السابعة، قبل ظهورهما فى البيت، الذى غادرته مسرعة إلى وليدها، فوجدته عندما أخذته من جارتها، قد حصل خلال فترة غيابها على جرعات لابأس بها من حليب الجارة وحنانها، وكان نائمًا نومًا هادئًا ولايعانى من البلل، فشكرت فاطمة الجارة، ونفحتها بعضًا من المال لقاء رعايتها للطفل، إضافة إلى برتقاله وإصبعًا من الموز من برتقالتين وثلاثة أصابع موز كانت قد أعطتهم لها صوفى عند مغاردتها البيت بعد انتهاء الشغل، فلما تنبأت فاطمة بأن طفلها سينام وقتًا طويلاً، حمدت الله، ووضعته برفق على الفراش ثم ألقت بجسدها إلى جواره لتستريح قليلا من تعب النهار، وبينما هى مستلقية على ظهرها، تحدق فى سقف الحجرة، تنبهت إلى أن العناكب قد أخذت راحتها، وتوسعت فى نسج خيوط أعشاشها بأركانه، مما يستوجب ردعها بالمقشة، عند أقرب فرصة، لاتتاح لها عادة، فى هذه الأثناء تذكرت الكتاب، فقامت بمهمة وسحبته من حقيبتها التى هى فى الأصل حقيبة قديمة لصوفى، وعادت لرقدتها، ساعية للقراءة فيه.

كانت متيقنة أن القراءة ستكلفها جهدًا ذهنيًا جبارًا بلا شك، لكنها ستحاول على أية حال، فإن فشلت، فسوف تستعين بابن جارتها القاطنة فوق السطوح، فهو

يدرس فى المدرسة الثانوية، وهى مصرة على معرفة ما فى الكتاب لرغبتها العارمة فى تربية طفلها أحسن تربية، وكانت تحلم دائما منذ أن حملت به، بأن يكون سليمًا، موفور الصحة، لايعتريه المرض، ولاينمو هزيلاً نحيلاً، كبقية الأطفال، الذين تراهم خولها فى الحى الذى تسكنه.

خلال هذه اللحظات كانت سعاتها سعادة لا حد لها، فصغيرها يغط بهدوء، وتبدو على وجهه علامات الراحة، حمدت ربها متمتمة على النعمة التى تعيش فيها، إذ أنها لم تعدم مصدر رزق رغم غياب زوجها، ولديها طفل جميل كالشمعة المنيرة فى حياتها؛ صحيح أنها كانت فى بداية الأمر تأمل فى عودة زوجها، إلا أن أخباره انقطعت عنها تمامًا منذ فترة، وكانت تصلها معلومات مشوشة عنه، فبعضهم يقول إنه سافر خارج البلاد، والبعض الآخر يقول لها إنه تزوج بأخرى، على أية حال، لم تعد فاطمة تنتظره، ورتبت حياتها على أنه لم يكن بها أبدًا، ثم إنها لاتحقد عليه أو تكرهه رغم ذلك، فهى تحمل له جميلاً لن تنساه طوال أبدًا، فلقد تزوجها، كما وعد، ولم يتخل عنها كأى نذل آخر بعد أن واقعها مواقعة الرجل للمرأة قبل الزواج.

فتحت فاطمة الكتاب برفق، إذ أنها كانت حريصة ألا توقظ طفلها، وأخذت تجول بعينيها فى سطوره الأولى، كانت تفك الخط بصعوبة، وتحاول هجاء الكلمات، لكنها تابعت محاولتها بصبر ودأب، حتى أتت على المقدمة، التى استنتجت أنها مجموعة من الجمل اللطيفة، والعبارات المشجعة لكل أم مبتلية بعبء الحمل والإنجاب. عبرت فاطمة تلك الصفحات بسرعة، وراحت تفتش فى الصفحات التالية، فأخذت تقرأ: طفلك يا سيدتى فى شهره الأول، وهنا ركزت فاطمة بصرها جيدا، وشحذت كل قواها العقلية المحدودة، لتستوعب وتفهم السطور، مستعينة على ذلك بإبهامها، الذى كان يمر على كل حرف من حروف الكلمات حتى لاتخطىء التهجى و القراءة؛ قرأت الفقرة الأولى، وكانت متعلقة بملابس الطفل، من حيث نوع القماش، واللون المناسب المخصص لكل من الذكور والإناث، ثم بعد جهد جهيد، دخلت بنظرها إلى الفقرة التالية، والتى تتناول

أسلوب الإرضاع والإطعام، أما الفقرة الثالثة فشرحت بالتفصيل كل ما يلزم، والمناخ الملائم، لينام الطفل نومًا صحيًا هانئًا.

عند ذلك الحد، شعرت فاطمة بصعوبة شديدة فى القراءة، بل باتت عاجزة عن، متابعة الحروف والكلمات، والحقيقة أنها كانت كمن وقع فى حيص بيص، إذ كانت كل جملة وكل فقرة مما قرأت تدفع بأسئلة كثيرة إلى رأسها دون أن تجد إجابة لها، لذلك تركت فاطمة الكتاب ونظرت إلى طفلها الملفوف فى جلباب قديم لها، وراحت تتأمل قدميه الصغيرتين البارزتين من طرفه، وقد ازرقتا بعض الشيء، بسبب برودة الجو، وأخذت تفكر فى المعضلة: كيف تحصل على أقمطة وشاش وملابس، كتلك التى يشير إليها الكتاب؟، ناهيك عن الجوارب التى يجب تبديلها كل يوم، أما أن تغسل حلمتى ثديبها، قبل كل رضعة بماء مضاف إليه محلول مطهر، وتتناول لترا من الحليب يوميًا، ثم تدهن حلمتيها بين الحين والحين بمرهم مرطب لتقيمها التشقق، فذلك هو المستحيل بالفعل.

لتر من الحليب يوميًا؟ ! اتساءلت وابتسمت ساخرة، ثم أجابت روحها، يعنى كلفة الوصول بالقطار للشغل والرجوع منه فى أسبوع، ولم تبلع فاطمة أبدًا فكرة سرير واحد مستقل لعيل طوله شبر وقيراطين، وعمره شهر وأسبوع، ابتسمت وقالت لروحها: والله هبل وعبط، لأنه أفضل للعيل النوم جانب أمه..، ولم ترقها فكرة أن النوم المستقل للطفل يجعله فى مأمن من العدوى الجرثومية، ويساعده على أن يشب ذا شخصية قوية معتمدة على نفسها، ولم يدخل رأسها هذا الكلام أبدًا، لأنه لم تر طوال حياتها كائنًا ينام فى سرير بمفرده، فهى ظلت تنام بين ثمانية أشقاء لها على فراش واحد، موضوع على الأرض منذ أن وعت الدنيا وحتى وقت زواجها لما انتقلت إلى هذه الحجرة لتنام إلى جوار زوجها فقط.

ابتسمت مرة أخرى، وهى مستلقية على ظهرها، حتى بانت أضراسها لعناكب السقف، لكن بداخلها كان ينمو ضيق وشعور قوى بخيبة الأمل فى كتاب صوفى، الذى كانت ترجو منه خيرًا، وعونًا على تربية طفلها العزيز أحسن تربية، ثم أنها فكرت فى صوفى بدهشة، ولم تفهم سرّ إعجابها المبالغ فيه بالكتاب، وتساءلت إن كانت هذه السيدة قد استفادت حقًا من الكتاب فى تربية ابنتيها، فلما تذكرت

الفتاتين، وميوعتهما، وطلباتهما التى لا تنتهى، كأنهما ترغبان فى أن يفعل لهما الآخرون كل شىء، ويخدمونهما، ولم يبق إلا أن يمسحوا لهما خراهما، زفرت بحرارة، وقررت أن تعيد لها الكتاب عند ذهابها إليها فى الغد، وصارت حانقة قليلاً، لأنها فكرت متسائلة: ألم يكن من الذوق أن ترفع صوفى راتبها بعض الشىء بعد أن انجبت؟ فلما اقتنعت تماما أنها محقة فى تساؤلها، انقلبت على الجانب الأيسر، الذى ترتاح فى النوم عليه، ولتكون فى وضع يساعدها على إلقام ثديها للصغير إذا ما صحا فجأة، وطلب الرضاع، وسرعان ما غالبها النعاس فنامت.

دخلت ناظرة المدرسة من باب الفصل، فهتف الأستاذ عثمان آمرًا بحماس:

- قيام.

هبت البنات، وهب الصبيان واقفين، بينما همهمات تسرى، ونظرات عثمان تجول فى الجميع، للتأكد من سرعة تلبية ندائه، وسريان الصمت المبين المطلوب فى مثل هذا الموقف، لأنه يقول لتلاميذه دومًا:

- وقوف معناها الجميع هس هس، والكل يقطع الخنس، يعنى لو رميت إبرة على الأرض، أسمع رنتها، مفهوم؟.

فلما تأكد المدرس من تمام الوقوف الصامت لكل تلميذ وتلميذه بالفصل، قال بصوت مترفع هادىء:

- جلوس.

أخذوا فى الجلوس كما كانوا منذ لحظات، بينما الأستاذ يرحب بالناظرة، ويقدم لها مقعده الموضوع خلف طاولته، بمواجهة التلاميذ الصغار، لتجلس، وتطلع على دفاتر تحضير دروسه، التى سوف يلقيها خلال بقية أيام الأسبوع، ولما رأى الأستاذ رئيسته تميل بوجهها قليلا على الدفاتر وتشرع فى القراءة، استدار، وكتب على السبورة بخط كبير، غاب عنه الجمال، كمالا يليق بمدرس للغة العربية:

- المرأة والحياة.

كانت الناظرة قد بدأت تقرأ فى دفتر المدرس، كلامًا مطولاً عن أهمية المرأة فى المجتمع، وذلك بمناسبة الإحتفال باليوم العالمى للمرأة ولاحظت أن الأستاذ لم ينس فى موضوعه الاستشهاد بنساء النبى عليه أطيب الصلاة والسلام، ونساء العرب الشهيرات، ومنهن الخنساء، وهند بنت النعمان، وزبيدة زوجة هارون الرشيد، ولم تهتم بنسيانه. أو ربما تجاهله ـ لزرقاء اليمامة؛ وقد أدركت الناظرة بحكم خبرتها على مدى عشرين سنة بالتعليم الابتدائى، أنه لابد وأن يختم موضوعه بعبارة الشاعر حافظ إبراهيم الشهيرة: «الأم مدرسة إذا أعددتها..الخ، وعند ذلك ابتسمت، ورفعت رأسها عن الدفتر، لتتابع ما يقوله الأستاذ لتلاميذه، فلما نظرت إليه، لاحظت شعر رأسه الخشن الكثيف، الذى يسهل تمييزه عن بعد، حتى لو كان عثمان فى أقصى طرف حوش المدرسة، ثم أنها تابعته وهو يقول:

ـ فقال له ثم من، فقال أمك، فقال ثم من، فقال أمك، ثم قال له: ثم أباك.

الولد أسامة عبدالفتاح، لم يمهل الأستاذ عثمان ليقول المزيد، إذ صاح من مطرحه بآخر كرسى فى الفصل قائلاً:

ـ بعد إذنك يا أستاذ، محمد منصور ماسك حمامته، ومحصور على آخره.

احمرت أذنا الأستاذ، وحولت الناظرة نظراتها عن وجه الاستاذ لتدسها فى الدفتر مرة أخرى، متظاهرة بالانشغال فى القراءة، بينما ارتفعت ضحكات التلاميذ الصغار عالية، حتى أنها طيرت عصفورين كان واحد منهما قد حط فوق الآخر على حافة شباك الفصل، لكن الضحكات الصغيرة المزقزقة، سرعان ما كبحت وألجمت، إذ اكفهر وجه الأستاذ ورسم حاجباه عقدة الغضب والنذير فى جبهته، وساد الصمت إذ صرخ:

ـ إخرس يا حمار.

لكن الولد أسامة عبدالفتاح، كان صادقًا متحمسًا، شجاعاً، ومصرًا على إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فواصل كلامه ليؤكد صدقه:

ـ والله العظيم يا أستاذ محصور خالص، وبل هدومه بالأمارة.

لم يكن هناك مجال للمزيد من التجاهل، فابتسمت حضرة الناظرة، لتلطف الجو، وابتلع المدرس غضبه وابتسم بالضرورة، مشيرًا للولد محمد بالذهاب إلى دورة المياه صائحًا:

- طيران.. طيران يا زفت.. وإياك التأخير.

ثم أنه أراد تغيير الموضوع، فمال على الناظرة، وقال لها بصوت خفيض، إنه متشدد جدًا مع التلاميذ فى مسألة الخروج أثناء الحصص إلى دورة المياه، لأنهم فى منتهى العفرته، ويتحججون بالخروج إلى دورة المياه، للتهرب من الدروس، ثم أوضح لها قيامه بتحضير كل دروس أيام الأسبوع المقبلة، وأنه كرس دروس اليوم، بما يتفق ومناسبة يوم المرأة، وفقًا للتعليمات التى وردت إليه من إدارة المدرسة، لكن الناظرة أشارت له بمواصلة الدرس، حتى لايضيع وقت الحصة، والحقيقة أنها كانت مشغولة ومهمومة بالتفكير فى مشكلتها، وكانت تتمنى أن يزور المدرسة خلال ذلك اليوم واحد من المسؤولين لتحكى له عنها. وإذ كان الأستاذ عثمان يتحدث عن ضرورة أن تكون الفتاة كريمة الخلق، عفيفة السلوك، حتى تصير إمرأة فاضلة حينما تكبر، تمنت الناظرة أن تحدث معجزة، وتزور المدرسة السيدة الأولى، وهى السيدة الرقيقة الحنون المتواضعة، التى سوف تستمع ولابد عن طيب خاطر، إلى مشكلة الناظرة، عندما تقول لها: هل يرضيك يافندم أن واحدة فى مثل سنى ومركزى، تنط فى المواصلات كل يوم، وتتعرض لمنتهى الإهانة، لأجل الوصول للشغل؟. ثم أن مسألة نقلى لمدرسة قريبة من البيت سهلة جدًا، وفى يد الأستاذ عبد الحميد فكرى وكيل الوزارة، لكنه مصر على وجودى فى مدرسة النور لسبب غير مفهوم، علمًا بأننى مسئولة عن رعاية بيت وزوج وأربعة أبناء فى مراحل التعليم المختلفة، لذلك أرجوك أن تحلى لى هذه المشكلة، لأنى فى غاية الضيق والارتباك بسببها.

وبعد ذلك تقدم لها الطلب، الذى كتبته بخط جميل، فتأخذه منها السيدة الأولى بمنتهى اللطف، وتطيب خاطرها بكلمات رقيقة، ثم تعطيه فورًا لوكيل الوزارة، الذى لا بد وأن يرافقها فى جولتها التفقدية على المدارس فى يوم كيوم المرأة، فيوقع الوكيل طلب النقل فورًا ودون إبطاء.

لم تستطع حضرة الناظرة مواصلة حلم يقظتها، حتى اللحظة التى تمسك بها يد السيدة الأولى، مصافحة إياها، معبرة عن أحر إمتنانها لها، لأن الأستاذ عثمان كان ذا صوت جهورى لا يقل خشونة عن شعر رأسه، فاضطرت مجبرة أن تتخلى عن طلب النقل ويد السيدة الأولى، وتوقيع وكيل الوزارة، عندما علا صوت المدرس وهو يقول:

ـ والمرأة هى نصف المجتمع، وقد أوصى الله بها خيرًا، وقد قيل قديمًا..

البنت فاطمة متولى، لم تسمع ما قيل قديمًا، لأنها كانت مشغولة خلال ذلك بما كتبته على مكتبها المدرسى لزميلتها عائشة مرعى:

ـ أنا أعمل مثل محمد وأمسك نفسى وأنت قولى للأستاذة فاطمة ماسكة علبة اللولى ومحصورة، فيضحك العيال كلهم والأستاذ يقول لى، فزى يا بنت وروحى دورة المياه.

أعجبت عائشة بفكرة زميلتها، وخصوصًا أن عائشة ميالة إلى الشغب بعض الشىء، وتقليد الصبيان فى كل تصرفاتهم، ربما لكونها فتاة وحيدة بين ثلاثة أشقاء، وربما لأنها تحب التفوق على الصبيان خصوصًا فى الجرى والألعاب البدنية، وبما أنها متهورة بعض الشى، بل وميالة للمغامرة أحيانا، وقفت بسرعة وقالت:

ـ فاطمة يا أستاذ محصورة، وماسكة علبة اللولى، وعاوزة تروح الدورة ومستحية.

كصاعقة سماوية، اندفع الأستاذ إلى حيث تقف عائشة، ليهوى بكفه الغليظ على صدغها، بينما كانت الشتائم تسابق الزبد خروجًا من فمه، واصفًا إياها بالقباحة وقلة الأدب، وإنعدام التربية، آمرًا إياها بالخروج من مطرحها، والوقوف قدام الحائط، ثم توعدها بيوم أسود من الحبر الصينى بعد أن قدم المشيئة الإلهية.

تضايقت الناظرة قليلا، لأن الأستاذ عثمان بدا عنيفا إلى حد كبير مع البنت عائشة لكنها لم تعرف أبدًا، أن هذا العنف، ربما كان من أسبابه أنه كان مشغولا

أثناء ما قاله قديما بالتفكير فى أفضل طريقة لعقاب إمرأته وتأديبها، بسبب سوء سلوكها مع أهله، وهل يضربها علقة شديدة، حتى يسمع رنين عظامها، أم يهجرها فى المضجع ويمنع عنها المصروف، حتى ترعوى وتعرف أن الله حق؟، ولما تمثلت فى مخيلته صور زوجته بسيقانها الملفوفة، وأردافها البيضاء الممتلئة، وضحكتها الآسرة عندما تتدلل، شعر أن الحل الثانى سوف يوتره ويضره فى جانب من الجوانب، فلم يتمالك نفسه من الغيظ، وهوى بكفه على خد البنت عائشة. فكرت الناظرة أن تهمس للأستاذ، وتذكره أن الضرب ممنوع بأمر الوزارة، وأن اللطمة كانت قوية جدًا وربما أثرت على أذن البنت الصغيرة، لكنها قررت تأجيل ذلك إلى ما بعد انتهاء الحصة، ووجدت أن من الأفضل، تلطيف الجو، وقول شيء باعتبارها المربية الفاضلة ناظرة المدرسة، فخاطبت التلاميذ، بصوت حرصت أن يكون حكيما هادئا وقالت:

ـ لازم نعرف كلنا، أنه من الضرورى أن نكون مهذبين، ألفاظنا محترمة، وأن كلام البيت يختلف عن كلام المدرسة، والألفاظ العيب لا يصح قولها فى المدرسة أو الشارع، والبنت لازم تكون مهذبة، صوتها منخفض، ثم عيب مسك أى منطقة نجاسة فى جسم الإنسان، والبنت ممنوع انها تمسك منطقة النجاسة وممنوع ان تقرب يدها منها مهما كانت الأسباب.

ثم توجهت إلى البنت فاطمة، وقرصتها خفيفة فى أذنها، وطالبتها بالاعتذار من الأستاذ، وبينما هى تغادر الفصل، لتذهب إلى فصل آخر، لتتأكد من أن أستاذه ملتزم بتعليمات الوزارة فى يوم المرأة، كانت تفكر فى ضرورة مغادرتها المدرسة بسرعة لتجهيز الغداء، وكان الأستاذ عثمان يهرش بين فخذيه بارتياح، أما تلاميذ الفصل فراحوا يتنفسون الصعداء، إذ بدأ جرس المدرسة فى الرنين معلنًا انتهاء الحصة.

رفع موظف السجل المدنى رأسه الأسود الصغير عن الأوراق التى كان ينظر فيها أمامه على المكتب وسأل مستغربًا:

ـ اسمك بِرّتى؟!.

ـ لا: بر... تي.

صححت برتى اسمها له مبتسمة ابتسامة المتعود على دهشة الآخرين من الأسم الغريب، وأضافت قائلة له أن برتى معناها جميلة بالانجيزى، فتعجب الرجل أكثر، لأن معلوماته فى تلك اللغة كانت تفيده أن جميلة تترجم إلى بيتفول، ولم يكتم المسألة فى نفسه، فجادلها قائلاً:

ـ لكن جميلة يعنى بيتفول. ثم أضاف أنه لأول مرة يسمع كلمة برتى هذه ، فقالت له برتى، أن جميلة ممكن تبقى بيتفول، وممكن، تبقى برتى، أيضًا.

ولما كان وقت العمل مازال فى بدايته، عند الصباح، ومكتب السجل المدنى لم يمتلىء بعد بالمضطرين لإثبات كينونتهم، بالأدلة والمستندات الحكومية، لذا كانت الفرصة مواتية جدا لموظفى المكتب لتبادل الحوار والرأى حول هذا الموضوع، الذى أثارته تلك الشابة الصغيرة، باسمها الغريب، فقالت واحدة جالسة على المكتب المجاور للموظف الذى أثار الموضوع بعد أن قضمت بفسماطة، ورشفت وراءها قليلا من الشاى:

ـ وعلى فكرة، ممكن تبقى لفلى وأظن من المحتمل أن يكون لها معنى رابع ، وأضافت، بعد أن عاودت القضم والارتشاف مجددًا، أنها فاكرة أنه كان مقررا،

أيام المدرسة، زمان، موضوع فى كتاب الانجليزى عن شم النسيم، وكان به كلمة نايف.. أو شيء بهذا المعنى،

ـ نايف، يعنى مطواة، أو سكين يا مدام سعاد، قصدك نايس، قالها رئيس المكتب بثقة، وهو الوحيد المتخرج من الجامعة، بين جميع الموظفين الجالسين بالحجرة، ذات النوافذ العالية التى لم تنظف قط منذ أن استولت الحكومة على منزل النبيل السابق، وحولته إلى مكتب السجل المدنى فى الطابق السفلى، ومكتب للصحة فى طابقه العلوى، وأردف ذلك الرئيس، الذى كان مكتبه يتوسط الغرفة بسبب كونه الرئيس، موجهًا السؤال لبرتى:

ـ يعنى الأسماء خلصت من الدنيا ولم يتبق إلا اسم برتى؟!.

ابتسمت برتى، وكسلت عن حكى حكاية اسمها، التى طالما حكتها فى مناسبات كثيرة مختلفة، مفضلة فض الكلام، واسكات الرئيس المتسائل، فقالت:

ـ معك حق والله

كان الموظف الأول قد بدأ يختم الأوراق بختم النسر الذى طيره صقر قريش فيما بعد ليحتل مكانه، لكن دون جدوى، فقد أصر الناس بنعته بالنسر علما أنه شتان ما بين النسور والصقور، ورغم أنه كان يختم الأوراق بحماس شديد لم يقلله إلا نوبات العطس المتكررة، التى كانت تداهمه بينما كان ساعى المكتب حسن، يكنس الحجرة، موزعا على كل واحد فيها نصيبه من ذرات الغبار المتطايرة، ورغم أنه كان ينفث، بين الحين والحين، دخان سيجارته أيضًا، إلا أنه استمر فى مواصلة الندوة التى كان قد اقترحها عمليًا منذ قليل، فألقى بمسالة أخرى توسع دائرة النقاش، فقال أنه لا بأس على معنى اسم برتى، لأنه من خلال عمله الطويل بالسجل المدنى وردت عليه أسماء عجيبة غريبة، فمرة عمل بطاقة عائلية لأرملة اسمها «نزانيز» ومرة أخرى استخرج بدل فاقد لبطاقة خفير صعيدى اسمه «حنك السبع» لكن الاسم الذى لاينساه أبدًا، كان لواحدة بدوية من عرب الطوايلة اسمها «ريح الصبا».

ـ يا سلام!!

تصاعد صوتان على الأقل معقبان بذلك على حلاوة الإسم، كان منهما صوت حسَن الساعى، الذى توقف عن الكنس، واتكأ بقدمة اليسرى على يد المكنسة المصنوع شعرها من قش الرز، وقال:

ـ طيب.. هل حصل أنكم سمعتم «مرعى من رب السماء والمياه والأرض»؟!

ضحك الجميع من ذلك الاسم، حتى برتى، وقالت مدام سعاد، التى كانت ناسية كلمة نايس:

ـ إنه موضوع إنشاء تقريبًا وليس اسمًا.

لكن حسن حلف بالنعمة الشريفة، التى كانت وقتئذ عبارة عن كوب الحلبة الحصى الموضوع على مكتب الرئيس، والذى رفعه حسن بيده ليثق الجميع بقسمه، وأقسم، مرة أخرى، بدين النبى أن الحكاية حصلت فى مكتب سجل مدنى أسيوط، من مدة بعيدة، فى أيام عمله هناك قبل نقله لمصر، وأن الاسم كان لطفل مولود أراد أبوه تسجيله، وأنه اختار له هذا الاسم لأنه مات له قبله واحد وعشرون عيلاً، وكان رئيس السجل، وقتها، رافضًا التسجيل، وقعد يضرب الكف من تعجبه، لكن الرجل طأطأ فى الأرض، وباس رجل رئيس المكتب، وقال أنه حضر له واحد من مساخيط البرية، فى الحلم، وأمره بتسمية المولود بهذا الاسم.

ـ سبحان الله!؟. قال رئيس المكتب ذلك بصوت علا على كل الأصوات الأخرى، التى تصاعدت للتعقيب، واستمر مواصلاً كلامه، فقال:

إن الاسم محتمل أن يكون له كلمة واحدة قديمة ضاعت مع الزمن وبقى المعنى محفورًا فى ذاكرة الناس، ثم أخرج من جراب ذاكرته حكاية جديدة، عن بنت عمل لها فى مرة من المرات بطاقة شخصية، كانت جميلة كفلقة القمر، واسمها «تغريد البلبل» وأوان ذلك كانت الحكومة مانعة استخدام الأسماء المزدوجة بقانون جديد، ربما بسبب قوانين الملكية والإصلاح الزراعى وما شابه ذلك، لكنه سجل الاسم كما هو، لأن البنت كانت جميلة فعلاً، بل أروع من تغريد البلبل نفسه، ثم أنه التفت إلى برتى قائلا:

- لكن بالتأكيد. اسمك سبب لك بعض المشاكل.

أجابت برتى بالنفى، بينما هى تمسح العرق النازح من قفاها، وخلف أذنيها، بمنديلها القطنى المطرز بوردة حمراء صغيرة، ارتوت قليلاً من ذلك العرق، فبانت بلون أدكن قليلاً، ولولا أن الوقت كان يمضى مسرعًا، وهى تريد الحصول على البطاقة لتقديمها لجهة العمل التى ستعين بها لتستكمل بذلك الأوراق المطلوبة منها، لولا ذلك الاستعجال، لكانت حكت لرئيس المكتب، وبقية المواظفين كل متاعبها اسمها الجميل، منذ زمن بعيد وحتى بعد أن دخلت المدرسة، وصارت مدرسة اللغة الإنجليزية توقفها أمام التلميذات لتشير إليها - بينما هى تعلمهن مبادئ اللغة الانجليزية - قائلة:

- ذيس اذ برتى.

فيقول وراءها الجميع فى صوت واحد:

- ذيس اذ برتى.

كانت برتى تغتاظ كثيرًا، من ذلك، حتى يتصاعد الدم إلى أذنيها، فتشعر بسخونتهما بسبب أن المدرسة كانت قبل ذلك تشير إلى المنضدة والشباك، وسلة المهملات، مطلقة عليها أسماءها الانجليزية، أما مدرسة الألعاب، فكانت تقول لها، عندما تفشل فى القفز على الحصان الخشبى:

- خسارة اسمك عليك.. المفروض أن يكون اسمك بُرُوتَّه. كثيرًا ما تألمت لذلك دون أن ترد، بينما كراهيتها تزداد لتلك المدرسة، التى لم تعرف أبدًا أنها لم تكن تنط خوفًا من فتح ساقيها كثيرًا، حتى لا تبين ملابسها الداخلية، وينكشف فخذها أمام فراش المدرسة، الذى كان يحلو له التشاغل بتنظيف الفناء أثناء حصة الألعاب، ورغم تلك المتاعب القديمة، ومتاعب أخرى كثيرة صادفتها برتى فى الحياة بسبب اسمها، إلا أنها كانت تفكر دائمًا فى الجمال، وتحب كل ما هو جميل، ورغم أن فكرتها عن الجمال كانت غامضة بالنسبة لها تقريبًا، إلا أنها كانت تشعر بجمال الأشياء، والكائنات والناس بحس فطرى مبهم، ربما هو الذى كان يدفعها، أيضًا لتكون طيبة، رقيقة، كنسمة صيفية شفافة، مجسدة بذلك

النقيض الحى لنظرية كانط فى الجميل والسامى، علما أن أبيها لم تكن لديه أية منطلقات فلسفية عندما أسماها برتى، فهو لم يقصد أن يسميها جميلة، إلا من زاوية الحفاظ على اسم امه المتوفاة، قبل ميلاد ابنته بشهور قلية، إلا أن جارته اليونانية ديانا، والتى كانت تعمل كمديرة منزل لتاجر خردوات انجليزى ميسور، هى التى منحتها اسم برتى، عبر صدفة غير مقصودة ـ لا أكثر ولا أقل ـ فقد ذهبت ديانا، إلى جيرانها الأعزاء، لتبارك لهم بمناسبة ميلاد طفلتهم الأولى والتى ستكون الأخيرة أيضًا ـ وبينما هى تحمل بين يديها قطعة اللحم الطرى، التى لم يمر على ورودها، إلى الدنيا، إلا أيام معدودة، وتحاول الباسها الكلوك الكيروشية الوردى، الذى صنعته لها فى قدميها الصغيرتين، فتحت الطفلة عينيها، ناظرة إلى ديانا، تلك النظرة السحرية الغامضة للأطفال الرضع، التى تجعل المرء راغبًا فى الارتماء تحت أقدامهم طالبًا المغفرة، فشهقت ديانا الطيبة بانفعال كبير وقالت: أوه.. برى.. برتى، فسألها أبو البنت، الذى كان قد استكمل تعليمه نهائيًا فى كتاب قريته منذ سنوات بعيدة، عن معنى كلمة برتى، فقالت له بالعربية التى كانت قد اتقنتها بحكم كونها عاشت بما يكفى فى مصر، بعد أن فرت منذ طفولتها الأولى مع أمها، من بلاد الأولمب، إلا أرض الأهرام، فى ذلك الزمن، الذى حاول فيه موسولينى توسيع حذاءه الإيطالى، فوطأ أرض اليونان،.. قالت له ديانا أن برتى يعنى جميلة عند الانجليز، فبرزت فى رأسه الذى لاتبرز فيه أفكار جديدة ـ عادة ـ تلك الفكرة المبتكرة، وأسمى مولودته برتى.

غير أن الأهل والجيران، قرروا تطوير الإسم تطويرًا مصريًا ملائمًا، وهو التطوير الذى جرى ابتكاره منذ أزمان قديمة، تعود إلى عصر الاحتلال الأول، يتلاءهم مع كل الاحتلالات الأجنبية التى حدثت، والتى من الممكن حدوثها فيما بعد، فقرروا أن تصبح برتى.. بيبى ضاربين بذلك عصفورين بحجر واحد، فهو أولاً اسم سهل الاستعمال، بدلاً من برتى الصعب، ثم أنه اسم تدليل كفيفى، وميمى، وربما كان لهذا أيضًا علاقة بما ترسب فى ذاكرتهم اللاواعية عبر الأجيال عن ملك قديم مندثر، كان اسمه بيبى الأول.

كانت برتى تستطيع لو أوتيت بعضًا من الموهبة، التى لايمكن لأحد التكهن بوجودها من عدمه، أن تؤلف كتابًا لابأس بحجمه، عن كمية الطرائف والمشاكل التى صادفتها بسبب اسمها، لابسبب كونها جميلة، كما يفعل معظم الكتاب بالعالم، فى كل العصور، ولكن بسبب أن اسمها جميلة بالانجليزى، فلو كانت الحياة قد منحتها فرصة أكبر من كونها موظفة صغيرة فى مؤسسة حكومية، لربما كتبت برتى عن العريس الوحيد الذى تقدم لها قبل بلوغها الخامسة والعشرين، لكنه سرعان ما تركها، بعد الخطوبة بشهرين، وهى الفترة التى أخذ خلالها يتحرى عن زوجته المقبلة، فعرف أنها يتيمة الأب، ومنذ زمن بعيد، مهجورة من الأم قبل ذلك بسنوات، بسبب فرارها إلى عشق قديم، ساعد على انتعاشه مجددًا ، فى قلب الأم الصغيرة، غياب الأب الدائم عن البيت، لأنه كان يعمل سائقا لشاحنة نقل بين المدن البعيدة. أفادت التحريات، ذلك العريس، أن ديانا الطيبة كانت أكثر من جارة، فتعاطفت مع الأب المهزوم، وربت برتى فى حضنها، وظلت ترعاها كالأم، حتى مات الأب الذى كان وجوده كعدمه بالنسبة للصغيرة برتى.

لكن العريس ربط بين الاسم والقصة، وكان استنتاجه، الذى لم يكن فذًا إلا برأيه، أنه لابد وأن الأمر ينطوى على سر خطير، فهناك حلقة مفقودة فى الحكاية الغريبة لتلك الفتاة، فما معنى أن يكون اسمها برتى، وتربيها امرأة يونانية، بينا تختفى أمها، فى ظروف غير معروفة، ويموت أبوها؟! ولما كان السينما المصرية خلال تلك الفترة غنية جدًا بميلودراما ومآسى الحلقات المفقودة والأسرار العائلية الغامضة، التى سرعان ما تتكشف، فى نهاية ساعتين من العرض، عن جرائم ومخاز خطيرة، ولما كان العريس إياه من مدمنى حفلة الساعة الثالثة، فى أى سينما تقدم ثلاثة أفلام فى برنامج واحد، مقابل ثلاثة قروش، فقد أخذ يفكر ويفكر، محاولاً اكتشاف الخيوط السرية، المجهولة، فى حياة برتى، متوصلاً بمنهجه السينمائى، إلى نتيجة مفادها أن برتى على الأغلب، لابد وأن تكون فى الأصل طفلة لقيطة، ربتها تلك اليونانية العجوز، المدعوة ديانا، ومنحها الأب المدفون منذ زمن اسمه لسبب مجهول. وبالتالى فإن النتيجة المحتملة،

المترتبة على هذه النتيجة، أن برتى بنت حرام، وهو لايمكن أن يتزوج بأى حال من الأحوال، بنت حرام، ناهيك عن اليونانية يمكن أن تكون قد نصرتها، بحكم التربية، والعشرة الطويلة، أو على الأقل لم تعودها عادات بنات المسلمين والحقيقة أنه كان فى هذه المسألة تحديدًا أحمقًا كبيرًا، ومتسرعًا فى استنتاجاته إلى أقصى حد، لأنه لم يدرك أبدًا، أن اليونانية المذكورة، كانت قد تمصرت، رغمًا عنها منذ طفولتها البعيدة، فى مصر، بما يكفى لاعتياد أكل الكنافة والقطايف فى شهر رمضان، الذى كانت تنتظره، بشوق كبير، لتشرب فيه القمر الدين المثلج، عند الجيران، ثم أنها كانت تحتفل بعيد شم النسيم، وتذهب مع جارتها لمولد السيدة عائشة، مشيًا على الأرجل، تخريمًا من الفجالة، عبر شوارع وسط البلد إلى موضع المقام، صحيح أنها كانت تصطحب برتى معها إلى الكنيسة، لكن ذلك لم يكن إلا وقت الأعياد، لتستمتع ديانا بالطقوس الاحتفالية البهيجة، وتستمع إلى القداس الذى كان يبدأ عادة عند منتصف الليل، فتستطيع برتى بذلك أن تحل مشكلة الانتماء الدينى حلاً دبلوماسيًا يرضى جميع الأطراف، على طريقة الحلول الدولية، هذه الأيام، حيث يبقى الوضع كما هو عليه، فبرتى كانت تلهو وتلعب، طوال الطريق إلى الكنيسة، سعيدة بثوبها الجديد، الذى كانت ديانا تحيكه لها عادة، من أثوابها القديمة، أو تحصل عليه من أثواب عيال التاجر الانجليزى إياه، لكن سرعان ما تنشب خناقة عائلية صغيرة، بين ديانا وبرتى، بسبب أن النعاس يهاجم الأخيرة، فتطلب النوم على كتف ديانا، التى ترفض بشدة، هذا الطلب المستحيل، متذرعة بأنها عجوز، لاتقوى على حمل دجاجة صغيرة، فتبكى برتى، وينتهى الأمر بهزيمتها ماشية إلى الكنيسة التى سرعان ما تنام فيها، بمجرد جلوسها، على الكرسى للاستماع إلى القداس.

وحتى بعد أن تسلمت برتى العمل، كوظفة سكرتاريه فى تلك المؤسسة الحكومية الكبيرة، ظلت متاعبها مع اسمها قليلة، لاتذكر، بحيث يمكن التغاضى عن ضمها لمؤلفها المفترض، لكن بعد زمن قصير، وبينما كانت برتى، تسير بها الحياة سيرتها العادية، المرسومة لموظفة صغيرة فى أسفل الهرم الزظيفى، وبينما بدأ زملاؤها، فى العمل، يعتادون على اسمها وينطقونه ببساطة، كفاطمة، ونادية،

ونجوى، كان مصير برتى يتقرر على نحو مخالف تمامًا، ربما بسبب تلك التغيرات الكبيرة التى حدثت فى البلد كلها، وجعلت كلمة «بيزنس» أشهر كلمة انجليزية، متداولة فى البلاد من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، وهى الكلمة السحرية، التى عملت ما يشبه الهوس، فى حياة الناس، فتدافع الشباب منهم لتعلم الانجليزية، والكمبيوتر، والنساء لصباغة شعورهن بالألوان الأصفر الأحمر، وكل الأوان المكنة، ماعدا الأسود طبعًا، أما الأطفال فباتت مطالبهم العادلة هى الجينز، والكوتشى، والجيلى كولا، وقد تأثرت برتى، شخصيًا، بهذا المناخ العام، فكانت تشعر بالقهر كلما وجدت نفسها تقف أمام الواجهات الزجاجية للمحلات الأجنبية، الجديدة التى انتشرت فروعها، بكل مكان انتشار النار فى الهشيم، بينما هى تتأمل جمال المعروضات وارتفاع أسعارها الجنونى، فتتحسر على حظها العاثر، الذى لايتح لها إلا الحصول على بضعة جنيهات قليلة آخر كل شهر لقاء عملها فى تلك المؤسسة الحكومية الكئيبة.

ورغم أن حسرتها لم تدم طويلاً، لأن برتى، كان مستقبلهايتقرر، آنذاك، وفقًا لتلك المتغيرات الجديدة، إلا أن متاعبها مع اسمها لايمكن الجزم بأنها سوف تتوقف أيضًا، فمدير المؤسسة الحكومية لم يكن يرى مؤسسته كئيبة أبدًا، مثلما كانت تراها برتى، لأنه، باختصار، كان قد نهب من هذه المؤسسة، ما يكفى لفتح مؤسسة أخرى جديدة، الفارق الوحيد أن المؤسسة الجديدة اسقطت من عليها صفة الحكومة، ليضفى عليها اسمه وصفته الشخصية، بالإضافة للمال والعلاقات والخبرات، وأفضل الكفاءت الوظيفية التى نهبها من مؤسسة الحكومة، ذلك المدير، وقد كانت برتى ضمن المنهويات أيضًا، بما أن الرجل يقوم «ببيزنس» حيث اقترح على نفسه، وبينما كان يرتب أوراقه فى دنيا الأعمال، مسترشدًا بمنهج الجدوى الاقتصادية الشائع، فى كل المشروعات التى جرى انشاءها، ماعدا المشروعات الحكومية، والعامة طبعًا، وقرر أن يضم برتى إلى عالم مؤسسته الجديدة، مستعيدًا من اسمها، موفرًا على نفسه تكلفة تشغيل سكرتيرة أجنبية تقبض راتبها بالعملة الصعبة التى لم تكن صعبة المنال، بالنسبة له، كانت فكرته بسيطة: تقص برتى شعرها قصة ملائمة، وتصبغه بلون يتلاءم مع دنيا الأعمال،

ثم تحصل على كورس انجليزى معقول، لتصبح بعد ذلك سكرتيرته، التى سوف يقال للجميع أنها من أصل انجليزى، لذلك فاسمها برتى.

برتى، طبعًا، سوف تصحبه، باعتبارها سكرتيرة رئيس مجلس الإدارة، إلى أماكن كثيرة: سهرات تعارف وعشاءات وغداءات عمل وحفلات استقبال، ولسوف تتعرض، أيضا، لصنوف مختلفة من الغواية، بحكم طبيعة العمل، لكنها ستكتفى بتجارب سطحية خفيفة، فى هذا الجانب، متسلحة فى مواجهة ذلك بتربية ديانا البتول، ثم أنها سترفض عروض زواج كثيرة، بسبب أن راتبها تجاوز الألف جنيه، ولأنها بمرور الوقت، وبلغة الأعمال، أصبحت سكرتيرة من الطراز الأول، بعد أن تعلمت الفرنسية، وقليلاً من الألمانية، ثم بسبب أنها كانت تحلم بالاتباط بصاحب شركة، أو رجل أعمال، وهذا مالم يتحقق أبدًا، بسبب أن هذه النوعية من الرجال يفضلون أمثال برتى عشيقات، وليس زوجات، لذلك فلسوف تمر الأيام والسنون، لتصبح برتى بمرور الوقت، مثلما كانت دائمًا، امرأة وحيدة، تقطن شقة معقولة، بالقرب من وسط المدينة، يشاركها الحياة فيها كلب مخلص، وقطتين، يجلسون إلى جوارها عادة فى الأمسيات، بينما تتطلع بملل إلى برامج التلفزيون، غير أنه فى زمن آخر.. بعيد... وربما قريب، حيث تحدث متغيرات أخرى، سوف يشير الناس إلى برتى قائلين عجوز وحيدة، كانت تعمل موظفة براتب كبير فى مؤسسة من مؤسسات العهد البائد.

نادت على حسن أربع مرات، مرق صوتها الصافى عبر أغصان الشجر العالى، عابرًا السور الممتد، المسيج بالأسلاك الشائكة، أسقط من يده خرطوم المياه الذى كان يرش به حوض الريحان، واشرأب بعنقه، لتتطلع عيناه فى شوق إلى حيث النداء. رآها، فزغرد فى قلبه فرح بان فى ارتعاشات صوته الواصل إليها بتحية المساء؛ سألها عن حالها وراح يحكى لها حلمه بها دون انتظار رد السؤال، كان يمسك بحبل طويل من الحرير الوردى مدته إليه ليصعد إليها فى شباكها العالى؛ وهى تحاول جذبه برفق حتى لاينقطع، لكنه عندما أوشك على الاقتراب منها، صحا من نومه على صوت دوران المفتاح فى قفل الزنزانة، والسجان ينادى على الذين بداخلها ليصحوا. قالت له أن النوم جافاها طيلة الليله الماضية، وأن الأزمة كادت أن تفاجئها، ذكرته بزيارة حماتها لها فى الغد ليطلب أى شىء آخر يحتاجه غير الطاقية الصوف، سألها أن ترفع صوتها قليلاً لأنه لايسمعها جيدًا، تملت وجهه بنظراتها قدر المستطاع من خلف النظارة السميكة الموضوعة على عينيها... ابتسمت... هى تحب العبسة التى تضم حاجبيه، وأنفه الشامخ الطويل، تمنت ملامسة كافة تفاصيل الوجه بيديها، وأن تمرر إصبعها على شفتيه، وتتملى هذا الوجه الحبيب إلى قلبها، مرة واحدة فى وضعه الطبيعى، دون أن يكون رأسه مائلاً للخلف، شاخصًا ببصره إلى حيث تقف هى دومًا فى شباكها العالى خلف القضبان، ملست على رأسها وتنهدت قائلة له: « بص.. قصرت شعرى من قدام». نظر إليها مليًا، واستقرت نظراته فى عينيها محاولاً التأكد من لونهما، مرة أخرى، هو يراهما بلون العسل الداكن إذا ما نادت عليه عند الصباح، أما عندما

تستدير الشمس وتغمر الشباك، حيث تكون واقفة، فتبدوان أفتح كثيرًا بلمعة أخاذة. تنهد، وقال لها: « حلو خالص.. لكن خليه على طول ينزل على كتفك، بكرة، إن شاء الله، أشيع لك عقد الخرز الأحمر، ناقص حاجة بسيطة ويكمل، سأرسله مع منيرة السجانة، عن طريق حسن النجار».

ثم أخبرها أنه بدأ يتعلم الكتابة بمعرفة واحد محكوم عليه بثلاث سنين، نقلوه إلى عنبره، أخيرًا، وأنه سوف يصير قادرًا على كتابة اسمه، وقراءة الجرائد، لم يقل لها أنه يتعلم خصيصًا حتى يستطيع كتابة الرسائل لها، ليقول على راحته كل ما يخبئه قلبه لها من حب وشوق، وحكايات كثيرة تفيض بها نفسه، كل ليلة، ولايستطيع التعبير عنها. وقال لها أنه تحدث مع زميله، معلمه، كثيرًا عنها، وأن اسمه «سمير» ويحب أن يشوفها، لكن شغله بعيد عن الجنينة، وصعب عليه الحضور لهذا المكان، وهو محكوم بثلاث سنين لأنه كسر رجل عمه فى خناقة بسبب خلاف على ورث. قفزت، وجلست على حافة الشباك، وبينما أدخلت يدها إلى صدرها ولامسته بأناملها قالت له: «تعرف يا حسن.. وحياة الشمس المروحة فى سماها الطاهرة قدام عينيك، أنا، من يومين، كنت قاعدة أفكر فى أنك لازم تتعلم .. ولو حتى الشيء البسيط، بحيث انك تكتب اسمك، وتقدر تطلع على المجلات، وتعرف أول الدنيا من أخرها، لأن سنك مازال يسمح يا حسن.. والوقت هنا طويل لا أول له ولا أخر، وكل الأيام شكل بعضها. السبت كأنه الأحد، والخميس كأنه الجمعة. تعرف نفسى أسألك سؤال يا حسن: يا ترى، الزمان ممكن يساعدنى، وأعيش لحد ساعة خروجى من هنا، وأقابلك، ونبقى مع بعض على طول يا حسن».

كان ذلك السؤال هو هاجسها الدائم، الذى يلح عليها، كلما خلت إلى نفسها، هى تخاف أن تموت هنا خلف هذه الأسوار البغيضة، دون أن يمنحها الزمان فرصة لقاء حسن، وهى المحكوم عليها، إلى الأبد، بعاهة فى القلب، وأيضًا بسبب جلب المخدرات إلى البلاد.

ساءلت نفسها، وصور حياتها تعبر أمام عينيها، كشريط سينمائى غريب، منذ أن دخلت السجن قبل حوالى عشر سنين، كانت وقتها فى الحادية والعشرين

تقريبًا، ضبطها البوليس فى المطار بعد احترافها تلك الحرفة التى باتت تمقتها الآن، احترافتها لأنها لم تجد وقتها شيئًا بديلاً تعمله، أغوتها فى البداية جارة لهم، وزوجتها من ابنها عندما بلغت الثامنة عشرة من عمرها، وهى التى كانت تحلم بالفرار من بيت أمها وزوجها، الذى طالما ضربهما معًا، وكان ينعتها دومًا بالصفراء، أم ضب، التى يقطع شكلها الخميرة من البيت، تزوجت لتقع فى تلك الدائرة الجهنمية ببيت زوجها، تعاطى المخدرات، ثم بيعها، ولكن زوجها مات فى حادث سيارة، وبقيت هى مع تسافر إلى خارج البلاد، فتعود حاملة المحرم الممنوع، الذى باتت خبيرة فى إخفائه بكل مكان من متاعها، بل ووصل بها الأمر إلى وضعه فى ذلك المكان الخفى فى جسدها، الذى كانت أمها تطلق عليه فى صغرها علبة اللؤلؤ، تحسرت وهى تتذكر ذلك، واليوم الذى ضبطت فيه بالمطار، وحكم المؤبد الذى معناه أن تبقى فى هذا المكان الجهنمى إلى الأبد، لكن حماتها لاتنساها، تجىء اليها فى موعد الزيارة محملة بالطعام، والسجائر، والهدايا، تغدق عليها ولا تضن، تضمها إلى صدرها بشوق، وتبكى فى كل مرة تزورها فيها، رغم مرور السنوات، بينما تعلن حسرتها على شىء واحد وحيد، هو أنها لم تنجب من ابنها الوحيد كائنًا يبقى لها من رائحته، .. «آه لو فكرت الولية المسكينة فى كونى عاشقة لواحد غير ابنها، وانى نسيته خالص». لم تكن تحبه، ولم تكرهه، أما حسن.. حسن أمنية الفؤاد، ذلك الذى لاتفارق صورته مخيلتها، ويتغلغل فى دمها ورحها، والذى أرسله الله لها، كطوق النجاة الذى يلقى لغريق، النجاة من اليأس، وفقدان الأمل اللذين يلازمانها منذ أن جاءت لتعيش بين جدران هذا السجن البغيض.

قال لها حسن أن مصير الحى يتلاقى، وأن فى السماء ربًا ينظر ويشوف، ويرحم ويغفر، وأن الدنيا شىء كما الكذب. ممكن تغير أحوالها فى ساعة، وتجعل الإنسان عاجزًا عن معرفة إن كان فى حلم أم فى علم، لكن عليها التأكد من أن حبها فى قلبه ثابت لايتزحزح من مكانه، حب لاحد له كماء البحر ورمل الجبل، وأنه عندما يخرجان بإذن الله، وبأمر العزيز الكريم، فسوف يتزوجها وينجب منها دستة عيال، يملأون عليهما الدنيا، ويعوضونهما عما فات من حرمان الوحدة

وبؤس البعاد، وأنه ينوى الشغل فى أية مهنة كانت، حتى لو اضطر للدوران فى الشوارع ينادى على حزمات من الفجل يبيعها للناس، المهم أن لاتحزن أو تهتم، «وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم»، فلولا هذا السجن المقدّر، ربما لم يكن من الممكن أن يتلاقيا أبدًا، أو أن يكون ما كان بينهما من ود وهيام.

زادت سنية القوادة من صوت الراديو أكثر، فأكثر، فطلب منها حسن مرة أخرى أن تزعق وتعلى الصوت حتى يستطيع أن يسمعها. أقسمت بشرفها أن تسلط عليها فريدة المجنونة، لأن سنية زادتها جدًا، هى تكرهها كراهية لاحد لها منذ أن رأتها لأول مرة، وكرهتها أكثر لما عرفت أنها قوادة داعرة، سنية تحقد عليها لأن المسجونات يحببنها ويعطفن عليها، لأنها لاتبخل عليهن بشىء يكون فى مستطاعها وتطوله يدها، ومنذ أن عرفت سنية بحكاية حسن وهى تغار، ويأكل الغل قلبها وها هى كالعادة لاتكف عن مضايقاتها مثلما لايكف لسانها، المحتاج لقطعه، عن السخرية والتندر على حكايتها مع حسن. وحكاية الراديو زادت عن حدها.. حتى اللحظات القصيرة التى تسرقها للكلام مع حسن تريد أن تشوش عليها وتفسدها، لسوف تسلط عليها فريدة المجنونة، وتشكوها لها.. وفريدة سوف تنتقم لها بطريقتها لأنها تحبها وتحترمها، وربما ضربت سنية أو هددتها بالقتل فتضطر للبقاء فى العنبر محبوسة، لاتستطيع الخروج إلى الحوش لمدة، مخافة أن تراها فريدة.

- انت سرحانة خالص.

زعق حسن لتسمعه، وهو يحاول أن يغطيها بنظراته، كان يتمنى أن يراها بكاملها مرة واحدة، أن يرى من جسدها كل ما يحجبه جدار الشباك عنه دومًا، هو لايرى إلا رأسها وكتفيها وذراعيها، وبعضًا من صدرها، أما الباقى، فيحجبه عنه ذلك الحائط العزول، الذى طالما تمنى أن يختفى وينزاح بقدرة قادر، كما يتمنى انزياح جدار السجن كله، لذلك تظل صورتها ماثلة فى ذهنه عندما يفترقان. وجه أسمر حلو التقاطيع، له عينان بلون العسل، أما الجسد فيشتهيه، ممتلئًا بعض الشىء عند الردفين، بخصر نحيل، وساقين ناعمين مستديرى الكعبين، إنه يضمها بعينيه، ويتجسدها بجانبه، دومًا، فى فراشه، وتظل رفيقة

أحلامه... منذ تلك اللحظة التى نادت عليه فيها من شباكها العالى فى السجن الآخر، الذى يفصله عن سجنه سور كبير، عندما كان يقوم بالعمل المكلف به، وهو سقى الجنينة، وسألته أن يرسل لها بعضًا من الورود، فقطف لها وردات نضرات جميلات: وفرد ذراعه مطوحًا بها إليها بأقصى ما يستطيع من عزم وحيلة، حتى تصل الوردات إلى شباكها العالى، فتمد يدها عبر القضبان لتتلقاها. ابتسمت له يومها وشكرته، فانفتحت فى قلبه، وهو ينظر إلى شفتيها المنفرجتين، طاقة حنان، وتفجر ينبوع مودة، وأخذت تمد بينه وبينها حبل الكلام ، وسرعان ما أصبح الورد بينهما رسول المحبة، وترجمان الأشواق، عبر سنين طويلة ممتدة، إذ كان نصيبه، من الزمان صنو نصيبها، وهو المحكوم بالمؤبد بسبب حكم أمه وأعمامه وأخواله عليه أن يأخذ بثأر أبيه، ويمحو العار، فقتل وهو عالم أنه مقتول يومًا لامحالة، وليته كان قتل فى التو والساعة، ولايقتل كل يوم ألف مرة بين هذه الجدران المقبضة الكئيبة، التى تلتهم روح الإنسان وتفنيها.

فى كل الأيام والشهور والفصول، تأخذ الوردات، تضعها فى كوب ماء على شباكها، تأخذ واحدة فتشبكها فى شعرها، الفلة تدسها فى صدرها فيتضوع عبيرها بين ثدييها، أحيانًا يداهمها الأرق، وتشعر بعبث الأيام، وجنون الكون فتفكر جادة فى قتل نفسها، أن تخبط رأسها بكل ما تملك من قوة فى قضبان الشباك الحديدية، حتى تنفلق العظام، ويتناثر ما بداخلها، فتنتهى من ذلك الكابوس الرهيب، الذى تعيش فيه منذ سنوات تبدو لانهاية لها، لكن الوردات سرعان ما تناديها، أحيانًا تسمع صوتًا سحريًا خفيضًا يناجيها: أيتها الصغيرة المعذبة، لاتبتئسى وتقنطى، تذكرى حسن.. حسن الحبيب الحبيب، الذى أرسلنا إليك نؤنسك فى وحشتك، ونخفف عنك وحدتك وعذاباتك.. أيتها الشقية القاسية، تأملى حاله لو ذهبت إلى الموت، وتركتيه وحيداً ضائعًا بلا حبيب فى صحراء تلك الحياة القاحلة التى يحياها.

عندئذ تهدأ نفسها، وتقوم لتشعل لنفسها سيجارة، تمتص أنفاسها بعنف، وتقف على الشباك لتنادى على سهارة الليل من السجانات، فتتحدث معها قليلاً عندما تجىء وتقص عليها طرفًا من أخبار السجن، أما إذا كانت منيرة، تلك

الشابة الطيبة، التى تحبها كثيرًا، وتعرف حكايتها مع حسن، وتحكى لها عن مشاكلها مع زوجها، وتقتيره عليها وعلى عيالها مطالبًا إياها أن تحط مرتبها كله فى البيت . تحب أن تسامرها منيرة، بينما تدخن وترمى لها حيث تقف فى مكانها أسفل مبنى السجن السجائر والطعام، الذى يمكن أن يصل إليها سليمًا، حتى يصالحها النوم، ويعود مصافحًا عينيها، فتودع منيرة وتلقى بنفسها على الفراش، لتنام وتحلم بذلك الحلم الجميل الذى يعاودها بين الحين والحين، حيث ترى نفسها فيه، دوما، بصحة جيدة، وعافية كعافية كل الشباب الأصحاء، امرأة ميسورة الحال من مستورى الناس وميسوريهم ، تجلس فى بستان تملكه، وسط أيكة من الشجر المزهر، المثمر بينما تأمر البستانى بالإسراع فى ضم الورود، وصنع باقات مما حفل به البستان من طرائف الألوان، وظرائف الأشكال، لترسلها للأخيار من أهل السجون، إنها تهب طرح البستان عن آخره لهم لأنهم يعانون محنة الابتعاد عن دنياهم، ومحرومون من نعمة اختيار ماتود نفس الكائنات اختياره، ثم أنهم قد وقعوا فى شباك تلف الأرواح، حتى وإن بقيت أجساد بعضهم سليمة معافاة. وتستمر فى حلمها، فترى نفسها تشمر عن ذراعيها وتقطف الوردات بيديها، وترتبها فى ذوق عجيب لتبدو فى منظر جميل، تبعثها إلى كل سجن من السجون التى تعرفها وتسمع عنها، عند كل صباح لتنعش أرواحهم العليلة، وتبعث فى نفوسهم عظيم الآمال، وترد إليهم الشعور بالخير، وحلاوة الكون التى غابت عنهم، لأنهم ربما لو تأملوا فى أشكال الزهر، وألوان الورد، وتنسموا أسحار روائحها، وعجيب شذاها، وتمعنوا فى عميق معانيها، لربما كفوا أيديهم عن الأذى وشرور الدنيا، وسعوا فيها بالخير والإصلاح، وفهموا أن الزمان يضع سره فى رقيق الزهر، وضعيف النبت، ليعتبر الناس الاعتبار ولا يظنوا بدوام الإزدهار، لأن للزهر سلطان على النفس لايدانيه إلا سلطان الوجد والعشق.

عندئذ، كانت ترى فى منامها جلباب السجن البغيض، ذا اللون الأبيض، وقد تبدل عليها، ليصبح ذا ألوان بهيجة حمراء وزرقاء وصفراء، كالألوان الزهور وأن أكاليل من الريحان الأخضر قد غطت شعرها، فتسكن روحها عندئذ، وتهدأ

هواجسها، التى طالما تظل تلازمها حتى فى نومها، بحكم ذلك الداء القلبى الذى تعلم أنه سيفنيها يومًا لامحالة، قبل أن يسمح لها الزمان بملاقاة حسن.

هتف حسن بقلق من مكانه البعيد.

ـ مالك.. سرحت بعيدًا.

ـ أبدًا.. طوح الورد يا حسن.

قبل الصحبة الجميلة، التى أعدها لها، لامس راحته بشفتيه ثم لوح بها فى الهواء، وفرد ذراعه بالصحبة المتوهجة بألوان البلدى، الأحمر والأصفر والأبيض، مطوحًا بها عاليًا فى اتجاه الشباك.

رغم برد شهر طوبة، ودخول الليل فى ربعه الأخير، إلا أن الفرح ظل مستمرًا، واستمرت معه الخمر والحشيشة، تلعب ألعابها المجنونة برؤوس الجميع، بما فى ذلك الحجاج المعدودين الذين حجوا، والحجاج العديدين الذين لم يحجوا. إضافة إلى أولئك الذين لايفكورن فى الحج على الاطلاق ليقينهم العميق بأنهم لن يستطعوا إليه سبيلاً، وكانت حمى الرقص قد تزايدت إلى حد كبير، عندما أخذ مطرب العرس الوحيد يرفع عقيرته قدر المستطاع بأغنية «كتبوا كتابك بانقاوة عينى»، ولم تمنعه بحة صوته من الاستمرار فى الغناء الزاعق، ليصل صوته إلى أبعد ما يمكن، نظرا لانتهاء الوقت المسموح به حكوميًا لاستخدام مكبرات الصوت الكهربائية، أما العروس والعريس، فقد لفهما فرح غامر، ونشوة طاغية لأسباب كثيرة، من بينها، أنهما للمرة الأولى وربما الأخيرة يكونان على هذا النحو فى بؤرة الاهتمام والضوء، صحيح أنه لم يكن هناك ورود ولازهور، ولا طعام أو شراب تستحق الذكر، اللهم إلا قطع من الحلوى الرخيصة، وزعت كيفهما اتفق مع أكواب من شراب الورد البلدى الأحمر المخفف إلى أقصى حد ممكن، ليكفى أكبر كم من المدعوين، إلا أن ذلك لم يحل بين الحاضرين، والبهجة الغامرة، التى أخذتهم، والمدعمة بحبل من اللمبات الكهربائية الملونة، علق ممتدًا بعرض الحارة، ابتداء من واجهة بيت العروس حتى البيت المقابل به بالإضافة إلى عدة أعيرة نارية، أطلقت على سبيل التحية من غدارة الحاج سعيد الفواخرى، وكانت الفرقة الموسيقية المصاحبة للمطرب، هى سيدة البهجة بلا منازع، رغم أن طبالها الأعمى ليس له إلا أصابع أربعة فى يمناه وأن عازف الأكورديون العجوز لم تعلق بذاكرته

طوال تاريخه الفنى المغمور سوى ثلاثة ألحان قديمة تعود إلى أيام الموسيقى الشعبى ذائع الصيت حسب الله، لكن على أية حال لم يمنع ذلك الحاضرين من التعبير عن امتنانهم للمغنى وفرقته، ومجاملة أهل الفرح وتحيتهم بين الحين والحين. بمبالغ نقدية صغيرة يقدمونها للمغنى، فيعلنها على الملأ، بينما يردد خلف صاحبها أسماء الأشخاص الذى يخصهم بتحيته. وتنتهى التحية عادة بمصاحبة جملة موسيقية ختامية شهيرة، وعبارة «رقصنى يا جدع».

بينما كان عازف الأكورديون، يحاول عزف لحن « يا اولاد بلدنا يوم الخميس»، تقدم المعلم فرحات الفرارجى إلى جانب المطرب، وأوقف الموسيقى والغناء بإشارة من يده، ثم برم طرف شاربه الشبيه - برأيه طبعًا - بشارب الزيناتى خليفة فى السيرة الهلالية، وشمر كم جلبابه الواسع، فبدت يده الغليظة بخاتمها الفضى ذى الفص الزجاجى، وهى تمسك بخمسة جنيهات، بينما نظراته تتجه إلى خصمه التاريخى فى الحارة الحاج سعيد الفواخرى، وكان فرحات يرغب حينئذ فى تحية مدوية تتناسب والدوى الذى فعلته الخمر برأسه، وهى التحية التى كان قد فكر فيها جيداً، وتيقن أن من المستحيل أن يتجاوزها أحد غيره، بما فى ذلك سعيد الفواخرى، وخصوصاً أنها مدعمة بخمسة جنيهات كاملة، فأخذ يحيى العريس وأهله، وأهل العروس، وأصدقاءه وأحباءه فى الحارة، ثم هتف بحماس فجأة:

- وقبل كل شىء، وقبل أى مخلوق مهما كبر وعلا، سيدى وسيدكم، تاج رأسى، وراسكم، سيدنا محمد عليه أجمل الصلاة والسلام.

سرت همسات الصلاة على النبى بين جميع الحضور، وكذلك فعل المغن، والطبال، وعازف الاكورديون، الذى حاول تذكر لحن «أنا نفسى أزورك يا نبى واقول مدد» دون جدوى، فلما ساد هدوء مؤقت، استأنف الفرارجي تحياته قائلاً:

- سيدنا النبى، يعنى أجمل وأجدع نبى فى الدنيا، النبى، العترة، رسول الله وحبيبه، الطاهر الشريف، أبو لسان حلو ينقط منه العسل والسكر.

لم تتوقف الصلوات على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين فاستمر الفرارجى فى كلامه:

سيد الخلق، أبو كلمة واحدة وضمير أبيض من الفل لايعجبه أبدًا الحال البطال، وماغش أى مخلوق، ولامشى فى سكة الحرام، ولم يتستر على الكلام الفارغ أو يسكت على الناس المشتغلة فى الممنوعات.. الف صلاة وسلام عليه، رقصنى يا جدع.

غلى الدم فى عروق الحاج سعيد الفواخرى الذى لم يكن قد حج أبدًا وكاد أن ينفجر عيظًا، لأنه فهم فورًا الغمز واللمز عليه، الذى قاله فرحات الفرارجى، إضافة إلى ما دفعه من جنيهات ستضطره ولا بد للمزايد عليه، ودفع مبلغ أكبر منه للمغنى، ليبدو فى المقام الأعلى، والأكثر غنى ويسرًا أمام أهل الحارة. أخذ يفكر بتحية كبيرة وخطيرة ، تفوق تحية غريمه التى قدمها منذ قليل، فلم ينتبه للرقص الدائر على أغنية « ياصلاة الزين على عزيزة يا صلاة الذين»، التى فاجأ عازف الأكورديون الناس بعزفها ومعهم المغنى، بل وفاجأ بها نفسه قبل أى إنسان أخر. وبينما الحاج سعيد الفواخيرى يقدح ذهنه بحثًا عن سلام عظيم وتحية كبيرة، تفتق ذلك الذهن الضعيف الخيال عادة، عن فكرة بدت له جهنمية، فبصق على الأرض، ورفع عمامته قليلاً هرش رأسه وسار مسرعًا إلى حيث يقف المغنى واشار له بيده ليسكت ويبدأ فى تحية أهل العريس والعروس كما هو معتاد، ثم تفرس فى االوجوه بقوة ليشد انتباههم، ودون التفات إلى فرحات الفرارجى قال:

ـ وقبل أى سلام، أو كلام، أو تحية أى مخلوق أو إنسان، أنا أقول: ربنا، ربنا المعبود، ربنا يعنى كلنا عبيده، وكلنا نسبح بحمده، ويسبح بحمده كل من عليها من طير أو حيوان، وربنا هو العالم بنية كل مخلوق، وبصاحب القلب الأبيض، وصاحب القلب الأسود، وهو «فوق كل ذى علم عليم»، وهو العظيم، الجبار، المنتقم، العارف والشايف لكل كبيرة وصغيرة، حتى دبة النملة على الأرض، وكاشف نية كل مخلوق وكاشف النفر المؤذى العاوز يوسخ سمعة الناس، وهو العيب كله فيه والحرام كله صادر منه.

ربنا عارف كل واحد ذيله نجس، كل واحد يجرى وراء النسوان، عالم ولا إله غيره، بالغشاشين، بالسراقين فى الميزان، عارف كل واحد يزقم الحيوان بالعيش المبلول ليزيد وزنه، وعارف كل واحد يبيع الحيوان المريض للناس وفيه الضرر،

وأنا أقول «العين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم»، وأقول قبل كل شيىء لغاوى الشر.. أنا جاهز.. والجدع يبان لى، ومن قال كلمة يكون قدها، أو يمشى جانب الحيط أحسن له، والكل سامع.. وقد أعذر من أنذر.. رقصنى يا جدع.

تجمعت نذر الغضب داخل فرحات الفرارجى، وبدا واضحًا تماما له وللجميع ما قصده الفواخرى، الذى كان فرحات قد غمز ولمز إلى بيعه الممنوعات والمخدرات، وها هو يحاول أن يكيل له الصاع صاعين، وشعر وكأنه أفاق من تأثير الخمر، وأنه لابد وأن يرد الإهانة، ويرى غريمه من الأقوى فى الحارة، وقال لنفسه: سوف أربيه، وأريه من يكون فرحات الفرارجى، سأضربه حتى يخر الدم منه، ويقول إن الله حق، ويمشى جنب الحيط. شمر عن أكمامه، رسم على وجهه علامات الشر، وغابت البهجة من داخله، فلم يعد يستمع إلى الغناء والموسيقى، ولم يعد يرى الرقص المتزايد أمام ناظريه، وأشار إلى عدد من رجاله ليبدأو فى رفع الكراسى والضرب، ولكن فجأة، ودون أن يحسب أحد حساب ذلك، انهمر المطر بسرعة، غزيرًا، وفق رؤوس الحضور أجمعين.

ساد الهرج والمرج، تضاحك الأطفال، زغردت النساء، وبدأ الجميع فى الجرى والاختباء، وأعلن المغنى انتهاء الفرح، وهو يحمى رأسه بيده، وحمل العريس عروسه فارًا إلى أقرب بيت، بعيدًا عن شلالات السماء المنصبة فوق رأسيهما، بينما كانت سنية الفلبانة بائعة الجبن القريش تضحك وتقول:

ـ طبعًا ربنا أرسل المطر عليهم، حتى يتأدبوا ويعرفوا أن الله حق، والهزار فى الموضوعات الكبيرة حرام.. أصلهم كانوا كما ناكر ونكير.

ثم أحكمت طرحتها على رأسها وجرجرت ساقيها، وسارت لتختبىء من المطر هى أيضًا.

• الذهاب إلى حديقة الحيوان •

سطعت الشمس فجأة، بعد أن ألقت غيوم ذلك اليوم الشتوى البارد بنفسها زخات مطرية خفيفة على الأرض، فبانت السماء زرقاء باهية الجمال، حتى أن «طيف» تنبهت بعد أن رفعت عينيها عن الأوراق، التى كانت تحررها، وهى تجلس على مكتبها لترمى ببصرها بعيداً عبر النافذة الزجاجية القريبة منها فتنهدت ثم قالت لروحها:

- آه .. لو أروح لجنينة الحيوانات، اتمشى فيها ساعة، أو ساعتين مع أى إنسان، لأن الجو جميل فعلاً والشمس عروسة منورة.

داخلها شعور متزايد ببرودة الغرفة، التى تعمل فيها، مع تسعة موظفين آخرين، وبكآبة إضاءة مصباح الفلورسنت الأبيض، الذى ينيرها، وببشاعة المكاتب الحديدية، ذات اللون الرمادى الكابى، التى يصطدم بها النظر، أينما تولى فى المكان، وجالت برأسها فكرة: إن هذا المكان جدير بمشرحة لجثث الموتى، لذلك تحمست أكثر لمغادرة العمل، والذهاب إلى حديقة الحيوان.

لمت أوراقها كيفما اتفق، معيدة إياها إلى درج المكتب، ثم سوت شعرها بيديها، وحملت حقيبتها لتتجه إلى زميلة لها كانت تجلس فى الركن المقابل من الحجرة، وهى الزميلة الوحيدة التى تستلطفها «طيف» من بين كل العاملين معها، بسبب كونها مهذبة ورقيقة كما أن لها طريقة جميلة خاصة فى اختيار ملابسها بالنسبة للباقين، فهمست لها برقة وحماس:

- سيبى الشغل يا «كريمة» وتعالى نروح جنينة الحيوانات فالشمس فى السماء عروسة منورة، والجو رائع يرد الروح.

ولما كانت «كريمة» مشغولة، ساعتها، بالبحث عن خطاب ضائع من خطابات العملاء، الذين تتعامل معهم الشركة، التى تعمل فيها مع «طيف»، فقد رفعت رأسها ناظرة إليها، بدهشة، وقالت:

- يا حلاوة؟!

ثم سكتت، معاودة البحث عن الخطاب المفقود، الذى كان ضروريًا أن تجده، لأن مديرها قد عنفها منذ قليل بسبب فقده، لكن «طيف» قالت لها بصوت خفيض، مرة أخرى: بصى، شوفى، السماء صافية بشكل مدهش، والشمس سخية ورائعة، ونحن نجلس هنا فى هذه الحجرة الباردة الكئيبة، تعالى وحياتك نروح جنينة الحيوانات.

ضحكت «كريمة» ضحكت عالية ساخرة غير مصدقة أن «طيف» تتحدث فى الموضوع بجدية وحماس ثم أنها حركت يدها حركة خفيفة تدل على أن زميلتها قد خف عقلها وطار وقالت لها:

- اعقلى يا هبلة؟!

شعرت «طيف» أنه لاجدوى من اقناع «كريمة» بالذهاب معها إلى حديقة الحيوان، فتركتها تبحث، كيفما تشاء، عن الخطاب إياه، وسارعت تهبط درج المبنى الكبير، الذى تحتل الشركة ، الطابق الخامس منه، دون استخدام المصعد لأنها تعرف أنه معطل دومًا، ولا جدوى من اصلاحه، بسبب تزايد الضغط عليه نظرًا لكثرة مستخدميه من المتعاملين مع الشركات والمصالح الحكومية الكثيرة، التى يضمها المبنى، لذلك فقد راحت تتجنب الاحتكاك بالناس، الذين كانوا مثلها هابطين الدرج أو صاعدينه لإنجاز شئونهم فى المبنى خلال هذا الوقت المبكر من اليوم، لكنها ورغمًا عنها اصطدمت برجل كان يصعد بينما كانت تهرول هابطة إياه، فقالت له:

ـ آسفة.

رد الرجل بابتسامة بشوشة طيبة، فهمت «طيف» منها أنه رضى باعتذارها، ثم سألها عن الطابق الذى تقع فيه ادارة الضرائب، لأنه يريد أن يخفف الضرائب المفروضة عليه ولاحظت «طيف» أن له وجهًا مستديرًا ورأسًا صغيرًا يشبه رؤوس القطط، التى تراها فى الطرقات، فتحمست وسألته أن يذهب معها إلى حديقة الحيوان لأن الشمس ساطعة والسما بالغة النقاء والزرقة، لكن الرجل الذى لم تلاحظ «طيف» أن له كرشًا سمينًا أيضًا، ويرتدى ملابس أنيقة أناقة تليق برجل أعمال، نظر إليها مبتسمًا ابتسامة من نوع آخر تختلف عن تلك التى رأتها على وجهه عندما اعتذرت له، وقال لها بينما كانت نظرته تجول فى معالم جسدها:

ـ اكتبى عندك رقم تليفونى، واتصلى بى بعد الساعة التاسعة غدًا لأنى مشغول اليوم جدًا.

بهتت «طيف» وتجاوزته عابرة الدرج مسرعة دون أن تقول له أن الشمس رائعة والسماء بالغة الزرقة والنقاء مما يجعل الذهاب إلى حديقة الحيوان من أجمل الأشياء التى يتحتم على المرء أن يفعلها الآن؛ وكانت مستاءة جدًا، حتى أنها لم تعر انتباها لكل أولئك الذين تمتموا مستنكرين أو أعربوا عن تبرمهم بينما كانت تتجاوزهم مسرعة، فلما أصبحت خارج المبنى حيث الميدان الفسيح، الذى تصب عنده عدة طرق طويلة تتمدد فى أرض المدينة، تنفست الصعداء وقالت لروحها مرة أخرى بينما أخذت تتطلع إلى أعلى: فعلاً الشمس رائعة والسماء بالغة الزرقة والنقاء.

سارت قليلاً فى الطريق تفكر فى إنسان ترافقه وتمضى معه بعضًا من الوقت فى حديقة الحيوان لتشعر بالسعادة وبمزيد من الدفء. وبينما هى تفكر، اقتربت منها سيدة أنيقة لها عيون داكنة تشى بالصدق والطمأنينة وسألتها أن تدلها على عنوان أحد المحلات الشهيرة بالمدينة لأنها غريبة عنها ولاتعرف سبيل الذهاب إليها، فدلتها «طيف» على مكانه بلطف، ثم فكرت بسرعة، ودعتها للذهاب معها إلى حديقة الحيوان.

انقلبت سحنة المرأة، ولاح على ملامحها غضب من أهين فى شرفه وكرامته، وراحت تنهر «طيف» بعنف قائلة لها أنها سيدة محترمة، بل وهددتها بابلاغ البوليس، إن لم تبتعد عنها فورًا، فخافت «طيف» وعجزت عن توضيح وجهة نظرها فى الذهاب إلى حديقة الحيوان، لأن المرأة سارعت بمفارقتها وهى تسدد إليها نظرات الاحتقار، مما جعل «طيف» تفضل العبور إلى الطرف الآخر من الميدان، حيث وجدت شحاذًا كهلاً جالسًا على الأرض يمد يده طالبًا حسنة، فأعطته قروشًا تناولها منها بلطف وشكرها على حنوها وانسانيتها، عندئذ استبشرت به خيرًا وسألته بحماس أن يرافقها إلى حديقة الحيوان بدلاً من جلوسه هكذا فى الطريق ملتصقًا بالأرض، بعيدًا جدًا عن السماء، التى هى بالغة النقاء والزرقة والشمس تشع فيها بهاءها الذهبى الآخاذ.

حوقل الشحاذ واستعاذ بالله من الشيطان وداخله ضيق حقيقى لأنه أحس أن الفتاة الواقفة أمامه تسخر منه بكلامها، وقال لها أنه شحاذ فقير رزقه على باب الله ولا حول له ولاقوة، وعلى المرء الا يفسد صدقته بالسخرية، ثم أنه رمى لها بفلوسها وتركها واقفة فى مكانها حائرة لأنها لم تتمكن من اقناعه بضرورة ترك مكانه والذهاب معها إلى حديقة الحيوان.

مشت حزينة مستغربة من أحوال الناس فى هذه المدينة، الذين يدهشون ويسخرون بل ويغضبون لشىء بسيط جميل مثل دعوة للذهاب إلى حديقة الحيوان وهى أجمل مكان بمدينتهم، التى أصبحت مليئة بالبنايات العالية والمحلات الكثيرة التى تجعل الناس ينسون التطلع إلى السماء، بل فكرت أيضًا فى كيفية احتمالهم لحياتهم، التى تمضى يومًا بعد يوم فى شوارع قذرة كئيبة وبيوت متداعية بالية وحجرات باردة يضطرون لإضاءتها فى وضح النهار بنور الفلورسنت الأبيض المقيت، وإذ هى تفكر سائرة لاتلوى على شىء اصطدمت قدمها بكرة صغيرة لطفل يلهو فى الطريق، وعندما جاء ليأخذها انفرج فمه عن ابتسامة رائعة جعلت قلبها يخفق مثلما خفق فى اللحظة التى رفعت رأسها فيها عن الأوراق ورأت الشمس فى السماء فسعدت وفرحت وانقشعت غيوم الحزن عنها وسألته دون تردد أن يرافقها إلى حديقة الحيوان.

فرح الطفل وطفق يصفق بيديه وراح يحجل برجله كعصفور وجد حبًا على الأرض، ثم قال لها أنه يحب دومًا الذهاب إلى حديقة الحيوان بينما اقترب منها ممسكًا بيدها ناظرًا إلى عينيها كما لو كان يرغب فى احتضانها وتقبيلها، وأضاف بصوت بريء:

ـ يا الله نروح على طول.

لم تجد «طيف» ضرورة لأن تقول له لماذا تريده أن يذهب معها إلى حديقة الحيوان لأنها شعرت أنه مستوعب تمامًا ولا يحتاج إلى كلام فى الموضوع، ثم أنه لاداع لإضاعة مزيد من الوقت فى الكلام، وبدأت تخطو برفقته فى الطريق المؤدى إلى حديقة الحيوان، بينما كان يسبغ دفء يده على يدها وتنتعش روحها بروحه الجذلة، التى جعلتها تشعر بسعادة لاحدود لها لكن، وبينما هما يستعدان لعبور الشارع برزت من نافذة فى المبنى الذى جمعتهما الصدفة تحته امرأة مشوشة الشعر مترهلة الجسد قالت بصوت آمر بينما كانت يديها قد بدأتا تنشغلان بتعليق غسيل على الحبال.

ـ اطلع بسرعة يا ولد، وإلا والله أنزل وأكسر دماغك.

نظر الولد حزينًا إلى عينى «طيف»، سحب يده من يدها متنهداً بحرارة وخرج صوته مكسورًا وهو يقول:

ـ طيب.. طالع بسرعة يا ماما.

بدا له ما حدث غريبًا جدًا، مما جعله قلقًا، حائرًا، يتطلع بخوف، وعصبية إلى كل ما حوله من أشياء، ولم يكن يدرى ما الذى سوف يحدث له بعد ذلك، لكن ما كان يطمئنه قليلاً ، هو تلك المرأة العجوز، التى يعرفها وطالما اعتاد وجهها عندما كان يراها تأتى كل صباح، فتفتح النوافذ ليدخل الهواء الرطيب، الذى ينعش روحه، ويأخذ فى مراقبتها وهى تروح وتجىء داخل الحجرة منظفة ما اتسخ ، ومرتبة الأشياء فى أماكنها المعتادة وخصوصًا تلك الكبيرة منها، التى يأتى بعض الناس فيجلسون عليها أحيانًا، وينظرون إليه بابتهاج، والقطة البيضاء، ذات الفراء الطويل، تجلس قبالتهم تهر كمادتها، وهى تفتح عينيها، وتغلقهما بين الحين والحين، كلما تعالت الأصوات حولها.

لم يفهم أبدًا لماذ أعطوه لهذه العجوز لتحمله معها، وتذهب به بعيدًا عن تلك الحجرة الفسيحة، التى عاش فيها، وحفظ عن ظهر قلب تفاصيل ما بها من أشياء وخصوصًا ذلك الشيىء الذى كان معلقا أمامه على الجدار، لايكف عن الحركة، وإصدار الصوت: تيك، تيك... تيك، تيك، ويدق دقات عالية من وقت لآخر، فتأتى إليه السيدة ذات الشعر الأسود الطويل، وتنظر إليه، وتعود مسرعة لتنشغل بأشيائها، أو تنظر من الشباك، وتتحادث مع أبنائها، الذين يلعبون فى الخارج، منادية عليهم ليعودوا إلى البيت، فيقبلون عليه بمجرد أن يصلوا إلى الحجرة، ويصفرون له مداعبين مما يجعله يتقافز بسعادة، ويجاوبهم بصفير طويل، ثم يأخذ فى التقاط ما يقدمونه له من حب.

كانت العجوز التى تحمله لاتقل عنه قلقًا، إذ أنها ظنت فى البداية أن من الرائع امتلاك المرء لعصفور جميل مثل هذا العصفور، لذلك فقد قبلته فور أن عرضت عليها صاحبة البيت أن تأخذه ضمن ما أعطته لها من ملابس قديمة، وأوانٍ، وأشياء أخرى لم تعد بحاجة إليها، لأنها ستسافر مع زوجها وأولادها، وتترك البيت؛ لكن العجوز، بعد أن حملته معها، فكرت فى أنها ربما لم تكن من الحكمة بما يكفى، فلم تفكر ولو قليلاً قبل أن تأخذه؛ وشعرت أنها تسرعت فى ذلك بعض الشىء.

بينما كانت تعبر به شوارع الحى الراقى من المدينة، متوجهة إلى الحى الذى تسكن فيها، ظل قلب العصفور يخفق بشدة من الخوف والرعب، اذ أنه وباعتباره عصفورًا عاش فى قفص فى ذلك البيت منذ لحظة ميلاده حتى هذا الوقت، لم يكن قد رأى شوارع من قبل أبدًا، ولابنايات ضخمة عالية، ولا أناسًا كثيرين سائرين فى الطرقات، بينما الضجيج الرهيب، الذى يضيع صوته فيه لو حاول أن يصفر قليلاً، لاينقطع أبدًا.

لم يكن قد رأى كل ذلك من قبل، فحتى عندما كانت السيدة تذهب وأولادها، وتغيب عن البيت لأيام قليلة، تعود بعدها ولونها محمر قليلا بما يشبه لون ريشاته التى عند الذل، فإنه كان يظل فى مكانه بالحجرة الواسعة، وتعوده العجوز فتنظف له القفص، وتضع له الحب والماء. كان ما يرعبه أكثر، أثناء سير العجوز به فى الطريق، تلك القطط النحيلة القذرة، التى صادفها، فأخذت تتطلع إليه بعيونها اللامعة البراقة، وهى تمد ألسنتها الحمراء الخشنة، فتلحس فراءها وتتلمظ، وبما أنه لم ير قططا على شاكلتها من قبل أبدا، فقد داهمة الرعب، إذ تصور أن يفتح باب القفص فجأة، لسبب من الأسباب، فتقترب منه واحدة من هذه القطط الشوارعية، وتنقض عليه دون رحمة، ولذلك داخله الحنين للقطة البيضاء، التى ألفها فى الحجرة الفسيحة ، التى عاش بها قبل ذلك، إذ كانت تأتى مقتربه من القفص، مكتفية بالنظر إليه، ومتابعة حركاته وهو ينط، أو يلتقط الحب بمنقاره، دون أن تحاول مسه أو أن تجرؤ على مديدها اليه، وخاف أن تتركه هذه السيدة وحيدًا وتمضى بدونه.

عندما وصلا إلى بيتها، فكرت العجوز فى المكان الأفضل، الذى يتوجب عليها أن تضعه فيه، هل تدق مسمارًا بالقرب من النافذة لتعلق فيه القفص؟ أم تضعه قبالة السرير، ليطالعها منظره الجميل كلما صحت من نومها؟، ثم فكرت أن تضعه على المنضدة القديمة بركن الحجرة، المسنودة بقوالب من الطوب حتى تتوازن، لكنها سرعان ما تخلف عن هذه الفكرة لأنها تتطلب منها أن تجد مكانًا آخر لعلب السمن والسكر والشاى، وللأطباق والأوانى الموضوعة عليها، ولكل تلك الأشياء الآخرى، التى تجلبها عادة من البيوت، التى تعمل فيها، وبعد أن جلست على السرير قليلاً ، ريثما تستريح من صعود السلم العالى ، الذى تضطر لصعوده حتى تصل إلى حجرتها الصغيرة، الواقعة على السطح، فكرت فى بيع العصفور بقفصه، وكانت قد وضعته قبالتها، واقترحت أن تعرضه على جيرانها فى البيت، أو على بعض أولئك الذين تعرفهم فى الشارع، فلما تذكرت أحوالهم، وماتحويه منازلهم من أشياء قديمة بالية، وشكواهم الدائمة من ضيق الذات اليد، اكتشفت أن من السخف أن تطالبهم بشرائه بأى حال من الأحوال.

من موضعه داخل القفص، راح يجول بعينيه القلقتين داخل الحجرة الصغيرة، فهاله لون حيطانها الباهت، والأشياء الكثيرة القذرة المبعثرة هنا وهناك، ولم تفارق أنفاسه تلك الرائحة العطنة الفائحة فيها، والتى اشتمها بمجرد دخوله من الباب، أما ما جعل صدره ينقبض بشدة فهو ذلك الصرصار الكبير، الذى أخذ يقترب من القفص، فتحسر على أيامه الخوالى، بكل متعها، وما عاشه خلالها فى تلك الحجرة الواسعة القديمة، التى تمنى لو أعادوه إليها مرة أخرى، لينعم نظره بالنباتات الخضراء الجميلة المتسلقة على جوانب حوائطها، والموضوعة فى أركانها، وبتلك الزهور الملونة البهيجة، التى كانت تضعها بين يوم وآخر السيدة ذات الشعر الأسود فى آنية على المنضدة الكبيرة، وإذ تذكر ذلك شعر بغم وحزن شديدين، وراح ينقر ريشه فى قلق، ناويا إطلاق حنجرته بصفير موآس لحاله البائسة، لكن العجوز، قامت من مكانها على السرير، وأحضرت له جفنة ماء، وحفنة أرز، وضعتها أمامه برفق فى القفص، فاطمأنت نفسه قليلا، بعد أن أخذ يعب الماء عبًا، لأنه كان عطشًا للغاية بسبب حرارة الجو والفترة الطويلة التى بقى

فيها دون ماء بالطريق، ثم أنه حمد الله لأن الأمور لم تسر على نحو أسوأ مما كان يظن.

وهى تعد طعامًا لتأكل، قالت العجوز لروحها: من الأفضل أن أسرح ذلك العصفور، فوقتى مخنوق جدًا، وهمى كافى، ومغنى عن هم غيرى، فأنا أخرج عند طلعة الصبح، ولا أرجع من شغلى إلا بعد غروب الشمس والعصفور يحتاج إلى أكل وتنظيف، وطاقتى وصحتى، لا تساعدانى على الصعود والنزول باستمرار، ثم أنى لا أجد أية متعة فى حبس طير أعجم، لاحول له ولاقوة، فى قفص طوله ربع متر وعرضه ربع متر، ولا أفهم أبدًا ما يحبه الناس فى حبس العصافير؟!. والله لأسرحه لحال سبيله قبل خروجى بكرة، إن شاء الله، وربنا ينولنى ثوابه لأنه روح على كل حال.

لما فتحت العجوز شباك الحجرة الوحيد، ذا الحافة العريضة، فكر العصفور وهو ينظر إلى سرب من الطيور يعبر السماء مزقزقًا، فى أنه لم يفكر فى العصافير الأخرى من قبل أبدًا، صحيح أنه كان يراها قبل ذلك من موضعه فى الحجرة الواسعة القديمة، كلما كان الشباك الكبير الواسع مفتوحًا، لكنه لم يفكر فى كونها لاتعيش فى أقفاص مثله، بل تطير فى السماء، وقال لنفسه عندما تذكر شوارع المدينة الصاخبة، وقطط الطريق: يا لها من طيور بائسة، معرضة للهلاك فى أى وقت، لأنها بلا أقفاص تحميها، كما أن أحدًا لايقدم لها الطعام مثلما يقدم له، ورغم تزايد حسرته على حياته الأولى فى الحجرة الفسيحة الجميلة، إلا أنه كان ممتنًا جدًا لأنه رغم الأهوال التى رآها شوارع المدينة، مازال يعيش فى قفص، ومازالت هذه السيدة العجوز، التى يطمئن إليها، تقدم له الطعام، حتى لو كان أرزًا وليس برغلاً جميلاً من النوع الذى يحبه، والذى كان يقدم له قبل ذلك فى الحجرة الجميلة.

فى الصباح، لما بزغت الشمس، قامت العجوز من نومها وارتدت ملابسها متأهبة للخروج، وقبل أن تذهب إلى عملها، فتحت القفص، وأمسكت العصفور بيدها، ووضعته على حافة الشباك، وهى تبتسم، وقبل أن تغلقه جيدًا، بعد أن تركت الطائر وحيدًا ابتسمت مرة أخرى، وقالت له: مع السلامة.

· وقف العصفور على حافة الشباك المغلق خلفه، لايدرى إلى أين يذهب، وما الذى عليه أن يفعله، كان يشعر فى حقيقة الأمر وكأن كارثة قد حلت به، إذ لم يكن أمامه على طول المدى غير السماء الواسعة، وتحته البيوت القديمة الرمادية، التى كلما نظر إليها داخله الرعب بسبب القطط العديدة المتسلقية هنا وهناك، على أسطحها، تحت أشعة شمس الصباح الدافئة. حاول أن يفعل شيئا فحرك جناحيه قليلا، ونط نطات بسيطة مثلما كان يفعل فى القفص.. ثم طار غير مبتعد عن الشباك كثيرًا، لكنه سرعان ماعاد ليحط على حافته العريضة، ويستقر فوقها مرة أخرى، بعد أن تملكه رعب شديد، لأنه شعر فى طيرانه المحدود بالهواء والفراغ الذى سبح فيه لأول مرة فى حياته كلها، التى لم يغادر خلالها القفص أبدًا، ثم وصل القلق بداخله إلى حد عظيم جعله ينقر بعنف الشباك المغلق على أمل أن تعود العجوز فتفتحه، وتحمله إلى داخل قفصه الأثير مرة أخرى، لكن أحدًا لم يأت إليه، رغم نقراته الكثيرة، المتكررة، ولم يسمع أى صوت من جهة الشباك، غير صوت نقره اليأس، الذى أوجع منقاره الصغير، فكف عن ذلك ناعيًا حظه العاثر، الذى جعله ينتهى إلى هذه الحالة المؤلمة القاسية.. إلى أن يدفع إلى حافة شباك صغير، ليس أمامه إلا السماء الواسعة، وليس تحته إلا البيوت الكئيبة، وراح يبحث بعينيه فى المكان عن موضع يختبئ فيه، أو قفص صغير يلتجيء إليه فلما لم يجد غير المنظر الذى رآه منذ أن وضع على حافة الشباك، أطلق عقيرته بلحن حزين باك، كان عزاءه الوحيد خلال تلك اللحظات.

.. وهى سائرة فى شوارع المدينة إلى عملها، فكرت العجوز فى العصفور، وقالت لروحها: لعله سعيد الآن سعادة لاحد لها بعد أن أطلقت سراحه، وكانت فى الحقيقة سعيدة بنفسها أكثر، لأنها قررت فك أسره بسرعة، ولم تعطه لواحد من أولاد الجيران كما راودتها فكرة بعد أن طبخت وجلست تأكل، فالعيال يلهون بالعصافير ويعذبونها، بل ويقتلونها عادة فى الحى الذى تسكن فيه، وقد رأتهم عدة مرات يفعلون ذلك مع العصافير التى يأتون بها من الأشجار الموجودة بالقرب من النهر، أو يعثرون عليها بالصدفة عندما تكون صغيرة وتقع من أعشاشها،

وكان شعور السعادة يزداد بداخلها، إذ ظنت أنها منت على ذلك العصفور بالحياة، وأنقذته من هلاك محقق، لو أخذه واحد من هؤلاء الصبية العابثين، لكن هاجسها الوحيد بشأنه كان التفكير بالمسافة الطويلة التى سيضطر لقطعها فى المدينة حتى يستطيع العثور على شجرة مناسبة يحط عليها ويتخذها مأوى له، إذ أن حيها الذى تعيش فيه خال من الأشجار تقريبًا، بل أن المدينة كلها باتت الخضرة تغيب عنها شئًا فشيئًا.

لعن العصفور العجوز فى سره ألف مرة، وكان يشعر تجاهها بحقد وغضب هائلين، لأنها تخلت عنه هكذا، وتركته وحيدًا على حافة الشباك، دون طعام أو شراب، والشىء الذى كاد أن يجعل رأسه ينفجر من شدة الغيظ، هو أن السيدة ذات الشعر الأسود الطويل، تخلت عنه فى اليوم الفائت ببساطة، لاتقل عن البساطة التى تخلت بها العجوز عنه، فالسيدة الأولى كانت تحبه كثيرًا، وتطعمه بنفسها فى أحيان كثيرة، بل كانت تجيىء بأصدقائها أحيانًا لينظروا إليه، ويتأملوا ريشه الملون الجميل، فيمدوا أصابعهم إليه فى قفصه مداعبينه، فينقرهم بمنقاره المدبب نقرات خفيفة على سبيل التحية والدعابة، فلما وصل بتفكيره عند هذا الحد، داخلتة رغبة حادة فى البكاء، إذ تذكر ماضيه، بينما بدأ الجوع والعطش يعزفان لحنًا وحشيًا فى داخله، فحن إلى استعادة قفصه الأبيض الجميل، الذى ألفه وعاش فيه طيلة عمره، واشتهى ماءً باردًا عذبًا، وحبًا لذيذًا يصد الغول الناهش فى أحشائه الصغيرة. لكنه لما لم يجد غير السماء الفسيحة الممتدة أمامه، والبيوت الرمادية الموحشة تحته، صفر صفيرًا عاليًا حزينًا، ناعيًا حاله ومصيره المجهول.

قضى نهاره على هذه الحال، لايكف عن التفكير فى الماضى والتحسر عليه، دون أن ينتبه للشمس التى توسطت كبد السماء، ثم انحرفت قليلاً قليلاً، حتى استأذنت فى الغروب فاتحة ذراعيها للمساء، عندئذ انتبه العصفور الملون الصغير، إلى طيور كثيرة تحلق فى السماء آبية إلى أعشاشها فى الطرف البعيد من المدينة، حيث أشجار النهر، وكانت زقزقاتها تتعالى سعيدة مبتهجة، وهى تغطى بألوانها البيضاء مساحات من الأفق الملون بالشفق الأحمر الذهبى، فقال

العصفور لنفسه: لماذا لا أجرب أن أطير مثل هذه الطيور الكثيرة المبتهجة، المحلقة بعيدًا فى السماء وقال لنفسه أيضًا : ربما لو طرت، لوجدت فى مكان آخر قفصًا أبيض جميلاً مليئًا بالطعام والشراب، كذلك القفص الذى عشت فيه، وتكاد روحى تتمزق حنينا إليه، وهكذا أخذ يفرد جناحيه، قليلاً، قليلاً، تاركًا جسده الرقيق ملكًا لنسمات الغروب الخفيفة، لتحمله برفق وحنان، وإذ يضرب الهواء بجناحيه أكثر وأكثر، كانت تتسرب إلى روحه متعة طاغية، لم يذق مثلها من قبل، أشعرته بدبيب آخر للحياة فى داخله، ووجد نفسه يحرك جناحيه أكثر فيعلو ويحلق عاليًا.. عاليًا فى السماء، حتى صار هناك.. بعيدًا بين السحب، التى تضاءلت تحتها بيوت المدينة المغلفة بلون المساء، وفكر فى حياته المنصرمة الضائعة، وبدا القفص الأبيض الذى عاش فيه كئيبًا جدًا، وصغيرًا إلى الحد الذى يستحيل معه أن يعيش فيه مرة أخرى.

• زهرة المستنقع الوحيدة •

كان المستنقع واسعًا كبيرًا تنتشر على حوافه أعواد البوص والغاب، تتخللها النباتات الغريبة الموحشة التى نمت كيفما اتفق، ومنذ زمن طويل تمكنت الطحالب الخضراء الداكنة الغضة من الانتشار على السطح هنا وهناك إلى الحد الذى لا يسمح لنسمة هواء خفيفة أن تهز قطرة واحدة من مياه المستنقع العطنة الآسنة.

ماعدا صوت حركة زاحف كثعبان أو سحلية أو حشرة من الحشرات بدا المستنقع خاليًا من الحياة تمامًا، وكان الصمت المهيمن يزيد المكان قبحًا ووحشة، ويخلف شعورًا بالضجر والكآبة واستحالة العيش.

غير أنه كانت زهرة بيضاء وحيدة، نمت على الطرف القصى من حافة المستنقع، وبدت سامقة بديعة بأوراقها المخملية الرقيقة، أجمل من نرجسة، وانضر من لوتسة، لايمكن التكهن من أين جاءت، ولا كيف نمت وسط ذلك المكان الموحش الغريب، ولا كيف تجلت فى تمام نضارتها. وبدأ عطرها الرقيق يتضوع حثيثًا، كموسيقى خافتة تأتى من بعيد.

كانت الزهرة البيضاء، تلاحظ جمالها ، وتستشعر عطرها، وترقب قبح المستنقع حولها، فتتحسر قائلة: لسوف ينتهى عمرى القصير فى هذا المستنقع البشع، والزهور جميعها تتفتح، وتنشر عطرها، ويكتمل حسنها، لتجعل الحياة أكثر بهجة وجمالاً، وهاأنذا، فى هذا المستنقع الكئيب، وحيدة كنجمة المساء الأولى، يتشرب عودى من الماء الآسن، وتعبر بجانبى خنافس الأرض بلا مبالاة،

وتتشوه صورتى البهية عندما تنعكس على هذا السطح العكر الفظيع، آه.. ليتنى كنت

عصفورًا كعصافير السماء الجميلة فأرحل بعيدًا بعيدًا عن هذا المكان الردىء، الذى لاتعرفه الحياة، ولاترتحل إليه نحلات العسل، وفراشات الزهور، ياليتنى زهرة فى حديقة غناء، أمسى وأصبح على شدو البلابل، وغناء القبرات، أو ليتنى ضممت لباقة مع شقيقات، فأمنح ما يمنحه خل لخله وقت التلاقى بعد انتظار.

ثم أن الزهرة الرقيقة تضرعت إلى السماء: أن تبعث بمخلوق أو إنسان يعبر المستنقع، فيراها ويأخذها بيد حانية، فيشبكها فى رأس عروس، أو يضعها فى إناء جميل، ليتضوع عبيرها حتى الذبول.

كلما مر الوقت كانت أحزان الزهرة البيضاء تزداد ويمزقها الألم والحسرة لأنها لاتملك أجنحة تحلق بها وتطير بعيدًا، ولاصوتًا تطلقه بالغناء، فيسمع من بعيد، ويجذب كائنًا يعشق الزهور فيأتى إليها، بل وكان حزنها يزداد أكثر، كلما فكرت فى أنها لاتقوى حتى على الصراخ، وإلا لكانت احتجت، وعبرت عن ضيقها بالمستنقع وهوائه العفن، ومياهه العطنة التى لاتطاق.

مرت أوقات وأوقات، وزهرة المستنقع الوحيدة، المسكينة، البيضاء، تنتظر وتنتظر وهى تدرك أنه لاينتظرها إلا الموت كزهرة بائسة مجهولة لم تقع عليها عين كائن من كان، ولم يلمسها مخلوق منذ ميلادها وحتى انتهاء أجلها.

فى أحد الأيام، تأملت الزهرة صورتها على سطح مياه المستنقع المخضوضرة الراكدة، فارتجفت، إذا هالها مارأت من إذواء عودها، وزحف الذبول والاصفرار إلى بياضها الناصع، فتملك الزهرة خوف كبير، ورهبة لاحدلها، إذ أدركت أن القادمات من أيامها بتن أقل من الرائحات، وأن سويعات العمر باتت معدودة، وأن النهاية قد اقتربت منها بخطى واسعة.

ودت الزهرة لو استطاعت القفز، الجرى، الطيران، الصراخ، ولم يكن ذلك لأنها تخشى الموت قط، إذ كانت مدركة أن الزهور ذوات أعمار قصيرة، ولابد أن تموت لكن بعد أن تهب البهجة وتمنح السحر والجمال، وها هى انتظرت

وانتظرت، ولسوف تموت فى هذا المكان الفظيع، ستموت ويضيع جمالها وينتهى، وكأن شيئا لم يكن، وكأن وجودها كله لم يكن وتصبح كمن يخلق ويتنفس وينمو ويعيش.

اعتصر الحزنُ الزهرة، وكاد يمزقها الأسى، غير أن اليأس العارم بدأ يضعها على مشارف الأمل، والقنوط المبين أخذ يدفعها إلى حد اليقين، حتى باتت تشجع نفسها قائلة : اشتدى يا أزمة تنفرجى، وراحت تتساءل بدهشة: هل تكلف فراشة أو نحلة نفسها بالارتحال إلى هذا المكان النكد، وهل يأتى إنسان أو كائن من كان للحياة في عالم المستنقع الموحش المعزول؟ ومن ذا الذى يفكر بالمجيء لأجل زهرة ضائعة تعاشر الطحالب والصراصير، وحشائش المستنقع السخيفة؟

غير أن الزهرة التى كانت مصرة على أن تكون مثلما يجب أن يكون الزهر حتى النهاية، قالت لروحها: أبداً، لن أنتهى فى عالم المجهول، وأغيب عن الدنيا كأن لم أكن، بل سأبيت ليلتى القادمة والتى استشعرت أنها ستكون الأخيرة لى فى الحياة، وأنا أعصر نفسى، وأضوع عطرى الأخاذ الرقيق، حتى أغطى على رائحة المستنقع، وينتشر أريجى، بعيداً... بعيداً مع النسيم والريح، حتى يصل إلى موضع عاشق للزهر، أو محب للجمال.

بدأ المساء فى الهبوط بطيئًا وئيدًا فى البداية، لكنه سرعان ما سارع خطاه، حتى غطى بسواده المستنقع تمامًا، ولم تعد تظهر غير نجمات بديعات تتلألأ يذهبها المبهر فى الصفحة السماوية الزرقاء، فتطلعت إليها الزهرة مبتهجة، وراحت تعصر نفسها، وتنفث عطرها الرقيق القوى، والذى صنعته بجهد شديد، رغم تشربها لمياه المستنقع العفنة الكريهة الرائحة.

سهرت الزهرة ليلتها، لاتتوانى عن عصر روحها ونشر عبيرها، تأتنس بذهب السماء، ووجه القمر الفضى، الذى أطل عليها بنوره، فزاد حماسها للعمل، ومنحها يقينًا بأن لاغياب للأمل مع كل ما تبذله من جهد وعمل ، وكان عطرها ينتشر أكثر فأكثر كلما مر الوقت، ويغطى على رائحة المستنقع الفظيعة، وسرعان ما غطى ذلك العطر على كل رائحة أخرى كانت فى المكان بل وحمله النسيم الليلى الرطب معه بعيداً، فى الفضاء إلى كل مكان.

بدا الليل. على وشك الانقضاء واستعد الفجر للبزوغ ، والزهرة لاتكل أو تمل من عملها، تقاوم الفناء، وتصارع الموت، حتى عصرت نفسها عصرًا، ونفثت كل ما يحمله جسدها الرقيق من عطر، ولما لم تقو على المزيد ارتمت على غصنها وحيدة، شاحبة، وبينما هى تغيب شيئًا فشيئًا، تجتاز البرزخ الواصل بين الحياة والموت تناهى إليها شدو لقلق جميل، كان يعبر السماء مسرعًا فى جولته الليلية الأخيرة قبل انطفاء النجمات وغياب القمر، وبينما هو يمر فوق المستنقع ويغنى، شعر بنشوة ومرح وصدح شاديًا:

ما أروعها رائحة، وما أبهج عطر هذا المكان، لابد أن تكون زهوره رائعة، وأشجاره يانعة، وبينما كانت الزهرة تدخل ديوان الموت، كان اللقلق السعيد قد نوى أن يأتى بوليفته، ليبنى عشًا صغيرًا، ويعيش فى هذا المكان.

● أرانـــب ●

• أرانب •

-١-

فتح أسامة عينيه الخضراوين الضيقتين اتصطدما بالمشهد المزمن لصباحه اليومى : الدولاب الخشبى القديم ذو الباب المكسور الموارب، والكاشف عن ملابس زوجته القليلة بما فيها ثوب زفافها الأبيض المتشح بغبار سنين مضت، ثم المشجب النحاسى المثبت على الحائط بجوار الدولاب وقد استقرت على علاقاته البارزة المشكلة على هيئة أسود غاضبة بعض المناشف والألبسة، إضافة إلى سروال كالح سنجابى اللون، سيضطر لارتدائه عند توجه لعمله بعد حين، لأنه نسى كى بقية سراويله التى غسلتها امرأته فى اليوم الفائت، وبينما هو يتثاب ويتمطى بتكاسل من لم ينفض عنه غبار النوم بعد، جاءه صوت زوجته وهى تناديه بسعادة من أخذته المفاجأة المفرحة وهى تقول :

ـ أسامة، تعال، بص، كلهم ولدوا.

نهض بحركة لا شعورية وجلس فى السرير للحظات متأملاً صورته المنعكسة على مرآة باب الدولاب المواجه له، ليكتشف أن لا جديد تحت الشمس، فصورته المعتادة هى هى : وجه شاحب ممصوص بفك علوى بارز قليلاً وأنف متكور تكوراً يجعله لا ينسى أبداً قول الشاعر : «هذا جناه أبى علىّ»، ثم شعر مخملى غزير، طالما اعتقد أن الطبيعة جائرة إذ تجمعه بكل ما فيه من جمال مع هذا الأنف الشرير فى وجه واحد. نط من مطرحه بهمة وحماس، وبخطوتين لا غير صار واقفاً إلى جوار حياة فى الشرفة الصغيرة للغرفة ينظر إلى صغار الأرانب، ذات

الأعين المغمضة، واللحم الأحمر الطرى، وراح يتنهد برضا بعد أن أحاط بذراعه كتف زوجته العارى البارز من قميص نومها القطنى الخفيف، المحلى بزهرات برسيم رقيقة كركمية اللون وقال :

- بسم الله ما شاء الله. اسم النبى أحسن.

ردت زوجته حياة بامتنان قائلة :

ـ عينى عليهم باردة. تسعة فوق، وستة تحت فى القفص، والله ربنا أكرمنا بهم أسامة، ووسع علينا، لأنه عالم بحالنا وظروفنا.

لم يرد وظل ساهمًا يفكر وهو يحدق فى الأرانب الوليدة، التى راحت أمهاتها تبادله التحديق بعيون حمراء متوجسة، ربما خوفًا على نتاجها منه. تفحص القفص الخشبى الكبير ذا الواجهة السلكية المكون من دورين ثم رفع رأسه محاولاً تقدير ارتفاع سقف الشرفة، ليعلن بعدها لزوجته :

ـ صاروا محتاجين لمكان أوسع من القفص. مشكلة والله.

نظر إليها نظرة لا تخلو من معنى، فقد كان يرغب فى مفاتحتها بضرورة صنع قفص كبير فى شرفة غرفة البنتين بدلاً من هذا الذى ضاق بهم، لأنها الشرفة الأوسع فى البيت، لكنه آثر السكوت، فقد خشى الرد الرافض الذى تلقاه قبلاً، كما آثر تجنب المشاكل والمشاحنات مع البنتين. خصوصًا الصغرى الناقمة على الحياة عمومًا وعليه خصوصًا لتربيته الأرانب داخل الشقة، والتى طالما نعتته بالتخلف وقلة العقل. لكنه رغم رأيها هذا ورغم سلاطة لسانها وأسلوبها العنيف الحاد فى الحوار معه ومع أمها، فقد كان يلتمس لها العذر، لأنها عصبية، صبية، تعانى من حساسية مزمنة فى الصدر، تجعلها تلازم الفراش لفترات طويلة بين وقت وآخر. رغم طبيعتها المحبة للحياة، إضافة إلى أنها تحلم، مثل كل الذين هم فى مقتبل عمرهم، بالحياة المريحة المرفهة التى لا يقدر على توفيرها لها، مما يشعره دائمًا بالمرارة والحزن وقلة الحيلة فى مواجهة الحياة. فكم من مرة عبرت له وبطرق مختلفة عن رغبتها فى مجاراة أندادها فى الجامعة، بحيث تلبس مثلما يلبسون من ملابس أنيقة وتنفق بيسر. لكنها لا تحصل منه إلا على مصروف

متواضع لا يتيح لها التصرف إلا فى أضيق الحدود، وبما يسمح لها بالحفاظ على مظهر عادى بل وأقل من عادى فى أحيان كثيرة تدفعها للامتناع عن الذهاب إلى الجامعة، مثلما حدث يوم نسيت إحضار حذائها من عند مصلح الأحذية، وقد تذكرت ذلك وقت العشاء، فذهبت بحذاء أختها لإحضاره، لكن الدكان كان قد أغلق، وتصادف أن اليوم التالى كان يوم الإثنين، عطلة الجزمجى، فاضطرت للبقاء خلال ذلك اليوم فى البيت لأنه لا يوجد لديها حذاء آخر. وهو يلتمس العذر لها أيضًا، لأنها لا تدرك حقًا مدى صعوبة الحياة فى هذه الأيام السوداء التى لا يعلم متى تنتهى وتغور إلا الله لأنها لا تدرك أيضًا كم يكلفه مصروفها المتواضع هذا من جهد وعرق، ولا تعرف أن هذه الأرانب «النيلة» - كما تصفها دائمًا - هى السر الباتع الذى هداه الله إليه، ليواجه به متطلبات الزمن الصعب، والغلاء المتعاظم، وليجعل أسرته تعيش فى مستوى يحول بينها وبين مد اليد بالسؤال.

تنهد برضا مفضلاً ألا يبدأ يومه بالتفكير فى منغصات ونكد لا لزوم لها، خصوصًا بعد أن استقبله بصباح ندى ولدت فيه الأرانب.

ضغط براحته كتف زوجته شحيح اللحم، ثم طلب منها فى امتنان وضع بعض من النقود فى صندوق نذور الجامع القريب، حمدًا لله وتيمنًا بالخلف المبارك لأرانبه العزيزة، لكنها اعترضت على فكرته، لأنها قرأت أكثر من مرة فى صفحة الحوادث بالجريدة عن سرقة واختلاس فلوس صناديق نذور الجامع، ثم إنها ارتأت الاكتفاء بقراءة الفاتحة للأولياء، ومنح أم حسن أرملة بواب العمارة المتوفى مؤخرًا ذكر أرنب كبير لتبر به عيالها الغلابة، فهى أولى بالهبة وبفعل الخير من صندوق النذور الذى لا تضمن صرف فلوسه فى المفيد للناس. ولما أنهت كلامها قائلة له : «ثم إن أم حسن تحت رجلنا وطالعة نازلة تقضى الطلبات وجارية على لقمتها ولقمة عيالها، والولية مقدرة المعروف المعمول معها» تنهد وطلب منها إعداد طعام الإفطار، وأخبرها بنيته فى الحصول على إجازة مرضية من الشغل لمدة أسبوع يتفرغ خلالها للاهتمام بالأرانب وتوضيب قفصها، واحتفظ لنفسه

برغبته فى الحصول على إجازة سنوية بدون مرتب، ليجند نفسه بالكامل لتربية الأرانب ورعايتها.

وهو فى طريقه إلى عمله داخل سيارة النقل العام، بدت له الحياة ذات مذاق مختلف فى ذلك اليوم. فالجو لطيف مقبول، رغم حرارة شهر أغسطس المرتفعة، ورطوبته المعهودة التى تصيب الأبدان باللزوجة والعرق السخيف الذى لا تطاق رائحته المختلطة بروائح بصل الإفطار الفائحة من زفير الركاب. حتى النيل بدا فى عينيه أكثر بهاء وعظمة عندما مرت السيارة بجانبه فى ذلك الوقت، ولا يشبه النيل الحزين المنكسر الذى اعتاد أن يراه كل يوم قبل ذلك. كاد أن يصفر بلحن أغنية الدنيا ربيع والجو بديع، لكنه آثر الوقار احترامًا لشعيرات بيضاء لا يمكن تجاهلها تناثرت بوضوح فى شعر رأسه. كان أسامة يشعر خلال تلك اللحظات بما بات يؤكده لنفسه بين الحين والحين فى الشهور الأخيرة، من أن الحياة بدأت تقبل عليه، وتفتح ذراعيها له، بل وتعطيه ضوء الأمان الأخضر، لأن جيبه صار لا يفرغ من الفلوس أبدًا، كما أن المتطلبات الأساسية لبيته وعياله تجرى تلبيتها فى سهولة ويسر دون الصعوبات المعتادة التى كان يواجها قبل قيامه بمشروع الأرانب. غمره شعور عارم بالرضا والسكينة، وبأن الله أكرمه فعوض شقاه خيرًا بعد أن كد وتعب وتقلب فى أعمال عديدة مارسها فى النصف الثانى من أيامه بعد الانتهاء من عمله الصباحى بوزارة الصحة، وقبل القيام ببعضها على مضض، وبشعور لا يخلو من المرارة والضيق، فقد اضطر ذات مرة للعمل كبلاسير فى سينما درجة ثالثة بإحدى المناطق الشعبية تعرض ثلاثة أفلام دفعة واحدة فى كل حفلة من حفلاتها، وكان يتقاضى شهريًا خمسين جنيها لا غير مقابل إرشاد رواد هذه السينما إلى مقاعدهم المخصصة بصالة العرض. كان عليه خلال ذلك التعامل مع السمكرية والميكانيكية، وصبية المحلات، إضافة إلى البلطجية والشضلية وجميع الأصناف الواقعة من قعر قفة المجتمع والتى رأى كل لون وصنف من أنواعها، خصوصًا فى حفلات منتصف الليل التى كان يختتم بها عمله الممتد من حفلة الثالثة ظهرًا؛ ورغم كل تلك الساعات الطويلة التى كانت تمر عليه وكأنها دهر من الزمان، والتى يعود بعدها إلى بيته شاعرًا بجسده وكأنه جوال

ثقيل من الملح، وأنه لا يبقى من الحياة وحياة سوى الإلقاء ببنفسه على الفراش والنوم حتى صباح اليوم التالى، على الرغم من كل ذلك الإجهاد والتعب كان يبيت ليلته راضيًا مطمئنًا، بل ويعتبر نفسه من المحظوظين لأنه وفق فى الحصول على عمل إضافى يدر عليه مبلغا يساعد فى زيادة دخله المحدود، لأن الخمسين جنيهًا بالإضافة إلى بضعة جنيهات أخرى تتجمع لديه بين الحين والحين كإكرامية من بعض رواد السينما كانت بمثابة النواة التى تسند الزير بالنسبة له، إذ ساهمت فى تقليل عدد وجبات البصارة والعدس بنوعيه الأصفر وأبو جبة، التى كانت معدلاتها تتزايد اطراديًا مع اقتراب الشهر من نهايته. كما أنها لعبت دورًا حاسمًا فى تسديد القسط الشهرى لسخان المياه الذى كان لابد من شرائه رضوخًا لرغبة البنتين. لقد تحمل أسامة عمله هذا على مضض، وتعرف من خلاله على عالم لم يتصور يومًا وجوده فى هذه الدنيا كان يشعر بداخله بنوع من المهانة والألم، إذ اضطرته الظروف لمخالطة حثالة بشرية فاقت كل ماشاهده من أمثالها على شاشة السينما المصرية، إذ كان مع بداية عرض كل فيلم، يرى فيلما آخر على الطبيعة، موضوعه اللواط والمخدرات، والتعليقات البذيئة الصارخة، ولقد اكتشف ذات ليلة أن دورة المياه القذرة، التى كانت رائحتها المنتشرة فى جميع أنحاء صالة العرض تزكم أنفه وتساهم فى تزايد شعوره بالمهانة، هى مسرح آخر للرذيلة، إذ كانت تجرى فيها عمليات داعرة سريعة بطلاتها بنات ليل من الدرجة العاشرة، وأبطالها من هواة النوع. ذات يوم، اضطر أسامة لترك هذه الوظيفة، بعد أن تجسدت له المأساة التى يحياها، إذ ضبطه زميل قديم له فى الوزارة، متلبسًا بذلك العمل الدونى أثناء الليل صحيح أن زميله هذا كان يصطحب معه خلال الحفلة الأخيرة فى ذلك اليوم فتاة شابة صغيرة خمن أسامة من طريقة ملبسها المثير، وزينتها الصارخة وسلوكها الفج أنها واحدة من بنات الليل، لكن ذلك لم يمنع شعورًا بالخزى والمرارة اجتاحه وغمره، فلقد أدرك كم استخفت الدنيا به، وهان حاله، فتصبب عرقه، وصار كمن صب عليه سطل من الماء البارد، وارتبك، ثم راح يتلعثم وهو يتكلم مع الرجل محاولاً تبرير عمله، فقال مرة إنه يفضل تمضية الوقت فى عمل مفيد بدلاً من الجلوس فى المقهى ولوك سيرة كل من هب

ودب، وقال مرة أخرى إن صاحب السينما صاحبه وهو يعاونه من باب المودة وتمضية الوقت ليس إلا، ثم أقسم يمينا ثلاثيًا أن يشرب زميله وصديقته الكازوزة على حسابه، وتسلل خلال عرض الفيلم الثانى فى الظلام وقدم لهما كيسًا من اللب الأسمر وكيسًا من الفول السودانى المقشر من باب الزيادة فى الكرم ليتسليا ويستمتعا أكثر - رغم يقينه أنهما فى غنى عن متعته هذه، فقد شاهد زميله أكثر من مرة وهو يضم المرأة إليه ويتحسس صدرها - لكن كل محاولاته لم تمكنه من استعادة توازنه النفسى وشعوره بأن كرامته لم تهدر أو تمس، فقد ظل يحس بأن ريقه ناشف كحطبة، وبأن شيئًا كالحجر يقف فى زوره ويجعله لا يستطيع بلع ريقه، وقد اضطر أن يدخل دورة المياه ليغسل عينيه المغرورقتين بالدموع، فهو رغم كل شىء موظف حكومة محترم، وقبل كل شىء ابن ناس حميدى السمعة وينتمى إلى عائلة أصيلة طيبة، فأبوه هو رستم الليثى الذى كان والده ناظر زراعة الأمير طلعت باشا أحد أقرباء الملك فؤاد.

طافت بذهنه ذكريات مشروعه السابق لمشروع الأرانب، وهو مشروع تربية الحيوانات المنزلية الأليفة وطيور الزينة وأسماكها، الذى فشل فشلاً منقطع النظير، وكان مقره آنذاك شرفة الحجرة الداخلية التى تحتلها البنتان الآن. لقد اكتشف بعد فترة قصيرة من بداية المشروع عددًا من الثغرات الخطيرة فيه لا يمكن تجاوزها، فمثلاً كانت عصافير الكنارى الملونة الرقيقة، تظل فى حالة قلق بالغ، وتوتر عصبى دائم، بسبب حبسها داخل قفص ضيق لا تكف عن التطلع إليها فيه، والتلمظ عليها، القطتان الفارسيتان الرماديتان، وذكر القط السيامى الوحيد، الذين كانوا خميرة المشروع. أما المعارك بين ثلاثى القطط من جانب، وفريق كلاب الجريفون واللولو الصغير من جانب آخر، فقد ظلت مستمرة لا تنقطع، وخصوصًا أثناء الليل بعد أن اتخذ فريقا ذوات الأربع المتناحران من جميع أنحاء الشقة ساحة للقتال، وقد أدت تلك الحرب التى لا تهدأ أبدا إلى حدوث خسائر لا يستهان بها فى البيت؛ فبين فو.. فو، وخ.. خ، وهو.. هو، تكسرت أوان وأطباق من الزجاج والصينى، وفقدت حياة إلى الأبد أعز ما تملكه منها، وهو طبق الفاكهة المصنوع من الكريستال الوردى الذى كانت أمها قد ضمته إلى

جهازها وقت زواجها بعد أن اشترته من بائع ساكسونيا جوال مقابل خمسين قرشًا، بالإضافة إلى سترة رجالية قديمة من الصوف الكشمير كانت لأبيها. وقد تسببت تلك الحرب الحيوانية فى تعرض أسامة لأشكال من اللوم والتوبيخ المهذب من قبل الجيران كانت تجيء على صورة مذكرات احتجاج شفاهية ينقلها أبناؤهم المبعوثون بصفة رسمية إلى البيت، وتأتى جميعها بصيغة واحدة تقول «وحياتك يا عمى خلى القطط تسكت والكلاب تبطل هوهوة حتى نقدر ننام ونستريح» إضافة إلى ذلك، فقد اضطرت حياة لملاحقة مخلفات الكلاب الموزعة على نحو عادل فى كل ركن من أركان الغرف، فى محاولة دؤوبة لمنع كارثة بيئية يمكن أن تحدث فى البيت، وإلى جانب ذلك كانت تضطر للقيام برحلة يومية إلى السوق، لشراء نباشات الفراخ للقطط، وبقايا العظام من الجزارين للكلاب، لتعد لهم منها بعد سلقها وجباتهم اليومية اللذيذة، أما العصافير، فكان عليها أن تقدم لهم البرغل وأن تعتنى بقفصهم وتنظفه، فلما فاض الكيل بها، ونفد صبرها طويل الحبال الذى لا ينفد عادة ببساطة، أعلنت حالة العصيان العام، فامتنعت ليومين على التوالى عن الذهاب إلى السوق لشراء الطعام للقطط والكلاب بحجة أن رجليها متعبتان وأنها لا تقوى على المشيء، مما أدى إلى أن تأكل القطط والكلاب بقايا الخبز والطبيخ، بل ودفع الجوع واحدة من القطتين الفارسيتين إلى التهام قطع من الخيار المخلل على مضض، وهذا ما لم يقبله القط السيامى الذى رفض رفضًا قاطعًا النزول إلى الحضيض وفضل الموت جوعًا على العيش فى ذلة ومهانة فرفض أكل العيش واكتفى طوال هذين اليومين بصرصارين اصطادهما ليلاً فى غفلة من الجميع. ثم إن حياة صعدت من تمردها، فامتنعت عن طهى الأرز بالشعرية لأسامة الذى لا يمكنه أن يأكل أى طبيخ بدون أرز، وأى أرز بدون شعرية، ثم افتعلت خناقات صغيرة مع البنتين بخصوص عدم ترتيب حجرتهما، وترك الصابونة النابلسية تذوب فى الماء بعد استحمامهما، فلما لم ينتبه أحد لما وراء ذلك كله أعلنت صراحة أثناء تناولهم الغداء أن الكيل فاض بها، وبلغ السيل الزبى، وردت على زوجها المستنكف عن بلع اللقمة بدون أرز، بأنها ستترك البيت فورًا إذا لم تجر عملية إخلاء سريعة للحيوانات خلال أربع وعشرين ساعة، ثم

إنها شرعت تلم هدومها قبل الانتهاء من الأكل، وراحت تكدسها فى حقيبة صاج كانت مرمية تحت السرير منذ سنوات بعيدة، بدت كواحدة من حقائب كنوز قاع البحار التى يعثر عليها صدفة، في الأفلام الأميركية القديمة.

لما تأكد أسامة من أن حياة راكبة دماغها، وسادرة فى غيها، تراجع وأقسم يمينًا بالثلاثة أن لا كلاب ولا قطط فى البيت بعد ذلك اليوم، ثم أنه بعد أن شرب شاى مابعد الغداء وقيل لمدة ساعة، قام وارتدى ملابسه واصطحب الكلاب معه لترحيلها إلى محل متخصص فى بيع الحيوانات والطيور الأليفة منها وغير الأليفة، كالقرود والصقور وجميع أنواع الكلاب ماعدا البلدى والأرمنتى على وجه التحديد، ربما مشاركة منه فى سياسة الانفتاح الاقتصادى، وعملاً على تنفيذ سياسات البنك الدولى المتعلقة بعدم تشجيع المنتج المحلى والصناعات المحلية، أما القط السيامى المتعالى الأنف فهو الوحيد الذى جرى الاحتفاظ به فى البيت تقديرًا لنظافته وعزة نفسه، ولكونه ذكرًا لا خوف عليه من العشار، بينما عاشت القطتان الفارسيتان محنة حقيقة بعد قرار أسامة الجرىء، إذ جرى بيعهما لسيدة من هواة تربية الحمام، تمقت القطط بالوراثة، وتعتقد أن تلك الحيوانات هى المكمن المفضل للأرواح الشريرة، فكانت تحبسهما بجوار أقفاص الحمام السودانى والمالطى التى وضعتها على سطح منزلها، فيما يفترض أنه كمين لأى فأر عابر تسول له نفسه الاقتراب من الحمام أو من الحبوب التى يطعم بها. وقد عانت القطتان معاناة فظيعة بسبب الجوع الشديد والحبس، لأن هذه السيدة لم تكن تقدم لهما طعامًا يذكر مكتفية بالماء أملا فى أن ينشطا طوال الوقت لصيد الفئران والهوام طالما بقيت معدتاهما خاويتين تصرخان من الجوع. هكذا استتب الأمن فى البيت مرة أخرى بعد أن ظلت حياة فى قواعدها سالمة، وقررت إهداء حوض أسماك الزينة - وهو آخر ما تبقى من المشروع - إلى ابن عم لأسامة، بمناسبة زفافه وتأثيثه منزل الزوجية، وهو القريب الوحيد الذى احتفظوا بعلاقة اجتماعية معه بسبب تقارب مستواه المعيشى من مستواهم. وقد ضربت حياة بهذا الإهداء عصفورين بحجر واحد، فتخلصت من الأسماك التى طالما أصابتها بتقزز لأنها تلتهم أبشع ما خلقه الله من وجهة نظرها وهو الدود، كما أنها سددت

ركنا وأدت واجبًا كان لابد منه مع ابن العم، بالإضافة إلى عدم تحميل ميزانية البيت أية أعباء جديدة لشراء هدية من السوق خصيصًا لهذه المناسبة.

كان أسامة يداخله إيمان عميق بأن مستقبله سيزدهر مع الأرانب، وأن تلك الكائنات الهادئة الوديعة ذات الفراء الأملس الناعم، هى الحل لكل مشكلات حياته، والنهاية السعيدة لمعاناته اليومية التى طالما واجها منفردًا بعد وفاة أبيه وزواجه وإنجابه. فهو بدون أهل تقريبًا، بعد تقلص علاقاته الاجتماعية وانكماشها مع معظم أقارب أمه وأبيه لأنه موظف صغير محدود الدخل لا يمكنه مجاراة حياتهم الميسورة كتجار فى السوق، ضالعين فى أهم نشاط اقتصادى عرفته البلاد خلال السنوات الأخيرة وهو المضاربة فى العقارات والأراضى. ومنذ أن تزوج أسامة وأنجب البنتين ومرتبه يتضاءل دوما أمام تمدد الأسعار والمطالب الأسرية التى لا تنتهى. حتى أنه بات ينسى تمامًا مسرات زمنه الأول الصغيرة، والتى كانت تتلخص فى الجلوس على المقهى كل مساء ولعب الدومينو المفضل لديه على سائر ألعاب التسلية الأخرى. بالأحرى تخلى أسامة عن دفع نصف جنيه كان ينفقه على المشروبات بالمقهى يوميًا، بعد أن حسب حسبته ووجد أنه من الأفضل توفير خمسة عشر جنيهًا كل شهر، لشراء كيلو عنب بناتى، أو كيلو بلح أمهات، أو رطب لتبليع وجبة العشاء فى الصيف، أو ابتياع البرتقال أبو سرة، والموز الذى تحبه ابنته الصغرى فى فصل الشتاء.

ظل سارحًا بأفكاره وهو واقف فى السيارة، يرقب من شباكها أولئك المنتظرين عند كل محطة تقف فيها. كان يتأمل وجوهم المكدودة الشاحبة، ونظراتهمُ الميتة المنطفئة البادية من عيونهم بلا معنى. أحس أنهم كائنات تحيا كما الموتى، كائنات تأتى إلى الحياة وتغادرها وكأنها لم تكن فيها أبدًا، كان يدرك أنه يشبهم بشكل من الأشكال، إنسان بلا معنى، أتى إلى الحياة وسيتركها ذات يوم وكأنه لم يكن فيها أبدًا، فهو إنسان بلا لون، بلا طعم، برائحة، مثل كل أولئك الذين يراهم واقفين على المحطات ينتظرون وكأنهم لا ينتظرون إلا الموت، فكل ما فعله فى هذه الحياة، هو أنه تزوج وأنجب ولا شىء أكثر من ذلك، لا شىء أكثر مما تفعله أية حشرة تافهة أو دودة صغيرة أو حيوان أعجم من مخلوقات الله الكثيرة. زفر

بحرارة وهو يتحسر على حاله، فكم حلم أن يفعل شيئًا ذا معنى فى الحياة، وكم تمنى أن يكون متميزًا لافتًا للانتباه على نحو من الأنحاء، مثلما تشوق لأن يحب ويعشق بعنف، حتى يصبح نادرة يتندر بها الناس، لكنه على أية حال، لم يتجرأ أبدًا على أن يكون قيسًا، فهو مدرك لعدم وسامته. وحلم أن يكون مطربًا مشهورًا يدخل كل بيت ليحطم قلوب العذارى، لكنه لم يجرب الغناء على الملأ أبدًا، ربما بسبب النتائج السلبية الشديدة التى كان يحصل عليها دومًا كلما شرع فى ذلك أثناء تلييف جسمه فى الحمام، لكن شعورًا عميقًا بسوء الحظ ظل بداخله حتى اليوم، لأنه كان ذات يوم قاب قوسين أو أدنى من الشهرة، بل وكاد يقف على أولى عتبات القيمة والمعنى، لولا أمه جازاها الله ورحمها، فقد كان مولعًا أثناء دراسته الثانوية بتقليد أصوات الحيوانات، بل ربما كانت محاكاة أصوات القطط والكلاب والحمير والخراف والبط والإوز وحتى الأرانب، هى الهواية الوحيدة التى عرفها على مدى تاريخه البشرى، وهى الهواية التى اكتشفها ذات يوم بالصدفة، إذ كانت لدى أمه قطة فى البيت، راح ذات مرة يسلى نفسه بتقليد مواء صغارها الذين وضعتهم منذ فترة، فلاحظ أن القطة قد بدأت تتنبه وترتبك وأخذت تموء بدورها بحثًا عن صغارها، وهكذا بدأت تستهويه اللعبة، فراح يموء بين الحين والحين، مقلدًا صوت القطط، وبالطبع اكتشفت القطة الأمر بسرعة، لكن أمه لم تصدق نفسها عندما سمعته، مثلما تعجب كل الذين سمعوه يموء بعد ذلك، إذ أنهم لم يستطيعوا التمييز بين صوته وبين صوت أى قط شرس يستعد لمعركة، أو قط جائع يتسول، أو قط يطلب العشار فى أنغام متنوعة من واعوا، واعوا، واعوا.

ذات يوم اشترك أسامة الذى كان صيته فى مجال التقليد الصوتى للحيوانات قد ذاع وانتشر فى حفل مدرسى، وقدم فقرة فردية أدى خلالها العديد من أصوات المستأنس والوحشى، فحاز على إعجاب شديد وتصفيق حاد من جمهور الحاضرين الذين ظنوا أن حمارًا حقيقيًا يقف أمامهم على المسرح وينهق، فالتقاه واحد من الحضور يعمل فى الإذاعة وقدمه لصاحب برنامج جرب حظك الذى أفرد له بدوره حلقة كاملة لاقت نجاحًا جماهيريًا كبيرًا، مما دعا الإذاعة إلى بثها عددًا من المرات بعد أن اكتشف معد البرنامج عبر الخطابات الكثيرة التى

وصلته، مدى عشق الجمهور لأصوات الحيوانات، وقد دهش أحد الخبراء فى الإذاعة جدًا لذلك، لأن الحمير تنتشر وتتوزع على جميع أنحاء الخريطة الوطنية، كما أن الإحصاءات تشير إلى أن نصيب كل مواطن داخل العاصمة هو أربعة من الكلاب والقطط، ناهيك عن بقية الأنواع الأخرى. وقد عرضت إدارة البرنامج فى الإذاعة على أسامة وقتها أن تقيده بسجل الممثلين العاملين فيها ليساهم فى بعض التمثيليات الإذاعية المتطلبة لدراما تتخللها أصوات بعض الحيوانات لكن الغضب الشديد الذى قوبل به من أمه جعله يحجم عن الاستمرار فى طريق الحيوانات هذا، وذلك بعد أن وشت به قريبة لأمه، استمعت إلى برنامج جرب حظك، فأخبرتها أنه جرى ذكر اسم ابنها ثلاثيًا فى البرنامج، وأن الجمهور ضحك كثيرًا خصوصًا عندما قلد صوت ذكر البط السودانى، والديك الرومى عندما ينفش ريشه ويستثار، فقامت أمه بتوبيخه وزجره وقالت له أنه يرغب فى تمريغ اسم العائلة فى الوحل ويريد أن يجعلها مسخرة للناس بعد أن تحول إلى مهرج كمهرجى السيرك، بل إن مهرجى السيرك أفضل منه لأنهم يضحكون الأطفال ولا يقلدون أصوات الحمير والكلاب. وبعد ذلك عيرته بخيبته فى المدرسة وبلادته وذكرته بشهادته الشهرية التى تكسف، وتغم البال والخاطر، وبرسوبه المتكرر فى مادة الأحياء وبالكعكة الحمراء المحيطة بالدرجة التى حصل عليها (ستة من عشرين)، ثم بكت وتحسرت على خيبة أملها فيه، وفى الحياة، ونادت على زوجها العزيز (أبوه) كى يخرج من تربته ويجىء ليراها ويرى ما فعلته الدنيا فيها، وخيبتها التى مالها وصف. وانتهى الأمر بأنها أخذت منه تعهدًا شفاهيًا وفى حضور القريبة التى ظلت تهدئها، وتنهره أيضًا، بألا يعود إلى فعلته هذه مرة أخرى وإلا فأنه لن يكون ابنها ولن تعرفه، وربما وجدها ميتة ذات يوم بسببه، من شدة الغيظ وفقع المرار، إذا اكتشفت عودته إلى إصدار هذه الأصوات، وبناء على تعليمات القريبة، قام وقبل رأس أمه واعتذر لها. لكنه رغم كل هذه المرارات القديمة التى لا تفتأ تنبعث من داخله وتسمم روحه، ورغم كل الإحباطات الحياتية المتتالية التى لاقاها، ما زال يشعر بأن ثمت أملاً فى الحياة، أملاً فى أن يكون ويتحقق ويصبح كائنًا ذا معنى. والأمل الآن يبرق مجددًا بداخله من خلال

مشروع الأرانب الذى بأت يعول عليه كثيراً، ويرسم من خلاله حياة طيبة ميسورة، ربما منحته فرصة للاسترخاء والبحث عن المزيد من أجل التحقق والوجود على نحو أفضل.

راح يتذكر الأرانب بعيونها المستديرة البارقة المحدقة، وكأنها فى حالة اكتشاف ودهشة أزلبين تذكر حادث الولادة الجماعية الذى استقبل به يومه، واعترته حالة من التقدير والامتنان لتلك الكائنات الطيبة، المعطاءة بلا حدود، بل والرزينة المؤثرة للهدوء وعدم الإزعاج إذا ما قورنت بالدجاج والديكة أو الإوز والبط. صحيح أن نظراتها تبدو بلا معنى، لكن شكلها بالنسبة له لا يخلو من ظرف وطرافة وهى تلتهم البرسيم الأخضر الندى فى الصباح، أو عروش الجزر عند الظهيرة؛ كم يكون منظرها ممتعًا لعينيه عندما يختلط لون العشب الأخضر بألوانها البيضاء والسوداء والبنية فى تشكيلات بصرية رائعة.

كان يحلم خلال تلك اللحظات بترتيب حياته على أساس مشروع ينمو ويكبر ويتخطى حدود الشرفة والبيت، ينطلق به إلى عالم رجال الأعمال المرموقين، مشروع للأرانب يتحقق معه مثلما لم يتحقق أبدًا من قبل. نزل من الأتوبيس وسار متجها إلى الوزارة حاملاً بيده كيسًا قماشيًا فى داخله أرنبان كبيران. كان أسامة قد صمم ذلك الكيس بنفسه وحاكه من قماش مخلاة العسكر السميك حتى لا يتسنى لأى إنسان التكهن بما فى داخله وقد تفتق ذهنه عن فكرة تبطين الكيس بالبلاستيك المتين ضمانًا لعدم تسرب أية فضلات أو أوساخ محتملة من الأرانب يمكن أن تلوث ملابسه عند حمله فى الطريق.

فى حوالى الساعة العاشرة والنصف، دخل أسامة غرفة المدير العام ليوقع طلب تحويله إلى الطبيب المختص ليحمل منه على الإجازة المرضية، وهو الطلب ذاته الذى كان قد سبق له توقيعه من رئيسه المباشر. وعندما رفع المدير رأسه الصغير عن الأوراق التى كان يقرؤها أمامه، واكتشف أن الواقف أمامه هو أسامة رستم موظف المواليد بقسم الإحصاء بالوزارة، هتف متسائلاً وهو يشرع فى قراءة الطلب :

- خير يا أسامة، مالك؟ كل يومين إجازة، مرة عارضة، ومرة مرضية، شكلك فى منتهى الحلاوة والحمد لله.

رد أسامة بمسكنة وصوت خفيض قائلاً :

- أبداً والله يا أستاذ فهمى، من يومين والكلى متقلبة على، عاوز أعمل أشعة، لأنى شعرت الصبح بحسرة بول شديدة، وحرقان غريب.

واصل المدير كلامه وتساءل :

- ألف بعد الشر عنك يا أخى اشرب عصير قصب على الريق واغل حلف بر، صحيح أنه مر جداً، لكنه ممتاز للكلى ويزيل التعب منها بسرعة. لكن لى سؤال وا& يا أسامة بخصوص الأرانب، لأنى شفت عبدالحميد الساعى الصبح ومعه كيس قماش كاكى، فلما سألته، قال لى إن الكيس فيه أرانب تخصك.

فوجىء أسامة بكلام المدير، فرفع يده إلى مؤخرة رأسه وتحسس خصلة الشعر المقاربة لقفاه فى حركة لا إرادية يقوم بها عادة كلما شعر بأنه فى ورطة ما، أحكم نظراته فى عينى الرجل الجالس قبالته محاولاً تقصى ما لديه من معلومات تتعلق بمشروع الأرانب، وراح يعمل ذاكرته أثناء ذلك، خشية أن يكون قد سرب عن غير قصد خبراً بخصوصهم فى الوزارة، لكنه تأكد أنه لم يبح لأى إنسان فى العمل بكلمة واحدة عن ذلك، حتى ولا زميله المقرب إليه فى قسم الإحصاء، شاعر العامية الرقيق الذى يجلس عادة إلى جواره، والمختص بحل الكلمات المتقاطعة.. وحتى لو كان المدير قد تناهت إليه أية معلومات تخص الأرانب، فليكن مايكون، وليذهب إلى الجحيم، لأنه سيتجاهل كلامه تماماً، ويستهبل حتى لا يفتح على نفسه باباً فيطلب المدير منه أرانب لا يسدد ثمنها، أو يضطر لمجاملته فيبيعها له بثمن أقل مما يبيعه للناس.. ثم إنه إنسان لا يحب أن يعرف زملاؤه ورؤساؤه عنه أى شىء يتعلق بحياته الشخصية والعائلية خارج العمل، لذلك أسعفته قريحته المستعدة لمثل هذه المواقف بكذبة سريعة استخرجتها من أرشيف أكاذيبه الكبير، المكتسب عبر سنوات طويلة من العمل فى الحكومة، فكح وتنحنح قليلاً ثم قال :

- أبدًا. لى قريب مريض فى مستشفى الحميات، قلت لروحى أعوده، وأدخل عليه بأرنبين هدية لأن لحم الأرانب خفيف، ثم إنه أفضل من الحلويات بالنسبة له، والحقيقة أنى اشتريتهم من واحد معرفة، عنده بطارية أرانب فوق سطح بيت أمه، ودائمًا أتعامل معه لأن الجماعة عندى فى البيت أفضل أنواع الظفر عندهم هو الأرانب، والرجل صاحبى أمين ومضمون جدًا، وبضاعته ممتازة. استمع المدير لمرءوسه على مضض، وكأنه لم يقتنع بما قاله، ثم سأله عن سعر كيلو الأرانب، فأجابه قائلاً :

- بستة وربع، أرخص من السوق فى الحقيقة، ثم إنه مضمون من ناحية الأكل والنظافة، لأن الرجل، كل الوقت، يحط لهم البرسيم وعروش الجزر الأصفر... يعنى أرانب ممتازة والله. تشترى وأنت مغمض عينيك.

أخيرًا وصل الرجل إلى بيت القصيد فقال :

- عال.. عال والله لو قدرت، تخلينى أجربه يا أسامة، وتشترى لى منه اثنين أكون فى غاية الشكر، يعنى هات لى أرنبين كل واحد فى حدود كيلو وربع، لأنى أفضل الأرانب الصغيرة. وبحركة مسرحية مد الرجل يده إلى جيبه كمن سيخرج نقودًا ليدفع، فبادره أسامة بقوله :

- خلى الحساب يا أستاذ فهمى لما أجيب لك الأرنبين، كلها مسائل بسيطة، لكن أنا عاوز أعرفك أن صاحبى يبيع الأرانب على حالها، يعنى صاحبة، وكل إنسان يتصرف بمعرفته فيها. رسم الأستاذ فهمى هرمين صغيرين بحاجبيه الكثيفين استنكارًا، فالمفروض أن يأتيه أسامة بالأرنبين مذبوحين ومسلوخين وبلا مصارين، كما درجت العادة، لكنه لم يتراجع عن طلبه بل عززه بطلب جديد من أسامة ألا وهو أن يميل فى طريقه على أى فرارجى، ليذبح الأرنبين ويسلخهما، ويأتيه بهما جاهزين للطبخ.

تنهد أسامة وزفر، فهو يفضل بيع الأرانب حية كلما أمكنه ذلك حتى يقلل من تعب حياة فى عمليات السلخ والتنظيف التالية للذبح، لكنه أصبح مضطرًا لذبحهما له على أية حال، مثلما يفعل مع بعض الزبائن، فالرجل وقع طلب

الإجازة المرضية مشكورًا دون تعنت، والطبيب سيوافق عليها أيضًا ولابد، بعد أن يقدم له الأرنبين على سبيل الهدية. «أرنبان مقابل إجازة لمدة أسبوع أقضيه فى البيت متفرغًا لمشروع الأرانب، عظيم جدًا.» قال لنفسه وهو يتمنى حل مشكلة القفص خلال هذه الفترة وشراء علف من بقايا الدماء والأسماك المجففة يباع جاهزًا، عرف مؤخرًا أنه مفيد جدًا فى نمو الأرانب بسرعة وزيادة وزنها كما أنه يتمنى عمل مزلاج متين لباب القفص بدلاً من المزلاج الحالى الذى يستسلم لهبات الهواء أحيانًا فينفتح بسهولة، ناهيك أنه يريد أن يريح جسده المنهك يوميًا من رحلة الذهاب إلى الشغل والعودة منه، وركوب السيارة العامة المزدحمة بالركاب. رجع إلى البيت ظهرًا بعد أن تمت مهمة الإجازة بنجاح، فقد شكره الطبيب على لمسة الأرانب الناعمة والتمس منه أخرى مثلها فى المرات القادمة لمساعده الذى يدون الإجازات فى السجل لكنه ما إن فتح باب الشقة، ودخل البيت حتى سمع زعيق ابنته الصغرى سامية وهى تصيح غاضبة :

ـ أرانب.. أرانب، عيشتنا أصبحت أرانب فى أرانب، كل يوم الأكل بالأرانب، عاوزة سمك، فراخ، أى نوع من أنواع اللحم غير الأرانب، يا عالم حرام عليكم، كأننا فى سجن أو معسكر جيش، والأرانب مقررة علينا وكأنها قدر.

ثم سمع صوت أمها وهى ترد عليها بغضب أشد وتقول :

ـ والله أصبحت غلسة يا سامية، وسخيفة جدًا، قاعدة تتبطرى على النعمة وتقولى أحب وأكره، ناس ياما نفسها فى نسيرة أرنب أو نسيرة ظفر، وأنت لا حمد ولا شكر، قولى يا شيخة الجود فى الموجود والحمد لله وإلا زالت النعمة من خلقتك، حرام أنه لا عاجبك العجب ولا الصيام فى رجب.

ثلث أسامة صراخهما من مكانه فى مدخل الشقة مطالبًا إياهما بالسكوت، لأن زعيقهما وصل إلى مدخل العمارة. خلع حذاءه ودخل غرفة المعيشة حيث ألقى بجسده المتعب على أول كرسى قابله، ثم أعلن للمتخاصمين فى المطبخ أنه جائع، وطلب من حياة أن تسعفه بأية لقمة لأنه سيسقط من طوله من شدة الجوع. قام إلى التلفزيون فشغله وعاد إلى مقعده ليتابع نشرة أخبار الظهيرة التى كان يجرى

بثها فى ذلك الوقت اكتشف أنها لا تختلف كثيرًا عن نشرة اليوم الفائت واليوم الذى قبله بل، ونشرات الأخبار التى تبث منذ شهر مضى. حك رأسه مللاً ثم فك أزرار قميصه، وظل يتابع أخبار النشرة فى الوقت الضائع حتى إعلان زوجته أن المائدة جاهزة لكى يأكل. لفت نظره أن مشهد قوات الطوارىء الدولية فى يوغسلافيا المواكب لكلام المذيعة، هو المشهد ذاته الذى رآه منذ يومين مصاحبًا لخبر آخر عن المأساة ذاتها، جنود الأمم المتحدة بقبعاتهم سماوية اللون يهرولون ويركبون العربات دون أن يفهم المرء معنى لذلك. كان يفكر فى الأرانب وفى إجازته المرضية التى كرسها خصيصًا لرعايتها كما فكر فى أرنبى المدير واكتشف أن كذبة صاحبه الذى عنده بطارية أرانب، كانت فكرة وجيهة يمكن أن يعممها داخل الوزارة، التى يمكن أن تصبح سوقًا ممتازًا للأرانب، وسرعان ما حسب حسبة بسيطة اكتشف بعدها أنه لو باع عشرين أرنبًا كل شهر فى الوزارة، بمعدل وزن كيلو جرامين لكل أرانب، لكسب ما يزيد عن ضعف مرتبه الشهرى الذى يتقاضاه مقابل عمله فى الوزارة بعد واحد وعشرين سنة خدمة.

أفاق أسامة من أفكاره وحساباته على بداية ندوة اقتصادية أعقبت نشرة الأخبار، تتناول المشروعات الصغيرة وتنميتها فى الريف والحضر، كان ضيف الندوة المتحدث أستاذًا جامعيًا وخبيرًا اقتصاديًا ووزيرًا سابقًا، راح يتناول سياسات الأمم المتحدة فى تمويل هذا النوع من المشروعات البيئية اللازم لنمو بلدان العالم الثالث والذى يعتمد على أساليب إنتاجية محلية ولا يحتاج إلى تكنولوجيا متقدمة ورأس مال كبير. أغلق أسامة التلفزيون وسار إلى زوجته التى بدأت فى إضافة الثوم المقلى إلى الملوخية وقال لها :

- تعرفى ياحياة. طقت فى دماغى فكرة، لو تحققت، نكون وصلنا فعلا، فلو قدرنا واشترينا أية أرض صغيرة، نعمل فوقها مزرعة أرانب، نقدر بعدها أن نطلب أى قرض صغير على سبيل المساعدة من الأمم المتحدة.

حركت حياة المغرفة فى وعاء الملوخية لتقليبها، ثم تذوقت بها بعضًا من الطبيخ، فلما اطمأنت إلى درجة ملوحته، نظرت إلى زوجها من تحت إلى فوق وقالت له باستخفاف:

- يعنى الأمم المتحدة فاضية لأمثالك يا أسامة، معقول تعطيك الفلوس لأجل بطارية الأرانب.

أخذ أسامة يشرح لها بحماس ما تابعه فى ندوة التلفزيون، وكيف أن الخبير المتحدث، أكد على ضرورة المشروعات الصغيرة، صحيح أنه لم يذكر الأرانب بالاسم، لكن لم لا، أليس مايقوم به فى الشرفة من تربية الأرانب، يعتبر مشروعًا صغيرًا أيضًا، قابلاً للتطوير بحيث يسمح بالحصول على قرض.

واصلت حياة تقليب ملوخيتها وهى تستمع بأذنين نصف مفتوحتين لما يقوله رجلها، كانت تشغلها فكرة واحدة هى أن أسامة عاد إلى عادته القديمة فى بناء مشاريع هوائية وهمية لا وجود لها إلا فى أحلام يقظته. كانت تعتقد أنه مريض مرضًا خفيفًا بجنون العظمة ربما كان مرجعه أصالة عائلته، والحياة الطيبة التى عاشها فى طفولته فى بيت جده ناظر الزراعة، والتى كان يحب أن يتذكر بعضًا من تفاصيلها بين حين وآخر، فيقص عليها كيف كان يأكل بملاعق من الفضة الخالصة، وكيف كانت قمصانه الداخلية من الحرير الهندى المفتخر، وكم ركب عربة جده ذات الأفراس الأربعة المطهمة. وكانت حياة فى البداية تظن أنه يبالغ بعض الشىء عندما يسترسل فى مثل هذه الذكريات وأنه يضيف من عندياته وقائع لا أساس لها قط، لكن الطريقة المؤثرة التى كان يتحدث بها عادة، وحماسه الشديد، جعلاها تقتنع فى النهاية بصدق ماكان يقصه عليها.

ظلت تستمع إليه بلا مبالاة، رغم الجدية واليقين الكبيرين اللذين تمتلىء بهما نبراته، ولم تنتبه إلى نظراته المتلمظة المتطلعة إلى مايحيط بمعصمها الأيمن من ذهب. السواران اللذان كانت قد اشترتهما بعد أن دبقت قليلاً من مصروف البيت، وأضافت ما ادخرته من هذا إلى فلوسها المتحصلة من نصيبها فى ميراث أبيها.

تابع أسامة شرح وجهة نظره لحياة فى محاولة جديدة لإقناعها فقال :

- لو تمكنا ياحبيبتى من شراء قيراطين بالعدد، حتى لو فى أرض صحراوية وبنينا مزرعة أرانب، تبقى خطوة عظيمة. لأن الأمم المتحدة حسب كلام التلفزيون

تقبل فى هذه الحالة أن تعطينا التمويل. لكن فى وضعنا الحالى صعب أن نتكلم ونقول والنبى يا أمم يا متحدة مولى لنا مشروع أرانب فى البيت. تبسمت حياة دون أن تدرك ما يرمى إليه وعارضته بقولها :

ـ طيب، عظيم، لكن القراريط يا سيدى تلزم لها فلوس! وانت عارف أنك يد وراء ويد قدام، وعمال تقول ياهادى استر، هل تعرف أن فاتن بنتك محتاجة إلى درس كيمياء حيوية، والدكتور طلب منها ألفين من الجنيهات، ألف مقدم وألف عند نهاية الحصص، شعر أسامة أن مفاصله سابت قليلاً، فكل ما ادخره بعد تعبه وشقاه فى مشروع الأرانب لايزيد عن ألف وخمسمائة جنيه لا غير، وهو يفكر خلال هذه اللحظات جديًا فى شراء الأرض، وفى مصارحة حياة بضرورة بيع سواريها، ليضيف ثمنها إلى مبلغه المدخر ويشترى بما يتحصل القيراطين إن أمكنه ذلك.

رد على زوجته بغيظ :

ـ بلا دروس كيمياء حيوية بلا كلام فارغ، المفروض أن تنتبه البنت إلى دروسها وتذاكر كيمياء حيوية يعنى هى بعد ما تتخرج من الجامعة سيصبح وضعها أفضل؟! الأمور لن تختلف فى أى شىء يا أختى، لأنه مستحيل أن تشتغل بسرعة؛ الدنيا مقفلة والبطالة مخلية الشباب على قفا من يشيل فى كل مكان.

تركت حياة مابيدها، وضربت كفا بكف معلنة غضبها من كلامه وتساءلت إن كان يريد لابنته أن تترك الجامعة ليستريح، أو أن تظل ترسب كل سنة بسبب الكيمياء الحيوية التى تعيد دراسة السنة النهائية للمرة الثالثة من تحت رأسها، وأن البنت لو كانت حصلت على الدرس الخصوصى عند الأستاذ إياه من أول سنة، لكانت متخرجة من الجامعة قبل عامين.

لم يعرف أسامة بماذا يرد عليها، كان مستوعبًا منطقها ومقتنعا بصحته لكنه كان يشعر أيضًا بضيق بالغ، وعذاب من ينفخ فى قربة مقطوعة دون جدوى، فطالما حلم بالتقدم خطوة إلى الأمام، وتمنى التغيير والانتقال بحياته وحياة أسرته الصغيرة من عالم الشقاء والمعاناة إلى حافة الراحة والأمان. لقد حصل

على إجازة مرضية لمدة أسبوع نوى توضيب قفص الأزانب خلاله، فهو يريد لمشروعه الصغير أن يكبر وينطلق، بل إنه يحلم دائمًا بالاستقالة من عملة نهائيًا والتفرغ تمامًا للأرانب التى اكتشف أنه يمكنه لو رعاها واهتم بها كما يجب أن يحصل منها على مدخول شهرى كبير، لا يمكن مقارنته بأى حال من الأحوال، بما يتقاضاه من وزارة الصحة، ولو أن لديه الإمكانات والمكان الملائم. لتوسع فى مشروعه فورًا، ثم إن ماعرفه اليوم من ندوة التلفزيون بخصوص الأمم المتحدة، نبهه وحمسه للغاية وأشعره بضرورة التعامل مع مشروع الأرانب بجدية أكثر؛ فهو مشروع ذهبى يدر أرباحًا مجزية لا بأس بها.

سرح أسامة بأفكاره وذهب بعيدًا مثلما يفعل عادة كلما تمنى أمنية من الأمنيات، تصور نفسه وقد تملك قطعة أرض أقام عليها مزرعة أرانب ضخمة وفقا للأصول العلمية الحديثة فى تربية الأرانب، مزرعة يسميها «الأرنب الذهبى» وتصور نفسه جالسًا خلف مكتب فخم فى مبنى الإدارة يتكلم فى إعلام تلفزيونى عن إنتاج المزرعة بصفته صاحبها وراعيها. صمم أسامة إعلانًا سريعًا عن المزرعة، ثلاث حسناوات شقراوات يحطن به وهن يتراقصن ويتمايلن، بينما هو يتحدث عن مزايا لحوم الأرانب اللذيذة ثم يعلن أن سر السعادة يكمن فى تذوق لحم الأرانب الذهبى، وبعد ذلك تقول أجمل الفتيات فى لقطة مكبرة تبرز شفتيها المثيرتين وأسنانها الوضاءة وأكبر مساحة ممكنة من صدرها الممتلىء أن الأرنب الذهبى هو لغة العصر وسمة التطور.

أفاق أسامة من سرحانه على صوت زوجته وهى تقول :

- أنت قاعد فى مطرحك، يا الله قم، غير هدومك واغسل يديك لأن السفرة جاهزة.

رن جرس الباب، وذهبت سامية لتفتح وعادت بصحبة فتحية بنت الجيران، وقد جاءت كمبعوثة من أمها وحاملة لهدايا أبيها العائد من عمله فى الخليج منذ يومين.

هنأتها حياة بسلامة وصول الأب، وشكرتها على الهدايا، مؤكدة أنها لا بد أن تزورهم مع أسامة لتحية العائد، فلما انصرفت الفتاة فتحت سامية كيس الهدايا،

لتجد بداخله قطعة قماش بوردات كبيرة ذات ألوان فاقعة، ونصف كيلو شاى خشن، ومثله تقريبًا حب فلفل أسود.

تنهدت الأم بارتياح شاكرة الجيران أصحاب المعروف، ولفتتهم الكريمة ثم إنها توجهت لزوجها قائلة :

- ربنا يخليه لعياله، سفره إلى الخليج حل لهم مشاكل ما لها حصر. بكره ربنا يكرمنا، وفاتن تتخرج وتشتغل مدرسة وتسافر لبلد من البلاد.. والنبى يا أسامة، هات من القفص فردتين لنرد هدية الحاجة أم فتحية.

نظرت سامية بتأفف إلى هدية الجيران وقالت :

- لون القماش فلاحى جدًا، مستحيل أحطه على جسمى، ثم إن الألياف الصناعية فظيعة فى الحر، إياك يا ماما تقولى فصلى القماش يا سامية، أنت وأختك.

انفجرت الأم فى البنت التى لايمكن إرضاؤها أبدًا وقالت :

- يعنى ترميه، نرمى القماش، أقول للناس ردوه لأنه ألياف صناعية وذوقكم بلدى. خلى عندك ذوق، وحطى فى عينك حصوة ملح، كفاية إن الرجل فكر فى هدية لنا.

خرجت البنت من المطبخ وهى تبرطم حانقة، وخرج أبوها إلى الحمام ليغتسل بعد أن تابع المشهد كله دون تعليق لأنه لا يفهم فى القماش كما تقول زوجته. لكنه شعر بالضيق بسبب المشاحنات التى لا تنتهى بين امرأته وابنته الصغرى. كان يجد الأم محقة دائمًا، ويعذرها كثيرًا نظرًا لصعوبة محاولاتها الدءوبة لجعل حياة ابنتيها تسير على نحو أفضل، لكنه كان يكن إعجابًا خاصًا لصغيرته المشاغبة، فهى متمردة، ذكية، ترفض الانصياع للأمر الواقع، وتنشد الاختلاف عن الآخرين دائمًا، وكم تمنى لو كان مثلها فى أى يوم من الأيام وامتلك هذه القدرة الهائلة على المحاجة والرفض، لكنه لم يكن مثلها أبدًا، لم يستطع قول «لا» فى أي وقت من أوقات عمره، لم يقل «لا» لأمه أبدًا، حتى عندما كبر ونضج ودخل ديوان

الرجال، وأصرت على تزويجه من حياة، لمجرد أنها سترث عن أبيها ربع بيت قديم في حي المنيرة، فحياة لم تكن في يوم من الأيام فتاة أحلامه، فهي قصيرة بثديين صغيرين، بينما هو يفضل، ومازال، المرأة الريانة ذات الصدر الضخم التي تدخل ضمن برنامج أمانيه الصغيرة التي يحلم بتحقيقها يومًا ما، ليفعل ماكان يفعله أحيانًا في صدر شبابه الأول حين كان يجلس في المقهى ويتابع الرائحات والغاديات من النساء بعينيه، ثم يغمز لواحدة منهن ذات صدر سخي وأرداف وافرة، ويتعقبها في الطريق ليغرق مسامعها بأرق كلمات الغزل والغرام، حتى تضعف وتلين وتوافق على لقائه في كازينو الأرنب السعيد.

لكنه رغم عدم إعجابه بحياة، كيّف نفسه معها، وبات يتقبلها شيئًا فشيئًا، خصوصًا أنها تلبي رغباته دائمًا، ولا غبار عليها كأم رءوم وطباخة ماهرة، وسيدة بيت تعرف كيف تحبق وتدبق وتواجه ملمات الغلاء.. لكن كل ذلك لم يمنعه من أن يردد لنفسه بين الحين والحين، أنه من الصعب، أن يمضي المرء حياته مع امرأة واحدة فقط ـ بالطبع لم يفكر أسامة في أن المرأة يمكن أن تنظر للأمر بمنظاره أيضًا ـ وهو على أي حال، دجن نفسه على حياة، ولم يقل لها «لا» أبدًا، ربما لأن هذه المرأة لم تمنحه الفرصة ليقولها لها ولو مرة واحدة بسبب أسلوبها الناعم، وطريقتها المرنة في إقناعه بالأشياء، وربما لأنه شطب هذه الكلمة من قاموسه منذ زمن بعيد ضمانًا لأن تمضي الحياة به في أمان دون التعرض لمشاكل أو متاعب المواجهة الرافضة مع الآخرين. هو لا يستطيع أن يقول «لا» مثلما تقولها ابنته ببساطة ويسر، حتى في العمل، لم يقل لرؤسائه «لا» في أية مناسبة، بل هو يظن أنه لم يعد يقرأ هذه الكلمة منذ سنوات مضت، لا في الصحف ولا في المجلات، ولم يعد يسمعها من الناس إلا نادرًا، أما يده فلم تخطها بقلم منذ زمن قد يعود إلى أيام دراسته الابتدائية عندما كان يهتف مع التلاميذ ويقول «لا للاستعمار» ثم يكتبها عند عودته إلى الفصل عشرين مرة في الكراس. حتى في الانتخابات العامة التي يمقتها ولا يجد أدنى ضرورة لها، بل ويشعر أنها مسرحية سخيفة، يتكرر تمثيلها بين الحين والحين، لم تخط يده كلمه «لا»، إذ كان مضطرًا لقول نعم، لأنه يشارك فيها عادة بناء على تعليمات رؤسائه في الوزارة، فيذهب

إلى المقر الانتخابى وكأنه أرنب صغير ممسوك قسرًا من أذنيه لا يقوى على الإفلات، ويكتب منصاعًا الكلمة التى حفظها عن ظهر قلب وأجاد قراءتها وكتابتها «نعم».

هيأ أسامة نفسه لالتهام وجبة غداء مكونة من أرز وملوخية بالأرانب، وهى الوجبة التى كانت حياة قد قررتها على الأسرة منذ بداية مشروع الأرانب بمعدل أربع مرات أسبوعيًا طوال شهور الصيف، لم يكن أسامة يضيق بهذه الوجبات على الإطلاق، فهو مستعد لأكلها على امتداد أيام الأسبوع، طالما أنها الوجبة المغذية الممكنة المتاحة للأسرة، لكن قلقًا بدأ يداخله بسبب تأفف وتذمر ابنتيه منها، خصوصًا الصغرى ذات اللسان السليط التى لاتكف عن التهكم والسخرية فتقول إنها كلما تطلعت إلى المرآة تشعر بأن أذنيها تكبران وتتموان للأعلى كآذان الأرانب، أو تنادى على أختها لتدعوها إلى الغداء كلما وضعت أمها طبق الأرانب المحمرة على المائدة قائلة :

ـ يا الله يا فاتن، تعالى، ابتدأ فيلم أفواه وأرانب.

كان أسامة يخشى أن يفقد أعصابه ذات مرة ويلطمها على خدها بسبب سخريتها السمجة هذه التى تمتد لتنال من مشروع الأرانب ذاته فى كثير من الأحيان. فتطلق عليه مرة «فشروع الأرانب»، ومرة أخرى تسميه : «مشروع الخطة الأرنبية الأولى». غير أن أسامة يحاول التحكم فى أعصابه عادة ليقينه أن الفتاة لاتدرك الآفاق المنتظرة من وراء هذا المشروع، والآمال التى يعقدها عليه، حتى ترفع الأسرة مستوى معيشتها وتعيش فى المستوى الإنسانى اللائق، وكان يلتمس لها العذر كذلك، لعلمه أن البنت المسكينة، ليست إلا واحدة من أبناء الجيل الجديد الضائع الذى لا يعرف كيف يتحمل المسئولية ولا كيف يتحايل لمواجهة أعباء الحياة، وهو جيل يرغب أيضًا فى الكسب السريع دونما جهد أو كفاح يبذله فى سبيل الوصول إلى ما يريد لأنه يرى الكثيرين فى كل مكان يمتلون الأمواج بسهولة ويسر، ويحققون أهدافهم عبر صفقات سريعة وأعمال وهمية فاسدة، باتت هى الأسلوب المهيمن على دنيا الأعمال.

جلس إلى طاولة الطعام، وراح يأكل ملتهمًا الجزء المفضل لديه من الأرنب ألا وهو المتن، فكر وتردد كثيرًا قبل أن يستجمع شجاعته ويصارح زوجته برغبته فى بيع سواريها الذهبيين وشراء قيراطين من الأرض، قال لها أنه سيعوضها عنهما فيما بعد، عندما يكبر مشروعه ويزدهر ويحصل على مساعدة الأمم المتحدة، رجاها من كل قلبه أن تطيل بالها عليه وتتسلح بالصبر ولن تندم أبدًا، وذات يوم سعيد سوف تتذكر كلماته هذه بعدما ترى بأم عينها حياتهم وقد شملها العز وجرى الخير فيها كل مجرى من المكاسب الهائلة التى ستعود عليهم من المشروع، الذى سيفتح بدوره آفاقا بلا حدود لمشروعات مستقبلية أخرى ربما جعلتهم من أصحاب الملايين.

راح أسامة يعدد لامرأته بعضا من أسماء أشهر رجال الأعمال فى المجتمع ممن بدأوا من الصفر وبرأسمال لا يذكر، مثلما يفعل هو نفسه الآن، لكنهم نموا وكبرت أعمالهم بفضل شطارتهم وذكائهم ومثابرتهم على العمل، ثم لوقوف زوجاتهم إلى جانبهم ومؤازرتهن لهم، فهذا بدأ بكشك سجائر صغير بميدان العتبة الخضراء، لكنه تحول الآن إلى صاحب واحدة من أهم ثلاث شركات فى البلد للاستيراد والتصدير، وذاك بدأ بفرش فاكهة على أول ناصية بشارع عرابى، وصار الآن صاحب أكبر مصنع لتعليب الفاكهة وحفظها فى الشرق الأوسط، والثالث..

ظل أسامة يتابع كلامه لحياة فى محاولة دءوبة لإقناعها بالجدوى الاقتصادية العائدة عليهم من بيع ذهبها، ولم يترك لها فرصة لتعترض أو تناقشه، بل أخذ يلامس وركها القريب بفخذه فى حركة غزلية غير عفيفة، ثم قال :

ـ بكره لما الفلوس تدور فى أيدينا ياحياة نعمل ـ إن شاء الله ـ أول مشروع من نوعه فى مصر وربما فى أفريقيا كلها. مشروع فكرت فيه لما كنت فى الحمام قبل الأكل وهو مشروع الأرانب المعلبة.

ـ أرانب معلبة؟ تساءلت حياة وهى تكسر بأضراسها دماغ الأرنب المحمر، حتى تستخرج مخة الصغير من داخله وتلتهمه بتلذذ، بينما نظرت فى استنكار إلى

سامية التى أطلقت ضحكة ساخرة، دفعت أسامة لأن يبتسم رغمًا عنه، ويتابع كلامه بحماس قائلاً :

- إفهمى يا بنت يا عبيطة، أى نعم أ، انب معلبة، أرانب مفرومة معلبة أرانب معلبة سريعة التحضير، أرانب بالملوخية الخضراء، كبد وقوانص أرانب معلبة، أرانب معلبة بصلصة الطماطم، أرانب معلبة بالمايونير، أرانب معلبة لمرضى السكر وللرجيم، وما رأيكم؟

كان يتحدث بحماس وانفعال بالغين، فرفع طبقه دفعة واحدة إلى فمه ليشرب قليلاً من الملوخية دون أن يستخدم الملعقة، وراح ينظر إليهما ليرى مدى تأثير كلامه عليهما، فلاحظ نظرات القرف وعلامات الاستياء على وجهيهما، لكنه لم يدرك وهو فى قمة استغراقه فيما يقول، أنها كانت متأففة بسبب التهامه الملوخية بهذه الطريقة، فاستمر فى خطابه لهما قائلا :

– فكرة جهنمية والله العظيم ياحياة، بيعى الأساور واسمعى كلامى، لأننا لابد أن نتحرك ونكبر، ونتحول إلى مشروع بالمعنى الحقيقى، فالزمن زمن شطارة، ولازم أن يفكر الإنسان ويشتغل، والدنيا قدامنا مفتوحة، لازم نفتح لها صدرنا، ونجازف فيها بالحكمة والعقل.

لم تعرف حياة بماذا ترد عليه، فأسامة قادر على التأثير عليها، وإقناعها دائمًا، مثلما هو قادر على إرضائها. إنها تحبه وتؤمن به، بل وتشعر بدرجة من الدونية تجاهه، وتعتقد أنها بزواجها منه أعطتها الدنيا أكثر مما تستحق بكثير، فهو من عائلة محترمة ذات اسم، وجده ناظر الزراعة، إضافة إلى أنه وسيم، طويل، عريض، أبيض، يسد بجسده الباب، بل هو أوسم رجل فى الدنيا من وجهة نظرها. أما هى، فشحيحة الملاحة، وأبوها كان مجرد صاحب محل لكلف الخياطة يبيع الأزرار والخيطان وقماش البطانات والترتر وخرج النجف والإبر والدبابيس، ورغم أن حياتها معه لم تكن ميسورة أبدًا، وأنها كانت تغتاظ منه كثيرًا بسبب شخصيته اللامبالية بشئون البيت عندما كانت تناقشه فها، ورغم فشل كل مشروعاته السابقة إلا أن حياة كان بداخلها شعور غامض بأن زوجها

لابد أن يوفق وينجح ذات يوم بعد أن يعوض الله صبره وصبرها خيرًا فهو طيب ومجتهد، وفى حاله تمامًا لا يضمر شرًا لأى مخلوق كان. لكن المشكلة أن السوارين هما كل ماخرجت به من الدنيا، بعد أن اشترتهما بثمن غال،هو حصتها من بيت أبيها، الذى بيع بثمن بخس لأن البلدية أدخلته ضمن خريطة إعادة تنظيم الحى وتوسيع الشارع الواقع فيه.

بدا كلامه عن المشروع مثيرًا لها، ويحمل الكثير من الآمال العريضة، لكنها كانت متوجسة، ولا تدرى ما الذى يجب أن تفعله على وجه التحديد، أتوافقه أم ترفض؟ هى تخشى خسران الجلد والسقط إذا ماجارته وباعت السوارين، لكنها أيضًا كانت لا ترغب فى كسر خاطره، وإشعاره بأنها تخلت عنه وقت احتياجه لها، بدت كالموزعة بين نارين، لكنها فى النهاية قالت لروحها فليكن مايكون، وسلمت أمرها لله، وقبل أن تجيبه زفرت بحرارة، وطرقعت أصابعها فى قلق ثم قالت :

- طيب ياسيدى، الأمر أمرك والشور شورك، لكن وحياة العيال ومعزتى عندك، فكر وتأن قبل أية خطوة، لأن الزمن صعب، والدنيا غلاء، والفلوس عماله تطير وكأنها عصافير.

أعلنت سامية غضبها الشديد، ودفعت بكرسيها بعيدًا عن المائدة وقالت دون أن تكمل مضغ اللقمة التى فى فمها :

- إياك يا ماما تبيعى الأساور. لو فكرت فى بيعهم فى أى وقت حطى الفلوس فى البنك. فكرى فى الخسارة لأنك لن تحصلى من بيعهم لا أبيض ولا أسود وأنا حذرتك والسلام. غلى الدم فى عروق الأب من فرط غيظه وغضبه من تلك الوقاحة الساخرة التى تكلمت بها ابنته. فكر أن يهب من كرسيه ويلطمها على صدغها، وأن يقلب المائدة كلها على رأسها حتى تتسربل بالملوخية تمامًا ولا تعرف مطرح رأسها من رجليها، لكنه وكما يفعل عادة فى مثل هذه المواقف، ضبط نفسه، وانسحب بهدوء إلى الداخل معلنا عن رغبته فى النوم.

نعس ونام وحلم أثناء نومه بالأرانب وبسامية تربت عليه وتعلن أسفها واعتذارها عما بدر منها تجاهه، وأنها تهديه سلسلة مفاتيح فضية يتدلى منها

أرنب ظريف، وبمديره فى الوزارة وقد تحول إلى أرنب صغير قام بحمله فى حقيبة الأرانب إياها، ليسلمه للفرارجى ليذبحه ويسلخه... أرانب كبيرة على الطريق ذات أثداء ضخمة تبتسم وتتمايل فى دلال وأسامة يحاول الهجوم عليها واحتضانها لكنها تزوغ منه بسرعة... نشرة الأخبار فى التلفزيون وهو يتابعها، فيكتشف أن القوات الدولية فى سراييفو كلها عبارة عن أرانب صغيرة ترتدى الأزرق التقليدى للأمم المتحدة وتعتمر قبعات سماوية جميلة... حياة تتحول إلى أرنب ذهبى ضخم وتقول له بنعومة : الأمر أمرك يا أسامة، لكن فكر والنبى واحسبها قبل عمل أية خطوة.

هب أسامة من نومه قلقًا، تقلب فى الفراش، فوجد حياة ممددة على جنبها إلى جواره، مقيلة هى الأخرى، أحاطها بذراعه والتصق بها فى حميمية أدهشتها، فاستدارت ليكتشف أنها لم تنم بعد فقال لها :

– الثوم فى تقلية الملوخية كان زيادة بعض الشىء. أصلى حلمت مجموعة أحلام غريبة ملخبطة، مالها أول من آخر.

ردت حياة وهى تتثاءب وتخلص نفسها منه بلطف :

– خير.. اللهم اجعله خيرًا، كنت غط نفسك بغطاء خفيف قبل النوم. ثم طلبت منه إعداد شاى العصارى، وأن يناديها لتشربه معه عندما يجهز، حتى تتعس قليلاً لأنها لم تنم بعد.

ـ ٢ ـ

بدا كل شىء غير عادى فى حياة أسامة صباح ذلك اليوم المشئوم، فقد وصل الوزارة متخلفًا بضعة دقائق عن موعد العمل الرسمى، بسبب تأخره فى النوم حتى قرب الفجر، بعد سهرة طويلة أمضاها بصحبة أسرته فى عرس فتحية بنت الجيران. كان قد ارتدى ملابسه على عجل، وترك امرأته غارقة فى النوم دون أن يوقظها لتعد له طعام الإفطاركما جرت العادة، كما أنه لم يقم بطقسه الصباحى الدائم المتمثل بإلقاء نظرة سريعة على الأرانب فى القفص. وأثناء وقوفه على

محطة الأتوبيس تذكر أنه نسى ساعة يده التى يحرص على ألا ينساها، ورأى فى شرفة المنزل المقابل للمحطة غسيلاً منشوراً أسود اللون يغطى الحبال كلها، فانقبض قلبه وتطير، وزاد فى ضيقه مرور ذلك الشحاذ المجذوم بأطرافه المتآكلة وأنفه المشوه فشعر بتقزز واقشعر بدنه، وهو يحاول تفادى النظر إلى الرجل المسكين الذى أجهز على بقية مزاجه المتعكر فى ذلك الصباح.

عندما انكب على عمله فى الوزارة، ليدون فى سجل المواليد إنتاج مدينته بأحيائها المختلفة من الأطفال خلال أسبوع منصرم، تزايد اكتئابه وضيقه إذ بدا له حجم العمل المطلوب منه كبيراً إلى درجة لا تحتمل، وتحتاج موظفاً إضافياً يشاركه فيه. لعن فى سره دفتر المواليد، والمواليد، والناس التى لا تكف عن تفريخها، وهيئة تنظيم الأسرة لأنها لا تلعب دوراً فعالاً فى تحديد النسل، وتكتفى بإرسال تحياتها للجمهور فى إعلانات التلفزيون، ثم واصل عمله بضيق وتكاسل ولامبالاة شديدة.

فى حوالى الساعة الثانية عشرة رن جرس الهاتف الموضوع على مكتب رئيس القسم، بينما كان عبدالحميد الساعى يقلب له كوباً من الشاى الكشرى بملعقة قديمة صدئة. فى هذه الأثناء كانت سيدة عبدالعال زميلة أسامة فى القسم نفسه ترص قطع الخيار والطماطم فوق الجبن الرومى داخل رغيف الفينو استعداداً لالتهام وجبتها اليومية المعتادة فى الشغل، بينما الرئيس القائد يطل بنظراته على الجميع بترفع من صورته المعلقة على الحائط داخل إطار ذهبى كبير.

سعيد بدوى شاعر العامية، وماسك سجل الوفيات بالإدارة، يحل الكلمات المتقاطعة ويفكر فى اسم لحيوان داجن يتكون من أربعة حروف، ليتمكن من الإجهاز على جميع الكلمات المتقاطعة بكل الصحف الحكومية وغير الحكومية الصادرة خلال ذلك النهار، ممارساً بذلك أسلوبه المزمن فى التعبير عن لامبالاته واستخفافه بالوزارة وطبيعة العمل والعاملين فيها.

حمل رئيس القسم سماعة الهاتف ورد، دون أن يرمش له جفن، أو أن يكلف نفسه رفع رأسه عن كتاب عذاب القبر ونعيمه الذى كان يقرأ فيه. وضع السماعة على المكتب ببرود ونادى :

- أسامة.

هب أسامة من مكانه كالأرنب المذعور، فمن النادر أن يتلقى مكالمات هاتفية أثناء عمله فى الوزارة، وخلال الخطوتين اللتين خطفهما بسرعة ليكون حيث مكان الهاتف، تلاعبت به الظنون : هل أصيبت واحدة من البنتين بمكروه؟ هل وقعت العمارة وانهدت على حياة ومن فيها من السكان؟! هل أصيب ابن عمه فى حادث سيارة بالطريق؟!

وضع السماعة على أذنه بيد متوترة ثم رد بعد قليل :

- ياخبر.. مستحيل.. مستحيل ياحياة!

أعاد السماعة إلى مكانها بتوتر، وبصعوبة حملته قدماه إلى مكتبه، لينكفىء برأسه على دفتر المواليد ويبكى بحرقة أذهلت سيدة عبدالعال فلخبطت نظام الخيار والطماطم على الجبن الرومى، تاركة الرغيف على ورقة الجريدة التى كان ملفوفًا بها على المكتب، لتدب على صدرها وقد ظنت أن واحدة من ابنتى أسامة توفاها الله. أما المتلذذ بعذاب القبر، ومتولى الكلمات المتقاطعة، وعبدالحميد الساعى فقد سارعوا بالالتفاف حول أسامة فى دهشة عارمة محاولين استنطاقه بقولهم :

- لا إله إلا الله، حصل شىء لا سمح الله؟ تكلم يا أسامة، انطق يا رجل! ظل أسامة لفترة ينهنه ويغمغم بصعوبة :

- بيتى تخرب، بيتى تخرب ياعالم.

وعلى صوت ذلك الشعار الذى أطلقه، تجمع موظفو الأقسام المجاورة الأرشيف، الصادر والوارد، الميزانية، بعد أن جاءوا من غرفهم ليستطلعوا الحدث المثير. فجأة، كف أسامة عن البكاء، ورفع رأسه ثم أغلق سجل المواليد الذى شربت دموعه عليه، ووضعه فى درج مكتبه ثم أغلقه بالمفتاح. هب واقفًا وهو يكفكف دموعه بمنديل ورقى ناوله إياه شاعر العامية وقال :

- شكرًا.. سعيكم مشكور ياجماعة.. بعد إذنكم.

ثم انطلق خارج المصلحة دون أن يحصل على إذن من رئيسه أو مديره.

لم يكن يرى أمامه إلا السواد، ولا يسمع غير رنين كلمات حياة فى أذنيه وهى تقوله له : «الحقنى يا أسامة، الأرانب ماتت، ماتت كلها». وما حكته له بعد ذلك بسرعة لتخبرة بشكل موجز كيف أن الأرانب قتلت فى مذبحة وحشية قامت بها عرسة سفاحة أثناء تواجدهم فى عرس فتحية بنت الجيران، فقد تسللت العرسة عبر باب القفص، الذى نسيته مفتوحًا بعدما انتهت من إطعام الأرانب وقت صلاة العشاء، لتمتص فى هدوء الليل دم أحد عشر أرنبًا بينما كان جميع من فى البيت نائمين.

أما المواليد التى بلغ تعدادها خمسة عشر أرنبًا فى القفص، فقد تكومت كتل صغير من اللحم الأحمر الدامى، بعد أن واصلت الدراكوالا نشاطها متسللة من الرف السفلى إلى الرف العلوى. «كلهم ماتوا».. هذا ما قالته حياة، «ماتوا يا أسامة، دخلت أحط لهم البرسيم عند الصبح، وجدتهم مرميين».. «الحقنى يا أسامة».

لحق شاعر العامية بأسامة عند الدرجة الأخيرة من السلم، بصفته مبعوثًا من رئيس القسم الذى لم يقف تمامًا على حقيقة الأمر ليتحرى ما جرى ويقف إلى جانب المصدوم فى مصيبته، لكن أسامة رجاه أن يعود أدراجه ويتركه لحاله، بعد أن ابتدع كذبة صغير كمبرر لما جرى، إذ أعلن للشاعر - الذى أعلن بدوره بعد ذلك لجميع المتسائلين فى الوزارة - أن فاتن رسبت للمرة الثالثة فى الكلية بسبب الكيمياء الحيوية.

واسى الشاعر أسامة وتركه، وراح يفكر مندهشًا من سخافة أسامة وقلة عقله «فلترسب البنت، فما معنى التعليم وما قيمته فى بلد كهذه البلد؟ وما قيمة الكيمياء الحيوية فيها أصلاً؟! فالبنت سواء رسبت، أو نجحت بامتياز، فإنها لن تجد عملا إلا عند محل كوافير أو كسكرتيرة أو كبائعة فى محل، مثلها فى ذلك مثل الآلاف من خريجى الجامعات، لن تفعل شيئًا بهذه الكيمياء ولا بغيرها، فالبلد لم تعد محتاجة إلى علم أو كيمياء لماذا يتجاهل الناس هذه الحقيقة

ويدفنون رؤوسهم فى الرمال كما النعام؟!.ولماذا لا يتخذه أسامة آية وعبرة؟! فهو متخرج من كلية الهندسة، وحاصل على دبلومة عليا فى القوى الكهربائية، ومع ذلك يعمل فى قسم الإحصاء مع أسامة، ولولا نفوذ زوج عمته فى الوزارة وتوسطه بعد تخرجه لتعيينه فيها لكان الآن على قارعة الطريق يتسكع أو يتسول ككثير من خريجى الجامعات فى هذا الزمان».

سار أسامة كالمخمور يتخبط فى الشارع، لا يعى من أمره شيئًا ولا يعرف إلى أين يتجه فى هذه اللحظات السوداء، التى مرت عليه وكأنها دهر.

فى البداية أخذته قدماه إلى طريقه المعتاد نحو محطة الأتوبيس، وقف ينتظر قليلاً، بدت الدنيا فى نظره أضيق من خرم إبرة، ومظلمة بلا أى معنى، بعد فترة وجد نفسه يترك المحطة، ويسير كالقطط الضالة فى الشوارع.

كانت أحداث الأسبوع السابق تتلاحق فى رأسه بسرعة مذهلة،... حياة باعت أساورها وأبدت حماسًا مفاجئًا لشراء الأرض والتوسع فى مشروع الأرانب. ذات مساء فاجأته بأفكارها الجهنمية هى الأخرى، إذ صنعت قبعات نسائية من فراء الأرانب قالت أنها ستلاقى إقبالاً منقطع النظير من المحجبات خلال فصل الشتاء القادم، لأنها أنيقة وتدفى الرأس، وأرته أيضًا علب مناديل ورقية مغطاة بفراء الأرانب صنعتها بنفسها وزينتها بالترتر وخرج النجف بعد أن رشتها بألوان رش متعددة لتضفى عليها بهجة وأناقة، وأخبرته أنها قامت بجولة على أصحاب المحلات لبيعها وهى فى انتظار طلبيات منهم.. رحلة البحث عن قطعة أرض بثمن يتلاءم والمبلغ الذى جمعه لم تنقطع، لكن دون جدوى، فالمبلغ المتحصل من بيع ذهب حياة، بالإضافة إلى مدخراته لا يكفى... فاتن تعلن احتجاجها لعدم حصولها على فلوس الدرس الخصوصى وتهدد بترك الكلية نهائيًا.. حياة تكتشف بالصدفة خطابات غرامية تخفيها سامية وراء قفص الأرانب تعرف منها وجود علاقة بينها وبين رجل يكبرها بستة عشر عامًا، وأنها تنوى الزواج منه، رغم أنها مازالت فى سنتها الأولى بالجامعة.. ماسورة الصرف الصحى الرئيسية فى العمارة تنفجر بسبب انتهاء عمرها الافتراضى ـ كما قال السباك ـ منذ عشرين سنة على الأقل، وصاحبة العمارة تطالب كل شقة بدفع مائتى جنيه لاتخاذ اللازم

واستبدالها بماسورة جديدة، وإلا يبقى الوضع على ماهو عليه، وتخر الماسورة داخل الشقق، ومن لا يعجبه يضرب دماغه فى الحيط.

ظل أسامة يهيم على وجه، لا يعرف إلى أين يتجه، كان يدرك شيئًا واحدًا فقط هو أنه لا يرغب فى العودة إلى البيت، ولا يريد الذهاب إلى العمل، لايريد أن يتعامل مع أى مخلوق، لا حياة ولا البنات، ولاعبد الحميد الساعى، ولا شاعر العامية ولا أى إنسان آخر يعرفه. هو يريد فقط أن يموت ويستريح من الدنيا وقرفها فى التو واللحظة، فكر أن يرمى نفسه تحت أتوبيس أو قطار، أن يذهب إلى شاطىء النيل ويقفز إلى الماء، أو أن يبتاع سما للفئران من أقرب صيدلية تقابله ويتجرعه بسرعة، لكن الشجاعة لم تواته لتنفيذ أى من هذه المشروعات العدمية، كما أن نفسه صعبت عليه جدًا فاكتفى بالبكاء المر أثناء سيره.

بعد انتهاد المكالمة التليفونية العاجلة مع أسامة، ظلت حياة تنتظره فى البيت حتى الساعة الثالثة ظهرًا، وهو الموعد المحدد لدوران مفتاحه فى قفل الباب، فلما لم يأت وهو الذى كانت تتوقع حضوره فور سماعه بكارثة الأرانب أخذ القلق يساورها، وعند وصول فاتن وسامية من الجامعة قبل المغرب، كانت الأفكار السوداء قد التهمت أعصابها وجعلتها نصف مجنونة، إذ كانت تفكر فى احتمال أن تكون سيارة قد صدمت زوجتها، أو أن الأتوبيس الذى استقله غرق فى النيل، أو ربما داس على سلك كهربائى مكشوف فصعقه كما حدث لبعض الناس، أو أنه مر بجوار منزل قديم آيل للسقوط فانهار فوق رأسه. مرت بخاطرها احتمالات شر عديدة قد تكون وراء غياب الرجل الذى يأتى فى موعده دائمًا. اتصلت بابن عمه هاتفيًا ظنًا منها أنه ربما يكون قد مر عليه فى البيت، لكنها لم تجده، وبينما كان مؤذن المغرب فى الجامع القريب ينادى حى على الفلاح بصوته الخشن الأجش، أعلنت حياة لبنتيها وهى تلطم خديها أن أباهما صار فى عداد المفقودين.

تضاءلت مصيبة الأرانب فى عين حياة، بالنظر إلى الطامة الكبرى التى تواجها فى هذه اللحظات، وبدت مشكلة علاقة سامية بالرجل الكبير ومشكلة ماسورة المياه من الصغائر بالنسبة لها. ارتدت فستان الطواريء الكحلى على

عجل، وهو الفستان الذى تحتفظ به خصيصًا ليلائم مناسبات العزاء فى المآتم، وزيارات المرضى، والمباركة بالنجاح، وعمل الواجب مع الأقارب والأصحاب فى الأفراح، ثم إنها اصطحبت البنتين فى رحلة بحث عن الرجل المفقود.

توجهت حياة لأقسام البوليس، واستقبالات الطوارىء بالمستشفيات العامة، وسألت كل المعارف والأقارب، وحتى نهاية الليل لم تكن هناك نتيجة مجدية من البحث، الذى انضم إلى فريق القائمين به ابن عم أسامة بعد انتهاد عمله كموظف خزينة فى أحد الملاهى الليلية.

أعلنت حياة أنها ستنتحر.. ستموت روحها.. ستشعل النار فى جسدها إذا لم يعد أسامة. تمنت أن يعود إليها بأى شكل، وبأية حال، حتى لو عاد أعمى، أو مشلولا، أو مجروحًا، أو مصابًا بعاهة لو كان قد تعرض لحادث ما، المهم أن يبقى على قيد الحياة.

مضى أسبوع كامل، وأسامة مختف كأنه فص ملح وذاب. استدعى البوليس حياة والبنتين وزملاءه فى وزارة الصحة لاستجوابهم، فمن المحتمل أن يكون سبب غيابه جنائيًا، ولكن كل الأطراف المستجوبة أفادت أن أسامة كان شخصًا مهذبًا مسالمًا، فى حاله دائمًا، لم يناقش أو يجادل فى أى أمر من الأمور، وهو - وفقًا لأقوال مديره العام الأستاذ فهمى عبدالعال - «مطيع جدًا، وينفذ مايطلب منه بهدوء وبدون مشاكل، وكان آخر من يقف فى طابور الجمعية التعاونية للعاملين فى الوزارة ليصرف مستحقاته من السكر والزيت واللحم، ولم يكن يشاحن أو يصارع كما يفعل العديد من الموظفين الآخرين لكى يحصلوا على حصصهم من لوازم البيت قبل غيرهم».

أعلنت حياة حالة الحزن العام فى البيت فامتنعت عن مشاهدة مسلسل السابعة والربع فى التلفزيون، وهو المسلسل الذى تحرص على مشاهدته بانتظام ودأب مهما كانت الظروف، حتى فى الوقت الذى كانت البنتان تذاكران فيه استعدادًا لامتحانات آخر السنة الدراسية. كما أنها قننت طعامها، فلم تعد تفطر، بل صارت تكتفى بأكل لقمة صغيرة مع الشاى بعد الظهر بعد إلحاح من فاتن

وسامية، أما الفاكهة فلم تدخلها البيت منذ أن غاب أسامة، بالإضافة إلى أنها لم تلب دعوة صاحبة لها تسكن الشارع نفسه لحضور حفلة زار رغم ولعلها الشديد بحفلات الزار وتمنيها أن تساعدها ظروفها المالية ذات يوم لتقيمها فى البيت.

ذات صباح، وبعد مرور أسبوع كامل على غياب أسامة، كانت حياة تجلس على الأرض قبالة شيخ عجوز يفتح المندل، ويتمتم بتعويذات غير مفهومة بحثًا عن الرجل المفقود، ولتعيين موقعه فى المدينة، وقد تحلقت حولها فاتن وسامية وأم فتحية التى كانت قد جاءت بالعجوز باعتباره خبير مندل مختص كمساهمة منها فى حل لغز الزوج الضائع منذ أسبوع. رن جرس الباب، قامت فاتن لترى من يكون الرنان، وهى تنهر سامية، وتطالبها بالسكوت بعد أن ضاقت بتعليقاتها الساخرة المتهكمة على فاتح المندل، الذى أبدى استياءه أيضًا وأعلن عدم قدرته على التركيز، إذا ما استمرت البنت فى تعليقاتها، وما أن تبادلت فاتحة الباب بضعة كلمات مع القادم ذى الجلباب الطويل والعمة حتى أطلقت صرخة رهيبة، سقطت على إثرها مغشيًا عليها، بينما هبت حياة وسامية والجارة وفاتح المندل إليها عند الباب. أصيب الرجل القادم بالارتباك بعد أن تجمع الجيران حوله أيضًا، إثر سماعهم صرخة فاتن، بدا فاتح المندل هو الوحيد المتماسك بين الجميع، فسارع بسؤال الرجل أبو عمة عن هويته فأفاد :

- أنا تربى حوش رستم الليثى، وأظن أن بيت الأستاذ أسامة ابنه هنا.

فور سماعها كلماته، تركت حياة ابنتها الغائبة عن الوعى، والتى سارع الجميع لمساعدتها، فقربوا بصلة من أنفها، ورشوا على وجها ماء باردًا، ودلكوا كفيها وجبهتها بكولونيا الليمون المتواضعة ماركة «الثلاث خمسات» التى كان أسامة يحتفظ بها لاستخدامها بعد حلاقة ذقنه عادة، أمسكت حياة الرجل من كتفيه فى محاولة منها لاستنطاقه بأسرع مايمكن، فنطق أخيرًا وأعلن عثوره على أسامة فى آخر الليلة الماضية بالصدفة وأثناء مروره بالترب. وأنه لم يتعرف عليه فى البداية وظنه لصا ينوى سرقة مقبرة أو لم عظام الميتين ليبيعها لطلبة الطب، خصوصًا أن شكله كان متسخًا وذقنه طويلة، والظلام يغطى الترب. لكنه بدأ يشك فى الأمر عندما اكتشف أن الرجل يبكى ويجلس فى حالة إعياء تام، كما أنه

لم يبد أية مقاومة تذكر عندما هجم عليه وأمسكه من الخلف، لاويا ذراعه كى لا يفر، ثم أضاف أنه سأله عدة مرات عمن يكون، ولماذا هو فى هذا المكان فى هذه الحصة المتأخرة من الليل، فلما لم يرد، ظن أنه شمام من شمامى بودرة المخدرات، أو أحد زبائن أوكار حقن الماكسفورت وقد أخذ كمية كبيرة أفقدته الوعى. أخيرًا أنهى الترابى تقريره للمتحلقين حوله قائلاً : «فلما شعرت أن الرجل حالته خطيرة وربما يموت» - وهنا لطمت حياة وديت على صدرها - «قمت بالتفتيش فى جيبه حتى وجدت بطاقته الشخصية فأخذتها وجريت لأبص فيها تحت عمود النور، فعرفت الاسم وتأكدت من الصورة، ثم أنى ناديت على ابنى، فحضر وحملناه إلى البيت، وهو موجود طرفنا، وبخير إن شاء الله، لكنه يهذى بكلام غير مفهوم ويقول إن أمه نادته فحضر إليها بسرعة، وطلب منى أن أدفنه معها، ثم إنه يبكى أحيانًا ويقول : نعم، حالاً.. حالاً أكون عندك يا ماما».

على ضوء هذه الأحداث المؤسفة، وفى الحال، تحرك وفد مكون من حياة والبنتين، وأم فتحية وأبيها، بصحبة الترابى لاسترجاع أسامة من مكمنه فى القرافة، لكن سامية اضطرت للانسحاب بسبب فشلهم فى العثور على سيارة أجرة تكفى لخمسة ركاب، رغم أن الترابى يسر الأمر عليهم وقرر ركوب الأتوبيس.

ظل أسامة بعد عودته إلى البيت، يحدث بذهول فى الباكيات النائحات أمامه، ويهذى بكلمات غير مفهومة، ويبكى رافضًا الطعام والشراب، بدا فى عين حياة وكأنه ليس أسامة الذى عرفته وخبرته كما تعرف نفسها، فقد نقص وزنه كثيرًا، وبات وجه صغيرًا ممصوصًا يشبه رغيفًا من أرغفة مخابز الحكومة الآلية، ورغم أنها كانت رافضة لفكرة عرضه على طبيب نفسى كما اقترح ابن عمه، خشية الفضيحة، وأن يقال عنه أنه فقد عقله وجن، فيضيع مستقبل البنتين ولا تجدان من يقبل بالزواج منهما بعد ذلك، ورغم أنها كانت تشك فى دوافع الحاج ابن العم على ذلك إلا أنها أذعنت فى النهاية، ووافقت على الفكرة، لأن حالة زوجها أخذت فى التدهور أكثر فأكثر، إذ بات يصرخ ويقول أن هناك مؤامرة كبرى ضده يقف وراءها مديره فهمى عبد العال الذى كان يراقبه ويتجسس عليه، وإلا لماذا طلب منه أرنبين، وكيف عرف بمشروع الأرانب أصلاً، واتهم الأمم المتحدة بأنها كانت

تسعى لإفلاسه وجعله على الحديدة، وأنها كانت وراء برنامج التلفزيون الذى أدى فى النهاية إلى بيع ذهب حياة، وقال أن فهمى عبدالعال والأمم المتحدة تآمرا سويًا لإفشال مشروعه، وأن العرس هى الأداة المنفذة للمؤامرة، أما حياة وفاتن وسامية، فقد اتهمهن ـ خصوصًا الأخيرة منهن ـ بأنهن لا يعرفن قيمته، ولا يتصورن المستقبل الذى كان ينتظرهن والذى كان يرسمه لهن مع مشروع الأرانب.

وهكذا، جاء ابن العم بالطبيب النفسى الذى قام بتحويل أسامة فورًا إلى قسم الأمراض النفسية بمستشفى التأمين الصحى التابع للوزارة، وقد بات خبر ما جرى لأسامة معروفًا ومنتشرًا ومتداولاً فى أوساط عديدة، رغم محاولات حياة المستميتة للتكتم عليه حفاظًا على سمعة زوجها وبيتها، وحرصًا على ابنتيها الشابتين.

ـ ٣ ـ

ردود فعل محدودة النطاق حول ما جرى لأسامة من أحداث مؤسفة ووقوعه فى المرض إياه.

● خبر فى صفحة الحوادث بجريدة حكومية محافظة عريقة :

«تم العثور على موظف حكومى فى حالة إعياء وذهول بالغين، بمقابر الإمام الشافعى بعد تغيبه عن بيته لمدة أسبوع، وقد تبين أن الموظف يدعى أسامة رستم الليثى (٤٥ سنة)، وهو يعانى من ضائقة مالية مزمنة، وأفادت زوجته أنه اختفى إثر إبلاغها له هاتفيًا فى عمله بوزارة الصحة عن مصرع كل الأرانب التى كان يربيها فى قفص بمنزله، وقد انتهت التحريات إلى استبعاد الدافع الجنائى لتغيبه، وعلى ضوء ذلك قام السيد مأمور القسم بتسليمه إلى ذويه».

ملاحظة : مع الخبر صورة منشورة للسيد رئيس القسم بثيابه الرسمية، ومكتوب تحتها اسمه مسبوقًا برتبته الوظيفية.

ملاحظة أخرى : لم يحدث أن قام رئيس القسم بتسليم أسامة إلى ذويه، بل قام التربى بذلك، ثم أبلغت حياة القسم بعثورها على زوجها المفقود.

● تعليق بصحيفة معارضة معترف بها من قبل الحكومة فقط :

«مرة أخرى تثبت أكذوبة التمويل الخارجى، وسياسة الانفتاح الاقتصادى، فقد أصيب المواطن أسامة رستم الليثى وهو من العاملين فى وزارة الصحة بلوثة عقلية بعد فشله فى الحصول على تمويل خارجى من الأمم المتحدة، وقد قالت زوجته السيدة حياة خليفة لمندوب جريدتنا عندما ذهب للقاء أسرة المواطن فى منزله أنها تنوى رفع قضية على رئيس اتحاد الإذاعة والتلفزيون مطالبة إياه بالتعويض عن الأضرار التى لحقت بها وبزوجها بعد أن وعد التلفزيون من خلال ندوة أذاعها بإمكانية تمويل مشروع الأرانب الذى كان زوجها قد أنشأه، وأنها باعت كل ماتملك لتصرف على هذا المشروع الذى كانت أسرتها تعقد عليه آمالاً عريضة. وأضافت السيدة حياة، أن زوجها اعترف لها أثناء مرضه بأنه حاول كثيراً، الاتصال باليونايتيد نيشينز، لكنه فشل، وأخبرها أنه ذهب بنفسه أكثر من مرة إلى مقر الهيئة الدولية، بعد استماعه لندوة التلفزيون، وحاول مقابلة المسئولين وإطلاعهم على تفاصيل مشروعه ليحصل على التمويل لكنه كان دوماً يفشل فى مقابلة أى من هؤلاء المسئولين، وأنه لم يقابل إلا عسكرى الحراسة المصرى، الذى طالبه وهو يشهر السونكى فى وجه بالابتعاد الفورى عن مقر الهيئة وإلا قبض عليه للاشتباه فيه.

ونحن نسوق هذه الوقائع، لكل أولئك المتشدقين بجدوى التمويل الخارجى لاقتصادنا القومى، ونتساءل عن مدى جدية المؤسسات الأجنبية فى مساعدة هذا الاقتصاد على النهوض الحقيقى ومواجهة احتياجات البلاد ونستنكر أن تستمر عمليات التغرير والاستخفاف بكل البسطاء والشرفاء والمقهورين فى هذا الوطن العظيم».

ملاحظة : مرفق بالموضوع صورة لحياة وهى تتحدث لمندوب الجريدة الذى يبتسم ابتسامة عريضة، وقد كتب تحت الصورة : السيدة حياة زوجة المواطن أسامة الليثى وهى تتحدث إلى الأستاذ عمر عبدالرازق مندوب جريدتنا وتقول خدعونا وخدعوا زوجى الطيب، ثم ببنط أكبر : تصوير نصر الطنطاوى.

● الهيئة الدولية تلتزم الصمت :

«رفض المتحدث الرسمى للأمم المتحدة التعليق على ما ورد فى جريدة رسمية معارضة من اتهام بخصوص رفض الهيئة لتمويل مشروع صغير لأحد المواطنين بمدينة القاهرة، وقال المتحدث إن الهيئة لا تتوانى عن تقديم العون لبلدان العالم الثالث من خلال هيئاتها النوعية المتخصصة، كما أنها لا تقوم بتمويل الأفراد بأى حال من الأحوال».

● استجواب فى مجلس الشعب :

«أعلن النائب الشعبى حسن عطية لأبناء دائرته الانتخابية عن اعتزامه تقديم استجواب برلمانى فى مجلس الشعب بخصوص ما جرى لابن الدائرة أسامة رستم الليثى، وقال النائب أيضًا أنه يزمع فتح ملف المساعدات الأجنبية بالكامل، خلال الدورة المقبلة للمجلس، حتى تتضح الرؤية أمام أبناء الدائرة وكل المواطنين، وقد أفاد النائب فى النهاية، بأن مكتبه الاستشارى مفتوح لطالبى دراسات الجدوى الاقتصادية فى كل مجالات قطاع الأعمال، كما أن المكتب يقوم حاليًا بإعداد كتيب إرشادى تفصيلى يتناول كل الهيئات الأجنبية التى يمكن أن تساهم فى تمويل المشروعات المحلية بالريف والحضر».

● فى التلفزيون : أذن من طين وأخرى من عجين :

«تابع التلفزيون من خلال برامجه الاقتصادية ما بدأه من حلقات تتناول تنمية المشروعات الصغيرة، وقد أعلنت مذيعة ربط الفقرات لأجبائها كل أفراد الأسرة ـ وهى تبتسم بدون سبب ـ أنهم سيسهرون الليلة، وفى ليال أخرى مقبلة، مع نجوم الاقتصاد، ليردوا على كل مايدور فى الأذهان بخصوص تمويل المشروعات الصغيرة، التى باتت تشغل كل بيت، وكل مواطن طموح فى بلدنا الآن».

● قضية أسامة والتطبيع :

فى الجمعية الأهلية لرفض التطبيع مع العدو الصهيونى، فجر الفنان التشكيلى، الصحفى، والقاص، الروائى، الشاعر، المترجم، الناقد، نبيه الشاطر

مفاجأة فى موضوع أسامة الليثى، إذ أعلن أن لديه وثيقة تثبت محاولة العدو الصهيونى إجراء اتصالات مع المواطن المذكور لإقناعه بقبول تمويل لمشروع الأرانب، وصرح الشاطر أن كل ذلك يأتى فى سياق محاولات العدو التى لا تنقطع، لاختراق المجتمع المصرى بعد تنفيذ اتفاقية كامب ديفيد الشهيرة، وفرض التطبيع معه، وهو ما أثبتت الأيام فشله حتى الآن».

● الجماعات تتحرك :

«قالت فاتن الابنة الكبرى لأسامة رستم الليثى، إن الجماعات الدينية اتصلت بأبيها مؤخرًا، وعرضت عليه إدارة محل لبيع الفراخ والبط والأرانب يعود ريعه لصالحه، شريطة انضمامه لهذه الجماعات، لكن أباها رفض الفكرة تمامًا».

(نقلاً عن باب بورصة الأسرار بمجلة أسبوعية شهيرة)

● ندوة عشوائية فى وزارة الصحة :

فى الساعة الواحدة إلا ربعًا من يوم الثلاثاء التالى للعثور على أسامة، قام موظفو قسم الإحصاء فى وزارة الصحة بعقد ندوة عشوائية لتضييع الوقت، وقتل الملل اليومى المعتاد، كان موضوعها : أسامة المسكين وما جرى له فى ظرف يومين. تمت الندوة ككل ندوات الموظفين فى وزارة الصحة والوزارات الحكومية الأخرى، بدون برمجة أو تخطيط، ووفقًا لمنهج «كلام يجيب كلامًا»، وقد افتتحتها زميلة أسامة فى القسم، سيدة عبدالعال، بينما كانت ترتب وضع الخيار والطماطم فوق الجبن الرومى برغيف الفينو تمهيدًا لالتهامه كالعادة، فقالت : والنبى مرض الأستاذ أسامة قطع فى الواحد جدًا، ربنا يشفيه ويعين أهله ويلطف بعياله. ووفقًا لترتيب المشاركين فى الكلام بالندوة، جاءت وجهات نظرهم كالآتى :

● عبدالحميد الساعى ـ وهو يقلب الشاى الكشرى المخصوص لرئيس القسم:

– والله الأستاذ أسامة إنسان أمير جدًا، لكن عقله ولا مؤاخذة خفيف بعض الشىء، دائمًا كان يقول لى : «لما البيزنز يمشى معى، إن شاء الله، أعينك عندى ياعبد الحميد، وأريحك جدًا، وأبسطها معك فى المرتب». وبصراحة أنا عمرى

ماشنته عمل بيزنز، لذلك كنت أسايره وأجاريه وأقول له ربنا يخليك لعيالك يا أستاذ أسامة.... مسكين والله.

● رئيس القسم ـ وهو يطلب رقمًا بالهاتف دون أن يرفع بصره عن الأوراق التى أمامه - :

- مشكلة أسامة إنه من أصول كبيرة، وكل الناس أولاد الذوات حصل لهم خلل بعد تغير الدنيا لما الزمن جار عليهم. أنا كنت ألا حظ أنه طالع فيها بعض الشئ، وعنده جنون عظمة وغير واقعى على الإطلاق، ولا يفهم الدنيا ماشية بأية طريقة.

● شاعر العامية ـ وهو يحل الكلمات المتقاطعة فى ثالث جريدة خلال اليوم:

ـ طبعًا لابد أن تحصل للرجل لوثة، وعقله يخف، لأنه إنسان مرهف عاجز عن التكيف مع الناس، أى كائن عاقل لازم أن يجرى لمخه شىء، بسبب عيشتنا الزفت. الرجل حاول فى مشروع واثنين وثلاثة، عافر مع الظروف، ثم فشل فى النهاية، فلابد أن يصاب بصدمة، لأنه لا يقدر على السرقة واللصوصية ولا على الفهلوة والبلطجة ولعب الثلاث ورقات كما بعض الناس فى أيامنا المنيلة إياها. الأسلاك ضربت والكمبيوتر فى دماغه تعطل، شىء طبيعى جدًا أنه انهار.

قال ذلك وهو يتطلع فى وجه رئيس القسم الانتهازى، الذى يكرهه لأنه يجيد التملق للمدير، وإلى عبدالحميد الساعى، الذى كان يفرض أتاوات على الجمهور لإنهاء مصالحه وكانت تتراوح بين الجنيه والخمسة جنيهات بعد أن يقول : «كل سنة وانت طيب يا أستاذ». وقد اشترك المدير العام فى الندوة بالصدفة، إذ دخل على مرءوسيه أثناء الحوار ليبلغهم بالتعليمات الأمنية الجديدة التى تلقاها منذ فترة وجيزة، وتنص على ضرورة الخضوع لتفتيش الحقائب الشخصية فى مكتب الأمن عند المجىء إلى العمل صباحًا، وعدم السماح للجمهور بترك أية متعلقات على المكاتب أثناء إنجاز مصالحه فى الوزارة، فجاء رأية كما يلى :

- أسامة طيب ومسكين، وإن كان ينجز عمله فى بطء، وواضح أن ظروفه العائلية صعبة وصحته على قده، أما موضوع الأرانب فأنا عرفته بالصدفة، ربنا

الهمنى أن أسأل عبدالحميد لما شفته ومعه الكيس البكاكى، ولما كلمت أسامة، أنكر حكاية مشروع الأرانب، وقلت أشترى منه أرنبين وأنفعه، ثم إن المرض النفسى مسألة من المحتمل أن تكون كامنة عند الإنسان من الطفولة وتظهر فجأة فى الكبر. لكن بصراحة ياجماعة، أنا كنت ألاحظ أن إيمانه ضعيف، وعمره ما ركع فى جامع المصلحة، ولا ترك الشغل من يده لما يسمع الله أكبر. الإيمان يا أولاد.... الإيمان يعصم الإنسان من التعب والمرض لأن الإنسان لما يعرف ربه يرتاح وروحه تطمئن.

عقب الجميع بهمهمة وتمتمة، وهزوا الرؤوس إيجابًا، ماعدا شاعر العامية الذى تنهد وزفر دون أن يرفع رأسه عن الجريدة، وإن كان نحاها بعد قليل، حتى لايتهم بعدم احترام المدير، ثم أنه انتهز لحظة خاطفة، وفى غفلة من الجميع المنشغلين بالمدير، رسم بشفتيه تعبيرًا استنكاريًا هازئًا (ضمهما سويا وحركهما بسرعة يمينا ويسارًا عدة مرات). وكان الشاعر قد صرخ أكثر من مرة لأسامة قبل مرضه أن المدير هو ثور الله فى برسيمه، ويعيش بعقلية القرون الوسطى.

● ندوة الجيران فى بيت أم فتحية :

وهى ندوة جرت بمحض الصدفة، وقت أن جاءت صاحبة العمارة إلى شقة أم فتحية لتحصيل فلوس ماسورة المجارى، وطلبت من فتحية لم الفلوس من بقية سكان الشقق لأن رجلها اليمين وارمة وعمالة تنقح عليها بسبب أكلة الفسيخ التى التهمتها فى الظهر، فلما ذهبت فتحية إلى الجيران، جاء بعضهم لمناقشة صاحبة العمارة وجها لوجه فى قيمة المبلغ المطلوب للماسورة، فى محاولة منهم لتخفيضه، لكن صاحبة العمارة واجهتهم بدورها، وأفحمتهم تمامًا عندما أبرزت فاتورة ثمن الماسورة، ثم أعلنت أمام الجميع، تنازلها عن حصة شقة أسامة من الفلوس نظرًا للظروف الأخيرة التى ألمت بصاحب الشقة، وهنا افتتحت أم فتحية الندوة فقالت:

- والنبى صعبت على حياة، المسكينة أصبحت تلق فى الجلابية من قلة الأكل، الدنيا غدرت بها، رغم أنها شقيانة وعمالة تجتهد لأجل بيتها وعيالها. آخر مرة شفتها، عرضت على طاقية من جلد الأرانب، واشتريتها من باب التنفيع.

● أما نظرية صاحبة العمارة فكانت :

– يظهر أن الرجل معمول له عمل. قبل شهرين كان قط أسود غطيس على دواسة باب شقتهم ، شفته فتعوذت بالله من الشيطان وناديته : بس بس بس بس. لأجل أن يفز ويقوم، لكن ابن الذين بص لى يلؤم وكور جسمه ولبد فى مطرحه ولم يتحلحل من مكانه أبدًا، فقلت لروحى : بخاطره اتركيه يا بنت على كيفه. وبعدها مشيت خطوتين فى طرقة السلم، فشعرتت بشىء غريب تحت رجلى، ميلت لأشوفه، فوجدته لفة صغيرة من جلد أرنب أسود فى أبيض فتحتها بسرعة، فشفت ورقة مرسومة بالطلسمات والعكوسات، وبأشكال حيوانات غريبة وأرانب فرحت طالعة شقتى بسرعة وحرقت العمل، وحملت كيس ملح رشيدى خشن، ونزلت أرش السلم من أوله إلى آخره، سلمة سلمة، ولما حضر الشيخ سعيد المقرىء ساعة العصر طلبت منه أن يقرأ سورة «قل أعوذ برب الفلق» وحكيت له الحكاية، فنصحنى أن أطلق البخور كل جمعة فى مدخل العمارة.

● تعقيب وإفتاء من فتحية :

– فعلا ياطنط أنا يومها كنت خارجة الصبح للكلية، وشعرت بقرش الملح تحت رجلى، وقلت يمكن إن الملح وقع على الأرض من واحد طالع على السلم وأخذته الناس فى الرجلين، وهى طالعة ونازلة، لكن بصراحة عم أسامة معذور، وأعصابه لابد أن يجرى لها منتهى التعب، لأن فاتن وسامية فى غاية التكبر، خصوصًا سامية متطلباتها بلا حصر، ومناخيرها فى السماء، وطموحها فوق مقدرة أهلها.

● أرملة البواب أم حسن فى خطاب صغير مفتوح لجميع الحاضرين :

يعنى كل الجراير تمت من تحت راس العرسة، لو إن الأرانب ماكان جرى لها ماجرى، ما وقع الأستاذ أسامة وقعة المرض الصعبة ياجماعة. وبصراحة الحكومة تاركة العرس تسرح فى كل ناحية من البلد، ولا جنس مخلوق قادر ان يقول لها بس. طيب لو كانت الحكومة تلم العرس والكلاب السارحة فى الشوارع والنازلة أذى فى الناس، كانت الحكاية ما حصلت من الأصل. البلد فوضى، والكلاب عمالة ترمح وتعض فى الخلق. ابن عباس الساعاتى عضه كلب من يومين قدام

دكانه واضطر ان يروح المستشفى ويحقنوه بحقن الكلب. وأ&! الفوضى والعرس هى السبب فى كل المتاعب.

● ندوة أصحاب الشأن :

وهى الندوة التى تخللتها دموع وحسرات، وتنهدات وزفرات ومرارات وإحباطات وتشاؤم، ثم أمل ورجاء، وقد جرت قبل خروج أسامة من المستشفى بيوم واحد.

والنبى ياماما كفاية حزن. أمسكى نفسك، كلنا يلزمنا التعاون والتماسك، والدموع لا يمكن أن تعود علينا بأية نتيجة. لكن بصراحة يا ماما، أنت يلزمك الحزم مع بابا، لازم تبطلى تسايريه وتوافقيه على الكلام الفارغ والمشروعات العبيطة إياها، وكل شىء وقع بكرة ينصلح إن شاء الله.

- كفاية فلسفة ونظريات ومواعظ يا سامية، ماما معذورة بلا شك وحالة بابا تصعب على الكافر، لأنه قبل كل شىء إنسان طيب وحساس،وحرام أن يجرى له ماجرى، وأنت مسئولة يا سامية عن مرضه بشكل من الأشكال، لأنك صاحبة مشاكل، وتعليقاتك نازلة طالعة على كل كبيرة وصغيرة، وماسكة له هو وماما على الواحدة، لدرجة إنه شعر وكأنه فى حالة حرب، والبيت كله خناقات عمال على بطال. أرجوك يا سامية لما يرجع بابا من المستشفى حاولى إن تكونى لطيفة وأن تتكلمى معه بهدوء وبدون انفعال وتوتر، وكفانا مجادلة فى كل كبيرة وصغيرة.

(فاتن لأختها)

- مستعدة.. أبيع هدومى.. إنشاالله يارب نقضيها بدقة أو عيش وملح، ويرجع أسامة لطبيعته... مستعدة.. أفرش له رموشى ليمشى عليها، مستعدة.. أعمل له خدى كما المداس، وهو يعود لصحته وعقله ووعيه. يارب إنت عالم بحالى.

(حياة)

- أهم شيء ياجماعة هو تهيئة الجو المناسب له لأن العلاج بجلسات الكهرباء متعب جدًا، ومن المحتمل أن ينسى بعض الأشياء. مسألة عادية تمامًا. الجو الأسرى السعيد أهم شيء بالنسبة لحالته، المرح والابتسام والبعد عن النكد والمشاكل مسألة شديدة الأهمية، خصوصًا منك ياسامية؛ وربنا الشافي.

(ابن عم أسامة - وهو يستعد للذهاب لأن الليل ليل)

- ٤ -

بعد ستة شهور من عودة أسامة إلى البيت، بدأت الأمور تسير سيرها المعتاد، فقد استعاد توازنه النفسى شيئًا فشيئًا، بفضل الحقن المهدئة والمنومة والمؤثرة على التركيب الفسيولوجى لسوائل المخ. ثم إنه عاد يزاول عمله فى دفتر المواليد بالوزارة، والجديد هنا أنه صار يواظب على صلاة الظهر مع مديره العام فى الجامع العشوائى الذى يحتل وقت الصلاة مدخل الدور الأول فى الوزارة، حيث تفرش الحصر على الأرض، ويتعطل المرور فى هذه المنطقة من المبنى حوالى نصف ساعة يوميًا يقضيها الجمهور فى حالة انتظار ريثما ينتهى الموظفون المؤمنون من أداء واجبهم الدينى.

ومن التطورات الأخرى التى طرأت على أسامة، أنه كف عن الحلم بالأثداء الكبيرة عابرة الطريق، وصار يغض الطرف عنها مع سبق الإصرار كلما برز بعضها أمام نظره بالصدفة، أما على المستوى الشكلى فقد أطلق لحيته، وبالتالى باتت كولونيا الليمون «الثلاث خمسات» لاتستخدم إلا فى الأغراض الطبية، وخصوصًا فى تطهير موضع الحقنة الشهرية من جلد إليته، أما حياة فقد تحجبت وصارت تغطى شعرها بمنديل كبير، يسقط على كتفيها وصدرها ليقارب ركبتيها، على عكس فاتن التى جاء حجابها بسيطًا يتلخص فى منديل متوسط من الشيفون الملون الزاهى، تعقده خلف رقبتها بعد لفه عليها من الأمام، ليبرز الشيء الوحيد الملفت فيها وهو شعرها الكيستنائى الغزير.

ولا حاجة بنا فى هذا المقام أن نؤكد رفض سامية للحجاب وهو الرفض الذى يعتبر طبيعيًا بالنسبة لشخصيتها رغم إلحاح أمها وفاتن عليها، لتغطى شعرها

بأى شكل من الأشكال، حتى ولو كان طاقية كيروشيه بسيطة تصل حتى الأذنين فقط.

خلال هذه الفترة، جرت بعض الأحداث المهمة للأسرة، فقد رسبت فاتن للمرة الثالثة فى الكيمياء الحيوية، فقررت ترك الجامعة نهائيًا والاشتغال كمدرسة حضانة فى مدرسة لغات قريبة من البيت، بمرتب متواضع جدًا، لم يعوضه إلا الهدايا شبه الإجبارية التى يقدمها الأطفال للمدرسات فى الأعياد المختلفة بدءًا من عيدالأم، وحتى عيد القمح الذى جرى اختراعه أخيرًا. وقد أصبحت حياة فى ورطة حقيقية، إذ عرضت عليها صاحبة قديمة لها، تدير محلاً للتجميل وتصفيف الشعر، أن ترافقها لتعمل معها فى بلد نفطى، لقاء أجر مغر للغاية وبشروط إقامة ميسرة على أن يكون ذلك فى محل تجميل متخصص على مستوى عال، وأن تكون مهمتها على وجه التحديد هى انتزاع الشعر من أجساد زبونات المحل، وعمل تدليك لهن بعد ذلك بالزيوت الطيارة والعطور والدهون. وقد أبلغت الكوافيرة حياة أنها ستقدمها لصاحبة العمل الخليجية كخبيرة فى هذا المجال بالطرق البلدية المعروفة. بدا الراتب المعروض على حياة جذابًا جدًا ويستحق التفكير فى الأمر لكنها كانت تخشى أن تترك سامية وأسامة فى مصر. تخاف أن تنتكس حالة أسامة عندما يفتقدها، وأن يأكلها القلق على ابنتها المتهورة الهوجاء صحيح أن سامية أنهت علاقتها بالرجل المتزوج، لكنها لن تعدم بديلاً له خلال فترة زمنية وجيزة بعد ذلك.

ومن الأحداث السارة التى جرت للأسرة خلال تلك الأيام، أن حياة جاءت بمبيض فدهن حيطان الشقة بالطلاء الزيتى، لون سن الفيل، وقد بدا هذا القرار فى عينى سامية ثوريًا جدًا، لأن الشقة لم تلامس جدرانها فرشاة طلاء طيلة خمسة عشر عامًا مضت.

كما قامت حياة بخطوة مباركة أخرى، إذ طلبت من المنجد أن يشد كراسى طقم الصالون، بعد أن اشترت لها خصيصًا كسوة جديدة من الساتان المنقوش، بدلاً من القديمة التى تهرأت، وقد اضطرت حياة لهذه التجديدات بعدما اكتشفت أن علاج أسامة التهم الشطر الأعظم من متحصل بيع الأساور الذهبية، ورفعت

شعار ضرورة ستر البت، وجعل مظهره لائقًا، فمن المحتمل أن يرد إليه بعض الخطاب لطلب الزواج من فاتن، وهو مالم يحدث ولن يحدث إلا بعد ست سنوات تالية لزمن رفع الشعار، وربما بسبب نحول فاتن الشديد وتضخم أنفها بالإضافة إلى صدرها الممسوح الشبيه بصدر والدتها.

ذات مساء سعيد، وبعدما وزعت حياة قطع البسبوسة على أسرتها الصغيرة بينما كان الجميع يتابعون مسلسل السابعة والربع فى التلفزيون، قال لها أسامة وهو يزدرد مانابه بتلذذ :

- عندى فكرة ظريفة نزيد بها دخلنا، نعمل حلويات ونوزعها على البيوت، ونجعل أسعارها أرخص من أسعار الحلويات فى المحلات بالسوق.

توقفت حياة قليلاً عن تناول مابيدها، نظرت إليه بشفقة، وكادت أن تقول له كفانا مشروعات وأفكار فاشلة يازوجى العزيز، لكنها تذكرت مرضه النفسى ونصائح الطبيب لها : «لاتناقشيه، لا تجادليه، تعاملى معه بحزم» فنظرت إليه بحنان وردت :

- والله فكرة يا أسامة.

استطرد قائلاً بحماس :

- نطلب نشر إعلان صغير فى إعلانات جريدة الأهرام المبوبة، سطر واحد مكتوب فيه «جميع أصناف الحلويات من البيت للبيت بأسعار مغرية»، مع رقم التليفون.

رن الهاتف، رفع أسامة السماعة، فجاءه من الطرف الآخر صوت يقول :

- مساء الخير يا أستاذ أسامة، أعرفك بنفسى، أنا صاحب مشروع لعمل المخللات فى البيت، أخذت رقم تليفونك من الدليل العام وأنا مستعد لتوصيل أى طلبات من المخللات إلى حضرتك فى البيت، علما بأن عندنا أصناف ممتازة من مخللات الزيتون والليمون والخيار والجزر والبصل واللفت وحتى الفاصوليا، ممكن أن النوع الأخير جديد بالنسبة لك، لأنه غير معروف فى مصر، لكن حاول

أن تجربه مرة ومستحيل إنك تنساه بعدها، وحسب الطلب، نعمل لك الخزين السنوى، لكن باتفاق سابق طبعًا. أسعار ممتازة، والتخليل يتم بأساليب علمية لأنى مهندس زراعى ورقم تليفونى هو..

بدت الفكرة رائعة فى نظر أسامة، ليس فكرة المخللات، ولكن فكرة استخدام الهاتف كوسيلة للإعلان عن مشروع الحلويات المقبل، وهكذا ظل أسامة طوال ستة شهور؛ بعد الشهور الستة التى أعقبت خروج من المستشفى، يكرس وقته المسائى اعتبارًا من الساعة السادسة حتى الساعة العاشرة ليلاً للاتصال بعملائه المتوقعين معلنًا عن مشروع الحلويات وقد أسفرت اتصالات خلال تلك الأشهر عما يلى :

● تعرض لشتائم عديدة متنوعة لم تخل من بذاءات ووقاحات، فلقد ظن البعض أنه رجل تافه يرغب فى تضييع الوقت والتسلى بمضايقة الناس وإزعاجهم عمالاً على بطال.

● تعرف على ناس كثيرين يعملون فى مهن مختلفة، بعضها ذات مستوى رفيع، أبدى بعضهم استعدادهم لتشغيله فى وظائف عندهم.

● بعد مكالمة قصيرة مع صاحب رقم عشوائى أبدى الرجل رغبته فى مقابلته شخصيًا فى صباح اليوم التالى بكازينو النهر، على أن يرتدى قميصًا سماويًا وربطة عنق سوداء، ثم إنه تعرف منه على أوصافه، وعندما ذهب أسامة، إلى الموعد المحدد، قابله ذلك الشخص بترحاب شديد، ودعاه لشرب البيرة، وفوجىء به يستجوبه على نحو دقيق بخصوص تاريخه الشخصى وحياته الأسرية، وعلاقاته الاجتماعية، ثم سأله عن جيرانه وابنتيه وصديقاتهما فى البيت والجامعة، وعندما بدأ يشعر بقلق أسامة، وتوتره، أعلن له بصراحة عن الهدف من المقابلة، فقال له أنه سيعينه كمحاسب فى واحد من سلسلة محلات الشهيرة بالمدينة، مقابل راتب معقول، لكن عمله الحقيقى والذى سيقوم به فعلاً هو استلام حقيبة كل أسبوع من مكان محدد وتسليمها فى مكان آخر بهدوء ودون أن يلحظه أحد، شريطة ألا يسأل أبدًا عن محتواها أولاً، وألا يخبر أى كائن كان عما

يقوم به ثانيًا، وأما ثالثًا، فعليه اعتبار عمله هذا التزاما أبديًا، لا يحله منه إلا الموت.

كان الرجل يتحدث بصوت أجش واثق، ولهجة تهديدية لم تخل من جبروت وعنف، مما جعل أسامة يرتعب، ويصب لنفسه دون أن يشعر كأسا من البيرة (كان قد رفض شرب البيرة فى بداية اللقاء نظرًا لمواقفه الأخيرة). فى النهاية أبلغه الرجل دون أن ينتظر منه ردًا أو استفسارًا وهو يقوم فجأة استعدادًا الذهاب، أنه فى حالة الموافقة على العمل المقترح والذى سينال منه خمسة آلاف جنيه نظير كل نقلة للحقيبة بالإضافة إلى المرتب، فإن عليه الاتصال برقم هاتف خاص غير مدون فى الدليل العام للهواتف أعطاه إياه أما فى حالة رفضه فما عليه إلا أن يمزق الرقم وأن ينسى الموضوع نهائيًا، بل وأن ينسى أنه قابله أصلاً. وإلا فإنه سيندم ندمًا لن يفيده بعد ذلك، ثم إن الرجل دفع حساب البيرة ومضى دون أن يكلف نفسه مد يده الضخمة ومصافحة أسامة. ظل أسامة بعد ذلك متسمرًا فى مكانه، يشعر وكأنه يحلم، كان قد أصابته درجة من السكر الخفيف بعد أن عب عبات سريعة من كأسه لكنها لم تمنع استيعابه لكل كلمة قالها الرجل ووعيه لما قاله فطلب من النادل أن يأتيه بفنجان من القهوة المرة الثقيلة حتى يتنبه تمامًا، وعندما عاد النادل كانت الهواجس والظنون والوساوس قد التهمه تمامًا، فالمسألة واضحة كعين الشمس، الرجل يتاجر فى المخدرات عينى عينك، رغم ثرائه الفاحش وامتلاكه لسلسلة من المحلات لم يبح لأسامة باسمها. فكر : لماذا اختارك أنت بالذات يا أسامة؟! ترى أى نوع من المخدرات، الهيروين، أم الأفيون أم الحشيش؟! ثم فكر فى المبلغ الساحر الذى عرضه عليه الرجل نظير النقل، شىء لا يصدق يمكن أن يحدث فى حياته نقلة انقلابية خطيرة لايمكن أن تحلم بها سامية أو فاتن أو حياة، لكن الرعب تملكه فى النهاية من الانغراس فى عمل - مصيبة من هذا النوع، وفكر فى الخروج فورًا من الكازينو وإبلاغ البوليس، لكنه اكتشف أنه يخاف البوليس أيضًا، ويخاف الاقتراب من مبانيه، مثلما يخاف الرجل الأنيق جدًا ذى المظهر الراقى الوقور، الذى كان يجلس قبالته منذ قليل. وفى الطريق إلى البيت، وهو يسير مجرجرًا رجليه بعد أن سابت مفاصله، مزق

..رقم التليفون السرى وطوحه فى الهواء، وشعر بحسرة وإحباط يحطمان روحه ويهدأن كيانه.

● أصبح يحفظ عن ظهر قلب جميع الأرقام الأولى لهواتف مناطق القاهرة الكبرى كلها.

● تعرض لمدة شهرين متواصلين، لمراقبة تليفونية من مباحث الآداب، التى ظنت أن إعلانه عن البسبوسة، وأم على ولقمة القاضى، والشكلمة، ما هو إلا شفرة خاصة لتوريد نساء الرذيلة.

● أصيب بضعف فى السمع بأذنه اليمنى، لاستعماله الهاتف لفترات طويلة.

● زادت مشاجراته مع حياة التى فقدت أعصابها ولم تعد تحتمل قضاءه للأمسيات فى استخدام الهاتف، خصوصًا وقت عرض مسلسل السابعة والربع فى التلفزيون.

● تعرض لتوتر عصبى على فترات متقطعة بسبب جدل بعض من تكلم معهم فمنهم من قال ان الأسعار التى يطرحها مرتفعة، أو أنهم لايضعنون نظافته وسلامة الخامات التى يستخدمها، ويفضلون الشراء من محلات الحلويات المعروفة التى تخضع لإشراف وزارة الصحة.

● عند اتصاله بأحد الأرقام أخبره المتحدث على الطرف الآخر من الخط، أنه قام بالمشروع ذاته، لكنه فشل فشلا ذريعًا.

● مرة، اتصل أسامة برقم من الدليل وكان لسيدة أعلنت بصوت ناعم رقيق تحمسها الشديد للمشروع، وطلبت منه صينية بسبوسة بالقشدة أوصلها أسامة لها فى مساء اليوم التالى، لكن الطلبات المتكررة للمرأة، والتى لم تنقطع أسبوعًا واحدًا أصابت حياة بالقلق، وجعلتها تشعر أن هناك أمرًا ماوراء البسبوسة فوضعت الحالة تحت المراقبة، لتكتشف ذات مساء، وأثناء تصنتها على محادثة هاتفية بين العميلة وزوجها، أن العلاقة بينهما آخر حلاوة، فبدأت تفسر أسباب هجر أسامة لها فى الفراش، وعدم تعليقه على منديل الشيفون الأحمر الجديد

الذى اشترته مؤخرًا، وتوقفه عن مناداتها بياروحى، كما كان يحدث بين وقت وآخر، خصوصًا عند طلبه لشىء منها. وبمواجهته، اعترف أسامة وأقر بأن المرأة أرملة ولا تعول، لأنها عاقر، وانه أمضى معها بعضًا من الوقت أكثر من مرة فى شقتها بشبرا، عندما كان يأخذ لها الحلويات، ثم فجر أسامة قنبلة التحقيق الذى تم ليلاً فى حجرة النوم، بعد نوم البنتين، إذ أقسم لحياة أنه لم يلمس من المرأة أكثر من كفها عندما كان يصافحها، لكنه تعشى عندها أكثر من مرة، ورفض العشاء آخر ليلة ذهب إليها فيها، لأنه كان ملوخية بالأرانب، كما أقر لحياة بأن المرأة كاشفته برغبتها فى الزواج منه، وهى ميسورة، وشقتها واسعة، ولديها أرض تزرعها بالبرسيم، ثم أنهى كلامه وهو يمرر كفه على فخذ زوجته العارى فى حنان ويسألها :

- ما رأيك ياحياتى؟ الولية وحيدة وميسورة ومحتاجة الستر، وانت عارفة إنى فى عمرى مافكرت بأية مخلوقة إلا انت، فكرى فى مصلحة البنتين، ومصلحتنا، الأرض ممتازة ومن المحتمل أن نقوم بمشروع عليها فيما بعد. واعتبرى المسألة كلها مسألة مصلحة ومنفعة متبادلة مع الولية كبرى عقلك ياحياة.

لأول مرة وطوال فترة زيجتها الممتدة، أعلنت حياة رفضها القاطع والنهائى لمشروع زوجها الجديد، لم تكن بحاجة لمعارضة سامية، كما أن توسلات زوجها ومحاولاته لإقناعها لم تفلح هذه المرة وقد ختمت الموضوع بتهديد أسامة بالطلاق دون رجعة، بل وبأنه لن يعرف لها سكة بالفعل إذا ما حاول التفكير بهذه المرأة، وأعلنت إنهاء مشروع الحلويات جلاب المصائب الذى لم ينبها منه كما قالت غير توسيخ المواعين، ولم النمل البلدى الصغير، والفارسى الكبير، والصراصير الرفيعة والصراصير أم شوارب طويلة فى دواليب المطبخ، مما اضطرها لدب مشوار إلى قريب لها فى وزارة الزراعة ليعطيها بعضًا من مبيد التوكسافين الفعال المستخدم فى القضاء على دودة القطن لترش المطبخ كله حتى تتمكن من قطع دابر كل أنواع هذه الحشرات منه. ثم إنها أنهت تهديداتها لرجلها قائلة : «قسمًا عظمًا، لأكون تاركة لك البيت والعيال والدنيا والدين حتى آخر يوم من عمرى يا أسامة إذا ما بطلت حكاية الحلويات وقرفها».

ظلت حياة لفترة أخرى تعيش حالة من القلق وعدم الاطمئنان، رغم ارعواء أسامة، وامتثاله لتهديداتها، وكفه عن مكالمة ولية شبرا، وإجهازها على مشروع الحلويات سيىء السمعة تمامًا، حتى كان اليوم الذى جلب فيه ساعى البريد خطاب هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية المحتوى على فاتورة التليفون الباهظة، التى دفعت بحياة وأسامة إلى اتجاه مغاير تمامًا.

فأسامة لم يتمكن من سداد الفاتورة عن فترة مكالماته الحلوانية بعد أن فاقت كل تصور محتمل بالنسبة له ولإمكانياته وجعلته يضيف اسم هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية إلى القائمة السوداء المتضمنة لأسماء أعدائه جميعًا، ابتداء من الأمم المتحدة وشركائها فى التلفزيون، وانتهاء بمديره العام فى وزارة الصحة (لم يجرؤ أسامة على إضافة اسم أمه صراحة إلى هذه القائمة لاعتبارات دينية أولية توصى بحب الأم وطاعتها)، واعتبر أسامة أن هذه الهيئة هى واحدة من الأطراف الفعالة فى المؤامرة الكبرى التى مازالت تحاك حوله منذ فشل مشروع الأرانب، والتى تستهدف أمنه وسلامته وآماله العريضة فى النمو والنهوض.

مرتب فاتن المحدود لم يسهم فى نقلة حياتية ذات قيمة بالنسبة للأسرة إذ كان ينفق فى الأغلب على ملابسها ومصاريفها الشخصية بما فى ذلك مصاريف مناديل رأسها الملونة التى تعددت لتناسب ألوان ملابسها، وكذلك مصاريف مساحيق الوجه التى باتت تضعها على نحو مهرجانى فى محاولات مستميتة فاشلة لجذب الخطاب، وكتعويض عن أجمل ما تمتلك وقد ضاع منها تحت الحجاب.

صاحبه محل الكوافير، طالبت حياة بقرار سريع قاطع فيما يتعلق بسفرها والاشتغال معها فى الخليج، حتى تدبر الأمر فى حالة عدم سفرها وتتعاقد مع واحدة أخرى، وقد أمهلتها بداية الشهر التالى للشهر الذى أبلغتها فيه بالقرار.

ذات صباح وقبل نهاية الشهر بأيام، كانت حياة تعد الشاى لأسامة قبل خروجه إلى العمل، تأملت موقد الغاز ذا الشعلتين، والثلاجة القديمة التى بدأ يأكلها الصدأ، ودواليب المطبخ المتهالكة، ثم دارت بعينيها على ملاعق الطبخ الكبيرة

المعلقة وأوعية الألمونيوم المهببة القعور، شعرت وكأنها جميعًا تخرج ألسنتها لها وتغيظها عن عمد، فقالت لزوجها وهى تصب الشاى وقد طافت بخيالها صور إعلانات التلفزيون عن المطابخ الجميلة الحديثة الجذابة.

- إسمع يا أسامة، بصراحة الحياة صارت صعبة، والعمر سارح ونفسى أن نطلع للدنيا كما الناس بحق وحقيق. بصراحة أنا فكرت، وقلبتها من هنا مرة، ومن هناك مرة، ودورتها على كل ناحية، فوجدت أن الحل المناسب هو السفر مع سعاد الكوافيرة، حتى تتيسر أمورنا ونشم أنفاسنا بعض الشىء. كلها سنة وأرجع إن شاء الله، ويا عالم، ربما يكون سفرى فاتحة خير لنا جميعًا وبداية الفرج للعيال.

شعر أسامة أن قلبه يكاد يقع منه، فهو رغم كل شىء، لا يتصور البيت لحظة واحدة بدون حياة، فهى عماده الأساسى، شمعة الحياة فيه، السعادة المحسوسة غير المنظورة بالطبع. رشف رشفة من كوب الشاى، فشعر بمرارة طعمه؛ طلب من حياة أن تضيف إليه مزيداً من السكر، وهو يحاول ضبط مشاعره، لئلا يبدو منفعلا أمامها. كان يدرك تمامًا أن قرارها هذا ماهو إلا تحصيل حاصل لما هم فيه، وأنه لم يعد لهذه الأسرة من بديل، غير ذلك الاقتراح الذى اقترحته حياة لتوها، هكذا كان يفكر منذ فترة، ومازال يفكر فى ذلك، رغم توقعه للمعاناة، ومشاعر الفقد. والوحشة، التى سوف يسقط فريسة لها عندما تغيب عن البيت، لكنه لم يجرؤ على مفاتحتها فى الأمر أبدًا، فقد كان متحرجًا من مصارحته لها برغبته فى أن تسافر، بعد كل المتاعب التى سببها لها، وبعد مشروعاته الفاشلة، ومرضه المزعج بكل ما فيه من ملابسات، كما أنه لم يتقبل نفسيًا أن تكون حياة، وهى امرأة أولاً وأخيرًا، مصدرًا لحياة الأسرة، ثم إنه كان يخشى أن تظن به الظنون لو صارحها برغبته فى سفرها، بسبب حكاية غرامه الأخيرة، أو أن تعتقد أنه يرغب فى إبعادها والتخلص منها حتى يخلو إليه الجو فيبيض ويصفر كما يشاء.

آثر أن يكون لطيفًا، لبقًا، مجاملاً لها فقال :

ـ مستحيل ياحياة أن تفكرى فى مسألة السفر، البيت بدونك يختل وأحوالنا تتلخبط. يا خبر ياحياة! فكرى فى فاتن وسامية، كلنا فى أشد الاحتياج لك، ومستحيل أن تسافرى وتتركينا أصبرى يا حياة الله يخليك.

كانت حياة تدرك من نبرات صوته، وهى التى عرفته وعركته لسنوات طوال، أنه يكذب ويجاملها، فعاودت طلبها منه ليوافق على سفرها، مشتركة بذلك فى المسرحية التى بدأها لتوه، والتى تعرف أنها ستنتهى النهاية السعيدة المنشودة فقالت :

ـ والنبى حاول التفكير بجد فى الموضوع يا أسامة، وحكم عقلك. يعنى هل أسافر وأشتغل وأجيب الفلوس، أم أحط يدى على خدى، ونقول للناس هاتوا؟ يعنى هل أنت مستريح بعد قطع الحرارة عن التليفون؟ وهل انت مبسوط من أحوالنا، وبلاط البيت القديم المتكسر، عمال يطقطق كل ما مشت فوقه رجل؟ وا& أنا لو سافرت، فالسفر على فص عينى، لكن العمل عمل ربنا، وعصفور فى اليد ياسيدى، خير من ألف على الشجرة، ثم إنها ألقت إليه بالخبر القنبلة فقالت:

- ثم هل تعرف أن العمارة صدر لها قرار إزالة من المحافظة، وصاحبتها ناوية تطلب من أصحاب الشقق التوقيع على القرار حتى تكون خالية المسئولية لو إن العمارة وقعت لاسمح الله، يعنى المسألة أصبحت جد فى جد، والتفكير فى موضوع النقل من العمارة لأى مكان أصبح ضروريًا لأن المسألة واردة فى أى لحظة.

عاود أسامة رشف الشاى دون أن يرفع نظره عن الكوب، ثم انتظر قليلاً قبل أن يسألها :

ـ وهل شاورت سامية وفاتن فى مسألة السفر؟

ردت حياة بسرعة وحماس :

ـ سامية موافقة ومتحمسة جدًا، لكن فاتن سحت دموعها، وحطت من كل عين الشيء الفلانى قبل ما أكمل كلامى عن الموضوع إلى الآخر معها. ياحبيبتى..

دموعها قريبة جداً، أصلها عاطفية وحنونة. لكنى أظن إن علينا التفكير بجد لأن الولية سعاد، فى انتظار رد منى قبل آخر الشهر.

بعد أيام قليلة من ذلك الصباح، تصورت حياة صوراً فورية ملونة واستخرجت جواز سفر دون أية إجراءات بيروقراطية سخيفة مما أثار دهشتها وهى المعتادة كمواطنة على الروتين المعقد طوال حياتها عند التعامل مع أجهزة الحكومة، وقد علقت على ذلك لأسامة بقولها :

«كما لو كانوا متمنين ومشتهين إن الناس كلها تسافر وتغور، ولا ترجع البلد أبداً».

حان وقت الرحيل بعد ذلك بأسابيع ثلاثة، وفى الوقت المحدد، فتحت حياة الباب، وأسامة خلفها يحمل حقيبتها، بينما راحت فاتن تتأملها بعيون محمرة كعيون الأرانب بعد أن بكت كثيراً ولم تخل، أما سامية، فكانت تحثهم على عدم التلكؤ، وسرعة الحركة، حتى لا تفوت أمها الطائرة، ثم إن حياة خاطبت فاتن قائلة :

– والنبى يافاتن، ومن نبى النبى، لأكون مجهزة لك العريس معى عند رجوعى البلد بمشيئة واحد أحد، ونظرت إلى سامية نظرة ذات معنى، فهمت منها الأخيرة أن أمها تعاود التشديد على وصيتها لها، والتى تتلخص فى مراقبة أبيها جيداً، ومنعه من الاتصال بأى شكل من الأشكال بولية شبرا، ووأد أية مشروعات جديدة قد تبرز فى رأسه قبل ميلادها، ثم مواساة فاتن المسكينة لأنها لن تكف عن البكاء.

نظرت إليهم وتنهدت بحرقة، ثم إنهم ذهبوا معها جميعاً إلى المطار.

تحولت إشارة المرور إلى الأحمر فتوقفت السيارات الكبييرة والصغيرة، وانتظر الناس، بينما دب الطفل بقدميه وصاح وهو. يشاهد جملاً يعبر الطريق:

ـ ماما.. الجمل

ردت دون أن تحيد ببصرها عن إعلان لقرية سياحية جديدة، شغل حائط بناية ضخمة على ناصية الشارع :

ـ طيب.

تابع بعينيه الكائن الضخم المهيب، برقبته الممتدة، وسنامه العالى، وهو يخطو بخطوت وئيدة؛ زفر برضا ثم أعلن :

ـ ماما.. عاوز الجمل.

ـ ياسلام؟!

قالتها وعيناها على بيضاء الإعلان، ذات الشعر الأصفر، المستلقية على الرمال فى لباس بحر من قطعتين.

ثلث مطلبه، وساق عليها النبى :

ـ والنبى ياحبيبتى عاوز الجمل.

كانت تمسكه بيد، وتحمل بيدها الأخرى حقيبته المدرسية وكيس خضار، أما حقيبتها فقد علقتها على كتفها.

أعلنت مستنكرة بعد أن ملت انتظار نور العبور الأخضر:

ـ جمل.. معقول؟!

لم تغب عيناه عن الجمل حتى غاب، فشرع فى البكاء مؤكدًا جدية مطلبه وإصراره عليه.

ـ وماله الجمل؟! هاتى الجمل وخلاص.

اكتشفت جدية الموضوع، فابتسمت، وشرحت :

ـ الجمل كبير ياحبيبى. مستحيل نحطه فى بيتنا. شقتنا صغيرة، والجمل يحتاج لمكان واسع.

دحض منطقها بسرعة :

ـ خلاص.. نروح ونقعد فى بيت كبير ونشترى الجمل.

ـ ها ها ها.. بيت كبير لأجل الجمل؟! البيت الكبير تلزمه فلوس كثيرة، أنا فلوسى قليلة.

ـ طيب خلى فلوسك كثيرة.

ـ مستحيل ياحبيبى، لأن مرتبى صغير، على قد الأكل والشرب.

عاود الدبيب على الأرض بقدميه وصرخ :

ـ لكن أنا عاوز الجمل، هاتى لى الجمل وخلاص.

الشمس قوية فوق رأسها، والرطوبة خانقة، أما البيت فما زال الطريق إليه ممتدًا، وصبرها فاض فصرخت هى الأخرى :

ـ أنت أهبل؟!.. حمار؟! قال عاوز الجمل قال!!.. إخرس خالص ومد، خلينا نروح البيت وأشوف الطبيخ قبل رجوع أختك من مدرستها.

انفتحت حنفية الدموع عن آخرها، ودعمتها صرخاته، وهو لا يتوقف عن ترديد مطلبه - الذى رآه عادلاً وبسيطًا - فى إصرار :

- عاوز الجمل ياستى، يعنى مالة الجمل. نفسى تسمعى كلامى مرة وتجيبى لى طلبى.. هىء.. هىء.. هىء.

أبرزت الجانب المظلم من الأمومة، وشمرت عن أظافر وأنياب، وزعقت فيه.

- طيب أسكت ساكت، واقطع الخنس بسرعة، وإلا ضربتك لحد ما أعدمك العافية، ياحمار، ياغجرى.. والله لو سمعت حسك لأضربك هنا فى الشارع وقدام الناس كلها.

بدأ يرعوى تحت وطأة التهديد، فقد كان مدركًا تمامًا إمكانية تحوله إلى تطبيق عملى، فخفض من حدة بكائه، لكنه لم ينه بالكامل؛ عندئذ رقت الأم قليلاً، وقررت اتباع الشق الثانى من سياسة المعز :

- اسكت يابنى - الله يرضى عنك - لأنى مصدعة وجسمى يوجعنى كله، يظهر أنى داخلة على دور أنفلونزا، اسمع، تعال أجيب لك حاجة حلوة، عاوز بنبونى والا شيكولاته؟

كاد أن ينفلق غيظًا. إنها تستخف به. توقف عن المسير وصرخ بغضب :

- قلت لك : جمل، جمل، لا بنبونى ولا نيلة.

أوشكت أن تنفجر هى الأخرى، هل تتوقف وتضربه، أم تبتلع غيظها وتسكت؟ فضلت الحل الأخير، لكنه لم يكف عن البكاء والمطالبة فوقع الانفجار :

- إخرس، بلا كلام فارغ، إنت عبيط والا صغير؟! عندك ست سنين وتقول عاوز الجمل؟! انسخطت، والا انسخطت؟! سخطة لما تسخطك، هو الجمل لعبة والا حاجة بسيطة؟! شىء يغيظ ويفلق والله.. يعنى ناوى تلعب بجمل؟!.. ؟!

فاجأته بسؤالها، فهو لم يكن لديه تصور محدد لما سيفعله بالجمل حتى هذه اللحظة، لكنه مازال يملك شعورًا قويًا جارفًا تجاه هذا الكائن العظيم الفريد، الذى توقفت له إشارات المرور والعربات وجميع الناس حتى عبر الطريق.

تذكر السنام والرقبة والعين الجاحظة فتنهد فى مرارة، وتأكد من أحقية مطلبه، فشتمها فى سره.

وجدته صامتًا يفكر، فاستأنفت هجومها المقنع.

- ثم إن الجمل سعره غال ياحبيبى، لازم تخلى عندك ذوق وتعقل وتسمع كلام ماما، حرام تتعب قلبى وتطلع روحى وهى طالعة خلقة من الحر.. الله يهديك، إمش.

حاول هو استخدام أسلوبها، فقال بهدوء:

- طيب ياماما، لكن الجمل حاجة بسيطة خالص.

أجابته بسرعة مستجيبة لحوار العقل :

- طيب.. إنت عمرك شفت أى إنسان عنده جمل. أولاد عمك مثلاً. هل عندهم جمل؟.. الجيران، أى واحد منهم عنده فى بيته جمل؟ اعقل ياحبيبى الله يهديك.

دحض منطقها بسرعة :

- الجيران عندهم كلب، وأولاد عمى عندهم عجلة و..

لم تعد تحتمل النقاش فزعقت مغتاظة، حتى أن صوتها جذب انتباه عجوز كان يعبر بجانبها فنظر إليها مليا وهى تقول لابنها :

- إخرس. خلاص.. يلعن أبو شكلك وغلاستك.

وأكد لنفسه أن أمهات هذا الزمن مسكينات وعصبيات وروحهن فى مناخرهن بسبب الحياة الصعبة، وقلة الغذاء، وأكل الفراخ البيضاء. واللحم المجمد معدوم الخير، ثم إنه تصعب ونظر للولد فى شفقة وسار.

الولد لم ينتبه للتعاطف الخارجى الذى كان يسير إلى جانبه، إذ كان يسير محدقًا بالأرض، شاعرًا بظلم فادح، من هذه المرأة المفترية، رغم عدالة قضيته من جميع النواحى، مطلبه بسيط إنسانى جدًا : جمل، لا أكثر ولا أقل. هى تتحدث عن الناس. الناس ليس عندهم جمال، لكن عندهم أشياء أخرى كثيرة ليست عنده فى البيت، فلماذا تقول الناس، وتقول أولاد عمه؟!

قررت أن تشرب حاجة صاقعة تطفىء غيظها وشعورها بالحرارة، لذلك فانها بمجرد أن وقع نظرها على زجاجات الصاقع وقد تناثرت فوقها قطع الثلج فى صندوق بأحد المحلات توقفت وسألت ابنها :

- تشرب حاجة صاقعة؟

لم يرد، واستكمل البكاء والزن وهو ينظر إليها فى حقد، فقالت له :

- انفلق. إنشاء الله ما شربت.

جاء البائع مبتسمًا ليفتح لها زجاجة ليمون، فلما وجد الولد يبكى أخذ يلاطفه ويخيره بين أنواع الحلويات التى لديه، والولد لا يستجيب، فقالت الأم بعد أن سحبت من الزجاجة سحبة طويلة بشفتيها :

- قطيعة، قطعت خلفة الصبيان، خلى روحى فى مناخيرى، ونازل يقوق لأنه شاف الجمل فى السكة، وعاوز أجيبه له!؟ شىء يفلق.

ابتسم البائع مرة أخرى، وأخذ يربت على الولد، ووجه له الكلام :

- جمل؟ معك حق والله، طيب أنا أجيب لك الجمل ياعم، ولا يكون عندك أى فكر.

دخل الرجل الدكان. وعاد بعد قليل وفى يده جمل صغير، جمل من البلاستيك الأحمر الخفيف وضعه بين يدى الولد الصغير.

قلب الطفل الشىء البلاستيكى بيديه، تأمله، كان على هيئة جمل فعلاً قارنه بذلك العظيم، المهيب، الذى عبر أمام ناظريه الطريق، بدأ حائرًا مترددًا دهشًا من غباء الرجل، كيف يسمى ذلك الشىء الذى بين يديه جملاً؟! لكنه تردد مرة أخرى، إذ كان بين يديه شىء على أية حال، فسكت ولم يقل شيئًا.

كانت الأم قد انتهت من زجاجة الليمون، فلما وجدته هادئًا ساكنًا قالت :

ـ الله.. والله جميل جدًا.. وأحمر وحلو.

رمقها الطفل بما يشبه الريبة والاحتقار، وواصل صمته.

ـ تعرف.. تقدر تحطه فوق التلفزيون، أو تخليه ينام جنبك على السرير فى الليل.

قالت ذلك فتصاعد شعوره بالمرارة والخديعة وخيبة الأمل فى هذه الكاذبة التى أمامه، لكن بما أن هذا الشىء البلاستيكى الأحمر كان فى يديه فعلاً فقد واصل سكوته بينما نطق البائع بزهو المنتصر :

ـ العيال أقل شىء يرضيهم بسرعة، وأفضل طريقة معهم المحايلة. أكدت الأم وهى تخرج الفلوس من كيسها :

ـ طلع روحى طول السكة.. عاوز الجمل.. عاوز الجمل، كنت ناوية أرنه علقة، والله فى الشارع من عزم غيظى، ومنعت نفسى بالعافية.

نظر البائع إلى الولد فى رضا وحاول مناقشته :

ـ حصل خير، لكن يا أخى اطلب عجلة، طيارة، إنما جمل، ذوقك غريب جداً، الجمل كان أيام زمان، بكرة ينقرض ويختفى خالص.

ابتسمت الأم بسعادة من خرج من ورطة، وسحبت الولد مغادرة المحل، لكن ما إن ابتعدت قليلاً حتى أعلن لها بصوت هادىء واثق :

ـ ماما.. عاوز الجمل والنبى.

امتلأ الجو برائحة دخان الشواء الشهية، فامتلأ صدر الشواء اعتزازًا، وزاد من حركة المروحة المصنوعة من ريش الإوز، المصبوغة بألوان زاهية، والتى كانت بيمناه بينما امتدت أصابع يسراه لتلتقط قطعة من السفود وتدفع بها إلى فمه.

كانت الرائحة فاضحة، قوية، مغرية بما يكفى لأن تغامر القطتان فتقتربا كثيرًا من موضع الشواء حتى صارتا على بعد أشبار قليلة من أصابع قدميه المدملكة الطالة من نعله المفتوح. ألقت القطتان نظرات سريعة مستريبة على حركة الأصابع المتململة لكثرة الوقوف، ولما اطمأنتا إلى أنه لا شىء يستحق القلق والخوف منها استرخى جسداهما، بينما راحت أبواق آذانهم الصغيرة تستجيب متحركة فى اتجاه صوت بوق سيارة مسرعة فى الطريق مرة، ولصراخ طفل مرة أخرى، ثم لنداء صاحب الشواء على العابرين ثالثة.

استقرت البيضاء المرقطة بالأصفر على قوائمها الأربع فى وضع الانتظار، أما الرمادية المقلمة بالرصاصى الداكن، ذات الفم الوردى المكتنز، فقد اتخذت وضع التطلع وقد اشرأبت بعنقها الرفيع، وبدأت الاثنتان فى إرسال تنويعات على لحن واحد : مياو.. مياو..

كانت البيضاء ذات صوت ناعم حاد، قادر على بث مؤثر رقيق من خلال مياو، التى كانت تخفت وتعلو دون تجاوز المسافة بين الاستجداء والاسترحام، أما الرمادية فبدا مواؤها واثقا، لا يخلو من اعتداد بالنفس، وإصرار، كمن يطالب بحقوق مشروعة واجبة التنفيذ، ربما كان ذلك بسبب صوتها الأجش بعض

الشيء، أو بسبب هيأتها الشبيهة بهيأة النمور إلى حد كبير. الحقيقة أن مياو الصادرة عنها، بمختلف تلاوينها الصوتية العالية والمنخفضة، القصيرة والطويلة، كانت تقترب من الوقاحة.

مضى وقت، واقترب المساء، وإذ لا جديد، شعر الجميع بالملل، فزاد الشواء من حركة تبديل قدميه، وخفف من حركة يديه. أما ذاتا الأربع، فقد قررت البيضاء منهما افتراش الأرض الترابية بجسدها، وراحت تلعقه لعقات سريعة متوترة، واصلت بعدها المواء، بينما اكتفت الرمادية بابتلاع ريقها فى عصبية عدة مرات، ثم فتحت فمها واسعًا للتثاؤب حتى بانت لهاتها، وبعد ذلك علت من وتيرة مياو المطلبية.

عندئذ، قرر صاحب الشواء حسم تردده، إذ كان قد فكر كثيرًا قبل ذلك فى نهرهما وزجرهما قائلاً: بس، إمش؛ وها هو يعلن تنازله ورضوخه لمطلبهما، ربما بسبب ضيقه بكثرة المواء، وربما لأنه لم يجد شيئًا يفعله فى تلك اللحظة، أو لأنه يحب القطط ويعطف عليها، ومن المحتمل كذلك أن يكون وراء ذلك التنازل إيمانه العميق بضرورة الإحسان إلى الحيوان الأعجم الذى تحتسب الحسنة إليه بأكثر من عشرة أمثالها، لأنها حسنة مخفية لايجازى عليها إلا رب العالمين.

ألقى الرجل إليهما بقطعتين من زوائد اللحم تحول المواء على إثرهما إلى: ييخ، فخ، فو، أف.. ثم طارت القطتان بغنيمتهما الثمينة مبتعدتين عن مكان الشواء، الذى تنهد بارتياح، وراح يغنى بمرح : ياليل، ياعين.

كان الدخان قد انتشر، ووصل إلى نهاية الشارع، حيث جلس كلب على الناصية يتشمم الهواء، باحثًا عن مصدر الرائحة اللذيذة، وسرعان ما حمل نفسه ومشى ليستقر واقفًا على بعد خطوات قليلة أمام محل الشواء.

ثبت الكلب جسده فى وضع الصبر والانتظار، ونظراته على عينى الشواء، الذى صار مشغولاً بزبائنه، وبتحضير الأرغفة المحشوة باللحم وشرائح البصل والطماطم لهم، غير أن ذلك لم يحل بينه وبين التطلع والنظر بين الحين والحين إلى الطريق.

.. فى كل مرة، كانت عيناه تصطدمان بالعينين العسليتين الناظرتين بود وطيبة إلى عينيه، ومهما مر الوقت، ومهما عاود الرجل النظر، كان يجد النظرة ذاتها، والبث الودود نفسه، المعبر عن امتنان ووفاء مسبق منقطع النظير؛ ضعف الشواء أخيرًا بينما كان يتلقى ثمن أرغفته من زبون، فمد يده البضة السمينة، ذات الأصابع المكتنزة إلى قطعة مصارين صغيرة، وألقى بها إلى الحيوان الواقف أمامه ينتظر حبلاً للوداد.

هو.. واحدة، كانت كل التعبير عن الرضا والامتنان والشكر العميق من الكلب الذى حمل قطعة المصارين بفمه وانسحب بهدوء. كح الشواء وبل ريقه بشربة ماء، ثم تجشأ فى راحة.

توارت الشمس تمامًا، وهل المساء بنسمات طرية رطبة، وزبائن لابأس بهم، تمنى الشواء الانتهاء من بيع ماتبقى لديه من لحم بسرعة لينهى عمله، ويذهب إلى خمارة الليل السهران، ليشرب «خمسينة براندى»، يئوب بعدها إلى بيته ليقضى بقية ليله مع امرأته فى الفراش.

فجأة برز أمامه ولد وبنت صغيران بعيون متطلعة، وملابس رثة، وشعر خشن منكوش، أخذا يلعبان ويضحكان حينًا، ويتضاربان حينًا آخر، لكن أعينهما كانت دائمًا عليه، على شوائه تحديداً، وعلى الزبائن الواقفين بالقرب منه يلتهمون اللحم فى نهم وتلذذ.

أحسن الشواء بضيق، وقال لروحه : ليل الليل، والناس رامية عيالها فى الشوارع، عالم وسخ والله.

لم يكف الطفلان عن الضحك واللعب والتضارب، بينما لم تكف عيونهما عن النظر إلى الشواء، وبطناهما عن طلب اللحم اللذيذ المتقلب فى أسياخه الحديدية على حبات الفحم أمامهما، فراحا يدفعان بعضهما بعضا فى محاولة مكشوفة للفت انتباه صاحب الشواء.

استشاط الشواء غيظًا، وأكد لنفسه فكرته السابقة عن أطفال الشوارع وأهلهم، وقال لروحه وهو يضغط على أضراسه بغل : أولاد الحرام؟! ولما لاحظ

اقترابهما منه أكثر صرخ بعنف قائلاً وقد ضاق بهما ولم يعد قادرًا على الاحتمال:

- إمش يا ولد، رح لبعيد أنت وهى، بلا خوتة، وكفاية قلة أدب.

تسمر الصغيران فى مكانهما برهة، وهما ينظران إليه فى يأس، ثم سرعان ما أخرجا له لسانيهما الرفيعين، وجريا بعيدًا وهما يبتسمان فى حزن ومرارة.

بدا المكان مرتفعًا جدًا عندما نظرت من الشباك، إذ كان حائط النخيل المواجه لا يظهر منه إلا سعفه الأخضر الداكن المتراص. تزايد الرعب بداخلى، فرحت أعيد البحث عن منفذ للخروج، بعد أن قطعت الأمل فى إمكانية القفز خارجًا عبر واحدة من تلك النوافذ والطاقات والكوات الكثيرة فى هذا البيت الكئيب، الذى لا أعرف كيف ومتى دخلته، ولم أنا فيه. كان الظلام قد بدأ يحل وأصوات مبهمة متناثرة لأناس كثيرين تخترق أذنى. قررت الصراخ طالبة النجدة، لكنى أفقت من نومى مذعورة على الزعيق المعهود لجارى وهو يسب ويشتم. فتحت عينى فى الظلام، بينما صدى الأصوات مايزال يتردد بداخلى. تأففت ومددت يدى متحسسة المكان بحثًا عن زر المصباح، فلما سمعت «تيك»، ورأيت إنبلاج النور فى الغرفة، نظرت من مطرحى إلى ساعة الحائط المثبتة فى الممر قرب الباب وهتفت لنفسى حانقة :

- اهمدوا ياعالم. ربنا يهدكم ونرتاح من قرفكم. خناقات على آخر الليل، إزعاج مستمر. لا ترعوا حرمة جار، ولا تحسبوا حساب ناس عندها اشغال فى الصبح. حوش. همج. برابرة.

تثاءبت بضيق، وكنت أعرف استحالة معاودة النوم، بعد ذلك الزعيق، والكابوس المفزع فقمت، دخلت المطبخ وفتحت الثلاجة متطلعة إلى ما بداخلها علنى أعثر على شىء حلو آكله لأفش غيظى فيه. فلما لم أجد غير الفول والزيتون وبقايا متبقية من جبن العشاء، مددت يدى إلى زجاجة ماء، وبينما كنت

أصب كأسًا لأشربه. اقتحمت أذنى أصوات : تراخ.. بو.. فو.. أف.. تفو، ثم الصوت المتحشرج المعهود لجارى : «والله لأكون قاتلك ولا يطلع عليك نهار يا بعيدة، ودينى، وما أعبد، لأسيح دمك وأستريح منك». وقفت متسمرة مندهشة فى مكانى أستمع لأصوات صحون تتكسر، وأثاث يقلب. ماهذا؟ ساءلت نفسى، ثم أجبتها : الرجل جن جنونه فعلاً، وربما يتهور ويقتلها. أغلقت باب الثلاجة وأنفاسى تتلاحق من فرط الإثارة وتابعت هواجسى : مصيبة سوداء لو قتلها لن أبقى فى هذه الشقة ليلة أخرى بعد ذلك، أنا خوافة جدًا، فى عمرى كله ما شفت أى عفريت، لكن حكايات العفاريت التى سمعتها منذ صغرى مازالت محفوظة فى أرشيف ذاكرتى. سبحان من خلانى أعيش وحدى فى شقة. بدأ شريط صور حكايات العفاريت يعبر خيالى على خلفية من ألحان الرعب التى بدأت تنبثق فى داخلى. ثلاثية عفاريت جدتى أم أمى وهى : العفريت أبو رجل مسلوخة. العفريت أبو ثلاث عيون مشقوقة بالطول. العفريت أبو جلد معزى سوداء، ثم حكايات عفاريت جارتنا نينة حفيظة، وهى العفاريت الجهنمية القادرة على شق الحيط فى عز النهار والخروج لتأديب العيال الذين لايسمعون الكلام. ثم حكاية عفريت بنت السلطان برقوق التى كان يحكيها لى عم إبراهيم العبد، خولى غيط عنب داير الناحية.

تعوذت من الشيطان الرجيم، إذ كان الخوف قد سلسلنى تمامًا، وأوقع قلبى، خصوصًا بعد همود الأصوات، وانتهاء الزعيق. سرت على أطراف أصابعى متوجهة إلى نافذة المطبخ المطلة على المنور الفاصل بين شقتى وشقة الجيران وأنا أرتعد، ورحت أصيخ السمع، وأتطلع إلى نافذتهم المقابلة لنافذتى، الصمت عميم يسمح بسماع صوت مشى النملة. ياربى.. هل قتلها فعلاً؟ هل صفت كل الخناقات والمشاحنات التى طالما استمعت إليها بقتلها؟ رحت أتذكر آخر خناقة دارت فى الشقة المقابلة لشقتى، والتى كنت مستمعة عيان لها ساعة نشرى الغسيل يوم عطلتى وقت الغروب، وبعد أن فردت قميص نومى الأخضر الفستقى على الحبل، جاءنى صوته الخشن وهو يأمرها :

- فزى. غورى من خلقتى بسرعة لأنى عاوز أنام.

مثلما يحدث عادة فى كل مرة تنفذ فيها أصوات المشاجرة إلى أذنى. لم أسمع منها ردًا، سمعت فقط - وكما يحدث فى بعض الأحيان ـ صوت قطتهما وهى تموء بدلال، وهذه القطة هى الشىء الوحيد الذى تسنى لى رؤيته فى شقة هؤلاء الجيران حتى الآن، إذ لاحظتها بضعة مرات ممددة على إفريز نافذة مطبخهم، سمينة، مشمشية اللون من النوع الرومى، وكانت تبدو لامبالية عادة، حين أداعبها وأناديها : بس.. بس.. بس.. بس، إذ كانت تكتفى. بإغماض عينيها نصف إغماضة ثم تموء بصوت خفيض لا أسمعه من مكانى، لكنى أرى حركته على فمها.

ترى، أى طراز من النساء امرأته تلك، حاولت تصور شكلها، تخيلتها امرأة من الطراز التقليدى، سمينة ببضاء، من النوع المنزلى الآليف. أنا سمينة أيضًا، لكنى لست من النوع المنزلى الأليف، طلقنى زوجى بعد مرور شهور قليلة على زواجنا، رمى اليمين الشهير ذات يوم رفضت فيه إعداد كوب من الشاى له، فاتهمنى بقلة الذوق والتربية، وفجر مخزون غضبه فى مونولوج طويل من السباب، بلغ ذروته عندما أعلن صراحة أنه يكرهنى، وأنى عرة النساء ولا أساوى شيئًا فى سوق الحريم، فلا مال لى، ولا جمال ولا حسب ولا نسب، وأنه كان أعمى عندما تزوجنى، ثم لعن أولاد الحرام الذين أشاروا عليه بالزواج منى، والمقصود بذلك ابن خالته وزوجته زميلتى فى المدرسة. وبمجرد أن انتهى من ذلك الموشح أسدل الستار على الفصل الأخير لزواجى بذلك الرجل، مدرس التربية المسرحية، ثم خرجت من البيت بعد أن ألقى يمين الطلاق فى وجهى، فقررت بدورى - وفى ساعتها - تطليق كل الرجال ومازال القرار مستمرًا. لكن الواضح أن زوجة جارى لا تعمل إلا بالبيت، ربما لهذا السبب، وبسبب خروجى المبكر إلى عملى، لم تتح لى الفرصة لرؤيتها أبدًا. لكنى رأيت الرجل مرة أو مرتين على الأكثر منذ بداية سكنى فى العمارة، بعد انتقال عملى إلى هذه المدينة. لقد بدا لى رجلاً مهذبًا خجولاً، لم يتطلع إلى وجهى قط وأنا أبادله تحية الصباح على بسطة السلم. حتى صوته فى عز الشجار، رغم ارتفاعه، كانت تسرى فيه رنة حزينة، يبدو الرجل معها، وكأنه يتوسل، لايسب ولا يشتم. رجل طيب على مايبدو، أظن أن المرأة

زوجته طيبة كذلك، لأن صوتها لا يسمع أبدًا، وحتى بكاءها لم أسمعه قط، ربما هى من النوع الكتوم الذى لا يرغب التجريس ويخشى الفضائح، لكن الغريب هو أمر الجيران الذين لا يحاولون التدخل وإصلاح الأمر بينهما، رغم كل ذلك الشجار والصوت العالى الواصل لكل العمارة. غريب والله أمر الناس فى هذه المدينة الكبيرة، كأنهم حيوانات تعيش داخل أقفاص إسمنتية ضخمة، كل بقفصه منفرد يتجاهل وجود الآخرين ويتصرف وكأن لا أحد فى هذه المدينة سواه. تنهدت بأسى. بينما رحت أشخص ببصرى خارجًا فى الظلام، تجاه نافذة مطبخ جيرانى المقابلة، صائخة السمع، محاولة اكتشاف جديد جد عندهم.

لكنى لم أر شيئًا عبر زجاج النافذة المغبش، اللهم إلا ضوءًا يسيرًا. لا حركة. لا نأمة. لا حس. لا خبر. ربما تصالحا. ربما اعتذر لها وقبل يديها ثم أخذها فى أحضانه ليسحبها إلى الفراش حيث يقضيان الآن وقتا حميمًا مسالمًا. لكن ما هذا. ياربى! إنه يبكى. الرجل يبكى. صوت بكائه مسموع بوضوح الآن، هو يبكى بحرقة وينهنه كالعيال، عويله يائس مهزوم. إذن لقد قتلها، أجزم أنه لابد وأن يكون قد فعلها. لا إله إلا الله، الرجل عملها، وهو منهار انهيار سد مأرب، يا للمسكينة، لم أسمعها ترد عليه بربع كلمة فى أية مرة من المرات، لم يسمع لها صوت أبدًا، لا حول ولا قوة إلا بالله. لكن كان عليها أن تستغيث أو تصرخ، أو تجأر مستنجدة، أو تزعق قائلة : حرام عليك.. حرام عليك يا.. اكتشفت خلال ذلك، أننى لا أعرف للرجل اسمًا. اعترتنى وحشة من اصطدم بالغموض وسرعان ماتذكرت الكابوس الذى داهمنى منذ قليل، لما كنت نائمة. لبرهة بدت المسألة لى وكأنها استمرار لذلك الحلم المفزع، حاولت التيقن. رفعت راحتى وتحسست ساعدى، فاستشعرت ملمس جلدى المزغب اللزج فى هذه الليلة الصيفية الحارة.

رحت أمعن فى حياة جيرانى وتساءلت : لماذا يتشاجران على هذا النحو دائمًا، خناقاتهما مسائية وليلية على الأغلب، هل الرجل من النوع السهير السكير؟ هل يتعاطى المخدرات؟! لكن مظهره عادى تمامًا ولا يبدو عليه ذلك. لا زوغان فى نظراته، لا انتفاخ أو احمرار فى عينيه، تعبير وجه هادىء وطبيعى. رحت أشحذ ذاكرتى لاستحضار ملامح ذلك الوجه. أظنه نحيل بأنف طويل بعض الشىء

وعينين داكنتين على الأغلب. لم أتصور أن المشاكل مع امرأته وصلت إلى هذا الحد : حد العنف والقتل. فكرت فى المرأة بدورها، ربما كانت من ذلك النوع المستفز الغياظ اللامبالى من النساء، لكن حتى لو كانت كذلك، فلينفصل عنها ويتركها بالمعروف، ليبحث عن بديلة لها تلائمه، أما القتل فشىء لا يمكن فهمه، وحتى الضرب مسألة لا يمكن استيعابها أبدًا، لعل الرجل من النوع العصبى المتهور، لا يستطيع التحكم فى نفسه وقصر الشر، لكن زوجته مغفلة أيضًا، لأنها لا تسايسه. لا تفهم أن الحياة مع رجل أفضل من الوحدة. فلتسألنى أنا.

إن الحياة مع أى إنسان أفضل من الوحدة. بل حتى الحياة مع أتفه حيوان أفضل من الوحدة. أن يعيش الإنسان وحيدًا معناه أنه اختار سجنه الانفرادى بنفسه. فمثلاً لو كان معى أى مخلوق الآن كنت سأكلمه وأناقشه فيما يحدث الآن.. لكن...

اشرأببت بعنقى قليلاً، علنى أرى شيئًا، لكن لا شىء يرى سوى النافذة المقابلة المغلقة. الرجل فى شقته يبكى بمرارة. أشعر بدموعه ساخنة على خده تحرق قلبى، تتجمع دموع أحر منها فى عينى، يتناهى صوته إلى مرتفعًا، ممرورًا للغاية : «أنا مجرم، وحش. عقلى راح وضعت ياناس! يارب خلصنى من الدنيا.. أهىء.. أهىء.. أهىء..» مسكين الرجل، جن فعلاً، قلبى يتقطع بسببه. يجب أن أتماسك وأفعل شيئًا. سأكلم البوليس، فمن المحتمل أن يفكر الرجل فى قتل نفسه، سأتصل بالبوليس ليأتى فورًا. «لكن هل انت واثقة يابنت من قتله لها، افرضى أنه لم يجهز عليها، هل تتحملين مسئولية البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات؟ الا تعرفين أن السلطات منزعجة فعلا، ومتلمظة على أى مخلوق يحاول إزعاجها؟».

وقعت فى حيص بيص، وقلت لروحى : لكننى رغم ذلك لابد من عمل شىء، مستحيل السكوت. كانت مشاعر متناقضة تتملكنى تتراوح بين الفضول والشفقة والرغبة فى لعب دور ما بخصوص مايحدث فى شقة الجيران، وهكذا وجدتنى أهرول إلى حجرة النوم لأفتح الدولاب، وأخرج ثوبى البنى الطويل ذى الأكمام المحتشمة، وهو الثوب المخصص لمقابل الغرباء فى البيت. خلعت قميص النوم وارتديت الثوب على عجل، ثم كومت شعرى إلى الخلف بمشبك، وأخذت التمام

فى المرآة. بعدها انطلقت إلى باب الشقة ففتحته واحتفظت بمفتاحه فى يدى. كنت مفعمة بأمل : لعله لم يفعلها والمرأة على مايرام. تمنيت الا تكون الفأس قد وقعت فى الرأس لأصالحهما. قررت ذلك بينما كنت أعد خريطة بسيطة للكلام مع أولئك الجيران. سأدق الجريس بلطف، وعندما يفتح الرجل لى بعد تردد، إثر إخبارى له بمن أكون، أعرفه بنفسى قائلة : فريدة بدوى. مدرسة بمدرسة أهل العلا الإعدادية للبنات. أصلى من الفيوم ومنقولة بعد الترقية كمدرسة أولى للجغرافيا إلى هنا. الحقيقة أنا ساكنة وحدى، ثم أنى تنبهت من نومى على صوتكم، وبصراحة الدنيا ليل والطيب أحسن، ثم إن كل عقدة ولها حلال. المهم صفاء القلوب والنية السليمة. وأنا سمحت لروحى بالتدخل فى الموضوع لأننا هنا فى الأحياء الجديدة المتطرفة عن وسط البلد، كل إنسان منا وكأنه مقطوع من شجرة يعنى من المفترض أن نكون كلنا سترًا وغطاء على بعضنا بعضًا، وسندًا وعوضًا عن الأهل والأحباب. ولما يبش الرجل فى وجهى ويدعونى للدخول، أدخل بأدب، وأطيب خاطره وخاطر زوجته التى سيأمرها بعمل الشاى، وعندما نجلس ثلاثتنا لشرب الشاى أهدىء والطف الجو بينهما، بادئة الحديث عن حالى وظروفى لأهيئهما للكلام عن حالهما، وحين أستشف أنهما ارتاحا لما قلت، وفتحا قلبيهما لى، مثلما فتحت لهما قلبى، أخذهما بالهداوة والعقل، وأمد لهما حبل المعروف والوداد، فنأخذ ونعطى فى الحديث، وكلمة من هنا وكلمة من هناك، حتى تهدأ النفوس، ويطير دخان الصدور، ثم أنى لا أتركهما إلا بعد أن يكونا سمنًا على عسل، والمشكلة بينهما صافية لبن، ونصبح بعد قليل جيرانًا وأصحابًا، آخذ صوتهما ويأخذان صوتى، وكذلك اللبن لى عندما يأتى اللبان ولا يجدنى، لأنى أكون فى المدرسة. كما أن صوتهما يصبح معى، بدلا من الوحدة والوحشة والشعور بأن الإنسان مرمى رمية كلب أجرب منبوذ فى صحراء حفراء جفراء.

اجتزت الفسحة الموصلة بين باب شقتى وشقتهما بثبات وحماس، بدا لى كل شىء ساكنًا فى ذلك الوقت المتأخر من الليل. هممت برفع يدى لأتحسس موضع زر جرس الباب فى الظلمة، التى لم يغيبها كثيرًا ضوء ضعيف نافذ من شراعة بابهما الزجاجية المثبتة خلف قضبان حديدية رفيعة، وقبل أن تمتد يدى للضغط

على الزر، جاء صوت الرجل عبر الباب المغلق، صوت سيال بالحنان والرقة والرضا وهو يقول : - خلاص.. حقك على تعالى هنا، تعالى ياحلوة على حجرى، بس.. بس.. بس.. بس. لكن إياك ومد اليد على أى أكل محطوط فى المطبخ. أكلك فى طبقك وبس. فاهمة، فاهمة يا أنيسة، يا الله، تعالى عندى.. بس بس بس بس. تلفت فى الظلام حولى، داخلنى شعور وكأنى ما زلت نائمة، سارعت الخطى إلى بيتى وساقاى لا تقويان على حملى، خوفًا من أن يرانى أحد وأنا على هذه الحال، فلما وصلت إلى باب شقتى لأدخل وأغلقه خلفى، كنت كمن عبر بحر الظلمات إلى بر الأمان.

وقفت لحظات أستند بظهرى إلى الباب المغلق، ألهث انفعالا. كنت خائفة مضطربة مطمئنة راضية معًا، فالرجل غريب على أية حال رغم أنه لم يقتل، أظن أنه يؤاخى الجن، وإلا فلماذا كل هذا الضجيج والزعيق؟ أمن المعقول أنه كان يحادث القطة؟ أيحادث قطة مثلما يحادث أى إنسان عاقل ضربت كفًا بكف، وسرت إلى غرفة نومى، خلعت عنى ثوب الغرباء، وفكرى ما يزال مشغولاً بالرجل، لكنى أقنعت نفسى فى النهاية أن الأمر لا يخلو من طرافة، ثم إن الحياة فى هذه المدينة المجنونة، الكئيبة، الموترة، تدفع الناس إلى حافة العصاب، وتجعلهم يفعلون أى شىء، أى شىء مهما كان غريبًا وشاذًا يصعب تصديقه.

استعدت سكينتى قليلا بعد توصلى لهذه النتيجة، فألقيت بنفسى على سريرى طلبًا لاسترخاء تمنيته فى هذه اللحظات، وأخذت أتقلب عليه، فبدا لى واسعًا مريحًا، فردت ساقى وباعدت بينهما متلذذة بنسمات آخر الليل الطرية الداخلة من النافذة المفتوحة على مصراعيها بجوارى. تنفست بعمق ونظرت متأملة سماء رائقة ممتدة تعزف بوميض نجومها لحنا ذهبيًا هادئًا. ظللت أحدق فيها بعينى باحثة عن درب التبانة، حتى بدأ النعاس يداهمنى.

وكنت أثناء ذلك أفكر فى جارى الغريب، بدا لى مسكينًا بائسًا. حاولت تذكر ملامحه وتحديدها، اكتشفت أنها عادية تمامًا لكنها مقبولة ولطيفة إلى حد ما. تقلبت فى فراشى بجسد أخذ فى الاستكانة والاسترخاء مستسلمًا لنعاس لذيذ، ولرغبة ما، كان قد نسيها ذلك الجسد منذ زمن بعيد.

• إيقاعات متعاكسة •

إلى منير الشعراني

تعتبرنى أمى كالشريك المخالف، فهى تزعم أننى لو قالت الشرق أقول الغرب، ولو قالت الشمال أقول اليمين. غير أنى خيبت ظنها فى صباح ذلك النهار الصيفى الحار، بل كنت معها كالعجينة بين راحتى خباز، إذ بدت لى، رغم ضيقى بالرطوبة الخانقة فى الجو، فعالة، مؤثرة، لا تقاوم كإعلانات المياه الغازية اللحوحة فى التلفزيون. لأنها كانت تنصحنى بكلمات رقيقة لا تخلو من صواب، ولا أنتظرها منها كثيرًا، لأننى فى نظرها، وكما تصفنى عادة: «العلكة المرة التى تلوكها كل يوم».

ولهذا امتثلت لأفكارها الرمانتيكية، فارتديت ثوبى الكمونى الداكن، المخصر لأبدو أنحف قليلاً، علمًا بأنى أكره لونه لأنه يذكرنى بأشياء مقرفة كمشروب الحلبة وروث البهائم المتماسك. ثم عقصت شعرى إلى الخلف، بعد أن لاحقتنى كزنبور البلح، وأنا واقفة أمتشط أمام المرآة، وهى تكرر على مسامعى: «اعمليه شنيون، اعمليه شنيون، وحطى الوردة القطيفة البنفسجية فيه».

لبيت رغباتها حتى النهاية، ومشيت إلى محطة الأتوبيس المتجه إلى آخر الخط، كى أضمن مقعدًا شاغرًا يقينى تعب الوقوف، ومغبة أى احتكاك اضطرارى بالركاب، قد ينجم عن حركة صعودهم ونزولهم، وهكذا وكما ارتأت أمى. أذهب للمقابلة هادئة الأعصاب، بمظهر مرتب لائق، فأحوز على القبول فى اللحظات الأولى، وتسير أمورى على ما يرام.

عندما ركبت كان الأتوبيس قد أفرغ معظم حمولته من الركاب، طفت بنظرة بانورامية على المقاعد الشاغرة، لأختار أفضلها موقعًا، لمحت فلاحة وولدًا إلى جوارها يجلسان قرب المؤخرة، وكان هناك رجل، يبرز منشار من طرف حقيبته الجلدية الكالحة الموضوعة إلى جوار مقعده، أما المحصل فقد كان فى مكانه المعتاد بالقرب من الباب الخلفى، منكبًا باستغراق على نقود يعدها، وأوراق يدون عليها حساباته، وهو يدخن نافثًا دخانه فى أرجاء المكان، على راحته.

سرقت، بنظرة خاطفة متوجسة، صورة المنشار، ورحت أثبتها فى مخيلتى، بينما كنت أندفع لأجلس على الكرسى المرتفع، المجاور للشباك، بالقرب من الجهة الأخرى التى يجلس فيها صاحب الحقيبة. تنهدت برضا ويدى تتحسس جوربى الرمادى الشفيف، بينما كان شعورًا متزايدًا بالامتنان لأمى يداخلنى، لأنها نصحتنى بالركوب فى الاتجاه المعاكس.

قبل وصوله إلى محطته الأخيرة، توقف السائق فجأة، وبدأ عجوز يصعد من الباب الأمامى، رفع قدمه اليمنى ببطء حتى تمكن من صعود الدرجة الأولى، وما أن استقرت عليها حتى رفع قدمه الأخرى إليها، ثم استراح لحظات قبل أن يكرر الحركة ذاتها صاعدًا الدرجة التالية، فلما صار عند مدخل الأتوبيس، الذى كان قد أخذ فى التحرك مسرعًا مرة أخرى، سعل، وتنحنح، ثم قدم تحية مجانية للجميع، فلم يحظ بشرف الرد عليه إلا من الفلاحة الجالسة عند المؤخرة.

نظرت إلى ساعة معصمى، لحظة توقف الأتوبيس تمامًا فى نهاية مساره، كان الوقت قد مر، وفقًا لحسابات أمى تقريبًا، أى عشر دقائق أخرى، ويثوب الأتوبيس إلى وسط المدينة، مبتغاى وهدفى الأخير فى هذا الصباح. عشر دقائق أظن أنها كافية كى يشرب السائق والمحصل الشاى، ويستريحا قليلاً، أو يثرثرا مع زملائهما ورؤسائهما الذين يتجمعون عند نهاية الخط بهذا المكان عادة.

«لا بأس» قلتها لروحى، بعد أن فكرت فى وجوب الاستفادة من الوقت. فتحت دفاترى الموسيقية، لأراجع برنامج العزف الذى انتويته لساعة الاختبار بدأت أقلب الصفحات فى محاولة أخيرة لتذكر الجمل الصعبة، التى أنساها عادة، كنت

مقتنعة بأن مختاراتى الموسيقية مناسبة جداً لعمل من هذا النوع. سأعزف شوبان، وفرانزليست، ثم أشرع بعد ذلك فى عزف رحمانيوف، وأظن أن تألقى الحقيقى، الذى سوف يدفعهم لقبولى فى الوظيفة؛ سيكون مع رحمانيوف، فأنا أعزفه بكل مشاعرى وأحاسيسى، بل إن قلبى يرفرف فى صدرى رفرفة طائر ذبيح، عندما تبدأ أناملى فى ملامسة أصابع البيانو، فينساب اللحن الجليل الرائع، مع شلال ذكرياتى، وحبى لمينا. مينا فردوسى المفقود، وأملى الخائب، الغائب فى أمريكا، بعد أن تركنى، وترك أهله والبلد، والدنيا والدين، وهج تاركًا الجمل بما حمل.

زفرت بمرارة، وهمست لروحى: لا داعى يا بنت لتقليب مواجعك الآن، ليس وقته، افتكار الحبيب وخليك فيما أنت فيه وفكرى فى الوظيفة وركزى فى كراساتك حتى يوافقوا على عملك معهم فتتخلصى من موشحات أمك، المزمنة، التى ترددها كمقرر يومى لابد أن تسمعيه: «قاعدة، قعدة الهم فى القلب، لا شغل ولا مشغلة. خلفة الندامة والله». ثار فى داخلى الشعور الحانق، الذى يأكلنى كلما تذكرت عبارات أمى هذه، أنا لا أعرف ماذا أفعل كى أشتغل، وأتزوج، فأحقق رغباتها! إن الوظائف ليست ملقاة على قارعة الطريق ثم إننى لست ضد فكرة الزواج، لكن هل هناك طوابير من الرجال تدق بابى، وتتصارع كى تخطفنى؟! إنها تتهمنى بالتقصير، وبأننى لا أبذل الجهود الملائمة لجذب الرجال، غير أنها لا تتوقف لحظة لتفكر فى مساهماتها العميقة والفعالة الكفيلة بتعطيل هذه «الجهود الملائمة» على نحو حتمى، إنها لا تفكر فى عطاياها الأبدية لى: الضب القبيح الذى يدفعنى لأن أخفيه بيدى، كلما ضحكت رغمًا عنى، وساقاى القصيرتان السمينتان كأرجل كنبة استانبولية قديمة لا يرغب فيها أحد.

استعذت بالله من الشيطان الرجيم، الذى فور دمى، ودخن صدرى، وألبنى على أمى، لكن آه لو تفهم!، آه لو تفهم أننى راضية بحالى، وقانعة بمعاش أبى البسيط، المصروف لى من الحكومة بعد وفاته باعتباره أحد موظفيها المناضلين، الذين ثابروا على العمل وفقًا لنظمها الروتينية، الرتيبة القاتلة، لأكثر من ثلاثين سنة.

ثم إننى قلت لها أكثر من مرة، إننى لن أدخل مؤسسة زوجية، لا يدخلها مينا معى، ومينا ضد المؤسسات الزوجية، وأنا لن أتنازل عن موقفى حتى لو وضعوا السكين على رقبتى.

حشت دموعى من السقوط، لكن غصة هائلة تكومت فى حلقى، وأنا أتذكر رافض المؤسسة، اليائس من محاولاته الفاشلة كما يقول - للتكيف مع حياة العصور المظلمة التى نحياها، فهو لا يستطيع الحياة هنا بريع عقل، ونصف عين وبلا لسان. وكان قد فشل فى إكمال دراسته العليا بمعهد الموسيقى، ولم يعين كمعيد به - رغم تفوقه - لأنه لم يتملك أبدًا أسلحة الوساطة والنفوذ والفلوس الفعالة.

تذكرت فجأة، أننى لابد أن أعزف موسيقى أغان لعبد الحليم حافظ، لأنها ستكون أكثر ملاءمة لعرسان وعشاق ليالى الخميس، فموسيقى أغانيه سوف تدغدغ مشاعرهم، وتلهب عواطفهم وهم يقضمون قضمات صغيرة لطيفة من خبز الفندق الشهير، ويرفعون كئوسهم متجرعين خمر سعادة ستبقى محفورة فى ذاكرتهم إلى الأبد. رحت أنبش ذاكرتى، فأخرج منها الجمل الأساسية فى «صافينى مرة» و«أهواك»، و«أنا لك على طول».

كنت أثناء ذلك أرتب شروطى للعمل أيضًا، فالمزاح وقلة الذوق من الزبائن ممنوعان تمامًا. بالطبع سألبى أية طلبات موسيقية خاصة، لكنى لن أبق لثانية واحدة بعد انتصاف الليل، وعملى سيبدأ من الثامنة حتى ذلك الوقت، وإن لم أفلح فى ذلك سوف اتفق مع صاحب سيارة أجرة ليقوم بردى إلى البيت مقابل أجر شهرى. لكن يا رب اجعلهم يقبلونى فى هذه الوظيفة، والنبى يا رب، لأجل خاطر أمى، فأنا رغم كل شىء أحب أن أدخل الفرح عليها مرة، وترضى عنى.

فعلاً.. وكما توقعت بالضبط، سيشريان الشاى. قلت لنفسى بارتياح وقد رفعت رأسى عن الكراسات ناظرة من الشباك فرأيت المحصل عائدًا إلى الأتوبيس، وبيده كوبان من الشاى. عظيم، سيرشفانه بسرعة كما يفعل أمثالهما عادة، ثم ينطلق الأتوبيس إلى هدفه، هدفى: وسط المدينة. لكن أين السائق؟

السائق؟! لا أراه قادمًا مع المحصل، أين قائد المسيرة؟! فليأت بسرعة ليشرب شايه، توسلت هامسة برفق، ولم يسمعنى أحد غير نفسى: «الله يخليك يا عم يا سواق، تعال اشرب الشاى بسرعة حتى نخلص».

صعد المحصل من الباب الأمامى، ووضع كوبى الشاى بتؤدة وحرص على إفريز السيارة أمام عجلة القيادة، وسرعان ما هبط مرة أخرى ليبتعد مختفيًا عن ناظرى داخل مبنى أصفر قريب من موقف الأتوبيس، وكنت ما أزال أتساءل عن سبب عدم ظهور السائق حتى هذه اللحظات. فكرت فى الاستفسار من العجوز إياه، وكان قد جلس عند صعوده الأتوبيس فى أول مقعد صادفه وهو المقعد الواقع أمامى مباشرة، لكنى اكتشفت اختفاءه من مكانه أيضا. بدأ القلق يشوى أعصابى، فالوقت يمر متجاوزًا ثلث الساعة، وقد كنت أحسب ربع ساعة على الأكثر مدة كافية للاستراحة، ينطلق الأتوبيس بعدها عائدًا إلى وسط المدينة. نظرت إلى ساعتى شعرت أن عقاربها تحاصرنى، تعتصرنى، وتجعل رأسى يدور معها. حركت رقبتى يمنة ويسرة بضيق. قضمت أظافرى، وهى عادة لا أمارسها إلا عندما تكون حالة طوارئ أعصابى قد بلغت مائة فى المائة. تخيلت اختناقات المرور المتوقعة، وازدحام الطريق، وشبح تشاحن وارد الحدوث بين سائق الأتوبيس وسائق أى سيارة أخرى بسبب التنافس على السير. قاربت على الانهيار وقد أيقنت أننى لو لم يتحرك الأتوبيس فى غضون دقائق معدودة، لن أصل أبدًا فى موعدى المحدد. فتحت حقيبة يدى السوداء الصغيرة، ألقيت نظرة متأنية إلى وجهى فى المرآة المثبتة على غطائها الداخلى، سويت أحمر الشفاه الداكن أعلى شفتى السفلى بطرف إصبعى إذ اكتشفت خروجه قليلا عن الخط المحدد. شعرى ممتاز، هو أجمل ما لدى بالفعل، لكن وجهى على بعضه، لا يخلو من رقة، رغم مشكلة ضبى، وعيناى مشعتان تكشفان عن حقيقة «روحى السامية»، كما كان مينا يقول لى دائمًا وهو يبتسم بسخرية.

لكن آه لو أمتلك الإرادة وأنحف قليلاً، أو أستطيع التحكم فى شهيتى، فأساعد مؤخرتى على التراجع والانكماش، ويصبح خصرى على نحو أدق، لكنها المكرونة! مشكلتى هى المكرونة، فأنا مدمنة على هذه الفكرة الإيطالية، بكل أنواعها

وأشكالها.. أحيانًا أظن أن الله خلق المكرونة خصيصًا ليعذبنى ويمتحن إرادتى، ومدى احتمالى!

أخيرًا، لمحت العجوز خارجًا من المبنى الأصفر، يهم فى مشيته قدر مستطاعه، وهو مقبل على الأتوبيس. تنهدت بفرح، وأغلقت حقيبتى ورحت أعدل جلستى، فالأتوبيس على ما يبدو سيبدأ رحلته لكن ما هذا الكيس البلاستيكى الكبير، الذى يحمله الرجل فى يده؟! تطلعت ناظرة إليه باهتمام وأنا أراجع صورته فى ذهنى عندما صعد الأتوبيس فى المرأة الأولى، كان يحمل بيسراه حزمة من البصل الأخضر فقط، استرعت انتباهى وقتها، مع معطفه الشتوى الثقيل، الذى يرتديه ورغم حرارة الطقس فى هذا الوقت من العام. شغلنى الفضول، حاولت التكهن بما فى داخل كيس العجوز، فكرت فى المبنى الأصفر الذى خرج مه توًا، ولكنى لم أنس ضياغ الوقت فانفجر قلقى فى النهاية، وسألت بمجرد أن رفع الرجل قدمه محاولاً صعود الأتوبيس.

- هل شفت المحصل والسواق يا عم، وحياتك؟

واصل صعوده دون محاولة تذكر للنظر ناحيتى وقال:

- كلها حبتين ونمشى، العيش خرج فى التو من بيت النار.

ثم واصل راغبًا فى الأخذ والعطاء بينى وبينه فسألنى:

- هل عندك ورقة كبيرة، أفرد عليها الأرغفة وأهويها؟.

قال ذلك، ونظر فجأة إلى دفاترى الموسيقية المستقرة على حجرى.

أجبته هازة رأسى بالنفى، ورحت أحكم يدى على الدفاتر، وقد شعرت أنها مستهدفة تنهد غير عابئ بردى، وبدأ يخرج الأرغفة من الحقيبة البلاستيكية ويرصها متجاورة على إفريز السيارة الأمامى.

أعدت النظر إلى ساعتى، الوقت يفر، ولن أصل أبدًا فى الثانية عشرة تمامًا، كما أكد على زميلى وصديقى حسام عندما حدد موعد لقائنا ليأخذنى إلى الفندق ويقدمنى إلى المدير، ذلك الرجل المتشدد جدًا فى مسألة الوقت، لأنه باختصار، ليس لديه وقت، كما قال حسام.

كدت أبكى من شدة غيظى، فالساعة الآن الثانية عشرة إلا ربعًا، والأتوبيس سيلزمه حوالى ثلاثين دقيقة على الأقل حتى يصل إلى وسط المدينة، وسأكون بحاجة إلى دقيقتين بعد ذلك لأسير إلى مدخل محطة مترو الأنفاق حيث سأقابل حسام، ثم نواصل السير بعد ذلك، إلى الحى التجارى، لنلتقى مع مدير فندق الزنبقة الحمراء، وذلك معناه عشر دقائق على الأقل! هل ألطم؟! أم أصرخ كالمجانين فجأة، وأقول للعجوز والسائق والمحصل، إنهم ضيعوا منى، فرصة نادرة للعمل؟! تماسكت، اكتفيت بالكز على أضراسى، وأنا أعلن بصوت مفعم بالغل والغيظ:

ـ والله حرام هدر الوقت يا جماعة، صار لنا فى الموقف أزيد من ربع الساعة، والأتوبيس ما زال فى مطرحه. الناس عندها مواعيد ومصالح يا ناس.

قلت ذلك، موزعة احتجاجى على العجوز، والفلاحة، والشاب النحيل، الذى اكتشفت إنه حل على كرسى محل صاحب المنشار، غير أن أحدًا منهم لم يعرنى اهتمامه. الفلاحة وجهت سؤالاً مباشرًا للعجوز المنهمك فى تهوية الأرغفة.

ـ هو الرغيف بخمسة كما العادة يا عم؟

أجابها مثل خبير متخصص قائلاً:

ـ بخمسة طبعًا، أصله فرن الحكومة، لكن الرغيف ـ ما شاء الله ـ مخبوز وأبيض، ومستو، وفارق عن أى عيش فى أفران الحكومة، يظهر لى أن السبب مدير كبير فى التموين، من الساكنين فى شارع الفرن. يا الله خير.

لم تصغ الفلاحة للشق الأخير من نظريته، بل أعلنت بيانًا حماسيًا بصوتها الحاد، جاء فيه:

ـ والنبى بخمسة؟ طيب، هم يا حسين وهات لنا بجنيه، وارجع طيارة يا حبيبى.

رأيت الولد حسين بعد لحظات، يعدو مسرعًا تجاه المبنى الأصفر إياه، بينما السائق والمحصل يخرجان منه. إذن هذا هو الفرن.

تنفست الصعداء، بمجرد رؤى الرجلين، وأعلنت لنفسى، أن المهزلة على وشك الأنتهاء، لأن الأتوبيس سيتحرك فى غضون ثوان قليلة. وصل الرجلان إلى الأتوبيس فى خطوات نشيط متلاحقة، وسرعان ما اعتلى السائق كرسى القيادة، بينما أخذ المحصل يضع حقيبة الخبز إلى جوار كرسى زميله، وبدأ الاستعداد لمراسم تحصيل الأجرة.

صاحت الفلاحة فجأة فى رعب وقلق:

ـ انتظروا الله يخليكم، الولد ابنى، نزل يشترى العيش من الفرن.

رشف السائق رشفة طويلة من شايه بالتذاذ ورد:

ـ يا ولية، صار لنا ساعة فى الموقف، وأنت ولا كأنك هنا، لازم نتوكل ونمشى.

كررت المرأة توسلها:

ـ معك حق يا ابنى، لكن ـ والنعمة ـ ما كنت عارفة إن هنا فرن فيه عيش عدل.

ـ طيب.. خلاص.

ثم رشف رشفة أخرى، وسكت.

قلت فى سرى: «خلصت روحك من بدنك يا شيخ». كنت على وشك البكاء بجد، فأنا أتعذب، وأتمنى الذهاب لهذا اللقاء، حتى أرضى أمى إذا قبلوا اشتغالى كعازفة فى قاعة الطعام الليلية فى الفندق، رغم أنى لست متحمسة كثيراً لهذه الوظيفة، ولا لأى وظيفة غيرها، فالحقيقة أننى لست من النوع المتحمس الطموح، وأنا راضية بمعاش أبى القليل، الذى أظن أنه الحكمة الوحيدة من وفاته. لكن أمى تريد توظيفى فى وظيفة مرموقة، لتجنبنى، مصيرها المؤلم ـ كما تظن ـ هى ولا تريد أن أكون مثلها، مجرد مدرسة موسيقى مغمورة فى مدرسة إعدادية للبنات، تعزف أغنيات سخيفة فى حب الوطن وزعمائه.

الحقيقة أننى لا أهتم برغبات أمى كثيراً وسيان عندى أن أعزف فى دار الأوبرا لسادة بالملابس الرسمية، و أعزف لأطفال فى حضانة، أغنيات من نوع:

«دخل رجلك جوا، طلع رجلك برا»، وبصراحة أكثر، أنا لست موهوبة، لا فى الموسيقى، ولا فى غيرها، وأمى هى التى دفعتنى لدراسة الموسيقى منذ صغرى، لأنها أرادت منى تحقيق ما فشلت هى فيه، لكنى ورغم كل ذلك أريد أن يقبلوننى فى هذه الوظيفة، لأرضيها، وأفرحها مرة فى حياتها، فتنسى حكاية «العلكة المرة التى تلوكها كل يوم».

صرخت بعنف فى الجميع:

- يا ناس عندنا مواعيد وظروف، مستحيل أن ننتظر أربعين دقيقة، بسبب العيش، وتضيع مصالحنا من أجل الكلام الفارغ. الله!

نظروا إلى جميعًا، كأننى مجنونة، وبدا لى أنهم مبهورون بفكرة أننى تحدثت معهم، إذ رد السائق معتذرًا بلطف، لم أتوقعه فى مثل هذه الحالات، وراح يطيب خاطرى قائلاً:

- يعنى يرضيك أن نترك الولد ابن الولية.

وكانت فرصة مواتية للفلاحة، فتصعبت وحوقلت، فى لفتة احتجاجية على احتجاجى.

الشاب الجالس محل صاحب المنشار، خرج عن وحدة، الصف اللطيف، وغمز لى بعينه على نحو واضح، فتجاهلته متعمدة، ونظرت إلى العجوز وهو يجمع الأرغفة ويحولها إلى الكيس مرة أخرى، لاحظ نظراتى، فحاول تهدئتى قائلاً:

- طولى بالك يا بنتى، طول العمر من طول البال.

- لكنى كنت قد حدت عنه بنظرى إلى الأرغفة، فاكتشفت لأول مرة أنها بيضاء، كبيرة، شهية، وكاملة الاستدارة كعلامة الروند، تمنيت قضم رغيف منها، واكتشفت أننى جائعة، ففكرت فى المكرونة، وكان الأتوبيس قد بدأ يتحرك، بعد أن جاء الولد والتحق به، فقبعت ساكنة، وهدأت ثورتى، إذ اكتشفت أننى لن أصل فى موعدى أبدًا. ما ضايقنى بعد ذلك، وطوال الطريق، ذلك الندم الذى تملكنى، لأننى لم أفكر فى شراء أرغفة كبيرة، بيضاء، لأمى.

تطلعت وهى جالسة فى خصها إلى قطعة الأرض الممتدة على طول الشارع، المتوسطة لجانبيه، أخذتها بعيدًا هواجسها الدائمة، فقد مرت تسعة أشهر كاملة، ولم يعد زوجها من عمله مع المقاول فى المدينة البعيدة، بينما ما تركه لها من فلوس قليلة يكاد ينفد.

تنهدت وأعادت نذرها لمن فى السماء، أن تشترى بخمسين قرشًا كاملة عظامًا للكلب، ليأكل حتى الشبع، إن ستر هو الجالس فى عليائه، وجنبها الفضيحة ومذلة السؤال، وعاد عائلها لصغاره مرة أخرى.

فكرت ظريفة وهى تتأمل تلك الأرض الممتدة المفروشة بالطمى، تمهيدًا لتخضيرها كحديقة تزين الشارع الفسيح، والتى ـ رغم مرور سنوات عديدة ـ لم يزرعها أحد، ولم تمتد إليها يد، اللهم إلا أيدى نفر من سكان العمارات المجاورة الذين يغترفون منها أحيانًا ليزرعوا ورودًا وزهورًا فى أصص شرفاتهم.

وضعت يدها على صدرها، متحسسة كيس فلوسها القماشى، المعلق فى رقبتها، والمتخبئ بين ثدييها تحت ثوبها، والمحتوى على عشر جنيهات، هى آخر ما تبقى لها من فلوس زوجها المرتحل، فكرت بسرعة ثم قررت: ستغامر وتشترى مكيالا من الذرة، تبذره فى طمى الشارع، وتجرب حظها، وليكن ما يكون.

كانت ظريفة قبل ذلك الحين، قد فكرت فى حلول أخرى للخروج من ورطتها، مثل الذهاب وعيالها إلى رجلها فى المدينة التى يعمل بها، لكن، أليست هذه مغامرة كبرى؟ فمن المحتمل أن يكون قد مات أثناء العمل مثلما يحدث لكثيرين

من أمثاله، وفى هذه الحالة، ماذا ستفعل مع عيالها فى بلد لا تعرف فيه إنسانًا، ولا يعرفها مخلوق؟

اقترحت على نفسها مرة أن تلم عيالها وتعود إلى قريتها البعيدة فى الريف، لكن أية حياة يمكن أن تحياها فى هذه القرية مرة أخرى بعد أن جربت حياة المدينة؟ فالنوم على أسفلت الشارع أفضل ألف مرة من الرقاد فى بيت الطين الوضيع الذى ولدت وعاشت فيه لسنوات وسنوات، ثم إن حادثة ابنتها الصغرى، أكدت لها معنى الحياة فى المدينة، فقد كانت الطفلة تلعب مع العيال عند مواسير المجارى المكومة بالقرب من خصها، فسقطت عليها ماسورة صلب، بترت إصبعين من أصابع يدها، فطارت ظريفة بها إلى المستشفى العمومى حيث تم إنقاذ البنت التى ربما ماتت قبل إسعافها لو جرى لها ذلك فى القرية، لأن أقرب مستشفى فى البندر، يبعد عن القرية حوالى أربع ساعات.

لم يمر شهران إلا وكانت ظريفة تجلس على قاعة الطريق، فى مواجهة محطة الحافلات العمومية، تشوى على الفحم باكورة إنتاجها من الذرة، وتبيع للرائح والغادى فى الطريق.

لم يأبه موظفو البلدية لما فعلته ظريفة فى أرض الدولة التابعة لها، لأنهم لم يطأوا هذه المنطقة منذ فرشت بالطمى قبل حوالى خمس سنين، إيهامًا لسكانها أن الحكومة بصدد زراعتها وتجميل الشارع، ثم إنهم وضعوا الاعتماد المالى المخصص لتشجيرها وتعشيبها، منذ تلك الفترة كوديعة فى البنك، يقتسمون أرباحها فى نهاية كل عام، دون المساس بمبلغها الأصلى كى لا يتعرضوا لحساب الدنيا، إذا ما فكر مسئول حنبلى فى مساءلتهم ذات يوم، ولا لحساب الآخرة، فالأرباح رزق هبط عليهم من السماء من حيث لا يدرون، إذ ألهم الله فكرة الوديعة واحدًا منهم.

صحفية ناشئة، مثالية بعض الشىء تسكن فى المنطقة وتركب الحافلة العامة عادة عند ذهابها للعمل من المحطة المواجهة لغيط الذرة، شاهدت ظريفة ودخان الذرة المشوية وقشر العرانيس المتناثرة فى المكان، فقررت التنويه بظاهرة انتشار

باعة الذرة المشوية فى كل مكان ضمن موضوعها الصحفى المصور حول تلوث البيئة الذى كانت على وشك الانتهاء من كتابته.

أما المدرس فى مدرسة العميان الواقعة فى الحى، فقد أصبح زبونًا ذرويًا مستديمًا لدى ظريفة، يضمن لها دخلاً يوميًا منتظمًا مقداره ربع جنيه، قيمة عرنوس ذرة يأكله أثناء انتظاره للحافلة على رصيف المحطة بعد انتهاء يومه المدرسى.

لقد اكتشف هذا الأستاذ الحصيف أن عرنوس الذرة أفضل وأرخص وسيلة لإسكات عصافير بطنه المزقزقة، بعد انتصاف النهار وخروجه من المدرسة، إضافة إلى أنه لذيذ الطعم، مغذ، ويقوم مقام شقتى فول وطعمية ثمنهما إضافة إلى كيس مخلل صغير لزوم مرورهما من الحلق وابتلاعها ستين قرشًا بالتمام، ناهيك عن أنه يجنبه الشجار الصباحى مع امرأته، الرافضة دومًا لإعداد شىء يأكله بحجة ضيق وقتها فى هذه الحصة من اليوم؛ لارتباطها بموعد عمل مثله تمامًا.

عسكرى حراسات مواسير ومعدات الصرف الصحى بلغة الحكومة، والمجارى بلغة الناس، كان ضمن المستفيدين من مشروع ظريفة الذروى، فبمجرد شمه لرائحة العرانيس المشوية يحملها الهواء إليه فى جلسته أو نومته أثناء حراسته بالقرب من المواسير، يقوم من مطرحه ويتوجه بوقار إلى صاحبة المشروع ثم يقلب فى الذرة باحثًا عن أكبر وأطرى عرنوس، لكن ظريفة توفر عليه حيلة المفاضلة بين العرانيس، وتقوم بنزع الغلاف الأخضر لأكبر واحد لديها، وتشويه بسرعة، لتناوله إياه مقابل خمسة عشر قرشًا فقط لا غير، أى بتخفيض يقرب من الخمسين فى المائة، بما يتناسب والتسهيلات الممنوحة عادة من الدولة للعاملين فى جهاز الشرطة.

شاعر حداثة ذائع الصيت بين أصدقائه فى مقهى بلدى من مقاهى وسط المدينة، شاهد ظريفة جالسة تشوى الذرة أثناء وقوفه على محطة الحافلات بعد زيارة خاطفة لأخته المريضة فى مستشفى خاص قريب فتأمل سحنتها التى تقطع

الخميرة من البيت، وجلبابها الأسود المتسخ. ثم عيالها منكوشى الشعر، وزفر بحرارة وهو يقول لروحه:

ـ هل هذه امرأة تلهم شاعرًا؟ هل توجد فى هذ المدينة القبيحة نساء يلهمن مبدعًا أو شاعرًا ويساعدنه على السمو بروحه؟ فتح فمه فبانت أسنانه الصفراء القذرة من كثرة تدخينه الحشيش والسجائر وشربه البيرة، ثم بصق على الأرض وأخذ يفكر فى عنوان حداثى لقصيدته الجديدة.. هل يكون: «حائرة هى الروح أبدًا» أم «حيرة الروح المتحيرة»؟ فلما جاءت الحافلة صعد إليها، مطمئنًا نفسه إلى أن قريحته لابد أن تجود عليه بعنوان أفضل إن شاء الله.

عند غروب أحد الأيام الحارة سارت سيدة مع طفلها الصغير، تتنسم نسمات صيفية منعشة بالقرب من منزلها فى الحى، وبمجرد رؤية الصبى لظريفة، تحرك الهواء بمروحتها المصنوعة من ريش الإوز المصبوغ بالأحمر والأخضر والأصفر، وحولها عيالها يقشرون العرانيس ويمرحون، أعلن لأمه عن رغبته فى التوقف وشراء الذرة، لكن أمه نهرته بشدة وأعلنت له باستنكار:

ـ بلا قرف، بلا وساخة، إمش، أنا ناوية أشترى لك آيس كريم.

رمقتها عجوز كانت تقف إلى جوار زوجها الأعجز منها انتظارًا لانتهاء ظريفة من شى عرنوسين لهما وقالت:

ـ حمارة، جاهلة، الذرة صحية وأفضل ألف مرة من الآيس كريم، ونظافتها مضمونة لأنها مشوية ومعقمة على النار.

ثم تأملت أساور المرأة الذهبية، وألوان وجهها الفاقعة، وشعرها المصبوغ بالأحمر النارى، وهمست لزوجها، الذى كان يعمل مدرسًا للغة الفرنسية قبل بلوغه التقاعد:

ـ نوفو ريش؟!

مراسل مجلة أميريكية شهيرة، كان متجهًا لزيارة صديقة مصرية، تعمل فى جريدة محلية ناطقة بالإنجليزية، وتعاونه فى عمله، إضافة إلى معاونته فى حل

مشاكله الجسدية، شاهد ظريفة فتوجه بسيارته، وراح يلتقط لها صوراً معبرة عن عالم الذرة المشوية، ليضمها إلى تحقيقه المصور عن مدينة القاهرة، ضمن سلسلة تحقيقاته الصحفية المعنونة: «كيف يقتات سكان العالم الثالث؟» التى التقى فى إطارها بمنادى سيارات، وباعة كبريت ودبابيس بالإضافة إلى حواة وشحاذين يستعينون بالقرود، وبالآيات القرآنية، وباعة ترمس ولب وفل يقفون ببضائعهم بالقرب من شاطئ النيل.

لما لاحظت ظريفة أن الرجل يصورها، ثارت ثائرتها، ظنا منها أن الحكومة تراقبها وتترصدها تمهيداً لأذيتها، انطلاقاً من إيمانها العميق بأن الحكومة لا يمكن أن يأتى من ناحيتها غير الأذى، وقد ساعد على ظن ظريفة، اللون الأسود لشعر الصحفى وملامحه الغليظة نوعاً، التى ربما كان سببها أن أحد والديه كان من أصل إفريقى.

هبت ظريفة من مطرحها غاضبة جداً، لكنها قررت أخذ الحكومة باللين، فتماسكت وافتلعت ابتسامة على وجهها وقالت له:

- هل آذيت أى إنسان فى أى شىء يا أستاذ؟ هل عملت الغلط أو الممنوع؟

ولما لم يرد الرجل، لأنه لم يفهم شيئاً من كلامها، ومد يده إلى جيبه وناولها خمسة جنيهات كاملة لم تصدق ظريفة نفسها، ودعت له بالنصر على أعدائه، وأن يجعل الله له فى كل خطوة سلامة، ثم تركته واستأنفت عملها الذروى، بينما راح الأمريكى يتابع تصويرها وأولادها يناولونها العرانيس المقشرة مرة، ويداعبون كلبهم الأسود الهزيل مرة أخرى، والذى طالما تعرض لمحاولات اغتيال فاشلة من الفرقة البوليسية لمكافحة الكلاب الضالة أحبطت الأخيرة منها قبل ليلتين عندما تلقى العيال إشارة عاجلة من عسكرى حراسة مواسير المجارى تنبئهم بوجود حملة من الفرقة إياها فى المنطقة، فسارعوا بالبحث عن الكلب فوراً وأدخلوه الخص، آمرينه بعدم التفوه ببنت بوز.

رغم مكاسب ظريفة الطيبة من بيع الذرة خلال أشهر الصيف، إلا أن سحباً رمادية قاتمة كانت تتجمع فى صدرها مثلما بدأت تتجمع سحب الخريف فى

السماء بين الحين والحين، إذ كانت تسائل نفسها ماذا ستفعل مع الحياة عندما يحل الشتاء ببروده وعواصفه المجنونة فتخف أرجل الناس عن السير فى الشوارع، ويكف الأطفال عن شراء الذرة، بسبب عودتهم إلى المدارس وانقضاء موسمها؟ كانت تتمنى أن تجد مصدرًا آخر للرزق توفر منه قوتها وقوت عيالها كل يوم، أما حلمها الكبير فهو أن تبتسم لها الحياة يومًا، وتمكنها من شراء قرط ذهبى لصغيرتها بدلاً من فتلتى الخيط المتدليتين من أذنيها، لكن بدا لظريفة أن حلمها هذا مستحيل التحقق، وأن الحسرة بسبب ذلك ستأكل قلبها أبدًا، خصوصًا أنها تحب الصغيرة وتعطف عليها، بينما زوجها لا يحبها ويشك أنها بنت حرام، وليست ابنة خارجه من صلبه، وظريفة تدرك أن شكه صحيح، ليس لأن ملامح البنت الجميلة لا تمت له أو لظريفة بأية صلة، لكن ليقينها أن الفتاة لا تحمل الصفة الوراثية الأساسية لإخوتها والموروثة عن أبيهم، وهى ذلك النتوء العظمى الصغير النابت لكل منهم فى نهاية عموده الفقرى عند مبتدأ إليته. لكن الله وحده يعلم أن البنت بنت حرام بالصدفة، فالذى حدث هو أن ظريفة كانت برفقة زوجها وعيالها فى منطقة صحراوية نائية انتقل الزوج للعمل فيها لحفر أحد الأنفاق، وكانوا يسكنون جميعًا خيمة من خيام المعسكر الكبير للعمال، وفى صباح إحدى الليالى اكتشفت ظريفة أن الرجل الذى ضاجعها فى تلك الليلة، والراقد إلى جوارها يغط فى نوم عميق، ليس رجلها، فأطلقت صرخة مدوية بلغت زوجها المفترش الرمال خارج الخيمة منذ بداية الليل طلبًا للهواء الرطيب، فهب مذعورًا من نومه ملبيًا نداءها، الذى لباه أيضًا بعض الرجال والنساء من ساكنى الخيام المجاورة.

بعد التحقق من الواقعة، عقد العمال مجلسًا عرفيًا لمحاكمة مرتكبى هذا الجرم، وبسؤال ظريفة أفادت أن الرجل لم يضاجعها مضاجعة المعتدى الأثيم، وأنها لم تشعر أنه غريب عنها أبدًا، لأنه اتبع الأسلوب الذى يتبعه زوجها عادة، فقد لكزها فى وركها، وقبض بيده على ثدييها، ثم عراها وجثم فوقها، حتى قضى وطره منها، مثلما يفعل زوجها تمامًا، وكانت هى نصف ناعسة نصف منتبهة كما تكون، على الأغلب، فى مثل هذه الحالات، أما الرجل فقد أقسم

أغلظ الإيمان أنه بعد دخوله الخيمة ومضاجعة ظريفة ونومة مرة أخرى لم يتطرق إليه أدنى شك فى أنها امرأته لأنه لم يشعر باختلافها عن امرأته الحقيقية فى أى شىء من هذه الناحية.

أثبتت البشعة، ثم القمر براءة الرجل، فقد لحس الطاسة النحاسية المحماة حتى درجة الاحمرار دون أن يحترق لسانه، مما يدل على عدم كذبه وجفاف ريقه لهذا السبب، وقد أكد جميع الشهود أن القمر لم يظهر فى الليلة إياها، واعتبر المجلس أن الحادث قضاء وقدر غير أن ذلك لم يمنع تغريم المتهم زوجًا من الجنيهات، يدفعها لزوج ظريفة المطعون فى شرفه على سبيل التعويض. لكن الزوج صارح ظريفة مرارًا بشكه فى بنوة البنت، بعد ولادتها، التى جاءت بعد واقعة المضاجعة بحوالى تسعة أشهر، وكانت ظريفة تؤكد له أن البنت ابنته رغم تيقنها من كذبها، لأن ما كان يهمها هو أن البنت بنت بطنها وخارجة من رحمها، لذلك فهى تحبها وتتمنى شراء قرط ذهبى لها، لتبيعه عند زواجها وتشترى بثمنه ما تقدمه كأم لابنتها من جهاز فى هذه المناسبة التى تتمنى أن تتم بمجرد بلوغ البنت، حتى تسترها وتحميها قبل أن يتلمظ عليها ذئاب الرجال، وقد صارحت ظريفة نفسها أكثر من مرة بهواجسها وخوفها إذا ما عاد زوجها أن يفعل بالبنت ما يفعله الرجال مما لا تحمد عقباه بعد أن يلاحظ النبقتين الصغيرتين اللتين بدأتا فى البروز بصدرها وينتبه إلى فخذيها اللذين امتلأ واستدارا لكثرة ما التهمته من حبات الذرة.

نفت ظريفة لنفسها، بينما كانت تفكر فى مشكلتها، قدرتها على طبخ بليلة القمح وبيعها فى الشتاء بدلا من شى الذرة، فمشروع كهذا يحتاج إلى رأسمال كبير للصرف على السكر، والقمح، والحلة، والاستهلاك الكبير لكيروسين الموقد حتى ينضج القمح، إضافة إلى كمية من الأكواب البلاستيكية، والملاعق الصغيرة، ودروة تحمى شعلة الموقد من الانطفاء عند هبوب ريح الشتاء، وبدا لها هذا المشروع خياليا مثل مشروعات الحكومة لتحديد النسل.

حتى الشغل فى تنظيف شقق سكان العمارات فى الحى لم يعد ممكنا، بعد اكتشاف معظم الذين عملت لديهم ضعف بصرها وما نتج عنه من أخطاء مروعة

بالنسبة لهم، والتى كان آخرها قيام ظريفة بوضع صورة حماة صاحبة إحدى الشقق مقلوبة، وكانت العجوز تجلس بوقار وعظمة على كرسى من المحمل الأحمر فى الصورة المحاطة بإطار ذهبى ثمين، والمجللة بشريط حريرى أسود عند الزاوية بمناسبة وفاتها قبل ثلاثة أسابيع، فلما عاد زوج السيدة لبيته وجد أمه مقلوبة بكرسيها فى وضع زرع البصل فتشاجر مع امرأته شجارًا عنيفًا واتهمها باحتقار أمه المسكينة وكرهها حتى بعد موتها، وأنها قبل مضى أربعين يومًا على وفاتها تحاول الانتقام منها وازدراءها، ثم أنه ضرب زوجته ضربًا مبرحًا وهددها بالطرد من البيت، لكن التى طردت بالفعل كانت ظريفة ليس غير.

هكذا كان مستحيلاً عودة ظريفة للخدمة فى البيوت مرة أخرى، ولم يتبق لها من سبيل للعيش غير الذرة، والحلم بعودة الزوج الغائب، وتمر الأيام وهى تدعو الله أن يسرع بعودة غائبها سالمًا لها ولعيالها.

فى يوم مشؤوم لم تطلع شمسه حدث لظريفة ما لم يكن متوقعًا، فقد استيقظت قرب فجر هذا اليوم على كابوس مزعج إذ رأت زوجها وقد نبت له جناحان أخضران من أعواد الذرة حاملا قفة ضخمة من القش لم فيها كل العرانيس ثم ارتفع وطار إلى السماء وهو يخرج لسانه لها ويضحك بينما هى تصيح وتتوسل إليه أن يعود بالذرة دون جدوى.

فلما خرجت إلى غيطها الصغير لجمع ما نضج من عرانيس الذرة تمهيدًا لشيها كالمعتاد عند العصر لم تجد عرانيسًا أو أعوادًا، بل وجدت غيطها صفصفًا بلقعًا، وعمال البلدية يفترشون أرضه متحلقين حول أوراق جريدة قومية رصت فوقها أرغفة محشوة بالفول وأكياس مخلل بلدى وحزم من البصل الأخضر، وهم يأكلون فى رضا وامتنان.

ما أن تيقنت ظريفة من المشهد، وثبت لها أن كابوس الأمس قد تحقق بالفعل حتى دبت على صدرها صارخة:

ـ يا مصيبتى!

دهش العمال لمرأى المرأة الملتاعة أمامهم. ظن بعضهم بها الجنون، بينما تصور آخرون أن مصيبة على وشك الحدوث لهم؛ أما أكثرهم جوعًا وكسلاً فقد أقنع نفسه بأن المرأة تستنجد بهم لأمر من الأمور فواصل مضغ طعامه فى تلذذ وهدوء.

سألها واحد بإشفاق:

- يا فتاح يا عليم، هل حصل شىء يا ولية؟

أشارت إلى أعوادها المغدورة المكومة قريبًا على الأرض بعد اقتلاعها من جذورها، ثم إلى الفئوس والمعاول إلى جانبهم وقالت:

- أكلى وأكل عيالى يا ناس.. يا خرابى!

بدأ الذين ظنوا بها الجنون يفهمون، فصرخ واحد منهم محتدًا:

- هل كانت أرض أهلك يا ولية؟ مفروض أن تكونى فى الحبس بسبب عدوانك على أراضى الدولة. شىء عجيب والله!

انهمرت دموعها بمرارة فتعاطف معها معظم الرجال ولعنوا فى سرهم الحكومة، ثم أخذوا يواسونها ويتساءلون: «هل من المعقول أنها تعيش من بيع الذرة»! «أو ليس لها مصدر آخر للرزق غير هذا»! فلما حكت لهم حكايتها، نصحوها بالبحث عن مورد آخر للرزق، والاشتغال بعمل غير بيع الذرة فقالت لهم وهى تبكى:

- لكن الأرض صار لها خمس سنين والطمى عليها، والحكومة ما مالت صوبها فى يوم من الأيام!

تبادل العمال نظرات الدهشة، كيف يشرحون لهذه المرأة الواقفة أمامهم ما يحدث فى مصالح الحكومة؟! هل يقولون لها: «ربما تمر عشر سنوات أخرى، ولا تزرع الحكومة الأرض، طالما لم يسكن مسئول أو شخصية تهم الحكومة فى هذه المنطقة؟! هل يخبرونها أن شركة المحاصيل الزراعية دفعت رشاوى لكبار الموظفين ليقيموا مكان غيطها محلا تبيع الشركة فيه منتجاتها المحفوظة وتسوقها؟

كانوا مدركين أنها لن تفهم هذا أبدًا، لذلك فكر أحدهم قليلاً وسألها عن مكان سكنها، فلما قالت له إنها تقطن فى خص مع عيالها بالقرب من هذا المكان قال لها وهو يهرش دماغه:

ـ طيب روحى اعملى لنا إبريق شاى، ينوبك ثواب.

وافقت. ثم عادت بعد قليل بالشاى، الذى راحت تصبه من إبريق صاج فى أكواب صغيرة ليشربوه، وبينما هى تأخذ منهم مقابله فلوسًا خطرت فى رأسها فكرة فسألتهم إن كانوا سيستمرون فى العمل بهذه المنطقة طويلاً فأجابها أحدهم:

ـ لا، خلصنا حفر وانتهينا، لكن بكرة يبدأ عمال البناء شغلهم.

وأضاف آخر:

ـ من المحتمل أن يستمر الشغل سنة أو أكثر من سنة.

تركتهم يتجادلون فيما بينهم وذهبت عائدة بالإبريق والأكواب إلى خصها، وراحت تفكر جديًا فى نقل نشاطها إلى عمل شاى للعمال القادمين فى الغد.

بعد شهور من هذه الحوادث، وكان الشتاء قد دخل واشتد، عاد الصحفى الأمريكى لزيارة صديقته فى المنطقة، لكنه لم يلحظ ظريفة وهى توزع أكواب الشاى على عمال الصرف الصحى فى الجانب الآخر من الطريق وكان يفكر فى عمق بسر تواصل الحياة فى بعض بلدان العالم المتخلف لآلاف من السنين دون انقطاع.

الأميرة الصغيرة جميلة جدًا، أجمل من كل بنات الأرض، وجنيات البحر وحوريات السماء، أما قلبها فأنقى من لبن العصفور، وأصفى من بللور مسحور، وهى ذات روح رهيفة شفيفة، رءوم، حنون، حنان نسمة صيف ندية، وشمس دافئة شتوية، غير أن الأميرة، التى هى بنت ملك سليل ملوك يلبى لها كل ما تطلبه مهما صعبت عليه الشروط، ما كانت سعيدة فى حياتها قط، ولا تنفرج شفتاها عن أدنى ابتسامة ولو بقدر خط، رغم محاولات مهرج القصر المستمرة فى الممازحة والإضحاك، سواء بقص الطرائف البهيجة، أو الجرى والنط هنا وهناك.

الأميرة حزينة دائمًا، لأنها تتمنى على الله، أن تجد إنسانًا نبيلاً تحبه ويحبها، يطلبها لذاتها، ولا يطمع فى لذاتها لأنها ابنة ملك سليل ملوك يحكم بلادًا شاسعة، فيها المنبسط من الأرض، والصاعد الوعر المستعصى على الطلوع والقصد؛ وكان الغم يزداد ثقلاً على قلب الأميرة كلما وجدت أن خاطبيها، من أبيها، ينظرون إلى وجهها دون النظر إلى مكنون قلبها، حتى إنهم لا يبالون بطيبة روحها وعظمة أخلاقها، فكانت تخلو إلى نفسها، وتبكى بكاءً أمر من العلقم، وكأنها تتجرع كأس المر والحنظل، فكانت ترفض بعناد كل الذين يتقدمون للزواج منها مهما علت من شأنهم الأسباب، فردت ابن ملك الهند والسند إلى حيث أتى، تتبعه أفياله السبعة والسبعون، المحملة بحرير كشمير وصندل جزر الكنارى والعندليب، ولم تأبه قط بما جلبه لها من عبيد وجوهر، وما حملت يداه إليها من نفيس الهدايا وفريد العطايا. أما سلطان بلاد سيحون وجيحون، فقد عاد أدراجه هو الآخر، متميزًا من الغضب والغيظ، خصوصًا أنه اضطر للرحيل من بلادها

وقت القيظ، بينما أخذ أبوها يرفع كفيه ويتمتم داعيًا الواحد القهار، أن ينجيه من بطش ذلك الحانق الجبار، الشهير بقسوته، وحبه لاستعراض جبروته وقوته، لأنه لابد أن يفكر فى الانتقام، بعد ما لحقه من إهانة، وفشل المرام، وقد انضم، إلى هذين المحبطين، عزيز مصر، بجلال قدره، رغم وعده الأكيد بأن يكون مهر الأميرة الصغيرة إن قبل أبوها وشاء الله، هرمًا كبيرًا، يفوق هرم جده العظيم هرمس بن مصريم، فى الأبهة والضخامة، والعظمة والفخامة، وذلك حتى تسكن فيه تلك التى سوف تكون الزوجة المحبوبة من بعلها وأخيها، وسيدها وحاميها، عندما تنتقل بعد عمر مديد إلى الحياة الأبدية من الحياة الدنيوية.

مفاجأة القان الأعظم، عظيم بلاد الواق واق، لم تسفر عن جديد أيضًا، فقد أرسل ذلك الملقب بنسر الجبال رخًا أسودًا كبيرًا، يحمل بين مخالبه ماسة عجيبة زرقاء، ينوء بحملها عصبة من أولى القوة والبأس، وضعها الرخ فى ساحة القصر الملكى مع رسالة للملك كتبها النسر الأعظم بدمه على رق أيل جبلى يتيم، طالبًا منه إرسال ابنته الأميرة مع تسعين من خصيانها وجواريها، فى مقصورة ملائمة، يحملها الرخ فى عودته إلى بلاد القان الأعظم، الكائنة عند السحاب على قمة قمم جبال الدنيا.

الأميرة الحزينة، التى انكسفت الشمس يوم ميلادها، وانخسف القمر ليلة اليوم ذاته لم يرف لها جفن، أو يرمش لها رمش، لما شافت الماسة المدهشة، التى أخرجت الملك المتنكب على كرسيه عن وقاره، فشهق وحوقل، وقرأ آية الكرسى وذكر الله بصوت خاشع متأثر، لدرجة أن الرخ نكس رأسه انفعالاً عند سماعه قول الملك: «تبارك الخلاق.. تبارك الخلاق» وقد ظل الملك يردد ذلك، بينما راحت الحاشية تخر ساجدة، فلما لاحظ الوزير الأول، أن الرخ بدأ يتمايل فى وقفته، ويفتح فمه متثائبًا بين الحين والحين، حتى إن سربًا من العصافير الملونة، دخل حلقه عن طريق الخطأ، بينما كان يعبر فى السماء أمام فمه، همس إلى مليكه لينطق بالرد، ويرد الرخ الرهيب حاملاً الجواب إلى حيث جاء. فقال الملك: لا، حزينة، خجلة، مرتبكة، كلها حسرة ومرارة، لأنه سيخسر الماسة العجيبة، التى

كانت لو قبلها، ستغنيه عن كافة كنوز الأرض، وتجعله يملك الدنيا بالطول والعرض.

بمجرد أن سمع الرخ لا، فرد جناحيه الأسودين العظيمين، فتخلخل الهواء لساعته ووقته فداخ الوزير الأول قليلاً بسبب مرضه بضغط الدم، وانقلب النهار ليلاً فى حديقة القصر، وعمت الظلمة وساد السواد، مما أدهش أليف الحيوان وجماعة الطير لتقلبات الطبيعة، ومفاجآتها غير المتوقعة عند ذلك الوقت من النهار، فلما أقلع الرخ حاملاً ماسة الماسات، وطار مبتعداً، سطعت الشمس فى حديقة القصر من جديد، فصاحت الديكة ظنًا منها بانبلاج النهار، وزاطت الأوزات فى البحيرة الكبيرة المسيجة بأيك الأشجار.

وعندما غاب الرخ واختفى تمامًا، سقط الملك مغشيًا عليه من فرط الغيظ والانفعال، ولم يفق من غيبته إلا بعد أن شممه الوزير الأول فحل بصل كبير، ورش عليه ماء باردًا جلبه لتوه من الزير.

لما أفاق الملك، اجتمع بحاشيته، سريعًا، ليتداول معها فى الأمر، ويأخذ منها النصيحة والرأى، وبعد تقليب الأمور على كل وجه، والتباحث فى المسألة بالأخذ والرد، رفض الملك الرأى القائل بتزويج الأميرة رغم أنفها، بحجة أن مصلحة البلد أولا وفوق أى قصد، بل وغضب الملك غضبًا شديدًا عندما أشار متولى الخزائن إلى أن الأميرة تضيع على البلاد فرصًا هائلة من أرصدة العملات الأجنبية النادرة، والثروات المذهلة، فصاح به وهو يحرك وركيه ويكز على أسنانه لفكيه، يلعن أبو الفلوس التى تجعل البشر أمثالك، مثلما التيوس، لا يفكرون فى مشاعر الناس ولا يقيسون السعادة إلا بالغنى والإفلاس، لم يكتف الملك بتوبيخ متولى الخزائن، بل نادى على السياف ليقطع رقبته، فينقطع معها دابره من الدنيا ويصبح عبره لمن لا يعتبر، لكن بقية أفراد الحاشية هبوا لنجدة متولى الخزائن، وأخذوا يعتذرون عنه للملك ويرجون منه العفو والسماح، ويلاطفونه بحلو الكلام، بينما الملك يرغى ويزيد ويقول ويعيد بكل ما يعرف من معانى التهديد والوعيد، فلما هدأت ثورته، وقبل من متولى الخزائن توبته، شرب قليلاً من شراب العسل، وفرد ساقيه فى تلذذ وكسل.

كان الملك يعارض فكرة الزواج بالإرغام لأنها ضد الطبيعة ومشاعر الإنسان، ثم إنه كان عادلاً ورعًا، يخشى الاتهام بالظلم والطغيان، كما كان محبًا لابنته حبًا عظيمًا، يروم سعادتها دائمًا، فلم يرغب فى تزويجها زيجة لا تصادف هواها، فيجلب لنفسها الشقاء، وتفصل بينه وبينها البغضاء.

لكن ما كان يحزن الملك حقًا هو شعوره الدائم باقتراب أجله بعدما دبت الشيخوخة فى سائر أعضاء جسده، فصار يخشى ترك وحيدته فى الدنيا بلا دعم أو سند فقد توفيت أمها منذ زمن بعيد، وبقيت من ساعتها يتيمة لا تكف عن الزفر والتنهيد.

فى اليوم التالى لذهاب الرخ بالماسة، نادى الملك الأميرة الصغيرة، فحضرت إليه فى أبهى الثياب، تجر خلفها ذيل جلبابها الطويل السياب، وكان شعرها الأسود المخملى معقوصًا خلف رقبتها فبدا بهيًا، وقد شبكته بمشابك من العقيق والجوهر. أما نحرها العاجى، فقد عانقته صفوف من الماس ضمت فى خيوط من التبر الوهاج، فلما رآها الملك، انشرح فؤاده وقال فى سره: يامناه ويا سعده من سيهنأ بها وينول مراده. وسرعان ما انحنت إليه، ومدت يدها لتسلم عليه، عندئذ، دعاها للجلوس، وراح يتطلع إليها إعجابًا وكأنه مهووس، ثم سألها بعد تردد عن سبب رفضها لكل خطابها من الملوك والسلاطين وأصحاب النفوذ والجاه، وحلفها أن تصدقه القول وتفصح عن أمرها، دون خجل أو أدنى وجل، إن كانت تكتم فى قلبها هوى لشاب، أو حتى لرجل شرير تاب، لأنه سيزوجها به فى التو والحال، دون إبطاء مهما كان المآل، لأن قصده إسعادها وفرحها، وأن يبيت وباله مطمئن عليها قبل أن توافيه ساعته، وتندب هى بعده فى الدنيا فرقته.

فلما سمعت الأميرة ذلك الكلام، تأثرت ورق قلبها، حتى سالت دموعها، فقامت من مطرحها وقبلت جبينه ووجنتيه، ثم استغفرت الله أن تكون قد سببت له همًا أو غمًا، أو دون أن تقصد ـ نسيت فعصت له أمرًا، وبعد مكابدة؛ انفكت فى النهاية عقدة لسانها وراحت تقول له فى وضوح دون انكسار: إعلم يا والدى أننى لم أهو كائنًا من كان بعد، وأن عينى لم تر الإنسان الذى أحبه ويحبنى، وينظر إلى ما أنظر إليه وأرى ما يراه، كما أن فؤادى ما يزال موصد الأبواب،

خاليًا من تشبب الشباب، ولسوف أفصح لك الآن عما تهجس به نفسى، وما يستشعره وجدانى وروحى، فاعلم يا سيد العارفين أننى أخاف إن أنا تزوجت بملك عظيم، أو أمير خطير، أو بأى كبير ذى مال وجاه، أن يحدث لى ما حدث للأميرة بدر البدور، فتصاب نفسى بالسأم، ويذوى جسدى لفرط الألم، فلا يتبقى لك ولى إلا عض أصبع الندم.

فقام الملك بلهفة وجزع، وكفت أسنانه عن قرقشة اللوز الملبس بالسكر والعسل، وراح يصغى لها إصغاء شديدًا، وهو يفكر فى كل كلمة تقولها، وكل حرف يخرج من فمها وهى تحكى له قصة بدر البدور وتقول: كان يا ما كان، فى سالف العصر والأوان، أميرة جميلة ذات وجه أبيض مستدير، وكان أبوها سعيدًا، فرحًا بها، لا يريد من الدنيا سواها، فرباها أحسن ما تكون التربية، وأحاطها بكل سبل الترفيه والتسلية، وكلما كانت الأميرة تشب وتكبر، كان يستبين جمالها ويتضح حسنها أكثر وأكثر، فيزداد والدها فتنة بها، ويصبح فى إنشغال بأمرها، وكان لا يفتأ أن يقول لروحه بين الحين والحين: إن ابنتى غاية فى الروعة والجمال، بل هى أجمل من كل حوريات البلورة المسحورة، التى أنظر فيها لأمتع نظرى بسحر النساء الفاتنات اللواتى لم يخلق مثلهن على الأرض. لكن الملك العجوز، كان يداخله الخوف من أن لا يجد الرجل العظيم جدًا الذى يليق بابنته، وخصوصًا أن بلاده ما هى إلا جزيرة معزولة عن كل البلاد والممالك المأهولة، فهى تقع وسط المحيط المترامى الأعظم، الذى لا تستطيع مخر عبابه، أضخم السفن حتى لو كان قائدها هو الملك الأشرم.

فلما أضحت الأميرة فى شرخ الشباب، وأصبح لابد لها أن تتذوق لذة الزواج أعلن الملك عن عزمه على تزويجها وأرسل الهداهد والحمام برسائل إلى السلاطين والملوك بالقصد والمرام، فتوافد إليها رجال، من كل صوب وحدب، آملين بالفوز بها، متصارعين على نيل فؤادها بما يحملوه وما يجلبوه معهم من لطائف الزمان، وخيرات البلدان، لكن الملك الأب كان يرفضهم، ولا يتردد فى ردهم وإبعادهم، لأنه ارتأى أنه لا يوجد بينهم، من يثمن بثمن ابنته، ويستحق أن ينال ما لدى الدرة الغالية كريمته.

أما الأميرة، فلفرط تدليلها ولازدياد غرورها وتيهها، راحت تزيد رفض أبيها استعارًا، وتضيف إلى لهب تمنعه نارًا، حتى أتى يوم انشقت فيه أرض الإيوان، وخرج منها أزرق الدخان، وسرعان ما تمخض عن فارس همام، على رأسه تاج من الذهب وفى يده صولجان، فألقى التحية والسلام، ورد إلى نفوس المجتمعين، فى حضرة الملك، الأمان. ثم أعلن عن نفسه، وأخبرهم أنه ملك الجن تحت الأرض، وتمتثل له الرعية بالطاعة والفرض، ثم طلب يد الأميرة بدر البدور، دون أن يلف أو يدور، وقال إنه سيجعلها سيدة العروش، والملكة التى تهتز لمرآها الشوارب والرموش، ففرح أبوها فرحًا عظيمًا، وطغت السعادة على قلب ابنته، وقد ظنا أنهما ملكا مفاتيح الكون، لأن ملك الجن أقوى من ملوك كل البلدان، ويستطيع أن يهدم عروشًا، وينكل لو أراد بالسلاطين ويجعلهم هرسًا مهروسًا، ووافق الأب على الفور، دون أن يبدى أدنى قيد أو شرط، وراح يتذكر أعداءه جميعًا، ويحلم بتحقيق رغبته فى الانتقام منهم مستعينًا بزوج ابنته الجبار، وسارع بطلب دق الكؤوسات فى جميع أرجاء البلاد، إعلانًا عن موافقته على تزويج أميرته، وكان معنى ذلك أنه لم يترو، ولم يفكر فى الأمر جيدًا حتى يعن له الحق ويتجلى.

فلما انتهت أفراح الزواج، التى استمرت أربعين يوما بلياليها، عاشت خلالها العباد فى عز وهناء لم تشهده من قبل طوال حياتا فى هذه البلاد، أخذ ملك الجن عروسه العزيزة ـ وشق الأرض عائدًا بها من حيث جاء.

لم يمض زمن يسير على ذهاب الأميرة مع ملك الجن، إلا واكتشفت أن مليكها متزوج من بنات ملوك أعداء أبيها أجمعين، وأنها ليست مليكته الوحيدة، ولا زوجته الفريدة، بل هى واحدة من أربعين، لا يزورها ويصلها إلا كل حين وحين، وشعرت أنها فى بلاد الجان، كالعائش وسط نار بلا دخان، فهى وحيدة غريبة، بلا حيلة أو أهمية، كأنها جارية من الجوارى، أو سرية من السرارى، فباتت ممرورة من الغيظ والغضب، وصارت نفسها لا تقبل الطعام، حتى ذوى جسدها وأصبح مثل عود الحطب، وكانت تخاطب روحها وهى تبكى بكاء إيزيس، التى فاضت دموعها فأجرت فيضان النيل، وتقول بتحسر وأسى: هذا ما جناه أبى على وما جنيت على أحد.

ولم يكد يمض عام على زواج الأميرة بدر البدور من ملك الجن، إلا وكان المرض قد افترسها فماتت بعيدة، فى غربتها وحيدة، بعد أن تملكها الحنين إلى الأوطان، والعيش مرة أخرى بين بنى الإنسان، لكن سبحان مقدر الأحوال والمتحكم فى الممات والحياة، فقد رحلت بعد أن وضعت طفلين توأمًا أسمتهما دهرًا ودهورًا تاركة الغم لأبيها الذى لم يعد يعرف طريقة يسترد بها حفيديه اللذين أسماهما أبوهما منذورًا ومقدورًا.

ويقال إن الملك المسكين، ظل شهورًا طويلة يكابد عذابات غياب وحيدته حتى كف بصره، وخف عقله، فكان يهيم فى القصر الكبير ينادى على بدر البدور حينًا، وعلى دهر ودهور حينًا آخر، وسرعان ما اهتز به عرش الملك بعد أن تلاعب المفسدون بالبلاد، وتنازع الأمراء على الاستئثار بالحكم دون أدنى تفكير فى مصلحة العباد، فعظم الخطر ووقعت الواقعة، إذ تحالف أعداء الملك جميعًا وغزوا المملكة، فاستباحوها، ودخلوا عليه فى قصره فقتلوه وتركوا جثته لوحش الطير والذئاب.

فلما سمع الملك الصبور من ابنته حكاية الأميرة بدر البدور، جرت مدامعه على خديه، وراح ينهنه كالأطفال، ثم حوقل وزفر زفرات حارة، وراح يسألها وهو يمسح أنفه بمنديله الحريرى الكبير:

- إذن ما الذى ترتأيه يا صغيرتى الجميلة، فأنا أريد تزويجك، والاطمئنان عليك قبل أن يحم حمامى، وأصل منتهى أيامى، أريد أن توافقى على شاب مناسب، عاقل حكيم، ذكى وسيم، يريحك ويعرف مقامك، وتكفيه أنت حبك وحنانك، أرفع رأسى به بين الأعادى، ويتحدث بفضائله وشيمه الرائح والغادى، ويكون لك نعم الرفيق، وخير الصديق، يكذب خرافة استحالة وجود الخل الوفى، ويمنحك ذرية صالحة من جسده العفى، أما أنت فتكونين فى عينيه الدرة السنية، والمصطفاة العلية، مهما فعلت بك السنون والأيام، ولو بلغت من الكبر عتيًا.

أطرقت الأميرة قليلاً، بعد أن استمعت إلى والدها فى ارتياح، وقررت ألا تطيل عليه مقدرة حينئذ حاجته لشرب الراح، ورغبته فى بعض القيان الملاح فقالت:

ـ الحق أقول لك يا سيدى، إننى كنت فى السابق، فرحة، مرحة، أرغب فى الزواج من شاب جميل رقيق، تأتينى صورته فى الأحلام، وأصنعه من وحى الخيال، لكنى يا مولاى، تغيرت وفكرت طويلاً فى هذه الدنيا، بعد أن عشت أيام الفناء العظيم، ورحت أرى كيف يموت الناس ويتهاوون فى طرفة عين، كان وقتًا عصيبًا، جعلنى أفكر فى حال الدنيا، وأتدبر أمور الموت، لقد ماتت صويحباتى فى ذلك الفناء، وماتت خالتى وعمتى، وابن عمى العزيز، وكأن الموت كان يحصدهم حصدًا. بعدها يا والدى لم أجد للحياة طعمًا، وعدت لا أعرف للأيام معنى، لكنى الآن لست ضد الزواج ولا ضد تحقيق أمانيك فى، بل صرت راغبة فى إنسان، أبوح له بكل ما لدى من هموم ومكنون الجنان، غير أنى أرغبه إنسانًا صادقًا أمينًا، لذا أتمناه أن يكون ذلك الذى يغنى أصدق أغنية تسمعها أذنى، وتلامس بعذوبتها شغاف قلبى، فأمنحه روحى ونفسى، وكل ذرة من كيانى وجسدى أكون له الزوجة الوفية، والوليفة المستكفية، شمس صباحاته، وقمر مساءاته، ياسمين حديقته، وورود شرفته، نسمة صيفه، وشمس شتائه، خضرة ربيعه، وملاذ خريفه.

زغرد الفرح فى قلب الملك، بعد أن استمع إلى كلام ابنته، وسرعان ما بان البشر على وجهه وبدا كمن انزاحت عنه غمة من الغمم، وشعر أنه كان يهول الأمر كثيرًا إذ ظن أن شروط ابنته للزواج، سوف تكون عسرًا عسيرًا، وأمرًا مستحيلاً حينما تصور أنها ستطلب زوجًا مستحيل الوجود، كوردة البحور، أو لبن العصفور، وحمد الله كثيرًا لأن وحيدته الأثيرة لم تكن متعلقة بشحاذ حقِير، أو رجل شرير، وغمرته الراحة لمطلبها الذى رآه يسيرًا، لأن البلد فيها ما يكفى من المغنيين وظرفاء المطربين، ذوى الأصوات الساحرة المسحورة، وكأنهم من وادى عبقر، أو من ندماء الإلهة الفاتنة عشتر، ولفرط ابتهاج الملك وفرحته وتزايد شوقه ولهفته على تزويج الدلوعة ابنته، نسى أن يسألها سبب شرطها الغريب ذلك، بل وتركها تضع فى حضرته، ساقًا على ساق كذلك. والحقيقة أن الأميرة العنيدة، ما كانت ستجيبه لو حاول سؤالها، لأنها أقسمت أمام مربيتها العجوز المتعلقة بها تعلق السنجاب بشجرة الجوز، ألا تخبر كائنًا من كان، سواء أكان

إنسيًا، أم من عالم الجان، عن شرطها الغريب، الذى لابد أن يكون لها قبل الموافقة على أى زواج، فلا يؤخذ عليها حينئذ أى تثريب.

كانت الأميرة قد سألت مربيتها ذات يوم عن كيفية التوصل إلى حقيقة صدق محبة الإنسان لأخيه الإنسان، وكيف تعرف أن الذى سيقول لها إنه يحبها، يحبها فعلاً فتصبح روحه وروحها كروحين فى زجاجة، وتطمئن إلى صدقه وإخلاصه، فتعطيه دون أن يطلب، وإذا ابتعد عنها فلا تطيق أو تصبر، فأجابتها العجوز الحكيمة قائلة:

- اعلمى يا ابنتى أن الصدق من أصعب الأمور فى طبائع الإنسان، لأنه هو رؤية القلب، لا رؤية العين، وقد يضل القلب بسبب سطوة العين، وشهوة الأذن وحلاوة اللسان، وقديما قالوا: «من فضلة القلب يتكلم اللسان»، والصدق أن يظهر المرء ما يبطن، وأن تقول عيناه حتى دون أن ينطق، وهناك أمر فى هذه الدنيا لا ينفع ولا يشفع إلا إذا كان صادرًا من حشيشة القلب، قادرًا على فتح مغاليق نفس أى مرء، فيصل إلى موضع الشعور فيه ومكمن الإحساس لديه.

طير الملك السعيد، المنادين فى جميع أنحاء البلاد والممالك، بأن الأميرة الجميلة سوف تتزوج فى التو والحال، من صاحب أصدق أغنية تسمعها وتشعر بها حتى تهز أعمق أعماقها، مهما كان قدر المغنى، سواء أكان غنيًا أم فقيرًا أم حقيرًا، صاحب نفوذ وجاه، أو عازف عن أمور الدنيا ساه، وما كاد الخبر يذاع وينتشر، حتى توافد إلى القصر الملكى عشرات ومئات وألوف من الشباب والرجال من سن ثمانية حتى ثمانين عامًا.

ارتدت الأميرة ثوبًا أزرق من الشيت، من ذلك النوع الذى يرتديه فقراء الفلاحين فى بلادها، ثم إنها خلعت كل حليها ومجوهراتها، وبدت فى أبسط صورة ممكنة، وبعد ذلك خرجت إلى إيوان القصر، لتجلس إلى جوار أبيها وتسمع جماعات المطربين، وزمر المغنين الذين توافدوا ليسمعوها أصواتهم.

ظلت مجالس الاستماع، تعقد ليل نهار عدا ساعات قليلة تخلد فيها الأميرة إلى الراحة والنوم، وكانت الأيام تمر، دون أن تجد الأميرة ما يمتع أذنيها، أو يمس

شغاف قلبها. بل وكثيرًا ما شعرت أن غناء معظم الذين غنوا، كان مفعمًا بالكذب، بعيدًا عن أى صدق وحزنت لأنها فهمت أن الذين جاءوا، ما جاءوا إلا طمعًا فى مال أبيها، ورغبة فى جسدها وليس فيها، دون أن ينتبهوا إلى روحها التواقة للخير والجمال. حتى ذلك الشاب الذى حاول أن يبدو مختلفًا عن الآخرين فلم يتغزل فى محاسنها، ولم يطلق صوته تشببًا بها، بل غنى بلادى بلادى، لك حبى وفؤادى، لم ينل رضاها، بل إنها لم تتمالك نفسها فسخرت منه، لأنها أدركت أنه أفاق لئيم، أراد المزايدة عليها، وكأن حبه لها من أجل الوطن، وحبه للوطن من أجلها.

حتى بعد أن تخلد الأميرة إلى النوم، كان البعض يأتى للغناء تحت شباكها، وهو يرتدى أسمالاً بالية، أو ملابس بسيطة ويأخذ فى غناء أغنيات عشق محمومة دون توقف، تجعل قطتها الرمادية الأثيرة التى ترقد إلى جوارها عادة،تشعر بالملل والضيق، لاضطرارها إلى تحريك بوقى أذنيها الصغيرتين مما يحرمها لذة التركيز فى هريرها الليلى. فى إحدى المرات كادت الأميرة أن ترق لغناء واحد منهم، إذ شعرت إنه قاب قوسين أو أدنى من الصدق، لكنها لما فتحت شباكها وأطلت منه لتنظر إلى ذلك الذى يغنى، تبينت فى ضوء القمر ملامح وجه ابن أمير الجيوش، بأنفه المعقوف وشعره الأجعد الخشن، وقد تخفى فى زى شحاذ فقير، فأدركت لفورها مدى كذبه وضلاله، وما كان منها إلا أن نادت على وصيفتها، وطلبت منها أن تصب سطلاً من الماء البارد على رأسه، جعله يلزم الصمت ويسارع الفرار، بينما راحت تضحك ضحكًا يتراوح بين السخرية والمرارة.

ذات ليلة رائعة، صفت سماؤها، ورق نسميها، أفاقت الأميرة من عز نومها على أبدع غناء سمعته أذنها وراح يخترق شغاف قلبها، فهبت من فراشها ترتعش فرحًا، وسارعت بفتح شباكها، لتتملى بعينها ذلك الذى ستهبه روحها، وتمنحه إلى الأبد جسدها، فما وجدت على مرمى بصرها غير طائر أسود صغير، حط على شجرة اللوز بالقرب من شباكها، فظلت تنظر إليه وتبسم فى سعادة بينما هو يعصر روحه بالغناء، ويرسل ألحانًا شجية رائعة، ما سمعت أذناها بمثلها من قبل

أبدًا، وما اهتزت روحها لشيء مثلما اهتزت فى تلك اللحظات. شيئًا فشيئًا بدأت الأميرة فى البكاء، ثم راحت تنتحب بمرارة ويأس حتى إن وصيفتها النائمة بالقرب منها أفاقت على صوت بكائها، وعندما تنبهت وجدت أميرتها تحادث نفسها كمن أصابه مس وتقول:

- لكنه يا إلهى مجرد طائر، طائر أسود صغير، ليس إلا!

ويقال إن الأميرة الجميلة عاشت عمرًا مديدًا، لكنها لم تتزوج أبدًا.

* * *

أنا أحب يوم الخميس، لأننا لا نأخذ فيه دروس حساب أو دروس دين، وأكون فرحانة جدًا بعد الحصة الرابعة، لأننا نذهب إلى حجرة الرسم والأشغال لنقضى آخر حصتين فى اليوم ونحن نذهب إلى حجرة الرسم والأشغال، بهدوء ونظام اثنين اثنين، كل واحد ماسك يد زميله بلا أى صوت، وهى غرفة واسعة، مرتبة، مزينة بورق الكوريشه، بكل ألوانه الزاهية، الأحمر والأخضر والأصفر واللبنى والبرتقالى، وعلى حيطانها نعلق الرسومات الجميلة التى نرسمها، والكراسى فى هذه الحجرة صغيرة منمنمة، ومدهونة كلها باللون الأزرق الفاتح، عندما أشوفها، أحن لبحر الإسكندرية، وأتمنى العوم واللعب فيه. لكن أجمل ما فى حجرة الرسم والأشغال، هو أبلة نادرة، لأنها طيبة، وبالها طويل، وأنا لا أخاف منها أبدًا، لأنها لا تغضب بسرعة وتصرخ فينا، مثلما تفعل مدرسة العلوم، عندما نقول أى جواب غلط، وهى لا تؤنبنا عمال على بطال، وبمناسبة وبدون مناسبة، كما يفعل مدرس اللغة العربية الذى يقول لنا بين الحين والحين «والنبى ما أنتم فالحين» ثم إن أبلة نادرة عندها ذوق فى اللبس، وهدومها أحلى من هدوم كل المدرسات والمدرسين فى المدرسة، وهى تلبس أساور وحلقان فضة، تذكرنى دائمًا، بحلقات صابحة النورية، التى تمر فى شارعنا وتنادى بعلو صوتها، أبين زين، أبين زين، فتدعوها أمى، لتجلس أمام باب البيت قبالتها، ثم تخرج المحارات من جرابها وتقول: «وشوشى الودع وارمى بياضك».

وبصراحة: أبلة نادرة لطيفة إلى درجة أن وقت حصتها يمر بسرعة، غريبة، وكأنه لعب فى لعب. نضحك فيه كثيرًا ونتكلم على راحتنا، ونحن نحبها جدًا،

حتى إنا نغنى أحيانًا عندما نراها بالصدفة فى فناء المدرسة: «الدنيا برد، الدنيا برد، أبلة نادرة تقطف ورد».

اليوم عندما ذهبنا إلى حجرة الرسم والأشغال، لم تعطنا أبلة نادرة ورق قص ولصق لنرسم عليه، ولم تقدم لنا خرزًا ملونًا مع خيوط لنصنع منه عقودًا وأساور وأشياء جمية مختلفة، لكنها وزعت علينا صلصالاً بنيًا وأحمر وأزرق، وقالت لنا، أغمضوا عيونكم، ثم تخيلوا أى شكل يخطر على بالكم، وحاولوا عمله من الصلصال بعد ذلك، عندما تفتحون عيونكم مرة أخرى.

ثم إنها قالت لنا، إن عمل الأشكال والتماثيل، من الأعمال اللذيذة جدًا، وكانت هى تقول ذلك تبتسم ابتسامتها السكر، التى تجعلنى أبتسم لها، دون شعور منى، كلما رأيتها على شفتيها، وأضافت مكملة كلامها:

ـ شوفوا، الإنسان لو رسم، أو لعب بالصلصال، يقدر يعمل المستحيل، وكل شىء تتمناهِ روحه ولا يقدر أن ينوله أبدًا، مثلا، يقدر يعمل الفيل بجناحين، أو قطة عندها منقار بطة أو الأرنب بذيل ثعلب وهكذا.

ضحك الفصل كله وزاط، وكركرت أنا بالضحك، وكأن إنسانًا يزغزنى وتعالت أصواتنا جميعًا ونحن نقول:

أو حمار بذيل كلب، أو جاموسة تهوهو، أو عصفورة تنونو.

وكل واحد أصبحت عنده فكرة ظريفة، فضحكت أبلة نادرة.

ثم قالت: خلاص، خلاص، اسكتوا، ويا الله اقعدوا وابدأوا فى الشغل، لأن التخيل يحتاج الهدوء، وصفاء الدهن، وأنا ناوية أن أمر عليكم، وأشوف شغل كل واحد منكم قبل نهاية الحصة.

أغمضت عينى، مثل كل البنات والأولاد فى الفصل، ورحت أتخيل ما سوف أفعله بالصلصال، عبرت خيالى صور كثيرة، أسماك كبيرة بأرجل طويلة، وضفادع تطير كأنها عصافير، لكنى لم أحب كل هذه الحيوانات، وبرقت فى رأسى فكرة جديدة، إذ قلت لنفسى:

لما لا أعمل أبى؟! أبى الذى أفكر فيه كثيرًا، وأتمنى رؤيته دائمًا، وأتشوق إلى لمسه والكلام معه!

تحمست للفكرة، وأكدت لروحى وأنا أطير من الفرح: «والله لأعمل أبى»، وأطبقت جفنى بشدة، محاولة أن أتخيل شكله، لكن ذلك كان صعبًا بالنسبة لى، لأنى لم أر أبى أبدًا، لأنه كما قالت أمى مات قبل ولادتى بشهرين وروحه صعدت إلى السماء، وهى لا تحتفظ بصورة له، لأن صوره القليلة، وصورها، وصور إخوتى الكبار، عندما كانوا صغارًا، ضاعت جميعها بصندوقها الصفيح، عند نقل عفش بيتنا من الفيوم إلى سكننا الجديد فى القاهرة بعد وفاته.

صرت متحيرة جدًا، فأنا لا أعرف كيف أعمل أبى الآن، لكنى كنت متشوقة إلى فعل لك، ومصرة عليه، فكرت مرة أخرى، وأخيرًا صارت عندى فكرة، فقد قررت عمل أبى من خلال وصف أمى له، وكلامها عنه. كانت أمى تقول كلما أسألها عن شكل أبى، «كان طويلاً عريضًا، يسد الباب، ورجل بحق وحقيق»، لكنى براحة لم أستظرف هذا الشكل، فهل من اللطف والذوق أن يسد الإنسان الأبواب، طيب، لو كان هناك أى شخص يرغب فى المرور، هل من الأدب أن يسد أبى الباب ويمنعه من المرور؟!

لم أجد هذه الفكرة بداية طيبة لعمل أبى حاولت تخيل «رجل بحق وحقيق» وأنا أغمض عينى مرة أخرى، عبرت بخيالى صور كثيرة لرجال كثيرين، العم سيد البقال الذى اشترى منه الأرز والمكرونة لأمى، كل المدرسين فى المدرسة، الدكتور سعد وهو يعطينى الحقنة كلما سخنت وذهبت إليه مع أمى فى الصيدلية، لكنى بصراحة لم أعرف هل هم رجال «بحق وحقيق» لأعمل أبى مثلهم؟ حرت وأنا أتنهد وأقرض أظافرى بأسنانى، مثلما أفعل دائمًا عندما أحتار، فأنا لا أعرف الآن كيف أعمل من الصلصال رجلاً «بحق وحقيق».

فكرت وفكرت. أخيرًا قلت لنفسى، من الأفضل أن أجعل أبى متوسط الطول والعرض، واكتشفت، بعد ذلك، أن هذا أفضل أيضًا لأن قطعة الصلصال التى أعطتها لى أبلة نادرة صغيرة بعض الشىء. كانت الرأس أسهل شىء بالنسبة لى،

عندما فكرت فى عمل أبى، لذلك لم أحتج لإغماض عينى لكى أعملها، فأنا عملتها كما تصفها أمى بالضبط، عندما تغضب وتغتاظ منى وتهم بضربى وهى تقول: «جامد، حجر، طوبة كبيرة»، طبعًا هى تقصد بذلك رأسى أنا، لكنى أعرف أنها تقصد رأس أبى كذلك، لأنها تضيف بعد أن تقول ذلك: «طالعة له ـ الله يرحمه ـ فى صلابة الرأى والدماغ، أصل عرقك عرق بدو وعبيد!».

كنت أتضايق من كلامها هذا كثيرًا، لأنى كنت أعرف أنها تقصد بذلك جدة أبى «قطيفة»، وكانت جارية سوداء، اشتراها جدى الكبير ثم أعتقها وتزوجها، وقد عرفت ذلك من أمى، عندما سألتها ذات مرة عن سبب لونى الأسمر الداكن، بينما هى بيضاء، فاتحة البشرة، فقالت لى. «لأن العرق يمد لسابع جد، وجدة أبيك قطيفة، كانت سوداء كالأبنوس، وها أنت ورثت عنها بعضًا من لونها»، على أى حال. كان كلام أمى عن صلابة الرأس، يجعلنى أصر على رأيى، مهما ضربتنى، وأنفذ كل ما أفكر فيه وأنا أقول لنفسى: «وما لهم البدو والعبيد؟!» ورغم أنى عملت الرأس كما كنت أتصورها دائمًا، إلا أن مشاكلى مع أبى ظلت كثيرة، فأنا لا أعرف كيف كانت العينان التى كان أبى ينظر بهما ولا أعرف شكل يديه وبقية تفاصيل جسمه.

أغمضت عينى مرة أخرى، ورحت أستعيد كل الكلام الذى سمعت أمى تقوله عن أبى، فهى تتكلم عنه كل يوم تقريبًا، تذكرت ما قالته عنه آخر مرة، بالأمس، لما طلبت منها شراء كراسة جديدة للعلوم، بدلا من التى انتهت صفحاتها بالكتابة، فقد دبت أمى على صدرها بيدها، ولمت حاجبيها الرفيعين، وصرخت فى وجهى قائلة: «يا مصيبتى يا ناس، كل يوم والآخر كراسة جديدة، هل أنا متربعة على تل فلوس؟! هل أبوك مات وترك لكم الأبعادية لأصرف منها عليكم وعلى الكراسات، والله ولا قرش تعريفة واحد يخرج من جيبى لكراسة جديدة، حتى يهل الشهر الجديد، وأقبض فلوس المعاش، ومطرح ما تحطى رأسك حطى رجليك؟! إذن.. ها أنا أكتشف الحقيقة الآن، من المستحيل أن أبى كان طويلاً عريضًا وإلا لكان ترك لى فلوسًا أشترى منها كراسة جديدة، صفحة وصفحة، للعلوم، لا، الأفضل أن أجعل أبى صغيراً، قليل الحجم، ثم إن هذا سيوفر لى صلصالاً، وفى هذه

الحال، ربما أتمكن من عمل جزمة وساعة يد لأبى، لأنى أظن أنه كان يحتاج إلى ساعة يلبسها فى معصمه ولا يستطيع شراءها كذلك.

جاءتنى الآن فكرة جميلة، سأصنع لأبى قلبًا، لأن الناس جميعهم لديهم قلوب، وسأجعل قلب أبى كبيرًا، واضحًا فى ناحية الشمال من صدره، فأمى تقول، إن أبى كان إنسانًا طيبًا وقلبه كبير، وإنه طوال حياته لم يؤذ مخلوقًا على الإطلاق. لكنى أظن أنه يجب ألا أتسرع فى مسألة القلب، لأنى أمى عندما تضربنى أحيانًا، تأخذ فى شتمى وتقول: «لو كان ـ رحمه الله ـ موجودًا على ظهر الدنيا، لكسر دماغك وشرب من دمك، لأنك قليلة الأدب، ولا تعملين حسابًا لأخيك الكبير!».

أشعر أننى على حق عادة فى علاقتى بأخى الكبير، فهو دائم الافتراء على ويريدنى أن أعمل كل شىء كما يريد هو، بل وينهرنى دائمًا، للعبى مع الصبيان فى الشارع والمدرسة، لكنى أحب اللعب مع الصبيان والكلام معهم، مثلما أحب اللعب والكلام مع البنات، وأرفض أن أوافقه على كلامه وأشعر أنه لا يفهم كل الأمور ولا أدرى السر فى أن أمى تقول عنه إنه سيكون رجلنا جميعًا نحن البنات، ورجل البيت كذلك. أختى أسماء أكبر منه وأطيب منه، تساعد أمى فى الطبخ وغسل الصحون، ولا تجعلها تعد لها الشاى أثناء المذاكرة كما يفعل هو، لكن أمى لا تقول عنها، إنها سوف تكون رجل البيت، ثم هل لابد أن يكون للبيت رجل؟!

لا، لن أصنع لأبى قلبًا كبيرًا، إن كان سيفعل معى مثلما تفعل أمى، سأعمل له قلبًا صغيرًا، بل ربما ألغى فكرة القلب تمامًا. بدأت فى عمل الرقبة، فجعلتها قطعة صغيرة قصيرة من الصلصال، ألصقتها جيدًا بالكرة الضخمة الجامدة على قدر استطاعتى، ورحت بعد ذلك أعمل الكتفين والصدر والوسط بحماس، ثم الوركين والرجلين، فقد كنت أخاف أن تنتهى حصتا الرسم والأشغال، وتمر أبلة نادرة دون أن أكون قد أكملت أبى، شعرت أنى على وشك الانتهاء، ولم يتبق لى ما أنجزه سوى الجزمة والساعة فى معصمه.

فجأة انتابتنى حيرة غريبة، إذ تنبهت إلى أننى نسيت أهم شىء فى أبى، وهو ذلك الشىء المتدلى من بين الوركين، الموجود عند أخى، وعند كل الصبيان، ولابد أن يوجد مثله عند الرجال كذلك، لأنهم كانوا صبيانًا ذات يوم.

شعرت بارتباك، وأظن أن وجهى أحمر أيضًا، فهو يعتريه الاحمرار كلما ارتبكت، أو خجلت، أخذت فى قرض أظافرى بأسنانى مرة أخرى، ورحت أفكر بشدة، بينما يمناى تتحسس ملمس الصلصال الناعم الطرى فى التذاذ، كنت متشوقة لعمل ذلك الشىء، لكنى خفت، فربما تعرف أمى أننى عملت ذلك، فتضربنى، وتسمعنى مالا أحبه من الكلام، فهى دومًا تحذرنى من ذلك الشىء الموجود عند الصبيان، وتقول إياك أن تسمحى لواحد منهم أن يقترب منك، ويجعل جسدك يلامس هذا الشىء، لأن البنات لا يصح لهن مشاهدة هذا الشىء، أو لمسه، إلا عندما يكبرن ويتزوجن، لكنى مصرة على عمل ذلك الشىء بالصلصال، وأعرف كيف أفعل واحدًا منه لأبى، سأفعله كذلك الموجود لدى حسام ابن جارتنا الصغير، فشكله مطبوع فى مخيلتى تمامًا، لأنى أراه كثيرًا، كلما ذهبت إلى بيت جارتنا، فأشاهد حسام جالسًا على القعادة، ثم وهو يجرى بعيدًا عنها بعد ذلك، كاشفًا عن وركيه وهو يضحك، بينما أمه تطارده لتغسله وتلبسه السروال.

أنا مصرة لكنى أخاف أمى، بيدى الصلصال، لكن يدى لا تقويان على الإمساك به وفعل ذلك الشىء الممنوع. فهى لو عرفت ستضربنى بشدة، وستسمعنى الكلام المؤلم، ستقول لى: «لو كان ـ الله يرحمه ـ موجودًا على ظهر الدنيا، لحفر حفرة ودفنك حية فيها، يا مقصوفة الرقبة، يا جلابة العار».

«لا، لا أريد كل هذا، لن أفعل لأبى ذلك الشىء المتدلى من الوركين» قلت ذلك لنفسى وأنا أشعر بالغيظ من أمى، ومن أبى، بل ومن أخى الكبير أيضًا، لأنهم جميعًا، لا يتركوننى أفعل ما أشاء فى هذه الدنيا.

ظللت لفترة حائرة، حزينة، أفكر ولا أفعل شيئًا، سوى النظر إلى أبى وتأمله، بعد قليل، ودون أن أشعر بنفسى، وجدت أصابعى تمتد بهدوء إلى قطعة

الصلصال التى هى أبى، وتضغط عليها شيئًا فشيئًا، حتى تلخبطت وضاعت معالمها وكذلك معالم الرأس التى جعلتنى أشعر أن ما فعلته كان قبيحًا وسخيفًا جدًا، فرحت أخبطه بقبضتى؛ وأسويه بسطح المنضدة، فيتحول إلى فطيرة صغيرة بلا رقبة أو جسد، وكنت أرغب فى البكاء والصراخ لفرط ضيقى، لكنى بقيت فى مكانى، عاجزة عن فعل شىء وقد سدت حلقى غصة كبيرة تمنعنى من الكلام.

لاحظت أن أبلة نادرة بدأت فى المرور على التلاميذ، لترى ما فعله كل واحد منا، فصرت مرتبكة خجلة، لأنها عندما تتوقف عندى لن تجد شيئًا قد عملته، بل ستجد قطعة الصلصال الصغيرة، بلا شكل، بلا معنى، فكرت وأنا أنظر إليها، وهى تتجه نحوى، «لماذا لا تكون أبله نادرة أمى!؟ ولماذا لم يكن أبى ظريفًا مثلها!؟».

رحت أقرض أظافرى، ولم تمر دقائق إلا وكانت معلمتى تقف إلى جانبى، صرت حائرة مرتبكة، أعبث بالصلصال كيفما اتفق، يداخلنى شعور بالغ بالندم، لأنى ضيعت الوقت فى عمل أبى، لكن أبله نادرة جعلتنى أتوقف عن كل ذلك إذ سألتنى بدهشة وهدوء:

- وقت الحصتين انتهى تقريبًا، وأنت لم تعملى أى شىء من الصلصال. هه؟

لم أرد عليها لفترة، وأطرقت. كنت خجلة لا أعرف بماذا أجيبها، لكنى خفت أن تتضايق منى أيضًا، أو تظن أنى كسولة، بليدة، فلا تحبنى مثلما تحب البنات والأولاد، لذلك تشجعت وقلت لها بسرعة، قبل أن تذهب وتتركنى:

- لا، أنا عملت أبى، لكنه لم يعجبنى، ففكرت أنه كان من الأفضل لو عملت أمى..

يبدو أنها لم تفهم ما أقصده، لأنها ابتسمت لى ابتسامة خفيفة وهى تربت على ظهرى ومضت لترى ما فعله بقية التلاميذ دون أن تستمع إلى كل الكلام الذى رغبت فى قوله.

دخلت القاعة الواسعة بخطوات ملسوعة يلاحقها لسانها الملتهج بصباح الخير، صباح الخير، توزعها آليًا على زملائها الذين سبقوها إلى مكاتبهم، وبمجرد أن وصلت آخر القاعة، حيث مكتبها، ألقت بحقيبتها فوقه، وبجسدها المنهك على الكرسى الخشبى القديم، المتبقى كتذكار حى من زمن تغلغل الأجنبى فى البلاد، قبل تأميم البنك فى العهد الجمهورى.

زفرت أنفاسًا مديدة، وهى تحمد الله على وصولها فى اللحظة المناسبة: الثامنة والنصف إلا دقيقتين. لتختم بطاقة الحضور بساعة التوقيت، دون أى تأخير؛ بينما راحت تلعن فى قرارة نفسها هذه الآلة التى لا ترحم ولا تغفر فى الوقت، ويمكن القول بهذه الزفرات إنها اجتازت البرزخ اليومى الفاصل بين السادسة والنصف، والثامنة والنصف، لتخرج من دنيا إعداد الفطور وتجهيز الأولاد للمدرسة، إلى عداد المشتغلين بالأرقام والحسابات، والمكائد والصراعات اليومية الصغيرة فى البنك.

شرعت فى العمل فورًا، ففتحت دفتر تحصيل الشركات، لكن ذلك لم يمنعها من فتح حقيبتها بسرعة، وتسديد نظرة أولية خاطفة إلى وجهها عبر المرآة الصغيرة المثبتة فى داخلها، وعمل حركة تسوية سريعة للشعر بأناملها، وهى تطبق شفتيها بقوة فى محاولة مخلصة لتثبيت أحمر الشفاه، ربما تصلح ما أفسده الاحتكاك بظهور الركاب، أثناء مزاحمتهم للعثور على موضع قدم فى الأتوبيس الذى يقلها إلى العمل.

فتحت القلم، قلبت فى الدفتر حتى الصفحة التى انتهت عندها فى اليوم الفائت، بدأت تدون أسماء الشركات، ومبالغ التحصيل، تذكرت أثناء ذلك، أنها نسيت طلب قهوتها الصباحية من الساعى، وهذا معناه الانتظار حتى يدخل حاملاً مشروبًا لأحد الزملاء فتطلبها منه، تنهدت ثم عطست ومدت يدها إلى حقيبتها لتخرج منديلاً تمسح به أنفها، وهى تنظر إلى زميلها الأستاذ سيد عبدالمعبود بضيق، لأن دخان سيجارته كان يعبر بنجاح ثلاثة مكاتب قبل أن يصل إلى أنفها ويقتحم فتحتيه بهدوء.

مرت حوالى الساعة، قبل أن يرن جرس الهاتف على مكتب الرئيس فى القاعة، ليرفع السماعة، ثم ينادى بصوت قطة تحتضر: مدام ناهد فوزى.

لم تسمعه، لأن موقعها فى نهاية القاعة لا يسمح بذلك، لكن بما أن زميلتها نادية عباس فى قسم «الكمبيالات» سمعته فقد أبلغتها بسرعة، لتهب على الفور وهى قلقة، لأنها لا تتوقع هاتفًا صباحيًا كهذا، فأولادها فى المدرسة، وزوجها يراقب حالة الجو فى مصلحة الأرصاد، كالمعتاد ويدلى بنتائج عكسية عن هذه الحالة، كالمعتاد أيضًا. قالت لنفسها وهى تتحرك فى اتجاه مكتب الرئيس: «اللهم اجعله خيرًا، يا رب استرها».

أمسكت بسماعة الهاتف، نطقت بصوت حاولت أن يكون هادئًا طبيعيًا. ألو. رد عليها من الطرف الآخر صوت رجولى جاد يقول:

مدام ناهد فوزى.. أنا فتحى المنشاوى، ربما لم تسمعى اسمى من قبل، أنا منتج سينمائى، قرأت قصتك المنشورة يوم الخميس، منذ حوالى أسبوع فى مجلة حكايات الناس، وأعجبت بها جدًا، أريد أن أتعرف على حضرتك، وأتكلم معك فى موضوع.

لم تعرف بماذا ترد. قالت له:

«شكرًا، شكرًا، الله يخليك، بينما راحت تدور بنظراتها فى المكان، فشعرت أن أذني الرئيس القابع على مكتبه وآذن قسم «الكامبيو»، و«الشيكات» و«الكمبيالات»،

قد بدأت جميعًا تتجمع لتطبق على سماعة الهاتف، مما جعلها تخفض صوتها وهى تقول:

ـ يا أهلاً.. طيب، حضرتك تتفضل وتشرفنى فى البيت بكل سرور، أو أحضر إلى مكتبك فى الغد، كما تشاء.

لم يفكر الرجل كثيرًا، قال لها إنه سيأتى إليها فى البيت ليوفر عليها مشقة الذهاب إليه، أعطته عنوانها، شكرته، شكرها ثم أنهت المكالمة، وتحركت مرة أخرى لتواصل ما انقطع مع دفتر الشركات.

بينما هى تتابع بعينيها الأرقام، كان يدور برأسها سيناريو المكالمة الهاتفية وهى تتساءل: هل يمكن لقصتها التى نشرت بالمصادفة من أسبوع، أن تلفت انتباه منتج سينمائى، فيتحدث معها فى الهاتف بسببها؟!، فكرت لعله يريد تحويلها إلى فيلم أو ربما أراد مناقشتها فى الأفكار التى جاءت فيها، أخذها الشغف، لأن كتابة القصص عادة سرية لديها تمارسها نادرًا وعلى فترات متباعدة إذا خلا البيت من الزوج والأولاد، عثر زوجها ذات مرة بالمصادفة على قصة كتبتها، لم يقرأها بالطبع، لكنه سألها عنها، فلما أخبرته علق وهو يبتسم: «والنبى أنت دماغك فارغ». لم ترد ولم تغضب فزوجها لا يفهم فى القصص ولا يحبها، بل إنه لا يحب القراءة وهو بالكاد يقرأ صفحة الرياضة فى جريدة الصباح، لكن هذه القصة التى لم يقرأها الزوج، قرأها آلاف الناس، بعد أن أعطتها على سبيل المزاح لابن عمتها الصحفى ليقرأها ويقول لها رأيه فيها، فما كان من ابن العمة العزيز إلا أن قال رأيه بطريقة لم تتوقعها، أبدًا، فلقد قام بنشر القصة فى المجلة الأسبوعية التى يعمل بها، وها هو منتج فى السينما يتصل بها ويقول لها إنه يريد مقابلتها بسبب هذه القصة.

لم تعرف كيف مر يوم العمل دون ملل على هذا النحو الذى شعرت به، وكأن ساعاته انقضت بسرعة غريبة، وها هى تسرع الخطى مرة أخرى خارجة من البنك، بعد أن ختمت ساعة الوقت فى الثانية والنصف تمامًا، لتلحق بالأتوبيس قبل ذهابه، فيذهب معه ميعاد طفلها الصغير فى الحضانة عند الثالثة والربع تمامًا.

وصلت فى الوقت المناسب. أحضرت الطفل، عادت به إلى البيت، خلعت حذائها على عجل واندفعت إلى المطبخ ففتحت الثلاجة، وأخرجت وعاء الأرز ووضعته على النار ليسخن قبل عودة زوجها من عمله وبقية الأبناء من المدرسة هيأت طاولة الطعام قبل دخول زوجها من الباب بقليل.

ألقى إليها زوجها بالسلام وهو يركن حقيبته إلى جوار الباب، وتوجه إلى الحمام ليغسل يديه، وهى عادة اكتسبها من أيام الإبتدائى، بعد أن حفظ التعليمات المدونة على الغلاف الأخير لكراسات وزارة المعارف العمومية ـ ثم عاد والتحق بالجميع المتحلقين حول مائدة الطعام، وقبل أن يمضغ المضغة الأولى من اللقمة الأولى، كانت تخبره بما دار فى المكالمة الهاتفية بينها وبين فتحى المنشاوى، ابتلع الطعام ولم يرد، فحاولت دفعه للكلام وهى تقول له:

ـ تصور، أول قصة أنشرها يعجب بها منتج سينمائى، شىء رائع، نظر إليها وهو يقول بتحفظ:

ـ حظوظ. ثم انهمك مرة أخرى فى لحظاته اليومية المجيدة: تناول الطعام.

وبالرغم من أنها قالت له إن المنتج سيأتى إليها ليزورها فى البيت فى الثامنة مساء، إلا أن الزوج لم يبد ترحيبًا، كما أنه لم يبد امتعاضًا، فهو ليس من النوع المتحرر، ولا من النوع المحافظ أيضًا، ربما لهذا السبب، ولكونه من النوع الإنسانى البارد، ومنشغل دومًا بعمله، وبهموم أخواته الخمس، المطالب برعاية شئونهن بعد وفاة أبيه، فقد اكتفى بأن قال لها: «طيب». ولم تفلح محاولاتها المستميتة لإبقائه فى البيت عند الثامنة ليشاركها فى استقبال فتحى المنشاوى، إذ تذرع بما هو أهم: مقابلة أرمل تقدم لخطبة أخته الثالثة أو العقبة الكأداء المانعة لزواج ما تلاها من بنات إذا ظل حالها عما هو عليه بدون زواج.

منذ انتهاء الغذاء وحتى الساعة الثامنة، بذلت ناهد جهودًا مضنية، تمهيدًا لاستقبال فتحى المنشاوى، فقد غسلت صحون الإفطار، الغذاء ثم أعدت الشاى الخفيف لرجل الأرصاد الذى كان منبطحًا أثناء ذلك على السرير، بينما ابنه الصغير يقوم بعمل جولات قصيرة على ظهره تخفيفًا لآلامه، وعندما اكتشفت أن

الشمس تفكر فى الرحيل، سارعت بإخراج الغسيل من الغسالة ونشره على الحبال، بعد ذلك اضطرت لأن تجلس مع الابن الأوسط لتشرح له درس الطرح بالاستلاف حتى فهم بعد جهد مضن، كيف يأخذ تسعة من خمسة، بعد أن يستأذن من الستة التى تجاورها فتعطيه واحداً.

الابن الصغير نال نصيبه من وقت ما قبل الثامنة، وكان هذا النصيب مكونًا من شقين: الأول، علقة متوسطة الوجع بسبب تلوينه لملابسه ووجهه بألوان الفلوماستر، بعد مغافلة أخيه الكبير وسرقتها من حقيبته، أما الشق الثانى، فكان حمامًا ساخنًا بالماء وصابون النابلسى الذى يكرهه، وقد تخلل ذلك عشرات من كلمات التوبيخ، والنصائح، التى لن يأخذ بها، رددتها على مسامعه وهى حانقة عليه وعلى الدنيا كلها.

عندما خرجت من الحمام، تلقت مكالمة هاتفية عاجلة من أختها الكبرى، لتسألها عن طريقة عمل مربى الكمثرى، لأن زوجها ضابط الشرطة، أتحفها بقفص كامل من تلك الثمار، بعد أن أهداه له أحد تجار الفاكهة على سبيل الشكر والمكافأة، لأن الزوج قبض على لصوص سرقوا بضاعة من التاجر فى السوق.

فى السادسة والنصف، تمنت أن تلقى بنفسها على السرير، أو حتى على كومة قش لتستريح قليلاً، لكن ما أن همت بدخول حجرة النوم، التى كان زوجها قد سبقها إليها منذ فترة، حتى رن جرس الباب، واتضح أن الطارق هو السباك الذى جاء فى واقعة غير مسبوقة، فى الموعد المتفق عليه معه منذ بضعة أيام، كان عليها أن تقوده إلى الحمام، وأن تتابع عمله فى إصلاح السخان. ليعلن لها بعد محاولات متكررة أنه لابد من تغيير الخلاط بكامله، وكان ذلك يعنى لها أنها ستضطر لأخذ حمام بارد قبل لقائها بفتحى المنشاوى، طالما أن السباك قرر أنه سيغير الخلاط فى الغد بعد أن يأتى بواحد جديد.

زفرت بألم، فالوقت أزف، وهى لن تستطيع الاستلقاء ولو قليلاً قبل حضور *الضيف الغريب. دخلت الحمام، تحممت بسرعة، وخرجت لتمشط شعرها، وبينما* هى تدخل نفسها فى فستان يصل طوله إلى منتصف الساق درءًا لأى محاولة

محتملة من فتحى المنشاوى للتطلع إلى ساقيها، اكتشفت أن ما تبقى لها من وقت لن يسمح إلا بإعداد عصير الليمون الطازج الذى ستقدمه للضيف، ثم بعده القهوة. آه البن.. قالت لنفسها وهى تتذكر برنامج المشروبات، ثم صرخت بصوت عال لزوجها الذى كان قد بدأ يفيق من نعاسه فى السرير: «صار لى أسبوع وأنا طالبة منك تشترى البن يا عبد العزيز.. صوتى بح دون فائدة وأنت ولا كأنك هنا.. والله حرام.. حرام يا شيخ».

خرجت بسرعة إلى غرفة المعيشة، طلبت من الولد الكبير الذى كان يتابع التلفزيون أن ينزل بسرعة إلى البقال ويشترى البن. لكن الابن رفض، متذرعًا بأنه يتابع مباراة مهمة فى الملاكمة لم تبث من قبل. رجته، رفض، استشاطت غضبًا، أغلقت الجهاز وهى تسبه، امتثل أخيرًا بعد أن جاءه صوت أبيه من الداخل: انزل يا على واسمع كلام أمك، وهات معك علبة سجائر.

فى الثامنة وعشر دقائق، وصل السيد فتحى المنشاوى يتهادى، استقبلته بترحاب وخجل، بدا لها رجلا وقورًا، لكن أناقته المتزايدة والعطر الفواح منه، جعلاها ترتبك بعض الشىء، حدثها عن قصتها، قال لها إن ما أعجبه فيها اهتمامها بالتفاصيل الصغيرة، والسلاسة التى تعبر بها، وشعرت بخجل أكثر فهى تخجل من الإطراء عادة، لكنها تنبهت وهو يطلب منها أن تكتب له قصة للسينما، قصة تصلح خصيصًا لأن تكون فيلمًا سينمائيًا، يعبر عن حياة الناس وهمومهم، وتحديدًا النساء منهم، فهو متعاطف جدًا مع النساء ومع المرأة وهمومها، وقال لها إنه شعر بعد قراءة قصتها، أنها الوحيدة القادرة على كتابة ما يريده، والتعبير عنه على نحو دقيق.

كانت فرحة جدًا، ومأخوذة للغاية بينما هو يقول لها ذلك، لكنها نظرت إليه طويلاً وهو يسألها: هل تكتبين القصص كثيرًا، لماذا لا تكتبين القصص دائمًا؟! فكرت وكأنها تسأل نفسها هذا السؤال لأول مرة، تنهدت وهى تقول له، أنا أحب كتابة القصص كثيرًا، لكنى لا أجد الوقت اللازم لذلك، فأنا مشغولة دائما فى البنك، والبيت والأولاد، ثم إنى انجبت الطفل الثانى، حتى لا يكون الأول وحيدًا مقطوعًا فى الدنيا عندما يكبر، لكن الثانى جاء ذكرًا، برغم حلمى الدائم بأن

يرزقنى الله ببنت لذلك وبرغم ما عانيته من صعاب أثناء الحمل الثالث فإننى كنت سعيدة جدًا، لأن الطبيب أنبأنى بأنى سألد بنتًا، وهكذا جهزت كل مستلزمات المولود على أساس أنه سوف يكون بنتا، لكن المفاجأة كانت إنجابى لولد آخر. هاهاها.

ضحك المنشاوى أيضًا. وقال إن الأطباء يخطئون أحيانًا، والغيب لا يعلمه إلا الله وحده، لكن المهم هو أن لا تعيد الكرة مرة أخرى، فثلاثة أولاد نعمة ورضى من الله ابتسمت بخجل وهى تقول: وهل أنا مجنونة؟

شرب المنشاوى الليمون، وأعقبه قهوة بسكر خفيف، ووعدها بأن يتصل بها فى أقرب فرصة، كما وعدته أن تكتب له قصة بأسرع ما تستطيع. مر شهران كان السيد فتحى خلالهما يتصل بالسيدة ناهد، والسيدة ناهد تكتب القصص وتعرضها على السيد فتحى، لكن السيد فتحى لا يرضى عما تكتبه السيدة ناهد ويطلب منها كل مرة تعديلات فى القصص، فهو مرة يقول لها: ولكن لماذا تحمل البطلة فى النهاية؟ ويتساءل مرة أخرى بدهشة، ولماذا تعمل مدرسة للعلوم؟ وكان أحيانًا ينسف الفكرة من أساسها بجملة واحدة إذ يقول: مستحيل أن أنتج قصة على هذا النحو. مستحيل!

أثناء ذلك الوقت، أكل الزوج والأولاد الكثير من السالمون المعلب، الشبيه بجثث فرعونية محنطة، وظلت البطاطس المحمرة، مع السلاطة الخضراء، وجبة إجبارية متكررة بسبب الظروف السينمائية الطارئة، وبالطبع احترق الطعام وغلى اللبن حتى الفوران وأطفأ شعلة موقد الغاز أكثر من مرة، بينما كانت الأستاذة ناهد تناقش السيد فتحى على الهاتف عن ضرورة أن تكون البطلة يتيمة الأم والأب وبلا زوج أو أبناء.

خلال مرحلة احتراق الطعام، والكتابة، والكلام عبر الهاتف، كانت أعصاب ناهد فوزى، تحترق ببطء فالسيد فتحى المنشاوى، كان يحتاج فى مواجهته إلى جهاز عصبى عالى القوى، حتى يواجه محاجاته ومحاوراته وجدله الجدير بأن يجعله عضوًا كبيرًا فى نادى بيزنطة، وقد ترتب على حروق الجهاز العصبى،

وضرب يفضى إلى زعيق وصراخ للعيال، لدرجة أن الزوج البارد انفعل ذات مرة، وذلك من الحوادث النادرة فى تاريخ جهازه العصبى - وطلب منها الكف عن أذى العيال، كما أنه لفت نظرها إلى أن الخضار المطبوخ، ألذ وأكثر فائدة ووفرًا من السالمون، أما أختها الكبرى فقد خاصمتها لأن مربى الكمثرى لم تكن على ما يرام فقد دلتها على طريقة عملها بسرعة، ونسيت أن تشير عليها بضرورة تقشيرها أولاً، لكن على أية حال لم تكن هذه الأحداث المأسوية هى الأهم بالنسبة لناهد، فالحدث الجلل، كان خصم خمسة أيام من راتبها، لأول مرة فى تاريخها الوظيفى، بسبب أخطاء فادحة فى حساباتها الدفترية، وتحديدًا دفتر الشركات.

ذات يوم، وفى نهاية الشهرين، جاءها السيد فتحى المنشاوى غاضبًا جدًا وقال لها: أنت لست مهتمة بكتابة القصة، أنت لا تأخذينها على محمل الجد، فى الحقيقة أنت هاوية تتعاملى مع الكتابة كلما وجدت فراغًا من الوقت. لكنك أضعت وقتى، لقد كنت أراهن على جواد خاسر.

السيدة ناهد لم تغضب من كلمات السيد فتحى، لكنها كانت مندهشة جدًا بسبب انفعاله الشديد وهو يقول لها ذلك، فكرت أن تناقشه، أن تقول له عن كلام زوجها وضرب العيال وخصام أختها وكارثة الأيام الخمسة، لكنها اكتشفت أنه لن يفهم ذلك. والحوار معه بلا معنى أو جدوى فهو يأتى إليها كثيرًا، لكنه لا يراها، يحادثها طويلاً فى الهاتف، لكنه لا يسمعها، لذلك اكتفت بالنظر إليه والابتسام، بينما كانت تدور برأسها فكرة كتابة قصة جديدة. عندما انصرف فى ذلك اليوم ضربت الأولاد بحجة أنهم لم يكونوا مهذبين كما يجب أثناء وجوده، خصوصًا الأوسط الذى راح ينط فوق كرسى الصالون، وفى المساء بدت حانقة جدًا على عبد العزيز، لأنه يهتم بأخواته البنات أكثر مما يهتم بها وبأولاده، أما رئيسها فى البنك فقد تمنت أن تأخذه داهية من الدواهى، لم تحددها بدقة. جام غضبها صبته على شركات تعبئة الخضروات الطازجة فهى تبيع منتجاتها بسعر باهظ جدًا، أدى إلى أن ينطق عبد العزيز الساكت دومًا، ويحتج على السالمون والبطاطس المحمرة.

قبل أن تنام راحت تمارس عادتها اليومية التى لم تتغير منذ إنجاب ابنها الأول، وهى قراءة الجريدة فى الفراش، قلبت الصفحات، مرت بعينها مرور الكرام على صفحات الكرة والوفيات، قرأت ببرود عنوانًا لمقال: «لماذا تراجعت المرأة عن المساهمة فى العمل السياسى؟!» توقفت قليلا عند إعلان: «هدية شركة براون لكل سيدة عصرية: ماكينة إزالة الشعر من الجذور بخمسة وسبعين جنيها» تنهدت ثم طوحت بالجريدة بعيدًا عنها وانزلقت بجسدها فى الفراش ونامت. فى الصباح، وبينما هى واقفة تدهس الفول بالشوكة للأولاد، لتضعه فى السندوتشات، راحت تحكى لعبد العزيز، وهو منهمك فى تقليب الشاى، عن حلمها فى الليلة الفائتة، كانت تضحك بسعادة وهى تقول له: تصور يا عبد العزيز، كانت شروط العقد معه، أن يقوم هو بغسل الصحون والذهاب إلى البنك، وضرب العيال، ولف شعره بالرولو كل ليلة قبل النوم، بينما أقوم أنا بكتابة القصة، تصور يا عبد العزيز، كنت أقرأ ذلك بجد شديد ولم أضحك بينما كان هو يبكى ويقول لى: طيب لا داعى لحكاية لف الشعر فى الليل، لأنى لن أستطيع النوم بالرولو، لكنى أصررت وقلت له: مستحيل شعرك خشن، ولازم يكون شكله حلو فى الصبح، مستحيل أن تخرج من البيت وتروح إلى البنك وشعرك منكوش.. هاها.

نظر إليها عبد العزيز بهدوء وهو يرتشف الشاى، لم يضحك بالطبع بسبب الاستجابة الضعيفة لجهازه العصبى فى مثل هذه المواقف، واكتفى بأن قال لها:

كلها هلوسات أحلام، قلت لك خمسين مرة، انتظرى ساعة بعد العشاء، قبل النوم. يا الله، انسى. الموضوع انتهى وراح لحال سبيله. شرب الشاى، وودعها ليخرج إلى الأرصاد، وبينما كان يغلق باب الشقة خلفه، سألت نفسها وهى مستمرة فى دهس حبات الفول لماذا لا يكتب عبد العزيز القصص؟

* * *

أعترف أن العلاقة بينى وبين خالى إبراهيم، لم تكن علاقة عادية أبدًا، فهو خالى الوحيد، وأنا بنت أخته الوحيدة أيضًا، نشأت وشببت على أنه لى عوضًا عن أبى المتوفى قبل بلوغى السنتين، وهو منى بمثابة الأخ العزيز، والصديق الحميم، والرجل الذى أحلم برجل مثله، وقد كان فى مبتدأ مراهقتى، فتى أحلامى الأثير، رغم أنه يكبرنى بحوالى عشرين سنة، لكنى بمرورالوقت استبدلته بحب جارف لممثل سينمائى شهير فى ذلك الزمان، وبالطبع كان حبًا من طرف واحد.

اعتدت من خالى أن يصطحبنى معه إلى معظم الأماكن التى يذهب إليها عادة للترفيه، كالسينما والمسرح والسيرك، فلما وعيت الحياة بقدر صرنا نتناقش ونتحاور ونتبادل الآراء ووجهات النظر فى أمور عديدة من أمور الحياة، وربما كان أهم ما تعلمته من خالى هو حب الموسيقى، والولع بالقراءة، وهما الأمران اللذان جعلا منى فتاة متميزة، مختلفة عن الكثيرين والكثيرات من أبناء وبنات جيلى.

لكن رغم ذلك التفاهم، وكل تلك الحميمية، فإن العلاقة بينى وبين خالى، أخذت تفتر شيئًا فشيئًا منذ سنوات، فهو لم يعد فى نظرى أهم إنسان فى حياتى، كما كنت أعتقد دومًا، وأظن أنه من جهته كف عن اعتبارى أذكى واحدة قابلها طوال عمره، مثلما اعتاد أن يقول لى؛ أما كيف جرى ذلك التحول، وكيف بدأت المياه تتجمد بين برى وبره؟ فهذا ما لم أفهمه حتى الآن. أحيانًا أعزو هذه المتغيرات لظروف الزمان وتحولات الأيام، فأنا طالبة فى قسم الدراسات

التاريخية، لدى طموح لتحقيق أعلى الدرجات العلمية، التى تؤهلنى للالتحاق بسلك التدريس الجامعى، ثم إن خالى صار عجوزًا، لا يغيب عن شخصيته ما يسبب ذلك الملل الذى يستشعره المرء تجاه كبار السن، بالإضافة إلى أنه صار نقاقًا شكاء بسبب وبلا سبب، ويتدخل فى كل كبيرة وصغيرة، لكنى عندما أتأمل الأمر فى بعض الأحيان، أقول لنفسى إن ما حدث بينى وبين خالى، ربما كان سببه تلك الحياة فى هذه المدينة الكبيرة المتورمة المتمددة دومًا، فأنا أسكن مع أمى فى طرف قصى منها بينما يسكن خالى فى الطرف الآخر، وصعوبة المواصلات تجعلنا لا نلتقى بسهولة كلما رغبنا فى ذلك.

منذ يومين، اتصل خالى بى هاتفيًا وألح على ضرورة أن التقى به فى أسرع وقت ممكن، بعيدًا عن بيته، أو بيت أمى، لأنه يريد التحدث معى فى مسألة مهمة وحساسة جدًا، وهكذا وجدتنى مضطرة لترك مذاكرتى ودروسى، والدنيا والدين، والذهاب للقائه مساء اليوم ذاته.

طوال الطريق إليه، رحت أفكر فى المسألة المهمة الحساسة، وما عساها أن تكون، وقد تصورت لذلك عدة تصورات مثل: إصابته بمرض خطير يخفيه عن زوجته وأمى، أو دخوله فى علاقة غرامية جديدة (وقد تكرر ذلك من قبل عدة مرات، كنت خلالها مستشارته العاطفية). كان هناك احتمال ضعيف بأنه ربما ينوى مفاتحتى فى موضوع يتعلق بزواجى من شاب ما يعرفه ويرغب فى تقديمه لى، لكنى استبعدت هذا الاحتمال بسرعة، لأن خالى يعلم أننى أرفض هذا الأسلوب الفج فى الزواج، وأنى لن أتزوج بهذه الطريقة أبدًا، والحقيقة أننى تصورت أشياء كثيرة منها أنه يريد منى التوسط لدى أمى، وإقناعها ببيع نصيبها من الأرض التى ورثها معًا عن أبيهما، حتى يباع الميراث كاملا بسعر جيد، كما ظننت أنه سيعاود تشكيه من شخير زوجته المتزايد أثناء الليل، وكان قد شكا منذ عدة أشهر من ذلك الأمر، خلال زيارته لنا فى العيد الكبير.

غير أن المسألة كانت قنبلة حقيقية، فجرها خالى فى وجهى، فور أن التقيت به خلال ذلك المساء وبعيدة عن كل الأفكار والتصورات التى شغلتنى طوال

الطريق، فبعد تبادل التحيات السريعة والسؤال عن الأحوال، وقبل ملامسة مقعده لطرف كرسيه، قال بانفعال شديد، وعصبية نمر فى قفص:

ـ خلاص.. قررت طلاق سنية.

شهقت، وبحلقت فى وجهه بدهشة قائلة:

ـ يا خبر أسود يا خالى.. مستحيل!

فرك يديه بضيق وأسى، بينما تلغم وجهه بالغضب، ودون أن يسألنى عما أود شربه أمر النادل، أن يأتينا بكوبين من عصير الليمون. كنت مأخوذة من حجم المفاجأة فأمسكت بأناملى أقرب خصلة من شعرى تنسدل على أذنى ورحت أضمها بين شفتى دون أن أقوى على قول أى شىء آخر، بينما كنت أؤكد لروحى أن موضوع الشخير هو ا لسبب، لكنه سرعان ما سلسلنى بمفاجأة جديدة إذ أعلن:

ـ سنية عملت منى أكبر طرطور.. ولم تحسب لى أى حساب، والله لابد من طلاقها طلقة بائنة لا رجعة فيها، سنية خانتنى وضحكت على.

كان حادًا بدرجة لا تصدق حتى إننى خفت، فرحت أزيد من وتيرة إطباقى على خصلة الشعر بين شفتى، بينما جالت فى رأسى بسرعة صورة علاقة خالى بزوجته سنية، التى لا يمكن أن أتصور أن تقدم على خيانته أبدًا، فهى تحبه بشدة، وتتمنى تقبيل التراب الذى تحت رجليه، وأنا لم أر فى حياتى امرأة تعشق كما عشقت سنية خالى، فقد تزوجته عن حب، بعد أن خاضت معركة كبرى مع أهلها المشايخ، لأنه مدرس موسيقى، وكانوا يعتبرون أنه من العار أن تتزوج ابنتهم «مزيكاتى» من أصحاب «ترتبتى، تربتيتا» الذين كانت الحكومة لا تقبل شهادتهم فى المحاكم حتى وقت قريب، لكن سنية تزوجته ولم تعبأ بهم، فقاطعوها لسنوات طويلة، ولم تعد المياه لمجاريها بينها وبينهم، إلا عندما عرفوا أن خالى ترقى فى المناصب، حتى صار مديرًا عامًا بوزارة التعليم. ثم كم غفرت له سنية وكم تعذبت بسبب علاقاته الغرامية المتعددة، التى طالما فاحت رائحتها حتى وصلت أنفها، والآن تخونه!؟ لا، لا أستطيع تصديق ذلك أبدًا، يبدو أن خالى بات خرفًا بالفعل،

وأصبح غير طبيعى بالمرة، مثلما تقول سنية لأمى عندما تشتكى منه بسبب عصبيته وثوراته المتكررة لأتفه الأسباب؛ وقد استغربت كيف يقول ذلك عنها، بعد أن كبرت وترهل جسدها وباتت من ذوى الأمراض المزمنة.

كدت أضحك من كلام خالى، لكنى أوشكت على الانفجار ضحكًا، عندما انتزعنى من زحم أفكارى مستكملاً كلامه، قائلاً:

ـ سنية باعت الهرم يابسنت.

تماسكت إذ لاحظت أنه مضطرب جدًا وهو يقول ذلك، وبدلاً من الضحك ضغطت أكثر على خصلة الشعر بشفتى، وابتلعت ريقى قبل أن أتساءل بهدوء استنكارى لا يخفى ريبة وتشككًا وعدم تصديق لما يقول.

ـ باعت الهرم يا خالى؟!، كلام جد!؟

زفر بحرارة، ثم تباعد بكرسيه قليلاً إلى الوراء ثم تساءل بدوره.

ـ الله! هو أنا قلت الهرم لا كنت أقصد صور الهرم. ثم استطرد بسرعة وهو يشعل سيجارة بيد مرتجفة واهنة:

ـ أنت عارفة أنى متضايق من تصرفات سنية وأفعالها من فترة طويلة، وكنت لا أتكلم إلا فى موضوع الشخير، لكن الحقيقة أن المسألة أصبحت أكبر من ذلك بكثير، فسنية أصبحت بليدة، غبية، ولم تعد تفهمنى على الإطلاق، ورغم ذلك كنت أقول لروحى، اصبر عليها يا ولد، فقد كبرت وصارت من أصحاب الأمراض، والعشرة لا تهون إلا على أولاد الحرام، لكنى قبل أسبوع سافرت فى مأمورية تحكيم موسيقى على مستوى مدارس الجهورية، وفوجئت عند روجوعى، بأنها باعت معمل التصوير لواحد من سريحة الروبابيكيا، وباعت مع المعمل كل صور الهرم، تصورى! باعت تسعًا وتسعين صورة كنت محتفظًا بها فى صندوق من خشب الصندل القديم، هل تصدقين أنها باعتهم بصندوقهم الجميل لبائع روبابيكيا؟! ألطم وأشق هدومى!؟

سحب نفسا طويلاً من سيجارته، ابتلع الدخان ونفثه من منخريه، ثم واصل كلامه فأخبرنى بمشاجرته معها، وبالرغبة العارمة التى تملكته وقتها لضربها قال

إنها تذرعت بضرورة إخلاء الحجرة من الكراكيب، حتى تستخدمها للنوم، فتتجنب الاحتكاك به ووجع الدماغ الناتج عن موضوع الشخير. لم أعهد خالى يائسًا حزينًا كما عهدته فى تلك اللحظات؛ وتأملت وجهه، بدا لى متهدلاً، عجوزًا، لا يحمل من وجه خالى القديم غير تلك النظرات القوية الذكية تذكرت كيف كان فى الزمن الماضى، أيام كنت أتخذه مثلا أعلى فى الحياة، ورحت أسترجع فى مخيلتى صور الهرم التى طالما تفرجنا عليها معًا، بينما هو يقول لى عندما تعشقين وتتزوجين سأصورك أنت وحبيبك أجمل صور عرس فى العالم، سأصورك مع الهرم، وكنت أضحك وأقول له، ولكن دلنى أولاً من أين آتى بالعشق، ألست أنت القائل دومًا، «الحب لعبة الأغنياء، وأمنية الفقراء»؟ أنا لا أعرف على وجه التحديد هل أنا غنية أم فقيرة، أعرف أننى لست غنية، لكنى أشعر أننى لست فقيرة أيضًا.

كان يضحك عندما أقول ذلك، ثم يشير إلى الهرم المستقر فى مكانه أمام أعيننا على البعد، ويتنهد، ثم يقول:

ـ من ينظر إلى الهرم، لابد أن يعرف الحب، من يحرك ذلك الصخر العنيد قلبه لابد أن يستجيب لأول شعاع حب.

كان سعيدًا فخورًا، لأنه اختار مسكنًا، يستطيع منه رؤية الهرم، فى أى وقت من الليل أو النهار، وقد قال لى ذات مرة.

ـ إن الإنسان عندما يتعايش مع الهرم لفترة طويلة، تنشأ بينه وبين ذلك الصرح العجيب، علاقة سرية، خاصة، وخفية يصعب توصيفها، إذ يصبح المرء مشدودًا إلى تلك الكتل الحجرية المتراصة وكأن هناك قوة غامضة تدفعه إلى عدم الكف عن التفكير فيها.

لقد بت أعتقد أن خالى محق فى هذا الجانب من تفكيره، فهو بشخصه، أكبر دليل على ذلك، لأنه مدرس موسيقى لم تكن لديه أدنى رغبة أو فكرة تتعلق بهواية التصوير الفوتوغرافى حتى سكن حى الهرم فاجتاحته بعد شهور قليلة من إقامته فى الشقة المطلة على مشهد الهرم، رغبة عارمة ـ كما قال لى ـ فى تصوير الهرم،

بعد أن صار تأمله طقسًا أساسيًا ضمن طقوس حياته اليومية، ولم يمض وقت قصير إلا وبات مفتونًا بل مهووسًا دون أدنى مبالغة، بالهرم فأخذ يلتهم كل ما تطوله يده من كتب كتبت عنه، وراح يجول فى المتاحف الأثرية، ليقضى الساعات فى تأمل التماثيل والمنحوتات القديمة، الحقيقة إن عشق خالى للهرم، هو الذى دفعنى لحب التاريخ والإصرار على دراسته ذات مرة منذ سنوات، أطلعنى خالى على بعض الصور كان قد التقطها للهرم، وقال لى وهو يدعونى لتأمل صورتين بدتا لى متماثلتين تمامًا أنه اكتشف سرًا خطيرًا لم يعرفه أحد من قبل عن الهرم، فحجم الهرم ينكمش فى الليل مثلما تتكمش الأزهار بعد مغيب الشمس، بل وتبدو حجارته متكومة على بعضها البعض، ثم سألنى أن أدقق فى الصورتين مليًا. كانت إحداهما قد التقطت للهرم أثناء النهار، والأخرى فى الليل، ورغم أنه استخدم الكادر ذاته، وزاوية التصوير عينها دون أى تغيير، وكذا فتحة العدسة إلا أن الصورتين لم تأتيا بالنتيجة نفسها، حتى مع ثبات درجة التظهير، مما يدلل على صحة اعتقاده.

قاطع ذكرياتى معه عن الهرم وصوره، ثم قال بعد أن ارتشف بعض عصير الليمون، وكان النادل قد جاءنا به.

ـ تصورى، تلك الصورة النادرة للهرم وقت خسوف القمر، تعطيها سنية لبائع روبابيكيا؟

كانت صورة فريدة التقطها وظهر فيها أبو الهول، وكأن رقبته أطول مما هى عليه فى الأحوال العادية.

الهرم وخسوف القمر تلقى بها سنية ببساطة وهدوء إلى بائع روبابيكيا، أى نوع من النساء هى؟! هه! وقت التصوير تعجبت للغاية، وثبت اللقطة حوالى خمسين ثانية، لكن طول الرقبة غير العادى بدا لى واضحًا على نحو لا يمكن تجاهله؛ إنها صورة خاصة جدًا لأبى الهول. هل أقتل سنية وأشرب من دمها، لأستريح وأشفى غليلى؟ هل أقتل روحى؟ فعلا أنا على وشك الانفجار، عقلى غير قادر على تصور أنها فعلت ذلك، وتصرفت بتلك الطريقة الغبية التى تصرفت بها!

كان صوته قد علا بعض الشيء فبدأ الجالسون حولنا ينظرون في اتجاهنا لذلك رحت أطيب خاطره، ومددت يدي لأسحب يده وأضعها بين راحتي، إذ بدا لي وكأنه على وشك البكاء بعد أن قال ذلك وأمسك رأسه بكفيه، قلت له وكلي حزن من أجله:

- روق يا خالي، الناس بدأت تنتبه إلى صوتك العالي، ثم إن كل مشكلة ولها حل، لا أظن أن طنط سنية، تصرفت ذلك التصرف عن قصد، كل ما في الأمر أنها أساءت التقدير، فقد كانت تقصد أن تريحك من موضوع الشخير، ولاحظ أنها كبرت في السن ومريضة، ثم أنه يمكنك تصويرالهرم من جديد.

ثم ضحكت وأمسكت بخنصره، وكأني سأبدأ في ملاعبته لعبة البيضة، ومن شواها ومن قشرها، قلت له ممازحة:

- ثم يا خالي، مالك محبكها وعامل منها حكاية، يعني، هل الهرم طار، ضاع؟، اختفى من مطرحه؟؟ يا سيدي صوره صورًا جديدة وعوضك على الله في القديمة، واترك المشاكل والنكد ووجع الدماغ.

رفع رأسه فجأة، وبحلق في وجهي باستنكار ودهشة، وكأن كائنًا هبط إليه من المريخ وجلس أمامه، هتف قائلاً:

- هل أنت عبيطة؟! كأنك في دنيا غير دنيانا، يستحيل أن أتمكن من أن أصور الهرم صورًا كالتي صورتها له من قبل الهرم، يا بسنت كأنه اختفى فعلاً، الهرم حوصر وانتهى الأمر، هل رأيت العمارات العالية الطالعة في السماء حواليه من كل ناحية؟ زمان، على مدى الشوف من بيتي لحد الهرم، كان هناك بساط أخضر جميل من الزرع، كنت أتأمل وقتها المنظر فيبدو لي كأنه مشهد من مشاهد الأحلام، التي لا يمكن تخيل حدوثها في الواقع أبدًا، بل كأنها مشهد من مشاهد السينما، رتب بدقة وإتقان وأعد تمامًا للتصوير، كان الهرم وقتها يبدو بكامل هيئته، شامخًا، جليلاً، وكان ذلك المشهد يجعلني لساعات وساعات أفكر وأقول لنفسي: «لماذا بنى أجدادنا القدماء الهرم؟»، وأخذت أطالع كتبًا كثيرة تتعلق بهذا السؤال، لكني لم أقتنع أبدًا بأن الهرم مجرد قبر فخم لشخص مهم ينشد الخلود،

كما يظن معظم الناس، ولم أقبل، كذلك، تلك النظرية التى تقول بأنه كان قلعة وحصنًا لحماية مدينة منف القديمة، لقد آمنت بفكرة واحدة فقط وهى أن المصريين القدماء بنوا الأهرام حتى يقهروا الزمن فعلاً، أن أن الأهرام بنيت لتتحدى الزمن الذى يمضى ويغتال كل الأشياء والتفاصيل ويحولها إلى عدم بلا معنى. لقد رغب أجدادنا فى مقاومة الزمن وفى إثبات أنهم قادرون على مواجهته ووقف زحفه.

بدا لى وكأنه قد نسى غضبه، ومشكلة سنية والصور بينما كان يقول ذلك، إذ كان هادئًا، يأتى صوته من أعمق أعماق روحه، لكنه سرعان ما تذكر الصور فعاوده الغضب مرة أخرى وهو يقول:

- ثم إنه من المستحيل التفكير فى شراء معمل للطبع والتحميض مرة أخرى، لأن روحى ضاقت، ولم يعد عندى صبر، وأنا قلت لها تصرفى فى معمل التصوير لأنى لن أستخدمه مرة أخرى، لكنها باعت صور الهرم؟ تصورى قالت إنها كراكيب لا لزوم لها، والصندوق يشغل المكان بدون ضرورة.

حاولت امتصاص غضبه، وإقناعه بشتى الطرق بالتريث، وعدم اتخاذ قرار متسرع يتعلق بزواجه، ذكرته بالأيام الخوالى التى عاشها فى سعادة مع سنية، وبتضحيتها بأهلها من أجله، قلت له إن الدنيا تغيرت، والحياة صارت صعبة على الجميع، والفوضى طالت كل شى فى البلد، وليس الهرم فقط، بل وإن الأشياء الجميلة باتت تتسرب، شيئًا فشيئًا، من أمام أعيننا ومن بين أيدينا، قال إنهم تآمروا عليه، وتآمروا على الهرم، وأضاؤوه بالأنوار الصناعية المبهرة، حتى لا يراه أحد فى ضوء القمر وحتى يشوشوا على المشهد الفريد النادر، الذى يتشكل عندما يكتمل القمر ويصير بدرًا، فيتماس قرصه الفضى المستدير بصورة مذهلة مع أعلى قمة المخروط الحجرى عند نقطة واحدة، وعندئذ، يبدو القمر وكأنه استقر وثبت على قمة جبل من العبقرية، إنها لحظة الزمان والمكان التى لا تنسى.
لم أرد على كلامه، ولم أقل المزيد، إذ شعرت خلال هذه اللحظات، أن لا فائدة من الحوار، أو الكلام فى محاولة للإقناع، وبدأت أفكر فيما قالته سنية عن خالى: «لم يعد طبيعيًا». فعلاً خالى لم يعد طبيعيًا، ربما بدأ يجن جنونًا خفيفًا

بسبب تقدم العمر، فكرت فى ذلك وقررت أن أنهى هذه المقابلة الحساسة، وأذهب إلى البيت لأواصل مذاكرتى، أعربت له عن رغبتى فى الذهاب، فطلب الحساب من النادل، وبينما كنا ننتظر عودة الرجل بباقى عشرة جنيهات، التى دفعها له خالى، قال لى بصوت خافت كمن يفضى بسر:

ـ سأقول لك مسألة غريبة بعض الشىء: فى كل مرة كانت المبانى تعلو فى المنطقة ويختفى من أمام بصرى جزء من الهرم، كانت حياتى تتمشكل وتتعقد بصورة من الصور. فى البداية انشأوا عمارة مكونة من ثمانية أدوار فى الشارع الموازى لشارعنا. فاختفى من أمام نظرى الجزء الشرقى من الهرم، وقتها، أصبت، لأول مرة فى حياتى، بنوبة قلبية رغم أننى طوال عمرى، كنت سليم القلب، لا توجد لدى أى مشكلة تتعلق به، ثم بعد ذلك بحوالى سنتين، بنوا عمارة ضخمة، من النوع المسمى بالأبراج فى الخرابة الواسعة التى تبعد عن بيتنا مقدار محطة أتوبيس، خلال ذلك حدثت لنا حادثة السيارة، عندما كنا راجعين أنا وسنية من عند أهلها فى طنطا ورقدت فى الجبس ستة أشهر كاملة، ولما بنوا آخر عمارة فى شارعنا حجبت عنى رؤية الهرم تمامًا، فركبنى المرض، وأصبت بمياه بيضاء فى عينى، ونصحنى طبيب المسالك البولية بإجراء جراحة البروستاتا؛ أنت لن تصدقى ذلك، ولا يمكن أن تتفهميه، بل لا يمكن أن يتفهمه أى إنسان لم يعايش الهرم.

لم أرد، نظرت إليه فى إشفاق وحيرة، وعندما خرجنا إلى الطريق، رحت أودعه وأنا حزينة، كنت أفكر فيما قاله لى وأتساءل:

ـ هل يجب عرضه على طبيب نفسى فى أقرب وقت ممكن.

* * *

ظل حشمت ممسكًا ببطاقة الدعوة، متأملاً إياها، وكأنه اكتشف لأول مرة، مدى ما آل إليه وضعه العام: فهو يعمل منذ ثلاث وعشرين سنة، بعد تخرجه من كلية الفنون، لكنه لا يملك حتى بدلة واحدة يواجه بها المناسبات.

إذن هذه نتيجة أخرى جديدة، تضاف إلى النتائج العملية الملموسة لاختياره القديم، فهو لن يستطيع الذهاب إلى الحفل، لأنه لا يملك بدلة من أى نوع. بينما كُتب فى بطاقة الدعوة بوضوح: يرجى الحضور بالملابس الرسمية. زفر بضيق. ثم مد شفته السفلى قليلاً، فى حركة لا إرادية، مكتسبة، ظلت تلازمه، منذ أفضل زمن عاشه خلال حياته كلها: زمن الطفولة السعيد، وكانت هذه الحركة مع تقطيبة خفيفة بالحاجبين، تعبر عن أن حشمت متضايق ومستاء ومتأزم، فهو لابد أن يذهب إلى الحفل بأى شكل كان، وإلا صار الهمز واللمز عليه، والنبش فى تاريخه القديم. فلسوف يقال إن حشمت لم يلب الدعوة، لأنه يكره الحكومة. حشمت لم يحضر الحفل لأنه يكره الوزير. حشمت - رغم مرور السنين الطويلة - ما زالت أفكاره حمراء لم تبهت بعد، «وربما سيدعمون رأيهم ببعض من كلام لم تقله، أو كلام قلته فى جلسة من جلساتك الحميمة يا ولد مع زملاء العالم القديم، فالأمر لا يسلم أبدًا من هبش وتجريح فى الحكومة وأيامها المسودة أسود من قرن الخروب الناشف.

إذن «الذهاب هو الحل». هكذا أكد لروحه، وهو يهز رجله اليسرى، هزات سريعة متواترة، مفكرًا فى سبل عملية، تمكنه من بدلة يرتديها خلال ذلك الحفل،

ويحل بها أزمة الملابس الرسمية هذه. اقترح على نفسه أولا، أن يقوم بكراء بدلة من محل لتأجير ملابس المناسبات. الحل الثانى هو أن يقرش ليمونة بنزهير خضراء تحت ضرسه، ثم يضغط على روحه، ويطلب من أخيه الغلس سيد، أن يعيره واحدة من بدلاته العديدة. حاول جاهدًا، العثور على بديل ثالث مناسب لهذين المقترحين، لكن قريحته لم تسعفه كعادتها فى مثل هذه المناسبات، وتمده بجديد رغم محاولاته الصادقة لتركيز ذهنه، والحصول على بدائل سعيدة، لحل مشكلة الملابس الرسمية.

قطع حسن الساعى عليه تأملاته الملابسية، إذ دخل حاملاً إليه الفطور: ساندوتش الجبن الأبيض، وكوب الشاى باللبن. وضع حسن الصينية على المكتب وهو يرمقه بنظرة استطلاعية، فلاحظ استغراقه فى تأمل البطاقة، مما دفعه لأن يقول متسائلاً:

- يا هل ترى عندك فرح يا أستاذ حشمت؟

طوح حشمت البطاقة على المكتب ورد بضيق:

- لا فرح ولا يحزنون يا سيدى. الحكاية هى أن مدير عام المتاحف، عامل حفلة للوزير الجديد.

رد حسن بسرعة فيما يشبه النظرية، فهو، ورغم أنه فى نهاية السلم الوظيفى، إلا أنه ينتمى إلى عالم المتاحف منذ زمن طويل وقال:

«الغربال الجديد له شدة طبعًا.. وأنت أعلم بمدير المتاحف وحركاته يحب يبلع الجو بسرعة ويطوى الكل تحته، وفى النهاية يشد الحبل ناحيته.

لم يعلق حشمت على كلام حسن الذى أخذ يقلب الشاى، فقد كان مشغولاً بضرورة انطلاق حل ثالث فى رأسه، يواجه به مشكلة الملابس الرسمية، ولما لم يجد، تنهد.

وراح يقضم قضمة من ساندوتيش الجبن ويبلعها برشفة من كوب الشاى.

مرت ساعات العمل على نحو كئيب بالنسبة إليه فى ذلك اليوم الشتوى البارد، فصدره يرزح بهم حفل مدير المتاحف، ومشكلة البدلة. كانت فكرة تأجير واحدة

من محل فكرة غير مستساغة بالنسبة إليه، فليس من السهل عليه التوجه إلى محل ليطلب تأجير بدلة، أجرها وارتداها قبله عديد من الناس، ثم إن المسألة صعبة نفسيًا، فهذا المسلك يشعره بأنه دعى ومنافق، أما احتمال أن يراه أحد معارفه وهو يؤجر البدلة، فهذا ما لا يستطيع احتماله لو حدث لا قدر الله.. «لا مستحيل أن أذهب لتأجير بدلة مهما كانت الأحوال» هكذا قال لنفسه وهو يقضم بغل قضمة أخرى من الساندوتش.

«ولكن ما العمل». «ما العمل يا لينين»، تساءل بمرارة. وأردف: هل أذهب لسيد وأطلب منه أن يعيرنى بدلة؟ سيد سوف يعطينى واحدة قديمة، يكون قد مل لبسها، ولكن لن يفعل ذلك إلا بعد أن يمارس هوايته فى توبيخى، وتذكيرى من جديد بخطأ حياتى المنهجى، وسوء اختيارى القديم. إنه سوف يقول عباراته الشهيرة التى حفظتها عن ظهر قلب، لكثرة سماعها منه «لو كنت وعيت لنفسك يا حشمت، وعملت حساب الزمن، كان زمانك صرت سيد الناس، ولا كنت تحتاج لجنس مخلوق، لكن مشكلتك أنك غير واقعى، رغم كثرة كلامك عن الواقع، عاوز تحل مشاكل غيرك، وعمرك ما فكرت فى حل مشاكل نفسك، لدرجة أنك عديت الخمسين، ودولابك بدون بدلة واحدة توحد بنا، وتسترك فى فرح أو موت، أنت حر يا حشمت، خلاص. أنا ريقى نشف من الكلام معك».

«لا يغور سيد وبدلته وموشحاته» قال لنفسه بعد أن تخيل سيد وهو يلعب دوره المفضل. دور الوصى، وهو يلقنه درسًا فى فن النجاح، والشطارة فى الحياة، سيتمتع سيد، ويتلذذ بتعذيبه، وهو يذكره بفشله الدائم، فى كل شىء، فها هو تجاوز الخمسين، دون أن يتزوج، أو يكون ثروة، أو حتى يصبح فنانًا مرموقًا، رغم موهبته التى شهد له بها الجميع فى بداية شبابه، سيعطيه سيد البدلة فى النهاية، ولكن بعد أن يذله ويكسر نفسه، ويغمه بكلماته اللاذعة. لا.. تغور البدلة من خلقتك يا سيد يا ابن أبى وأمى.

«لكن ما العمل يا حشمت» ظل يردد هذا السؤال على نفسه طيلة الوقت، حتى اقتربت الساعة من الثانية إلا الربع، فخرج من غرفة مكتبه ليقوم بجولته اليومية

المعتادة فى أرجاء المتحف، ليتأكد من أن جميع موجوداته سليمة، فيحرر محضراً بذلك يوقعه مثلما يفعل كل يوم.

دلف أولاً إلى الحجرة الواسعة. الواقعة إلى يسار مكتبه مباشرة، وهى حجرة مكتب الزعيم، طاف بنظرة فرجارية سريعة على ما بها. كل شيء فى موضعه كما هو منذ أن جاء إلى المتحف ولا جديد. المكتب الضخم المصنوع من خشب الماهوجنى الفاخر يتوسط الحجرة فى وقار، الكرسى الهزاز ذو الظهر العالى، ثابت فى مكانه عند الركن أسفل الشباك المطل على الحديقة. أقلام الحبر الأبنوس مستقرة فى مقلمتها الجلدية، وأصلها أصلة إفريقية عجوز، آلت إلى الخلود فى متحف الزعيم. ريشات للكتابة من عنبر الحوت الأصلى، مستقرة إلى جوار المحبرة فى استسلام. موسوعة المعارف البريطانية طبعة ١٩٢٠ فى دولابها الصغير الأنيق مرصوصة وفقًا لأرقام مجلداتها بنظام وترتيب. كان كل شيء كما هو تمامًا، لم يمس. وكأن الزعيم لم يستخدمها خلال حياته التى عاشها، أو كأنه لم يدخل هذه الحجرة الجميلة الفريدة إيطالية الطراز أبدًا.

أخذ يطوف ببقية الحجرات الأخرى، التى عاش فيها، وتنقل بينها زعيم الأمة العظيم، حجرات نوم من خشب أشجار الورد والجوز، وصالونات ستيل لويكانز ولويزيز تبدأ من لويس الرابع عشر وتوقفها الثورة الفرنسية عند لويس السادس عشر. غرف الطعام والمعيشة. كل شيء كما هو، لا يذكر حشمت أن شيئًا تغير به، أو مسة غير الغبار منذ حوالى خمس عشرة سنة، وهى الفترة التى عمل خلالها، وما زال يعمل كمدير لهذا المتحف المهمل المعزول، الذى قلما يزوره أحد الآن، وكأن الناس لم تعرف صاحبه أبدًا، ولم تهتف باسمه طوال سنوات طويلة كرمز عظيم للحرية والاستقلال، ولم تلقبه بزعيم الأمة، فأنشدت له الأناشيد، وتغنت باسمه الألسنة أجمل الأغنيات فى كل مكان.

أخيرًا، دخل حشمت حجرة المتعلقات الشخصية للزعيم، وهى الحجرة الأهم فى المتحف، والتى تحوى كنوزًا نادرة لا تقدر بثمن، ليس فقط بسبب قيمتها المادية، ولكن لقيمتها التاريخية أيضًا. كانت الحجرة تضم عددًا لا بأس به من الدواليب الزجاجية، متباينة الأحجام والأشكال، ومحكمة الإغلاق. دولاب يضم

عدداً من الساعات الثمينة، بينها ساعة صدر ذهبية، بسلسلة من البلاتين المضفر على هيئة جديلة سميكة. بايب للتدخين من خشب الصندل العطرى، حفرت عليه زخارف وتوريقات نباتية جميلة، وله مبسم فضى معقوف، كان زعيم هندى شهير قد أهداه للزعيم بمناسبة عيد ميلاده. أزرار قمصان من الياقوت واليشب والعقيق، ثم مجموعة خواتمه، وأبرز ما فيها خاتم بفص من البرلنت الأزرق، أهدته له أميرة من أميرات العائلة المالكة، يقال إنها كانت تكن له إعجاباً خاصاً.

ألقى حشمت نظره على دولاب الهدايا الأخرى، علب من الكهرمان والعاج والصدف بأحجام مختلفة، أحقاق ذهبية للنشوق، ميداليات، تمائم من جلود نادرة، زهريات من الكريستال، وتماثيل صغيرة من الصينى والبلور، ونفائس أخرى عديدة، قدمتها ذات يوم أمة يائسة، إلى زعيم بهرها وعلقت عليه الآمال.

مر على دولاب الأحذية، وهو الدولاب الذى ظل يكرهه دائماً، ولا يجد ضرورة له فى المتحف، فما معنى الاحتفاظ بأحذية الزعيم؟ وما الطرافة فى ذلك؟ نقل بصره بسرعة إلى دواليب الملابس. دولاب لكل بدلة من بدلات التى ارتداها فى مناسبة من المناسبات التاريخية، زمن الأحداث العصيبة التى عاشتها الأمة آنذاك. البدلة البنية التى ارتداها ساعة تقديم مذكرة الاحتجاج لمندوب الاحتلال البريطانى، وتطالبه بالجلاء، البدلة الرصاصية، وكان يريدتها وقت إلقاء القبض عليه مع زملائه المناضلين، ونفى بعدها خارج البلاد، فهاجت الجماهير، واشتعلت البلاد بالثورة من أقصى نقطة فى الشمال، حتى آخر بلدة فى الجنوب.

عبر بنظرة سريعة على البدلة الكحلية... بدلة خطبة البرلمان الشهيرة بعد عودته إلى أرض الوطن، لكنه سرعان ما توقف أمام البدلة الردنجوت السوداء، القابعة فى مكانها بزاوية الغرفة، وهى الزى المخصص لسهرات الزعيم، والحفلات الليلية الخاص التى يرتادها، راح حشمت يتأملها، وكأنه لم يرها من قبل أبداً، أو كأنه لم ينظر إليها كل يوم طوال خمس عشرة سنة، لم يكن وقوفه أمامها بلا طائل. فسرعان ما ألهمته بفكرة انبعثت فى رأسه، وبدت له مرعبة فى لذاذتها. مستحيلة. مجنونة، ممكنة فى آن معاً، كانت فكرة مبهرة فى عبثيتها،

تحمل كل توقه الرهيب للمغامرة، ورغبته الملحة فى الانطلاق بعيداً، عن كل ما هو معتاد ومألوف فى هذه الحياة.

ابتلع ريقه، وأنفاسه تتلاحق، فقد بهرته الفكرة تمامًا وأسكرته، حتى كاد يصيح صيحة أرشميدس فى زمانه: وجدتها.. وجدتها.

حاول أن يتماسك وهو يتفحص البزات، بدا كلص، نجح لتوه فى فتح خزانة مليونير، فحار أى الأشياء الثمينة يأخذ معه، وأيها يترك. كانت النشوة تتملكه، ومفاجأة الاكتشافات تدير رأسه، فظل متسمراً أمام الدواليب الزجاجية، مشدوداً إليها ببصره، غائبًا عن كل شىء ما عداها، وكأنه نوم مغناطيسيًا، أو تسلسل بفعل شيطانى خارق، ولم يفق إلا على صوت حسن الساعى، الذى جاءه من عند باب الحجرة وهو يقول:

ـ مدام عفاف، قالت لى أقول لك، إنها ماشية، عاوز منها أى شىء.

ـ آه... بالسلامة. قل لها.

قالها بشرود، دون أن يتحرك من مكانه، أو يكلف خاطره بالنظر إلى حسن مما جعل الأخير يستريب ويتساءل: لماذا يقف مديره هكذا، شاخصًا أمام الدواليب الزجاجية، ولما لم يجد إجابة معقولة لتساؤله، مضى ليقول لمدام عفاف: بالسلامة.

استمر حشمت واقفًا، يفكر فى العملية الكبرى، التى بدأت معالمها التخطيطية تتضح فى رأسه، بعد قليل، ستنصرف عفاف فى ستين داهية، فهو لا يطيقها شكلا ولا مضمونًا. فقد كان يرى، أن لها عينين جاحظتين كعينى الضفدع وجسداً سمينًا كجسد أوزة مزغطة فتبدو وكأنها إحدى رسومات الجروتسك، ثم إنها لا تعرف السماء من العماء، سواء فى أمور المتاحف والفن، أو فى أى من الأمور الأخرى فى الحياة، غير طرقعة اللبان، والتجسس عليه وعلى الموظفين الستة الآخرين العاملين معه فى المتحف، ونقل أخبارهم أولا بأول لمدير الإدارة باعتباره قريبها، والمتسبب فى تعيينها بمتحف الزعيم. ثم إن الشائعات القوية تتردد بين

الحين والحين، بأنه سيجرى تعيين عفاف مديرة لمتحف الزعيم بدلاً منه، بعد نقله إلى وظيفة إدارية أخرى بالإدارة العامة للمتاحف.

«هكذا.. هكذا وإلا فلا لا» قالها لنفسه، قالها وهو يثنى على اللمسات الأخيرة لخطته، ففتحى عبد السميع مسؤول المخازن فى إجازة لمدة أسبوعين، أما عبد الحفيظ، وسعيد صبرى، أخصائيا الترميم فى المتحف، فقد غادرا المكان منذ الثانية عشرة ظهرًا، بإذنين رسميين منه، وهو يعرف جيدًا، أنهما سيذهبان إلى تاجر تحف قديمه للعمل عنده. كما يفعلان دائمًا. إذن لن يبقى إلا حسن الساعى، وأمره سهل، فهو سيطلب منه الذهاب إلى باب اللوق، لإحضار ربع كيلو بن محوج يأخذه معه إلى البيت، وفى هذه الأثناء يقوم بعملية السرقة الكبرى، ووضع البدلة فى حقيبته السامسونيت ليطير بها إلى البيت.

لا يدرى كيف مر الوقت، حتى أنجز خطته، كيف فتح الدولاب بالمفاتيح التى فى عهدته، وأخرج البدلة من على موديلها القديم المصنوع من خشب البلوط الممتاز، كيف وضعها فى السامسونيت، كيف خرج من المتحف، وحيا الحراس فى لامبالاة، ودون أن تصطلك أسنانه، أو ترتجف قدمه رعبًا؟ كيف أدخل المفتاح فى الباب بعد أن ركب المترو إلى بيته؟ انتبه على نفسه فقط، وهو يخلع ملابسه بسرعة، ويدخل نفسه فى سروال الزعيم، ثم يرتدى السترة الرصاصية ليقف بعد ذلك أمام المرآة.

تأمل جسده المنعكس على السطح المصقول اللامع، اكتشف لأول مرة أنه وجيه بالفعل، كما يقول له بعض الناس. كانت هذه واقعة غير مسبوقة فى تاريخه الإنسانى، أن يرتدى بدلة، عدا بدلة المعتقل الزرقاء. تأمل بشرته البيضاء، وشعره المخملى، وفهم وهو على هذه الحال، لماذا يظن الكثيرون أنه ينتمى لعائلة قديمة من أصل تركى، خصوصًا أن حشمت اسم مشهور بين الأتراك، علمًا بأنه فلاح من صلب فلاح، عاش ومات فى قرية صغيرة تكاد تكون مجهولة فى وسط الدلتا، ربما وطئها سليم الأول أيام نكبة سنة ١٥١٧، أو نابليون بونابرت، وقت حملته الشهيرة على البلاد، فجاء حشمت فى النهاية ليكون أحد إنجازات الهندسة الوراثية، لهذه اللحظات التاريخية الكبرى، والحقيقة أن الفضل

فى اكتسابه اسم حشمت، إنما يعود إلى سميه صاحب الأرض، التى كان أبوه مزارعًا أجيرًا عنده.

مسد شعره الأشيب المفروق من الجنب، وراح يتأمل تفاصيل نفسه، السترة لا بأس بها، وإن كان الكتفان أعرض قليلاً من كتفيه، لكن المشكلة فى السروال، فمؤخرة الزعيم، فيما يبدو، لم تكن وافرة بما يكفى لأن يستريح حشمت فى السروال. لكن عمومًا لا بأس، وهل استراح الرجل فى حياته، قبل ذلك فى أى شىء، حتى يطمع أن يستريح فى سروال الزعيم. حمد الله أنه أتى بالبدلة الرصاصية، ولم يأت بالردنجوت السوداء، وهو ما كان قد فكر فيه ـ لأنها كانت ستكون ملفتة للنظر بالفعل، لقد امتنع عن إحضارها لأنه يكره الياقات العريضة، ويعتبرها من الأشياء السخيفة جدًا، إضافة إلى أن الذيل المشقوق فى نهاية الظهر، يبدو له شبيهًا بذيل السحلية، لهذا فهو يكره رؤية أنور وجدى ويوسف وهبى فى الأفلام القديمة، لأنهما يصران على ارتداء الردنجوت، فتبدو إلياتهما وهما يتحركان فيها، وكأنها مؤخرات كناجر على وشك القفز.

ظل واقفًا يتأمل نفسه فى المرآة وهو يحادث روحه قائلاً: «كنت على حق يا ولد عندما اخترت البدلة الرصاصية، رغم أن تفصيلتها تبدو قديمة بعض الشىء، فهى كوروازيه بستة أزرار. لكن كوروزايه، كوروزايه، يعنى هل كنت تحمل بارتداء واحدة مثلها؟ عمومًا على خيرة الله يا عم، البسها وروح بدلاً ن القيل والقال، ومد اليد لسيد النذل قليل الأصل، لأنه لو كن إنسانًا بحق وحقيق، لكان مال عليك، ببدلة أو بدلتين، لما رجع من الخليج بعد ما كوم الفلوس على قلبه. لكن أنت تعلم جيدًا، أن سيد لا يهتم إلا بنفسه، أنسيت أيام السجن، وكيف تخلى عنك تمامًا، لأنه يخشى على وظيفته فى شركة السكر. كان وقتها يتحاشاك ككلب مسعور أجرب، خوفًا من أن تحيطه الشكوك، أو تظن به الظنون وهو عضو مجلس الإدارة المنتدب، الذى حصل على مكاسب لا حصر لها بسبب موقعه هذا فى الشركة».

قرر أن يطوى صفحة سيد، ولا داعى للتنكيد على نفسه بمثل هذه الذكريات، وآثر التفكير فى الخطوات القادمة لموضوع البدلة، سيرسلها إلى الكواء، لتنظيفها

بالبخار، وإزالة ما علق بها من غبار السنين. ولسوف يرتدى معها ربطة العنق ذات اللون النبيذى الداكن، والتى كانت قد أهدتها له حبيبته القديمة نادية فوزى بمناسبة عيد ميلاده من حوالى عشرين سنة، لكنه اعتبر هديتها آنذاك نوعًا من التطلعات الطبقية السخيفة، وتعبيرًا عن ميول بورجوازية كامنة لديها، فوبخها، وأعطاها محاضرة فى ضرورة تجنب هذه السخافات، وكانت هذه واحدة من نقاط خلافية أخرى عديدة مع ناية أدت إلى القطيعة النهائية بينهما فى ذلك الزمن البعيد.

ولكن ها هو الآن يكتشف من جديد، كم كان حادًا، عنيفًا، قاسيًا مع الحبيبة التى كان يظن أنها الوحيدة بين النساء التى أحبته حقًا، حبًا خالصًا، لم يقابله بعد ذلك أبدًا. إنه يشعر فى هذه اللحظات الآن وهو يقف أمام المرآة، بندم وامتنان شديد لنادية، وبعرفان لجاره الطيب فرج عبد المولى، الذى أهداه ذات يوم تلك الحقيبة السامسونيت، عندما عاد من الحج، وكان يظن أنها هدية تافهة وصندوق أسود قبيح، لا ضرورة له، رغم أنه كان يحملها مع إلى العمل كل يوم، لتضفى عليه بعضًا من احترام الموظفين له.

فى مساء اليوم التالى، وقبل الذهاب إلى حفل مدير عام المتاحف، عرج على خمارة قبرص، والتى تغير اسمها، إلى كازينو قبرص السياحى، كنوع من الحجاب التجارى، الملائم لظروف الإرهاب والحجاب المستجدة، فقربع كأسين براندى، كإكسير سريع، وفعال للشجاعة والقدرة على المواجهة، ثم واصل سيره إلى الفندق الفيكتورى القديم، مستوى ثلاث نجوم. ولم ينس فى الطريق أن يقرش قرنين فرنقل حصى، كان قد جاء بهما فى جيبه خصيصًا، حتى يتغلب على رائحة الخمر، التى قد تفوح منه، عند الحديث مع الناس.

دخل الحفل قبل الموعد بدقائق، كان جميع أمناء المتاحف موجودين، بما فى ذلك أمين متحف الشمع، ومتحف البلهارسيا، ومتحف السكة الحديد، وكان البراندى، قد نفحه نفحة لا بأس بها من المرح والثقة بالنفس، فحيا الجميع بحرارة، وصلت إلى حد أنه أطبق على يد مدير عموم المتاحف بكلتا يديه، وأخذ يهزها، ويضغط عليها ضغطات قوية، وكأنه فى شوق حقيقى للقياه، شرب كوبًا

من عصير البرتقال الطازج، الذى كان يطوف به النادل مع أنواع عديدة من العصائر على الحضور، تبادل الكلام المجامل مع زملاء يعرفهم وآخرين لا يعرفهم، وما أن انقضت ربع ساعة، حتى هل الوزير عند باب قاعة الاستقبال الواسعة فى ذلك الفندق الجميل.

جلس الجميع حول الطاولة الكبيرة المستديرة، التى أعدت خصيصًا للقائهم بالوزير، وما إن جلسوا، وقبل أن يشرع مدير عمموم المتاحف فى إلقاء كلمته، حتى صاح حشمت من مكانه بين البلهارسيا والسكة الحديد، قائلاً بصوته الأجش الجهورى «الوزارة نورت والله يا أفندم».

أثارت عبارته المفاجئة جوًا من الإثارة والمرح، أكثر مما أثارت الدهشة، وإن لم يبلعها مدير عموم المتاحف، إذ اعتبرها نوعًا من الخروج على الوقار الوظيفى، لكنه آثر تجاهل الأمر وابتسم بغل، ثم أخذ يلقى كلمته، فرحب بالوزير فى وزارته الجديدة، وحياة الوزير رد التحية بأحسن منها فى كلمته، التى ألقاها عقب ذلك، ثم أعلن عن نيته فى تطوير المتاحف، وخصوصًا النظام الأمنى بها، حشمت أعجبه جدًا تعبير النظام الأمنى، ولاحظ أنه يستخدم بكثرة فى البلد، خلال الآونة الأخيرة، وفى مناسبات قومية متباينة، فكر فى الأمر، ورجح أن يكون ذلك بسبب حكاية النظام العالمى الجديد.

شربوا جميعًا الشاى والقهوة، وأكلوا جاتوه وبسبوسة، وباتون ساليه وساليزون، وأشياء أخرى مشابهة لم يعرف حشمت اسمها، لكن أقبل عليها بحماس بالغ وعاطفة صادقة، ضاربًا عرض الحائط بالنظام الغذائى المفروض عليه، بسبب إصابته بمرض البول السكرى، وضغط الدم المرتفع.

أفرط فى تناول الجاتوه، لأنه كان من النوع الفاخر، المدعم بكميات لا بأس بها من الكريمة المخفوقة اللذيذة، وقد شجع حشمت على التمادى فى الأكل، أنه قيم سعر القطعة للواحدة منه بما لا يقل عن جنيه ونصف الجنيه، على أقل تقدير.

ثرثر الجميع بالمشاكل المزمنة للمتاحف، والتى تثار عادة فى مثل هذه الاجتماعات الوزارية، المبانى الآيلة للسقوط، دورات المياه القديمة، تكدس

الموظفين بلا عمل، أعمال الصيانة والنظافة الغائبة. رغب حشمت فى التثاؤب، لكنه قرر المشاركة فى النقاش، حتى لا يتهم بأنه غير متفاعل، أو متفاءل. فتنتعش فى رؤوسهم فكرة استمرار الأفكار الهدامة القديمة فى رأسه.

رفع إصبعه وسأل:

- يا أفندم أنا عندى فكرة، أتمنى أن تتحقق فى عهد سيادتكم، وهى إنشاء متحف قومى عام للملابس، منذ أقدم العصور وحتى الآن، فمثلا نحن لا نعرف ماذا كان يرتدى وزير السياحة، أو الحكم المحلى من ملابس فى زمن الفراعنة (ضحك من الجميع) لم ينتبه حشمت للضحكات وواصل:

- ثم إن هناك أجيالاً تقرأ وتسمع عن الانكشارية، ولكنها لا تعرف... هل كانوا يرتدون ملابس، كما الملابس الآن؟ هى هل تشبه ملابس الأمن المركزى مثلا، أم ملابس جنود الصرب فى يوغسلافيا؟

أنا أقول ذلك على سبيل المثال، ثم إن هناك أجيالاً قد تولد مستقبلا. ولن تعرف ما هو شكل البدلة، لأنه حتى فى جيلنا الآن، هناك عدد هائل من الناس، قد لا يستطيع شراء بدلة، لأن سعرها باهظ جدًا بالنسبة لهم. الشبان صار معظمهم الآن يتزوج وهو يرتدى القميص والبنطلون. أنا حضرت أفراح لناس محترمين جدًا، والعريس كان بالقميص والبنطلون، الحقيقة أن متحف الملابس ضرورى جدًا للحفاظ على ذاكرة الأمة، وهو نوع من تاريخ حياتها الاجتماعية، و...

قاطعه مدير عام المتاحف، وهو موشك عليه الانفجار غيظًا، وأخذ يسكته قائلاً: خلاص يا أستاذ حشمت، لا داعى للاسترسال وضرب الأمثلة لضيق الوقت، ثم إن الاجتماع مكرس لمناقشة قضايا محددة، وليس لتقديم اقتراحات و...

قاطع الوزير بدوره مدير المتاحف، الذى كان ينوى تسخيف كلام حشمت، وتقريعه وضربه تحت الحزام فى عبارات عنيفة مؤدية، فى حدود ثلاث أو أربع دقائق، قال الوزير بهدوء، ودون أن يلحظ الاحتقان فى وجه مدير المتاحف:

المشاريع والأفكار الجميلة كثيرة، لكن المشكلة أساسًا أنه لا يوجد ميزانية كافية لتحقيق مثل هذه الأفكار. أنا أفضل تطوير الموجود أولا، والنهوض به. لكن على أية حال، من الممكن أن تتقدم بمشروعك، وكل شيء قابل للدراسة.

اكتشف حشمت أثناء حديث الوزير، أن نظرات عديدة، أخذت تسدد إلى بدلته، أخذ يتفحص بدوره بدلات الحضور، شعر بفخر بداخله وهو يتأمل سترة الوزير العادية، المصنوعة من الصوف المحلى العادى، فبدلته، كانت من الجوخ الإنجليزى الفاخر، الذى يعز وجوده هذه الأيام.

صفق الجميع للوزير، الذى وعدهم بالنظر فى نظام البدلات والتأمين على حياة العاملين فى المتاحف. قرر مدير المتاحف إنهاء الحفل، حتى لا يثقل على الوزير بالوقت. خرج الرجل وفى أعقابه انصرف الجميع على الفور.

قبل أن يعود إلى البيت، عرج حشمت للقاء عالمه الحقيقى فى كازينو النهر الخالد، مثلما اعتاد أن يفعل مساء كل يوم، حيث يلتقى ببعض من زملاء المعتقل القدامى، الحالمين مثله بأحلام قديمة لم تتحقق أبدًا. كان منهم من نسى هذه الأحلام، ونسى أيضًا، أن يستبدلها بأحلام جديدة أخرى، وكان منهم من عرج إلى عالم الأدب والفن، محاولاً بدل السياسى بالمبدع، وما أن دخل حشمت عليهم ولمحوه، حتى صاحوا صيحات مستنكرة. فهذه أول مرة يشاهدونه ببدلة كاملة، وقد اعتادوا رؤيته دائمًا مرتديًا القميص والبنطلون، وبمجرد أن جلس بينهم، راحوا يسألونه عن سبب خروجه عن الخط العام لسلوكه الملبسى.

حكى لهم حشمت كل شيء بالتفصيل منذ أن شارك فى حفل الوزير، حتى خروجه منه، اقترح أحدهم أن الربط بين الانكشارية والأمن المركزى سيساء تأويله. لم يهتم حشمت، وإن كان قد تنبه إلى الفكرة، التى خرجت منه على نحو عفوى ودون أن يقصد. لم يحك لهم عن حقيقة البدلة، بل اكتفى بأن قال لهم إنه حصل عليها من سيد أخيه اندهشوا ولم يصدقوه، فهم يعرفون الكثير عن علاقته بسيد، وتاريخه الأسود فى العطاء ومساندة الآخرين. اقترح أحدهم أن حشمت، لابد وأنه اشترى البدلة من سوق الجمعة فى الإمام الشافعى، أو من وكالة البلح،

لأنها تشبه هدوم البالة القديمة. ضحك واحد وقال إنها تشبه البدل التى كان يرتديها الممثلون فى أفلام السينما الصامتة. لم يعلق حشمت، ولم يرسهم على الحقيقة، بل اكتفى بالضحك معهم وهو يقول: سينما صامتة، سينما ناطقة، هى أدت الغرض والسلام.

سهر حشمت مع أصدقائه حتى وقت متأخر من الليل. شربوا، أكلوا، ضحكوا، وعندما عاد إلى بيته ضبط الساعة، وهو يتمنى أن يوفقه الله. فيفيق مبكرًا على رنين جرسها، ويذهب بالبدلة إلى المتحف فى الوقت المناسب، قبل حضور الجميع، وحتى يتمكن من إعادتها إلى قواعدها سالمة.

فى صباح اليوم التالى، صاح حسن الساعى صيحة كولومبس، لحظة اكتشافه اليابسة الأمريكية. نطت مدام عفاف من مطرحها، وكانت جالسة تتشمس فى شرفة مكتبها، وتقرأ حظها فى الجريدة، خلال ذلك اليوم، ولما كانت أحداث مفاجئة، تريث فى اتخاذ قرار بشأنها، فقد لبت نداء الساعى بسرعة، وما أن أعلنها اختفاء البدلة الرصاصية للزعيم، حتى أخذت تهدئه، وترفض فكرته بضرورة إبلاغ البوليس، ريثما يحضر حشمت، بصفته الأمين العام للمتحف، وهكذا راحت تقنع بقية العاملين الذين تجمعوا على صيحة حسن ـ بضرورة الصبر والتريث لبعض من الوقت.

جاء حشمت بعد ذلك بحوالى نصف ساعة، وما أن اكتشف الكارثة المرسومة على وجوه الجميع، حتى فهم ما حدث، لكنه تدارك الأمر سريعًا، وتمالك نفسه، وهو يخرج البدلة بهدوء من حقيبته ويقول لهم

ـ ما لكم يا جماعة، صلوا على النبى، أنا طلعت البدلة من الدولاب، وقلت لازم انظفها، كل أسبوع ناوى أطلع واحدة واحدة للتنظيف وربنا يقدرنى.

ثم أعطاها لحسن وهو يقول له بحزم:

ـ حطها مكانها بالراحة، واقفل هات المفاتيح.

تناول حسن منه البدلة والمفاتيح وقال:

- يعمر بيتك يا أستاذ حشمت واله مفاصلى سابت من بعضها.

استرابت مدام عفاف قليلاً، تصورت أنها خطة من حشمت تستهدف تثبيته على كرسيه فى المتحف، اكتفت بأن قالت: المفروض أنك تقول لنا يا أستاذ حشمت قبل ما تتصرف فى الموضوع.

لم يرد حشمت، بل رمقها بنظرة ذات ذات مغزى، وهو يطلب من أمين المخازن أن يمر عليه بعد ساعة لعمل طلبية أوراق ودفاتر من الوزارة.

لم يمر أسبوع على ذلك، إلا وكان خبر تنظيف حشمت لبدل الزعيم، قد سرى فى جميع إدارات الوزارة، بل ووصل إلى بعض الصحف، وقد جاء ذلك عن طريق الصدفة، فقد كان صحفى من جريدة يومية شهيرة، يتسكع فى إدارة العلاقات العامة، بحثًا عن أخبار جديدة، يسود بها نصف عامود فى نصف الصفحة المخصص يوميًا للثقافة، فسمع بالصدفة حوارًا يدور بين بعض الموظفين عن حادثة حشمت الشهيرة، وسرعان ما التقط الخيط، فخطف رجله بسرعة إلى متحف الزعيم، قبل أن يغلق أبوابه عند الساعة الواحدة.. وهكذا حصل على سبق صحفى، بإجراء حوار مطول مع حشمت، أعطى جزءًا منه لجريدته، واحتفظ بالباقى للنشر فى مجلة خليجية تدفع بالدولار مقابل الموضوعات الصحفية المنشورة بها.

وهكذا وجد حشمت صورته بعد ثلاثة أيام منشورة فى الجريدة، وهو يبتسم بسعادة، تحت عنوان ضخم يقول: «وهكذا نستعيد الثقة بالموظف المصرى العظيم».

أخذ حشمت يقرأ مفتتح الحوار: «الموظف المصرى، المشهور بالكسل والتواكل، والتمسك بأهداب البيروقراطية العقيمة، تغيرت صورته فى متحف الزعيم، وقد غير هذه الصورة، فنان متواضع هادئ هو حشمت...».

أما الحوار ذاته، فقد نظر من خلاله حشمت كثيرًا وتحدث عن أهمية التطوير، واستشهد كثيرًا فى ذلك بكلام الوزير.

فى حوارات أخرى عديدة، جرت معه بعد ذلك، اضطر حشمت لتطوير كلامه، فتحدث عن أهمية المبادرة، ثم تطور الأمر، فتحدث عن أهمية الإيجابية ونبذ السلبية، ثم تطور الأمر فتحدث عن أهمية تنشيط السياحة من خلال المتاحف، وفى آخر حوار أجرى معه بهذا الخصوص، وفى هوجة مواجهة الإرهاب، والحديث عن التنوير، قال إن المتاحف لا يمكن أن تتعارض مع الشريعة الإسلامية، بل هى آية للناس يعتبرون بها، ويتعظون من خلالها بما جرى للأولين، ثم إن التنوير لا يمكن أن يستمر حقًا بدون المتاحف.

بعد شهور، بدأت هجمة الاهتمام الإعلامى تخف عن حشمت وهى الهجمة التى حصل بسببها على مكافأة تشجيعية استثنائية من الوزير، لكنه اضطر لأن يدفع نصف قيمتها فى تنظيف بقية بدل الزعيم، الطريف هو أنه رغم عشرات الأسئلة الخاصة والعامة التى وجهت له، لم يسأله أحد لماذا يظهر مرتديًا للقميص والبنطلون دائمًا؟ ولا يرتدى البدل؟

* * *

• شعور الأسلاف •

إلى أشرف عبدالله أبوبكر

ومــــارى حــــــداد

حضـــور لـــم يضيعـه الغيـاب

هُم الملاك ونحن المستأجرون، ورغم ذلك فعلاقتنا لا بأس بها، لا بل هي طيِّبة فعلاً، فلا هم يسلكون معنا مسلك أصحاب البيوت فيأمرون وينهون فيما يتعلق بخاصتهم، ونحن من الذوق والكياسة بما يكفي لنحرص على مكانهم وكأنه مكاننا: لا إسراف في استهلاك المياه، لا دبدبة على السلالم، لا تخريب لزرع الحديقة، أو نشر غسيل على حبال الشرفة، يشرّ ماؤه ليبلّ غسيلهم الناشف.

أمهم طنط فاطمه أغا صاحبة أمي. ووفقًا لأمي هي تكبرها بعشرين سنة، لكنهما تتعاملان ببساطه، ومودة أنداد في العمر ذاته، فإذا كانت أمي طيبة، فطنط فاطمة ربما كانت أطيب منها، وهي مسالمة، ربما سلامًا إجباريًا طال معظم الناس الذين سادوا في الزمن الذي بات يطلق عليه العهد البائد، فبعد الثورة أمموا معظم أملاكها وأملاك عائلتها من بيوت وأطيانٍ في مناطق مختلفة من البلاد، ولم يتبق لها إلا ذلك البيت القديم المبني على طراز هجين من الإيطالي والفرنسي والعثماني، أو أي طراز آخر كوزموبوليتاني يُمكن مشاهدته في أي مدينة من مدننا مرّ عليها عسكر القرن التاسع عشر الأوروبيون، ولقد ظلت نسور سقفه البسماركية الأربعة شاهدًا على مجد غابر شهده البيت، لكنها باتت تستدعي الشفقة دون الاستفزاز، على رغم مخالبها المفتوحة تهديدًا وأظافرها المشرعة وعيدًا، بسبب تساقط معظم ريش أجنحتها الجصيّة من السقف، ولم يكن الجعرانان النحاسيان المثبتان على بابه الحديدي في حال أحسن، وقد زحف عليهما الصدأ الأخضر ملتهمًا لمعانهما القديم، ليضيف إلى مأساة تكبيلهما المزمن بقضبانه الحديدية مأساة أخرى.

عندما أصدر حبيب الملايين جمال عبدالناصر قراراته بتخفيض أجور المساكن مرتين، لم تحقد طنط فاطمة عليه، وظلت صورته وهو يرفع علم مصر على مبنى قناة السويس معلّقة على حائط حجرة السفرة بمكانها، ولم تتغير معاملتها لنا، نحن المستأجرون، لشقق بيتها، فقط الذى تغير كان اهتمامها بالحديقة، فقد بدأ حماسها للأشجار والنباتات المزروعة بها يقل شيئًا فشيئًا، حتى ذبل معظمها وماتت. كانت تبدو لى خلال تلك الأيام، بشعرها الأبيض المهوش حول رأسها الضخم وعنقها السمين، كأسد هصور شاخ وفقد عرينه إلى الأبد، وكنت ألحظ حسرة شفيفة تعتريها أحيانًا عندما تسير على ممرات الحديقة الزلطية الملونة، وهى تتأمل رسوماتها المتشكلة على هيئة أفاع وطيور وحيوانات، وتقول لأمى السائرة إلى جوارها آنذاك:

- فنان أسطى والله من عمل كل ذلك. كان عنده صبر وطول بال.

كنا ننزل إلى شقة طنط فاطمة بالدور الأول المفتوح على الجنينة لننطلق فيها لاعبين جميعًا بناتًا وأولادًا بتاريخنا المحفور فى أعماق لا وعينا، فنتجسد تماثيلاً بمجرد أن يعلن أحدنا: تماثيل الإسكندرية يا بنات مصر. تتسمر أختى فاتن كتمثال فينوس بصدر ممسوح لم تُجد الاثنا عشر عامًا التى عاشتها بأكبر منه، بينما يعتلى أخى الأصغر شجرة معلنًا أنه الإسكندر الأكبر. وأحيانًا كنا نلعب «عسكر وحرامية» إحياءً للزمن الملوكى العصيب، أما الإنجليز، فقد حفرناهم فى ألعابنا «كيك على العالى، كيك؛ على الواطى» ونحن نمط فى الكلمة الإنجليزية KICK بينما نقفز معتلين السلالم، أو نهبط مسرعين إلى الأرض، و«كرسى الباشا» الذى كنا نضطر إليه اضطرارًا عند صدور أوامر علوية لنا من طنط فاطمه لتلعيب الصغار، دون سن الجرى والرمح، درءًا لضيق الكبار بهم قليلاً، وقد كان ذلك ما فعلته معنا ذات غروب شتوى خاضع لنفوذ ريح مستخفة بكل شىء، إذ أطلّت علينا ونحن نلعب بالحديقة ونادتنا من شباك مطبخها آمرة:

- يا فاتن، يا سامية، يا سمير، تعالوا شيلو عزيز وارحموا أمكم ولاعبوه كرسى الباشا.

تجاهلنا نداءها بعض الوقت، فقد كنّا منشاغلين بالبحث عن مخابئ «حرامى الحلة» وهو نوع من النمل الأسود الكبير لا يقرص ولا يؤذى لكنه كان عرضة لمضايقتنا له دائمًا، بينما هو يشتغل بجد ناقلاً شحنة طعام قد تكون فتيتة خبز صغيرة، أو حبة عنب جافة، إلى أحد مخازنه. ولما لم نردّ صعّدت أمرها بحزم وهى تصرخ:

- سمعت يا خنزؤور منك لها؟ يا الله، اطلعوا شيلوا عزيز خلينا نشوف شغلنا ونخلص أيدينا من العجين.

امتثلنا، قفزنا السلم إلى المطبخ، لنجدها ما زالت جالسة قبالة أمى تصنعان على طاولة المطبخ فطير الرحمة تمهيدًا لخبزه، ليأخذوه يوم الخميس إلى القرافة لتوزيعه على روح أمها التى ماتت منذ أسبوعين.

حاولت فاتن، أختى الكبرى، إيجاد معوقات فقالت:

- طيب، عاوزين مخدّة نشيل عليها عزيز.

- هاتوا مخدة من جوه، لكن إياكم توسخوها أو تقع منكم على الأرض.

- طيب. قلنا فى نفس واحد، وجرينا إلى غرف النوم لنخطف مخدة من على أقرب سرير صادفناه ونطير بها إلى الجنينة مرة أخرى، بعد أن حملت فاتن عزيزًا معنا.

سمير وفاتن شبكا أيديهما الأربع مجتمعة مُشكّلين قاعدة الكرسى، ووضعنا المخدة فوقها ليجلس الملك المُبجل عزيز على دسته الوسائدى، بينما رحت أسند ظهره بيدى من الخلف لئلا يقع، فلما استتب الوضع، رحنا نتحرك بالموكب ونحن نهتف بعزم حيلنا:

- كرسى الباشا. عزيز عاش. كرسى الباشا. عزيز عاش.

لا أدرى هل كان عزيز يستمتع بهذه اللعبة حقًا، أم كان يظن نفسه ملكًا حقيقيًا يتوجب حمله، فلقد فتح شدقيه، كما يفعل عادة عندما نلاعبه، وبانت درادير فمه الخالى من الأسنان، كنت أظن دائمًا ويجد أن عزيزًا يتضور نفسه ملكًا، لأنه كان يبدو لى وهو على هذه الحال أشبه بالعديد من الملوك والرؤساء

الذين أشاهد صورهم فى الصحف التى يقرؤها أبى، لكن ما كن يثير حنقى دومًا هو لعابه النازل عمالاً على بطال وهو على كرسى العرش، وهو ما فعله فى ذلك اليوم، إذ همى غيث فمه على أقرب شيئًا صادفه وهو راحة عايدة بنت طنط فاطمة الصغرى، التى كانت تحاول سنده من الأمام، فقالت متقرزة.

ـ يا مقرف.. يا أبو ريالة.. كفاية.. أقفل بقك.

واصل سعادته غير مكترث بها، وواصلنا نحن هتافنا سائرين، متهكمين على عايدة، ولكن فجأة تعثرت عايدة فى حجر بالأرض، فسقطت لنسقط جميعًا فوقها، بينما استطعت بصعوبة الحفاظ على عزيز ومنعته من السقوط، فراح يبكى وقد هاله على ما يبدو انقلاب النظام وسقوط الملكية.

أخذنا نتضاحك وقد أثارتنا المفاجأة، فظللنا راقدين فوق بعضنا البعض على المخدة، وعزيز فوقنا يبكى، لكنه سرعان ما كف عن البكاء وقد أصابته موجة ضحكاتنا برشاشاتها، فراح يكركر ويثغو بسعادة أضحتكنا أكثر، لكنى أوقفته بضربة خفيفة على يده بعد أن تمادى ناسيًا نفسه وراح يقبض على ضفيرتى بقوة آلمتنى وكأنها حبل غسيل وليس شعرًا آدميًا.

أفقنا من نوبة الضحك، وبدأنا ننهض نافضين التراب عنا، لكن سرعان ما هالنا ما رأيناه ولم نكن قد حسبنا حسابه أبدًا.

كانت المخدة العرش، قد تهرأ قماشتها وتمزق، وانبعث من أحشائها كمٌ من الأوراق المكدسة فوق بعضها البعض، والتى ما كدنا نهم بالتقاطها حتى كانت ريح الخريف الناشطة، قد سارعت تبعثرها وتطيرها كحمامات صغيرة لا يمكن الإمساك بها، جرينا محاولين اللحاق بها، لكن وجود عزيز معنا والخوف الذى بدأ يداهمنا، جعلانا لا نواصل المحاولة، بل نفضّل الجرى إلى المطبخ لننقل إلى طنط فاطمة خبر المخدة الأليم.

ـ طنط.. وقعنا المخدة ووقعنا، وانقطع قماشها والورق كله طار. حركت طنط فاطمه إليتين اختزنتا سنين طويلة من أكل الدسم والسمن البلدى، تاركة عجين الرحمة، بعد أن لطمت صدرها لطمة تردد صوتها بقوة كنتيجة لاصطدام كف لا

يقل بأى حال عن رطل، بنحر يماثل عشرة أضعافه، بينما راحت تطلق مونولجها الموجه لنا بعبارات ناهرة سريعة.

ـ آه يا جحوش كلكم. مخدة غندور ابنى!

حوّلت أمى المنولوج إلى ديالوج، وفتحت القاموس المحيط للشتائم العائلية المعروفة، ثم أعلنت عن إجراء برنامج تأديبى شامل، سوف يطبق علينا بمجرد عودتنا إلى الشقة، بعد أن تنتهى من عمل فطير الرحمة. جرينا إلى الحديقة مرة أخرى، رجعنا بالمخدة المجنى عليها. كانت طنط فاطمة قد هدأت قليلاً، أخذت المخدة وراحت تتأمل قماشها الممزق وقطنها البارز بحسرة، ثم وضعتها جانبًا، وراحت تكمل عمل الفطير، وبدت وكأنها تبذل جهدًا كبيرًا حتى تكظم غيظها.

لكن لم يكن من الممكن أن تكظم طنط فاطمة غيظها إلى الأبد فبعد أيام قليلة جاء إلى البيت القديم عساكر كثيرون، بلباس أسود، ليكسبوا شقتها ويفتشوها، قالبين كل شىء فيها رأسًا على عقب وبعد أن انتهوا، أخذوا الغندور معهم، وذهبوا به بعيدًا عن البيت لسنوات طويلة.

أمى ظلت تحكى الحكاية لكل من يزورها، وهى تبكى بينما تقول:

ـ مسكين يا عين أمه. كان شاب سكّرة، وطالب شاطر. سنة واحدة كانت باقية له ويتخرج من كلية الحقوق. لكن المسكين كان حاطط المنشورات فى المخدة. والعيال لعبوا بها فى الجنينة، وكل الناس عرفت أن الأستاذ إسماعيل ساكن الدور الرابع هو المبلغ عن الغندور، لأنه شغال فى وزارة الداخلية، ثم..

«أهىء أهىء.. صعبانة علىّ أمه، عمرنا ما شفنا منها إلا كل خير، ولما نقصوا الإيجار مرتين، قبلت الموضوع برضى وطيب خاطر. تصوروا!؟ قالوا لها قضية الغندور هى محاولة قلب نظام الحكم.. تصوروا!؟»

تتابع أمى البكاء والحديث، ونحن نتأملها، وحزن يأكل قلوبنا على الغندور، وخجل هائل يتلهم أرواحنا مما فعلنا، خصوصًا كلما تصادمت نظراتنا مع نظرات طنط فاطمة التى رأيناها تنتظر وتنتظر عودة الغندور، بينما كانت تذوى شيئًا فشيئًا بسبب المرض ثم تموت.

أحيانًا، تبدو لى كجنيّةٍ مستحيلة، تُدلى ضفيرتها من شاهق، لأتلقّفها صاعدة إلى علياء قلعتها، فأغيب فى متاهاتها وقد رُبطتُ بحبل سرّى من نسيج العنكبوت، وإلا، فما الذى تربطنى بهذه العجوز ذات السنة الستة، والسنين الستين،، تطالع الجريدة بالكاد وتتحرك برشاقة سلحفاة. أقول مرّات: إنه الزمان السرّاق المغتصب لأيامنا، فلا يرحمنا بفسحة نتأمل فيها أنفسنا، وكذا الآخرين. مرّات أخرى، أدين الجغرافيا المتوحشة لهذه المدينة لشائخة التى قُدّر علينا العيش فيها، فلفظتنا إلى نتوء من نتوءاتها النامية كفطر على جسدها المترهل القديم.

أهجس: إن ما بينى وبينها هو استبعادى كمطلقة مغلولة بطفل منغولى له جسد متوحش فى السادسة والعشرين، وعقل ببراءة التاسعة. من ناحيتها، قد تتضح الرؤيا بكونها موجودة، هجرت ولديها اللذين سافرا واستقرا منذ زمن فى الدنيا الجديدة، بعد أن جربت أن تسايرهما وتكون معهما مرّة، لكنها آثرت الإياب إلى دنياها القديمة، والعيش فى أم الدنيا، على كل الذى هناك.

إن أمسياتى المتاحة دومًا. صباحاتى التى لا تتحقق إلا إذا عبرت الخطوات العشرة الفاصلة بين بابها وبابى لأقول لها قبل أن أهبط إلى الشارع: «أنا نازلة للشُغل. عاوزه حاجه؟».

هل النرجيلة هى ما يربطنى بها؟ لقد أدمنت تدخين النرجيلة معها، علمًا بأننى ما دخنت السجائر يومًا. نضع النرجيلة بيننا فى شرفتنا وقت الغروب،

والرجل الطفل قبالتنا، نتبادل أنفاسًا تدغدغ ماء قارورتها فتكركر مالئة فراغات زمن جملنا المتبادلة. جمل مبتورة بلا رجاء أو مستقبل، وكأن غرضها الإعلان عن وجودنا كأحياء فقط: «الرطوبة عالية من أول امبارح». «أم خليل البوابة مسحت منور العمارة بالليل». «حاسب يا ممدوح يا حبيبى الفحم يحرق يدك». لكن. أقول إن النرجيلة لا تكفى لتكون سببًا، ربما أكون مصابة بنوع من اليأس، ولم لا؟! ألست أبدو كأرملة تجاوزت الخمسين، بينما سنوات عمرى لم تزل تزحف نحو الأربعين، ألست أمضى فى الحياة، بهذا الابن العاهة كطير قُصّ ريشه، فلا سبيل له إلى الارتفاع والتحليق؟! ألا أتمنى ألف مرة أن يكون لى رجل آخر، بدلاً من ذلك الذى وضع النير فى رقبتى ومضى إلى أخرى منحته صبيانًا وبناتًا جاؤوا إلى الدنيا بعقول تنموا وتزدهر بمرور الأيام كبقية مخاليق الله؟. من الرجل الذى يرغبنى بهذا النتوء الضخم الرابض على عنقى، والمكبّل لخطواتى، والذى يدفعنى يومًا بعد يوم للانزواء والعزلة بعيداً عن الناس والحياة فلا أخرج إلا لعملى فقط، ولا أعود لبيتى إلا لأحتمى بسقفه هاربة من الدنيا إلى ملكوتى الوحيد المتاح، حيث النرجيلة بينى وبينها، والولد أمامنا يرقبنا بنظرات ميتة كمهرج ضخم فى سيرك، يتصنع الموت ليبعث البسمات على الشفاه.

ما أعرفه عنها وتعرفه عنى هو ضرب من التهويمات وهالات غموض، رغم سنوات جيرتنا الممتدة، فقد كشفت لى عند بداية تعارفنا منذ سنوات، عن سيرة ذاتية خابية، لن يلحظها أحد، وستكتمل دون ما يمكن التوقف عنده، حتى وجهها بت أظن كلما تأملته أنه موائم تمامًا لسيرة من هذا النوع، فالمرء إذا ما تطلّع إليه مرّة، لن يُجد فى الذاكرة أيًا من تفاصيله، لأنه ببساطة لن يحاول الالتفات متطلعًا إليه مرّة أخرى، باحثًا عما يجود به على أرشيف هذه الذاكرة.

غير أننى فى ذلك اليوم الذى دخلت عليها فيه فجأة، بدأت أراها على نحو مختلف، فلقد ذهبت إليها فى صبيحة يوم إجازتى، بينما كان رجلى الطفل، يرقد فى سريره كحوت ميت دفعت الأمواج به إلى شاطئ من الشطآن، كنت أود أن تعيرنى خيطًا فسألتها:

ـ عندك فتلة خضراء أخيط بها جونلتى الزيتى لأن جنبها انفتق، وأنا مكسّلة أنزل اشترى بكرة؟!

قالت وقد بدت منهمكة للغاية فى أمر من الأمور:

ـ تعالى، دوّرى على مرجونة الخيط.

قلت:

ـ لا. لا.. أصلى تركت باب الشقة على آخره، وممدوح جوه على السرير. لما تلاقيها هاتيها لى على مهلك.

ـ الله. تعالى لحظة. قالت وهى تشير إلى أن اتبعها. ثم أضافت:

ـ تعالى خدى المرجونة معك، ودورى على الخيط فيها براحتك.

دخلت وراءها غرفة النوم الوحيدة بالشقة الصغيرة الوافية بالنسبة لعجوز وحيدة مثلها، فتحت الدولاب لتعطينى سلة الخيط المصنوعة من القش، وإذ لاحظت حاجبىّ المرفوعين فوق عينى المحدّقتين فى كومة الشعر الهائلة فوق ملاءة السرير البيضاء، وقد تساقطت عليها أشعة شمس الصباح، فبدت خيوطها تشابكات من الأسود والأرجوانى والفضى، قالت وهى تتنهد:

ـ شوفى. فتحت مخدتى قبل ما أفتح لك الباب، وقلت أهوّى الشعر بالمرة وأحطه فى الشمس. أصل كيسها قدم وانفتق. ناويه أعمل لها غيره جديد.

تساءلت بدهشة، وأنا أتأمل ضفيرتها الطويلة المنسدلة على ظهرها:

ـ ياه. المخدة كلها شعر.

ـ آه شعر أمّى. كانت فى الأصل مخدتها، كل ما تسرّح شعرها بعد الحمام بالمشط سن الفيل، تلمّ النازل منه وتحطّه فى كيس دمور لحد ما صار مخده. شوفى شعرها الاسود لما كانت شابّة والأحمر لما صارت تحنّيه بحنة حمراء بعد ما الشيب طقطق فيه، فلما شاخت تركته على لونه. كان عندها ضفيرة كما سلوك الفضة. يا خسارة لما ماتت كنت فى المستشفى، منعونى من حضور خرجتها

لأنى كنت نفساء، وقالوا حرام، وخافوا الحليب يضيع من صدرى لو كنت جنبها ساعة طلوع الروح كنت أخذت ضفيرتها، قصيتها ، ألف رحمة تروح لها، لكن الحمد لله عندى منها كومة الشعر فى المخدة، وضرسين، وسن، كانت خلعتهم قبل موتها، محتفظة بهم فى كيس أطلس قديم.

ـ آه ضرسين وسن. يا سلام!؟ قلت، وأنا آخذ منها سلة الخيط وأندفع آفلة إلى شقتى.

هل كانت هذه الواقعة لحظة انقلاب فى رؤيتى لمنيرة فتحى؟. لا أعرف، كل الذى حدث هو أننى ظللت أفكر فيها، وقد انطبع مشهد الشعر المهوش على السرير، شعر أمها الباقى وهى يلتمع بألوانه الحمراء والسوداء والبيضاء، بينما أحاول تسديد الخيط الأخضر فى خرم الإبرة بعد عودتى مرة أخرى. لقد تخالطت مشاعرى تجاهها بعد ذلك اليوم، فلم تعد بالنسبة لى هى المرأة العادية، التى لا تلحظ عادة، بدت على نحو من الأنحاء عجوزًا غامضة، لها تعقيدها المثير، وأظن أنى منذ ذلك اليوم بدأت التوقف لتأمل عالمها الذى لم أكن أتوقف عنده من قبل، فصرت كلما دخلت إلى شقتها بعد ذلك، لشرب النرجيلة أو القهوة، أتلكأ قليلاً أمام الصور العديدة المرصّعة لكل حيطان بيتها تقريبًا، لقد اكتشفت أنها لا تعلّق صورها وصور عائلتها على الحائط فقط، بل إنها تنتشر تاريخها العائلى فى كل ركن من أركان بيتها، فالصور لم تكن شخصية أبدًا، بل كانت بمثابة حكايات ناطقة بحياة عاشتها هذه المرأة ذات يوم، حتى مطبخها الصغير، حظى بصورة لأمها وخالتها عُلقت على الحائط فوق المنضدة ذات القرص الرخامى القديم المركونة، بدت الأم فيها منهمكة فى تقطيع سمكة ضخمة بينما الخالة تمسك بذيلها فى حماس. فى كل مكان صور لأعمامها وأخوالها وأبنائها وزوجها الميت وأهله فى البحر، فى حديقة الحيوان، داخل مدرسة، عند الهرم؛ الصورة الوحيدة الشخصية، كانت لها وهى عروس على ما يبدو، إذ ظهرت فيها شابة نضرة بفستان من الحرير الأبيض، تمسك بيدها مروحة من ريش النعام، وقد لامست أطرافها لحم صدرها المشدود المنبثق من فتحة ثوبها الواسعة.

جملها القصيرة المقتضبة، لم تعد عاديّة بالنسبة لى، إنها تملأ فراغات عجزت الصور عن الإفصاح عنها:

ـ النرجيلة بابا ـ الله يرحمه ـ، كان مزاجه يدخنها بعد القيلولة، تصدّقى أول مرة دخنتها كان معه! كنت أسحب منها نفسًا أو نفسين فى الأول، حتى أتأكد أنها سالكة. كان التمباك أيامها نشتريه وهو ناشف ونبلّه وننقعه فى المياه، وأمى كانت تقصّه وتوضّبه وبابا يسحب منه على الجاهز.

إنها لا تتحدث عن والديها إلا عبورًا، لحكاية من حكاياتها عن يقينها القديم، ذلك الذى تعيش فيه دومًا، وأبحث من خلاله عن يقينى، يقين يقينى آلام الروح وعذاباتها.

ـ جاب لى البوسطجى جواب من سامى ابنى الكبير قبل آذان الظهر، وأنا كنت مشغولة بشيل التراب من شيّالة الكعك الفضية، كانت لخالتى يرحمها وقدمتها لى يوم دُخلتى.

ـ فؤاد ابنى كلمنى بالتليفون من أمريكا بالليل. ابنته الكبيرة ناوية تزور مصر. طالعة سمراء لأن أمها أصلها من إيطاليا. لكن سمارتها طبق الأصل سمارة عمى حسين ـ الله يرحمه ـ.

يالحظها! أقول لنفسى مرات، ما كل هذا الرضا عن الدنيا والعالم. أنا يأكلنى الخوف كل يوم ألف مرة. أخاف إلى درجة الرغبة فى الصراخ أحيانًا. أخاف أن أفقد وظيفتى وأصبح بلا مصدر للدخل (من أين نأكل أنا وابنى؟). أخاف أن تنهار العمارة القديمة التى نسكن فيها مثلما تنهار عمارات عديدة هذه الأيام (أين نسكن لو حدث ذلك بالفعل؟). أخاف أن تستمر حياتى هكذا، لا أمل فى وجود رجل إلى جانبى يشاركنى قسوة الأيام، أو يمنحنى فرحًا ما فى بعض منها.

لكن خوفى الأهم والأعمق والذى يتزايد يومًا بعد آخر هو أن أصحو من نومى ذات صباح لأجد الدنيا ليس بها يقينى الوحيد.. جارتى العجوز منيرة فتحى، تميمة السكينة لهواجس روحى ومفتاح حياتى.

كنت أخاف أن تموت فجأة وتتركنى، فأفقد تلك الجرعة اليومية المُنشطة لروحى، والمانحة الأمل لى فى إمكانية العيش ليوم آخر.

ما هو الموت؟ كنت أتساءل عادة عندما أصل إلى هذا الحد من التفكير، بينما أبقى وحيدة فى الليل، أتأمل حوتى النائم وقد علا شخيره دون انقطاع.

أقول لروحى: الموت هو الغياب؟ غياب ماذا؟ غياب الشكل والملامح والجسد؟ أم غياب الروح، أم غياب لحظة المشاركة؟ أريد تعريفًا مقبولاً للموت؟ ظل ذلك هاجسى لفترة طويلة، حتى أننى كنت عندما أفرغ من عملى، ألعب اللعبة مع الكمبيوتر، أسأله بعد أن أغذيه بقدر من المعلومات؛ وقد قدم لى إجابات مدهشة فى سذاجتها: تحلل الجسد وفناؤه. اختفاء شخص. توقّف ضربات القلب. هبوط الدورة الدموية. انتهاء وظائف المخ... إلخ.

ولكن أليس فى الموت طرفان، الذى يموت، والذى يصدمه موت من يموت؟، كيف نعرّف الموت بحالة طرف دون الطرف الآخر؟! إذن ما تعريف الموت بالنسبة للطرف الآخر؟!

رحت أعاود سؤال الكمبيوتر مرة أخرى، الإجابة كانت مذهلة: العين لا ترى. الأذن لا تسمع. الفم لا يُقبِّل. اليد لا تلمس..

جارتى العزيزة، قدمت لى إجابة أكثر دقة مما قدمه الكمبيوتر، وبسرعة لم أكن أتوقعها أبدًا فقد جاءتنى مرة بعد منتصف الليل، تدق بابى دقًا متلاحقًا، فلما فتحت وقد هببت من النوم، أظن أن مصيبة قد حلت بطفلى. وجدتها أمامى فى حالة إعياء واضحة، قالت إنها متعبة جدًا، سحبتها بسرعة لداخل شقتى، مددتها على سريرى، جريت إلى المطبخ لأناولها شربة ماء طلبتها لأن ريقها جاف، وما أن فعلت حتى جريت إلى الهاتف لأطلب لها طبيبًا من أقرب مستشفى.

عندما عدت إليها بعد ذلك مسرعة، وجدتها ممددة على السرير بلا حراك، وقد مال رأسها على طرف مخدّتى، لتتدلى ضفيرتها باتجاه الأرض، ضفيرة تتكسر عليها الشعاعات الشحيحة للمصباح المعلق بجوار السرير.

وقفت متسمرة، رغبت فى الصراخ، لكن شعوراً مطمئنًا بدأ يجتاحنى مغلفًا روحى بسكينة لم تعهدها من قبل.

إذن.. لقد دخلت اللحظة التى طالما خشيتها، لكن ها أنا فيها، هادئة، مطمئنة، وقد أدركت أنها ممكنة وليست مستحيلة، إنها اللحظة/ النهاية مع جارتى التى كانت، لا نرجيلة بيننا ولا طفل رجل قبالتنا.

«الموت. ها هو يفصح عن تعريف ملموس، محسوس له، إنه الحسرة على ماض نتمنى ألا يكتمل»، قلت لنفسى وأنا أتأمل وجهها الشائخ، وقد رسم الموت عليه تعبيرًا أبديًا لا نهاية له.

ورغم ذلك، فقد شعرت بحيرة ونوع من الغموض تجاه تصادم ذلك الموت معى، لقد بدأ لى أنه منفلت من كل تعريف، منفلت من كل مفهوم. أشعر أننى سُرقت، شيء ما، غالٍ وثمين سُرق منى، وخُطف عنوة.

بدون أن أدرى سرت بهدوء إلى دولابى لأخرج منه المقص، وأمضى بثبات إليها، ثم أقف قليلاً أتأملها مرة أخرى، قبل أن تمسك يدى بضفيرتها الناعمة الغزيرة فأقصها بحزم، وقد استبانت بها شعيرات سوداء شحيحة صارعت الأيام.

توجهت إلى المرآة، نظرت نفسى وأنا أثبت الجديلة إكليلاً على رأسى، كانت روحى تزداد سكينة، وأنا أعلن لنفسى انتصاراً ما، بينما سيارة الإسعاف تعلن عن مقدمها بأصوات حادة تخترق أذنىّ.

كيف انفتق ذاك الفتق الوسيع فى نسيج الذاكرة الممتد، فخرجت منه كل هذه المخدات، مخدة إثر أخرى، كما لو كانت محشورة حشرًا ومكدّسة تكديسًا عنيفًا داخل هذا النسيج، وكأن ما فعله القط «سنى» لم يكن إلا خمشًا ليس إلا، فتمزق الخيط اللاضم لتلك الغلالة الرهيفة التى قبعت بداخلها كل هذه المخدات، رغم أن «سنى» نفسه لم يكن إلا نتيجة هذه اللعبة التى لا نمل تكرارها دائمًا حتى ندفع بعيدًا بذلك الملل الرهيب الجاثم على حياتنا، وقد صارت رغمًا عنا بتلك الجزيرة التى كانت وما زالت بيزنطية الروح والملامح، بعد أن لفظتنا مدننا المستباحة القاسية، مدينة إثر أخرى. كنا نذهب بين الحين والحين إلى «أولومبيا» السمسارة ونقول لها: «نريد شقة مناسبة لمستر أبو على»، وبعد يوم أو يومين تتصل بنا «ألومبيا» وتقول: «تعالوا شوفوا شقة مستر أبى على»؛ فنذهب ثلاثتنا: زوجى وأبو على وأنا إلى مكتبها الواقع فى منطقة «أنجومى»، التى هى قرية استيقظت ذات صباح لتجد نفسها فى أحضان المدينة. «أولومبيا» تدعونا إلى شرب قهوة تركيّة، لكننا نعترض ونقول لها: لا.. لا.. القهوة عربيّة، ولأن أبا على كان من القوميين العرب ذات يوم، وناصريًا لا حلّ له، فإنه كان يحرص على إفهام «أولومبيا» أن البنّ كان يزرع فى اليمن أصلاً قبل زراعته فى أى مكان آخر، أو كيف اكتشفت الماعز البنّ باليمن عندما لاحظ الرعاة مزاج الماعز آكلة البنّ ونشاطها الغامر بعد وجبة أو وجبتين منه؛ وكنّا بعد القهوة وتصحيح معلومات أولومبيا، نذهب لندور على الشقق، نتفرّج على واحدة واثنتين وثلاث، ثم نقول لها: «لا.. لا يا ألومبيا مع الأسف الشقة واسعة وكبيرة وغالية على أبى على»، أو

«الشقة بعيدة عن وسط البلد، وأبو على عاوز واحدة قريبة من قلب الأحداث» - كنا نسخر كثيرًا من ندرة الأحداث بالجزيرة - وعندما لا نجد شيئًا نقوله، كان أبوعلى يحلّها بهدوء، يهز كتفيه ويرسم علامة التأفف بشفتيه ثم يقول: «ريحها ثقيلة».

أولومبيا لا تيأس منا أبدًا، ونحن حريصون على اللعب، لذلك فور أن هاتفتنى فى صباح ذلك الخريف المُشمس نادر الحدوث بالجزيرة، وأنبأتنى عن وجود شقة مناسبة لأبى على، حتى أيقظت زوجى، بسرعة، فأيقظ أبا على بدوره وارتدينا ملابسنا بسرعة أطفال ذاهبين إلى حديقة الحيوان، وقد قررنا أكل أى سندوتش فى السكة عند كرياكو، لنذهب بعد ذلك إلى ألومبيا فى مكتبها.

كنا فى ظاهر الأمر نتصنّع نوعًا من الجدية والاهتمام للحصول على شقة للرجل، لكن فى الحقيقة، كانت بداخل كل منا رغبة عميقة فى أن يبقى الوضع على ما هو عليه، فمنذ أن حلّ أبو على فى الجزيرة، وهو يقيم كضيف عندنا، ريثما يجد سكنًا مناسبًا له، وكنا مستأنسين جميعًا ببعضنا البعض، بالأحرى كنا نحاول التشبث بوجودنا معًا، وكأن ثلاثتنا اثنان هما «جَليفر» و«جمعة» فى الحكاية الشهيرة، رغم أننا لم نكن أناسًا خارجين من خرافة، تحطمت مركبهم وألقت بهم الأقدار فى جزيرة مجهولة بعرض البحر، بل كنا مقذوفين إلى شط نجمة الهلال الخصيب من الشط البيروتى القريب، وقد دفعتنا دفعًا حمم الحرب ونيرانها وأوساخ السياسة وشناعة الأنظمة المهجّنة بالسماسرة والعسكر، الذين باعوا وسلموا كل شىء ووزعوا العمل بينهم وبين الشعاراتية من كل نوع، ابتداءً من رافعى رايات الأحمر القانى حتى حاملى أعلام السواد من أهل العباءات والعمم.

هكذا وجدنا أنفسنا ذات يوم على متن سفينة شحن خرجت بنا من طرابلس لبنان بقيادة ربان اسمه «الكابتن روبين»، نسف كل تصوراتى الحالمة عن ربابنة السفن فى الأفلام السينمائية وهم يقبّلون حبيباتهم تحت الصارى على خلفية من زرقة البحر، ونوارس بيضاء ترفرف عاليًا، معلنة عن اقتراب الشط، وقد منحت روبين من مخيلتى يدًا حديدية بخطاف عوضًا عن يده اليسرى، وعصابة سوداء على عينه المفقوءة وفقًا لمشيئتى، فاكتملت صورته وظلت مطبوعة فى ذاكرتى بعد

ذلك، بجسده البدين، وهو يرتدى السروال القصير ويلطم بكفه الضخم بحارًا شابًا لم يحوّل الدفة فى الوقت المناسب كما أمر «روبين».

استقبلتنا السيدة «كرياكو» بشعرها الشمسى المتوهج بأكسيد النحاس، وحاجبيها الأسودين اللذين يذكرانى كلما رفعتهما لتتكلم بأنطونى كوين، وراحت تعد لنا ثلاثة ساندوتشات أو شاطر ومشطور وبينهما طازج من نساير ورك الديك الرومى على أرضية من ورق الخس وشرائح الطماطم، أكلنا بسرعة حتى نوافى «أولومبيا» فى الموعد عند العاشرة والنصف.

فرّجتنا إلهة «الأولمب» على الشقة، كانت لا تبعد كثيرًا عن سور البلد القديم الفاصل بين المنطقة اليونانية؛ ومناطق الجيش التركى، كانت صغيرة، متميزة الذوق فى معمارها، نظيفة، بحرية سعرها معقول، وبها المواصفات التى كنا نطلبها من «أولومبيا» دومًا، بدت المرأة مرتاحة أو شبه منتصرة، ربما لأنه بدا علينا، وكأننا تورطنا وأسقط فى يدنا كما يقال، فلا عذر ولا حجة لنا فى عدم قبول الشقة، وقد خلت من كل عيوب الشقق السابقة التى أعلناها لألومبيا، لكن سرعان ما خاب ظنها، بعد أن أطل أبو علي من شباك غرفة النوم الرئيسية ثم قال:

ـ ياه.. مستحيل.

تحركنا زوجي وأنا، ونظرنا إلى حيث نظر، ثم صحنا فى صوت واحد:

ـ فعلاً.. مستحيل.

كانت الشقة تطلع على الفناء الخلفي لكنيسة حيث نبتت من الأرض مجموعة صلبان حجرية فوق بلاطات رخامية سوداء وبيضاء، لمقابر تناثرت عليها زهور جافة صفراء وزرقاء وبنفسجية وأخرى حمراء بدت على البعد زاهية وكأنها وضعت منذ يوم أو يومين على الأكثر.

اقتربت أولومبيا قليلاً من النافذة ونظرت، تراجعت دون أن تقول شيئًا، وشعرنا وكأنها ظنت أن مبعث رفضنا هو أننا مسلمون، لا نرغب فى أن تطالعنا كل يوم كنيسة ومقبرة بصلبان، ابتسمنا لبعضنا البعض بخبث ثم قال لها أبو على بإنجليزيته الممتازة التى اكتسبها أيام العزّ كان يدرس فى جامعة «إكسفورد».

ـ إيه.. هل هناك شقة أخرى يا عزيزتى؟.

ـ لا.. سوف أرى بعد ذلك وأتصل بك.

كنا لا نعرف أن «أولومبيا» لن تمل البحث عن شقة لأبى على وليس فقط بسبب مهنتها والتكسب، ولكن لأننا نظن: زوجى وأنا، أنها تميل إليه بعض الشيء، فذلك العجوز الذى أوشك على الدخول فى الستين، كان لا يزال يحتفظ بوسامة قديمة، و«كاريزما» جاذبة لكثير من النساء اللواتى يلتقيهن.

عدنا لنركب سيارته البويك القديمة التى جئنا بها إلى «ألومبيا»، والتى كان استأجرها منذ وقت قريب من مكتب تأجير سيارات، وكنت قد بدأت أفتح الباب لأجلس على المقعد الأمامى إلى جانبه، عندما سمعت من المنزل المقابل الذى يُكلل الإفريز العلوى لبوابته تاج ضخم من زهور الفتنة البيضاء الرائعة.

ـ سنى.. سنى.

حدقت فى المنزل لأتبين صاحبة الصوت، لكنى رأيت قطًا ممتلئًا يخرج من بوابة البيت المواربة، وكأنه استعار شعر زوجة «كرياكو» على جسده، وهو يتهادى عابرًا الطريق الضيق الفارغ تقريبًا عند ذلك الصباح الشتوى ويتقدم باتجاهنا، حتى اقترب من باب السيارة الذى لم أكن قد أغلقته بعد دخولى إليها، همست بتلقائية واندفاع يهيمنان علىّ كلما رأيت كائنًا من تلك العائلة الأسدية المستأنسة.

ـ بس بس.. بس بس.. سنى سنى.

سارع القط من خطواته، وبقفزة واحدة، فاجأتنى، وجدته وقد استقر فى حجرى وأنا جالسة داخل السيارة.

ضحكت، وقد دغدغتنى مخدّات أقدامه الطرية اللينة وهى تلامس جسدى، رحت أمسح على رأسه وأمسّد شعره بفرح، إذ بدا لى ظريفًا أليفًا، ثم قلت:

ـ غريب خالص، وطبعه مختلف عن طباع القطط.

رغم ذلك كنت أشعر بداخلى بنوع من الريبة الغامضة، فصاحبته قد نادته لكنه تجاهل نداءها، بينما سارع بالقفز إلى حجرى لمجرد أن همست له باسمه،

كدت أدفع به بعيداً عنى، خارج السيارة، لكن أبا على بدأ يدير محرك السيارة تأهبًا للسير، والقط بدأ يكوم نفسه على هيئة كعكة مشتعلة بالأحمر فى حجرى ويغمض عينيه، وكأنه يرقد مستأنسًا بفراشه المعتاد.

أعلنت بهدوء:

- سنأخذه معنا.

صرخ زوجى بسرعة:

- يعنى نسرقه، صاحبته نادت عليه وأنت سمعت بنفسك؟!

رددت:

- لكنه لم يعبّرها. ونط عندنا.

- يا سلام! ردّ زوجى ساخرًا.

حسم أبو على الأمر، إذ كان قد بدأ يتحرك بالسيارة مبتعداً عن المكان دون تعليق، كنت أعرف أنه وجد حكاية جديدة، سوف ننشغل بها لبعض الوقت دافعين عن أنفسنا الملل اليومى المعتاد الذى نوزعه بين التسكع فى الشوارع بالسيارة ولعب الشطرنج طوال ساعات. ثم القراءة والفرجة على التليفزيون - مرة أو مرتين ربما، كنا قد اشتركنا فى مظاهرات ضد حزب الديمقراطية الجديدة، وهو حزب يمينى فاشى - وربما كان شعوره أن حكاية الشقة أوشكت أن تكون مملة بدورها، صاح زوجى بضيق:

- كيف نحطّه فى الشقة ونلمّ وسخه، ثم إن البراغيث ستغرقنا بسببه؟!

- ولا يهمك.

قلت، ثم واصلت:

- سأشترى له طوق براغيث، وأحل مشاكل وساخته، والله يظهر أنه ظريف ودمه خفيف.

نطق أبو على أخيراً وهو يتجاوز سيارة «رولز» حديثة تقودها حسناء، تعتبر من النوادر فى هذه الجزيرة:

- لكن، واضح أن سنى زهقان من صاحبته، لأنه هرب عند أول فرصة أتيحت له، وتركها وخرج.

قال زوجى بسرعة:

- كأنه كان زوجها ومُطلّعة دينه.

ضحك الرجلان. ورمقت زوجى بينما أزم أنفى وأخرج لسانى تعليقًا على دعابته وسرنا فى اتجاه البيت.

طوال الشهور التى تلت ذلك، بدا سنى قطًا عاديًا تمامًا، يأكل وينام، مهذب، لا يسرق، لا يخرب أى شىء أثناء لعبه، ربما مدّ يده مرة أو مرتين أثناء لعبنا الشطرنج، مدحرجًا قطعة بعيدًا عن الرقعة، أو خاطفًا بيدقًا بأسنانه فى محاولة يائسة لافتراسه.

زوجى اعتبره قطًا بليدًا أضاف إلى مملاً مللاً فى هذه الجزيرة. أبو على كان رأيه أنه قط عاطل عن كل جاذبية تتمتع بها القطط عادة. كنت أظن أنهما متعنتان تجاهه. وربما كان اهتمامى به يثير بداخلهما شيئًا ما ضده، وربما كان سلوكه الأول معى يقف وراء عدم قبولهما له. فى الحقيقة اعتراضى على سنى الذى لم أصرّح لهما به أبدًا، كان لونه فقط. إننى كنت أفضل أن يكون أسود، ويا حبذا لو كان رماديًا مخططًا بالرصاصى. عمومًا، سارت حياتنا مع سنى حتى ذلك اليوم الشتوى البارد جدًا، والذى أعقب عدة أيام ممطرة، كانت الأرض قد تغطت بطبقة خفيفة من الجليد، بعد انخفاض الحرارة وتراجعها عدة درجات تحت الصفر، لم يعد البرد محتملاً رغم وجود تدفئة مركزية بالمنزل، وكان أبو على قد ذهب لزيارة صديق قديم له، وفد على الجزيرة فى الصباح وقرر أن يبيت عنده بالفندق فهو لا يرغب الخروج مرة أخرى فى البرد، وهكذا قبعنا زوجى وأنا فى الفراش مبكّرين نقرأ حينًا، ونشاهد التليفزيون حينًا آخر، وإلى جانبنا سنى يلتمس الدفء مثلنا ويهرّ، حتى بدأ يهيمن علينا النعاس، فقال زوجى:

- أنزلى القطّ من على السرير وخليه ينام على السجادة بالأرض، لأن نفسه مضرّ وصوته خرم أذنى.

قلت:

ـ لا.. حرام، خليه ينام عند الرجلين لأن الليلة بردها شديد جدًا.

ـ لا. خليه فى الأرض أفضل. قال.

كان النعاس قد هزمنى تمامًا، فلم أقو على مزيد من الجدل، فأزحت القطّ بصعوبة إلى الأرض وطلبت منه بصوت ضاع فى برزخ السبات:

ـ نام عندك يا سنى. وإياك تطلع لفوق.

يبدو أن القط امتثل لطلبى وقتًا قليلاً، ربما حتى تيقن من نومنا تمامًا، لأنى أفقت بينما كنت أتقلّب لأجده إلى جانب رأسى على المخدة، فأمرته بغيظ:

ـ سنى. خليك تحت وإياك تطلع هنا. فاهم؟

ثم سحبته إلى الأرض مرة ثانية.

لم تمرّ دقيقة أخرى إلا وقفز إلى السرير، لكنّه تكوم هذه المرّة عند الرجلين فى نهاية الفراش وهو يموء مستعطفًا بصوت خفيض، فقلت لنفسى لا بأس، وتركته ينام ونمت بعد أن انزلقت بكاملى تحت الأغطية ألوذ بها من برد لا يطاق، لا أعرف كم من الوقت مضى وأنا نائمة، لكنّى صحوت على صياح زوجى وهو يزعق:

ـ زفت.. الزفت سنى لازم يطلع برّه، معقول يعنى ينام فوق دماغى على المخدة.

كانت لزوجى موهبة فذّة تتلخص فى قدرته النادرة على الكلام فور أن يفيق من النوم وكأنه لم يكن نائمًا قبل ذلك أبدًا.

فتحت عينىّ، كان «سنى» فارشًا جسده على مخدّتى وجانب من مخدّة زوجى ويهرّ برضا شديد.

اغتظت منه ومن زوجى، وقمت فازّة أحمله من على المخدة لألقى به خارج الحجرة ثم أغلق بابها وأعود لأندس تحت الأغطية دون أن أنطق بكلمة واحدة.

حاولت النوم بعد ذلك لكنى لم أفلح، إذ أخذ سنى يموء متوسلاً من وراء الباب وكأنه رضيع افتقد صدر أمه، قاومت جاذبية نداءاته مرارًا وأنا أقول لروحى لا

والله عنده «كاريزما».. ثم أخذنى النوم فى بحوره الغامضة مرة أخرى، أفقت فى الصباح التالى على ضوء خفيف من شمس بخيلة، وجدت «سنى» فى الممر فور أن نهضت وفتح الباب، كان نائمًا بالقرب من باب الحجرة فى الممر، وداعبته.

ـ سنى.. صباح الخير يا «سنى».

لم يحرك بوقى أذنيه فى اتجاه صوتى أو يفتح عينيه نصف فتحة، مثلما يفعل عادة عندما يكون راقدًا، فتركته لأمضى إلى الحمام، لكنى وبينما أغلق الباب رأيته يفتح عينيه بخبث ويغمضهما سريعًا بينما يمد يده الأمامية قليلاً على الأرض.

خرجت من الحمام وسارعت بإعداد الإفطار، لأن زوجى سيذهب إلى المطار فى «لارنكا» لاستقبال صديق قديم لفظته مدينة عربية مجددًا بسبب نشاطه السياسى وقذفت به إلى هنا، لم أنس وضع الحليب لسنى فى وعائه بالمطبخ، ناديته لكنه ظل قابعًا فى مكانه بالممر دون أن يجاوبنى، أيقظت زوجى ودخلنا لمطبخ لنفطر، وأثناء جمعى للصحون من على الطاولة بعد أن انتهينا، ودخل زوجى إلى حجرة النوم ليغير ملابسه، سمعته يصيح بعنف:

ـ تعالى.. تعالى بسرعة، شوفى الوسخ سنى!

تركت ما بيدى وجريت بسرعة إلى حجرة النوم، كان زوجى واقفًا، حاملاً مخدتى بطرف يده، ناظرًا إليها بتقزز، كانت مبللة كلها تقريبًا بلون أصفر فاتح، صرخت بدورى:

ـ يا خبر اسود.. مخدتى.

ردّ زوجى بخسرة وهو يهزّ المخدّة بيده:

ـ على مخدتك عملها، وعلى كيسها القزافيزى يا مدام.

وقفت مبهوتة، أنظر إلى المخدة وكيسها الحريرى، وقد تلوثت ورداته زهرية اللون بما فعله عليها سنى، شعرت بحنق شديد عليه. بالأحرى شعرت بإهانة بالغة من فعلته الشنيعة، وأنا أردد لنفسى:

ـ يبول على مخدتى، مطرح ما أحط دماغى وأنام.. الجبان!؟

ثم إنى طرت خارجة من الحجرة وأنا أزعق:

ـ آه يا كلب، طيب، والله ما أنت قاعد فى البيت لحظة واحدة بعد عملتك السودا.. طيّب!

أخذت أبحث عنه تحت الكراسى وفى كل مكان بالبيت، بينما صوت زوجى يلاحقنى ساخرًا وهو يقلد الرجل الذى كنا قد اشترينا منه الأكياس الحريرية للوسائد من جناح الاتحاد السوفيتى فى المعرض الصناعى بنيقوسيا وهو يقول بعربية فصحى عتيقة:

ـ إنها صناعة يدوية من القز القزاقيزى الفاخر وممتازة جدًا، ورسوماتها كلاسيكية تعود إلى القرن السابع عشر.

كانت أكياسًا جميلة بالفعل، ورسوماتها المطرزة بخيوط الحرير بالغة الرقة فاشتريناها وإن كانت عبارة البائع الأخيرة قد ذكّرتنى بما يقوله أهل قرية «ليكفارا» الجبلية دائمًا، عن بضاعتهم المماثلة من المفارش والأغطية، بأن «مايكل أنجلو» هو الذى صممها لهم عندما جاء إلى جزيرتهم القبرصية فى القرن الثالث عشر الميلادى.

طردنا «سنى» بعد أن وجدته فورًا، ورميت المخدة بكيسها القراقيزى فى الزبالة، لكن مخدة «سنى» هذه، كانت قد دفعتنى بعيدًا بين المخدات، فرحت أغوص فى تلك الحميمية الغريبة التى تشدنا دومًا إلى مخداتنا، ألأننا نضع عليها عند كل مساء وردات آمالنا وأحلامنا؟. أم لأنها الصدر الحنون، تلوذ به دموعنا، وقت همومنا وحزننا؟. أم لأنها هى وحدها ولا شيء آخر، التى يتردد عندها رنين القلب ووجيبه، إذ نأخذها إلى صدورنا، متشبثين بها كجدار قلعة يقف على أبوابها الأعداء، وجدتنى أتأمل المخدّات، وقد أخذتنى حالة إشراق، فانبثاق من حشايا الذاكرة، ومتكآت الروح التائهة، لأستعيد من بين مخدات الآخرين ومخداتى، أيامهم التى كانت، وأيامى.

أخذت أقطر فى عينى الدواء، فثمة غشاوة تضايقنى، لا يماثلها إلا ضبابات الروح وانكسارات النفس، وبينما النقطة الملحيّة اللاسعة، تُباغِت فتحة الرؤية، فينغلق الجفنان عليها بشدّة كهجوم مضادّ سريع، وانتثى الفكرة أخيرًا، وكان أن ألحّت دون أن تشفّ أو ترقّ، أو تتعطف أو تتكرم كقطرة غيث على شفاه من الظمأ، وها هى: سؤال ناصع، ناصح، كتقارير خبراء البيئة ـ يقول لماذا لا يكون لك مثل أعلى فى الحياة؟ كنت ما أزال أغمض عينى حتى يغيب اللسع، لكن الإغماض جرّنى إلى سكّة الانجلاء والتجلى، وهو مبتدأ العكوف وصولاً إلى الكشوف، وها هو وميض الأفكار يأتى، فيطلّ فيشعّ فيفصح، فيكشف، بينما القطرة تتجرد داخل عينى، وقد رفدتها دموعى، حتى فاضت فسال بعضها من بعضها على خدّى.

رحت أستعرض فى مخيلتى المرشحين المحتملين لمثلى الأعلى، أبى؟ لا أنا أعرفه، فلقد غادر الحياة مبكرًا دون أن أراه، فلأعتذر عن تنحيته كمثل أعلى لهذا السبب وأسباب أخرى أدركتها مؤخرًا. أمى؟، لقد فطمت منها منذ زمن بعيد. معلّماتى ومعلمى فى المدرسة والجامعة أعتذر لهن ولهم جميعًا، فرغم تقديرى وتوقيرى لدورهم المحدود فى تعليمى، فإننى قد تجاوزتهم الآن، ربما بحكم الزمن، أو بسبب أننى لا أتذكرهم كثيرًا.

إذن، فلأكن أكثر حداثة ومعاصرة، ولأفتش فى نخبتنا الغرّاء، ولكن هل لدينا الآن نخبة حقًا؟ لو كان لدينا نخبة، لما قال الشاعر أحمد فؤاد نجم: «الإذاعة

مستباعة والوطن عاوز كلام»، لكنّى أفتّش، علّنى أجد ما أبحث عنه هنا أو هناك، أتأمل، أبحث. فلا أجد إلا عصابات من الاقتصاديين، وشرازم مثقفين، وانتهازيين سياسيين، ويسار «ستريتيز» ـ وأعتذر للعجمة التعبيرية فرقباء اللغة لن يغفروا لى استخدام أى من توصيفات قاموسنا اللغوى العريق بما يمكن من إزاحة تلك العجمة بعربيّة صحيحة ـ.

إذن سأضطر لاستيراد مثل أعلى من الخارج، فنحن لم نعد ننتج أمثلة عليا، ربما بسبب الخصخصة، أو العولمة، والتى جعلتنا نستورد كل شىء ابتداء من رغيف الخبز، وحتى الأفكار المخبوزة بالسمّ، فى الحقيقة لقد حرت، أو داخلنى شعور يتراوح بين الإحباط واليأس، وما بينهما من مسافة وعلى نحو مؤقت وحتى إشعار آخر، سأسميها هزيمة.

لدىّ سلحفاة أو «فكرون» صغير كما يقول التوانسة، والاسم يعجبنى لأنه شديد الارتباط بموضوعى، وهذا الفكرون أو الفكرونة ـ والله أعلم ـ أراه بالصدفة فى البيت، وبين الحين والحين، مثلما أرى جيرانى، مع فارق واحد، هو أن الفكرون يهز رأسه أحيانًا ملتفتًا، فأظن أنه يحيينى، بينما ينظر إلىّ الجيران شذرًا، وأبحلق فيهم بدهشة كلما تصادفنا عند مدخل أو على سلالم العلبة الكرتونية القبيحة التى نقطن بها جميعًا وتُسمى عمارة.

عندما فتحت عينى بسلام بعد انتهاء واقعة القطرة، وجدت السيد فكرون يطل برأسه من تحت الجنبة المقابلة لى، وفى لحظة، خطرت لى فكرة أن أتخذه مثلاً أعلى لى فى التفكير والتأمل: ألم يطلق عليه التوانسة اسم فكرون؟ ثم إنّه ـ وربما هذا ما يميزه ـ يعرف حدوده، لا يتطفل، متطلباته قليلة، يستطيع مواجهة المجتمع الاستهلاكى بكل حزم، لا يلوّث البيئة، ولا يعتدى عليها وتبقى علاقته بالزمن علاقة عبقرية محيّرة فهو الكائن الأكثر صمودًا لهذا الاختراع الإنسانى المثير، فهو لا يلاحق الزمن ولا يرغب للزمن أن يلحقه.

كنت قد تحمست جدًا للفكرون، وأخذت أسترسل فى خصاله ومزاياه حتى أننى فكّرت ـ وأنا التى لا تكتب الشعر ـ أن أسطّر قصيدة عنوانها «فى مدح فكرون» ربما كان مطلعها:

يمضى الزمان لكن حالك سرمدًا

لا هو ذاهب عنك ولا إليك يجىء

غير أن الفكرون البائس، سرعان ما ردّنى إلى المسافة بين الإحباط واليأس، فبينما أنا أنظره، ممعنة فكرى فيه بحثًا عن كلمات شعريّة أسطّر بها بقية القصيدة. إذ به يتراجع برأسه متخفيًا فى عظاءته، وقد ظنّ «العبيط» أننى أضمر له شرًا، وأننى بفعله هذا سأظن أنه حجر فى صحراء، أو شقفة من صخر. بصراحة تراجعت عنه، فهو فى الحدّ الأدنى جبان غير قادر على المواجهة، وميله الفطرى الدائم للانزواء والعكوف ما هو إلا حالة مرضية تستدعى تدخل الطبّ النفسى.. رغم علمى بأنها حالة لن تؤول إلى انتحار. لا.. *لن أدّعُكَ فكرونًا ولتكن سلحفاة وسأحتفظ بشعرى لمن يستحقّه أيها القاسى* العنيد.

كنت بدأت أقلق وأتوتر، وقد شعرت أن لا جدوى فى العثور على مثل أعلى مناسب، قلقى هذا، دفع إلى المقدّمة، بالسؤال الذى طالما حاولت تجنّبه طوال الوقت: لماذا تبحثين الآن عن مثل أعلى، بعد كل هذا العمر، وكل هذا الزمان؟ لماذا لم تفعلى ذلك وأنت طفلة، أو وأنت شابة صغيرة؟ أنت لم يكن لك مثل أعلى أبدًا، لقد سرت فى الدنيا بمَثَل نفسك،، فلماذا الآن، هذا الدأب والبحث، والقلق والتوتر، لإيجاد ما ليس من السهل أن يوجد؟، ربّما تحاولين تأمين أطفالك، تشيرين إلى نموذج يتطلّعون إليه، ليكونوا كما كان، أو لعلك تبحثين عن سكينة روحية وطمأنينة تطمئنّ إليها نفسك، وقد تجسّدت سواء بشريًا خيرًا وجميلاً؟ لا أدرى.. وهل كل من قال أدرى فقد درى؟، أيًا كانت الأسباب، فما أتيقّنه الآن هو أننى أحاول إيجاد مثل أعلى لى، وليكن ما يكون، وهكذا عاودت البحث من جديد.

قلت، فلأفتش عن مثل أعلى فى الدنيا الواسعة، فيما وراء البحار، فى النساء بالطبع، لا.. من بين الرجال أيضًا، حتى لا أتّهم بالنسوية البغيضة، وضيق الأفق وكراهية الرجال وتعريض الأمن القومى للخطر. ألا يكفى أننى لست نخبوية الطابع، ألا يكفى أننى لست النموذج الأمثل للمثقفة العضوية التى تؤثر التواجد

بين المثقفين الرجال، دون النساء، بينما لا تفارق السيجارة شفتيها ولا تكف عن الحديث بصوت عال؟ ألا يكفى أننى لا أنتمى إلى شلّة أو جماعة، تمسك بمفاتيح الحداثة أو الوطنية، لتفتح بها أبوابًا لمن تشاء وتطرد منها من تشاء؟، ألا يكفى كل هذا؟ بصراحة ولأعترف، فأنا ضعيفة، والإرهاب مؤثّر حقًا، لذلك سأبحث عن مثلى الأعلى بين الرجال كذلك، ثم إن دخول الرجال مسابقة مثلى الأعلى، سيتيح لى اختيارًا أفضل فالرجال قوّامون ليس على النساء فقط، ولكن على كل شىء فى هذه الدنيا، على السماء، والأرض، وكل الكائنات، وباختصار على التاريخ والجغرافيا، وبمناسبة التاريخ، فأنا لن أتقيد بمرحلة زمنية معيّنة، وإن كنت أفضل التاريخ المعاصر، وربما التاريخ الراهن، أو ربما التاريخ الآنى، وقد أفضل اختيار مثلى الأعلى منه، ربما لأننا على وشك الخروج منه، ليس لنكون متفرجين فقط، ولكن لكى نكون متفَرَجًا علينا ككائنات متحفيّة عجيبة، أو ليست السياحة نوعًا من المتحفية، وقد حوّلت الأوطان والشعوب القديمة إلى متاحف مفتوحة حيّة تدب على قدمين؟ فكّرت فى ذلك انطلاقًا من كل الضغوط الإرهابية، حتى أنسى هذه التسوية البغيضة، لكنى فى الحقيقة وجدت مخرجًا لذلك المأزق، قلت سأبحث عن مثلى الأعلى ضمن حدود النساء الفاضلات، هذا حلّ سعيد لكل الأطراف، فنحن الفضيلة، وحياتنا كلها متمحورة حول الفضيلة، وخصوصًا فضيلة مثلث برمودا الخطر والقابع فى النصف الأسفل من الجسد، حتى برامج الأطفال فى إذاعتنا التى تربينا عليها، وما زالت تتربى عليها الأجيال، تقدمها أبلة فضيلة منذ أربعين سنة. إذن فلتحيا الفضيلة ولننحن للفضيلة والحقيقة أننى بحثت وبحثت فلم أجد خلال عصرنا السعيد هذا غير مارلين مونرو لتكون المثل الأعلى للفضيلة.

لكن المشكلة فى هذا الاختيار، كانت المرايا لماذا يا ربى خلقت المرايا، لم لم تكن هذا المرايا لكان الأمر قد سار على ما يرام، ولكانت المرأة التى عشقها العالم بداية من رؤساء وكتاب مرموقين وحتى أصغر مراهق يمارس العادة السرية وعيناه مغمضتان على صورتها، لكانت هذه المرأة هى المثل الأعلى، أو ليس أدلّ

على فضيلتها العميقة أنها انتحرت، قررت مغادرة هذا العالم، وفضلت على فضيلته المتدفّقة عالمًا آخر بلا فضيلة؟

فتحت التليفزيون، بينما بقيت أفكر، يا الله! إنها السيدة أولبرايت، أجل مادلين أولبرايت برشاقة العصفور، رغم التسعين كيلو التى تحملها، بين عواصم الدنيا وعواصم الشرق الأوسط بلغة الاستعمار، المرأة والحق يقال غاية فى الجدية، والنشاط، وهى متجاوزة مسألة المثقفة العضوية والنسوية ضيقة الأفق، ولا تكف عن مجالسة الرجال. أهم الرجال: ملوك، رؤساء، سلاطين، طغاة، سماسرة شعوب وبائعو أوطان أو مؤجروها بالعفش أو بدون، لكن أهم ما فى أولبرايت من وجهة نظرى ركبتاها، فهى حتى فى أشد لحظات المفاوضات حرجًا وحساسية، لا تكفّ عن كشف ركبتيها السمينتين، والجميع وقّع ما تمليه من اتفاقيات، رغم هاتين الركبتين، بل أجزم أن بعض من يوقعون، ربما كانوا فى الأصل، يبصمون، والغريب أنهم يوقعون رغم أنف الشريعة، والطبيعة الخاصة للمجتمعات الشرقية، التى قد تمنع المرأة من قيادة السيارة أو السفر دون موافقة من زوجها تقدّم للجهات المختصة، ورغم التحفظ على اتفاقيهات التمييز ضد المرأة، وحقوق الإنسان. لكن المشكلة فى اختيارى لأولبرايت، ناجمة من عدة مشاكل، ليس أولها كراهيتى لأولئك الذين يوقعون لها، وغيرتى منها لأنها تجبرهم على ذلك، وأنا لا أستطيع إجبار ابنى على شرب كوب لبن كل صباح، لكن المسألة فى الحقيقة أبعد، فالسيدة أولبرايت كشرة، لا تبستم أبدًا، وهذا شىء أنكره عليها خصوصًا فى عالمنا الذى لا يدعو إلى الابتسام فقط ولكن إلى الضحك والقهقهة لفرط ما هو بائس وساخر.

السبب الأعمق، هو أن السيدة أولبرايت متحيّزة ضدّنا كشعوب عربية، وهى فى الحقيقة رمز من رموز الإمبريالية المعاصرة، أجل أقول إمبريالية ولا أخجل، لأنى قديمة ولست حداثية، بل وأذكركم بأن كل الإمبرياليين نمور من ورق، وإلا لو كانوا نمورًا حقيقية فلماذا لم يلتهموا الصين؟! طيّب: الصين صعبة الابتلاع.. ابتلاع مليار من البشر قد يؤدى لعسر الهضم - فما بالكم بالبسكويتة الهشّة كوبا.. إنها ستذوب فى أفواههم ذوبانًا.. تقولون التهموا الاتحاد السوفيتى وأوروبا

الشرقية. أجل.. إنهم هناك لم يكونوا قد قرأوا كليلة ودمنة، لم يقرأوا «أكلت يوم أكل الثور الأسود» ولم تصل إليهم قصّة «مدينة النحاس» فى ألف ليلة وليلة، ولو كانوا فعلوا، لما صاروا فى ظل غواية الكوكاكولا وأحضان الانفتاح للإفلات من ذراعى البيروقراطية القابضة. وقبل كل ذلك.. أنا لا أبلع أولبرايت لأنها بلاعة أرض ومدمنة مستوطنات، ربما لأنها جاءت من أكبر مستوطنة وهى نيويورك، إنهم يبنون مستوطنات، والسيدة أولبرايت تتجاهل، أو تشجع من يقولون سنبنى مستوطنات من النيل إلى الفرات، كيف أبلع هذا؟!

يا ربى.. أين أجد مثلى الأعلى، لقد بتّ فى أمس الحاجة إليه يقولون إن الزلازل تحدث الآن فى أكثر مناطق العالم كثافة بالسكان، ولكن ماذا عن زلازل الروح، أظن أنها تحدث فى أكثر مناطق العالم انحطاطًا وسخافة، إنها السخافة وليست الكثافة، أليس المثل الأعلى محاولة لمواجهة الانحطاط والسخافة؟ مخرج للروح من يأسها وقد وجدت ما يمكن الرهان عليه؟ أن يكون هناك كائن يستحق التوقف عنده والاحتذاء به والثقة فى إمكانية نهوض الروح، رغم ما حدث فى البوسنة والعراق، وجنوب لبنان، وتيمور الشرقية وبلدان أفريقيا التى تحولت إلى البرازفيل، ليس بسبب اللغة ولكن بسبب الشراهة المتزايدة للنوع الغربى تجاه مصّ الدماء وتدمير البيئة؟

رحت أحدّق فى الحائط المواجه لى بينما لا زلت أجلس مطرحى، أحاول تجاوز واقعة القطرة. على الحائط لوحات وصور لفنانين أحب أعمالهم لدرجة أننى قررت أن يشاركونى تفاصيل يومى من على الحوائط، وكنت قد علقت بينهم رسمًا صغيرًا لابنى، هو نخلة رائعة حوى جذعها كل ألوان قوس قزح السحرية وتطايرت سعفاتها بعيدًا فى السماء راسمة أقواس نصر خضراء، بينما تدلت أسبطة التمر منها حمراء كقلوب نابضة بالحب.

قلت: يا له من طفل، ذلك الذى اختار النخلة دون سواها ليرسمها، فها هى سامقة الجذع، عالية دون استعلاء، مترفعة باستقامة، أصيلة وقد دفعت جذورها إلى أعماق الأرض، وثمة ذلك العطاء الأحمر البهيج، عطاء مجيب مترفع عن

السؤال، يقدم ولا يأخذ ثم هى الامتناع السهل بالسمو والعلو، والصلابة الممكنة بالقوة والاحتمال.. ما أعظمها من خلق لخالق ترفّع عن كل مخلوق.

فكرت بالنخلة، إنها تتوارى الآن خلف كتل الإسمنت العالية المزروعة هنا وهناك، قد يضيعها زحام المدن السخيفة وانشغالات الحياة الكثيفة، لكنها ما زالت تواصل الحياة بإصرار أو ليس أدلّ على إصرارها من أن طفلاً يأكل الكتاكى ويشرب الكوكاكولا ويذهب إلى سوبر ماركت كبير اسمه مدرسة، يرسمها دون سواها من خلق الله، بينما هو لم يبلغ السابعة بعد..

ستكون مثلى الأعلى نخلة، وشعارى سيكون نخلة - لا تنزعجوا لن أشترك بهذا الشعار فى تمثيلية الانتخابات الديمقراطية - ورياضتى الروحية ستكون بها وقد تمثّلتها كمعين لى على مواجهة جارتى التى زرعت زهور البلاستيك فى أصص أمام شقتها، والصفحة الأولى فى الجريدة، والتى ينسون أن يكتبوا عليها كل يوم صفحة الوفيات، وستكون سندى الروحى لمواجهة نوادى المنتفعين المتربّحين ببؤس الوطن وشقائه تحت دعاوى حقوق الإنسان وحقوق النساء، ولمواجهة النقد المسمّد لنصوص بائسة لا طعم لها ولا لون لها ولا رائحة كفواكه هذه الأيام، وللابتعاد عن كل الحروب الصغيرة الحاجبة عن الرؤية المشهد الأهم، المشهد الأعمق لحياتنا الراهنة لا.. لن تكون النخلة سبيلى إلى رياضة الروح فقط، بل ستكون سبيلى إلى الكتابة، فلسوف أظل أكتب دومًا بروحها.. روح النخلة.

• هالات سوداء أسفل العينين •

لم نكن نرتاح لها عادة، فهى حادة التعامل، جافة، نافرة، تصد وقد لا ترد كلما تحدثنا إليها، تجلس على المقاعد الأخيرة منزوية فى حجرة الدراسة عادة، دون أن تتجاوب مع المدرّسين والمدرّسات أثناء الدروس.. بعضهن كن يبغضنها بالفعل، أما أنا فقد بقيت زمنًا حانقة عليها، فقد أقرضتها ربع جنيه ذات مرة، وقت أن كان الجنيه يعادل عشرين مرة جنيه هذه الأيام، ولم أسترد قرضى أبدًا.

كانت معى فى المدرسة الإبتدائية، ثم فى المدرسة الإعدادية، وفى الفصل نفسه دائمًا، فاسمى واسم أبى يبدآن بالحرفين ذاتهما اللذين يبدأ بهما اسمها واسم أبيها: س. أ، وقد يفسر ذلك التاريخ الإجبارى المشترك لنا، لماذا آثرت الاقتراض منّى دون سائر الزميلات فى الفصل، وربما قد تكون هناك أسباب أخرى لديها لم أعرفها أبدًا، كان بمثابة عربون مودة من طرفى، ومحاولة لاختراق المستحيل الكامن فيها، كما كنت أرى وقتها، لكن هيهات مثلما يقولون، فقد ظلت كما كانت دومًا: باردة الحسّ، جافّة الكلام شحيحته، لا تبتسم أبدًا، لها الهالات السوداء العميقة دومًا أسفل عينيها الداكنتين، ذات النظرات المترفعة الساخطة المرسلة بعيدًا، وكأنها تستخسر النظر فى الواقف أمامها أو محدثها، وقد اضطرت للحديث.

وقد تأكدت أن لا أمل فى مودتها، ولا رجاء فى لين مشاعرها، بعد ذلك اليوم البعيد الذى قتل فيه الأفريقى لومومبا، فقد كانت هى الوحيدة بفصلنا التى لم تذرف دمعة واحدة عليه، بينما بكينا جميعًا، بل وهاج بعضنا وصرخن، خصوصًا

وقد رأينا صورة امرأته تطل علينا من الصحف، عارية الصدر، تسير بين أطفالها بثديين متدليين حتى قرب سرتها، (وكنا لم نر شيئًا مثل هذا من قبل)، وهذه الواقعة هى التى حسمت أمرها بالنسبة لنا، إذ ظلت رغم كل ذلك الحزن الصاخب المحتج حولها، جالسة بهدوء على مقعدها المدرسى، منهمكة فى عمل واجب التاريخ، مفضلة ذلك على مشاركتنا غضبنا على تشومبى القاتل الخائن الذى رحنا نلعن سافل سافلين جدوده، منددين بالاستعمار وداعين لأفريقيا السوداء بأن تعيش. تعيش. تعيش.

مضت شهور بعد ذلك على شهر مارس زمن إقراضى ربع الجنيه لها، دون أن ترد لى حقى، حتى انصرم العام الدراسى وغبنا فى العطلة الصيفية، وفى بداية العام الدراسى الجديد، قالت لى إنها سترد المبلغ عندما تسنح لها الظروف، ثم صرّحت تصريحًا بدا خطيرًا لى وقتها، إذ قالت: «إنها ترغب فى تقديم شىء إلى زوجة أبيها فى عيد الأم. «رغم كل شَىء».

حاولت استنطاقها بالمزيد، وقد تعاطفت معها بعد «رغم كل شىء» هذه، لكنه لم تزد حرفًا وتركتنى واقفة، وذهبت لأمر من أمورها بفناء المدرسة، بعد أن هزت رأسها رافضة الرد على أى من أسئلتى. رحت أتابعها بنظرى وهى تمضى بعيدًا، وأتأمل رأسها الغامض العنيد الذى لا يمكن اختراقه، والكشف عما يدور به من أفكار أبدًا، ذلك الرأس المكلل بشعر أسود ناعم، كان الشىء الوحيد اللين الحنون فيها، وقد التمع تحت الشمس وتوهج لأنها تشطفه بعد كل غسيل بماء تضيف له قطرات من عصير الليمون، يمنحه كل ذلك الألق والنضرة، كما قالت لنا باقتضاب عندما سألناها عن ذلك ذات يوم.

بقيت حانقة عليها بسبب ضياع مالى، لكن لم يمض إلا زمن قليل حتى انقلب حنقى إلى أسف، وأسفى إلى ندم، فقرب نهاية العام الدراسى وقبل الامتحانات بوقت يسير، غابت عن الفصل ذات الهالات السوداء، وفى النهاية دخلت علينا مدرسة اللغة العربية، ذات يوم، لتقول لنا إنها لن تعود إلينا أبدًا لأنها ماتت منذ أيام، ولم تعلم إدارة المدرسة بخبر موتها إلا صباح ذلك اليوم فقط.

كانت الصدمة عنيفة، وقد تكلل غموضها بالنسبة لنا بهالات أخرى من غموض، غموض الموت الذى لاراد له ولا أمل فى فض أسراره، بكى معظمنا، وبكيت أنا أكثر، وقد شملتنى مرارة، وشعور عارم بالإهانة، فقد أخبرتنا مدرّسة اللغة العربية أن زميلتنا ماتت بعد أن صدمتها سيارة مسرعة عند الفجر قرب بيتها. إذن فلقد كانت خارج بيتها حتى الفجر، أى فتاة تلك؟ وأى بيت هذا الذى يسمح لابنته أن تظل بعيدة عنه حتى ذلك الوقت وهى ـ مثلنا ـ لم تبلغ الرابعة عشر من عمرها بعد؟

أخذتنا الدهشة وصُدمنا جميعًا، صدمتى ودهشتى كانت أعظم من دهشة الجميع، وزاد حنقى عليها رغم موتها، فهى لم تكن بحاجة إلى ربع الجنيه، واحدة مثلها ماشية على حل شعرها لا يمكن أن تكون بحاجة إلى مثل ذلك المبلغ التافه من النقود، ثم إنها كذبت علىّ وادعت أنها ستقدم شيئًا لزوجة أبيها، وتمنيّت أن تُبعث حيّة من جديد لأريها كيف تكون عاقبة كذبها وخداعها لى: تلك الفاجرة، اللصة، وكم أنا حمقاء، ضعيفة وقد صدقت روايتها عن زوجة الأب، وبقيت أراهن على أنها ستعيد لى نقودى ذات يوم، عندما تسنح لها الظروف كما قالت لى.

لكن عندما عدت إلى منزلى بعد نهاية اليوم الدراسى، وأثناء تناول طعام الغداء مع أسرتى، قال أبى موجهًا الكلام لى دون الجميع:

ـ مسكينة زميلتك. صدمها لورى بمقطورة فى الشارع.

رفعت رأسى عن طبقى بدهشة، وازدردت ما بفمى من أرز بالملوخية وقلت بسرعة:

ـ غريبة. انت عرفت بالموضوع؟!

ـ آه. قال. ثم أضاف: مكتوب فى الأهرام.

تركت الطعام، جريت إلى الجريدة، قلبتها بسرعة حتى وجدت صفحة الحوادث، راحت عيناى تجولان على العناوين: «مصرع طفل سقط فى بالوعة»، «يطعن زميله بمطواة بسبب حب فتاة»، «يختلسان ألف جنيه من خزينة شركة»، و.. «مصرع فتاة صدمها لورى»، وتحت الخبر:

«بعد أن انتهت من مذاكرة دورسها مثلما اعتادت أن تفعل كل ليلة تحت عمود النور على الرصيف المواجه لبيتها، وبينما هى عائدة قبيل الفجر، صدمت سيارة لورى بمقطورة التلميذة... بمدرسة... (١٤ سنة)، وقد قال أخو الفتاة التلميذة أثناء التحقيق إن أباه وزوجته كانا ينهيان الفتاة عن السهر وإضاءة الكهرباء فى البيت، والجدير بالذكر أن والدها يعمل خفيرًا فى عمارة تحت الإنشاء ويقيم فيها مع أسرته و...».

منذ أن انتهيت من قراءة الخبر، بقيت أشعر بالخجل والندم والحزن على ذات الهالات السوداء أسفل العينين، حتى هذه اللحظات وربما طوال ما تبقى من عمرى.

كنا مضطرين للتوقف والانتظار إذ باغتتنا إشارة المرور بعينها الكبيرة الحمراء وراحت تدق بعنف، وهكذا تحققت من ضخامة الجنازة عن كثب بعدما تقاطر المشيعون عن المزلقان، وبدا واضحًا مدى التزاحم فى ذلك الحيز المحدود من سكة القطار.

كان حملة سلال الورد الكبيرة، والموشحة بشرائط بنفسجية داكنة فى مقدمة الجميع، لذلك فقد توقفوا أولاً، ساندين سلاتهم إلى الأرض ليخففوا من عبء حملها قليلاً، أما النعش الجاثم بثقله على أعناق من خلفهم قد كان فاخرًا جدًا، وقد تسربل بغطاء من الأزرق الحريرى الذى راح يسكب لمعانًا بألوان رقاب الحمام المتدرجة المتداخلة تحت شمس صيفية فاضحة.

تنهدت، وكنت أتابع متلذذًا انكسارات النور وألاعيبه الفاتنة، فكرت فى كل الاحتشاد حولى، والذاكرة تواتينى من مخزونها القديم المهمل بمثل فرنسى عن شيئين لا يمكن إخفاءهما: زنى الفقير وجنازة الغنى، بعد قليل من الوقت، بدا الجمع متبرمًا لهذه الوقفة التى لم يحسب حسابها من قبل، أخذ البعض يتململ فى مطرحه، بينما انشغل آخرون بهمس سريع تخلله إشعال السجائر. بدا حملة النعش لى أكثر ضيقًا من غيرهم وهم يبدلون مراكز الاتكاء على أقدامهم، وينقلون صندوق الميت من كتف إلى أخرى.

رفعت بصرى عنهم، لألتفت إلى الواقف بجوارى، عندما زفر فجأة، وقد أخذ صرير عجلات القطار الحديدية، يتمدد ويزحف إلى الآذان، بطيئًا رتيبًا ثقيلاً، ثم قال لى بنفاذ صبر وقلق: ياه... بضاعة.

هـززت رأسى مؤمّنًا على مـا قـاله ولم أرد، إذ كنت قد بدأت أفكر فى عبثية موقفى خـلال هذه اللحظات، فما معنى مشاركتى فى جنازة رجل لا أحمل له أى شعور غيـر الكراهية؟ لقد جئت للمشاركة فى هذا المشهد مدفوعًا بما يمليه الواجب، وتفرضه الأصول، وحتى لا يأكل أحد وجهى ـ مثلما كان ينصحنى أبى دائمًا ـ ولكن أى واجب هذا؟، وأية أصول تلك التى تجبرنى على السير فى جنازة تدل بالإجماع، ولص لا يختلف عليه اثنان فى المؤسسة الشعبية للطباعة؟ لماذا أقف هنـا الآن مع الواقفين لأشيّع «عرفى حلاوة» ذاك الذى لا ذمة له ولا ضمير، الـذى بـاع المؤسسـة الـشعبيـة/ مؤسسـة بـأرخص الأثمـان وألقى بها فى نـار الخصخصة، بعد أن صـال وجال، وسمسر وقبض، بصفته رئيسًا لمجلس إدارتها، وأكبر رأس من الرؤوس المتحكمة فيها؟

أدرك تمامًا أن جُل الحشد الرهيب من العمال وموظفى المؤسسة يكرهونه مثلى تمامًا، بل إن بعضهم كان مستعدًا ـ لو واتته الفرصة ـ لقتله أو خنقه بيديه ليقتص منه قبل أن يموت موتة ربه، فكل واحد منهم ذاق ولابد سطوة عرفى حلاوة المرة، وهيمنته وتحكمه فى رقاب العباد. أما أنا فأمقته، ليس فقط بسبب مفاسده المهنية وجرائمه فى المؤسسة، ولكن مقتى له خاص جدًا، فهو المسؤول المباشر عن نقلى من قطاع الصيانة إلى قسم العلاقات العامة، بالأحرى هو من قتلنى بالحياة، وبجرة من قلمه الأسود البغيض، فأنا مهندس ميكانيكى ناجح، هوايتى الحقيقية فى الدنيا هى فك وتركيب الآلات، وقد كنت طوال فترة عملى فى قسم الصيانة قادرًا على إصلاح أصعب الآلات وأعقدها، كنت ألهو بها كما يلهو طفل بلعبته، لكن «عرفى حلاوة» أبعدنى عن عالمى الأثير، ووضعنى على الرف بعيدًا عن قسم العلاقات العامة كعبوةٍ معافة من الجبن الفاسد فى محل للبقالة، لأنه فى الحقيقة لم يكن راغبًا فى إصلاح أية ماكنية، حتى يبيض ويصفر، ويبيع الآلات الممكن تشغيلها وإصلاحها على سبيل الخردة، ويكسب من وراء ذلك ذهبًا. لكن ماذا حملت معك إلى الآخرة من كل ذلك يا عرفى حلاوة؟ ماذا حملت معك من كل الأموال التى سرقتها، وأكلتها بالحرام؟، أنت لم تجر معك ـ وإلى الأبد ـ أى شىء من كل هذا، غير المقت والبغض والكراهية، وهذا

هو كل ما تبقى منك الآن وحتى النهاية، فلسوف تزول وتتبدد وتتحول إلى حفنة من الرماد، بعد أن تنتفى جثتك السمينة المترهلة، التى طالما طالعناها تحمل سحنتك الكريهة وهى تطل علينا فى المؤسسة كل يوم.

تنهدت بأسى، ورحت أشاغل روحى المرورة بالنظر إلى طليعة الجنازة الواقفة تنتظر مرور القطار، مثلما ننتظر نحن الواقفون قرب المؤخرة. كان الرجال ذوى بزات داكنة أنيقة ووجوه مفعمة بالحيوية، تبدو عليها دلائل الخيرات والنعيم. جلت ببصرى على الذين أنا بينهم، كانت ملابسهم متواضعة جرى ارتداؤها كيفما اتفق، وبدت لى ملامحهم متشابهة إلى حد بعيد. اكتشفت أن بعضهم منشغل بالتفرس فى نساء المقدمة، نقلت ناظرى إلى حيث يتطلعون. ميزت زوجة المتوفى بين جماعة النسوة المتكومة إلى أقصى اليمين، بدت لى على البعد أكبر فى العمر قليلاً وهى متشحة بالسواد. فكرت أن المتطلعين إليها مثلى، ربما كانوا يفكرون فيها خلال هذه اللحظات كواحدة من الامتيازات الأساسية التى يحصلها المرء عندما يكون رئيسًا لمجلس إدارة مؤسسة كبرى كمؤسسة الطباعة الشعبية، ولكن أين هى منه الآن؟ وأين هو من أى امتياز دنيوى آخر، طالما نهل منه، وتمتع به ذات يوم؟

فكرت: إن الموت يشابه هذا القطار العابر الآن، فهو عندما يجىء ويعبر، لا يملك الإنسان إلا التوقف والامتثال له. إنه هو وحده، لا الحياة، القادر على تحديد القيمة الحقيقة للبشر.

بدأت القاطرة تسرد عرباتها أمامنا سردًا طويلاً مملاً، تنحنح البعض وحاول آخرون سعالاً مفتعلاً يائسًا، ربما كنوع من الاحتجاج الفاشل على جبروت القطار، أما أنا فبدأ ضيقى بمصنع الغاز الطبيعى الواقف إلى جوارى يزداد بعد أن طالت فترة التشغيل - إطلاق النواتج - حاولت الابتعاد عنه قليلاً وأنا أقول لنفسى آه لو لو يكف العمال عن تناول الفول وكميات البصل الرهيبة فى الصباح؟.

أخذت أتحسس أنفى وأتنهد محوقلاً، وكنت قد فكرت فى الانسحاب من المكان كله إلى الخلف، لكنه كان مكتظًا على نحو لا يمكن تصوره.

شعرت بعطش وجفاف فى الحلق، وقلت لروحى: حتى جنازتك يا عُرفى حلاوة ثقيلة على القلب كما السم، إلى آخر لحظة فى الدنيا وأنت مصر على مضايقتنا وقرفنا، أكان يجب أن تزهق روحك وتموت فى هذا اليوم الحار من أغسطس الخانق الرطب؟ أكان لا بد أن نسير وراءك بكل هذا العرق اللزج المنساب منا، تحت آتون الشمس وقد ترصدنا من عليائه وراح يشوى أدمغتنا وأقفيتنا؟.

حاولت مواساة نفسى، فقلت: اشغل روحك يا ولد بأى شىء، دقائق ويعبر القطار إلى حال سبيله، ونصل بعدها إلى الجامع فنصلى على الميت ونذهب لحال سبيلنا نحن أيضًا.

بدأت فى عد عربات القطار، مراقبًا حركة انسياب العجلات على الشريط الحديدية، لكن سرعان ما انقطع استغراقى، إذ برزت من جانب الطريق جنازة أخرى بدأت تتقدم فى إتجاه جنازتنا عند المزلقان، وكان من الواضح أن مقصدها هو مقصد جنازتنا ذاته، الجامع القريب فى الضفة الأخرى من مجرى القطار، حيث الصلاة على الميت.. صلاة الشفاعة والرحمة، قبل الذهاب إلى مثواه الأزلى.

كان النعش القادم بسيطًا متواضعًا للغاية، فصندوق الميت من خشب قديم ردىء الصنع، لم يفلح اللحاف القطنى البالى المفرود عليه فى تغطيته تمامًا، وكان المشهد مشكّلاً من أناس قلائل يصعب التكهن بحقيقتهم، هل هم عمال حرفيون؟ أم باعة جائلون؟

خلف الرجال، سارت جماعة من النساء ينتحبن فى صخب وراء أولئك الحاملين للميت.

بدا المشهد كله أقرب إلى مهزلة تؤدى إلى خشبة مسرح منه إلى جنازة فعلية يسير فيها رجال ونساء حقيقيون، وربما وانتشى هذه الفكرة، من ذلك التعبير الذى طالعته مرسومًا على وجوه أعضاء جنازتنا، لما استداروا ليستجلوا حقيقة الأمر، إذ كانت وجوههم تفصح عن تساؤل استيائى استنكارى، وكأن القادمين بجنازتهم المدهشة، قد استباحوا حرمة لهم أو غصبوا منهم امتيازًا مقصورًا عليهم فقط.

همس صاحب مصنع الغاز الطبيعى قائلاً لى: يظهر لى أنهم جماعة من المقطوعين، لا إله إلا الله يا أخى.

غمغمت زافرًا، وأنا أومئ برأسى وقلت: آه. ورحت أنظر إلى المقطوعين أولئك.

كانوا بدورهم يتأملون موكبنا بكثير من الدهشة والانبهار، حتى أن النسوة توقفن عن الصراخ والنشيج، وأرسلن أبصارهن ناحيتنا بتعجب. كانت نظراتهن الدهشة، المُستغربة تشى بتساؤل آخر عن موتهم، وموتنا الذى فاجأهم من حيث لا يدرون.

ظل القطار يتهادى على قضبانه بكامل راحته،، وئيدًا، داهسًا الوقت/ وقتنا باستبداد يغيظ، وبعد الصناديق البنية الحديدية الضخمة التى عبرت فى البداية، جاء دور الدبابات والعربات المصفحة، والمدافع المحمولة على عجلات.

ظل الناس يوزعون اهتمامهم على القطار حينًا، وعلى بعضهم حينًا آخر، وكان هناك ما يشبه الشعور بالإثارة الخفية المشوبة بالتحدى، يرتسم على الوجوه الآن، وجدتنى أسائل نفسى وأبتسم: ترى، هل سنصلى على الميتين معًا، أم سينتظر اللاحقون السابقون؟ وأظن أن الواقف بجوارى، كان يفكر فى ذلك خلال تلك اللحظات أيضًا، فعندما التفت إليه، وجدته مطرقًا برأسه إلى الأرض، وقد غاب فى تفكير عميق.

فى هدوء، ولسبب ما، انسل واحد من المشيعين فى مؤخرة جنازتنا فجأة، ووقف بين ناس الجنازة الأخرى فى صمت ملتحقًا بها بدا لى سلوكه، وإن جاء تلقائيًا ـ غامضًا بعض الشىء، قلت لنفسى: تعاطف، شفقة، أو رَبما محاولة يائسة لكسر الملل، حتى يعبر قطار الحرب الطويل. رجحت أخيرًا أن قرب موقعه من الجنازة الأخرى، هو الدافع وراء مسلكه هذا. على أية حال، لم يبد أحد من أصحاب الجنازة الصغرى أى رد فعل حيال وجود الرجل بينهم على هذا النحو المفاجئ، بل وبدا هو نفسه بملبسه وشكله، والتعبير الغاضب الصارم المرتسم على وجهه وكأنه واحد منهم، جاء منذ البداية معهم، وما زال ينتظر عبور القطار.

لم تمر لحظات قليلة أخرى، إلا وكان رجل آخر قد انشق عن جنازتنا والتحق بزميله السابق. وهكذا بدأت مؤخرة جنازتنا تشهد تسربًا خفيًا، سرعان ما تحول إلى هروب جماعى ملموس، بدا لى أشبه بلعبة قديمة كنا نلعبها أيام المدرسة، فعندما كانوا يحشدوننا فى الفناء الواسع، بمناسبة ما من المناسبات الحكومية، ويبدأون فى إلقاء الخطب السياسية الدعائية المملة علينا، كنا نسلى أنفسنا نحن الواقفين فى مؤخرات الطوابير، فننتقل من طابور إلى آخر، بينما الخطباء سادرون فى خطبهم ومواعظهم السقيمة وكان الأمر يتمخض فى النهاية عن طابور طويل واحد فى جانب من الفناء، يصيب الجالس على المنصة بالارتباك والضيق، ويدفع مشرفى النظام العام فى المدرسة إلى نهرنا، وتهديدنا بالضرب حتى نرعوى، ونعود إلى طوابيرنا الأولى مرة أخرى.

تذكرت ذلك وأنا أرقب الثغرات التى تنفتح وتكبر وتتسع فى مؤخرة جنازتنا لتملأ فراغ الجنازة الأخرى، حتى أن مصنع الغاز تركنى فجأة وحيدًا، وظهر بالقرب من النائحات فى الجنازة الأخرى، والتى ما عادت صغرى الآن.

شعرت بدرجة من القلق والتوتر، إذ بدا لى الفراغ حولى، أشبه بهوّة انزلقت فى داخلها رغمًا عنى، ووجدتنى أدخل خيمة من الغربة الغامضة، وقد إعترانى ذلك الشعور الموحش بالضياع الذى يلتهمنى عادة فى كوابيس ليلية تعاودنى بين الحين والحين، فأرى نفسى فيما يرى النائم وقد سرت وسط زحام الناس فى الطريق، عاريًا، حافيًا، بلا هدوم تغطينى وتستر عورتى، أو نعل انتلعه كما الآخرين.

حاولت الاقتراب بنفسى، لأنضم لأهل المقدمة فى جنازتنا، لكنى لم أستطع، شىء ما كان يباعد بينى وبينهم، بالأحرى خفت أن أقترب منهم، إذ ظننت أننى لابد سأكون بشكلى وملبسى بينهم، كدجاجة بلدية، اندست داخل مجموعة من الطواويس وقفت حائرًا أتلفت حولى فى يأس، اصطدمت عيناى بعيون الآخرين الذين غادرونى إلى الجنازة الأخرى، فشعرت أن نظراتهم تشجّعنى، تحفّزنى، تستحثّنى، ووجدتنى أرتبك قليلاً، بينما ازدرد ريقى الجاف، لكنى فى النهاية وجدت قدمىّ تتحركان ببطء نحوهم.

ضغط عبد الغنى بقدمه اليمنى على العروة الحديدية لباب دكانه الحصير بعد أن نزع القفل، وبينما الباب يندفع إلى أعلى إذ بمواء حاد يخترق أذنيه، (ويخترق هنا دقيقة تمامًا) لأن «المياو» الأخيرة من ذلك المواء، كانت حادة، وحشية، مخشوشنة، نافذة الصبر، ومتضرعة فى آن معًا، ترك عبدالغنى الباب، ورفع بصره إلى مصدر المواء حيث تسامقت الشجرة الخريفية العارية، وقد قبعت عند آخر فروعها العالية قطة صغيرة دفع مرآها بعبد الغنى لأن يرفع حاجبيه الكثيفين المبيضين بالمشيب إلى أعلى ويقول:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. كِيف؟... كِيف؟... كِيف طلعت لحدّ هناك؟

ظل يردد لنفسه: «كِيف» بلهجته الصعيدية مندهشًا وكأن القطة تسلقت برج القاهرة وليس فروع شجرة بونسيانا عجوز داهمها الخريف وعرّاها حتى آخر ورقة فيها.

راح يحبك التلفيحة الصوفيّة حول رقبته، وإذ بمواء آخر يتصاعد عند قدميه. ذهب ببصره إلى المواء الطالع من الأرض هذه المرة وسرعان ما خاطب صاحبته قائلاً:

ـ بسبوسة. الله هى قطتك أنت؟ بنتك؟! طيب. طيّب. ولا يكون عندك فكر.

تمسّحت القطّة بقدميه قليلاً، ثم لعقت فراءها بلسانها لعقات سريعة عصبية، بينما اندفع عبدالغنى إلى داخل الدكان بعد أن أكمل رفع الباب. عاد بعد قليل حاملاً معه مكنسته القش ذات اليد العصوية الطويلة، وراح يثبتها بين فروع

شجرة البونسيانا التى تقف وحيدة فى حديقة الشارع الجرداء. دفع العصا إلى أعلى قدر استطاعته، حتى تتمكن القطة من اتخاذها معبراً للهبوط عليه إلى أسفل وراح يحثها على النزول وقد قبعت أعلى الشجرة تراقب ما يفعله بتوجس وخوف:

ـ يا الله. انزلى وبطلى نونوه وروحى عند أمّك فى الدكان.

لم تعر القطة الصغيرة انتباهًا لما قاله عبدالغنى ويبدو أنها لم تثمّن جيدًا جهوده النبيلة الصادقة المبذولة لإنقاذها فواصلت المواء بوحشية، مما أضفى على مشهد الشجرة العارية نوعًا من الغرابة، وقد تبدّت من بين فروعها الجرداء قطة رمادية مجذعة بخطوط رصاصية، ومكتسة من قش الأرز بعصا طويلة.

كانت فى الحقيقة شجرة تليق بلوحة من تلك اللوحات الفنية التى باتت منتشرة فى قاعات العرض بالمدينة والتى يطلقون عليها ما بعد الحداثة، أو عمل مركب، يحظى عادة بأرفع الجوائز وينال أعلى درجات التقدير. وقف عبدالغنى فى مكانه حائراً مرة أخرى، وبدا وكأنه يحمل مسؤولية أخلاقية ليس تجاه قطة الفروع العارية فقط، بل وتجاه أمها الحائرة التى عادت تفترش الأرض أسفل الشجرة، وكأنها تراقب ما سيؤول إليه مصير صغيرتها. خاطبها الرجل هذه المرة قائلاً:

ـ يظهر بايته من امبارح فوق. طيب وأنا عمّال أقفل الدكان آخر اليوم، قلت لك: كلكم جوه. أنتِ وعيالك كلهم. طيب كيف؟!... كيف طلعت من الدكان؟!

أجابت القطة عبدالغنى بإغماض جفونها إغماضات سريعة متلاحقة، وماءت مواءً قصيرًا مقتضبًا ثم عدلت من جلستها فوقفت على قوائمها وركّزت اهتمامها على جرادة صغيرة راحت تنط على الأرض، رغم أن مواء ابنتها ظل متواصلاً فوق الشجرة وكأنه صادر عن شريط جرى تسجيله من قبل.

فُتح فجأة شباك فى الطابق العلوى فى العمارة التى بأسفلها دكان عبدالغنى، وأطل منه شاب مشعّث الشعر ما زالت على وجهه آثار نوم بادية، وصرخ:

- عندى رحلة بعد ثلاث ساعات يا عم عبدالغنى وعاوز أنام. شوف حلّ للقطة، كل الليل وهى نازلة نونوة! دلقت عليها مياه ومع ذلك بقيت فى مكانها! شوف لها حل. الله يخليك. نفسى أنام ولو ساعة واحدة قبل السفر.

رفع عبدالغنى رأسه ناظرًا إلى الشاب وابتسم قائلاً:

- صباح الفلّ يا أنور باشا.. أنا حطّيت لها المقشّة وهى إنشاء الله تنزل عليها. نام ولا تخلى عندك فكر، لكن قبل ما تروح المطار مُر علىّ. عاوزك ضرورى.

فرك الشاب عينيه قليلاً، وحرّك أصابعه وكأنه يعدّ نقودًا، فواصل عبدالغنى الكلام:

طيب. إنشاء الله جاهزة. وعاوز من نوع أخر مرة أربعة لو قدرت.

رد الشاب بضيق:

- طيب، لما أنزل لك نتفاهم. لكن والنبى يا عم عبدالغنى خلصنا من لمّة القطط عندك. يكفى واحدة، لأنهم عاملين مشاكل جامدة وإزعاج شديد. طول الليل:

وهم نازلين نونوة وخناقات.

كان الحوار الدائر من أعلى لأسفل ومن أسفل لأعلى قد اجتذب آخرين، وبدا أنه مفتتح ندوة صباحية مبكرة، إذ خرجت الحاجة فتحية إلى شرفتها المواجهة لشرفته الذى لم يعرف النوم طوال الليل، وقالت

- يا حبّة عينى. كل الليل وأنا سامعة نونوتها، أصلها صغيرة خالص.

رد الشاب بسرعة:

- الغريب أنها طلعت الشجرة، والشجرة ولا عصفورة فوقها. حاجة تجنن!

ابتسمت الحاجّة بخبث وردّت:

- أصل أمشير موسم عُشار القطط يا أستاذ أنور، والقطط كلها جارية وراء بعضها. لكن يا ترى هل عندك رحلة بكرة إنشاء الله؟

ـ لا. عندى رحلة بعد ثلاث ساعات، وأمنيتى أنام ولو حتى ساعة واحدة.

ـ بالسلامة إنشاء الله. الطيران على السعودية كما هى العادة يعنى؟

ـ لا. دبى.

ـ آه. دبى. أصلى كنت قاصدة ترمى لى جواب من المطار لفتفت بنتى بخصوص شقتها القديمة، لأن جارها الفوقانى سافر وساب حنفية المياه شغالة والسقف خرّ عليها.. يالله. بلا جواب بلا كتابة... أنزل وأعمل لها تليفون من السنترال العمومى.

توسل الذاهب إلى دبى:

ـ طيب والنبى يا عم عبدالغنى شوف صرفة فى حكاية القطّة. لازم أنام فعلاً. حاسس أنى منهار.

ـ طيب. طيب. لكن حسنية قاطعته لتطرح حلاً حازمًا:

ـ لا. اطلبوا المطافى وهى تنزّل القطة من على الشجرة أحسن شىء.

ـ آه المطافى.

رد عبدالغنى، بينما سكتت القطة قليلاً، ربما لأنها تعبت من المواء، أو لأنها اقتنعت بأن المطافى هى الحلّ. حرّك صاحب الدكان قدميه العجوزين فى خطوات بطيئة تجاه باب الدكان، وتوارى المرتحل بعد ساعة فى السماء، خلف الشباك الذى أغلقه بعنف، لا يقل عن ذالك الذى كان قد فتحه به، أما الحاجة حسنية، فربما لأنها أرملة عاقر، ولأنها كانت طابخة وكانسة ومطبقة الغسيل ولا يوجد وراءها أى عمل تعمله فى المنزل، فضلت البقاء فى الشرفة لتراقب سير الأحداث عن كثب.

خرج عبدالغنى بعد غيبة قصيرة بدكّانه، وراح يعدل من وضع المقشّة على الشجرة، فدفعها إلى فروع أعلى كانت أقصى ما طالته يداه، وعندما تيقنت الحاجة حسنية من أنه أحسن تثبيتها بين فرعين ولن تقع صاحت من شرفتها:

ـ هه. طلبت المطافى يا عبدالغنى؟

ردّ الرجل بضيق:

ـ لا. دوّرت على النوتة الكبيرة المكتوب فيها نمرة المطافى، لكن حسين ابنى خبّاها، وحسين رجوعه من الشغل الساعة أربعة.

ـ طيب أطلب ١٤٠ يعطوك نمرة المطافى.

ـ طيب. هى شغلانتى ووقف حال على الصبح!

قال، ثم اندفع إلى دكانه، وعاد منه بعد قليل، وكانت الحاجّة حسنية ما زالت متمرسة فى موقعها بالشرفة حتى لا تفوتها أية تفصيلة من الأحداث، وكذلك ظلت القطة على حالها والتى على ما يبدو اعتبرت المقشة حادثًا عرضيًا جرى للشجرة، وبدت وكأنها استعوقت المطافئ فبدأت فاصلاً من المواء البطىء الخفيف كحركة أولى فى سيمفونية كلاسيكية، سرعان ما تزايد شيئًا فشيئًا، أما القطة الأم فقد عادت من الدكان فى أعقاب عبدالغنى مثلما ذهبت من قبل معه، لكن هذه المرة جاءت ووراءها ثلاث قطيطات صغيرة، يؤكد فراؤها الرصاصى الداكن مع اختلافات طفيفة أنها خرجت من بطن الأم، حتى ولو كانت مجهولة الأب.

زعق عبدالغنى فى الحاجة حسنية وكأنها باتت طرفًا أصيلاً فى مشكلة قطة الشجرة:

ـ اتصلت بالمطافى فسألونى عن اسم الشارع، فلما قلته لهم، قالوا لا. بين الجناين تابع لحى الضاهر وقفلوا السكة.

ـ طيب. اتصل يا عم عبدالغنى بمطافى الضاهر.

ـ اتصلت فعلاً وقلت لهم إنى اتصلت بمطافى العباسية فى الأول، لكنهم قالوا لى إنهم لا يمكن أن يحضروا، لأن الشجرة كما وصفتها لهم واقعة فى الجنينة الوسطانية للشارع، والجنينة الوسطانية مسؤولة عن زرعها وشجرها وحنفية المياه فيها المحافظة ذات نفسها، ومطافى الضاهر اختصاصها، فى حالات الإنقاذ كانت حىّ الضاهر لا غير.

زفرت حسنية بغيظ وأعلنت لعبد الغنى عن غضبها من موقف مطافى العباسية ومطافى الضاهر، وباعتبارها كانت رئيسة قسم الشكاوى بهيئة البريد قبل أن تحال إلى المعاش، فقد أنعش الموقف الحسّ الوظيفى القديم بداخلها فصرّحت لعبد الغنى:

ـ والله كلهم عاوزين شكاوى، سأكتب شكوى بنفسى لرئيس مطافى الضاهر، وشكوى لرئيس مطافى العباسية، وسأرسل صورة منها لبريد القراء فى جريدة الأهرام. كلام فارغ واستهتار حقيقى!

ردّ عبدالغنى:

ـ المهم نحلّ مشكلة القطة وخلاص.

ـ طيّب انتظر.

قالت حسنية، ثم دخلت من الشرفة وأغلقتها، ولم تمر دقائق إلا وكانت واقفة أمام عبدالغنى فى الشارع، وقد تسربلت بعباءة سوداء طويلة، كانت زيّها الرسمى الذى اختارته منذ أن انضمت لواحدة من الطرق الصوفية الشهيرة. قالت لعبدالغنى أنها ستذهب إلى ابن زوج عمتها من زوجته الأولى، لأنه ضابط فى قسم الخليفة وأنها حاولت أن تتصل به تليفونيًا لتحل مشكلة القطة، لكن تليفون القسم مشغول باستمرار لأن الخليفة منطقة مشاكلها كثيرة، ثم أضافت بتأثر:

ـ والله كنت مفروض أروح اجتماع الطريقة بعد ساعة، لكن يا الله. لازم نخلص من مشكلة القطة فى الأول. أصلها عاملة خوتة فظيعة! تنحنحت قليلاً وأردفت:

ـ والنبى يا عمّ عبدالغنى، أنت لك دلال على الأستاذ أنور، وصّه يجيب لى من الطيارة أو السوق الحرّة علبة سيجار عاوزة أقدمها لواحد عمل لى خدمة جامدة وطلب منى السيجار. أرجوك قل له يا عم عبدالغنى مهما كان سعرها.

ـ صعب. صعب قوى يجيب أى شىء من المطار،، لأنهم مشددين التفتيش على المضيفين جامد، بعد حادثة المضيف المُهرّب للآثار، الحقيقة أنى طالب من أنور

كم شىء أحطّهم مع البضاعة فى المحل وهو رافض، أصله مرعوب، والمسألة لا يمكن أن يلومه عليها أى إنسان لأنها أكل عيشه فى النهاية.

ـ يا سلام. شوف!

قالت مستنكرة وكأنها لم تقتنع بما قاله الرجل لها، فاستأنفت محاولتها معه:

ـ طيب خلّه يحاول والنبى يا عبدالغنى، والفلوس جاهزة. فى الحين. معى خمسة وعشرين دولارًا أعطيهم له، ويرجع الباقى لما يجيب العلبة.

ـ والله يا مؤمنة صعب... صعب... و.

توقّف عبدالغنى فجأة، إذ ماءت القطة الأم مواءً عاليًا، اضطره لأن يدير رأسه إليها وسرعان ما نظر إلى ما كانت تشرئب برأسها إليه، ليجد قطة الشجرة الصغيرة آخذة فى الهبوط رويدًا رويدًا على المقشة وبقفزة واحدة رشيقة كانت تستقر على الأرض.

عندما يقيّل هو، لابد أن يكون البيت فى منتهى السكوت هسّ. هسّ. الأولاد يتحركون على أطراف أصابعهم وكأنهم راقصو باليه، وحسنيّة الشغالة تكفّ عن أغنيات المطربة شادية التى تفضلها وتظن أنها تؤديها أفضل منها، أما أنا فأتحرك بين غرف المنزل وكأننى الهدهد فى حضرة الملك سليمان، لذلك ما أن فتح باب غرفة النوم فجأة وسمعناه يصيح وقد هبّ من مرقده، هرعنا إليه جميعًا وسألته بلهفة:

- خير... خير... مالك؟

- هل معقول؟! البلوة عمالة تطن جنب دماغى من ساعة، وكلما حاولت النوم تقلقنى! ألم أقل لكم كلكم إياكم وترك الشبابيك مفتوحة!

ساءلت بدورى حسنية الشغالة:

- نشرت الغسيل، ودخّلت الطير... مبسوطة؟!

صحيح ابنى الصغير الذى جاء من حجرته مسرعًا:

- طير؟! ها ها ها. اسمه ذباب... ذباب باللغة العربية، الطيور مختلفة عن الحشرات يا ماما.

- اخرس! قلت له، ثم لزوجى:

- أصل الشارع وسخ. كل البلاوى طالعة علينا من الشارع. فى النهار طير، وفى الليل ناموس.

ردّ بسرعة:

ـ الحكومة شاطرة تلمّ الفلوس والسلام. فالحة تخصم ضرائب من المنبع، تلمّ بالملايين والله وحده يعلم ما يفعلونه بكل هذه الفلوس، أولاد الذين، الشوارع وسخة والطرق مكسرة منهم لله.

علّق ابنى بسرعة:

ـ أولاد الذين! شتيمة جديدة أول مرة أسمعها!

كنت على وشك نهره لكن حسنيّة أوقفتنى قائلة:

ـ طيب لو حضرتك يا أستاذ منصور خطفت رجلك عندنا كنت شفت العجب. المجارى ضاربة من عام أول، وغلبنا نقول للمصلحة وهم ولا هنا، وعملنا يمكن خمسين شكوى ولا جابت نتيجة. على قولتك أولاد الذين ولا سائلين فى الناس.

دافعت عن الحكومة لأول مرة فى حياتى فقلت:

ـ المشكلة فى الناس قبل الحكومة. لأن الحكومة هى الناس، يعنى المسؤول الوسخ هو عيِّل وسخ وأمه لم تعوده على النظافة. طيب شوف يا منصور عبدالغنى الخضرى ودكانه تحتنا، قشر الخضار مرمى هنا وهناك، وعيدان وعروق البقدونس والجرجير مدهوسة بالأرض. يعنى لو لمّ البواقى والفضلات الطالعة من الدكان كل يوم فى كيس زبالة يحصل شىء!؟

كان زوجى قد عاد وجلس على السرير، ورأيت الذبابة خلف ظهره مباشرة، فهتفت:

ـ اجرى يا حسنيّة وهاتى فتّالة الطير بسرعة.

جرت حسنيّة إلى الطبخ. غابت دقائق فناديت عليها:

ـ بسرعة يا حسنيّة. محطوطة عندك فوق دولاب الغسيل.

ـ لا. دورت عليها ولا حاجة محطوطة فوق الدولاب.

ـ طيب شوفيها عند حسام فى مكتبه. من يومين كانت معه وشفته وهو عمال يقتل بها نملة فارسى.

هتف حسام:

- النمل الفارسى سمُّوه فارسى لأنه كبير؟

- آه. قلت.

- هم الفرس كبار؟

- بطّل غَلبه!

قلت لأسكته وأنا أتابع بنظرى حركة الذبابة التى بدأت تحلّق بالقرب من السقف وزعقت:

- هاتى يا فريدة المكروسول نرشها رشّة وخلاص.

رسم زوجى بحاجبيه علامتى استنكار وصرخ:

- مبيدات؟! ألم أقل لكم ألف مرة أنها مضرة بالصّحة؟! لا... وجودها وقرفها أحسن من المبيدات، ما رأيك؟

كانت ابنتى قد حضرت من المدرسة، وبينما هى تفك أزرار قميصها الذى ثبتت عليه شارة صغيرة على هيئة علم فلسطين صرخت بغضب:

- هل اشتريت مكروسول؟! ألا تعرفى أنه شركة أمريكانى.. مقاطعة يعنى؟!

قلت بخجل:

- لم أكن أعرف أنه مقاطعة. آخر مرة أدخله البيت.

- لكنى أعطيتك قائمة بأسماء شركات المقاطعة... ألم تقرأيها؟!

- حطيتها والنبى يا منى فوق غسّالة الهدوم ويظهر حسنيّة ظنّت أنها ورقة لا لزوم لها ورمتها.

زفر زوجى بضيق:

- طيب خلّصونى... خلصونى لأنى لازم أنزل بعد ساعة إلا ربع وأروح مكتب المحاسبة. شغل الصبح، وشغل بعد الظهر... أنا زهقت والمصيبة أن لا شىء ينفع!.. يعنى كان لازم دورس خصوصية فى سبعة مواد يا منى؟!

انهارت منى واحمر وجهها بالغضب:

- انت عارف أنها ثانوية عامة... ثانوية عامة يعنى ثانوية عامة. أنا مضطرة للدروس والكلّ عارف.

رحت أنهى المسألة بحسم:

- كل مرة نتكلم فى مسألة الدروس. خلاص بطّلوا الكلام فى الدروس والمصايف. روحى يا منى خلّى حسنيّة تحط لك الغداء.

لم تردّ حسنيّة إذ كانت قد خلعت طرحتها السوداء، وشنكلت الشيش الخشب وبدأت:

- بسم الله الرحمن الرحيم... هش... هش.

ظلت تطارد الذبابة هنا وهناك، بينما تحمس حسام بدوره فالتقط منشفة بسرعة وراح يشترك فى الحملة على الذبابة، وما أن نجحا فى طرد الذبابة من فرجة الشيش الضيقة إلى الخارج، حتى تنفست الصعداء وداخلنى هدوء.

ابتسمت حسنيّة ابتسامة المنتصر وقالت:

- أحسن طريقة للطير. هشّه وخلاص. نام يا أستاذ منصور. ولا طيرة فى البيت كله.

رد زوجى بغيظ:

- خلاص. طيّرتم النوم من عينى. روحى اعملى لى شوية شاى... خليه مضبوط.

وردت بسرعة:

- وأنا يا حسنيّة، وإياك تحطى لى السكّر.

لم أكن أشعر تجاهه بأى نوع من الارتياح أبدًا، فهو إلى جانب كونه شخصية غامضة، يبدو لى دومًا ثقيل الروح، سمجًا، تخاصمه البشاشة، ويلازمه التهجّم والعبوس، كلامه بالقطّارة وزفراته تسبق عباراته، ولم أسمعه إلا متشكّيًا متبرّمًا، يعمل من الحبّة قبّة، ومن الممكن مستحيلاً، وكانت ملامح وجهه قادرة على الجمود حتى فى أشد الحالات انفعالاً، وربما كان الشىء المتحرك الوحيد فى ذلك الوجه هو بؤبؤ عينه الصغيرة الوحيدة، فهو لا يكف عن الحركة فى كل اتجاه باحثًا عن شىء غامض لا يعثر عليه أبدًا، أما أنفه الطويل الضخم المتناقض مع حجم رأسه الصغير، فتستبين فتحتاه الواسعتان على نحو ملحوظ، رغم الجهد المبذول من شاربه الكثّ المستعار من شعر قفنذ، للزحف على هاتيك الفتحتين وغمرهما بسخاء واضح.

ولطالما اعتقدت، وربما يعود السبب فى ذلك إلى تكرار مشاهدتى لأفلام مصرية قديمة. أن «مظلوم» يصلح أن يكون قاطعًا من قطّاع الطرق أو مخبرًا سريًا فى البوليس، أو حفّارًا للقبور، أكثر مما يصلح للعمل كبوّاب فى عمارة صغيرة هادئة كالعمارة التى نقطن بها، وعلاوة على ذلك كله، فإن أكثر ما كان يضايقنى منه، هو ضيقه غير المفهوم والمبالغ فيه من أطفال العمارة، فهو دائم التحامل عليهم والشجار معهم، لا يكفّ عن الشكوى والتبرم من لعبهم عند المدخل، واتهامهم بأنهم يفسدون خلال ذلك النباتات المزروعة بالحديقة الصغيرة أمامها، وكان ينهرهم بقسوة لأنهم يلقون أغلفة حلواهم فى كل مكان موسّخين السلالم، وكان زعيقه لا ينقطع وهو يلعن الحلويات ومن اخترعها، رغم أننى رأيته

مرة يتلذذ بمصّ قطعة منها على هيئة مصّاصة كان قد قدمها له ابنى كريم، ربما على سبيل الرضا، ليتركه يلعب قليلاً عند مدخل العمارة.

لكن عند ذلك المساء الذى جاء فيه مظلوم يدق باب شقتنا، استريت به قليلاً، ومنذ اللحظة الأولى التى فتحت فيها الباب لأجده أمامى وقد خيّل إلىّ أنه يبتسم ابتسامة غامضة مغايرة لأحواله ولم أجد مبررًا لها، ثم سألنى:

ـ أنا طالع نواحى السوق، عاوزة حضرتك أية طلبات للعشاء، أو أية حاجة من هناك.

استريت أكثر، فهذا ما لم أتوقعه منه أيضًا، فلا سوابق له فى عرض خدماته دون طلب منا نحن سكان العمارة، وهو عادة ما يتذرّع يحجج وهمية عندما نطلب منه الذهاب إلى السوق الذى يبعد عن عمارتنا حوالى ثلاثة كيلو مترات تقريبًا، فهو تارة يتهيأ للصلاة، وتارة رجله دخل بها مسمار ولا يستطيع المشى عليها، لكنى ورغم استغرابى من التطورات المفاجئة فى تصرفات مظلوم المناقضة لسياقه وتاريخه معنا منذ أن عرفناه، اعتبرت أن ما حدث، حادث سارّ، وانتهزتها فرصة مواتية ليحضر لى شيئًا من السوق فقلت:

ـ آه يا مظلوم. هات لنا جبنة بيضاء دلعة، ورغيفين فينو، وثلاثة زبادى، وعلبة حلاوة طحينية.

نادت علىّ ابنتى من الداخل، وقد سمعت حوارنا، فأضافت وبسطرمة يا ماما. نفسى آكل بسطرمة ببيض مقلى.

ـ وربع بسطرمة من بقالة البركة. إياك أن تجيب من أى مكان غيرها يا مظلوم، البسطرمة الموجودة فى بقالة البركة ممتازة. قلت.

ـ حاضر.

ردّ، بلا مبالاة، ودون أن ينظر تجاهى وكأنه لا يسمعنى، بينما كان يستسرق النظر إلى ما وراء باب الشقة الموارب، كما اعتاد أن يفعل، فتركته وذهبت إلى الداخل لأحضر له الفلوس التى سوف يبتاع بها الطلبات، وعندما عدت ووضعتها

فى يده، شعرت بأنه يتململ قليلاً فى وقفته ويبتلع ريقه فى خجل، لم أفهم له مبرراً قبل أن يقول:

- يعنى لا مؤاخذة، هو الأستاذ كريم من كمّ يوم بطّل ينزل يلعب بلعبه تحت عند العمارة!

كنت على وشك النطق لأقول له:

- أصل يا مظلوم كاره لعب العيال فى مدخل العمارة وعمّال تتشاكل معهم بمناسبة ومن غير مناسبة، فقلت أقصر الشر ومنعت الولد من النزول، لكن كريم كان قد سبقنى فى الكلام، إذ وجدته يقف إلى جانى وقد جاء من الداخل بمجرد سماعه كلمات مظلوم وكأنه آلة تتحرك بالريموت كنترول وقال:

- آه.. والنبى عاوز أنزل ألعب قدّام العمارة.

فوجئت بمظلوم يؤيّده متحمساً.

والنبى يا مدام خلّه، ينزل يتهوّى ويلعب.. وماله لما يلعب ويفرفش!

تشككت فى الأمر وأنا أتأمل «مظلوم» بدهشة، فما هذا التغيير الغريب فى موقفه، قلت:

- لا الليل دخل، وأنت يا كريم لعبك كلّه مشاكل، أدخل تفرّج على التليفزيون. أقعد شُف أى فيلم كرتون.

ردّ مظلوم بصوت لا يخلو من ترج:

- والنبى يا مدام خلّه ينزل، هو لعبه هادى، وبدون مشاكل والدنيا أمان. الليل فى أوّله والشارع، الرجل فيه ماشية ما زالت.

لعب الفأر فى عبّى فعلاً، فما هذا الإصرار من مظلوم على نزول كريم، فكرى راح لبعيد، لأن «مظلوم» يعيش لوحده بلا زوجة أو أسرة فهو كالمقطوع من شجرة، ومن يوم استقرارنا فى هذا المكان، لم أرَ أى مخلوق يزوره فى غرفته الصغيرة القابعة أسفل بدروم العمارة، والآن حوادث الرجال والشبّان مع الأطفال والأحداث زادت، ولا يمرّ يوم إلا وتطالعنا الصحف بحوادث فظيعة من هذا النوع،

فالأخلاق فى تدهور والضمير يتراجع بسبب ضغوط الحياة وأزمات الشباب وعدم مقدرتهم على تلبية حاجاتهم الإنسانية المشروعة، همست لنفسى: ربنا يستر على عيالى وعيال غيرى، أما لمظلوم فقلت:

- لا كريم ممنوع ينزل.. الدنيا ليل.

صرخ كريم وبدأ تظاهرة احتجاجية مدعّمة بدموع وشعارات من النوع الذى يحبّذه دعاة حقوق الإنسان:

- هو أنا محروم من كل شىء هنا. حرام عليك يا ماما تحرمينى من اللعب. نفسى أنزل وأتهوى قدّام العمارة. أهئ أهئ. أهئ أهئ.

صرحت ابنتى من الداخل:

- بطّلوا وجع دماغ أرجوكم. عاوزه أركز فى المذاكرة.

زادت الضغوط ضد قرارى، فتراجعت قائلة:

- طيّب. انزل ربع ساعة، وتطلع بعدها فورًا.

- طيّب. أجاب كريم منتصرًا.

وردّ مظلوم بحماس:

- وهات لعبتك الجديدة معك يا أستاذ كريم.

تحمّس كريم:

- طبعًا. طبعًا. هل معقول أنزل من غيرها يا مظلوم؟.

نزلا سويًا بعد أن دخل كريم غرفته - أو الأستاذ كريم كما يناديه مظلوم - وعاد بلعبته وبينما كنت أغلق الباب وراءهما، رحت أفكّر بمظلوم فهو إنسان غريب جدًا، غامض ولا يمكن التكهّن بما يفكّر فيه أو بما يدور فى رأسه أبدًا. لقد ورثناه كبواب للعمارة عن صاحبها الذى جلبه فى الأصل ليعمل بالمياومة كفواعلى أجير، ثم استبقاه ليحرسها بعد ذلك، أذكر أننى رأيته لأول مرة، عندما جئنا إلى العمارة لنشترى الشقّة، بدا لى وقتها كائنًا خرافيًا بجلده المغبّر بتراب الإسمنت

الرمادى، وجلبابه المهترئ الذى يرتديه على اللحم تقريبًا اللهم إلا سروالاً داخليًا يستر عورته، دغم برودة الجو وعواصف أمشير، كان حافيًا لا يكف عن الطلوع والنزول على السقالات حاملاً شكاير الرمل والإسمنت وكأنه «أسانسير بشرى»، وقد قال صاحب العمارة لنا وقتها إنه جلب الرجل من بلدتهم فى الصعيد، وأنه حكاية فى حد ذاته:

- تصوروا أنه اشتغل فى مشروع السد العالى وشارك فى حفر بحيرة ناصر رغم أنه حارب فى حرب ١٩٧٣، وبعد ذلك سافر مرّة إلى ليبيا مشيًا مع مجموعة عمال صعايدة لأنه كان بودّه يشتغل هناك ولكن عساكر حرس الحدود أمسكوه وضربوه علقة ساخنة ورجّعوه مصر مرة ثانية بعد سين وجيم، بسبب عدم وجود بطاقة شخصية معه ها، ها، ها.

- إن «مظلوم» أصله من قرية فى حضن الجبل، وناسها من شدّة فقرهم تعودوا على صيد القطط وأكلها، وأنه من المستحيل أن يجد الإنسان قطّة ماشية فى شوارع هذه القرية. وعمومًا هو كأنه يعيش فى الجنّة هنا فى مصر. جبِتُه وقلت أكسب فيه الثواب، لأنه كان شغالاً عند الوالد فى البلد بلقمته، يشيل ويحط فى محل الأدوات الصحية الخاص بالوالد هناك. يعنى هو وصل من قريته لبلدنا فى الصعيد وهو محروم حتى من لقمة العيش ذاتها.

لم يمض وقت طويل إلا وسمعت صياح كريم من الشارع، فذهبت إلى الشرفة لأنظر منها وأستطلع الأمر، وإذا بكريم يصيح:

- خلاص. خلاص كفاية يا مظلوم. هات لعبتى، هل هى كانت لعبتك يعنى؟. سيبها خلاص!!

كان مظلوم ممسكًا بالريموت كنترول، ويحرّك السيّارة الجيب العسكرية الصغيرة التى أهداها لكريم أبوه بمناسبة بلوغه التاسعة من العمر. لقد بدا الرجل لى وأنا أطالعه من فوق وكأنه طفل مستحيل، له جثة ضخمة وشوارب بيضاء، لا ينفكّ عن تحريك السيارة مقهقهًا بمرح مجنون، بينما طفلى مستمر فى صراخه المغتاظ قائلاً:

- سيب يا مظلوم. خلاص. سيب الريموت كنترول وهات لعبتى.

ثم إنه هجم على السيارة المستجيبة لأوامر مظلوم، الذى لم يتوقف عن تحريكها حركات سريعة مجنونة لا يقل جنونها عن جنون ضحكاته ذاته، وقام الوالد بخطف الجيب من على الأرض بغتة لتستقر فى حضنه وقد تشبث بها بكلتى يديه.

- يعنى فيها شىء لو تركتها عندى يا كريم حبّة؟. طيّب العب انت حبّة، ثم أنا ألعب حبّة. كل واحد منا تكون عنده حبّة. أصلها حلوة قوى وأنا حبّيتها خالص.

رد كريم معاندًا:

- لا.. انت لعبت بها مدة طويلة. خلاص- طيب لأجل خاطرى. هات أحرّكها من عند الباب لحد أول الجنينة.

كانت العربة ما زالت فى مكمنها الآمن بحضن كريم، فقال بتعال:

- لا. لعبتى.

- طيب هاتها يا كريم وأنا أمسك لك القطة السوداء من فوق السور وأخليك تشيلها وتطبطب عليها.

تريث كريم قليلاً، وبدا وكأن العرض مُغر له، ويستحق الدراسة والتفكير، قبل أن يقول:

- طيب من عند المدخل لحدّ أول الجنينة بس. وافق مظلوم على شرط كريم بسرعة ورد:

- من عند المدخل لأول الجنينة بس يا عمّ كريم.

كان من عند المدخل لأول الجنينة، مسافة لا تزيد عن أمتار لا تتجاوز العشرة «بس»، لكن ما أن استقرّ الريموت كنترول فى يد مظلوم مرة أخرى حتى حرّك السيارة بسرعة بعيدًا حتى وصلت إلى حد سور العمارة المجاورة لعمارتنا حيث كانت تقف فوقه القطة السوداء متأهبة - فيما يبدو - ليس للإمساك بها كما وعد

مظلوم ولكن للهجوم على السيارة، باعتبارها هدفًا متحركًا لا يقاوم، صاح كريم غاضبًا وجرى باتجاه السيارة الخارقة لشروط الاتفاق ليوقفها بينما ترجّاه مظلوم:

- اتركنى يا كريم وحياة غلاوة والدك. أصلى عمرى ما لعبت بلعبة فى حياتى أبدًا.

لم يتوقف كريم عن إصراره، وكنت أرغب فى إعداد وجبة العشاء فقلت من فوق:

- اطلع يا كريم بسرعة، وأنت يا مظلوم رُح هات الطلبات وإياك تعوق.

رائعون. طيبون. غاضبون، أولئك الآلاف الذين كانوا هناك يعلنون رفضهم لمهزلة بربرية لا سابق لها يتابعون فصولها صباحًا ومساءً على شاشات التليفزيون بالصوت والصورة، وكانوا يتوشّحون بالحطّات ويرفعون أعلام الأرض المقدسة ويهتفون ضد سفالة طالت حتى كنيسة عتيقة كانت أرضها مهدًا للسيد المسيح منذ ما يزيد عن ألفى سنة.

كان سؤال ما العمل؟، يطل من أعين الجميع، البعض حاول الإجابة فاقترح برقيات احتجاج واعتصامات وحتى إضرابات عن الطعام لحدّ الموت، إضافة إلى ضرورة دعم مادّى لهؤلاء الصامدين المحاصرين على أرضهم، لكن الإجابة الأكثر عقلانية على السؤال من وجهة نظرى كانت مسألة المقاطة، المقاطعة الجذرية، الآن الآن وليس غدًا، فهذا هو الموقف الأكثر عملية وقابلية للاستمرار بعيدًا عن شلالات العواطف والانفعالات السريعة التى سرعان ما تفور وقتًا ثم تأخذ فى التلاشى شيئًا فشيئًا حتى تغيب. كانت عبارة «الآن، الآن، وليس غدًا» هى العبارة الأكثر رسوخًا برأسى من كل الكلمات التى قيلت، والأفكار التى تناثرت خلال ذلك الاجتماع الهائل، الذى حضره آلاف من الناس، فى تلك القاعة الفسيحة بمبنى نقابة من النقابات، والحقيقة أننى، خلال عودتى إلى البيت بعد ذلك كان شاغلى هو استعراض البضائع والسلع التى سوف أدفع كل من أعرفهم حولى لعدم شرائها والتعامل معها، سواء من المأكولات والملبوسات أو من السلع الأخرى كمساحيق الغسيل والمسلسلات والأفلام، وكل ما شابه ذلك وكنت أبتكر أساليب إقناع أتصوّر أنها فذّة وسريعة المفعول. وستجعل زوجى وأولادى وأولاد الجيران

وأهلهم وزملائى فى العمل، والبقّال والجزّار والخضرى والمكوجى يلبّون ندائى للمقاطعة فورًا، فيمتنعون عن شراء بعض أنواع الحلوى أو يكفّوا عن غسيل ملابسهم بهذا المسحوق أو ذاك.

كانت القائمة المطبوعة والمحددة لأسماء عشرات من السلع والمواد المتوجب على الجميع مقاطعتها، والتى وزّعت خلال هذا الاحتجاج الحاشد، هى معينى على مقاطعة عاجلة فورية، لذلك وبمجرد أن اقتربت من العمارة التى أسكن فيها رأيت عبدالغفّار البواب، والمكلّف بحراسة الأرض المجاورة لها أيضًا، جالسًا على كرسيّه المعتاد أمامها، يتأمل مثلما أراه دومًا أفق الإسمنت والطوب والممتدّ أمامه من عمارات تحت الإنشاء وأبنية لا يعلم إلا الله متى ينتهى بناؤها، وبمجرد أن رآنى هبّ عبدالغفار فى حركة أتوماتيكية معتادة ليحمل عنى ما أحمله من أشياء، ولكن بما أنى لم أكن أحمل إلا أفكارًا برأسى عن المقاطعة ولم أناوله ما بيدى، فقد اكتفى بتحيتى وإبراز جانب من فكه العلوى كشفت عنه ابتسامته الغامضة الساخرة التى لم أفهمها أبدًا، رددت تحيته وقلت له بسرعة:

- عبدالغفار، خلاص عاوزين كلنا نعمل مقاطعة.

لمّ عبد الغفار حاجبيه الكثيفين، وبريش بعينه قليلاً، وبدا وكأنه يحاول فك شفرة ما قبل أن يتساءل بدهشة:

- مقاطعة!

- آه مقاطعة البضاعة والحاجات الإسرائيلى والأمريكانى. قلت.

صمت قليلاً: قبل أن يردّ بهدوء:

- آه!

بدت «آه» غامضة على نحو ما بالنسبة لى، فأنا لا أعرف هل فهم كلامى فعلاً، أم أن الأمر التبس عليه، أو أنه يجارينى فى الكلام فقط، فعبد الغفّار متحفظ عادة ولا يفصح عما بداخله وهو يصرّ على فهمه للحياة كفلاح قدم المدينة للعمل هربًا من بؤس الحياة الريفية ويخشى التورط مع أمثالى من سكان

المدن، الذين يبدو كأنه لا يفهمهم أبدًا، لذلك حاولت إيضاح الأمر له على نحو أكثر تفصيلاً، فقلت:

- يعنى عاوزين نبطل شراء البضاعة الإسرائيلى والأمريكانى.

سقط حائط غربة بيننا إذ قال على الفور: - قطيعة تقطعهم يا أستاذة.

- لأن، أنت شايف بعينك، وكلّ يوم، فى التليفزيون أفعالهم ضد الفلسطينيين وجرائمهم ضد الأطفال و..

قاطعنى وكأنى نكأت لديه جرحًا قديمًا فقال:

- أفعال سوداء ومنيّلة يا أستاذة. تعرفى لما أتفرّج على التليفزيون وقلبى يتحسر، والعيال الصغار أما عينى مضروبة بالرصاص ومقتولة، يبقى نفسى أشيل طوبة وأخبط بها التليفزيون وعساكر إسرائيل، لكنى أمسك روحى، وأقول:: يعنى التليفزيون ينكسر يا عبدالغفار؟! الغرض أقول لك أنى أصير كالمجنون من الغيظ والله يا أستاذة.

كان ذلك كافيًا لأن أقول بدورى:

- أفضل شىء ومن غير كسر التليفزيون هو أنك تقاطع حاجاتهم وتمتنع عن شراء أى بضاعة منهم، لأن الفلوس المدفوعة فيها معناها أسلحة ورصاص يستخدم في قتل الناس والعيال. يعنى المشاريب الصاقعة على سبيل المثل نمتنع عنها كلنا . وبناقص.

- طيب تعرفى يا أستاذة أنه لم الحرّ يشتد ويبقى الإنسان ريقه ناشف، عمرى ما أبل ريقى بغير العرقسوس أو الكركديه، أصل قزايز الحاجة الساقعة كلها مرض.

- والشاي يا عبدالغفّار. منه أنواع مقاطعة.

- طيب، صلّى على النبى، من يوم ما وعيت على الدنيا وأنا لم أشرب غير شاى الحصان؛ أصله رخيص وعلى قدّ حالنا يعنى.

حرت وأنا أبحث عن شىء يقاطعه عبدالغفار. اضطررت لإخراج القائمة المطبوعة التى أحملها فى حقيبتى. فتحتها بسرعة ورحت أستعرض ما ورد بها:

أصناف من الحلوى واللبان، أسماء أجنبية لأنواع مختلفة من الشيكولاتة، مأكولات معلبة، لم أجرؤ على مطالبة عبد الغفار بمقاطعتها لأنه، ولابد، لم يسمع عنها ولن يسمع عنها طيلة حياته، كنت على وشك مطالبته بالامتناع عن شراء أنواع من الأقمشة والملابس الأمريكية قرأتها وقد دوّنت فى القائمة، لكنى تراجعت فوراً، إذ كانت الجلابية البوبلين المصنوعة من القطن المصرى والطاقيّة الشبيكة على رأسه، واللتين لم أره بغيرهما أبداً كفيلتان بإسكاتى، لكن كانت أمامى مساحيق الغسيل فقلت:

ـ مساحيق الصابون فيها مقاطعة، وأصناف صابون التواليت والحوض ممنوعة لأنها إسرائيلى وأمريكانى:

ـ جاء رده كما لو كان يشاكسنى ويصرّ على دحض أفكارى إذ قال:

ـ والله يا مدام.. أم محمد جماعتنا طول عمرها تحمّم العيال بصابون نابلسى لأنه بركة وبزيت الزيتون، ثم إن الأمريكانى غالى والمسحوق الرخيص هو المصرى، ولحدّ ما الآن ماتوصلناش لغسالة بالكهرباء لأن الحكومة ركبّت العمدان، والتيار دخوله باقى عليه وقت والحكومة يومها بسنة.

تبقى الأكل، المواد الغذائية الأساسية، وهذه لن يفلت منها بعد الغفار، سأحاصره حتى يقتنع ويقاطع، قلت له بحزم:

ـ وكافة المأكولات لازم نقاطعها كلنا يا عبد الغفار.

ـ طيّب يا أستاذة صلّى على النبى، أنا، الفراخ الأمريكانى المحنّطة الموجودة فى المحلات والمحطوطة فى الثلاجات، مستحيل تهوّب ناحية فمى، يعنى لو أنى ما أشوف الفرخة تلقط الحب من الأرض بذات نفسها، وتتقّى بروحها أكلتها، عمرى ما أحطّ لحمها فى جوفى أبداً، حتى ولو دفعوا لى ألف جنيه. فى الأكل لازم أن يكون الإنسان أنفاً. آه، الأنفة فى الأكل مطلوبة.

لم يكن عبد الغفار مضطراً لكل هذه الخطبة المطولة، ولم أجد ما أضيفه وأنا أتأمل ما زرعه عبد الغفار من بصل وجرجير فى حوض الزهور الموجود أسفل

العمارة. وبعدما رحت أتخيّل القائمة الغذائية اليوميّة له، والتى من المستحيل أن تتضمّن أيًا من السلع التى تضمها قائمة المقاطعة التى أحملها معى.

تأمّلت عبد الغفار، كانت ملامحه سمحة، هادئة، مطمئنة، تطلّ منها ثقة وسكينة عميقة لم تتغير أبدًا، فكّرت فى أن عبدالغفار لم يحضر ليدين ويندّد ضمن الحشد الهآئل فى النقابة، ولم يطالب باعتصام أو بإضراب عن الطعام ولم يدعُ إلى مقاطعة، وفكّرت أن أدعوه إلى اجتماع مقبل فى المكان ذاته ليتحدث أمام هذا الحشد عن طريقته فى المقاطعة وليشاهد الجميع كل ذلك اليقين المطلّ من عينيه، ولكنى أعرف إجابته مقدمًا والتى ستكون: «وهل من المعقول أن أترك العمارة والأرض يا أستاذة». لذلك لم أسأله وآثرت تركه. وبينما كنت أضغط زر المصعد الذى سيقلنى إلى شقتى فى الطابع السابع من العمارة، رحت أفكّر فى عنوان لقصة عبد الغفار وهل سيكون:

عبد الغفار يقاطع أمريكا؟

أم عبد الغفار هو الحل..

كانت الفتاة ذات الرائحة الكريهة قد أتت لتوها، عندما شعرنا بالإنفجار وهو يهزّ البناية ويرجفها كشجرة تحت ريح. قدّمت إلينا خطابًا تحمله من رفيقها، صديق زوجي، وقالت إنها قادمة من الجبل رأسًا. فهمتُ أن لديهم نقصًا شديدًا في المياه هناك، ليس بسبب رائحتها غير المحتملة فحسب، ولكن، لأن شعرها المشعّث ووجهها المتسخ وملابسها، جعلوها تبدو أمامنا كأنها طفلة مشرّدة في الطرقات، فلمّا رحب زوجي بها معلنًا ـ بَعد أن قرأ الخطاب ـ أنه لا مانع من أن تبيت ليلتها في بيروت عندنا، أقسمتُ لنفسي ألا تعبر هذه الضامرة القصيرة مدخل البيت إلا إلى الحمّام أولاً، لتستحم وتغيّر كل ملابسها، وتمّ لي بسرعة ما أردت لا بسبب قسمي، ولكن لأنها هرعت معنا سريعًا إلى منطقة الانفجار بالكولا، إذ رنّ الهاتف، ليخبرنا مَنْ طلبنا أن «جميل» قد أصيب وتمّ نقله إلى المستشفى.

كان صديقنا «جميل» أو القط البري الأليف، كما نسمّيه، قد أصابته شظية من قذيفة إسرائيلية استقرّت بين ضلوعه، دون أن تصيب ـ لحسن الحظ ـ عموده الفقري، انتظرنا حتى خرج من غرفة العمليات، وبقينا بجانبه وقتًا ونحن نتعجب من انقلابات القدر، وقد بدا في غاية الضعف والوهن، وهو الذي كان بالأمس معنا، يصعد إلى طابق البناية التاسع؛ فلماوصل ووصلنا إلى البيت، كنا نلهث نستجدي الأنفاس، ونتصبب عرقًا، دون أن نحمل غير أجسادنا، وهو لا يكفّ عن الثرثرة والضحك، كأنه يعبر خطوات على طريق! وكنا بسبب قوة احتماله الخارقة وبنيانه الجسدي المتين ورأسه الكبير المسربل بشعر ناعم غزير كالذي لشاربه

الطويل الملتحم بذقنه، نسميّه القطّ البرى الأليف، فلقد كان عقله دومًا خاويًا من أية أفكار تذكر عن الدنيا، سوى فكرة واحدة هى مقته اللامحدود للإسرائيليين الذين قتلوا أخاه الأصغر مع كلبه، فى واحدة من غاراتهم على قريته الجنوبية، دمّرت منزلهما، حيث كان الأخ نائمًا بداخله.

لم تبت الفتاة ذات الرائحة الكريهة عندنا ليلتها، فقد أصرّت أن تسهر إلى جانب «جميل» لترعاه، وقالت إنها ربما تبقى بالمستشفى وقتًا، حتى يزول عنه الخطر، ولسوف تستأذن جماعتها من المقاتلين فى الجبل، لأجل ذلك، ولا داعى للقلق، وكنا قد تحاورنا أمامها فى أننا سوف نتناوب زيارته، زوجى وأنا، وفقًا لظروف عمل كل منا وارتباطاته. شكرناها، وقلت إننى سوف أمدّها ببعض الملابس سريعًا، كى تغتسل فى المستشفى وتسترخى قليلاً، قلت لها ذلك وأنا أفكر فى أنها لابدّ أن تكون أكثر نحافة مما تبدو عليه، إذ أنها ترتدى قدرًا من الملابس لا بأس به، ربما بسبب برودة الجو فى الجبل، وكنت أفكر، أيضًا، كيف تكون العناية الإلهية التى ساقها الله إلى «جميل» بكل هذه النحافة والضمور، وملامح الوجه الباهتة التى لا يوجد ما يستوقف المرء فيها، لو اغتسلت بألف صابونة، لكن على أية حال، كان بها شىء مريح مطمئن لا يمكن الإمساك به، كأنه يقين غامض داخلها لا يمكن الكشف عنه، جعلنا نمضى ونترك «جميل» وديعة بين يديها، ونحن نفكر فى القدر وتصاريف الزمان!

مرت شهور بعد ذلك، كانت خلالها «العناية ذات الرائحة» بجوار القطّ البرى ذى الرأس الكبير والشوارب المسربلة والعينين الخضراوين كنا نذهب إلى المستشفى لنعوده، لنكتشف شيئًا فشيئًا أن القطّ البرى صار قط العناية الأليف، وأنه لا يستطيع الاستغناء عنها أبدًا، بل يتبعها كظلها أينما سارت داخل المستشفى، بعد أن وقف على قدميه.

الاكتشاف الأهم كان أن القط الأليف صارت لديه أفكار أبعد من كراهية الإسرائيليين! إنه يناقش أمورًا متباينة، ويدلى بآراء من نوع: هل يمكن محاربة إسرائيل بأنظمة عربية لا تملك زمام أمرها؟ بدا القطّ مبهرًا لنا، وقد أيقنا أن

العناية الإلهية تدخلت بالفعل، ليس للتأثير الإيجابى على جسد «جميل» فحسب، ولكن على رأسه، أيضًا.

بقينا فترة لا نرى الفتاة ذات الرائحة، حيث لم تعد تتردد على «جميل» فى المستشفى، وقد تماثل للشفاء حتى كان وقت الحصار الإسرائيلى، وكنا قد صرنا فى واحد من المراكز العسكرية المنتشرة على خريطة بيروت للدفاع عنها، وقد تحولت المدينة إلى بؤرة حرب حقيقية، وقف العالم يتفرّج عليها، وأنياب الغول الإسرائيلى تنغرس فى جسدها يوميًا، على هيئة قذائف وقنابل، بدا أنها لا تستهدف التدمير والتخريب، بقدر ما كانت تستهدف خراب الروح وإذلالها، حتى سيل القذائف قذيفة لكل ثلاثة مواطنين يعيشون بالمدينة، وفى إحدى الأمسيات، وبينما كانت تتصاعد بالمقابل عمليات تدريبنا على المقاومة، جاؤونا بمن يدربنا على استخدام قذائف الـ R.B.J ولم يكن هذا المدرب غير الفتاة ذات الرائحة الكريهة!

كان المركز يضم شبانًا وشابات منحتهم بيروت هويتها، وهذه كان معجزة بيروت الحقيقية فى ذلك الزمان، أن تمنح ملامحها لكل الذين عاشوا فيها، تمنحهم بعضًا من روحها، فتصيبهم بذلك الجموح والجنون ولذة الحرية الجميلة، حرّية أن تختار سلطتك وحياتك وتفاصيلك الإنسانية كلها.

بدَتْ الفتاة غير مقنعة لنا فى البداية، إنها كالريشة يمكن أن تطير مع أول هبة ريح، مظهرها لا ينمُ عن خبرة عسكرية محتملة، خصوصًا وهى تشرح وتسهب فى كيفية الرمى، وأساليب الهجوم والدفاع، وكان جُل الذى ينتمون إلى المركز من أولئك الذين طالما نظروا وتناظروا بالسياسة وأحوالها، وقرأوا وكتبوا عنها حالمين بتغيير العالم، أو بإعادة صياغته على شاكلة بيروت الحصار! كان بعضهم قد بدأ يتثاءب والبعض الآخر قد ملّ الاستماع إلى تلك الطفلة الكبيرة الواقفة أمامهم، كأنها لا تتحدث عن قذيفة، بل عن لعبة من ألعابها الصغيرة. بيد أننا تنبهنا جميعًا إلى إجابتها عن سؤال وجهه إليها أحدهم بهدوء: «ننسحب؟! لماذا ننسحب عندما يهاجمنا الإسرائيليون؟! لماذا نفكر بالانسحاب يا أخى؟».

بعد أيام قليلة، كان السـائل قد انسحب بالفعل، ليس من أمام الإسـرائيليين، بل من بيروت كلها، إلى أفريقيا، ليلحق بأسرته المهاجرة هناك، أما هى فقد خرجت ذات مساء إلى موقع عسكرى على البحر تحمل قذائفها، برفقة عدد من الذين لم يفكروا أبدًا بالانسحاب، ولم تعد ولم يعودوا أبدًا من هنـاك، وكان آخر ما تذكرناه عنها، أن رائحتها ذلك المساء كانت طيّبة، بل زكية جدًا!!.

مشهد: ١

غروب داخلى

خالتى جالسة على سجادة الصلاة. أمى تجلس بالقرب منها على الكنبة، تقول بعصبية لأخى الصغير الذى مدّ رجليه على حجرها لتربط له «أبزيم» الجزمة.

- إعدل رجلك عدل، واثبت، وبطّل حركة. خلينى أشوف الخرم.

يرد الصغير ممتثلاً:

طيّب.. طيّب.

يستمر فى تحريك جمسه جزلاً، تختم خالتى صلاتها وتشرع فى أخرى قائلة:

- نويت أصلى ركعتى سنّة.

أصرخ مع أختى بغيظ وأقول:

- لا.. لا يا خالتى، خلى السنّة لما نرجع، عاوزين نتفرج على المناظر من الأول.

ترد الخالة مماطلة إيانا:

- يعنى كل شىء جهز خلاص، يعنى الدنيا طارت، كلها دقيقة أخطف فيها السنّة وخلاص.. الله؟

نجادل بدورنا فتقول أختى:

ـ كل شىء جاهز، حتى «طنط» تريز جاهزة ومنتظرة.

تبوء محاولتنا بالفشل، وتواصل خالتى صلاتها كاملة.

لم تكن «طنط» تريز وعيالها، هم الذين يذهبون معنا إلى السينما فقط، لكن كانت جارات أخريات يذهبن معنا كذلك، وأحيانًا كنا نصطحب ابنة المكوجى الكائن محله أسفل العمارة، وكانت أمى تدعوها إلى السينما على سبيل المجاملة، لأن البنت وحيدة وعيّلة عاوزة تفرح، خصوصًا أنها يتيمة الأم ولا تجد من تذهب معه إلى السينما، أما عندما يكون بدار السينما فيلم متميز، فإن الوفد كان يضم جيرانًا آخرين أو أصدقاء أمّى من الحى نفسه، فنشكل حشدًا حقيقيًا من النساء والعيال، وقد تجهّزنا بالساندوتشات وزجاجات الليمونادة، واللب والفول السودانى والحمّص، وكانت «طنط» تريز متخصصة فى إحضار قلّة المياه التى تبخرها عادة ببخور تحضره خصيصًا من الكنيسة، وتضعها فى حقيبة جلدية صغيرة خاطتها «طنط» تريز بنفسها لمثل هذه المناسبات، وكان هذه القلّة بمثابة إشكالية دائمة بينا قبل الذهاب إلى السينما، فنحن البنات كنا نرفض حملها حتى لا تقل قيمتنا وتفسد أناقتنا، أما الصبيان فيرفضون شيلها من منطلق أنها تعيق حركتهم فلا يستطيعون الجرى على الطريق إلى السينما، والحقيقة أن القلّة كانت تقع عادة فى قرابيز «طنط» تريز نفسها بعد أن يُسقَط فى يدها، فتنعتنا بمنظومة شتائمية تنوّع لحنها الأساسى، بمشاركة أمّى، بكلمات تدور حول قلة الحياء والدم، وتتضمن تهديدًا لنا بعدم الشرب خلال الاستراحة، حتى لو عطشنا وجفّ ريقنا، وتدلت ألسنتنا ككلاب الشوارع الجرية،

لكن ذلك لا يمنع مفاجآت «طنط» تريز المتخصصة، فمجرد إظلام القاعة، وبداية تشغيل آلة العرض، تبدأ «طنط» تريز فى توزيع الترمس المملح أو الحلبة المنّبتة علينا، أما الساندوتشات المقررة من قِبَل أمى فى مثل هذه الأمسيات، فكانت تتكون من الجبن الاستامبولى مع الخيار الشنبر «نصف رغيف»، وحلاوة طحينية «نصف رغيف آخر»، الحلاوة كانت تُستبدل أحيانًا بمربى الجزر أو البلح، أو العجوة المقلية فى السمن.

كان الذهاب إلى السينما آنذاك من أمتع الطقوس فى حياتنا، أما المتعة الكبرى، فكانت تبدأ من اللحظة التى نرتدى فيها ثيابنا ونتهيأ للخروج، فأجمل مالدينا من ثياب كان للسينما، والحرص على أفضل مظهر كان للسينما، وكنا نسير فى الطريق عادة بهدوء وتهذيب على الأرصفة ـ كانت هناك أرصفة آنذاك ـ، أما شراء التذاكر، فكانت مهمة واحد من الصبيان، وكنا نحرص على الانتظار حتى يدخل الجميع، فلا يزاحمنا أحد.

وعندما نأخذ مقاعدنا، كانت أمى وجارتنا العزيزة تجلسان عند بداية ونهاية الكراسى، بينما نجلس نحن جميعًا فى الوسط حتى لا يضايقنا أى من الغرباء إذا ما جلس أحدهم بجانبنا.

وكنا نحرص على مشاهدة «الإشارات»، حتى نقرر الأفلام التى سنراها فى المرات المقبلة، وكانت هذه المشاهد المتقطعة من أفلام لم تعرض بعد تجعلنا نعيش فى نوع من أحلام البقظة، حتى نرى الأفلام بكاملها، وكان أبطال هذه الأفلام يعيشون معنا طوال الوقت، فشادية وعماد حمدى وفاتن حمامة وحسين رياض وغيرهم من فنانى هذا الجيل العظيم، كانوا يقاسموننا الحياة ونتمثلهم دائمًا، ولأن خالتى كانت تهوى الخياطة والتطريز، فقد كانت تراقب وتمحّص ملابس البطلات وسرعان ما تفاجئنا، بأنها حاكت ثوبًا، من الموجاشيل الوردى، كالذى كانت ترتديه فاتن حمامة فى فيلم كذا، أو أنها رفعت شعرها وثبتت فيه وردتان ساتان صنعتها بنفسها كالتى ظهرت بها مديحة يسرى وهى تراقص شكرى سرحان فى آخر فيلم رأيناه.

مشهد: ٢

ليل داخلى

صالة السينما ممتلئة عن آخرها، فريد الأطرش يعانق مريم فخر الدين بينما تنزل على الشاشة كلمة النهاية تضاء الصالة إيذانًا باستراحة قصيرة، يعقبها عرض الفيلمين التاليين بينما يصفق الجمهور، البعض يصفّر، صفّنا يصفق وهو واجم، الدموع ما زالت فى أعيننا بعد أن ذرفنا منها كميات تفوق تصور أرسطو

شخصيًا، محدثة كل التطهير أو «الكاثارسيس»، الذى طالما تحدّث عنه. بل وزيادة أيضًا، يطلب أخى الصغير كازوزة على خلفّية من موسيقى «زينة» لعبد الوهاب، تنهره أمه وتقول له: اشرب ليمونادة، رادار بائع الكازوزة يلتقط إشارات أخى، فيسارع بالوقوف فوق رأس أمى ويفتح زجاجة بسرعة البرق ويقدمها للصغير، تمتثل أمى للأمر الواقع وتفتح حقيبة يدها لتخرج نقودًا للبائع وهى تقول: مصيبة، مصيبة وحلّت علىّ والله العظيم.

فى الاستراحة، نكتشف معارفنا فى الحىّ، ننهض لنحيى أصدقاءنا، النساء يقبّلن بعضهن البعض، بينما يرمقن الملابس، يبدين الملاحظات على الفيلم، يتناقشن سريعًا فى أهم الأحداث التى جرت أو تجرى فى الحى: تجديد مواسير المجارى، رصف شارع جديد، بناء مدرسة.. إلخ.

كنت فى هذه اللحظات، مثلما لحظات أخرى عديدة فى حياتنا، أشعر أننا مجتمع، توحّدنا أشياء، ونتوقف جميعًا عند أشياء، جماعة بينها رابط. علاقاتنا الإنسانية بسيطة سلسة، بها من الحب والمودة أكثر مما بها من البغض والأحقاد، كنا آنذاك جميعًا، متساوين، متقاربين، فى المدرسة وعلى المقاعد المدرسية ذاتها تجلس إلى جوارنا بنات وزراء ورجال مهمين فى البلد. «كنت شخصيًا فى سراى القبة الإعدادية مع هدى ومنى بنات عبدالناصر»، كان هناك نسيج واحد قوى ومتين، نسيج من الآمال والأحلام والقيم الإنسانية التى تجعل منا مجتمعًا واحدًا، وكانت السينما مثلها مثل العديد من التفاصيل الأخرى فى حياتنا، تسهم فى تشكيل وجداننا، وتعمل على أن تصهرنا فى بوتقة واحدة.

ورغم كل ما قيل عن السينما المصرية التجارية خلال تلك الفترة، ورغم محاولات الإدانة المستمرة لها، فإن هذه السينما استطاعت أن تعبّر عنا وترسم ملامح الشخصية المصرية كما كانت فى الواقع، ولم تكن شخصياتها النمطية التى جرى تجسيدها عبر أداء ممثلين عظام كعلى الكسار، أو إسماعيل ياسين، أو زينات صدقى، أو عبد الوارث عسر، أو حسين رياض، أو محمود المليجى ببعيدة عن نماذج حية نعايشها وتتحرك بيننا فى الحياة، إن هذه الأفلام التى طالما نعتناها نحن المثقفون بالسطحية والتجارية وغياب العمق، هى التى وثّقت ـ فى

الحقيقة ـ ملامحنا الإنسانية، وعلاقتنا الاجتماعية، مثلما وثّقت شوارع وحوارى مدننا وقرانا خضرة الريف المنسحبة، وعمارة المدنية الراقية، جمال نسائنا ووسامة رجالنا فى أواسط هذا القرن. إن هذه الأفلام التى طالما نعتناها بالسذاجة والسخف، هى دليل شاهد على جانب من حياتنا، حياة جميلة تسرّبت من أيدينا، وما زالت تتسرّب حتى الآن، لتغوص فى الفج والقبيح الزاحف عليها بعنف من هنا وهناك.

وكنا نحن البنات آنذاك نحاول أن نكون كفاتن حمامة، وشادية، ونادية لطفى، وماجدة. نحاول أن نكون رفيقات، خفيضات الصوت، نسلك برقة وشاعرية، ونحلم أن يقع فى حبنا ذات يوم واحد كشكرى سرحان، أو عمر الشريف، أو أحمد مظهر، أو كمال الشناوى. كانت السينما بالنسبة لنا هى الرقىّ والظرف واللطافة، حتى أشرار السينما وقتها كمحمود المليجى، وفريد شوقى مثلاً، كانوا رائعين فى شرّهم، كان شرًا عظيمًا فارقًا فى علاماته عن الخير الذى يبقى بعده، ويتراكم فى أعماقنا دائمًا.

فى عصر سينما، طالما ساهمت فى صنعنا، كانت بطلات الأفلام، رشيقات، أنيقات، بسيطات المظهر والسلوك، يعبرن بحقّ عن روح البنت المصرية آنذاك، لم يكن عريهن ابتذالاً، فالأذرع والسيقان العارية، لم يكن معناها لحمًا أبيض يستهدف الغرائز والشهوات، لم يكن تعريف الجميلة فى السينما وقتها: كتلة من اللحم الأبيض البارز من هنا وهناك، يعلوها شعر أصفر مصبوغ، ومكياج صارخ. حتى ممثلات الإغراء، كنّ فاتنات بلا تبذّل، كانت هند رستم فاتنة وراقية فى آن معًا، وليس ذلك الحضور، المسفّ الذى يجعل السينما، مجرّد علبة ليل رخيصة فى متناول الفقراء.

مشهد: ٣

غروب خارجى

أمى، خالتى، نحن، «بنات وصبيان»، كلبة أرمنتية سوداء خلف السية خديجة صديقة أمّى.

السيّدة خديجة:

ـ على مهلكم يا أولاد.. لأن الكعب وجعنى جداً. ترد ابنتها ـ وهى تكبرنا قليلاً ـ قائلة:

قلت لك فى البيت، البسى جزمة زحّافى، يعنى هل لازم لبس جزمة بكعب رفيع وعالى؟

ترد أمى مستنكرة:

ـ يوه؟ يعنى عاوزة ماما تروح السينما بكعب زحّافى على تايور؟

تؤمن السيدة خديجة على كلام أمى.

ـ شوفى والنبى الجليطة يا ست صفيّة.

كانت السيدة خديجة بلغة شجرة النسب الشريف المعلقة فى غرفة استقبال بيتها، أو «طنط» خديجة بلغتنا، هى نجمة أمسياتنا عندما نذهب إلى سينما روكسى، فقد كانت أمرأة قوية الشخصية لها حضور، متكلمة، إضافة إلى تجربتها المتميّزة الخاصّة، فقد كانت من طلائع المدرسات المصريات اللواتى ذهبن إلى ليبيا فى ذلك الزمن، واكتشفن هناك الذهب الأسود، أما تميز هذه «الطنط» الحقيقى خلال أوقات السينما المندثرة هذه، فيأتى من ارتدائها عادة لعقود من الكريستال، أهداها لها أخوها الضابط بالجيش، وهذه العقود مثلت أحدث صيحة فى عالم الاكسسوار عند نهاية الخمسينيات من هذا القرن، وقد انتشرت انتشار النار فى الهشيم داخل البلاد، كواحدة من أهم الإنجازات الملموسة المترتبة على صفقة الأسلحة التشيكية لمصر سنة ١٩٥٦.

عادة نعرج من بيتنا إلى بيت طنط «خديجة» فى شارع عبدالعزيز بالله بالزيتون، ونصطحبها مع أولادها حتى سينما روكسى الصيفية، فنستمتع بمرأى شوارع مشُجرة خالية نظيفة، ونسير حتى نعبر شارع جسر السويس، ثم نسير بجانب ساحة نادى سباق الخيل، فنشاهد من خلال سوره الحديدى المكشوف سندسًا من الحشائش الخضراء المرعرعة والمقصوصة بنظام على مدى البصر،

وعندما نصل السينما، كنا نشترى قبل الدخول الكاساتا بالمارون جلاسيه، «ثلاثة قروش للقطعة الواحدة»، فنلتهمها بتلذذ قبل دخول قاعة العرض، وتظل «حنونة» (ركسى سابقًا)، كلبة «طنط» خديجة معنا، حتى نكون على وشك الدخول إلى مكان العرض. فتأمرها صاحبتها بأن تعود مرة أخرى إلى البيت وهى تقول لها «خلاص. روحى يا حنونة، متشكرين». ولكن حنونة كانت تفاجئنا أحيانًا، فتبقى فى انتظارنا حتى منتصف الليل، وعندما كنا نكتشف ذلك، كانت تأخذنا المفاجأة، فنهرع إليها منقضين عليها لنقبّلها ونقول: «ياه.. تنّك واقفة؟». والحقيقة أن حنونة كان لها فى قلوبنا معزّة خاصة، فقد أظهرت هذه السوداء الصعيدية بشهامة ونبلاً قلما يوجدان بين بنى الإنسان. فقد كانت لطنط خديجة قطة مشمشية دلوعة انتقلت إلى الدار الآخرة إثر حادث أليم، بعد أن وقع عليها باب قديم «فطّسها» فى التوّ، وكانت المسكينة قبل ذلك بأسبوع قد ولدت ثلاث قطط «ذكران وأنثى»، تيتموا بعد وفاتها، فتكفّلت «ركسى» وبالجهود الذاتية بإرضاعها جميعًا مع أربعة من صغارها، كانت قد وضعتهم قبل ذلك بقليل، فكانت هذه اللفتة الأمومية الحانية من «ركسى» من أهم حوادث سنة ١٩٥٩ المشهورة فى تاريخنا المجتمعى الحديث، وبعدها تغير اسم «ركسى» إلى «حنونة»، وظل ملازمًا لها حتى قُتلت بخرطوش غادر أثناء غارة من الغارات التى تشن على الكلاب لإعادة الانضباط للشارع المصرى.

فى سينما روكسى شاهدت فى طفولتى أجمل أفلام الكارتون، توم وجيرى أبيض وأسود، توم وجيرى ألوان، ميكى ماوس. أمّا أعظم الأفلام فى صباى فكانت «علاء الدين والمصباح السحرى»، «جَليفر»، «رحلة إلى منتصف الأرض»، وكان «ستيف ريفز» فى أدوار «هرقل» و«طرزان» له مذاقه الخاص على شاشة سينما روكسى «ربما لأنها كانت «سكوب». وكان يبدو لى ضخمًا جدًا، ووسيمًا جدًا.

وعندما بدأت مداركى تتفتح، كانت سينما روكسى الصيفية، قد تحولت إلى سينما شتوية، وهكذا تبددت متعة سينما الهواء المطلق التى طالما استمتعنا بها فيها، متعة الجلوس على كرسى من خشب البامبو وقراءة الحوار المترجم على خلفية من أصوات الميدان الواقعة عنده السينما وحركة عبور المترو، وفى الدار

التى فقدت انفتاحها السماوى، تعرّفت على سينما مصرية من نوع جديد، ففيها شاهدت فيلم «فجر جديد» ليوسف شاهين، وكان هذا الفيلم يلمس ملامح سينما عربية مختلفة، تدفع المشاهد للتأمل والبحث والتفكير.

وكان «الخريج» لداستن هوفمان، هو بداية تعرفى على سينما عالمية من نوع آخر، وكان «الخريج» يختلف عن أفلام الغرب وأفلام الإثارة وكل تلك التوليفة الأمريكية المبهرة التى تعودّنا عليها، وكان «هوفمان» ممثلاً مختلفًا عن «ستيف ريفز» بالنسبة لى، وهكذا بدأت أفتش عن سينما أخرى، سينما تقدم ما هو أبعد من المتعة والتسلية والبهجة المنظورة.

لقد دخلت «الخريج» مع ابنة خالتى وخطيبها الضابط الشاب، والذى دعانا مع خالتى وأمّه وأخته لحضور هذا الفيلم، ويبدو أنه كان يحمل دعوة مجانية للعرض وقتها، فقد جلسنا «لوج»، كما أننى اكتشفت بعد زواجه من قريبتى، أنه غير مهتم بالسينما على الإطلاق.

مشهد أخير:

ليل داخلى:

زوجى، أنا، الأطفال.

زوجى: قومى نروح السينما.

أتابع قراءة صفحة الحوادث: قتل محارم، سرقة، اختلاس، اغتصاب، أقول له وأنا أزفر:

- بلا سينما بلا نيلة.

يحاول إقناعى.

- فى سينما التحرير فيلم معقول، أخوك قال لى الصبح على التليفون.

أفكر فى المشوار، زحام الطريق، ثمن البطاقات المرتفع، استدعى فى مخيلتى جيراننا فى العمارة، والذين لا نتبادل معهم أكثر من صباح الخير أحيانًا، أنظر

إلى أطفالى الصغار، بينما أتذكر جارتنا أبلة حسنية، التى كانت تترك رضيعها عادة عند جارتنا الأخرى «نينة» حكمت، لتذهب معنا إلى السينما، أنظر إلى الأطفال وأسائل زوجى:

ـ والعيال؟

يرد بضيق:

ـ آه.. نتركهم عند أختك ونرجع لهم بعد السينما.

يعرف أنه اقتراح مرفوض، فهذا معناه التوجه أولاً إلى شبرا، ثم الذهاب بعد ذلك إلى الدقى، وإعداد الأولاد للخروج يحتاج جهداً ووقتًا، لا يستحقه الذهاب إلى السينما.

تتوالى السنون، لا نذهب إلى السينما، تخرج السينما من حياتنا شيئًا فشيئًا، «إشارات» الأفلام العربية فى التليفزيون مقرفة، تزداد عزلتنا.. نتساءل طوال الوقت: هل نحن مجتمع حقًا؟

• فصل الجحيم •

هو الوحيد القهّار، القادر على إخراسنا وتلجمينا رعبًا كجلامَيْد النبى لوط المسخوطة. يدخل الفصل علينا فيطلق صوته وحشًا منقضًا على فريسة. قيام. جلوس. فتنتفض بآلية ممتثلة، ضابطين حركة أجسادنا على إيقاع كلماته، دون أن يُسمع لأى منها عقيب ذلك نبسة أو نأمة أو هسّة هسيس، فلما يطمئن إلى حلول كامل سطوته وبالغ جبروته لهنيهات يندفع شارحًا درسه بمفتتح وجيز عن التقوى والمتقين، والجنة والموعودين، حتى تسكن نفوسنا وتطمئن أرواحنا فنسبح فى الكوثر وتمتلئ مخيلتنا بلذائذ القطوف الدانية، لكنه سرعان ما يدفعنا بعيدًا عن ذلك فيأخذنا من عالى الفراديس إلى وهدات سقر، والموبقات، والسعير، والجحيم، والحميم، والحريق، وجهنم بلظاها الملظى تارة، وحَمئها المسنون تارة أخرى، فندرك أنه خسف بخيالنا خسفًا وقد عرج على الجنان عروجًا عجولاً بخطف ومض، دون إعادة أو استزادة كما هو الحال مع مثاوى الشياطين وأمكنة المعذبين.

خلال ذلك كله، نكون نحن المبحلقين بعينيه، المراقبين لحركة شفتيه ويديه المضمومتين، المفرودتين، الطالعتين، النازلتين بالتهديد والوعيد، قد شوينا رعبًا، وتلظّينا خوفًا، ومتنا فى جلودنا وكأن حاقة رهيبة قد حطّت علينا حطًا.

كان بعضنا يفضّل الغياب عن المدرسة يوم دروسه، والبعض الآخر يؤثر التذرّع بالمرض حينًا حتى يفوت الوقت، فيذهب إلى حكيمة المدرسة للبقاء بغرفة الكشف الطبى حتى ينقضى فصل الجحيم هذا.

زميلنا المسكين عبدالرحيم الطيب ذو البنية المضعضعة، والسن المتسلط نبتًا على سنه العلوى الأمامى، كانت تسحّ عيناه دمعًا سخينًا بمجرد أن يبدأ أستاذنا حديث السعير إياه، فتأخذنا الشفقة عليه وهو الباكى الحساس لأى سبب ولأتفه سبب، حتى لانقصاف سن قلمه الرصاص أو مناهدة عبدالقوى الأعسر زميله فى الدكة عندما لا يعطيه براايته، لينبت لقلمه بها سنًا جديدًا.

لقد ظل أمرنا هكذا، حتى قبيل نهاية العام الدراسى بقليل، أو حتى ذلك اليوم الذى لا يمكن نسيانه أبدًا، والذى لم أعد أخشى بعده تهديد أبى بطرد أمى من البيت، ولا عفاريت العتمة المتربّصة بى تحت بئر السلم كلما انقطع تيار الكهرباء عن منزلنا، فتبسلسلنى بالرعب لأعدو عدوًا وأقفز قفزًا، كلما صعدت أو هبطت إلى ومن شقتنا فى الدور الرابع لاجتيازه إلى الطريق.

كان مدرّسنا قد دخل الفصل كعادته عندّ ذلك اليوم البعيد، وبدأ يشرح دروسه، وقد استقرت مقعداتنا الصغيرة على مقاعدنا مع اندفاع كلمة جلوس من شفتيه، وما أن وصل إلى فصل السعير المكرور، والذى بات لنا كشبرية الدود الفظيعة، لأن أستاذنا لم يعد يملك صورًا مبتكرة قادرة على إلهاب مخيتنا بمزيد من الرعب، حتى أن بعضنا بدأ يغامر بالتثاؤب خفية، أو يصارع الوقت بالعبث بطرف قميصه المدرسى، أو يحملق فى السقف، ولا أدرى كيف انتقلت عدوى التحديق بالسقف من بعضنا إلى البعض الآخر، ليبدأ بعد ذلك ضحك خافت مكتوم، سرعان ما أخذ يتصاعد رويدًا رويدًا وقد عجزت عن تحمله جنباتنا الغضة، حتى تهيأت انفجارات لا رادّ لها، وكأن مسًا من شيطان قد أصابنا جميعًا وراح يسرى فينا واحدًا إثر آخر. كان فصلنا المدرسى حجرة واسعة من حجرات قصر قديم جرى تأميمه زمن ثورة الجيش، فصار مدرسة حكومية، مثلما كان الأمر بالنسبة لقصور وسرايات عديدة نزعت ملكيتها من أسرة حاكمة إقطاعية لم تستطع مواصلة الحياة لأكثر من مائة وخمسين سنة، وكنا نتشارك الحجرة مع عشرات من بنى العنكبوت، التى حوّلت سقفها المدهون بالجير الأبيض إلى مفرش كبير مطرز بخيوط رمادية وبقع سوداء لا حصر لها، فلا نعبأ لهذه الكائنات الزخرفية، إلا عندما تتجاوز حدودها الإقليمية، هابطة إلى الأركان القريبة من

الأرض، فتستثيرنا بخيوطها الحريرية وحركتها السريعة، فنأخذ فى مطاردتها بينما هى تتحرك هنا وهناك، وكان عنكبوتًا منها - فى ذلك اليوم البعيد - طغى بفرادته على الجنة والنار، وهيمن علينا وقد تحكم بأبصارنا وهى تتابعه وكأننا بحضرة ألعبان سيرك، إذ أخذ يهبط رويدًا رويدًا من مكمنه بالسقف وقد تعلّق بخيطه المتأرجح بنسمات الربيع الداخل إلينا من شبابيك الحجرة، حتى اقترب اقترابًا وشيكًا من رأس أستاذنا الصلعاء الصلدة كصخرة نارية ضخمة داكنة دكت دكًا فوق كتفيه.

ظل العنكبوت وقتًا يتفنن فى عرضه، فما أن يوشك على الاقتراب وملامسة رأس أستاذنا، حتى يسارع بلملمة خيطه مبتعدًا عنه، وكأن شيئًا ينفّره منه ويبعده عنه إبعادًا، لكنه لا يلبث وقتًا حتى يعاود الاقتراب مرة أخرى، وكأنه طائرة فقدت مجالها الجوّى، وراحت تحوم فى السماء باحثة عنه. بقينا نراقب حركة العنكبوت فى صمت وبأنفاس مبهورة، أخذت تتحول إلى ابتسامات خجولة، فضحكات مفضوحة، بلغت ذروتها فى قهقهات مجتاحة ومكتسحة لأى انضباط، بينما مدّرسنا متسمّر داخل قوسين من الذهول والغضب، فلما وجد أن أمرنا زاد وانفلت صرخ فينا بقوة:

ـ اخرسوا. منك، له!

سكتنا وقد أفقنا من سكرة المرح، وتوجسنا بما حمله لنا صوته من وعيد. ربما سيأمرنا برفع أيدينا إلى أعلى، ما تبقى بعد ذلك من وقت الحصة، ربما سيضربنا بعصاه الخيزرانية الرفيعة على ظاهر راحاتنا وعقلات أصابعنا، وربما سيسوقنا جميعًا إلى مكتب ناظرة المدرسة لتختار ما يناسبنا من صنوف الجزاء، لكن العنكبوت لم يكن عابئًا بكل ذلك، لم يكن معنيًا بمصيرنا الذى جرّنا إليه، إذ ظل متلهيًا بلعبته حتى دفعنا رغم كل ما نحن فيه من وجل ورعب إلى هئ، هئ، هئ، من جديد.

توتّر أستاذنا، لم يتمالك نفسه، اندفع إلى واحد من الذين علت قهقهاتهم على قهقهات الجميع وأمسك به وهو يقول:

- وقعتك سودا. أخرج بره الفصل.

وبينما المسكين يهم بالخروج وأستاذنا يعود إلى مطرحه المعتاد إذ بالعنكبوت ينهى المشهد الأخير لفصل الجحيم، وقد بدأ يلامس الحجر النارى ويتحرك على سطحه الأملس، ليندلع بركان من الضحكات مكتسحًا كل شىء ويجرف معه كل محاولة للجمنا، خصوصًا وأن أستاذنا، كان قد راح يحرك رأسه يمنة ويسرة فى حركات عصبية سريعة، بينما يده ترتفع لتنتزع العنكبوت عنها، وما أن لامس كفّه الغليظ السمين الجسد الصغير الرخو، حتى صرخ وكأنه طفل صغير يخاف مثلنا، وربما أكثر مما نخاف بكثير،... بكثير.

بعد سنوات طويلة من وفاة الفرعون أمنمحات الثالث، الذى يقال إنه أول من جلب الفراخ والرمان من أرض سورية إلى بر مصر. فكّرت الفرخة فى أحوال جنس الفراخ طويلاً، ثم قالت لديكها وهما يسيران يلتقطان البرّ من الأرض:

ـ ألا تشعر يا عزيز عينى أننا مظلومان كثيرًا فى هذه البلاد، فأنت من أجمل وأروع المخلوقات على وجه الأرض، لك طلعة بهية إذا ما أقبلت، وريشك ملوّن بألوان قوس قزح الساحرة، أما رأسك، فيا له من عرف أحمر قان ذلك الذى يعتليه. أنت قلما يوجد مثيل لك فى عالم الطير أو الحيوان، ثم إنك أول من يصيح وينبّه الناس بحلول الإله رع بنوره الباهر على الكون، أما أنا فأبيض كل يوم بيضة، ثم أرقد على البيض ثلاثة أسابيع بالتمام والكمال وأصبر على هذى الحال حتى تخرج الكتاكيت من تحتى، بعد أن نفحتها رعايتى ودفئى، ورغم كل ذلك يا عزيزى، فنحن ليس لنا نصيب من القداسة والتبجيل، مثلما هو الحال مع الطيور والحيوانات الأخرى الموجودة حولنا، فما رأيك يا بعلى الغالى فى أن نذهب إلى الكاهن الأعظم، فى معبد آمون الكبير، بمدينة طيبة المقدسة، ذات الأبواب السبعة، فنبثه شكوانا طالبين منه أن يمنحنا بعضًا من القداسة، وشيئًا من التبجيل يليقان بكائنات فريدة، معطاءة، متيمزة مثلنا، فيحترمنا الكلّ، ويقيم الناس لنا التماثيل الجميلة فى كل مكان، ويقدمون لنا الأعطيات والقرابين، وهم خاشعون قانتون، مثلما هو الحال مع كل الآلهة الأخرى.

كان الديك شابًا يافعًا فى مقتبل العمر، شديد الزهو بجماله وفتنته التى كثيرًا ما وضعت موضع الاختبار والتطبيق، فاستسلمت له دون قيد أو شرط كل

دجاجات الحظيرة، ويشهد على ذلك الكم الكبير من الكتاكيت التى جاءت إلى الدنيا تحمل لون الريش ذاته، وشكل العرف نفسه اللذين له، لذلك وربما بسبب ما جبلت عليه الديوك من ميل إلى الهيمنة، والتسلط لم يفكر الديك طويلاً، بل رد على الفرخة فى حماس واندفاع وهو يقول:

ـ صدقت والله يا أم الخير، فما تقولينه هو عين الحكمة والعقل، وإن كنت بصراحة لم أفكر فيه من قبل، فالحقيقة أنه لا يوجد من هو أجمل منى فى جنس الطيور، اللهم إلا الطاووس، لكنه لا يسكن أرض كيميت هنا، مثلى، كما أن صوته مزعج، حادّ، يخلو من كل رقة وشاعرية كما هو صوتى، فلا معنى لمنحة القداسة والتبجيل، أما الحيوانات، فيكفى أنها لا تقدر السير إلا على أربع، وقلما يوجد منها من يتحلّى بالأناقة والرشاقة فى المظهر مثلى، أما أنت يا دجاجتى الأثيرة، فأتحدى أى كائن يمكنه القول بأنه أكثر جنانًا وعطاء منك، أو أنه أكثر إحساسًا بالمسئولية منك. معك كل الحق والله، فلنذهب إلى كاهن أمون العظم ونعرض عليه مطلبنا فهذا عين العقل، وعين الحق والعدل.

فى صباح اليوم التالى، وبعد أن صاح الديك منبهًا الجميع إلى ظهور الإله رع، وقامت الدجاجة بواجباتها النوعية، فوضعت بيضة اليوم، خرج الزوجان معًا من الدار، وسارا بكل تؤدة ووقار فى شوارع وحوارى مدينة طيبة المقدّسة، وكانت الدجاجة محقّة فى اقتراحها بالخروج فور طلوع الفجر، إذ كانت المدينة ما تزال هادئة والشوارع خالية من الناس والحجّاج القادمين من كل مكان فى البلاد للحج إلى معبد آمون الكبير، فما أن وصلا المعبد، حتى استأذنا من حراسه للمثول بين يدى الكاهن الأعظم، وبمجرد أن أجيب طلبهما، دخلا إليه فراعهما جلال المكان وعظمته، فلقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يدخل فيها الديك والدجاجة معبدًا، وكان الكاهن المقصود واقفًا بكل هيبة وشموخ بين صفين من الكهنة حليقى الرؤوس، المرتدين أفخر الأثواب الكتّانية شاهقة البياض، وجمعهم صامت لا يصدر عنه إلا صوت الأنفاس ووجيب القلب فى الصدر.

ورغم مشهدهم المهيب، إلا أنهم بدوا أضآل كثيرًا فى عيون الدجاجة والديك من جدران المعبد العالية المنقوشة بأبدع الرسوم والتصاوير، تنهّدت الدجاجة

وهى تتأمّل بانبهار بالغ الفن المصنوع بكل دقة وإتقان، وبدت كالمسحورة تمامًا حتى أنها فغرت منقارها، دون أن تصدر صوتًا، وقد ظلت واقفة دون حراك، بدت كواحد من تماثيل المعبد المنتشرة هنا وهناك بين أعمدته ودهاليزه الكثيرة.

كانت الدجاجة خلال ذلك، تتمنى على الله، أن يلبّى الكاهن الأعظم طلبهما سريعًا ويمنحها مع ديكها الأعز، حق التبجيل والقداسة، فيقوم المصورون برسم صورتها وصورة الديك بألوان جميلة، وأوضاع جليلة، فتأتى هيأتها مرّة وهى راقدة على البيض، ومرّة وهى سائرة بكل وقار وسط الكتاكيت الصغيرة ومرّة وهى تلتقط الحب من الأرض، أما الديك، فقد تصورت الدجاجة أن تظهر صورته بينما هو يمد رقبته صائحًا مرة، أو وهو ناشر جناحيه البعيدين مرة أخرى، وهكذا يبدوان على حوائط المعبد فى كل مكان كما القط، والتمساح، والأسد، والعجل، والبقرة، والكلب، والصقر واللقلق، والجعران، وغير ذلك من الحيوانات، والطيور المقدسة. ظل الديك والدجاجة صامتين لفترة من الوقت رهبة وإجلالاً ـ لكن الديك سرعان ما انتبه إلى ضرورة أن ينطق فيقول شيئًا، لذلك حاول التماسك واسترداد أنفاسه المبهورة ليقول بعد جهد:

ـ أيها الكاهن الكبير فى هذا المكان الطاهر المقدس، يا وسيط، آمون المعظم، أيها القريب من كل الآلهة، يا عالم الأسرار المقدسة، أيها الطائر حليق الرأس والجسد، الذى لا يأتيه الدنس أبدًا، يا خادم رع فى كل حين، أيها المبارك من كل الآلهة، يا حم نتر، يا وعب، يا خرى حب، أيها الكاهن المرتّل، أيها المبجّل من جميع الناس فى طيبة، وفى جميع أرض كيميت المحروسة، يا من تدخل إلى قدس الأقداس وتطّلع على كل الأسرار، ها أنا الديك الطيب المعترف بكل آلهة طيبة، أجىء إليك بكل خشوع، مع دجاجتى المفضلة عندى على كل الدجاجات، أم الخير العميم، والعطاء الذى لا ينقطع إلا بإذن أوزوريس المخلّص، المستقر فى ملكوته العلوى، لنعرض عليك مظلمتنا ونلتمس منك طلبًا ورجاء، فانظر إلينا بعين العطف والودّ واشملنا بحبك ورضاك، بحق آمون، رب الأرباب، ومين مانح الحياة، وإيزيس إلهة السماوات والأرضين، ورع السرمدى فى سماء الأبدية بنوره الباهر المبين لا تقوى عليه ظلمة أو ديجور.

أقول لك يا سيدى الكاهن العظيم إننا نستحق التبجيل والقداسة، ونلتمسهما منك، آملين فى عدلك فأنا أمتثل دون تأخير لأمر الإله رع، فأصيح بمجرد أن ألمح شعاع ضيائه البهى فى الأعالى، وأكرر ذلك منبهًا الجميع حين أجده قد صار فى كبد السماء معلنًا حلول الظهيرة أما عندما يمضى غاربًا ليحلّ المساء، فإننى أودّعه على أمل اللقاء به فى الصباح التالى، وأنا أنشد بكل محبة نشيدى: كوكوكوكوكوكوكوكو.

أما حرمى الفرخة أم الخير فهى لا تتوانى عن مواصلة دورة الحياة، فتبيض دومًا بدأبها المعهود، وترقد على البيض لتخرج الكتاكيت. ولن أذكرك يا سيدى بأننا من ألطف وأرق الكائنات فى هذا العالم، والجميع هنا فى مدينة طيبة وفى كل مكان فى البلاد يحبوننا كثيرًا، ولا يستاء أحد منّا أو يضيق بنا أو يتذمر أبدًا. وأقسم لك يا سيدى أننا لم نرتكب أية معصية تغضب الآلهة فنستحق بسببها أن تحل علينا اللعنة، لذلك فنحن نلتمس منك يا سيدى أن تباركنا وتمنحنا ما يليق بنا من القداسة والتبجيل مثلما هو الحال مع القط بسّ، والتمساح سبك، والبقرة حتحور، والذئب أوبواوت، وطائر اللقلق بنو، والثور الأرمنتى بوخيس، وطائر أبومنجل أبيس، والكبش خنوم، والصقر حوريس، وكل أولئك المقدّسين المبجلين الذين شملتهم بعطفك ورعايتك، فنحن لا نقل عن أى من هؤلاء بأى حال من الأحوال، بل لعلنا أكثر نفعًا، وألطف خلقة، وأرق معشرًا، ورغبتنا فى العيش بسلام واضحة للجميع.

ثم إن الديك وقف مرفوع الرأس بكل ثقة ووقار بعد أن انتهى من كلامه، أما الدجاجة فلم تتمالك نفسها من الفرح والفخر بعزيز عينها وشعرت وكأنها باضت فى القفص لتوها، فكادت أن تصيح فخرًا وقد اكتشفت أن ديكها بليغ، فصيح، قوى الحجة، ساحر البيان، له صوت رائق، واثق، استبان جماله وهو يتردد فى أرجاء المعبد الكبير، لكنها بقيت ساكتة، إذ وجدت أن الوقار والهدوء أليق بها وهى واقفة بين أيدى الحضرة الكهنوتية المهيبة، فى باحة هذا المعبد العظيم.

ظل كاهن طيبة الأعظم ينظر إليهما طويلاً، وهو يفكر دون أن يقول شيئًا، وقد ران على المكان سكون مهيب، وصفًا الكهان منضبطان مطرحهما دون أية حركة أو

همسة، وكأنهم تماثيل عُملت من صوَّان، وربما كان سكون الكاهن الأعظم لأنه راح يفكر فى أن مسألة القداسة والتبجيل من المساءل الجليلة المقدسة، التى يصعب شرحها وإفهامها لدجاجة أو ديك، فهى من المسائل المستعصية إلا على الخواص المنتخبين القادرين على الولوج من برزخ التصوير والتجسيد إلى عالم التخييل والتجريد، فقوّة الآلهة وجبروتها لا يمكن للعوام فهمها إلا بالتجسيد والتمثيل، وما طيور وحيوانات وحشرات البيئة إلا وسيلة لتحقيق الغاية السامية العظيمة، لكى يتفهّم العوام فكرة الدين، ومسألة الألوهية العويصة.

لذلك فإنه لما لم يجد ما يقوله للديك والدجاجة، وهو المتيقن تمامًامن عجزهما عن فهم هذه المسائل النخبوية، قرر أن يوبخهما، فقال لهما بصوت هادئ، متأفف، مستخفً، مستعل، متكبر:

- الحقيقة أنكما يجب أن تخجلا مما تفكران فيه، وسمعته الآن، فالغرور، والطيش، وحبّ الذات، والحماقة، والعجز، وضعف التفكير، وقلة الحيلة، والتدبير، كل ذلك أوحى إليكما بالحضور إلى هذا المعبد المقدس، وقول كل هذه الترهات التى تفوّه بها الديك، فأنتما لا تدركان أن الآلهة يجب أن تكون قوية، جبّارة، مخيفة، صارعة، عنيفة، فتّاكة، مسيطرة، مُهيمنة، مرعبة، مخرّبة، صاعقة، مزلزلة، حارقة، منتقمة عند اللزوم، فالإله بسّ له أنياب وأظافر يمزق بها أعداءه وقت الضرورة، والتمساح سبك يبتلع إذا ما أراد أيًا من الكائنات، حتى وإن كان خارج النهر متسلقيًا على الشاطئ يتمشّى ويروّح عن نفسه قليلاً، أما الذئب أو بواوات، فأنتم يا معشر الفراخ أدرى من أى من الكائنات الأخرى فى هذا العالم به وبشرّه الرهيب، وتعرفون كذلك أن قوّة الثور الأرمنتى بوخيس، تصبح وكأنها قوّة العاصفة الهوجاء إذا ما اجتاحه الغضب، وحينئذ لا يستطيع أحد لجمه أو إيقافه، ولعلكما رأيتما ذلك بأعينكما، ذات مرة. والبقرة حتحور لا تقل عنفًا وجبروتًا عنه، فهى عندما تدوس الحشائش بأقدامها تدمرها تمامًا مهما كانت طوالاً. ولعلكما تدركان جيدًا أن الصقر حوريس يحلق فى أعلى الأعالى، دون أن يدانيه أى طائر آخر فى السمّو والارتفاع، وقد استحق بذلك أن يكون ملك السماوات كلها، وهو مستطيع أن ينظر أعداءه من عليائه بعينه القوية الرهيبة، لينقضّ عليهم ويفتك

بهم فى أية لحظة يريد. ثم هل تظنون أن أبو منجل طائر أبيض طويل السيقان، لطيف المنظر، ينقر الطين فى هدوء ودعة، ويحبه الفلاحون لأنه يساعدهم على تنقية أرضهم من الدود؟ لا .. لا وحق آمون العظيم، فأبو منجل طائر رهيب ـ وإن لم يبد كذلك ـ ولا أحد يستطيع الاقتراب منه والتحرش به مهما كانت قوته وجبروته، حتى لو كان من أقوى السباع والأسود فطعمه مرّ جدًا، يستعصى على الأكل، والغثيان والتقيؤ هما نصيب كل من يتعب نفسه فيكرّ ويفرّ ويناور ويبذل الجهد ويعرق لاصطياده، لأنه ما أن يشرع فى نسر نسيرة واحدة من لحمه، حتى يدرك أن سعيه جاء على فاشوش، وأن نقبه صار على شونة.

ثم إنكما قد خرجتما عن حدود اللياقة والأدب ووقاحتكما زائدة عن الحد، وغروركما هيأ لكما المجىء إلى هنا لتضييع وقتنا دون أن تحضرا معكما ما يلزم المعبد من بيض، ودون أن تفكرا فى تقديم أية عطيّة أو هبة للآلهة المقدسة، بل ووصل بكما الأمر إلى حد طلب القداسة والتبجيل، دون أن تسألا نفسيكما لماذا أمنحكما القداسة والبجيل مثل الحيوانات والطيور المقدسة، وأنتما بلا حول ولا تمتلكان أية قوة كانت، بل أنتما رهن إشارة كل الناس، وأى حيوان مهما كانت قوّته محدودة، يستطيع أن يفتك بكما بكلّ يسر وبساطة، الذئب يستطيع ذلك، والثعلب يمكنه ذلك، والثعبان الزاحف قادر على صرعكما، حتى ابن عرس الذى ما هو إلا نوع من الفئران يمكنه خنقكما ومصّ دمائكما، دون أن تستطيعا منه سبيلاً، ولولا أن الناس يوصدون على حظائر الدجاج الأبواب جيدًا، ويحوطون عليها من كل ناحية، لكان جنسكم قد انقطع من الدنيا منذ زمن طويل، ولم يبق لتدابركم ذكر فيها، أنتما تهرفان وتدوران فى دوائر الفنّ والحماقة، وتظنان أن المسألة إنما هى مسألة قبح وجمال، ورجلين أو أربع، وأصوات حلوة وأصوات منفّرة، لا والله، لقد جانبكما الصواب وزيّن لكما سبت الشرير، وسخمت المحارية ما فعلتماه وسمعته الآن.

كانت الدجاجة أن تسألها تحتها وهى واقفة مطرحها، وقد أخذتها خوف ورعب عظيم بعد سماعها كلمات الكاهن الأعظم، وفكرت أنها ربما تضطر إلى العلاج بالعقار المعروف لفضاء الإسهال، والمكون من ست حبات من فول فيتيفيا،

وبذر ملوخية يضافان إلى أغنس وتصحن وتحلى بالعسل، ثم تأكلها مع نبيذ البلح. أما الديك فقد استشاط غضبًا ولولا قليل من الأدب والحياء، وإدراكه أنه يقف فى حضرة الآلهة بهذا المعبد الكبير، وخوفه المعصية التى سيعاقبه عليها أنوبيس فينهش قلبه فى الآخرة يوم البعث العظيم، لكان هجم بعزم ما فيه على الكاهن الأكبر هذا، ونقره فى كل مكان بجسده، حتى فى عضو الإخصاب المقدّس عنده، ولم يتركه إلا إذا ثاب إلى رشده وقال: «حرّمت خلاص لن أعود إلى مثل هذا الكلام أبدًا». لكن الديك تماسك، وحكّم عقله، وقد أدرك أنه فى موقف صعب لا يحسد عليه، بل وأى تصرّف غير محسوب منه، سوف ينقلب ضده على الفور، لذلك اكتفى بهزّ عرفه وراح يحركه بعصبية وهو يتنحنح ليسلّك صوته من حدّة الغضب والانفعال، ثم قال بأكبر قدر من الهدوء والسكينة يمكن أن يكونا لدى ديك:

ـ يا سيدى الكاهن المبجّل، يا صاحب اللعان العطر، الذى لا يفوح منه إلا كل ما هو جميل طيب، ولا ينطق إلا بالحكمة، يا ذا المنزّه عن الضلال، يا صاحب العبارة الطاهرة المقدسة، أريد أن أقول لك بكل أدب إن الإله سبك لا يقوى على منازلة فرس النهر، والإله بس يفرّ من أمام الأسد كما يفرّ الفأر من أمامه، أما البقرة فهى تنبح فى كل مكان، وكذا الكبش خنوم وإن كان ينطح ويبطش بقرنيه. إن القوة الوحيدة هى القوة الأزلية للإله العظيم رع، الذى هو فوق كل قوة، فهو المنير، الوهّاب، الكريم، الرحيم، الدائم، الجميل، البديع، مانح الدفء.. ومعطى الحياة و.......

ابتسم الكاهن الأعظم ابتسامة صفراء ماكرة، وقاطع الديك بسرعة قائلاً:

ـ إذن، أنت تخفى وتجدّف وتنتقص من قدر الآلهة الأخرى هنا، داخل هذا المعبد المقدس، وفى حضور كل هؤلاء الكهنة المبجلين، ثم تجاهر بالقول إنك لم ترتكب معصية، ولم تفعل إثمًا تستحق عليه اللعنات.

قاطعت الدجاجة بدورها الكاهن بسرعة، وقد شعرت أنه يريد الإيقاع بديكها وإيراده موارد التهلكة، وقالت:

ـ حاشا ربّ الأرباب يا سيدى الكاهن الجليل. إن ديكى يقول ذلك مع كل الاحترام والتبجيل لكل الآلهة الكبار، وآلهة الأقاليم، والآلهة الصغرى فنحن نقدّس الثالوث، والسابوع، والتاسوع، بل والتسعة والتسعين إلهًا كلهم دون أن ننتقص أن نزدرى أيًا منهم.

ثم إنها التقطت أنفاسها قليلاً لتغطّى على انفعالها، وابتسمت وهى تحرّك نفسها بدلال وميوعة قائلة فى غنج:

ـ ثم إننا أجلّنا هبتنا للمعبد حتى المرة القادمة، لنكون قد جمعنا قدرًا عظيمًا من البيض، نحمله إليك يا سيدى، عندما توافينا بردّك على طلبنا هذا، بمشيئة الآلهة كلها قبل أى شىء.

ابتسم الكاهن الأكبر قليلاً، وهو يغمز بعينه للدجاجة، ثم قال:

ـ إذا مرا علىّ بعد أسبوع، لسوف أفكر فى الأمر.

مر أسبوع، وأسابيع، دون أن تتمكن الدجاجة والديك من مقابلة الكاهن الأكبر، فقد ظل مشغولاً لشوشته، خلال تلك المدة، بسبب أحداث جليلة وعصيبة مرت بها البلاد، فلقد توفى فجأة الفرعون زير النساء أمنحتب الثالث وتولى العرش مكانه ابنه الفرعون الشاب أمنحتب الرابع، الذى سرعان ما سمّى نفسه إخناتون، وكانت التسمية فى الحقيقة هى أسّ المصيبة التى دوخت كبير كهنة آمون وحلّت على رأسه فجعلته مشغولاً مهمومًا لا يتذكر شيئًا من أمر الدجاجة والديك، وكأنهما لم يحادثاه أو يقابلاه، وكأنه لم يعدهما بالردّ على مطلبهما والتفكير فيه، فالفرعون الشاب كان أحد الكهنة العديدين الذين شهدوا لقاء الكاهن الكبير مع الدجاجة والديك فى المعبد، واستمعوا إلى ما دار بينهم من كلام، وقد ظل إخناتون منذ ذلك الوقت وحتى بعد وفاة أبيه وتوليه العرش، يفكر فى كل ما قيل من كلام، وبات مقتنعًا أن الديك لم يجانبه الصواب فيما قال، فما من إله مهما كان، إلا وقوته محدودة، نسبية، غير كليّة أبدًا، ما عدا الإله رع، فهو كلى القدرة، مطلق القوة. تكمن فى قرصه الذهبى الباهر الحقيقة الخفية الجلية فى آن معًا، والتى لا مثيل لها على الأرض أو فى السماء، ووفقًا لمنطق الكاهن الأعظم نفسه،

والذى كان إخناتون قد درس على يديه، فى جامعة أون بعين شمس الطب والحكمة والفلسفة والفلك والمنطق، فإن رع هو الإله الحق الجدير وحده بالعبادة، وهو المستحق لكل قداسة وتبجيل، طالما أن القوة هى الأساس فى منهج القياس المنطقى، ورع هو وحده الوهاب، المعطى، الجبّار، القهّار، الذى يجب أن تسبّح بحمده كل الكائنات ولا نشرك بعبادته أحدًا أبدًا.

ثم إن الفرعون الجديد، أخذه الحماس لفكرته كثيرًا، وسرعان ما أخذ يعلنها على الخلق أجمعين، فلما صار له أتباع ومريدون، ومؤمنون بأن لسانه لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا ما هو حق، بدأ فى شن حرب شعواء على كل أولئك الذين قالوا بالتجسيد والتعدد، وصوروا الآلهة على هيئة طيور وحيوانات وحشرات، فأقصى كهنة معبد طيبة جميعًا وعزلهم من وظائفهم، فلم يعودوا يحصلون على هبات أو عطايا، وباتوا لا يتحكّمون فى ممتلكات المعبد من أراض ومخازن للغلال، ولم تعد لهم كل تلك الكنوز الذهبية التى كانت من ثروات المعبد.. وصاروا بشرًا عاديين كسائر خلق الله، وقد سقطت عنهم كل هالاتهم المزيفة المعمولة بالوهم والإيحاء. ومنذ ذلك الوقت تمتعت الدجاجة والديك بطمأنينة وسكينة لم يعهداها من قبل أبدًا، إذ تيقنا أن ثمّة نوعا من العدل فى هذا العالم، فعادا يؤديان دورهما فى الحياة بقناعة ورضا، وقد شعرا أن الحيوانات والطيور الأخرى مثلهما دون قداسة أو تبجيل.

الوحيد الذى عاش بعد ذلك فى الألم والحسرة والندم هو كاهن معبد طيبة الكبير، فقد عاش فى الألم بسبب اعتياده الغنى والهيمنة على الآخرين، وظلت الحسرة تأكل روحه مثلما يأكل أنوبيس قلب المتوفى فى الآخرة، لأنه لم يفكر جيدًا ويزن الأمر بميزان الفطنة، فيمنح القداسة والتبجيل للدجاجة والديك عندما التقياه فى معبد آمون العظيم، وكانت حسرته تتزايد يومًا، كلما تيقن من قصور مفهومه القديم عن القوة، وهو القصور الذى جعله يدفع ثمنًا فادحًا ويخسر خسارة عمره التى لا تعوّض أبدًا، أما الندم فقد ظل نديم شرابه طوال الوقت، وقد أدرك بعد فوات الأوان المغزى العميق للعبارة القديمة القائلة: «الأشياء مرهونة بأوقاتها».

• الفهرس •

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

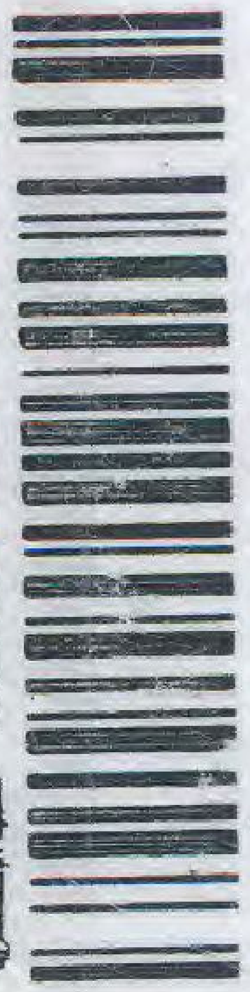
WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg

تتباين عوالم الكتابة القصصية عند سلوى بكر، فتفصح تارة عن هموم النساء الوحيدات اللواتى يواجهن الحياة. بعيدًا عن مظلة المؤسسة الزوجية، ويستبين من خلالها تارة أخرى عوالم القاع الاجتماعى، والتناقضات القيمية المعوقة لحركة المجتمع وسيرورته.

وتتعمد الكاتبة السخرية كوسيلة لفضح التناقضات الاجتماعية، وهو أسلوب قلما اتبعه كتاب القصة القصيرة والرواية وخصوصًا الكاتبات منهم.

والمتتبع للغة الأعمال المقدمة فى هذا الكتاب، سوف يخلص إلى أن الكاتبة تتقصد استخدام فصيح العامية فهى لا تستخدم الفصحى الخالصة ولا العامية الدارجة، بل تنتقى ما هو فصيح ومستخدم يوميًا على ألسنة الناس؛ ليكون أداة للبنية اللغوية، وربما كان ذلك من عوامل أن تكون أعمالها بمثابة السهل الممتنع واليسير العسير فى آن معًا.




ISBN# 9789774205882
6 221149 009936

٧,٥٠ جنيه

الهيئة المصرية العامة للكتاب